خيري حمّاد

تاريخ ألمانيا الهتلريّة

٢

٢

تاريخ ألمانيا الهتلرية

وليام شيرر



نشأة وسقوط الرايخ الثالث

تعريب

خيري حماد

منشورات مكتبة المثنى - بغداد

توزيع دار الكتاب العربي

بيروت - لبنان

THE
RISE AND FALL
OF THE
THIRD REICH

✡ ✡ ✡

A History of NAZI Germany

by

William L. Shirer.

الطبعة الأولى – آب (اغسطس) ١٩٦٢

الطبعة الثانية – حزيران (يونيه) ١٩٦٦

القِسْمُ الثَّانِي

الكِتَابُ الثَّالِث

الطريق إلى الحرب

الكتاب الثالث

الطريق إلى الحرب

٩

الخطوات الأولى

١٩٣٤ - ١٩٣٧

تميزت خطة هتلر واساليبه في السنتين الأولين بالإكثار من التحدث عن السلام ، والاستعداد سراً للحرب ، والسير بحذر شديد في السياسة الخارجية والتسلح السري ، لتجنب أية اجراءات عسكرية وقائية من دول فرساي ضد المانيا .

وقد كبا كبوة سيئة في قضية اغتيال النازيين للمستشار النمسوي دلفوس ، في فيينا في الخامس والعشرين من تموز عام ١٩٣٤ ، اذ اقتحم نحو من مائة واربعة وخمسين جندياً من الفئة التاسعة والثمانين من الحرس النازي ، يرتدون زي الجنود النمسويين ، دار المستشارية الاتحادية النمسوية واطلقوا النار على دلفوس على مسافة قدمين فأصابوه في عنقه . واستولت قوة أخرى من النازيين على دار الاذاعة التي تبعد مسافة قصيرة عن دار المستشارية واذاعوا النبأ القائل بأن دلفوس قد استقال . وتلقى هتلر النبأ وهو يستمع في مهرجان واغنر في بايروت الى اوبرا الموسيقار الكبير « داس راينغولد » Das Rheingold. وأثاره النبأ اثارة شديدة ، وشهدت فريديليند واغنر ، حفيدة الملحن العظيم ، الجالسة في مقصورة الاسرة المجاورة ، علائم التأثر على الفوهرر ، وروت فيما بعد ان المرافقين العسكريين شاوب وبروكنر ، ظلا على اتصال بالهاتف مع فيينا من غرفة ملاصقة لمقصورتها ، يتلقيان الانباء ليهمسا بها في اذن هتلر .

« وعندما انتهى تمثيل الاوبرا ، كان الفوهرر في غاية التأثر ، وقد بلغ هذا التأثر منتهاه عندما نقل إلينا الانباء الفظيعة ... وعلى الرغم من محياه ، الا انه اصدر أمره ، بكل حرص وحذر ، باعداد العشاء في المطعم كالمعتاد ».

وسمعته يقول : « يجب ان امضي لمدة ساعة على الاقل لأظهر نفسي ،مخافة ان يعتقد الناس ان لي ضلعاً فيما حدث » [1] .

ولو ظن الناس هذا الظن ، لما اخطأوا كثيراً . فعلينا ان نذكر انه في الفقرة الأولى من كتابه « كفاحي » ، ذكر بوضوح ان اتحاد النمسا والمانيا « مهمة يجب العمل من اجلها بكل الوسائل التي تتيحها الحياة لنا » . بعد وصوله الى منصب المستشارية ،انتدب احد نواب الرايشستاغ ويدعى«تيودور هابيخت» ، مفوضاً للحزب النازي النمسوي ، كما عهد الى « الفريد فروينفلد » الزعيم النمسوي المبعد تلقائياً الى المانيا،بالاقامة في ميونيخ ،والبث من اذاعتها في كل مساء محرضاً رفاقه في فيينا على قتل دلفوس. وكان النازيون النمسويون في الاشهرالتي سبقت تموز عام ١٩٣٤ ، قد فرضوا ، مستعينين بالاسلحة والمتفجرات التي تلقوها من المانيا ، حكماً من الارهاب في البلاد ... ينسفون السكك الحديدية ومحطات توليد القوة الكهربائية ودور الحكومة ،ويقتلون مؤيدي عهد دلفوس الاكليركي الفاشي . ووافق هتلر اخيراً على تشكيل فرقة نمسوية تعد بضعة آلاف من النازيين ، وترابط على الحدود النمسوية داخل بافاريا ، على اهبة عبور الحدود لاحتلال البلاد في اللحظة المواتية .

وتوفي دلفوس متأثراً من جراحه حوالي الساعة السادسة مساء ، ولكن الانقلاب النازي ، مني بالفشل من جراء تهاون المتآمرين الذين استولوا على دار المستشارية . وسرعان ما تمكنت قوات الحكومة يقودها الدكتور كورت فون شوشنيغ ، من السيطرة على الوضع . واعتقلت الثائرين ، على الرغم من وعدها لهم بالنجاة الى المانيا اثر وساطة الوزير الالماني المفوض ، فقضي على ثلاثة عشر منهم بالاعدام ونفذ فيهم الحكم فعلاً. وكان موسوليني الذي اجتمع اليه هتلر قبل نحو من شهر في البندقية ، واعداً اياه بعدم المساس بالنمسا ، قد اثار شيئاً من

١ – فريديليند واغنر – تراث النار ص ١٠٩

القلق في برلين ، باقدامه على تعبئة اربع فرق عند ممر برينر .

وسرعان ما تراجع هتلر . وصدرت الاوامر بسحب الرواية التي كانت قد اعدت لتتولى وكالة الانباء الالمانية الرسمية (D . N . B) اذاعتها معلنة الابتهاج بسقوط دلفوس ، وبقيام المانيا الكبرى التي كان من المحتوم قيامها ، عند منتصف الليل ، واستعيض عنها برواية اخرى تعرب عن الاسف « لحادث القتل الفظيع » ، وتعلن ان الحادث نمسوي صرف . واقيل هابيخت من منصبه ، واستدعي الوزير الالماني المفوض من برلين ليصرف من الخدمة ، وسارع هتلر بايفاد فون بابن ، الذي نجا نفسه من الموت بأعجوبة قبل نحو من شهر اثناء عملية تطهير روهم ، ليعيد ، كما أمره « العلاقات العادية والودية » مع النمسا .

وحل الخوف في نفس هتلر ، محل احساسه الأول بالحماس والفرح. ويقول بابن ان هتلر هتف به قائلاً عندما اجتمع الرجلان للبحث في الوسائل التي يمكن بها التغلب على الازمة ... « اننا نواجه الآن سيراجيفو ثانية »[1] . ولكن الفوهرر ، وعى درساً من هذه التطورات ، فلقد كانت محاولة الانقلاب الفاشل في فيينا مماثلة في عدم نضوجها لمحاولة الانقلاب الفاشل في حانة الجعة في ميونيخ في عام ١٩٢٣ . فألمانيا لم تكن قد غدت بعد على نحو من القوة العسكرية ، يمكنها من دعم مثل هذه المغامرة بقوة السلاح . وكانت بالاضافة الى هذا معزولة من الناحية الدبلوماتية كل العزلة . فحتى ايطاليا الفاشية قد اشتركت مع بريطانيا وفرنسا في الاصرار على بقاء استقلال النمسا . يضاف الى هذا ان الاتحاد السوفياتي كان قد ابدى اهتماماً لأول مرة في فكرة تدعو الى الاشتراك مع الغرب في عقد ميثاق لوكارنو جديد لشرق اوروبا ، يعمل على تثبيط عزيمة المانيا ومنعها من القيام بأية حركة باتجاه الشرق . ولم يحل خريف ذلك العام أي عام ١٩٣٤ ، حتى كان الاتحاد السوفياتي قد انضم الى عصبة الأمم . وبدت آمال

---

١ - فون بابن - مذكرات - ص ٣٣٨ . المؤلف . والمقصود بسيراجيفو هناك اسم البلدة التي اغتيل فيها ارشيدوق النمسا في عام ١٩١٤ ، والتي كان حادثها الشرارة المباشرة لاشعال نيران الحرب الكونية الاولى . - المعرب -

المانيا في ايقاع الفرقة والخلاف بين الدول الكبرى ، طيلة هذا العام،اكثر مدعاة الى التشاؤم من أي وقت مضى . وكان كل ما في وسع هتلر ان يفعله هو ان يواصل التبشير بالسلام . وان يمضي في تسلحه السري ، منتظراً حدوث الفرص المواتية ومترقباً لها .

وكانت لدى هتلر وسيلة اخرى بالاضافة الى وسيلة الرايشستاغ يستطيع ان يلجأ اليها لنقل دعايته السلمية الى العالم الخارجي، وهي وسيلة الصحافة الاجنبية التي كان مراسلوها ورؤساء تحريرها وناشروها ، يتوقون باستمرار الى عقد مقابلات صحفية معه . وكان هناك وورد برايس (ward price) الصحفي الانكليزي ذو « المونوكل » وصحيفة الديلي ميل اللندنية ، وهما على استعداد لدى أية اشارة ، لتوفير الفرصة التي يريدها الديكتاتور الألماني . وهكذا أعلن هتلر لبرايس في شهر آب عام ١٩٣٤ ، في احدى مقابلاته الصحفية معه والتي قدر لها ان تستمر في سلسلة متلاحقة حتى عشية الحرب الكونية ، وأعلن لقراء برايس عن طريقه ، « ان الحرب لن تقع ثانية »، وان المانيا « اكثر ادراكاً من غيرها لما تسببه الحرب من شرور » ، وان مشاكل المانيا « لا يمكن ان تحل عن طريق الحرب ».[١] وعاد فكرر هذه العواطف المشرقة في الخريف الى جان غوي،احد زعماء منظمات المحاربين القدماء في فرنسا وعضو مجلس النواب ،الذي نقلها الى الشعب الفرنسي في المقال الذي نشره في صحيفة «الماتان» الباريسية [٢].

نقض معاهدة فرساي

وتابع هتلر في غضون ذلك، بحماس غير منقطع،برنامجه لبناء القوات المسلحة وتزويدها بالسلاح. وصدر الأمر للجيش في الأول من تشرين الأول عام ١٩٣٤، بأن يرفع رقم جنوده الى ثلاثة أضعاف أي من مائة الف الى ثلاثمائة الف،وأوعز الى

١ ـ الديلي ميل عدد ٦ آب (اغسطس) ١٩٣٤ .
٢ ـ الماتان عدد ١٨ تشرين الثاني « نوفمبر » ١٩٣٤ .

الفريق لودفيغ بيك، رئيس اركان الحرب في شهر نيسان من العام نفسه ، بأن الفوهرر سيعلن في الأول من نيسان المقبل التجنيد الالزامي، ويجهر، بنقضه للبنود العسكرية في معاهدة فرساي . [1] ولكن الى ان يصدر هذا الاعلان ، فالمطلوب الاحتفاظ به بمنتهى السرية . وصدرت التعليمات لغوبلز بأن لا يسمح مطلقاً للصحف باستعمال عبارة «اركان الحرب» لأن معاهدة فرساي تمنع وجود مثل هذه الهيئة . وأوقف اصدار القائمة السنوية الرسمية ، بأسماء ذوي الرتب العسكرية منذ عام ١٩٣٢ مخافة ان تشي القوائم المتضخمة بأسماء الضباط بحقيقة ما هو واقـــع ، لدوائر المخابرات الاجنبية . وأوعز الفريق فون كايتل ، رئيس اللجنة التنفيذية لمجلس دفاع الرايخ ، الى مساعديه في الثاني والعشرين من ايار (مايو) عام ١٩٣٣ بقوله : « يجب ان لا تفقد أية وثيقة خطية ، مخافة وقوعها في أيدي دعـــاية العدو وانتفاعه منها . فليس ثمة من سبيل لإقامة البرهان على الاوامر الشفوية ، ولكن في الامكان نفيها بسهولة » [2] .

وصدر التحذير للاسطول ايضاً بوجوب لزوم جانب السرية . ودار حديث طويل في حزيران عام ١٩٣٤ بين هتلر والاميرال ريدر الذي دوّن في يومياته عنها مايلي: « تقضي تعليمات الفوهرر بأن لا يذكر أي شيء عن قطع الخمسة والعشرين أو الستة والعشرين الف طن، وان يقتصر الحديث عن التحسين في وحدات العشرة آلاف طن . . . ويطلب الفوهرر اقصى الكتمان في موضوع انشاء الغواصات» [3] .

فلقد شرع الاسطول في بناء طرادين – بارجتين حمولة الواحد منهما ستة وعشرون الف طن أي بزيادة ستة عشر الفاً على الحد الذي نصت عليه معاهدة فرساي ، وقد اطلق عليهما فيما بعد اسم شارنهورست وغنيزناو . وكان بناء الغواصات التي حظرت معاهدة فرساي وجودها ، يتم في عهد الجمهورية الالمانية في كل من فنلندة وهولندة واسبانيا . وكان ريدر قد اختزن في كييل قبل قليل ، هيا كل

---

١ - وولفغانغ فورستر «جنرال يكافح ضد الحرب» ص ٢٢ يستند هذا الكتاب الى اوراق الفريق بيك الخاصة .

٢ - المؤامرة النازية والعدوان (٧) .. ص ٣٣٣

٣ - المؤامرة النازية والعدوان (١) .. ص ٤٣١

اثنتي عشرة غواصة واجزاءها . وعندما قابل هتلر في تشرين الثاني عام ١٩٣٤، طلب اليه السماح بتجميع ست منها « لتكون على اهبة عندما تنشب الازمة في الربع الأول من عام ١٩٣٥ » . (ويبدو واضحاً انه عرف مسبقاً بما يعتزم ان يفعله هتلر في ذلك التاريخ). ولكن الفوهرر رد عليه قائلاً: «بأنه سيبلغه، عندما يتطلب الوضع ، الشروع في عمليات التجميع » [١] .

واشار ريدر الى هتلر في هذا الاجتماع ايضاً ، بأن برنامج بناء السفن الحربية (دون أي ذكر لبلوغ عدد رجال البحرية ثلاثة اضعاف العدد المقرر بمعاهدة الصلح) ، يتطلب اموالاً ليست متوافرة لديه ، ولكن هتلر طمأنه وطلب اليه ان لا يساوره القلق ، وقال : « وفي حالة تطلب الحاجة سأحمل الدكتور لي على ان يضع تحت تصرف الاسطول مبلغاً يتراوح بين مائة وعشرين مليوناً ، ومائة وخمسين مليوناً ، من موازنة جبهة العمل ، وذلك لأن هذا المبلغ يكون نافعاً للعمال ايضاً » [٢] . وهكذا بات واضحاً ان رسوم العمال الألمان ستستخدم في تمويل البرنامج البحري .

واشتغل غورنغ في السنتين الأوليين ايضاً في بناء السلاح الجوي . فقد عهد بوصفه وزيراً للطيران – الطيران المدني في الظاهر – الى المصانع بوضع التصاميم للطائرات الحربية ، وبدأ تدريب الطيارين العسكريين فوراً تحت ستار « عصبة الرياضات الجوية » .

وكان في وسع كل من يقوم بزيارة حوضي الروهر والراين الصناعيين في هذه الآونة ، ان يلحق به الذهول من جراء النشاط الهائل الذي تقوم به مصانع السلاح ، ولا سيما مصانع كروب شيخ صناعة المدافع الألمانية منذ أكثر من ثلاثة ارباع القرن.. ومصانع فاربين، وهو الاحتكار الكبير للصناعة الكيمياوية. وعلى الرغم من ان الحلفاء كانوا قد منعوا كروب بعد عام ١٩١٩ ، من مواصلة العمل في صناعة الاسلحة الا ان الشركة لم تقف مكتوفة الايدي مطلقاً . وقد

١ – المؤامرة النازية والعدوان (٦) .. ص ١٠١٨

٢ – المؤامرة النازية والعدوان (٦) .. ص ١٠١٨

تبجح كروب في عام ١٩٤٢ ، بعد ان احتلت الجيوش الألمانية معظم انحـــاء اوروبا ،« بأن تخطيط المبدأ الأساسي للتسليح ورسم تصاميم الدبابات قد نفذا في عام ١٩٢٦ ، وان معظم المدافع التي استخدمت في حروب ١٩٣٩ ـ ١٩٤١ قد تم اكمالها في ١٩٣٣ » . وكان علماء مؤسسة فاربن قد انقذوا المانيا من كارثـــة مبكرة في الحرب الكونية الأولى باختراعهم طريقة لصنع النترات الصناعيـــة (Synthetic Nitrates) من الهواء، بعد ان توقف تزويد البلاد بالنترات الطبيعية من تشيلي بفعل الحصار البحري البريطاني على المانيـــا . وقد شرع هذا الاحتكار الآن ، وفي ظل هتلر ، يعمل جاهداً لضمان اكتفاء المانيا الذاتي من مادتـــين اساسيتين لايمكن خوض أية حرب عصرية بدونهما وهما الغازولين والمطاط اللتان تحتاج المانيا الى استيرادهما من الخارج . ولقد تمكن علماء الشركة من حل مشكلة صناعة الغازولين الصناعي من الفحم ، منذ اواسط حقبة العشرين .وقد اوعزت الحكومة النازية بعد عام ١٩٣٣ ، الى شركة فاربن بالمضي في طريقها هذه ، وأمرتها بأن تزيد من انتاجها ليصل حدود الثلاثمائة الف طن من الغازولين في عام ١٩٣٧. وكانت الشركة في ذلك الحين قد تمكنت ايضاً من ابتكار المطاط الصناعي مـن الفحم وغيره من المواد المتوافرة في المانيا . وتم انشاء اول مصنع من المصانع الضخمة الاربعة التي تقرر بناؤها في شكوباد لانتاج المطاط الصناعي او مـــا يسمى « بونا » على نطاق واسع . ولم يحل مطلع عام ١٩٣٤ حتى كانت اللجنـة التنفيذية لمجلس دفاع الرايخ قد وافقت على تجنيد نحو من (٢٤٠) الف مصنع لتلقي الطلبات العسكرية . ولم تحل نهاية ذلك العام حتى كان انتاج الاسلحة في مختلف صورها واشكالها قد بلغ حداً من الضخامة بحيث اصبح من الواضح ان ليس في الامكان اخفاؤه عن عيون دول فرساي التي خيم عليها القلق والشك .

وكانت هذه الدول بزعامة بريطانيا العظمى تتغزل في هذه الآونة بفكرة الاعتراف بالتسلح الالماني كأمر واقع ، لاسيما وان هذا التسلح لم يكن سراً بالنسبة اليها كما توهم هتلر . وكانت على استعداد لتقبل التكافؤ مع المانيا في السلاح مقابل انضمام هتلر الى تسوية اوروبية عامة تضم ميثاقاً شرقياً كميثاق لوكارنو يؤمن للدول

الشرقية ، ولا سيما روسيا وبولندة وتشيكوسلوفاكيا،نفس الضمانات التي حصلت عليها الدول الغربية ، بموجب ميثاق لوكارنو ، كما يؤمن لألمانيا في الوقت نفسه ضمانات مماثلة . وقد اقترح السير جون سيمون وزير خارجية بريطانيا في ايار عام ١٩٣٤ ، وهو الذي قدر له ان يكون السابق لنيفل تشمبرلين في عجزه عن فهم عقلية هتلر،ان تمنح المانيا حق المساواة في التسلح ،ولكن الفرنسيين رفضوا الفكرة ، رفضاً باتاً وحازماً .

وعادت الحكومتان البريطانية والفرنسية فجددتا في مستهل شهر شباط عام ١٩٣٥ ، اقتراحاتها بايجاد تسوية اوروبية عامة تنطوي على مساواة في التسلح وعقد ميثاق كميثاق لوكارنو لدول شرق اوروبا . وكان سكان منطقة السار قد اقترعوا قبل نحو من شهر أي في الثالث عشر من كانون الثاني . بشكل يبلغ حد الاجماع اذ جاءت النتائج مبينة ان (٤٧٧) الفاً قد اقترعوا مع عودة بلادهم الصغيرة الغنية بالفحم الى الرايخ مقابل (٤٨) الفاً عارضوا في هذه العودة . واهتبل هتلر هذه الفرصة ليعلن على الملأ ان المانيا لم يعد لها أية مطامع اقليمية في فرنسا ، رامزاً بذلك الى تخلي المانيا عن مطالبتها بالألزاس واللورين . وهكذا قدمت الاقتراحات البريطانية الفرنسية ، بصورة رسمية،في هذا الجو من التفاؤل الذي خلقته عودة السار السلمية الى المانيا وتصريحات هتلر الودية ، الى حكومة الرايخ في مستهل شباط عام ١٩٣٥ .

وكان رد هتلر الذي بعث به في الرابع عشر من شباط ، غامضاً بعض الغموض ، وهذا أمر مفهوم من وجهة نظره . فقد رحب بالمشروع الذي يضمن لألمانيا الحرية في العودة الى التسلح ، ولكنه تهرب من إعلان رغبه المانيا في توقيع اتفاق كاتفاق لوكارنو لشرق اوروبا . فلقد كان مثل هذا الميثاق يقيد يديه في المنطقة الاساسية التي طالما بشر بأنها المجال الحيوي لألمانيا . وتساءل هتلر ، عما اذا لم يكن في وسعه ان يفصل بريطانيا عن فرنسا في هذه القضية، لا سيما وان فرنسا بالنسبة الى مواثيق المساعدة المتبادلة التي عقدتها مع بولندة وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا،اكثر اهتماماً بالسلامة في الشرق .ولا ريب في ان

هتلر ، قد فكر في هذا الاتجاه ، اذ انه في رده الحذر اقترح ان تسبق المحادثات الثنائية أية مباحثات عامة في الموضوع . ودعا بريطانيا الى ايفاد من تريد الى برلين لاجراء محادثات اوّلية . وقبل السيرجون سيمون الدعـــوة ، واتخذت الترتيبات لعقد اجتماع في برلين في السادس من آذار . ولكن قبل يومين من هذا الموعد،اثار كتاب ابيض نشر في بريطانيا ،موجة من السخط في الوطن المشتراسه. ولا ريب في ان الكتاب الابيض هذا قد ترك انطباعاً عنـــد معظم المراقبين الاجانب في برلين ، بأنه يعتبر ملاحظة جدية من جانب بريطانيا على تسلـــح المانيا الخفيّ ،الذي دفعت سرعته الحكومة البريطانية الى اعلان زيادة متواضعة في برامج تسلحها . ولكن الانباء توافرت عن ثورة هتلر العنيفة على هـــذا الكتاب.وسرعان ما نقل نوراث الى سيمون عشية اعتزامه السفر الى برلين أنباء اصابة الفوهرر « بالزكام » مما يقتضي تأجيل المحادثات .

وسواء اصح مرض هتلر او لم يصح؛فان مما لا شك فيه ان الفوهرر قد تعرّض الى زوبعة فكرية . ولا ريب في انه كان سيشعر حتماً بالضيق اذا رأى سيمون وإيدن الى جانبه عند رغبته في تحويل هذه الزوبعة ، الى عمل جريء جسور . وخيل اليه انه عثر على المبرّر لتوجيه الضربة القاضية إلى « إملاءات » فرساي . اذ كانت الحكومة الفرنسية قد سنّت قانوناً يقضي بتمديد فترة الخدمة العسكرية من ثمانية عشر شهراً الى سنتين بسبب النقص في عدد الشبـــان الذين ولدوا في الحرب الكونية الأولى . واطلق هتلر في العاشر من آذار ، منطاداً للتجربة ، ليختبر ما عند الحلفاء من معدن القوة ويجسّ نبضهم . واستدعي وورد برايس ، المتأهب للخدمة دائماً ، لمقابلة غورنغ ، الذي اعلن له رسمياً،ما كان العالم بأسره يعرفه ، من وجود قوة جوية عسكرية عند المانيا . وانتظر هتلر ، وهو مطمئن ، رؤية رد فعل لندن لهذا النقض من جانب واحد لمعاهدة فرســـاي . وجاءت النتيجة كما توقعها،اذ اعلن السيرجون سيمون،في مجلس العموم ،انه لا يزال يرقب الفرصة للذهاب الى برلين .

مفاجأة يوم السبت

وأصدر المستشار يوم السبت في السادس عشر من آذار ، جرياً على عادته في الطلوع بجميع مفاجئاته في أيام السبت ، قانوناً يقضي بفرض الخدمة العسكرية الالزامية العامة ، وينص على وجود جيش دائم في اوقات السلم يضم اثني عشر فيلقاً اي ستاً وثلاثين فرقة قوامها نصف مليون رجل . وعنى هذا القانون نهاية القيود العسكرية لمعاهدة فرساي ، إلا اذا بادرت بريطانيا وفرنسا الى اتخاذ اجراءات معاكسة فورية . ولكن هاتين الدولتين أكتفتا كما توقع هتلر ، بالاحتجاج دون ان تتخذا أي اجراء . وتبياناً للحقيقة ، واقراراً للواقع اقول ان بريطانيا سارعت تسأل هتلر عمّا اذا كان لا يزال على استعداد لاستقبال وزير خارجيتها وهو سؤال رحّب الديكتاتور فرحاً بالاستجابة اليه استجابة ايجابية .

واعتبر يوم الأحد في السابع عشر من آذار ، عيداً عاماً في المانيا احتفل فيه الشعب ، الذي طغت عليه موجة من الفرح ، احتفالاً منقطع النظير ، فلقد مزق الفوهرر قيود فرساي التي ترمز الى هزيمة المانيا واذلالها . ومهما بلغت الكراهية التي يحملها أي الماني لهتلر وحكمه الشبيه بحكم قطاع الطرق من مدى ، فإنه ـ أي هذا الألماني ـ يجد نفسه مرغماً على الاعتراف بأن الفوهرر قد حقق ما لم تكن لتجرؤ على القيام به أية حكومة جمهورية . ورأى معظم الألمان ان هذا العمل قد اعاد للبلاد شرفها وكرامتها . وكان ذلك اليوم ايضاً تاريخ الذكرى السنوية ليوم الابطال(Heldengedenktag) . ومضيت الى الاحتفال الذي اقيم ظهر ذلك اليوم في دار الاوبرا الرسمية ، وشهدت فيه منظراً لم تشهد المانيا مثيلاً له منذ عام ١٩١٤ . فقد امتلأت الصالة الأرضية كلها بحشد من البزّات العسكرية ، التي تجمع بين الملابس الرمادية الباهتة والخوذ المدببة لضباط الجيش الامبراطوري القديم وبين البزات الجديدة للجيش الجديد ، ومعها الملابس الزرقاء التي يرتديها ضباط السلاح الجوي (اللوفتواف Luftwaffe) ، والتي لم يرها الا القليلون جداً قبل ذلك اليوم . وجلس الى جانب الفوهرر ، المشير فون ماكنزن ، آخر

الماريشالات الاحياء من جيش القيصر ، مرتدياً بزهو وكبرياء ، زي فرسان الهوسار . وسطعت اضواء قوية على المسرح ، حيث وقف لفيف من الضباط الشبان ، كالتماثيل الرخامية يرفعون عالياً اعلام الأمة الحربية . وظهر وراءهم على ستارة هائلة ، صليب حديدي ضخم يجمع بين بياض الفضة وسواد الحديد . وكانت الغاية الظاهرة من هذا الاحتفال ، تكريم ابطال المانيا الأموات ، ولكنه تحول الى احتفال مرح بوفاة فرساي ، وبعث الجيش الألماني المجند .

وكان في وسع المرء ان يرى بسهولة ، علائم الفرح مرتسمة على وجوه فرقاء الجيش . فلقد فوجئوا كغيرهم من الألمان بقرار هتلر ، الذي قضى بضعة الايام السابقة الاخيرة ، في ملاذه الجبلي في برختسغادن ، ولم يكلف نفسه عناء ابلاغهم بحقيقة ما انتواه . وقد ذكر الفريق فون مانشتاين في شهادته مؤخراً في نورمبرغ انه مع قائده الجنرال فون ويتزليبين قائد المنطقة العسكرية الثالثة في برلين ، لم يسمعا القرار الا عن طريق الاذاعة في السادس عشر من آذار . ولو كان حق الخيار لأركان الحرب ، لآثروا جيشاً اصغر من الجيش الذي اعلنه هتلر ، في البداية .

ولقد شهد مانشتاين قائلاً : « ولو سئل اركان الحرب ابداء الرأي، لأشاروا بجيش يضم احدى وعشرين فرقة ... أما رقم الفرق الست والثلاثين ، فقد نجم عن قرار هتلر الذاتي » [1] .

وصدرت عن الدول الأخرى في هذه اللحظة سلسلة من اشارات الإنذار الفارغة موجهة الى هتلر . فقد اجتمع ممثلو بريطانيا وفرنسا وايطاليا في ستريزا في الحادي عشر من نيسان، واستنكروا عمل المانيا ، وكرروا تأييدهم لاستقلال النمسا ولميثاق لوكارنو . واعرب مجلس عصبة الأمم المتحدة في جنيف ايضاً، عن استيائه من عمل هتلر العجول المتهور، وانتدب لجنة خاصة تتولى اقتراح الخطوات التي يمكن لها ان تحول بين هتلر وبين عمل مماثل في المستقبل . وادركت فرنسا ان المانيا لن تنضم الى ميثاق شرقي كميثاق لوكارنو . فسارعت الى توقيع ميثاق للعون

---

١ – محاكمات كبار مجرمي الحرب – (٢٠) ص ٦٠٣.

المتبادل مع روسيا ، كما ان هذه عقدت معاهدة مماثلة مع تشيكوسلوفاكيا .

وبدا هذا التجمع في الصفوف ضد المانيا ، في مظهره ، باعثاً على التشاؤم حتى انه ترك اثراً في نفوس عدد من رجال وزارة الخارجية الألمانية والجيش، الا انه لم يؤثر مطلقاً على هتلر . فلقد نجح على أي حال في مقامرته . ولكنه رأى ان ليس من المناسب ان يطمئن الى ما ناله من اكاليل الغار والظفر ، وقرر ان الوقت قد حان ثانية للعودة الى تأكيد حبه للسلام ، وان يختبر ما اذا كانت هذه الوحدة الجديدة بين الدول التي تحالفت ضده، ليست قابلة للتحطيم والانهيار .

وألقى مساء الحادي والعشرين من آذار ، خطاباً جديداً من خطبه الداعية الى السلام [1] في مجلس الرايشستاغ . فكان خطابه هذا ، في رأيي . بعد أن سمعت معظم خطبه اللاحقة ، اكثرها بلاغة وذكاء ، وأكثرها تضليلاً . اذ كان هتلر يبدو في تلك الليلة مرتاح المزاج ، وتدفقت منه روحية لا تنطوي على الثقة فحسب وانما على التسامح والرغبة في المهادنة والتفاهم، وهو ما أذهل سامعيه اشد الذهول . ولم يتفوه في خطابه بأية كلمة تنطوي على التحدي أو الغضب من الدول التي استنكرت تمزيقه للبنود العسكرية في معاهدة فرساي، وانما راح ينطلق مؤكداً ان كل ما ينشده هو السلام والتفاهم المرتكز على العدالة بالنسبة الى الجميع . واعلن انه يرفض فكرة الحرب رفضاً باتاً ، اذ انها سخيفة ، وغير مجدية ، او باعثة على الرعب ، ثم قال :

---

١ - وكان هتلر قد اصدر في ذلك اليوم نفسه قانون الدفاع عن الرايخ ، وهو القانون السري الذي عين الدكتور شاخت بموجبه، كما سبق لنا ان رأينا ، مسؤولاً عن الاقتصاد الحربي والذي تولى تنظيم القوات المسلحة تنظيماً كاملاً . وتحول جيش « الريشوهر » في ايام الجمهورية الى جيش « الفيرماخت » . وتولى هتلر الفوهرر والمستشار ، القيادة العليا للقوات المسلحة (الفيرماخت)، كما تولى بلومبرغ ، وزير الدفاع ، منصب وزير الحربية مع لقب اضافي كقائد عام للقوى المسلحة ، فكان بذلك الوحيد في المانيا الذي تولى مثل هذه الرتبة . واصبح لكل خدمة من الخدمات المسلحة الثلاث قائدها العام وهيئة اركان حربه . واستعيض عن الاسماء التنكرية السابقة بالاسماء الحقيقية الآن . وغدا الفريق بيك يحمل لقب رئيس هيئة اركان الحرب . ولكن هذا اللقب لم يكن يعني الآن ما كان يعنيه في ايام القيصر ، عندما كان رئيس هيئة اركان الحرب ، هو القائد العام الفعلي للجيش الالماني العامل تحت امرة القائد الاعلى .

« ولا تبرر النتائج القومية للاحداث تلك الدماء التي سفكت على تربة القارة الاوروبية طيلة الثلاثمائة عام الاخيرة . فلقد ظلت فرنسا على أي حال هي فرنسا وظلت المانيا هي المانيا وبولندة هي بولندة وايطاليا هي ايطاليا . وما حققته انانية السلالات الملكية ، والعواطف السياسية والتعصب الأعمى للوطنية في شكل تبدلات سياسية واسعة النطاق في الظاهر عن طريق سفك انهار من الدماء، لم يحدث عن طريق المشاعر القومية اكثر من مجرد لمسات خاطفة للقشرة الخارجية للدول ، ولم تتمكن من تغيير طبائع هذه الدول الاساسية تغييراً جوهرياً . ولو اضفت الدول مجرد جزء صغير من هذه التضحيات على اهداف اكثر حكمة ، فان مـا تحققه من نجاح عن طريقها كان سيتفوق حتماً في عظمته وسرمديته » .

وراح هتلر يعلن بعد ذلك ان المانيا لا تفكر مطلقاً بالسيطرة على أي شعب آخر من الشعوب ثم قال :

« وتعتبر نظريتنا العنصرية كل حرب تهدف الى استعباد شعب غريب والسيطرة عليه، إجراء يؤدي إن عاجلاً وإن آجلاً الى تغيّر المنتصر واضعافه داخلياً مما يؤدي في النهاية الى هزيمته ... ولما لم تعد هناك في اوروبا ، ارضاً غير مأهولة أو محتلة ، فان كل نصر .. يمكن أن يؤدي الى زيادة عددية في ارقام سكان تلك البلاد. ولكن اذا كانت الامم تعلق اهمية اكبر على هذه الزيادة العددية فان في وسعها ان تحققها دون حاجة الى ذرف الدموع وبطريقة اكثر بساطة، واقرب الى الطبيعة ، أي باتباع سياسة اجتماعية معقولة تهدف الى زيادة استعداد تلك الأمة لإنجاب الاطفال .

«ولا بد ان تكون المانيا الاشتراكية الوطنية تنشد السلام بسبب معتقداتها الاساسية وهي تنشد السلام ايضاً، لسبب آخر، وهو تحقيق الحقيقة البدهية البسيطة وهي ان أية حرب لا يمكن لها ان تغير بصورة

جوهرية ما تعانيه اوروبا من شقاء ... فالاثر الرئيسي لأي حرب هو تدميرزهرة شباب الأمة التي تخوضها،ان المانيا تريد السلام وهي تنشد السلام ايضاً » ..

ومضى يواصل تكرار هذه النقطة . وتقدم في نهاية خطابه بثلاثـة عشر اقتراحاً محدداً للحفاظ على السلام ، وقد بدت هذه الاقتراحات جذابة الى الحد الذي جعلها تترك انطباعاً عميقاً ومواتياً لا في المانيا وحـــدها بل وفي جميع انحاء اوروبا . وقد قدّم لهذه الاقتراحات بتوطئة هي اشبه بالتذكرة ثم قال :

« لقداعترفت المانيا اعترافاً صادقاً لفرنسا بحدودها التيتقررت بعد استفتاء السار،وضمنت لها هذه الحدود ... وهكذا فقد تخلينا نهائياً عن جميع مطالبنا في الالزاس واللورين اللتين خضنا من اجلها حربين عظيمتين.وعقدت المانيا دون ان تأخذ الماضي بعين الاعتبار، ميثاق عدم اعتداء مع بولندة التي تعتبرها وطناً لشعب عظيم يحس احساساً عميقاً بقوميته .. »

وراح يتحدث عن النمسا فقال :

« ان المانيا لا تنوي مطلقاً ولا ترغب في التدخل في الشؤون الداخلية للنمسا أو في ضمهـــا اليها أو تحقيق الوحـــدة معهـــا (الانشلوس) .. »

وكانت نقـــاط هتلر الثلاث عشرة شاملة كل الشمول . فألمانيا لا تستطيع العودة الى جنيف الا اذا تخلت عصبة الامم عن معاهدة فرساي وطلقتها . فاذا تمّ ذلك ، واعترف لجميع الدول بحقها في التكافؤ والمساواة ، فإن المانيا ستعود الى العصبة . لكن المانيا « ستحترم بلا قيد ولا شرط ،على اي حال، البنود غير العسكرية في معاهدة فرساي بما في ضمنها النصوص الاقليمية ».وستحترم وتنفذ بصورة خاصة جميع الالتزامات الـــتي يفرضها عليها ميثاق لوكارنو . وتعهـد هتلر كذلك بأن تحافظ المانيا على ابقاء منطقة الراين منزوعة السلاح.وعلى الرغم من رغبة المانيا في « جميع الاوقات » ، بالاسهام في نظام للأمن الجماعي ، الا انها

تؤثر الاتفاقات الثنائية ، وهي على استعداد لعقد مواثيق عدم اعتداء مع جميع جاراتها من الدول . وهي على استعداد كذلـــك للموافقة على الاقتراحــــات البريطانية الفرنسية لاستكمال ميثاق لوكارنو باتفاق جوي .

أمـــا بالنسبة الى نزع السلاح ، فلقد كان هتلر مستعداً للمضي الى اقصى الحدود إذ قال :

« ان الحكومة الألمانية على استعداد للموافقة على أي تحديـــد يؤدي الى إلغاء الاسلحة الثقيلة ، ولا سيما ما يصلح منها للعدوان ، كالانواع الثقيلة جـــداً من المدافع والدبابات ... وتعلن المانيـــا استعدادها للموافقة على أية قيود توضع على معايير المدافع أو مقاييس البوارج والطرادات وزوارق الطوربيد .

والحكومة الالمانية على استعداد كذلك للموافقة عـــلى تحديد حمولة الغواصات أو حتى على إلغائها إلغاء كلياً .. »

ولا ريب في ان هتلر قدم في هذه الناحية طعماً خاصاً الى بريطانيا . فهو على استعداد لتحديد اسطول المانيا الجديد بنسبة (٣٥) في المائة من قوات بريطانيا البحرية ، مما يجعل المانيا ، في الوقت نفسه ، متأخرة عن فرنسا في مجموع محمول اسطولها بخمسة عشر في المائة. وقال يرد على ما قد يثار من اعتراضات في الخارج من أن هذه الطلبات هي بداية ما تطلبه المانيا ... « ان هذه الطلبات بالنسبة الى المانيا هي آخر ما تطلبه وتلتزم به » .

ووصل هتلر بعيد الساعة العاشرة من ذلك المساء الى ذروة تدفقه الخطابي ، اذ قال :

« وكل من يوقد مشعل الحرب في اوروبا ، لا يهـــدف إلا الى الفوضى . فنحن على أي حال ، نعيش على اعتقاد ثابت بأن العصر الذي نحيا فيه لن يشهد انحلال الغرب بل بعثه ونهضته . ولا ريب في ان املنا الذي نعتز به ، وعقيدتنا التي لا تتزعزع ، يتركزان في ان تسهم المانيا اسهاماً كبيراً في هذا العمل العظيم » [١] .

---

١ ـ نظامي الجديد . . اعداد روسي دي سال . ص ٣٠٩ ـ ٣٣٣ .

حقاً انها كلمات معسولة تدعو الى السلام وتتدفق بالمنطق والرغبة الى التفاهم . وكان متوقعاً من الديموقراطيات الغربية في اوربا ، حيث يتلهف شعوبها وحكوماتها تلهفاً يائساً على استمرار السلام على أسس معقولة ، او حتى على أية اسس ان تلعق ما فيها من حلاوة المذاق. وراحت «التايمز» اللندنية وهي اكثر الصحف نفوذاً في الجزر البريطانية ، ترحب بهذه الكلمات ترحيباً مصحوباً بالفرح الجنوني .. اذ قالت :

« لقد برهن الخطاب على ما فيه من منطق وصراحة وصدق وشمول. وليس في وسع أي انسان يقرأ هذا الخطاب بتفكير محايد لا متحيز ، ان يشك لحظة واحدة في ان نقاط السياسة التي وضعها الهر هتلر ، يمكن ان تؤلف اساساً معقولاً لتسوية كاملة شاملة مع المانيا ـ المانيا الحرة القوية المتكافئة ، لا المانيا الذليلة الخانعة التي فرض عليها السلام فرضاً قبل ستة عشر عاماً .. وكلنا أمل في ان هذا الخطاب سيعتبر في كل مكان اعلاناً مخلصاً مدروساً يعني كل كلمة جاءت فيه » [1] .

وهكذا قدر لهذه الصحيفة العظيمة التي تعتبر من أضخم أمجاد الصحافة الانكليزية ، ان تلعب ، كما لعبت حكومة تشمبرلين ، دوراً مهماً في سياسة التهدئة البريطانية لهتلر . ولكن مؤلف هذا الكتاب يرى ان عذرها في ذلك أقل تبريراً من عذر الحكومة ، اذ كان لها في شخص مراسلها البرليني نورمان ايبوت، الى الوقت الذي طرد فيه من المانيا في السادس عشر من آب عام ١٩٣٧، مصدراً للاعلام من أعمال هتلر واهدافه ، اكثر استجلاء للحقائق من أي مصدر آخر يتمثل في المراسلين الاجانب الآخرين او حتى الدبلوماتيين بما في ضمنهم الممثلون البريطانيون . وعلى الرغم من ان صحيفته لم تكن تنشر في تلك الايام معظم ما يبعث به اليها من برلين [2] كما كان يشكو لمؤلف هذا الكتاب ، وكما

---

١ ـ نظامي الجديد ... اعداد روسي دي سال ، ص ٣٣٣ ـ ٣٣٤ .

٢ ـ كتب جوفري داوسون رئيس تحرير «التايمز»، في الثالث والعشرين من ايار عام ١٩٣٧، الى إش .جي دانيالز ،مراسله في جنيف والذي كان يعمل في برلين قبل ايبوت يقول : « انني اعمل

ثبتت صحته فيما بعد ، ان محرري «التايمز» كانوا يقرأون ولا ريب جميع رسائله وبرقياته ، وكانوا في وضع يمكنهم تبعاً لذلك من معرفة حقيقة ما كان يدور في المانيا النازية وحقيقة ما في وعود هتلر الضخمة من خواء .

ولم تكن الحكومة البريطانية اقل استعداداً ورغبة من صحيفة « التايمز » في قبول اقتراحات صادرة عن هتلر واعتبارها صادقة « ومدروسة » ، ولا سيما تلك التي اعلن فيها موافقته على ان يكون اسطول المانيا خمسة وثلاثين بالمائة من حجم الاسطول البريطاني .

وكان هتلر قد اومأ ايماءة ماكرة للسير جون سيمون ، عندما قام بوصفه وزيراً للخارجية البريطانية ، يرافقه انتوني ايدن بالزيارة المؤجلة لبرلين في نهاية شهر آذار ، فذكر لهما أن من السهل الوصول الى اتفاق بحري بين الدولتين يضمن لانكلترا تفوقها . أما الآن وفي الواحد والعشرين من ايار ، فقد عرض عرضاً محدداً وعلنياً بأن يكون الاسطول الألماني خمسة وثلاثين بالمائة ليس الا من الاسطول البريطاني ، مضيفاً الى عرضه هذا في خطابه بعض عبارات المجاملة الودودة لانكلترا ، اذ قال : « ليست لألمانيا اية نية أو اية حاجة ، أو حتى اية منافسة بحرية جديدة » ، مشيراً في قوله هذا اشارة فهمتها انكلترا ، الى ايام عام ١٩١٤ ، عندما شرع الاميرال تيربيتز يبني بحماس زائد مدعوماً من القيصر غليوم ، اسطولاً بحرياً لألمانيا ينافس فيه اساطيل بريطانيا في البحار والمحيطات . ومضى هتلر يقول ... « وتعترف الحكومة الألمانية بالأهمية القصوى والبالغة ، وما يتبع ذلك من تبرير ، لبريطانيا في تأمين حماية امبراطوريتها في البحار ... وتعتزم الحكومة الألمانية ، عزماً صادقاً ، اقامة علاقات مع الشعب البريطاني والدولة البريطانية تحول دائماً دون تكرر الصراع الوحيد الذي وقع في التاريخ بين الأمتين ، كما تؤكد عزمها على الاحتفاظ بها » . وكان هتلر

جاهداً نهاري وليلي ، لأمنع من النشر اي شيء قد يؤذي مشاعرهم (الألمان). وليس في وسعي ان اذكر اننا نشرنا شيئاً منذ عدة اشهر ، يمكن لهم اتهامه بأنه تعليق غير منصف» - من كتاب «جوفري داوسون وتايمزنا » ... لمؤلفه جون ايفلين رينش .

قد اعرب عن مثل هذه العواطف تجاه انكلترا في كتابه «كفاحي» ،حيث اكد ان من اعظم اخطاء القيصر ، وقوفه موقف العداء من انكلترا ، ومحـــاولته السخيفة منافستها في السيطرة البحرية .

وهكذا سقطت الحكومة البريطانية بمنتهى السذاجة والسرعة فريســة «الطعم» الذي قدمه هتلر اليها . ودعي ريبنتروب الذي غدا الآن رسول هتلر في مهامه الخارجية ، لزيارة لندن في شهر حزيران لإجراء محادثات بحرية. وراح يخالف اصول التهذيب الدبلوماتي ، ويعلن للانكليز بمنتهى الغرور ، ان عرض هتلر لا يقبل التفاوض وان عليهم امـا قبول هذا العرض أو رفضه . وقبـله البريطانيون ، ومضوا دون استشارة حلفائهم في جبهة ستريزا ، واعني بهـم الفرنسيين والايطاليين وهم ايضاً يمثلون دولتين كبيرتين يهمهما كل الأهمية تسلح المانيا ونقضها للبنود العسكرية في معاهدة فرساي ، ودون ابلاغ عصبة الأمم ايضاً،مع ان المفروض فيها ان تكون مسؤولة عن احترام معاهدات الصلح التي عقدت في عام ١٩١٩ ، راحوا ينتهزون ما خيل اليهم بأنه نفع ذاتي فيزيلون من الوجود ، القيود البحرية التي فرضتها فرساي على المانيا .

وكان من الواضح لأكثر العقول سذاجة في برلين،ان حكومة لندن بموافقتها على السماح لألمانيا ببناء اسطول يبلغ في ضخامته ثلث الاسطول البريطاني، كانت تطلق العنان لهتلر لبناء اسطول في أقصى سرعة عملية ممكنة ، تحمّل احواض سفنه ومصانع فولاذه ، جهد طاقتها مدة عشر سنوات على الأقل . وهكذا لم يكن الاتفاق تحديداً لتسلح هتلر ، وانما تشجيعاً له على توسعه في السلاح البحري في اسرع مجال ممكن تستطيع الوسائل المتوافرة لديه تأمينه له .

واضافت الحكومة البريطانية ، تحقيقاً منها لوعد قطعته على نفسها لهتلر ، الاهانة لفرنسا على ما ألحقته بها من ضرر نتيجة توقيعها الاتفاق الجديدمع المانيا، فرفضت ان تبلغ اقرب حلفائها اليها ، اي شيء عن نوع البواخر التي وافقت بريطانيا على السماح لألمانيا ببنائها أو عن عددها ، واكتفت بأن تقول لها ،ان حمولة الغواصات الألمانية ـ وكانت معاهدة فرساي قد حرمت عليها تحريمـاً

خاصاً بناء اية غواصات ـ ستكون معادلة لستين في المائة من حمولة الغواصات البريطانية ، وان هذا الرقم قد يرتفع الى المـائة في المائــة اذا نشأت ظروف استثنائية طارئة . [1] ولكن الاتفاق الانكليزي ـ الالماني سمح للالمـان في الحقيقة ببناء خمس بوارج ، حمولتها وتسليحهـا اعظم من حمولة او تسليح اية بارجة بريطانية عائمة ،على الرغم ان الرقم الرسمي كان زائفاً،للتمويه على لندن، وواحد وعشرين طراداً واربع وستين مدمرة . ولم تستطع المـانيا استكمال بناء جميع هذه القطع قبل نشوب الحرب ، ولكنها بنت منها على أي حـال ، ومن الغواصات ما كان كافياً لإلحاق اكثر الخسائر فجيعة ببريطانيا في السنوات الأولى من الحرب الكونية الثانية .

واعتبر موسوليني بخديعة «البيون» perhidy of Albion [2] ، وادرك انفي وسع اثنين ان يلعبا لعبة الترضية لهتلر،يضاف الى هذا ان موقف انكلترا الكلبي (نسبة الى الفلسفة الكلبية القائمة على التشكك) ، من تجاهل معاهـدة فرساي قد شجعه على الاعتقاد بأن لندن لن تحمل على محمل الجد ، أي عمـل ينقض ميثاق العصبة ايضاً . وهكذا شرعت جيوشه في الثالث من تشرين الأول عام ١٩٣٥، متحدية ميثاق العصبة،في غزو مملكة الحبشة الجبلية العريقة.واقترعت العصبة مدفوعة من بريطانيا العظمى ، مع تأييد يفتقر الى الحماس من جانب فرنسا التي اعتبرت المانيـا ، هي الخطر الأعظم في المدى الأبعد ، على ايقـاع العقوبات على ايطاليا . لكن هذه العقوبات كانت جزئية ليس إلا ،ولم تطبق الا بشكل ينطوي على الاستخذاء والضعف ، مما جعلها عاجزة عن الحيـلولة بين موسوليني وبين احتلال الحبشة ؛ ولكنها لم تعجز عن تحطيم الصداقة بين ايطاليا الفاشية وبين بريطانيا وفرنسا وعن انهاء جبهة ستريزا المقاومة لألمانيا النازية .

ترى من الكاسب اكثر من غيره من هذه السلسلة المتلاحقة من الاحداث إن لم يكن ادولف هتلر ؟ لقد قضيت اليوم الرابع من تشرين الأول أي بعد يوم

---

١ ـ بيرتيناكس ـ « الذين حفروا قبر فرنسا » ـ ص ٣٨١ .

٢ ـ اسم قديم يطلق على بريطانيا ولا يزال يستعمل في الشعر احياناً . ـ المعرب ـ

واحد من بدء الغزو الايطالي في الوهلمشتراسة ، متحدثاً الى عدد من قادة الحزب وموظفي الحكومة. وقد سجلت في يوميتي لذلك المساء، ملاحظة لخصت فيها السرعه العظيمة التي تفهم فيها الألمان حقيقة الوضع منتهزين ما اتاحه لهم من فرصة وقلت :

« ان موجة من السرور تعم الوهلمشتراسة . فهناك احتمالان يقول أولهما ان موسوليني قد يتعثر في زحفه ، فيتورط ورطة شديدة في افريقيا تضعفه في اوروبا وتجعله عاجزاً عن مقاومة هتلر في اغتصاب النمسا التي كان الدوتشي يتولى حمايتها حتى الآن ، أو انه سينتصر ، وهذا هو الاحتمال الثاني ، متحدياً بريطانيا وفرنسا ، ويغدو بذلك ناضجاً لتوثيق علاقاته مع هتلر ضد الديموقراطيين الغربيين . ان هتلر هو الكاسب في الحالتين »[1] .

وسرعان ما ثبتت صحة هذا القول .

لعبة حوض الراين

وقد ذكر هتلر في خطاب « السلام » الذي ألقاه في الرايشستاغ في الواحد والعشرين من أيار عام ١٩٣٥ ، والذي ترك انطباعات طيبة ، كما رأينا ، في العالم بأسره ، ولا سيما في بريطانيا العظمى ، ان هناك « عنصراً من اللاأمنية المشروعة » قد طرأ على ميثاق لوكارنو ، نتيجة ميثاق العون المتبادل الذي تمّ التوقيع عليه في باريس بين روسيا وفرنسا في الثاني من آذار وفي موسكو في الرابع عشر من آذار والذي لم يبرمه البرلمان الفرنسي حتى نهاية العام . وقد لفتت وزارة الخارجية

---

١ - كتاب « يوميات برلين » للمؤلف ، ص ٤٣ .

الألمانية انتباه باريس الى هذا « العنصر » في مذكرة رسمية وجهتها الى الحكومة الفرنسية .

واجتمع السفير الفرنسي فرانسوا بونسيه في الواحد والعشرين من تشرين الثاني الى هتلر ، حيث ألقى الفوهرر على مسامعه خطاباً طويلاً هاجم فيه الميثاق الفرنسي – السوفياتي . وبعث فرانسوا بونسيه الى باريس يعرب عن اقتناعه بأن هتلر يعتزم استخدام الميثاق مبرراً لاحتلال المنطقة المنزوعة السلاح في حوض الراين . واضاف ان « تردد هتلر الوحيد ناجم عن عنايته باختيار اللحظة المناسبة للعمل » [1] .

ولعل فرانسوا بونسيه هو اكثر السفراء معلومات عن برلين . وكان يعرف ما يقوله تمام المعرفة ، لكنه على أي حال ، لم يكن عارفاً ولا شك بأن الفريق فون بلومبرغ ، كان قد أصدر في الربيع الماضي وفي اليوم الثاني من أيار بالذات ، أي قبل تأكيدات هتلر في الرايشستاغ ، بأنه سيحترم ميثاق لوكارنو والبنود الاقليمية في معاهدة فرساي ، بتسعة عشر يوماً ، أول توجيه الى القوات المسلحة الثلاث لإعداد الخطط العسكرية اللازمة لإعادة احتلال المنطقة المنزوعة السلاح على الراين . وقد تقرر أن يطلق على العملية اسم « شولونغ » الرمزي ، وان « تنفذ في ضربة مباغتة وفي سرعة البرق » ، وان توضع خططها في منتهى التكتم والسرية ، بحيث لا يعلم بها « إلا اقل عدد ممكن من الضباط » ولعل بلومبرغ رغبة منه في المغالاة في سرية الموضوع ، قد كتب ذلك الأمر بخط يده [2] .

وجرت مناقشات اخرى في السادس عشر من حزيران تناولت الحركة المقبلة باتجاه منطقة الراين وذلك في الاجتماع العاشر للجنة التنفيذية لمجلس دفاع الرايخ ، حيث قدم عقيد يدعى الفريد يودل ، كان قد تولى من قبل رئاسة دائرة الدفاع الداخلي ، تقريراً عن الخطط العسكرية

---

١ – فرانسوا بونسيه – سنوات القدر – ص ١٨٨ – ١٨٩ .

٢ – المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٩٥١ – ٩٥٢ .

وأكد الحاجة القصوى للمغالاة في السرية . واضاف يحذر المجتمعين من كتابة أي شيء خطي عن الموضوع الا اذا تطلبت الضرورة القصوى ذلك ، وأضاف ان أية ورقة حول هذا الموضوع يجب أن تظل مخبوءة في الخزائن الحديدية السرية [1] .

وقضى هتلر اشهر شتاء عام ١٩٣٥ – ١٩٣٦ ، وهو على أحر من الجمر . ولم يستطع الا ان يلاحظ حقيقة واحدة وهي ان بريطانيا وفرنسا مشغولتان بمحاولة وقف ايطاليا عن عدوانها في الحبشة . ولكن موسوليني ، كان يبدو ناجحاً في مشروعه ماضياً فيه . وكانت عصبة الامم على الرغم من عقوباتها التي طبلت لها وزمّرت كثيراً ، تبدو عاجزة عن موقف أي معتد مصمم على المضي في سبيله. ولم تبد على البرلمان الفرنسي اية رغبة في استعجال ابرام الميثاق مع الاتحاد السوفياتي،فلقد كان الشعورمتزايداً لدى جماعات اليمينيين بمعارضة هذا الميثاق. ولقد خيل لهتلر على ما يبدو ، ان ثمة فرصة طيبة في ان ترفض الجمعية الوطنية الفرنسية ، أو مجلس الشيوخ التحالف مع موسكو ، وكان عليه في مثل هذه الحالة ان يبحث عن مبرر آخر لعملية شولونغ . ولكن الميثاق عرض على الجمعية الوطنية في الحادي عشر من شباط ، فصدّقه في السابع والعشرين منه باكثرية (٣٥٣) مقابل (١٦٤) . وتوصل هتلر الى قراره بعد يومين أي في اليوم الأول من آذار،على الرغم من ذعرالقادة العسكريين الذين كان معظمهم على ثقة بأن الفرنسيين ، سيطحنون القوات الألمانية الضئيلة التي حشدت للتحرك على منطقة الراين طحناً . ومع ذلك فقد أصدر بلومبرغ في اليوم التالي ، أي الثاني من آذار عام ١٩٣٦ ،أوامره اطاعة لتعليمات سيده، باحتلال منطقة الراين وقال موجهاً كلامه الى كبار القادة العسكريين للقوات المسلحة ، بأن الحركة يجب ان تكون «مباغتة وخاطفة » . وقد توقع بلومبرغ ان تكون العملية « سلمية » لا حرب فيها،أما اذا تحولت الى حرب ، أي قرر الفرنسيون القتال للحيلولة دون تحقيقها ، فقد احتفظ القائد العام لنفسه « بالحق في اتخاذ القرار بشأن أية

---

١ – المؤامرة النازية والعدوان (٧) ص ٤٥٤ – ٤٥٥ .

اجراءات عسكرية مضادة »[1] . وقد عرف بعد ستة ايام فقط ، وهو مـــا تأكدفي اقوال القادة العسكريين في محاكمات نورمبرغ،ان الاجراءات العسكرية المضادة التي كان بلومبرغ يفكر فيها ،لم تكن في الحقيقة إلا إصدار الأمر للقوات بالتراجع بسرعة الى ما وراء الراين !

ولكن الفرنسيين الذين كانت المنازعات الداخلية قد شلـّت قواهم وكانت روح الانهزامية قد سيطرت عليهم ، لم يعرفوا هذه الحقيقة عندما مرت قوات رمزية من الجيش الألماني،مستعرضة فوق جسور نهر الراين فجر السابع من آذار، وعابرة الى المنطقة المنزوعة السلاح [2].واستدعى نوراث وزير الخارجيةالمطواع في الساعة العاشرة صباحاً سفراء فرنسا وبريطانيا وايطاليا ، وأبلغهم الانبـاء الواردة من منطقةالراين وسلم اليهم مذكرةرسمية تعلن الغاء ميثاق لوكارنو الذي كان هتلر قد نقضه قبل قليل ، ومقترحة خطة جديدة للسلام ! وكتب فرانسوا بونسيه ملاحظاً « انـ هتلر يصفع خصمه في وجهه وفي نفس الوقت يعلن اليه قائلاً ... ها انني اقدم اليك اقتراحات للسلام ! »[3] .

وبالفعل فقد وقف الفوهرر بعد ساعتين على منبر الرايشستاغ أمـــام حشد سيطر عليه الحماس المحموم ، متدفقاً بالاعلان عن رغبته في السلام، وعن آخر ما ابتكره من آراء للحفاظ عليه.ومضيت الى دار اوبرا « كرول » لأشهد المنظر الذي لن انساه ما حييت ، اذ كان يجمع بـــين الروعة والهول . وبعد خطاب طويل تحدث فيه عن شرور فرساي وخطر البلشفية ، اعلن هتلر بمنتهى الهدوء ان الميثاق الذي عقدته فرنسا مع روسيا قد ترك معاهدة لوكارنو، ولا قيمة لها،

---

١ - المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٩٧٤ - ٩٧٦ .

٢ - ذكر يودل في شهادتهفينورمبرغ ان ثلاثة افواج فقط عبرت نهر الراين متجهة الى آخن وترير ، وساربروكن وان فرقة واحدة فقط استخدمت في احتلال المنطقة كلها . أما تقديرات مخابرات الحلفاء فكانت اكثر من هذا اذ قدرتها بثلاث فرق تقريباً او «٣٥» الف جنـدي . وقد علق هتلر عـلى ذلك فـيما بعد قائـلاً : في الحقيقة لم يكن لدي الا ثلاثـة ألوية » . (محـادثات هتلر السرية ـــ ص ٢١١ - ٢١٢) .

٣ - فرانسوا بونسيه- سنوات القدر ، ص١٩٣.

مع العلم بأن المانيا قد وقعتها خلافاً لمعاهدة فرساي بمنتهى الحرية والرغبة . وقد دونت في يومياتي تلك الليلة المنظر الذي تلا ذلك فقلت :

«قال هتلر ان المانيا لم تعد تشعر بأن معاهدة لوكارنو تربطها أو تقيـدها . ولقد قررت الحكومة الالمانية حفاظاً على حقوق شعبها الدولية في ضمان سلامة حدوده ، وتأمين وسائل الدفاع عنه ان توطد منذ اليوم سيادتها المطلقة وغـير المقيدة عن المنطقة المنزوعة السلاح في الرايخ » !

وسرعان ما قفز ستمائة نائب ، كلهم من الذين عينهم هتلر شخصياً ، ومن الرجال الذين يحملون اجساماً كبيرة ، ورقابـــاً منتفخة وشعوراً مجزوزة ، وكروشاً ضخمة ، ويرتدون بزات بنية واحذية ثقيلة .. على اقدامهم كالآلات الذاتية الحركة ، يمدون اذرعهم اليمنى بالتحية النازيـــة ، ويصرخون بصوت واحد ... هايل ! هايل . ويرفع هتلر يده مشيراً اليهم بالصمت ، ثم يقـــول بصوت عميق رنان .. « يا رجال الرايشستاغ الالماني ! » . . ويعـــم الصمت مسيطراً على المكان . « في هذه الساعة التاريخية ، الساعة التي تعبر فيها القوات الألمانية مقاطعات الرايخ الغربية متجهة الى مقراتها المقبلة كحاميات سلمية ، نقف جميعنا متحدين وراء قسمين مقدسين » . ويتوقف عن الحديث . اذ يجد نفسه مضطراً للتوقف ، فلقد كان دخول القوات الالمانية الى منطقة الراين بمثابة انباء جديدة الى هذا الحشد البرلماني من الرعاع . وتقفز النزعات العسكريـــة التي تجري في دمائهم الالمانية الى رؤوسهم ، ويبدأون في القفز صارخين هاتفين.. وقد ارتفعت رؤوسهم في تحية كتحية العبيد ،وبانت في وجوههم دلائل الجنون واتسعت اشداقهم ذاهلة معبرة، يصرخون ويصرخون، وقد اتقد لهيب التعصب في عيونهم ، يتطلعون الى الههم الجديد، المسيح الموعود . ويؤدي هذا المسيـــح الموعود دوره بروعة تمثيلية . فيحني رأسه وكأنه التواضـــع مجسداً ، ويقف صابراً ، منتظراً منهم الصمت . وينطلق صوته خفيضاً ، تخنقه العواطف ، يردد القسمين التاليين :

« نقسم اولاً أن لا نخضع الى ايـــة قوة مهما كانت في محاولتنا

استعادة شرف شعبنا .. ونقسم ثانياً، بأننا اليوم اكثر من أي وقت مضى، سنجاهد للوصول الى تفاهم بين الشعوب الأوروبية، ولا سيما مع جيراننا من الدول الغربية ... ليست لنا اية مطامع اقليمية في اوروبا ... ان المانيا لن تنقض السلام قط !

« وانقضى وقت طويل قبل ان يتوقف الهتاف... وتمكن عدد من القادة العسكريين من شق طريقهم الى الخارج . ووراء بسماتهم كان في وسعك ان ترى احساساً من التوتر العصبي . ووجدت امامي الفريق فون بلومبرغ .. كان وجهه ابيض شاحباً وكانت وجنتاه تختلجان »[1].

وكان له عذر في ذلك . فوزير الدفاع الذي اصدر قبل خمسة ايام بخط يده امره بالزحف على حوض الراين بدأ يفقد اعصابه . وعرفت في اليوم التالي انه كان قد اصدر أوامره الى جنوده بالانسحاب عبر الراين في حالة قيام الفرنسيين بأية حركة لمقاومتهم . ولكن الفرنسيين لم يقوموا بأية حركة ابداً . ويقول فرانسوا بونسيه ، انه بعد التحذير الذي بعث به في تشرين الثاني الماضي ،راحت القيادة العليا الفرنسية تسأل الحكومة عما ستفعله في حالة قيام الدليل على صحة قول السفير . وكان رد الحكومة كما قال ، انها ستثير القضية في عصبة الأمم [2]. ولكن عندما ضرب هتلر ضربته، كانت الحكومة الفرنسية هي التي ترددت[3]. ويقول فرانسوا بونسيه ان « الفريق غاملان ، ارتأى ان أية عملية حربية مهما كانت محدودة تنطوي على اخطار لا يعلم إلا الله مداها ، وليس في الوسع القيام بها إلا بعد اصدار القرار بالتعبئة العامة »[4] . وكان اقصى ما استطاع الفريق غاملان ، رئيس اركان الحرب ان يعمله ، وهو ما عمله فعلاً ، ان يحشد ثلاثة

١ – يوميات برلين ـ المؤلف ص ٥١ – ٥٤

٢ – فرانسوا بونسيه ـ سنوات القدر ، ص ١٩٠

٣ – على الرغم من تحذير فرانسوا بونسيه في الخريف الفائت ، فقد جاء عمل المانيا كما يبدو مفاجأة تامة للحكومتين الفرنسية والبريطانية واركان حربها .

٤ – فرانسوا بونسيه – سنوات القدر ، ص ١٩٤ – ١٩٥

عشرة فرقة على مقربة من الحدود الألمانيـة على شكل تعزيز لخط ماجينو . وكانت هذه الحركة ، على الرغم من تفاهتها، كافية لبعث الرعب في القيادة العليا الألمانية . وأراد بلومبرغ يؤيده يودل ، ومعظم كبار الضباط ، أن يأمر بسحب الافواج الثلاثة التي عبرت الراين . وشهد يودل في نورمبرغ قائلاً : « وعلى ضوء الاوضاع التي كنا فيها ، كان في وسع جيش التغطية الفرنسي ، ان يمزقنـــا شذر مذر [1] » .

أجل كان في وسعه ان يفعل ذلك ، ولو فعله ، لكانت في ذلك نهاية هتلر ، ولاتجه التاريخ بعد ذلك اتجاهاً مغايراً وأكثر اشراقاً من الاتجـاه الذي اتخذه بالفعل ، اذ ان من المؤكد ان الديكتاتور ما كان في وسعه ان يظل بعد هـذه المهزلة . وقد اعترف هتلر نفسه بهذه الحقيقة وقال فيما بعد : « كان التراجع من جانبنا يعني انهيارنا الكلي » [2] . ولقد كانت اعصاب هتلر الفولاذية وحدها هي التي انقذت الوضع الآن كما انقذته في عدة ازمات لاحقة ، اذ اذهلت القادة العسكريين المترددين وجاءتهم بالنصر، ولكنه ليس بالنصر الهين على أي حال.

وقد سمعه بول شميدت ترجمانه الخـاص يقول فيما بعد ... « لقد كانت الساعات الثماني والاربعون الأولى التي تلت الزحف على حوض الراين ، اكثر الساعات تحطيماً للاعصاب في حياتي كلها . ولو زحف الفرنسيون على المنطقة ، لكنا مرغمين على الانسحاب نجر ذيول الفشل، وذلك لأن الموارد العسكرية التي كانت تحت تصرفنا آنذاك ، لم تكن كافية مطلقـاً حتى لبذل مقـاومة معتدلة» [3].

وكان الفوهرر على ثقة من ان الفرنسيين لن يزحفوا ، ولذا فقد رفض رفضاً قاطعاً كل الاقتراحات التي قدمتها القيادة العليا المترددة بالانسحاب . وأراد بيك ، رئيس اركان الحرب ، من الفوهرر ،ان يلطف الضربة على الاقل بالاعلان عن انه لن يقوم بتحصين المنطقة الواقعـة الى الغرب من الراين ، وهو اقتراح ،

١ ـ محاكمات كبار مجرمي الحرب (١٥) ص ٣٥٢ .

٢ ـ محادثات هتلر السرية ، ص ٢١١ ـ ٢١٢ .

٣ ـ بول شميدت ـ ترجمان هتلر . ص ٤١ .

شهد يودل فيما بعد ، ان الفوهرر قد رفضه رفضاً حاسماً، لأسباب واضحة ستبدو لنا بعد قليل [١] . ولقد ذكر هتلر فيما بعد للفريق فون رونشتادت ان اقتراح بلومبرغ بالانسحاب لم يكن اكثر من مجرد عمل من اعمال الجبن [٢] .

وهتف هتلر بجمع من اخوانه في مقر قيادته ، مساء السابع والعشرين من اذار عام ١٩٤٢ ، وهو يستذكر لعبة الراين ... « ترى ماذا كان سيحدث ، لو كان انسان غيري يتولى قيادة الرايخ آنذاك ! إن اي انسان آخر ، قد تذكرونه ، ما كان ليقوى بأعصابه على احتمال ذلك الوضع الدقيق . ووجدت نفسي مرغماً على الكذب ، ولا ريب في ان الفضل في انقاذنا يعود الى تصلبي الذي لم يهن وإلى جرأتي التي لا حد لها » [٣] .

ولقد كان هتلر صادقاً في قوله هذا . ولكن علينا ان نسجل انه لم يلق العون من تردد الفرنسيين فحسب بل ومن تراخي حلفائهم البريطانيين ايضاً . وطار وزير خارجية فرنسا ، بيير إتيان فلاندان الى لندن في الحادي عشر من آذار ، وتوسل الى الحكومة البريطانية ان تدعم فرنسا في اجراء عسكري مقابل تقوم به في منطقة الراين ، ولكن توسلاته ذهبت ادراج الرياح . فبريطانيا لا تريد المجازفة بالحرب حتى ولو كان تفوق الحلفاء على الألمان طاغياً . وقال اللورد لوثيان معلقاً ... « على كل حال ، لقد دخل الالمان الى حديقة بيتهم الخلفية ليس إلا » . وكان انتوني ايدن الذي غدا وزيراً للخارجية في كانون الأول الماضي قد اعلن في مجلس العموم ، حتى قبل وصول الوزير الفرنسي ، أي في التاسع من آذار بقوله : « ان احتلال الجيش الألماني لمنطقة الراين يعتبر ضربة شديدة لمبدأ قداسة المعاهدات » . ومضى يقول .. « ومن حسن حظنا ان ليس ثمة ما يدعونا الى الافتراض بأن عمل المانيا الحالي ينذر بقيام حركات حربية» [٤] .

ومع ذلك فقد كان من حق فرنسا ، بموجب نصوص معاهدة لوكارنو ، ان

١ – محاكمات كبار مجرمي الحرب (١٥) ص ٣٥٢

٢ – محاكمات كبار مجرمي الحرب (٢١) ص ٢٢

٣ – محادثات هتلر السرية . ص ٢١١

٤ – مقتبس من كتاب فرانسوا بونسيه – سنوات القدر ص ١٩٦

تتخذاجراءات عسكرية ضد وجود القوات الألمانية في المنطقة المنزوعة السلاح . وكانت بريطانيا تجد نفسها في مثل هذه الحالة مرغمة بموجب المعاهدة ايضاً على دعمها بقواتها المسلحة . ولكن محادثات لندن القصيرة جاءت بمثابة تأكيد لهتلر ، بأنه قد نجح في مغامرته .

ولم يكتف البريطانيون باظهار نفورهم من خطر الحرب ، وإنما حملوا ايضاً القسط الاخير من اقتراحـــات هتلر السلمية محمل الجد . فلقد عرض هتلر في المذكرات التي سلمت الى السفراء الثلاثة في السابع من آذار ، وفي خطابه الذي ألقاه في الرايشستاغ ، توقيع ميثاق عدم اعتداء لمدة خمسة وعشرين عاماً مع بلجيكا وفرنسا ، على ان تتولى بريطانيا وايطاليا ضمانته ، وان يعقد مواثيق مماثلة مع جيران المانيا الى الشرق ، وأن يوافق على نزع السلاح من جانبي الحدود الفرنسية – الألمانية ، وأن يعود اخيراً الى حظيرة عصبة الأمم . وكان في وسع المرء ان يحكم على نوايا هتلر من عرضه نزع السلاح عن طرفي الحدود الفرنسية – الالمانية ، اذ ان تنفيذ هذا الطلب ، كان يعني ارغـــام فرنسا على ازالة خط ماجينو ، وهو آخر وسيلة لحمايتها من هجوم الماني مباغت .

وطلعت صحيفة التايمز الموقرة في لندن ، على الرغم من استنكارها عمل هتلر المشهور في غزو منطقة الراين ، تحمل مقالاً افتتاحياً جعلت لـه العنوان التالي : « فرصة لإعادة البناء » .

وإذا ما عدنا بتفكيرنا الى الوراء الآن ، بات من السهل علينا ان نرى ان مقامرة هتلر الناجحة في منطقة الراين قد جاءت له بنصر اكثر إذهالاً وأشد رعباً في نتائجه الهائلة ، مما استطاع الناس تفهمه في ذلك الحين. فلقد ركزت شعبيته في داخل المانيا تركيزاً عظيماً ، كما دعمت سلطانه ورفعتها الى ذرى لم تتح لأي حاكم الماني من قبل [1] . وقد ضمنت له مقامرته هذه ، التفوق على قـــادته

---

١ – اصدر هتلر في السابع من آذار امراً بحل الرايشستاغ والدعوة الى «انتخابات» جديدة واستفتاء على الحركة التي قام بها في منطقة الراين .وتشير الارقام الرسمية لاقتراع التاسع والعشرين من آذار ، ان (٩٩) في المائة من مجموع المقترعين المسجلين البالغ عددهم (٦٩١ ، ٥ ، ٤٥ ، ٤٥ »، قد اقترعوا بالفعل ان (٩٨،٨) في المائة منهم قد ايدوا عمل هتلر . وعتر المراسلون الاجانب الذين زاروا

العسكريين الذين ترددوا وضعفوا في لحظة الخطر ، بينما ظل هو رابط الجأش ثبت الجنان ، ولقنهم درساً بأنه يتفوق عليهم في السياسات الخارجية ، وحتى في الشؤون العسكرية ايضاً . وقـد جزعوا من احتمال خوض الفرنسيين للحرب ، ولكنه كان اكثر معرفة بالحقائق منهم . واخيراً ، مهد احتلال الراين،على الرغم من تفاهته ، كعملية عسكرية،الطريق على نحو لم يفهمه الا هتلر(وتشرشل وحده في انكلترا) للوصول الى فرص جديدة ضخمة في اوروبا ، التي لم تهتز قواعدها فحسب ، بل تغيّرت جميع اوضاعها الاستراتيجية عن طريق قيام ثلاثة افواج المانية باستعراض على جسور نهر الراين .

ومن السهل علينا من الناحية الأخرى ان نرى الآن ونحن نتطلع الى الماضي، ان فشل فرنسا في صد الافواج الألمانية الثلاثة ، وتقاعس بريطانيا عن دعمها في عملية ما كانت لتعدو شكل اجراء بوليسي بسيط، كان بمثابة كارثة للغرب نبعت منها جميع الكوارث الاخرى التي تتفوق عليها في الحجم والضخامة . وقد اتيحت الفرصة الاخيرة في اذار عام ١٩٣٦ ، للدولتين الديموقراطيتين الغربيتين لوقف تصاعد المانيا الجماعية المعتدية والمسلحة دون المجازفة بخطر نشوب حرب جدية ، ولإسقاط الديكتاتور النازي كما اعترف هو نفسه ومعه عهـده كله . ولكن هاتين الدولتين فوتتا الفرصة عليهما .

ومثّل هذا الحادث بالنسبة الى فرنسا بداية النهاية . فلقد ادرك حلفاؤها في الشرق من امثال روسيا وبولنده وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا ويوغوسلافيا الحقيقة التي مثلت امامهم بصورة مفاجئة ، وهي ان فرنسا ليست على استعداد لمحاربة العدوان الالماني ولا حتى للحفاظ على نظام السلامة الذي تولت الحكومة الفرنسية

مراكز الاقتراع في ذلك اليوم على بعض العيوب ، لا سيما لأن الاقتراع كان علنياً لا سرياً ، ولم يكن ثمة من شك في ان كثيرين من الالمان كانوا يخشون ان يقولوا « لا » من عقـــاب الغستابو . وذكر الدكتور هوغو ايكنر للمؤلف ان عدد الاشخاص الذين استقلوا منطاده الجديد «هندنبرغ» والذي طاف في ذلك اليوم بأمر من غوبلز للدعاية الانتخابية ، كان اقل من الذين اعلن غوبـلز انهم اقترعوا بالايجاب بصوتين . لكن المؤلف الذي طاف مراكز الاقتراع في جميع انحاء المانيـا يستطيـع ان يشهد ان تأييد الالمان لعملية هتلر كان طاغياً . ولم لا ؟ فكل الماني يوافق بالطبـع على ان يرى قوات بلاده تعود الى ارض المانية.وقدر عدد اصوات المقترعين بـ (٥٤٠٠٢١١).

نفسها الدور القيادي في اقامته وبنائه محملاً اياها الكثير من الجهد . وهناك ما هو أهم من هذا كله . اذ بدأ هؤلاء الحلفاء في الشرق يدركون انه حتى ولو لم تكن فرنسا متخاذلة ومتكاسلة فانها ستغدو عاجزة في وقت قريب عن تقديم أي عون كبير لهم ، وذلك بسبب شروع المانيا في عملية بناء محمومة ، لإقامة الجدار الغربي وراء الحدود الفرنسية – الألمانية . وقد رأوا ان في اقامة هذا الخط من القلاع والحصون تبديلاً سريعاً لخريطة اوروبا الاستراتيجية مما يلحق بهم اكبر الأذى . ولم يكن في وسعهم ان يتوقعوا من فرنسا التي لم تجرؤ على ان تصد بفرقها المائة ، ثلاثة افواج المانية ، ان تقدم على سفك دماء زهرة شبابها بالهجوم على تحصينات المانية منيعة لا تخرق ، بينما يكون جيش « الفيرماخت » مشغولاً بالهجوم في الشرق . ولكن حتي ولو وقع هذا الأمر غير المتوقع ، فانه لن يكون مجدياً . فمنذ اليوم لن يكون في وسع فرنسا ان ترغم المانيا على الاحتفاظ في الغرب بأكثر من جزء ضئيل من الجيش الألماني النامي ، بينما يكون في وسع ما يتبقى من هذا الجيش ان يكون مطلق الحرية للعمل في الشرق ضد جيران المانيا الشرقيين .

وقد شرح وزير خارجية المانيا اهمية تحصينات الراين بالنسبة الى خطط هتلر الاستراتيجية الى وليام .س. وليت **william C · Bullitt** سفير الولايات المتحدة في فرنسا ، عندما قام بزيارة الخارجية الالمانية في الثامن عشر من ايار عام ١٩٣٦ . وقد بعث المستر بوليت الى وزارة خارجيته يقول :

« قال لي فون نوراث ان سياسة الحكومة الألمانية تقوم على التوقف عن أي نشاط في الشؤون الخارجية ، الى ان يتم (هضم منطقة الراين) . وقد اوضح ان ما يعنيه هو ان الحكومة الألمانية ستعمل كل ما وسعها للحيلولة دون هجوم نازي على النمسا دون ان تكتفي بعدم تشجيعه ، كما انها ستتبع خطة هادئة تجاه تشيكوسلوفاكيا ، وذلك الى ان يتم بناء التحصينات الألمانية على الحدود الفرنسية والبلجيكية . ومضى بعد ذلك يقول ... ولكن

عندما يتم بناء هذه التحصينات وتدرك دول اوروبا الوسطى ، ان فرنسا عاجزة عن دخول الأرض الألمانية كما تشاء وتهوى ، فان هذه الدول نفسها ستبدأ في الشعور شعوراً مغايراً تجاه سياساتها الخارجية وتظهر هناك صورة جديدة للموقف العام » [١] .

وبالفعل فقد بدأ هذا التطور ...

وكتب الدكتور شوشنيغ في يومياته يقول ... « وعندما وقفت على قبر سلفي ، دلفوس القتيل ، عرفت ان من واجبي للحفاظ على استقلال النمسا ان اشرع في السير على طريق الترضية ... وكان عليّ ان اعمل كل شيء ممكن لتجنب ما يمكن لألمانيا ان تعتبره ذريعة للتدخل ، وكان علينا ان نبذل كل جهد لنضمن بطريقة من الطرق تسامح هتلر تجاه استمرار الوضع الراهن » . [٢]

وقد لقي مستشار النمسا الجديد والشاب ، التشجيع من بيان هتلر في الرايشستاغ في الواحد والعشرين من ايار عام ١٩٣٥ ، عندما أعلن ان المانيا « لا تعتزم ولا ترغب في التدخل في شؤون النمسا الداخلية ، أو في اغتصابها أو ضمها اليها » . وأحس بشيء من الاطمئنان للتأكيد الذي صدر عن اجتماع ستريزا بين ايطاليا وفرنسا وبريطانيا عن عزمها على بذل كل ما في وسعها للابقاء على استقلال النمسا . ولكن موسوليني ، المدافع الرئيسي عن النمسا منذ عام ١٩٣٣ ، سرعان ما غدا متورطاً في الحبشة ، وساءت علاقاته بفرنسا وبريطانيا . وعندما زحف الالمان على حوض الراين وشرعوا في تحصينه ، ادرك الدكتور شوشنيغ ان الوقت قد حان لاجراء ترضية ما لهتلر . وشرع يفاوض بابن الوزير الألماني الماكر في فيينا لعقد معاهدة جديدة ، لا سيما وان هذا الرجل الذي كان على شفير الموت على ايدي النازيين في عملية تطهير حزيران ، مضى يعمل فور وصوله الى النمسا في أواخر صيف عام ١٩٣٥ ، وبعد اغتيال الألمان لدلفوس ، على تحطيم استقلال النمسا وتسليم مسقط رأس هتلر الى ايدي الزعيم ، لقمة سائغة .

١ – المؤامرة النازية والعدوان (٧) ص ٨٩٠
٢ – كورت فون شوشنيغ « مطالب النمسا » ص ٥

وكان قد بعث الى هتلر في السابع والعشرين من تموز عام ١٩٣٥ ، في تقريره العام عن الجهود التي بذلها مدة عام كامل من الخدمة في فيينا يقول ... « لا ريب في ان الاشتراكية الالمانية ستتغلب بل ويجب ان تتغلب على العقائدية النمسوية الجديدة » [١] .

وبدا الاتفاق النمسوي – الالماني الذي وقع في الحادي عشر من تموز ، عام ١٩٣٦ في صيغته التي نشر فيها ، يحمل طابع التسامح والكرم اللذين لا حد لهما من جانب هتلر . اذ عادت المانيا تؤكد اعترافها بسيادة النمسا ووعدها بأن لا تتدخل في شؤون جارتها الداخلية . ووعدت النمسا مقابل ذلك ان تسير في سياستها الخارجية دائماً على اساس المبدأ القائل بأنها تعترف بنفسها « دولة المانية » .

ولكن المعاهدة تضمنت بعض البنود السرية [٢] . وقد تنازل شوشنيغ عن بعض الامور التي قدر لها ان تسير به وببلاده الصغيرة الى مصيرهما المحتوم. فقد وافق بصورة سرية على اصدار عفو عام عن المسجونين السياسيين النازيين في النمسا ،وعلى تعيين ممثلين عما يسمى«بالمعارضة الوطنية» وهو اسم مستعار يطلق على النازيين وعلى مؤيدي النازية في مناصب « ذات مسؤولية سياسية » . وكان هذا النص بمثابة السماح لهتلر بأن يكون له « حصان طروادة » في النمسا . فسيزحف داخل هذا الحصان عما قريب سايس – اينكوارت، المحامي النمسوي العامل في فيينا ، والذي قدر له ان يلعب دوراً هاماً في القصة التالية .

وعلى الرغم من ان بابن قد حصل على موافقة هتلر على نص المعاهدة ، بعد ان قام بزيارة شخصية لبرلين في مطلع شهر تموز لهذه الغاية ، فان الفوهرر ، ثار ثورة شديدة على مبعوثه ، عندما هتف له هذا في السادس عشر من تموز من فيينا ليبلغه ان المعاهدة قد تمّ توقيعها .

وكتب بابن فيما بعد يقول :

---

١ – المؤامرة النازية والعدوان (١)ص ٤٦٦ .

٢ – وثائق وزارة الخارجية الالمانية (١٠) ص ٢٧٨ – ٢٨١

« لقد اذهلني رد فعل هتلر . فبدلاً من ان يعرب لي عن عميق شكره ، شرع يكيل لي سيلاً من السباب . وقد اتهمني بتضليله لحمله على منح تنازلات ضخمة .. وقال ان القضية كلها شرك أوقعته فيه » . [1]

ولكن الاحداث اثبتت ان الشرك كان لشوشنيغ لا لهتلر .

وكان توقيع المعاهدة النمسوية – الألمانية دليلاً على ان قبضة موسوليني قد ارتفعت عن النمسا .وكان من المحتمل ان يتوقع الناس ان يؤدي هذا التطور الى تردي العلاقات بين الديكتاتورين الفاشيين . ولكن ما حدث كان على النقيض تماماً،وذلك بسبب الاحداث التي كانت الآن وفي عام ١٩٣٦ عوناً لهتلر.

* * *

ودخلت القوات الايطالية في الثاني من ايار عام ١٩٣٦، مدينة اديس ابابا ، عاصمة الحبشة ، واعلنت عصبة الامم في الرابع من تموز اذعانها الرسمي،وقررت رفع العقوبات عن ايطاليا . ولم يمض اسبوعان حتى كان فرانكو يعلن في السادس عشر من تموز ثورة عسكرية في اسبانيا ، مما ادى الى وقوع الحرب الاهلية .

وكان هتلر ، جرياً على مألوف عادته في مثل هذا الوقت من كل عام يشهد « الاوبرات » في عيد واغنر في بايروت. ووصل الى بايروت ليلة الثاني والعشرين من تموز ، وكان هتلر قد عاد لتوه من المسرح ، رجل اعمال الماني قادماً من مراكش ، فجاء ، يقابل الفوهرر مع القائد النازي المحلي، ليقدم اليه رسالة عاجلة من فرانكو ، يطلب فيها بعض الطائرات والمساعدات الحربية العاجلة . واستدعى هتلر على الفور غورنغ والفريق فون بلومبرغ ، الذي كان في بايروت بصورة عارضة ، وسرعان ما اتخذ القرار في تلك الليلة نفسها بتقديم المساعدة الى الثورة الاسبانية . [2]

---

١ – بابن – مذكرات . ص ٣٧٠

٢ – وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٣) ص ١ – ٢

وعلى الرغم من ان العون الألماني لفرانكو لم يضاه قط في كمه ما قدمته ايطاليا له ، اذ كانت هذه قد بعثت اليه بما يتراوح عدده بين الستين الفاً والسبعين الفاً من الجنود ، بالاضافة الى عدد ضخم من الاسلحة والطائرات ، الا ان هذه المساعدة ايضاً كانت كبيرة الى حد ما . ولقد قدر الألمان فيما بعد انهم انفقوا نحواً من نصف بليون مارك على هذه المغامرة [١] ، بالاضافة الى تزويدهم فرانكو بالطائرات والدبابات والخبراء ووحدة « كوندور » الجوية التي ابرزت نفسها بازالة مدينة غويرنيكا الاسبانية وجميع أهلها من عالم الوجود . ولا ريب في ان هذه المساعدات لا تعتبر شيئاً بالنسبة الى تسلح المانيا الضخم ؛ ولكنها على أي حال سببت لهتلر ارباحاً طيبة .

فلقد خلقت لفرنسا دولة فاشية ثالثة غير صديقة على حدودها . ووسعت شقة الخلاف الداخلي في فرنسا بين اليمين واليسار وأضعفت بذلك منافسة المانيا الرئيسية في الغرب . يضاف الى هذا انها جعلت من المستحيل قيام تقارب بين بريطانيا وفرنسا من ناحية وبين ايطاليا من الناحية الأخرى وهو تقارب كانت حكومتا لندن وباريس تعلقان عليه آمالاً كبيرة بعد انتهاء الحرب الحبشية ، وبذلك قذفت بموسوليني اخيراً في احضان هتلر .

وكانت سياسة الفوهرر الاسبانيا منذ البداية منطوية على المكر والدهاء والحساب الدقيق وبعد النظر . وتشير الوثائق الالمانية المصادرة بوضوح الى ان احد اهداف هتلر ، كان يرمي الى اطالة الحرب الاهلية الاسبانية ، للإبقاء على الخلاف قائماً بين الديموقراطيين الغربيين وبين ايطاليا ، وبذلك يضمن جر موسوليني الى جانبه [٢] . وكان اولريخ فون هاسّيل ، السفير الالماني في روما

١ — وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٣) ص ٨٩٢ - ٨٩٤

٢ — بعد اكثر من عام واحد ، وفي الخامس من تشرين الثاني ١٩٣٧ ، عاد هتلر فكرر سياسته الاسبانية الجديدة في حديث سري اجراه مع قادته العسكريين ومع وزير خارجيته . ويروى انه قال لهم : ان وجهة نظر المانيا تتلخص في انها لا ترغب في نصر كامل لفرانكو . ان ما يهمنا هو استمرار الحرب والحفاظ على التوتر في البحر المتوسط . « وثائق وزارة الخارجية الالمانية » (١)ص ٣٧ .

الذي لم يكن بعد قد استطاع تحقيق التعرف على الاهداف والاجراءات النازية ثم ما لبث ان تعرف عليها ، فأدى تعرفه هذا الى موته ، قد بعث في شهر كانون الأول عام ١٩٣٦ بالتقرير التالي الى الولهلمشتراسه :

« ان الدور الذي تلعبه الحرب الاسبانية بالنسبة الى علاقات ايطاليا مع فرنساوانكلترا يمكن ان يغدو شبيهاً بالدور الذي لعبته الحرب الحبشية ، اذ كشفت كشفاً واضحـــاً عن المصالح الدولية المتعارضة ، وحالت بين ايطاليا وبين الانجذاب الى جانب الدول الغربية لتستخدمها في حيلها وألاعيبها . وهكذا فان الصراع على النفوذالسياسي المسيطرفي اسبانيا يحسر النقابعن التعارض الطبيعي بين ايطاليا وفرنسا ، كما يضع في الوقت نفسه مركز ايطاليا كدولة في غرب البحر الابيض المتوسط في موقف التعارض مع بريطانيا . وهكذا فان ايطاليا ستدرك شيئاً فشيئاً جدوى مواجهة الحلفاء جنباً الى جنب مع المانيا » . [١]

ولقد كانت هذه الظروف هي التي جاءت الى الحياة بمحور برلين رومة. وقام الكونت جاليازو شيانو، صهر موسوليني ووزير خارجيته، في الرابع والعشرين من تشرين الأول ، بعد ان اجتمع بنوراث في برلين ، بأول رحلات حجيجه الى برختسغادن . وقد عثر على الديكتاتور الألماني في حالة من الانطلاق والتودد . ولقد قال هتلر ان موسوليني في رأيه « أعظم ساسة العالم ، وليس في وسع أي إنسان ان يدعي لنفسه الشبه به من قريب او بعيد » . واضاف ان في وســع المانيا وايطاليا معاً ان لا تكتفيا بالتغلب على «البلشفية » بل وعلى الغرب ايضاً، بما في ضمنه انكلترا . وقـــال هتلر انه يرى ان البريطانيين قد يحاولون في النهاية التفاهم مع ايطاليا والمانيا المتحدتين ، أما اذا لم يحاولوا ذلك فان الدولتين معاً قادرتان على الخلاص منهم بسهولة . وراح هتلر يذكر شيـــانو بقوله ... « ان تسلح المانيا وايطاليا يجري بسرعة اكبر مما تستطيع انكلترا تحقيقه من

١ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٣) ص ١٧٢ .

تسلح ، وستغدو المانيا متأهبة للحرب في غضون ثلاث سنوات ... »[1]

ولا ريب في ان هذا التاريخ مهم للغاية ... اذ بعد ثلاث سنوات تماماً حل خريف عام ١٩٣٩ .

ووقع شيـــانو ونوراث في الواحد والعشرين من تشرين الأول في برلين بروتوكولاً سرياً حدد سياسة مشتركة لألمانيا وايطاليا في الشؤون الخارجية . وعندما تحدث موسوليني بعد بضعة ايام أي في الأول من تشرين الثاني، في خطاب ألقاه في ميلان عن هذا البروتوكول، ذكر دون أن يكشف النقاب عن المحتويات، انه يؤلف محوراً يمكن للدول الأوروبية الأخرى ان تلتف حوله ، وان تعمل متعاونة في نطاقه . وقد غدت كلمة « المحور » هذه مشهورة كل الشهرة ، كما غدت قتـّالة بالنسبة لقائلها الدوتشي .

وعندما اطمأن هتلر الى ان موسوليني قد غدا في جيبه ، اتجه باهتمامه الى ناحية اخرى . وكان في شهر آب عام ١٩٣٦ قد عيّن ريبنتروب سفيراً له في لندن ، ليقوم بمحاولة تهدف الى امكان اجراء تسوية مع انكلترا طبقاً للشروط التي يراها هو . وكان هذا الاختيار ، أسوأ ما يمكن لهتلر ان يعمله ، كما قـال غورنغ ، اذ عرف عن هذا الرجل عجزه وكسله وغروره واختيـــاله بنفسه كالطاووس ، وصلفه وافتقاره الى خفة الروح . فقد اعلن غورنغ فيما بعد ... قائلاً : « وعندما انتقدت مؤهلات ريبنتروب التي لا تمكنه من معالجة المشاكل البريطانية ، رد الفوهرر بأن ريبنتروب يعرف اللورد الفلاني والوزير الفلاني . فرحت ارد عليه قائلاً : اجل ولكن الصعوبة في الموضوع هي ان هؤلاء الناس يعرفون ريبنتروب »[2] .

ومن الحق ان يقال ان ريبنتروب، على الرغم من افتقاره الى الجاذبية كانسان، لم يكن يفتقر الى الاصدقاء من ذوي النفوذ في لندن . وكان من المعتقد في برلين

---

١ - اوراق شيانو الدبلوماتية - تنقيح واعداد مالكولم مغريدج . ص ٤٣ - ٤٨ .

٢ - ميلتون شولمان — الهزيمة في الغرب ، ص ٧٦ . يذكر ان مصدره ، نشرة لدوائر المخابرات العسكرية البريطانية صدرت في كانون الأول عام ١٩٤٥، ويبدو ان هذا القول مقتبس من نتائج التحقيق مع غورنغ .

ان السيدة سمبسون صديقة الملك (غدت زوجته بعد ان تنازل عن العرش) كانت من بين هؤلاء الاصدقاء . لكن جهود ريبنتروب الأولى في منصبه الجديد لم تكن مشجعة ، وقد طار عائداً الى برلين في شهر تشرين الثـــاني ، ليصل بمهمة كان يقوم بها في هذه الآونة ، الى نهايتهـــا . ووقّع في الخامس والعشرين من تشرين الثاني ميثاق مكافحة الشيوعية الدولية (الكومنترن) مع اليابان ثم أعلن لمراسلي الصحف (وكان مؤلف هذا الكتاب واحداً منهم) دون ان يطرف له جفن ، ان المانيا واليابان قد اتحدتا معاً للدفاع عن الحضارة الغربية . وبدا هذا الميثاق في ظاهره مجرد حيلة من حيل الدعاية التي تستطيع المانيا واليابان عن طريقها ، وعن طريق استغلال الكراهية العالمية للشيوعية ، وعدم الثقة عامة بالكومنترن ، تحقيق اهدافها . ولكن هذه المعاهدة تضمنت ايضاً ملحقاً سرياً موجهاً ضد روسيا بصورة خاصة . فقد اتفقت الدولتان ، في حالة وقوع هجوم لا مبرر له من الاتحاد السوفياتي على المانيا أو اليابان ، على التشاور في موضوع الاجراءات التي يجب اتخاذها «لضمان مصالحهما المشتركة» ، وكذلك « على عدم اتخاذ اية اجراءات تؤدي الى تخفيف الوضع بالنسبة الى الاتحاد السوفياتي » . وتم الاتفاق ايضاً على ان لا تعقد أي من الدولتين اية معاهدات سياسية مع روسيا تتعارض مع روح هذا الاتفاق الا بعد الموافقة المشتركة للبلدين [١] .

ولم يمضِ طويل وقت ، حتى كانت المانيا تنقض هذا الاتفاق متهمة اليابان دون مبرر بعدم السير بموجبه . ولكن الميثاق كان نافعاً من ناحية بعض الاهداف الدعائية التي غررت بالسذج من الناس في العالم ، كما انهـــا قربت لأول مرة بين الدول المحرومة والمعتدية . فلقد سارعت ايطاليا الى توقيعه في العام التالي .

***

وألقى هتلر في الثلاثين من كانون الثاني عـام ١٩٣٧ ، خطاباً في الرايشستاغ اعلن فيه « سحب توقيع المانيا » من معاهدة فرساي ، وهو عمل ينطوي على ايماءة تافهة ولكنها نموذجية ، لا سيما وان المعاهدة كانت قد غدت الآن ميتة لا

١ ــ وثائق وزارة الخارجية الألمانية ص ٧٣٤

حراك فيها ، كما عرض فيه مزهواً الأعمال التي حققهـــا في اربع سنوات من الحكم . وكان في الامكان ان يغفر له زهوه هذا ، اذ كان سجل هذه السنوات الاربع ضخماً ومؤثراً في الشؤون الداخلية والخارجية . فلقد قضى كما رأينـــا على البطالة ، وخلق حالة من الانتعاش في العمل ، وبنى جيشاً قوياً بالاضافة الى اسطول وسلاح جوي قويين ، وجهز هذه الفروع الثـــلاثة من القوات المسلحة باسلحة ومعدات ضخمة ، كما حمل لواء الأمل امـــامها بالمزيد من هذه الاسلحة وعلى نطاق اوسع . وكان قد حطم وحيداً قيود معـــاهدة فرساي ، وشق طريقه بالخديعة والمكر محتلاً منطقة الراين . وبعد ان كان وحيداً معزولاً في البداية ، وجد حليفاً مخلصاً في موسوليني وآخر في فرانكو ، وتمكن من فصم بولندة عن فرنسا . ولعل ما هو اهم من هذا كله ، انه تمكن من اطلاق الحيوية الدينامية للشعب الألماني باعثاً الثقة في الأمة وفي احساسها برسالتها كدولةعالمية . عظمى ومتطلعة الى التوسع .

وكان في وسع كل انسان ان يرى أوجه التباين بين المانيـــا الجديدة هذه ، الناجحة والمنتعشة ، والمقودة قيـادة عسكرية جريئـة ، وبين الديموقراطيات المنحلة في الغرب ، التي بدت بترددها وما يسودها من فوضى ، وكأنها تسير في طريق المزيد من الانحلال شهراً بعد شهر . وعـلى الرغم من الفزع الذي حـل ببريطانيا وفرنسا فان هاتين الدولتين لم ترفعا اصبعاً واحداً للحيلولة بين هتلر وبين نقض معاهدة الصلح بتسليحه المانيا واعادة احتلال منطقة الراين ، كما عجزتا عن وقف موسوليني في الحبشة . أما الآن ومع استهلال عام ١٩٣٧، فقد بدت هاتان الدولتان وكأنها تقومان بايماءات لا جدوى منها لمنع المانيا وايطاليا من تقرير نتيجة الحرب الاهليـة الاسبانية . وكان كل انسان يعرف مـا تفعله المانيا وايطاليا في اسبانيا لضمان النصر لفرانكو . ومع ذلك فقد واصلت حكومتا لندن وباريس سنوات طويلة اشغال نفسيهما في مفاوضات دبلوماتية فارغة مع برلين وروما لضمان « عدم التدخل » في اسبانيا . وكان هذا العمل اشبه بلعبة مسلية للديكتاتور الألماني ، ضاعفت من ازدرائه للقادة السياسيين

المتعثرين في فرنسا وبريطانيا ، الذين سرعان ما اطلق عليهم اسم « حشرات صغيرة » في مناسبة تاريخية جديدة مكنته ثانيــــة من اذلال الديموقراطيتين الغربيتين بمنتهى السهولة واليسر .

ولم يبد ان بريطانيا العظمى وفرنسا وحكومتيهما وشعبيهما وكذلك الاغلبية الغالبة من الشعب الألماني ، قد ادركت جميعها عندما هل عام ١٩٣٧ ، ان كل ما فعله هتلر في السنوات الأولى من حكمه ، لم يكن الا مجرد تهيئـة للحرب . ويستطيع مؤلف هذا الكتاب ان يشهد استناداً الى ملاحظاته الشخصية ، بأن الشعب الألماني حتى اليوم الاول من ايلول عام ١٩٣٩ ، كان مقتنعاً من ان هتلر سيحصل على ما يريد ويحقق لهذا الشعب ما يروم دون اللجوء الى الحرب . أما عند الطبقة المختارة التي تتولى إدارة المانيا أو تقوم بخدمتها في المنـــاصب الهامة الحساسة ، فلم يكن هناك ثمة من شك في حقيقة ما ينتويه هتلر . وعندما دنت السنوات الاربع لفترة « اختبار » الحكم النازي ، كما اسماهـا هتلر ، من نهايتها صرح غورنغ ، الذي كان قد تولى منذ ايلول عام ١٩٣٦ مسؤولية تنفيذ مشروع السنوات الاربع ، بحقيقة ما سيقع في خطاب سري القاه على رجـال الصناعة وكبار الموظفين في برلين قال فيه :

« ان المعركة التي نقترب منها الآن تتطلب منا نطاقاً ضخمـاً من الطاقة الانتاجية . فليس في وسعنا تصور أي تحديد للتسلح . وليس ثمة امامنا إلا احد سبيلين ، اما النصر واما الدمار ...ونحن نعيش في وقت تتراءى امامنا فيه المعركة الضخمة . وهنا نحن نقف على عتبة التعبئة . وقد غدونا وكأننا في حرب. ولعل الشيء الوحيد الذي لم يقع بعد ، هو اطلاق النار الفعلي » [١] .

وقد وجه غورنغ انذاره هذا في السابع عشر من كانون الاول عام ١٩٣٦ ، ولم يمض احد عشر شهراً ، كما سنرى عما قريب ، حتى كان هتلر قد اتخذ قراره القدري والثابت ، على خوض الحرب .

١ – المؤامرة النازية والعدوان (١٢) . ص ٤٦٠ – ٤٦٥

١٩٣٧ « لا مفاجئات »

اعلن هتلر في الخطاب الذي ألقاه على اعضاء الرايشستاغ الذين يمثلون « الانسان الآلي » في الثلاثين من كانون الثاني عام ١٩٣٧ ، ان « زمن ما يسمى بالمفاجئات قد انتهى وولّى » .

وحقاً لم تقع أية مفاجئات من تلك التي ألفها العالم في نهايات الاسابيع طيلة عام ١٩٣٧ [١] . وكانت هذه السنة في الحقيقة فترة توطيد للدعائم واستعداد مقبل للاهداف التي حددها الفوهرر اخيراً في تشرين الثاني لمجموعة من كبار قادته العسكريين . وهكذا خصصت هذه السنة لصنع الاسلحة وتدريب الجنود واختبار السلاح الجوي الجديد في اسبانيا[٢]، وتطوير صناعتي الغازولين والمطاط الكيماويتين ، وترسيخ دعائم محور روما ـ برلين ، وترقب ظهور نقاط ضعف جديدة في باريس ولندن وفيينا .

وواصل هتلر في الاشهر الأولى من عام ١٩٣٧ ايفاد كبار المبعوثين الى روما لتنمية العلاقات مع موسوليني. وكان الألمان قد احسوا بالقلق من جراء ماتبديه ايطاليا من غزل لبريطانيا ، اذ كان شيانو قد وقع في الثاني من كانون الثاني « اتفاق الرجل المهذب » مع الحكومة البريطانية الذي نص على اعتراف كل من الدولتين بالمصالح الحيوية للدولة الاخرى في البحر المتوسط ، كما ادركوا ، ان قضية النمسا ما زالت موضوعاً حساساً بالنسبة الى روما . ويقول الترجمان

١ ـ الف موظفو الولهلمشتراسه القول ساخرين ، من ان هتلر يطلع بمفاجئاته في ايام السبت لأنه كان قد سمع بان الموظفين البريطانيين يمضون الى عطلة نهاية الاسبوع في ذلك اليوم .

٢ ـ تحدث غورنغ في افادته التي قدمها الى محاكمات نورمبرغ في الرابع عشر من آذار عام ١٩٤٦ ، مزهواً عن الفرص التي اتاحتها الحرب الاهلية الاسبانية لاختبار سلاحه الجوي الفتي . ومضى يقول : « وقد بعثت بموافقة الفوهرر ، جزءاً كبيراً من اسطول مواصلاتنا الجوية ، وعدداً من وحدات الاختبار للطائرات المحاربة والقاذفة للقنابل والمدفعية المضادة . وتمكنت عن هذه الطريق من التأكد، في ظروف المعركة نفسها من كفاية سلاحنا للمهمة. ورغبة مني في ضمان التجربة العملية لأكبر عدد من طيارينا، كنت أواصل دائماً ايفاد عدد جديد من الطيارين الى اسبانيا ليحلوا محل من مروا بالتجربة العملية » . (المؤامرة النازية والعدوان (٩) ص ٢٨١ .

الألماني بول شميدت ان غورنـغ تحدث بصراحة الى الدوتشي عند مقابلته له في الخامس من كانون الثاني عن حتمية الاتحاد بين النمسا والمانيا (الانشلوس) ، وان الديكتاتور الايطالي هزّ رأسه بعنف عندمـــا سمع هذا الحديث . ويقول السفير فون هاسّيل في تقرير بعث به الى برلين ، ان بيان غورنغ عن موضوع النمسا « قوبل بالكثير من الفتور » . وسارع نوراث في حزيران الى التأكيـــد للدوتشي بأن المانيا ستحافظ على ميثاقها الذي وقعته في الحادي عشر من تموز مع النمسا، واضاف ان الالمان لن يقوموا بأي اجراء صارم إلا في حالة واحدة، وهي محاولة اعادة آل هابسبرغ الى الحكم .

وهكذا قبل موسوليني، بعد ان هدأت نفسه في موضوع النمسا وتحت ضغط ما يلقاه من معارضة من بريطانيا وفرنسا لجميع مطامحه في الحبشة واسبانيـــا والبحر المتوسط ، الدعوة التي تلقاها من هتلر لزيارة المانيا ، وعبر في الخامس والعشرين من ايلول عام ١٩٣٧ ، وقد ارتدى بزة جديدة خاطها لهذه المناسبة ، جبال الألب ، ماضياً الى الرايخ . واستقبله هتلر وأعوانه بالكثير من التبجيل والنفاق . ولم يدر موسوليني، كم كانت هـــذه الرحلة قدرية له آنذاك ، بوصفها الرحلة الأولى من سلسلة طويلة من الرحلات لزيارة هتلر ، التي قدر لها ان تضعف بصورة متدرجة، موقفه الى ان وصلت به اخيراً الى نهايته المخيفة. ولم يكن هدف هتلر من هذه الدعوة الدخول في محادثات دبلوماسية جديدة مع ضيفه، بل التأثير عليه بما لدى المانيا من قوة عسكرية ، وتشديد «حالة التسلط» التي سيطرت على موسوليني ليلقي بنصيبه الى الجانب الرابح . وحمل الدوتشي بسرعة من هـذا الطرف من المانيا الى ذاك ، مستعرضاً الجنود ورجال الحرس النازي ، وشاهداً المناورات العسكرية في مكلنبرغ ، وطائفاً بمصانع الاسلحة الهادرة في الروهر.

ووصلت الزيارة الى ذروتها في برلين ، في الثـــامن والعشرين من ايلول ، باحتفال كان له اكبر التأثير على الضيف . فقد احتشد اكثر من مليون انسان في ميدان ميفيلد للاستماع الى الديكتاتورين العسكريين وهما يلقيان خطابيهما . وطاش لب موسوليني وهو يخطب بالالمانية من الهتافات المدوية ومن كلمات

هتلر المطرية التي اشبعت في نفسه الغرور. فقد قال الفوهرر ان الدوتشي «واحد من اولئك الناس النادرين في عصور التاريخ ، الذين يتولون صناعة هذا التاريخ ولا يكونون مجرد أدوات لاختباراته » . واني لأذكر ان عاصفة من الرعود والبروق قد هبت على الميدان قبل ان ينهي موسوليني خطابه ، وسرعان ما عمّ الاضطراب المكان من جراء تفرق الحشود الهائلة من الناس ، وتحطمت اجراءات الوقاية التي اتخذها الحرس النازي ، واضطر الدوتشي المتعجرف وقد التصقت ثيابه المبللة بجسده ، الى شق طريقه ليعود وحيداً الى المكان الذي يحل فيه . لكن هذه التجربة المشؤومة لم تخفف من حماس موسوليني ليغدو شريكاً لألمانيا الجديدة والقوية هذه . وعاد في اليوم التالي بعد ان استعرض وحدات عسكرية مختارة من الجيش والبحرية والسلاح الجوي الى روما ، مقتنعاً بأن مستقبله يقوم الى جانب هتلر .

ولم يكن من الغريب والحالة هذه ، ان يسمع ريبنتروب من الدوتشي عندما قام برحلته الى روما بعد نحو من شهر ، ليحصل على توقيع موسوليني على ميثاق مكافحة الكومنترن ، في احتفال رسمي جرى في السادس من تشرين الثاني ، بأن ايطاليا لم تعد تكترث باستقلال النمسا اذ قال ... « لتأخذ الاحداث في النمسا مجراها الطبيعي » . وكان هذا القول بمثابة اشارة الانطلاق التي طال انتظار هتلر لها .

وتأثر حاكم آخر بزيادة قوة المانيا النامية . فعندما حطم هتلر ميثاق لوكارنو، ووصل بقواته الألمانية بعد احتلال منطقة الراين الى حدود بلجيكا ، اعلن ليوبولد ، ملك هذه البلاد، انسحاب بلاده من ميثاق لوكارنو ومن محالفاته مع بريطانيا وفرنسا ، وأضاف ان بلجيكا ستتبع منذ الآن سياسة مطلقة من الحياد . وكان هذا الانسحاب بمثابة ضربة قاصمة لنظام الدفاع الجماعي عن الغرب ، وسرعان ما برهنت الاحداث على انه قد كلفها كما كلف بلجيكا نفسها ثمناً غالياً .

وراقبت الولهلمشتراسة في نهاية أيار بكثير من الاهتمام تخلي ستانلي بولدوين

عن الحكم في بريطانيا العظمى وتولي نيفيل تشمبرلين (Stanley Baldwin) رئاسة الوزارة. وقد طرب الألمان لسماعهم بأن الرئيس (Neville Chamberlain) البريطاني الجديد ، سيكون اكثر اهتماماً شخصياً بالشؤون الخارجية من سلفه ، وانه يعتزم الوصول ان امكنه ، الى تفاهم مع المانيا النازية . وقد رسم البارون فون وايز ساكر (Weizsacker) رئيس الدائرة السياسية في وزارة الخارجية الألمانية آنذاك ، الخطوط العريضة لنوع التفاهم الذي يمكن لألمانيا ان تقبله في مذكرة سرية اعدها في العاشر من تشرين الثاني قال فيها :

« نحن نريد من بريطانيا بعض المستعمرات وحرية العمل في الشرق ... وحاجة بريطانيا الى الهدوء ماسة وضخمة . ولعل من النافع ان نعرف ما في استطاعة انكلترا ان تدفعه للحصول على هذا الهدوء »[1].

وقد عرضت الفرصة لمعرفة ما يمكن لبريطانيا ان تدفعه نفسها في تشرين الثاني ، عندما قام اللورد هاليفاكس مصحوباً بموافقة المستر تشمبرلين الحماسية ، برحلته الى برختسغادن لمقابلة هتلر . وعقد الرجلان في التاسع عشر من تشرين الثاني محادثات طويلة ، وتظهر في المذكرة السرية الألمانية الطويلة التي اعدتها وزارة الخارجية الألمانية[2]، عن هذه المقابلة ثلاث نقاط اولاها أن تشمبرلين كان تواقاً للغاية للوصول الى تسوية مع المانيا ومقترحاً اجراء محادثات بين البلدين على مستوى الوزراء ، وثانيها ان بريطانيا تريد تسوية اوروبية عامة ، وهي على استعداد مقابل الحصول عليها ، ان تقدم بعض التنازلات الى هتلر في موضوع المستعمرات واوروبا الشرقية ، وثالثها ان هتلر لم يكن كثير الاهتمام في تلك اللحظة بعقد اتفاق انكليزي - الماني .

وبالنظر الى النتيجة السلبية للمحادثات ، كان من المستغرب بالنسبة الى الألمان ان يروا البريطانيين وقد بدت عليهم علائم التشجيع منها[3] . ولا ريب

---

١ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية ، ص ٤٠ .
٢ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية ، ص ٥٥ - ٦٧ .
٣ - كتب تشمبرلين في يومياته يقول : « كانت زيارة هاليفاكس لألمانيا من وجهة نظري

في ان هذا الاستغراب كان من المقـــدر له ان يتحول الى مباغتة بالنسبة الى الحكومة البريطانية لو انها علمت بالاجتماع السري للغاية ، الذي عقده هتلر مع كبار قادته العسكريين ووزير خارجيته في برلين قبـــل اربعة عشر يوماً من محادثاته مع اللورد هاليفاكس .

القرار القدري في الخامس من تشرين الثاني عام ١٩٣٧

ظهرت اشارة عن الاشياء المرتقبة وعن الاستعدادات التي يجب اتخاذها لمواجهتها في توجيه يحمل عبارة « سري للغاية » بعث به المشير فون بلومبرغ في الرابع والعشرين من حزيران عام ١٩٣٧، الى قادة القوات المسلحة الثلاث . ولم تُطبع منه الا اربع نسخ ليس إلا [١] . فلقد قال وزير الدفاع والقائد العام في توجيهه للقادة الثلاثة ان « الوضع السياسي العام يبرر الافتراض بأن المانيا ليست في حاجة الى التفكير بأي هجوم يقع عليها من اية ناحية » . فليست لدى الدول الغربية أو روسيا أية رغبة في الحرب ، كما انها ليست على استعداد لها .

ومضى التوجيه يقول : «ومع ذلك، فإن الوضع المائع سياسياً في العالم، على الرغم من عدم انطوائه على حوادث مفاجئة يتطلب الاستعداد الدائم للحرب من

نجاحاً كبيراً وذلك لأنها حققت هدفها في خلق جو ، يمكن فيه البحث مع المانيا في القضايا العملية التي تنطوي عليها التسوية الاوروبية » (كيث فيلينغ ، حياة نيفيل تشمبراين ص ٣٣٢).

ويبدو ان هاليفاكس نفسه وقع تحت تأثير هتلر. فقد كتب في تقرير الى وزارة الخارجية يقول: « اوحى الي المستشار الألماني ورفاقه ، بأنهم ليسوا على استعداد للقيام بمغامرات تنطوي على القوة او الحرب » . ويقول تشارلز تانسيل ان هاليفاكس قدم تقريراً شفوياً الى تشمبراين قال فيه ان هتلر « لا ينوي القيام بمغامرات مبكرة، اما لأنها قد لا تكون مجدية او لأنه مشغول ببناء المانيا داخلياً » ... ولقد اكد له غورنغ ان نقطة واحدة من الدم الالماني لن تسفك في اوروبا الا اذا وجدت المانيا نفسها مرغمة على ذلك . وقد اوحى الالمان له بالانطباع بأنهم لا ينتوون الحصول على اهدافهم الا بطرق نظامية (تانسيل ، الباب الخلفي للحرب ص ٣٦٥ - ٣٦٦) .

١ - المؤامرة النازية والعدوان (٦) ... ص ١٠٠١ - ١٠١١ .

جانب القوات الألمانية المسلحة ، للتمكن من استغلال الفرص السياسية المواتية عسكرياً عند وقوعها . ومن الواجب ان تتم الاستعدادات في فترة التعبئة لعامي ١٩٣٧ – ١٩٣٨ . وقـد وضعت القوات المسلحة نصب عينها احتمال وقوع الحرب » .

ترى أي حرب ممكنة ، إذا لم تكن المانيا في حاجة الى الخشية « من أيـة ناحية » ؟ لقد كان بلومبرغ واضحاً كل الوضوح . هناك احتمالان للحرب «وقد تمّ وضع الخطط لمواجهة كليهما » .

١ – الحرب في جبهتين مـع التركيز على المعركة الاساسية في الغرب . (تركيز استراتيجي احمر – Rot) .

٢ – الحرب في جبهتين مـع التركيز على المعركة الاساسية في الجنوب الشرقي (تركيز استراتيجي – اخضر) .

وكان الافتراض في الحالة الأولى ان الفرنسيين قد يعدون العدة لهجوم مباغت على المانيا ، مما يحتم على المانيا في هذه الحالة استخدام قواتها الرئيسية في الغرب وقد اطلق على هذه العملية الاسم الرمزي (روت) أي الاحمر . [١]

أما بالنسبة الى الاحتمال الثاني :

« فإن الحرب في الشرق قـد تبدأ بعملية عسكرية المـانية مباغتة على تشيكوسلوفاكيا لإحباط هجوم متوقع من تحالف متفوق للاعداء . ومن الواجب ان يخلق مقدماً ، المبرر السياسي للقيام بمثل هذ العمل أمام القانون الدولي » .

ويؤكد التوجيه وجوب « ازالة تشيكوسلوفاكيا من الوجود منذ البداية

---

١ – كان هذا الاسم هو الأول من عدد من الاسماء الرمزية للخطط العسكرية الالمانية التي سيرد الحديث عنها في سياق القصة التالية . وكان الألمان يستخدمون كلمة « حالة » Fall لتبني خطة. فيقولون الحالة الحمراء او الحالة الخضراء، ليعنوا بها العمليتين الحربيتين في الغرب وتشيكوسلوفاكيا. وكان يقصد من هذه التسميات في البداية كما ذكر القادة العسكريون الالمان في نورمبرغ ، التكنية عن الخطط العسكرية التي تشمل اوضاعاً افتراضية. ولكن سيتضح من سياق هذه القصة فيما بعد، ان الاصطلاح بات يستعمل ليرمز الى خطة من العدوان العسكري . وقد تكون تسميتها بالعملية (Operation) اكثر دقة من تسميتها بالحالة (Case) ، لكن المؤلف يؤثر تسهيلاً المضي في استعمال كلمة الحالة التي استخدمها الألمان فعلاً في تعبيرهم .

واحتلالها . »

وكانت هناك ثلاث حالات اخرى يجب اتخاذ « اعدادات خاصة » تجاهها :

١ – التدخل العسكري ضد النمسا . (الحالة الخاصة «اوتو»).

٢ – تعقدات عسكرية مع اسبانيا الحمراء (الحـــالة الخاصة « ريشارد ») .

٣ – في حـــالة اشتراك انكلترا وبولندة وليتوانيا في حرب ضدنا (توسع الحالتين الخضراء والحمراء) .

وسيظهر اسم حـــالة (عملية) اوتو الرمزي كثيراً في الصفحات التالية . والمقصود بأوتو اسم لامير الصغير من آل هابسبورغ ، المطالب بعرش النمسا ، والذي كان يعيش آنذاك في بلجيكا . وقد لخص بلومبرغ حالة اوتو في توجيهه الذي اصدره في حزيران على النحو التالي :

« ان الغاية من هذة العملية – أي التدخل المسلح في النمسا في حالة عودتها الى الملكية – ارغام النمسا بالقوة المسلحة على التخلي عن فكرة عودة الملكية .

« ومن الواجب استخدام الخلافات السياسية الداخلية للشعب النمسوي ، والزحف تحقيقاً لهذا الهدف، باتجاه مدينة فيينا وتحطيم أية مقاومة مسلحة » .

ولا ريب في ان لمحة من الحذر حتى من اليأس تبدو نهاية هذه الوثيقة . فهي لا تسيء فهم موقف بريطانيـــا ، اذ تمضي محذرة فتقول : « ستستخدم انكلترا كافة مواردها الاقتصادية والعسكرية ضدنا » . وتعود الوثيقة فتعترف قائلة : « فإذا انضمت الى بولندة وليتوانيا،فان وضعنا العسكري سيسوء الى حد لا يطاق بل وإلى حد يائس .ولذا فمن واجب القـــادة السياسيين ان يبذلوا كل جهد ممكن للابقاء على هذه الدول وفي مقدمتها انكلترا على الحياد ».

وعلى الرغم من أن بلومبرغ هو الذي وقع هذا التوجيه ، الا ان من الواضح كل الوضوح ، انها صدرت عن سيده في مستشارية الرايخ. وقد وصل الى ذلك المركز

الحساس في الرايخ الثالث ، الواقع في الوهلمشتراسه في برلين ، بعد ظهر الخامس من تشرين الثاني ستة اشخاص ، ليتلقوا ايضاحات أخرى من الفوهرر ، وهم المشير فون بلومبرغ وزير الدفاع والقائد العام للقوات المسلحة ، والفريق البارون فون فريتشه القائد العام للجيش ، وامير البحر الدكتور ريدر القائد العام للاسطول. والفريق غورنغ القائد العام لسلاح الجو ، والبارون فون نوراث وزير الخارجية ، والعقيد هوسباخ المساعد العسكري للفوهرر . والاسم الاخير ليس من الاسماء التي قدر لها ان تبرز في هذه الصفحات ، وان كان هذا العقيد الشاب في تلك الساعات القائمة من ذلك اليوم من ايام تشرين الثاني ، قد لعب دوراً في منتهى الأهمية . فقد كان يدوّن كل ما يقوله هتلر ، وبعد خمسة ايام كان يعد هـــذه الأقوال في مذكرة في منتهى السرية ، مسجلاً عن طريقها للتاريخ نقطة التحول الحاسمة في حياة الرايخ الثالث - وقد ظهرت هذه الوثيقة بين مجموعات الوثائق التي صودرت والتي عرضت في نورمبرغ . [١]

وبدأ الاجتماع في الساعة الرابعة والربع من بعد الظهر واستمر حتى الثامنة والنصف وكان هتلر هو المتكلم طيلة الوقت تقريباً . وقد بدأ حديثه قـــائلاً ، بأن « ما يريد قوله ، هو ثمرة التفكير الكامل والتجارب التي مر بها في غضون اربع سنوات ونصف السنة من الحكم » . وأوضح بأنه يعتبر الملاحظات التي سيبديها مهمة ، الى الحد الذي يجعله يطلب اليهم في حالة موته ، اعتبارها وصيته وارادته الاخيرة .

ومضى هتلر يقول : « ان هدف السياسة الألمانية هو ضمان الأمان للمجتمع العنصري والحفاظ عليه وتوسيعه . ولا تعدو القضية هنـــا ان تكون موضوع المجال الحيوي » . « واضاف ان للألمان حقاً في الحياة في مجال حيوي اوسع من الشعوب الأخرى ... ولذا فان مستقبل المانيا متوقف كلية على حـــل هذه المشكلة من الحاجة الى المجال » . [٢]

---

١ - ملاحظات هوسباخ المؤرخة في ١٠ تشرين الثـــاني ١٩٣٧ . ورد النص الالماني في « محاكمات كبار مجرمي الحرب » - (٢٥) ص ٤٠٢ - ٤١٣ ، وقد وردت احسن ترجمة انكليزية لها في « وثائق وزارة الخارجية الالمانية » (١) ص ٢٩ - ٣٩ .

٢ - يلاحظ القارىء انني منذ هذه اللحظة بدأت استعمل نصوص الفقرات المقتبسة من حديث

ولكن أين ؟ طبعاً ليس في المستعمرات الآسيوية او الافريقية البعيدة ، وانما في قلب اوروبا « وعلى مقربة دانية من الرايخ » . والقضية بالنسبة الى المانيا هي اين يمكن لها ان تحقق اكبر ربح ممكن بأقل ثمن ممكن ؟

وقال هتلر : « وقد ثبت تاريخ جميع العصور ، كتاريخ الامبراطورية الرومانية أو الامبراطورية البريطانية ، ان التوسع لا يمكن أن يتم إلا بتحطيم المقاومة وتحمل الاخطار ، فالنكسات شيء لا بد منه . ولم يكن هناك في التاريخ أي مجال لا صاحب له ، وليس ثمة من مجال كهذا ، اليوم . فالمهاجم يصطدم دائماً « بصاحب المجال » .

وأعلن هتلر ان هناك « دولتين تسيطر عليهما الكراهية » ، هما بريطانيا وفرنسا ، تقفان في طريق المانيا . فالدولتان تعارضان في أية « تقوية جديدة لمركز المانيا » . ولم يكن في وسع الفوهرر ان يصدق بأن الامبراطورية البريطانية « لا يمكن هزّها » . فهو على النقيض من ذلك يرى فيها الكثير من مظاهر الضعف ، وقد مضى يشرحها . فذكر متاعب بريطانيا مع ايرلنده والهند ، ومنافسة اليابان لها في الشرق الاقصى ، ومنافسة ايطاليا لها في البحر الابيض المتوسط . وقال انه يرى بأن مركز فرنسا اكثر ملاءمة من مركز بريطانيا ، ولكن المتاعب الداخلية السياسية ستواجه فرنسا » . ثم مضى يقول ، ولكن من الواجب على أي حال اعتبار بريطانيا وروسيا « عوامل قوة في حساباتنا السياسية » .

ولهذا ...

« يمكن حل مشكلة المانيا بطريق القوة ليس إلا ، ومثل هذه

هتلر كما وردت في الوثائق التي عثر عليها، وعلى النحو الذي جاءت فيه دون اي تحريف . ولما كنت اريد ان احافظ على دقة الوثيقة الاصلية وعلى نصوص الكلمات المستعملة فيها ، فقد قررت ان من الأفضل ان امتنع عن تغيير صيغة المخاطب فيها من الغائب الى المتكلم ، مخافة ان اكون بمثابة محرف لها .

وأود ان اقول هنا انه بالنسبة الى الوثائق الالمانية نفسها . كثيراً ما تتبدل صيغة الكلام من الحاضر الى الماضي ومن المتكلم الى الغائب . واذا فكر المرء بهذه الحقيقة ، واعتبرها امراً واقعاً لا يبقى هناك اي ارتباك .

الطريق لا يمكن إلا ان تكون مصحوبة بالمجازفة... واذا كان المرء يقبل اساس اللجوء الى القوة مع ما يرافقها من مخاطر ، فكل ما يتبقى هناك هو الرد على هذين السؤالين: «متى» و « أين » . وهناك ثلاث حالات تجب معالجتها .

الحالة الأولى : الزمن ١٩٤٣ - ١٩٤٥

« بعد هذا التاريخ لا يمكننا ان ننتظر من وجهة نظرنا الا تبدلاً نحو الاسوأ ، فلقد تمّ اعداد الجيش والاسطول والقوة الجوية تقريباً.. والاسلحة والمعدات حديثة تماماً . ويقوم هناك خطر الاهمال من جراء تأخير العمليات مدة اطول فسرية « الاسلحة الخاصة » لا يمكن الحفاظ عليها بصورة خاصة... وستهبط قوتنا النسبية بالنسبة الى التسلح الذي يجري في بقية انحاء العالم ...يضاف الى هذا ، ان العالم كله كان ينتظر هجومنا ، وكان يضاعف من اجراءاته المقابلة سنة بعد أخرى. وقد اضطررنا الى اتخاذ موقف الهجوم في الوقت الذي كانت فيه بقية انحاء العالم تزيد من وسائلها الدفاعية .

« وليس في مكنة انسان ان يعرف الآن ماسيكون عليه الوضع بين عامي ١٩٤٣ و ١٩٤٥ . وهناك شيء واحد نحن على ثقة منه ، وهو ان ليس في استطاعتنا ان ننتظر مدة اطول .

« واذا قدر للفوهرر ان يظل حياً ، فإن تصميمه الذي لا يتغير يظل قائماً على وجوب حل مشكلة المجال الالماني في مدة اقصاها الفترة بين عامي ١٩٤٣ و ١٩٤٥ . وقد تقع الضرورة في وجوب اتخاذ عمل قبل هذه الفترة في الحالتين الثانية والثالثة .

الحالة الثانية :

« اذا قدر للصراع الداخلي في فرنسا ، ان يتطور الى ازمة داخلية ضخمة ، تشغل الجيش الفرنسي اشغالاً كاملاً وتجعله عاجزاً عن خوض الحرب ضد المانيا فإن الوقت آنذاك يصبح صالحاً للشروع في العمل

ضد التشيكيين .

الحالة الثالثة :

« واذا قدرلفرنسا ان تكون منهمكة فيحرب مع دولة أخرى بحيث تصبح عاجزة عن محاربة المانيا ...

« فإنهدفنا الاول يجب انيكون التخلص من تشيكوسلوفاكيا والنمسا في وقت واحد حتى نزيل أي خطر على جناحنا في اية عملية محتملة ضد الغرب ... وهكذا اذا تمكنا من ازالة التشيكيين من الوجود ، واقمنا حدوداً ألمانية – مجرية مشتركة ، فــان موقفاً حيادياً من بولنده ، هو اقصى ما يمكننا الاعتماد عليه في حالة قيام صراع فرنسي – الماني » .

ولكن ماذا ستفعل كل من فرنسا وبريطانيا وايطاليا وروسيا ؟ ومضى هتلر يرد على هذا السؤال بشيء كثير من التفصيل . فهو يعتقد « ان بريطانيا على وجه التأكيد،وانفرنسا علىوجه الاحتمال،لا بد وان تكونا قد رفعتا التشيكيين من حسابها . فالمصاعب المتعلقة بالامبراطورية ، والخوف من ان تصبح متورطة في حرب اوروبية طويلة ومؤجلة ، كلها من العوامل الحاسمة التي تقرر لبريطانيا عدم اشتراكها في حرب ضد المانيا. ولا شك في ان موقف بريطانيا لن يخلو من التأثير على فرنسا . فالهجوم من جانب فرنسا دون دعم بريطانيا مع الخشية من توقف الهجوم على تحصيناتنا الغربية شيء كثير الاحتمال . وليس من المتوقع ان تزحف فرنسا عبر بلجيكا وهولنده دون عون من بريطانيا .. ولا ريب في أن من الضروري الحفاظ على دفاع قوي على حدودنا الغربية اثناء قيامنا بالهجوم على تشيكوسلوفاكيا وعلى النمسا » .

ومضى هتلر بعد ذلك يحدد بعض المزايا التي تحصل عليها المانيا من « ضم تشيكوسلوفاكياوالنمسا اليها » .فهو يقول انهذا الضم يؤمن حدوداً استراتيجية أفضل لألمانيا ، وتحرير القوات العسكرية للقيام بأهداف أُخرى، واكتساب نحو من اثني عشر مليوناً من « الالمان » ، والحصول على كميات اضافية من المواد

الغذائية لنحو من خمسة أو ستة ملايين من الالمان في الرايخ ومن اليد العاملة لنحو من اثنتي عشرة فرقة عسكرية » .

وقد نسي أن يذكر ما ستفعله ايطاليا وروسيا ، فعاد الآن اليهما . واعرب عن شكه في احتمال تدخل الاتحاد السوفياتي « بسبب موقف اليابان ». وقال ان ايطاليا لن تعارض في « القضاء على التشكيين » ، أما موقفها بالنسبة الى احتلال النمسا فما زال يثير التساؤل . كل شيء يتوقف بصورة اساسية « على ما إذا كان الدوتشي لا يزال حياً » .

ويقوم افتراض هتلر بالنسبة الى الحالة الثالثة على اشتباك فرنسا في حرب مع ايطاليا ، وهو صراع يعتمد عليه كل الاعتماد . وأوضح أن هذا هو السبب في سياسته الرامية الى محاولة مد أجل الحرب الأهلية الاسبانية ؛ إذ انها تؤدي الى استمرار تورط ايطاليا في اشتباك مع فرنسا وبريطانيا . وهو يرى ان حرباً بينها وبين هاتين الدولتين « لا بد واقعة قريباً » . وقال انه في الحقيقة « مصمم على اغتنام مثل هذه الفرصة ، في أي وقت تقع فيه ، حتى ولو سنحت في عام ١٩٣٨ » ، أي بعد نحو من شهرين . وكان على ثقة من ان ايطاليا قادرة اذا ساعدتها المانيا بالمواد الأولية على الصمود في وجه بريطانيا وفرنسا. ومضى يقول:

« واذا أفادت المانيا من هذه الحرب في تسوية قضيتي تشيكوسلوفاكيا والنمسا ، فالمفروض في بريطانيا ان تقرر نظراً لاشتباكها في حرب ايطاليا . عدم العمل ضد المانيا . وما لم تحصل فرنسا على عون بريطانيا فلا يعقل ان تقوم بأي عمل حربي ضد المانيا .

« ومن الواجب ان يتوقف توقيت هجومنا على تشيكوسلوفاكيا والنمسا على سير الحرب الانكليزية – الفرنسية – الايطالية ... ومثل هذا الوضع المواتي قد لا يتكرر ابداً... ولذا فمن الواجب ان يقع الهجوم على التشيكيين في سرعة البرق الخاطف » .

وهكذا تمّ اعداد كل شيء ، عندما جن الظلام على برلين مساء ذلك اليوم

من أيام الخريف في الخامس من تشرين الثاني عام ١٩٣٧ ، اذ لم ينفض الاجتماع قبل الثامنة والربع . وبعد ان نقل هتلر للمجتمعين قراره الذي لا يقبل النقض بالمضي الى الحرب ، ولم يعد ثمة أي شك لدى الزمرة القليلة من الناس الذين سيتولون ادارة دفة هذه الحرب ، في حتمية وقوعها . وكان الديكتاتور قد اعلن ذلك قبل نحو من عشر سنوات في كتابه « كفاحي » . وذكر ان على المانيا ان تبحث عن مجالها الحيوي في الشرق ، وأن تكون متأهبة لاستخدام القوة للحصول على هـذا المجال ، ولكنه لم يكن آنذاك اكثر من مجرد مهيّج مغمور ، ولم يكن كتابه ، كما وصفه المشير فون بلومبرغ ، فيما بعد ، معتبراً عند العسكريين وعند الكثيرين غيرهم ، اكثر من مجرد « قطعـة من الدعاية » التي يرجع الفضل في انتشارها « الى البيع الالزامي » .

أما الآن فقد وجد قادة « الفيرماخت » ووزير الخارجية امامهم تواريخ محددة للعدوان الفعلي ضد دولتين جارتين ، وهو عمل كانوا واثقين من انـه سيؤدي الى حرب اوروبية . وعليهم ان يكونوا على اهبة لهذه الحرب في العام التالي وعلى اكثر تقدير من الفترة الواقعة بين عامي ١٩٤٣ و ١٩٤٥ .

وأذهلهم ادراك هـذه الحقيقة . وليس صحيحـاً كما يثبت من تسجيلات هوسباخ ، ان هؤلاء القادة قد دهشوا مما في اقتراحات زعيمهم من لا خلقية ، بل دهشوا بدافع عوامل اخرى اكثر واقعاً ، وهي أن المانيا ليست على استعداد بعد لخوض حرب كبيرة ، وان اثارتها في هذا الوقت تعني المغامرة بالكارثة .

وقد وجد بلومبرغ وفريتشه ونوراث نتيجة هـذه الدوافع ، الجرأة على الحديث وسؤال الفوهرر عن بياناته ومناقشتها ، ولم تمض اشهر ثلاثة حتى كان الرجال الثلاثة الذين اجترأوا على الزعيم قد طردوا من مناصبهم . وأحس هتلر بأنه قد ارتاح من معارضتهم التي وقعت فعلاً ، والتي كان لا يسمح بوجودها في ايام حكمه في الرايخ الثالث . ثم شرع يمضي في طريق الفاتـح المنتصر ليحقق قدره . ولقد كانت هذه الطريق في البداية اسهل مما توقعه هو أو توقعـه أي نسان آخر .

١٠

فصل إضافي غريب ..

سقوط بلومبرغ ، فريتشه ، نورات وشاخت

حل قرار هتلر باللجوء الى القوة المسلحة ضد النمسا وتشيكوسلوفاكيا حتى ولو ادى ذلك الى تورط المانيا في حرب مع بريطانيا العظمى وفرنسا، وهو القرار الذي اوضحه في الخامس من تشرين الثاني ، كالصاعقة على وزير خارجيته فون نورات ، حتى انه على الرغم من مسالمته وسهولة التعامل معه ، وضعفه المعنوي ، أخذ يعاني من عدة نوبات قلبية [١] .

وراح فيما بعد يحدث اعضاء محكمة نورمبرغ ... « لقد ازعجني خطاب هتلر كل الازعاج ، اذ ان ما قاله ، حطم جميع أسس السياسة الخارجية التي اتبعها باستمرار [٢] ». ولقد مضى وهو في هذه الحالة الفكرية وعلى الرغم من النوبات القلبية التي يعانيها ، بعد يومين يبحث عن الفريق فون فريتشه والفريق بيك ، رئيس اركان الحرب ، ليتحدث اليهما فيما يجب عمله ، « لحمل هتلر على تغيير افكاره » . وكان تأثير خطاب هتلر على بيك ، كما وصفه العقيد هوسباخ ، « مزلزلاً » لقواعد تفكيره . وتمّ الاتفاق على ان يقوم فريتشه في الاجتماع المقبل مع الفوهرر بالاعتراض مبيناً له الاعتبارات العسكرية التي تجعل خطته شيئاً

١ - شهادة مشفوعة باليمين من البارونة فون ريتر قريبة نورات - محاكات كبار مجرمي الحرب (١٦) ص ٦٤٠ .

٢ - محاكات كبار مجرمي الحرب (١٦) ص ٦٤٠ .

غير مقبول ، بينما يحذو نوراث حذوه بالتأكيد على المخاطر السياسية . أما بيك فقد شرع على الفور يدوّن خطياً انتقاداته التي تهدم خطط هتلر ، والتي كما يبدو لم يطلع أي انسان عليها ، لكنها مثلت الاشارة الأولى لنفحة فكرية قدرية من نفحات هـــذا القائد المحترم ذي الشخصية القوية ، الذي رحب في بادىء الامر بمجيء النازية ، ولكنه في النهاية ضحى بحياته في محاولة فاشلة لتحطيمها .

وقام الفريق فون فريتشه بمقابلة هتلر في التاسع من تشرين الثاني . وليس ثمة من سجل مكتوب لما دار بين الرجلين من حديث ، ولكن في وسعنا الافتراض بأن القائد العام للجيش قد عاد فكرر الحجج العسكرية التي تقـــوم ضد خطط هتلر ، دون ان يصل الى نتيجة . ولم يكن هتلر في حـــالة نفسية تسمح له بالاستماع الى أية معارضة سواء من القادة العسكريين أو من وزير الخارجيـة . وقد رفض مقابلة فون نوراث ، ثم مضى الى ملاذه الجبلي في برختسغادن لقضاء فترة طويلة من الاستجمام . ولم يستطع نوراث المريض ان يرتب مقابلة مع الزعيم إلا حوالي منتصف كانون الثاني المقبل . وقد شهد نوراث ، فيما بعد ، أمـــام محاكمات نورمبرغ يقول :

« وحاولت في تلك المقابلة ان اوضح له ان سياسته ستؤدي الى حرب عالمية ، وانني لست على استعداد للاشتراك فيهـــا . ولفتّ اهتمامه الى خطر الحرب ، وإلى تحذيرات القادة العسكرية الجدية الخطيرة ... وعندما وجدته مصراً على آرائه رغـــم جميع الحجج التي عرضتها عليه ، ابلغته بأن عليه والحالة هذه ان يبحث عـــن وزير جديد لخارجيته . »[1]

وكان هتلر قد قرر هذا ، وإن كان نوراث لم يكن قد عرف بقراره بعـد . فبعد اسبوعين اثنين كان يعتزم الاحتفال بالذكرى الخامسة لتوليه الحكم . وكان قد اعتزم ابراز هذا الاحتفال بعملية تطهير داخل بيته ، لا في وزارة الخارجية وحدها بل وفي الجيش ايضاً ، اذ انهما يمثلان الحصنين الحصينين «لرجعية»الطبقة العالية ، التي كان لا يطمئن اليها في دخيلته ، والتي لم ترض به قط تمـــام الرضا

١ - محاكمة كبار مجرمي الحرب (١٦) ص ٦٤١ .

ولم تفهم حقيقـــة اهدافه ، والتي تقف كما بدا من بلومبرغ وفريتشه ونورات عشية الخامس من تشرين الثاني ، في طريق تحقيق مطامحه . وقرر ان يحـــذو هذان السيدان الاخيران بوجه خاص، وربما بلومبرغ المتساهل ايضاً والذي يدين له بالكثير من العون في الماضي ، حذو الدكتور شاخت الذي لا ند له ولا نظير في الخروج الى حياة التقاعد .

فلقد كان المالي الداهية ، والمتحمس القديم للنازية ، والعون الأكبر لهتلر ، قد سقط ايضاً من لائحة اصحاب الحظوة .

كان شاخت قد كرس كما رأينا من قبل ، كل ما لديه من حيوية ومـــن سحر لتمويل عملية هتلر في التسلح السريع . وكان بوصفه المفوض المسؤول عن الاقتصاد الحربي بالاضافة الى عمله كوزير للاقتصاد ، قد طبخ اكبر عـدد ممكن من المشاريع الخيالية وبينها استخدام المطابع ، لجمع الأموال للجيش الجديـــد وللاسطول والسلاح الجوي ، ولدفع جميع « فواتير » التسلح ونفقـــاته. ولكن كانت هناك حدود لا تستطيع أي بلاد ان تتعداها مخافة الافلاس ، وقد آمـن ان المانيا كانت تقترب في عام ١٩٣٦ من تلك الحدود . ولقد حذر هتلر وغورنغ وبلومبرغ ولكن دون جدوى ، وان كان وزير الحربية قد وقف الى جانبـــه يؤيده، فترة من الفترات. وعندما تمّ تعيين غورنغ في ايلول عام ١٩٣٦ مفوضاً لتنفيذ مشروع السنوات الأربع ، وهو مشروع بعيد الاحتمال لتحويل المانيا الى مرتبة الاكتفاء الذاتي في غضون اربع سنوات ، وهو هدف كان شاخت يعتقد باستحالة تنفيذه ، غدا رئيس السلاح الجوي «اللوفتواف»الديكتاتور الاقتصادي الفعلي لألمانيا . ورأى شاخت وهو الانسان المغرور والطموح[1] ، والرجل الذي يستهين كل الاستهانة بجهل غورنغ للشؤون الاقتصادية ، ان مركزه بات حرجاً . وبعد شهور من المنازعات الحادة بين الرجلين الكثيري العناد طلب شاخت من

---

١ ـ يقول السفير الفرنسي الداهية فرانسوا بونسيه ، الذي كان يعرفه تمام المعرفة ،في كتابه سنوات القـدر ص (٢٢١) ان شاخت كان يأمل في وقت من الاوقـــات في ان يخلف هندنبرغ كرئيس للجمهورية ثم طمع في خلافة هتلر ، اذا ما وقع حادث للفوهرر .

الفوهرر ، ان يسلم ما تبقى من توجيه سياسات البلاد الاقتصادية الى يدي خصمه أيضاً ، وأن يسمح له بالاستقالة من منصبه كعضو في الوزارة. وقد ثبط من عزائمه ايضاً الموقف الذي وقفه الكثيرون من ابرز رجال الصناعة والعمل في البلاد اذ كان هؤلاء ، كما ذكر هو فيما بعد عنهم ، « يحتشدون في غرفة الانتظار في مكتب غورنغ ينتظرون الحصول على طلبات انتاجية جديدة بينما كنت لا ازال اعمل كل ما وسعني لأحمل الناس على سماع صوت المنطق » [1].

وقد ادرك شاخت ان اسماع صوت المنطق في هذا الجو المجنون المسيطر على المانيا النازية ، أمر مستحيل كل الاستحالة . وبعد ان اشتبك طيلة اشهر الصيف في خلافات اخرى مع غورنغ اذ استنكر « سياساته في مواضيع النقد الاجنبي والانتاج والشؤون المالية » ، واصفاً اياها بالنبو عن العقل والمنطق ، مضى الى اوبرسالزبرغ في شهر آب ليقدم استقالته الرسمية الى هتلر . وكان الفوهرر متردداً في قبول هذه الاستقالة بالنظر الى ما قد تحدثه من اثر سيىء . ولكن الوزير المتألم كان عنيداً كالصخر ، فوافق هتلر اخيراً على ان يسمح له بهذه الاستقالة بعد شهرين . وراح شاخت في اجازته في الخامس من ايلول وقبلت استقالته بصورة رسمية في الثامن من كانون الأول .

وظل شاخت ازاء اصرار هتلر ، عضواً في الوزارة ، كوزير بلا وزارة ، واحتفظ برئاسته لبنك الرايخ ، محافظاً على المظاهر ، ومزيلاً ما قد تحدثه استقالته من هزة في الرأي العام الألماني والعالمي . لكن نفوذه كضابط لتسلح هتلر المحموم واستعداده للحرب ، بات منتهياً ، وإن كان بقاؤه في الوزارة وفي رئاسة مصرف الرايخ ، قد عنى استمرار اضفاء ما في اسمه وشهرته من عبير وأريج ، على مطامع هتلر واهدافه . وسنرى بالفعل انه تبنى في وقت قصير وبصورة علنية وحماسية اول عمل من أعمال قطاع الطرق والعدوان السافر التي قام بها الزعيم ، ولقد كان مثل القادة العسكريين وغيرهم من المحافظين الذين لعبوا دوراً هاماً في تسلم المانيا الى النازيين ، من ابطأ الناس في اليقظة المتأخرة لإدراك حقائق الحياة .

---

١ – شاخت – تسوية الحساب . ص ٩٠ .

وتولى غورنغ وزارة الاقتصاد بصورة مؤقتة ، ولكن هتلر التقى ذات مساء في أواسط كانون الثاني عام ١٩٣٨ ، وولترفونك في دار الاوبرا في برلين وابلغه عرضاً بأنه سيكون خليفة شاخت في تلك الوزارة. لكن الاعلان الرسمي عن تعيين هذا الانسان التافه القزم والمستكين، الذي لعب دوراً معيناً كما رأينا في السابق في حمل رجالات العمل والصناعة على الاهتمام بهتلر في مطلع حقبة الثلاثين قد تأجل الى وقت ما. وقد هبت على الرايخ الثالث الآن عاصفة مزدوجة من الجيش هوت عليه من عدة جهات ، يتعلق بعضها بالأمور الجنسية من طبيعية وغير طبيعية. وقد جاءت مواتية لهتلر كل المواتاة ومكنته من ان يوجه ضربة قوية الى الفئة العسكرية الارستقراطية ، لم يقدر لها ان تستفيق منها قط ، وسببت نتائج شديدة قامعة ، لا للجيش فحسب الذي فقد بسبب ذلك كل مظاهر استقلاله السابقة التي كان يحرص اشد الحرص على حمايتها بحماس طيلة ايام امبراطورية الهوهنزولرن والجمهورية ، وانما في النهاية لألمانيا وللعالم كله.

سقوط المشير فون بلومبرغ

كتب العقيد الفريد يودل في يومياته بتاريخ السادس والعشرين من كانون الثاني عام ١٩٣٨ يقول : « ما اعظم الأثر الذي تستطيع ان تتركه امرأة حتى ولو لم تدركه هي في تاريخ بلاد ما ، وعن طريقه في تاريخ العالم كله ». ثم مضى يقول ... « يشعر المرء وكأنه يعيش في ساعة قدرية في تاريخ الشعب الألماني ».[١]

وكانت الآنسة ايرنا غرون ، هي التي اشار اليها هذا الضابط الركن اللامع في يوميته ، وكانت عندما اشرف عام ١٩٣٧ على نهايته ، تعتبر نفسها ولا شك

١ - يوميات يودل - محاكمات كبار مجرمي الحرب (٢٨) ص ٣٥٧

آخر شخص في المانيا يستطيع ان يدفع ، كما قال يودل ، بالشعب الألماني الى ازمة قتاله ، وان يمارس نفوذاً طاغياً على تاريخه . ولم يكن هذا ممكناً الا في هذا العالم المريض نفسياً ، والذي يسيطر عليه الذعر ، الممثل في الحلقة الداخلية للرايخ الثالث ، الذي كان يتحرك في هذه الآونة بسرعة مجنونة .

كانت ايرنا غرون سكرتيرة لبلومبرغ ، وعندما دنا عام ١٩٣٧ من نهايته ، كان قد أحس بغرام عنيف يشده اليها حتى انه اقترح عليها الزواج . وكانت زوجته الأولى ، وهي ابنة ضابط متقاعد قد توفيت في عام ١٩٣٢ بعد ان عاشت معه ثمانية وعشرين عاماً . وكان اطفاله الخمسة قد شبوا في هذه الآونة حتى ان كريمته الصغرى كانت في عام ١٩٣٧ قد تزوجت من النجل الأكبر للفريق كايتل الذي شمله برعايته ، وأحس الرجل بالملل من ترمله ، ووحدته ، فقرر ان الوقت قد حان ليتزوج من جديد . ولما كان يعرف انه لا يخلق بالضابط الاعلى في الجيش الألماني الزواج من فتاة من عامة الناس ، مما يحط من شأن فيلق الضباط الارستقراطي والمتعجرف ، فقد مضى الى غورنغ يسأله النصيحة . ولم ير غورنغ ما يحول دون هذا الزواج ، إذ ألم يسبق له هو ان تزوج بعد وفاة زوجته الاولى من ممثلة مطلقة ؟ واضاف غورنغ ان ليس ثمة مكان في الرايخ الثالث للأهواء الاجتماعية البليدة ، التي تسيطر على فيلق الضباط . ولم يكتف غورنغ باعلان موافقته على ما انتواه بلومبرغ فحسب ، بل اعلن عن استعداده لاقناع هتلر ، اذا رأى ضرورة لذلك ، ولتقديم اية مساعدة اخرى ممكنة . وكانت هناك طريقة اخرى يستطيع ان يقدم له فيها عونه . فقد اسر اليه المشير بأن هناك عاشقاً ينافسه في حبه لهذه الفتاة . ولم تكن هذه بالمشكلة المستعصية على غورنغ ، اذ كان المألوف في مثل هذه الحالات من المضايقات ان يزج بالمنافس في معسكرات الاعتقال ، ولكن بالنظر الى المثل الخلقية القديمة الطراز عند المشير العجوز فقد اقترح غورنغ ان يبعث بالمنافس المزعج الى امريكا الجنوبية وهذا ما فعله تماماً .

ولكن متاعب بلومبرغ لم تنته . فقد سجل يودل في الخامس عشر من كانون

الأول عام ١٩٣٧ ، فقرة غريبة في يومياتـــه . « كان المشير بلومبرغ ثائراً وفي حالة هياج . السبب مجهول ، ويبدو انها قضية شخصية . وقد اعتكف مـدة ثمانية ايام في مكان مجهول »[١].

وعاد بلومبرغ الى الظهـــور في الثاني والعشرين من كانون الأول ، لالقـاء خطاب التأبين في تشييع جثمان الفريق لودندورف في «فيلدهيرنهول» في ميونيخ. وقد شهد الاحتفال ولكنه رفض ان يخطب فيه لأن بطل الحرب الكونية كان قد رفض اي اتصال بهتلر ، بعد ان شهده يهرب أمام طلقات الرصاص في « فيلد هيرنهول » ابان محاولة الانقلاب الفاشلة في حانة الجعة . وباح المشير بعد انتهاء مراسم الدفن للفوهرر بعزمه على الزواج . وكم كان سروره عظيماً عندمـــا بارك له هتلر خطوته .

واقيم احتفال الزواج في الثاني عشر من كانون الثاني عام ١٩٣٨ . وحضر الإحتفال كل من هتلر وغورنغ كشاهدي الزواج . ولكن لم يكـــد العروسان يطيران الى ايطاليا لقضاء شهر العسل حتى انفجرت العاصفة . وكان في امكان فيلق الضباط المتزمت ان يبتلع مرارة زواج الماريشال بسكرتيرته ، ولكنه لم يكن على استعداد لقبول زواجه من امرأة ذات ماض كما بدأت الآن التفاصيل المرعبة تلقي اضواءها على القصة وبطلتها .

وكان الأمر لا يعدو حدود الشائعات في بادىء الامر . وشرع الجنرالات الغلاظ الرقاب ، يتلقون مكالمات هاتفية مجهولة من فتيات ضاحكات ساخرات ، يتحدثن كما يبـــدو من المقاهي والنوادي الليلية القذرة ينقلن الى القـــادة العسكريين تهانيهن للجيش لقبوله واحدة منهن في رحابه . وقام أحد مفتشي الشرطة في مقر القيادة في برلين بالتحري عن هذه الشائعات فعثر على ملف في قيادة الشرطة يحمل اسم « ايرناغرون » . وأحس المفتش بالرعب ، فحمل الملف الى رئيس الشرطة الكونت فون هيلدورف .

وعلى الرغم من ان الكونت كان من رجـــال الفيلق الحرّ في الماضي ومن

١ - يوميات يودل - محاكمات كبار مجرمي الحرب (٢٨) ص ٢٥٦ .

رجال جيش العاصفة المشاغبين الا انه شعر بالفزع ايضاً ، فلقد اشار الملف الى ان عروس المشير والقائد العام ، صاحبة سجل عند الشرطة كاحدى العاهرات ، وكانت احدى المحاكم قد ادانتها بتهمة الوقوف عارية امـــام المصورين لبيع صورها بين صور العاريات . وقد ثبت ان زوجة المشير الشابة نشأت في صالون للتجميل ، تديره أمها ، وكان من المعروف في برلين ، ان مثل هذه الصالونات لم تكن في الحقيقة الا مجرد ستار لاخفاء حقيقتها كبيوت للدعارة .

وحتم الواجب على هيلدورف كما هو واضح ان يحمل الملف الى رئيسه هملر القائد الأعلى للشرطة الألمانية . ولكن على الرغم من حماسه للنازية ، الا انه كان في الماضي عضواً في فيلق ضباط الجيش وكان قد استوعب الكثير من تقاليـده ، وادرك ان هملر ، الذي اختلف منذ اكثر من عام خلافاً شديداً مع القيادة العليا للجيش والذي اصبح الجيش ينظر اليه على انه خطر واشد شراً من خطر روهم في الماضي ، لا بد وان يستعمل الملف للتشهير بالمشير ، وتهديده به ليجعل منه اداته في خصامه مع القادة المحافظين . وهكذا مضى هيلدورف بشجاعة يحمل الملف الى الفريق كايتل لا الى رئيسه هملر . ويبدو ان الرجل كان على ثقـــة من ان كايتل المدين بترقيته الاخيرة في الجيش لبلومبرغ ، والذي تربطه بالمشير اواصر القربى ، لا بد وان يرتب مع فيلق الضباط نفسه طريقة معالجة القضية ؟ وان يحذر رئيسه من الخطر الذي يتعرض له . ولكن كايتل بوصفه رجلاً طموحاً ومتغطرساً لم يكن يعتزم بالاضافة الى ما امتاز بـــه من ضعف في تفكيره وفي خلقه الشخصي : ان يقامر بمستقبله عن طريق الوقوع في خلاف مـــع الحزب والحرس النازي . وبدلاً من ان يحمل الملف الى رئيسه في الجيش : الفريق فون فريتشه : اعاده الى هيلدورف مقترحاً عليه اطلاع ، غورنغ على محتوياته .

ولم يكن هناك بالطبـع من يفوق غورنغ فرحاً لتسلمه هذا الملف ، اذ اتضح له ان بلومبرغ سينتهي فوراً بعد هذا الاكتشاف الفظيع لانطباق هذه النهايةعلى المنطق . وخيل اليه انه سيخلفه في منصبه كقائد عام « للفيرماخت » وهو الهدف الذي جعله دائماً نصب عينه . وقد قطع بلومبرغ شهر عسله في ايطاليا

ليعود الى المانيا ويشهد تشييع والدتـه الى مقرها الاخير : وفي العشرين من كانون الثاني ؟ مضى وهو خالي الفكر مما يدبر له في الخفاء الى مكتبه في وزارة الحربية لاستئناف عمله .

ولكن عمله فيها لم يطل . فلقد حمـل غورنغ في الخامس والعشرين من كانون الثاني الوثيقة المتفجرة الى هتلر الذي كان قد عاد لتوه من برختسغادن ، وسرعان ما انفجر الفوهرر . لقد خدعه مشيره ، وجعله بوصفه شاهد زواجه يبدو اضحوكة امام الناس . وكان غورنغ اول من وافـق الفوهرر على رأيه هذا ومضى عند الظهيرة لمقابلة بلومبرغ شخصياً ليفضي اليه بالانباء . ويبدو ان المشير قد تأثر أشد التأثر من هذه الاكتشافات عن عروسه ، وعرض ان يطلقها فوراً . ولكن غورنـغ اوضح له بكل تهذيب وكياسة ، ان هذا يعتبر حلاً كافياً . فقيادة الجيش نفسها تطلب استقالته ، وقد كتب يودل في يومياته بعد يومين ان الفريق بيك رئيس اركان الحرب ، ابلغ كايتل ان الإنسان لا يستطيع ان يتسامح في قبول زواج أعلى جندي في الجيش من عاهرة » . وعلم يودل في الخامس والعشرين من كانون الثاني عن طريق كايتل ، ان هتلر أقـال مشيره من منصبه . وبعد يومين اثنين غادر الضابط الذي هوى وهو في الستين من عمره ، برلين ، الى كابري لاستئناف شهر العسل .

وسرعان ما لحق به الى هذه الجزيرة الفاتنة احـد مساعديه البحريين الذي اضاف اللمسة المضحكة الاخيرة على هذه القصة التي تجمع بين المأساة والمهزلة . فلقد بعث الاميرال ريدر بهذا الضابط الملازم فون وانغنهايم ليطلب الى بلومبرغ حفاظاً على شرف فيلق الضباط ، ان يطلق زوجته . وكان الضابط البحري الصغير شاباً متحمساً ومتعجرفاً للغاية ، وعندما غدا في حضرة المشير الذي يقضي شهر عسله ، تجاوز ما لديه من تعليمات . وبدلاً من ان يطلب منه الطلاق ، اقترح ان يقوم رئيسه السابق بالعمل الكريم الذي يليق به ، ثم حاول ان يقذف بمسدسه في يد المشير . ولكن هذا على الرغم من سقوطه ، ظل كما يبدو راغباً في الحياة ، ويبدو انه كان لا يزال شغوفاً بعروسه على الرغم من كل ما حدث

ولذا فقد رفض ان يأخذ السلاح المعروض ، معلقاً على ذلك في الرسالة التي بعث بها لتوه الى كايتل ، انه يختلف ، كما يبدو ، مع الضابط البحري « في نظرتهما الى الحياة وفي مقاييسهما عنها »[١].

وكان الفوهرر قد مناه بالعودة الى اعلى المناصب بعد ان تهـــدأ العاصفة . ويقول يودل في يومياته ، ان هتلر قال لبلومبرغ اثناء المقابلة التي اقاله فيها من منصبه بأنه « في اللحظة التي تدق فيها ساعة المانيا ستكون الى جانبي، وسننسى كل ما وقع في الماضي »[٢] ولقد كتب بلومبرغ بالفعل في يومياته التي لم تنشر بأن هتلر مناه في اجتماعهما الاخير ، « بكل ما في قوله من جزم وتأكيد » بأنه سيعود الى القيادة العليا للقوات المسلحة في حالة نشوب الحرب[٣].

ولكن هذا الوعد شأن الكثير من وعود هتلر الاخرى لم ينفذ . فلقد شطب اسم المشير فون بلومبرغ من سجلات الجيش الى الابد ، وحتى عندمـــا نشبت الحرب ، وتقدم الرجل يعرض خدماته ، لم يوله هتلر أي منصب من المناصب . وقد عاد المشير مع زوجته الى المانيا واستقرا في قرية ويسي البافارية الصغيرة ، حيث عاشا في حياة مغمورة الى ان انتهت الحرب. وقد ظل الرجـــل كملك بريطانيا السابق الذي عاصره ، مخلصاً لزوجته التي سببت له سقوطـه حتى النهاية عندما توفي في الثالث عشر من اذار عام ١٩٤٦ في سجن نورمبرغ، حيث كان ينتظر وهو في منتهى النحول ، الذي يثير الاشفاق، دوره لتقديم الشهادة .

سقوط الفريق فريهير فيرنر فون فريتشه

كان الفريق فريهير فيرنر فون فريتشه، القائد العام للجيش والضابط الصارم

١ — يوميات يودل — محاكمات كبار مجرمي الحرب . ص ٣٦٠ - ٣٦٢
٢ — يوميات يودل — محاكمات كبار مجرمي الحرب ص ٣٥٧
٣ - تيلفورد تيلور « السيف والصليب المعقوف » ص ١٤٩ — ١٥٠

الموهوب من رجال المدرسة القديمة والذي وصفه امير البحر ريدر بأنه مثال الضابط الركن اللامع المرشح الواضح لخلافة بلومبرغ في منصبه كوزير للحربية وكقائد عام للقوات المسلحة . ولكن غورنغ كان يحلم كما ذكرنا بالوصول الى هذا المنصب وهناك من يعتقدون بأن غورنغ هو الذي دفع بلومبرغ عن سابق عمد واصرار الى الزواج من تلك المرأة التي كان على علم سابق بماضيها الملوث ، رغبة منه في تمهيد الطريق لنفسه للوصول الى المنصب . واذا صحت هذه الرواية، فان بلومبرغ لم يكن على أي حال عليماً بها، اذ انه في مقابلته الوداعية لهتلر في السابع والعشرين من كانون الثاني اقترح عليه ان يكون غورنغ خليفته . لكن الفوهرر كان يعرف على أي حال رفيقه النازي القديم اكثر من أي شخص آخر ، وكان يصفه بانه كثير الاعتداد بنفسه ومفتقر الى الصبر والى الكد والمواظبة . ولم يكن هتلر في نفس الوقت ميالاً الى فون فريتشه لانه لم يرتح الى المعارضة التي ابداها هذا لمشاريعه الضخمة في الخامس من تشرين الثاني ولم ينسها . يضاف الى هذا ان عداء فريتشه للحزب النازي ولا سيما للحرس الحديدي لم يكن سراً من الاسرار على الاطلاق ، وهو أمر لم يكن قد اثار اهتمام الفوهرر فحسب بل واستفز هنريخ هملر ، قائد الحرس ، ورئيس الشرطة ، وحمله على التصميم تصميماً حاسماً على الاطاحة بهذا الخصم القوي الذي يتزعم الجيش[1].

وحانت الآن فرصة هملر ، أو لعله هو الذي خلقها ، عن طريق خلق قصة معيبة لا يستطيع المرء ان يصدق وقوعها حتى في عام ١٩٣٨ ، وفي ذلك العالم الذي كان الحرس النازي والحزب الاشتراكي الالماني يطئانه بنعالهما ، ولا ان يفترض قبول الجيش الالماني لها ، اذ كان هذا الجيش يتمتع على الرغم من

---

١ - وقفت في الاول من اذار عام ١٩٣٥ ، وهو يوم تسلم المانيا لحوض السار الى جانب فريتشه، على منصة العرض في سار بروكن مدة طويلة قبل ان يبدأ العرض . وعلى الرغم من انه لم يكن يعرف عني سوى انني احد هؤلاء المراسلين الامريكيين الكثيرين في برلين ، الا انه شرع ينطق بملاحظات ساخرة عن الحرس النازي وعن الحزب وقادته من هتلر الى اصغر فرد فيه . ولم يكن يخفي ما يحس به من ازدراء لهم . (مذكرات برلين - للمؤلف - ص ٢٧) .

كل شيء ببعض التقاليد العريقة . وقد جاءت هـــذه القصة في اعقاب فضيحة بلومبرغ ففجرت قنبلة ثانية اكثر هولاً ، هزت فيلق الضباط من قواعده واسسه وقررت مصيره .

ففي اليوم الخامس والعشرين من كانون الثاني ، وكان غورنغ يطلع هتلر على السجل الموجود فيدوائر الشرطة لعروس بلومبرغ اذ به يبسط امام الفوهرر وثيقة اخرى اكثر ضرراً وهولاً . وكان هملر هو الذي قدم هذه الوثيقـــة التي حصل عليها من كبير مساعديه ، هايدريش رئيس الجهاز السري الخاص للحرس النازي ، وهي ترمي الى اظهار ان الفريق فون فريتشه كان متهمـــاً بجرائم الشذوذ الجنسي طبقاً للمادة (١٧٥) من قانون العقوبات الألماني ، وانـــه كان يدفع الأموال علىسبيل الابتزاز منذ عام ١٩٣٥ الى مجرم سابق ليشتري سكوته على الموضوع . وكانت اوراق الغستابو من الشمول بحيث اصبح هتلر ميـــالاً الى قبول التهمة ، بينما لم يحاول بلومبرغ ، الذي كان ينفث حقده وسخطه عـــلى فريتشه بسببالموقف الصارم الذي وقفه الجيش من قضية زواجه اقناعه بعكس ذلك . وأسر بلومبرغ للفوهرر بأن فريتشه لم يكن ميالاً الى النساء مضيفاً انه وقد عاش حياته كلها اعزب بـــلا زواج ، معرض « للاذعان الى مثل هـــذا الضعف » .

وأحس العقيد هوسباخ مساعد هتلر العسكري ، والذي شهد المنظر عندمـا عرض ملف الغستابو على الفوهرر ، بشيء من الفزع ، ومضى لتوه الى مـنزل قائد الجيش لابلاغه التهمة ، متحدياً بذلك اوامر هتلر الذي كان قد طلب عدم ابلاغ أي شيء للفريق المتهم ، وليحذره ايضاً من المتاعب القـــذرة التي باتت تهدده[1]. واصيب النبيل البروسي الصامت بشيء من التبلد وقال ... « يا لها

١ - كلف هذا العمل هوسباخ منصبه بعد يومين اثنين لا حياته كما خشي بعض الناس. فقد اعيد الى هيئة اركان الحرب العامة ، وارتقى ابان الحرب الى رتبة الفريق ، واصبح قائداً للجيش الرابع في الجبهة الروسية الى ان طرده هتلر فجأة بأمر هاتفي في الثامن والعشرين من كانون الثاني عام ١٩٤٥. لأنه امر بتراجع قواته متحدياً أمر الفوهرر . — المؤلف -

من اكاذيب قذرة » وعندما هدأت ثائرته ، اكد لأخيه الضابط بشرفه العسكري ، ان هذه التهم لا صحة لها مطلقاً . وراح هوسباخ في الساعات المبكرة من صباح اليوم التالي ، غير آبهٍ بالنتائج يبلغ هتلر ما دار بينه وبين فريتشه ، ونقل اليه نفي الجنرال القاطع لهذه الاتهامات وحث الفوهرر على ان يعطيه المجال للدفاع عن نفسه ، ولنفي جريمته نفياً جازماً .

ووافق هتلر على ذلك . وكانت موافقته مفاجأة لهوسباخ ، واستدعي القائد العام للجيش الالماني للمثول في دار المستشارية في ساعة متأخرة من ذلك اليوم نفسه . ولكنه دعي ليمر في تجربة لم تكن حياته الطويلة كانسان ارستقراطي وكضابط وسيد مهذب ، قد هيأتها له . ووقع الاجتماع في مكتب المستشارية وقد شهده هذه المرة هملر بالاضافة الى غورنغ . وبعد ان لخص هتلر التهم ، اقسم فريتشه بشرفه العسكري بأنها كاذبة ومختلقة . ولكن مثل هذه التأكيدات لم يعد لها مكان في الرايخ الثالث ، وسرعان ما قام هملر الذي كان ينتظر هذه اللحظة بفارغ الصبر منذ اكثر من ثلاث سنوات ، بادخال شخص منحل الهيئة تبدو عليه الحيلة والمكر ، من باب جانبي . ولا ريب في ان هذا الانسان كان من اغرب الاشخاص الذين دخلوا دار المستشارية الألمانية في حياتها الطويلة واسوأهم سمعة . ويدعى هذا الرجل هانس شميدت ، وهو صاحب سجل حافل في مختلف السجون يبدأ بأول حكم صدر عليه في اصلاحية الاحداث . وتبين ان العيب الاساسي في هذا الرجل ، تلصصه على اصحاب الشذوذ الجنسي ، ومن ثم ابتزاز المال منهم عن طريق تهديدهم بالتشهير . وراح يزعم الآن انه يعرف الفريق فون فريتشه ، كالقائد العام للجيش ، وانه عثر عليه متلبساً بجريمة اللواط في احدى الدروب الضيقة على مقربة من محطة السكك الحديدية في بوتسدام في برلين مع شخص منحط يدعى « جوالبا فاري »[١]. واصر شميدت على القول أمام هؤلاء الثلاثة الذين يمسكون بزمام السلطان في المانيا ، بأن هذا القائد ظل

---

١ — قدم غيزيفيوس (Gisevïus) الاسم في كتابه « الى النهاية المرة » ص ٢٢٩

سنوات طويلة يدفع له المال ليشتري سكوته ، ولم يتوقف الدفع ، الا عندما اودع غياهب السجن متهماً في قضية جديدة .

وأعمى الغضب الفريق فون فريتشه ولم يستطع ان يحير جواباً ولم يستطع احتمال هذا المنظر ، الذي يرى فيه رئيس الدولة الألمانية وخليفة هندنبرغ وقياصرة الهوهنزلرن ، يقدم مثل هذه الشخصية القذرة ، في مثل هذا المكان ولمثل هذا الهدف . ولكن صمته ، ساعد هتلر على الاقتناع بجريمته وسرعان ما طلب منه الفوهرر استقالته . ورفض فريتشه تقديم هذه الاستقالة ، وطالب بدوره ان تجري محاكمته امام محكمة عسكرية . ولكن هتلر لم يكن عازماً على السماح للطبقة العسكرية بتسلم زمام القضية ، في هذه الفترة على الاقل . وكانت هذه الفرصة هبة اتاحتها له السماء ، ولن يتخلى عنها ، ليحطم معارضة القادة العسكريين الذين يرفضون الاذعان لارادته وعبقريته . ولذا فقد اصدر امره على التو الى فريتشه في ان يمضي في اجازة غير محدودة مما اعتبره معادلاً لوقفه عن العمل كقائد عام للجيش . وتشاور هتلر في اليوم التالي مع كايتل ، لاختيار خلف لا لبلومبرغ وحده بل ولفريتشه أيضاً . ويسجل يودل هنا في يومياته ، معتمداً على كايتل الذي كان المصدر الرئيسي لمعلوماته، نتفاً هنا وهناك تشير الى قيام عملية تنقلات جذرية لا في قيادة الجيش وحدها ، بل وفي جميع جهاز القوات المسلحة ، يسفر في النهاية عن اذعان السلطات العسكرية لارادة الفوهرر .

فهل يتخلى كبار القادة العسكريين عن سلطانهم ، الذي ظل وان لم يكن مطلقاً في أية حالة من الاحوال ، المظهر الوحيد للسلطة الخارجة عن قبضة هتلر ؟ وعندما عاد هتلر إلى شقته في « بنديلشتراسه » من المحنة التي مر بها في المستشارية. راح فريتشه يشاور الفريق بيك ، رئيس هيئة اركان الحرب. ويقول بعض المؤرخين الانكليز[1] ان بيك حثه على القيام بعملية انقلاب عسكري

---

١ ـ بالوك ـ مناقشات هتلر السرية ـ ص ٣٨١ ، ووبلر بنيت ـ نقمة السلطان ـ ص٣٦٩

فوراً ضد حكومة هتلر ، وان فريتشه رفض الأخذ بهـــذا الرأي . ولكن وولفغانغ فوريستر ، الألماني الذي أرخ حياة بيك والذي كانت جميع اوراق الفريق الشخصية في حيازته ، يقول ان بيك اجتمع اولاً في ذلك المساء الرهيب الى هتلر ، الذي اطلعه على التهم الخطيرة ، ثم عاد فاجتمع الى فريتشه الذي انكرها كلها ، وهرع ليجتمع في ساعة متأخرة من الليلة نفسها الى هتلر طالباً اعطاء قائد الجيش الفرصة لتبرئة نفسه أمام محكمة عسكرية المانية . ويقول مؤرخ حياة بيك أيضاً ان الفريق لم يكن قد فهم بعد حقيقة حـــكام الرايخ الثالث . فلما فهمها ، كان الوقت قد فات . وبعد أيام ، وكان الوقت قـد فات أيضاً ، عندما لم يكتف هتلر بإخراج بلومبرغ وفريتشه وحدهما ، وانما اخرج معهما ستة عشر فريقـــاً آخرين ، احيلوا إلى التقاعد كما نقل اربعـــة واربعين آخرين إلى قيادات ثانوية ، وجلهم من اصدقاء فريتشه والمقربين إليه ، وبينهم بيك بالطبع . وفكر العسكريون تفكيراً جدياً باتخـــاذ اجراءات مضادة . ولكنهم سرعان ما تخلوا عن مثل هذه الأفكار الخطرة . ويقول فوريستر : « وكان من الواضح لهؤلاء الناس ، ان الانقلاب العسكري يعني الحرب الأهلية ، وانه غير مضمون النجاح » . وكان القادة الألمان كشأنهم دائماً يريدون ان يكونوا واثقين من النصر قبل القيام بمثـــل هذه المغامرة العظيمة . وكانت خشيتهم مركزة ، كما يقول هذا الكاتب الألماني ، لا على الخوف من مقاومـــة سلاح غورنغ الجوي واسطول امير البحر ريدر فحسب ، اذ كانت هاتان القوتان واقعتين تحت سيطرة الفوهرر تماماً ، بل وعلى الخوف من ان لا يقف الجيش كله وقفة النصر الكاملة لقائده العام الذي هوى[1] .

ولكن فرصة واحدة واخيرة أتيحت لكبار قادة الجيش لتوجيه الضربـة بدورهم إلى هتلر . فلقد أقام تحقيق اولي شرع به الجيش متعاوناً مـــع وزارة الدفاع الدليل السريع على ان الفريق فون فريتشه راح ضحية بريئة لمؤامرة قام بها الغستابو ، بايعاز من هملر وهايدريش . وظهر ان المجرم السابق شميدت كان

١ ـــ وولفغانغ فورلسيتر « جنرال يكافح ضد الحرب » ص ٧٠ ـ ٧٣

بالفعل قد قبض على ضابط في وضع غير طبيعي في ظـــلال محطة بوتسدام ، وكان بالفعل قد نجح في ابتزاز المال منه سنوات طويلة . ولكن اسم هـــذا الضابط فريش لا فريتشه ، وهو ضابط فرسان متقاعد ، طريح الفراش وقد سجل اسمه في سجلات الجيش على النحو التـــالي « ريتماستر فون فريش » . وكانت الغستابو تعرف هذه الحقائق . ولكنها القت القبض على شميدت وهددته بالموت إلا إذا اشار باصبعه إلى القائد العام للجيش . وقد قامت الغستابو باعتقال القائد المريض ، لتحول بينه وبين الكلام ، ولكن الجيش تمكن من انقـــاذه وانقاذ شميدت من براثن الغستابو ، ووضعهما في مكان امين ، حتى يتمكنا من الظهور أمام المحكمة العسكرية ليشهدا في قضية فريتشه .

وطرب قادة الجيش الشيوخ لهذه النتيجة ، لا لأنها تبرىء ساحة قائـــدهم العام ، وتعيده الى قيادة الجيش فحسب ، بـــل ولأنها تكشف ألاعيب الحرس النازي والغستابو ، ودسائس قائديهما هملر وهايدريش اللذين تلفهـــما الشكوك والظنون ، فيكون مصير هاتين القوتين ورئيسيهما عين مصير روهم وجيش العاصفة قبل اربع سنوات . واعتقدوا ان هذه النتيجة ستكون ضربة للحزب ولهتلر نفسه ، وستزعزع قواعد الرايخ الثالث بعنف ، وقد تؤدي الى سقوط الفوهرر كذلك . فاذا حاول هتلر أن «يلفلف» الجريمة ، فان الجيش نفسه ، يستطيـــع وهو مرتاح الضمير بعد ان اتضحت الحقيقة . ان يعالج القضية بيديه . ولكن العريف النمسوي السابق تمكن بدهائه مرة ثانية من التغلب على هؤلاء الفرقاء كالمرات السابقة التي تغلب عليهم فيها في غضون السنوات الخمس الماضيـة ثم شاء القـــدر ان يهزمهم هزيـــة كلية ، لا سيما وان الزعيم ، لا هم ، يعرف كيف يستغل هذا القدر لغاياته .

وسيطر على برلين طيلة هذا الاسبوع الاخير من شهر كانون الثاني عام ١٩٣٨ جو من التوتر ذكر الناس بذلك الجو الذي خيم على المدينة في اواخر حزيران عام ١٩٤٣ . وامتلأت العاصمة مرة ثانية بالشائعات . فلقد اقال هتلر أعـــلى

رجلين في الجيش لأسباب مجهولة . وكانت روح الثورة تسيطر على القـــادة العسكريين ، وأخذوا يتآمرون للقيام بانقلاب عسكري ، وسمع السفير فرانسوا بونسيه الذي كان الفريق فريتشه قد دعاه الى العشاء مساء الثـــاني من شباط ثم الغى الدعوة ، انه قـــد اعتقل . وانتشرت شائعات تقول بأن الجيش يعتزم تطويق الرايشستاغ ، عندما يجتمع للاستماع الى خطاب هتلر في الثلاثين مـــن كانون الثاني بمناسبة الذكرى السنوية الخامسة لتسنمه الحكم ، واعتقال جميـــع اعضاء الحكومة النازية ونوابها الذين اختارتهم . وصدق الناس هذه الشائعات عندما اعلن ان جلسة الرايشستاغ ، قد اجلت الى اجل غير مسمى . وكان من الواضح ان الديكتاتور الألماني يواجه بعض المتاعب . فقد وجد اخيراً انداده في كبار القادة العسكريين للجيش الذين لا تلين لهم قناة . وكان هذا ما خيل الى الناس ، ولكنهم كانوا جد مخطئين .

وعقدت الوزارة الالمانية في الرابع من شباط عام ١٩٣٨ ، ما قدر له ان يكون آخر اجتماع لها . فمهما كانت المتاعب التي واجهها هتلر ، فانه صمم الآن على حلها بطريقة ازاحت جميع معارضيه لا من الجيش فحسب بل ومن وزارة الخارجية الألمانية ايضاً . وقد حمل الفوهرر مجلس الوزراء في ذلك اليوم عـــلى اتخاذ قرار عاجل تولى هو اذاعته الى البلاد والعالم على جميع محطات الاذاعـة الالمانية قبيل منتصف الليل وهذا نصه :

« سأتولى منذ اليوم شخصياً قيادة القوات المسلحة كلها » .

وكان هتلر بوصفه رئيساً للدولة ، القائد الأعلى للقوات المسلحة ، لكنـه الآن تولى منصب بلومبرغ كقائد عام ، والغى وزارة الحربية التي كان العريس الولهان يرئسها ايضاً . وأقام بدلاً منها منظمة جديدة وسرعان ما اشتهر أمرها في الحرب الكونية الثانيـــة وعرفت باسم القيادة العليـا للقوات المسلحة (Oberkommando der Wehrmacht) وألحق بهـا جميع القوى المسلحة الثلاث وهي الجيش والاسطول والسلاح الجوي. وقد بات هتلر القائد الأعلى لهذه القيادة ويساعده فيها رئيس لأركان الحرب يطلق عليه اسم طنان جـداً هو « رئيس

القيادة العليا للقوات المسلحة » ، وهو منصب انتقل الى كايتل الذي ظل محافظاً عليه حتى النهاية .

وأراد هتلر ترضية مشاعر غورنغ الذي كان على ثقة من انـــه سيخلف بلومبرغ، فخابت آماله الآن ، فمنحه رتبة الماريشالية ، وغدا بذلك أعلى ضابط في الرايخ رتبة وهو ما طرب له غاية الطرب . واعلن هتلر رغبة منه في تهدئة قلق الجماهير ان بلومبرغ ، وفريتشه قد استقالا « لأسباب صحية » . وهكذا تخلص من فريتشه مرة والى الابد حتى قبل ان يحاكم امام محكمة عسكرية كان هتلر على ثقة من تبرئتها لساحته . وقد بدا هذا العمل مثيراً لكبار القادة العسكريين ولكن لم يكن باستطاعتهم ان يفعلوا شيئاً ، اذ انهم احيلوا بموجب المرسوم نفسه الى سلة المهملات ، فقد اخرج ستة عشر قائداً منهم الفرقاء فون رونشتادت وليب وفون ويتزليبين وفون كلوغيه وفون كلايست من قياداتهم ، بينما نقل اربعة واربعين آخرين من مراكزهم اذا اعتبروا اقل حماساً في اخلاصهم للنازية من بقية القادة الذين ظلوا في مناصبهم .

وعجم هتلر عيدانه فاختار بعد تردد أضعفها عـوداً ليخلف فريتشه في قيادة الجيش ، وهو الفريق وولتر فون براوختش ، الذي يتمتع بسمعة حسنة بين القادة العسكريين ولكنه برهن على انه لا يقل ضعفاً واستخذاء عن بلومبرغ عندما يتطلب الأمر الوقوف أمام مزاج هتلر الرجراج . وخيل إلى الناس لبضعة أيام ابان الأزمة ان مشاكل الجنس ستؤدي أيضاً إلى الاطاحة ببراوختش كما اطاحت ببلومبرغ وفريتشه ، فلقد كان هذا القائد على وشك الحصول على الطلاق من زوجته وهو عمل لا تنظر إليه الارستقراطية العسكرية بعين الارتياح . وسجل يودل الكثير الفضول ، هذه المشكلة في يومياته ؛ فقد ذكر في يوميته التي كتبها نهار الاحد في الثلاثين من كانون الثاني ، ان كايتل قد دعا نجل براوختش « ليبعث به إلى والدته ليحصل منها على موافقتها على الطلاق» ، وذكر بعد بضعة أيام نبأ اجتماع دار بين براوختش وكايتل وغورنغ « لبحث طرق الوصول إلى حل عائلي » . ووعد غورنغ الذي بدا وكأنه أخذ على عاتقه

دور القيام بالحكم في مشاكل الجنس التي يقع فيها الفرقاء العسكريون ، بالنظر في القضية . وعاد يودل فدون في ذات اليوم « ان نجل براوختش عاد يحمل رسالة متعالية من والدته » . وكان مغزى الرسالة انها لن تقف في طريق زوجها . ولم يعارض غورنغ وهتلر في الطلاق الذي حصل عليه القائد الجديد للجيش بعد بضعة اشهر من تقلده منصبه الجديد . وذلك لأن كلاً منهما كان يعرف ان السيدة شارلوت شميدت ، التي اعتزم الفريق الزواج منها كانت كما ذكر اولريخ فون هاسل « نازية متهوسة مائتين في المائـة » . واقيمت حفلة الزواج في الخريف التالي ، واثبت هذه القصة كما دون يودل من جديد ، مثلا آخر على ما يمكن للمرأة ان تلعبه من دور مؤثر في التاريخ[1].

ولم تقتصر عملية هتلر في تنظيف داخل بيته على الفرقاء العسكريين بل انه أزاح نوراث أيضاً من وزارة الخارجية مستعيضاً عنه بريبنتروب ، الانسان الضحل والمستكين[2]. وتم تسريح دبلوماسيين مخضرمين همـــا اولريخ فون هاسّيل ، السفير في رومـــا وهيربرت فون ديركسين السفير في طوكيو من

---

١ - يقول ميلتون شولمان في كتابه « الهزيمة في الغرب » في الصفحة العاشرة ان هتلر نفسه تدخل مع السيدة فون براوختش الاولى للحصول على موافقتها على الطلاق وساعد على اتمام التسوية المالية معها ، مما ادى الى وضع القائد العام للجيش تحت عبء الالتزام الشخصي له بالاعتراف بجميله . ويعتمد شولمان في مصدره هذا على تقرير للمخابرات العسكرية الكندية .

٢ — اراد هتلر تحويل الانتباه عن الازمة العسكرية وانقاذ شيء من سمعة نوراث في الداخل والخارج ، فخلق بناء على اقتراح غورنـغ ما يسمى بمجلس الوزراء السري (Geoheimer kabinettsrat) . والغاية منه ، كما يقول مرسوم الفوهرر الصادر في الرابـع من شباط ان يؤمن له «التوجيه في ادارة دفة السياسة الخارجية » . وقد اختير نوراث رئيساً لهذا المجلس الذي ضم في عضويته كايتل ورؤساء الفروع الثلاثة من القوات المسلحة ايضاً ، بالاضافة الى اكثر اعضاء الوزارة العادية والحزب اهمية. وطلبت دعاية غوبلز لهذا التنظيم الجديد، وصورته على انه وزارة فوق الوزارة ، وعلى ان نوراث قد رفعت مرتبته فعلاً . اما في الحقيقة والواقع فقد كان مجلس الوزراء السري مجرد اسطورة . اذ لم يكن له وجود ابداً. ولقد شهد غورنـغ في نورمبرغ بقوله: « وفي الحقيقة لم يكن لمثل هذا المجلس الوزاري وجود، ولكن هذه التسمية جميلة ، وكان في وسع كل انسان ان يتصور انها تعني شيئاً حقاً ... وانني لأقسم ان هذا المجلس لم يجتمع قط ، حتى ولا دقيقة واحدة (محاكمات كبار مجرمي الحرب (٩) ص . ٢٩) .

منصبيهما كما سرح فون بابن من فيينا أيضاً . وعين فونك الضعيف بصورة رسمية خلفاً لشاخت في وزارة الاقتصاد .

وفي اليوم التالي أي الخامس من شباط ، صدرت صحيفة « الفولكشاير بيوباختر » بعناوين صارخة هذا نصها « اضخم تركيز لجميع السلطات في يدي الفوهرر » ولعل هذه المرة الوحيدة التي لم تكن الصحيفة النازية مبالغة فيها .

* * *

وهكذا كان اليوم الرابع من شباط عام ١٩٣٨ ، نقطة تحول رئيسية في تاريخ الرايخ الثالث ، بل كان علامة فارقة في طريقه الى الحرب . وفي الامكان القول ، بأن هذا التاريخ سجل اتمام الثورة النازية . وتمت ازاحة آخر المحافظين الذين يقفون في الطريق التي اختطها هتلر للسير عليها ، والتي كان قد قرر اتباعها منذ امد طويل ، بعد ان تستكمل المانيا استعداداتها . وكان هندنبرغ ومحافظو المدرسة القديمة هم الذين عينوا بلومبرغ وفريتشه ونوراث في مناصبهم ، ليعملوا ككابح للتطرف النازي ، وكان شاخت قد انضم اليهم كذلك . ولكنهم برهنوا في المعركة للسيطرة على السياستين الاقتصادية والخارجية وعلى السلطان العسكري في المانيا على انهم ليسوا انداداً لهتلر . فلم تكن لديهم القوة المعنوية ولا الدهاء السياسي حتى للصمود أمامه ، بل الانتصار عليه . وقد خرج شاخت وتنحى نوراث جانباً ، واستقال بلومبرغ تحت وطأة الضغط الذي فرضه زملاؤه من الفرقاء في الجيش . وقبل فريتشه على الرغم من تعرضه لمؤامرة قذرة من مؤامرات قطاع الطرق، صرفه من منصبه دون ان تبدر عنه بادرة تحد واحدة. وقبل ستة عشر من كبار الفرقاء بضعف واستخذاء مصيرهم ومصيره . ولقد راجت شائعات في اوساط فيلق الضباط عن انقلاب مزعوم ، ولكنها لم تتعدى حدود الأقاويل . وقد برهن هتلر على ان هناك ما يبرر تمام التبرير الازدراء الذي كان يحمله للطبقة العسكرية البروسية ، وهو الازدراء الذي ظل يحمله الى آخر يوم في حياته . فلقد قبلت هذه الطبقة دون أي برم أو نقد ، عملية القتل المصرح بها رسمياً، للفريقين فون شلايخر وفون بريداو . وها هي تبتلع الآن وهي

متراخية ، احالة كبار ضباطها على الاستيداع . او ليست برلين مكتظة بالفرقاء الشبان المتلهفين على الحلول محلهم والتواقين الى خدمته ؟ اذن اين هو التضامـــن الذي كثر التباهي به بـــين ضباط الجيش ؟ اليس اسطورة أو خرافـــة من الخرافات ؟

ولقد كان الجيش طيلة خمس سنوات انتهت في هذا اليوم من ايام الشتـــاء ، الرابع من شباط عام ١٩٣٨ ، يملك السلطة الفعلية للاطاحة بهتلر ورايخه الثالث . وعندما عرف الجيش في الخامس من تشرين الثاني عام ١٩٣٧ ، الهاوية التي يقوده هتلر اليها ، مع البلاد ، لِمَ لمْ يحاول الإطاحـة بهتلر وحكمه ؟ لقد كان فريتشه نفسه هو الذي رد على هذا السؤال بعد سقوطه . فلقد اقام يوم الأحد في الثامن عشر من كانون الأول عام ١٩٣٨ ، حفلة في منزله الريفي في اختيربرغ القريبة من سولتو ، والذي كان الجيش قد وضعه تحت تصرفه بعد تقاعده ، لتكريم السفير المعزول فون هاسيل . وقد دوّن هاسّيل في يومياته « زبدة آراء العميد » فقال . . .

« ان هذا الرجل – هتلر - هو القدر بالنسبة لألمانيا سواء أكان هذا القدر خيّراً او شريراً . فاذا مضى الآن نحو الهاوية – وهو ما يعتقد فريتشه بوقوعه – فانه سيجرنا جميعاً معه اليها . وليس في استطاعتنا ان نفعل شيئاً » [١] .

* * *

وهكذا بعد ان ركز جميع سياسات البلاد الخارجية والاقتصادية والعسكرية بين يديه ، ووضع القوات المسلحة كلها تحت قيادته المباشرة ، شرع هتلر الآن يمضي في طريقه ، اذ بعد ان تخلص من فريتشه دون ان يتيح له الفرصة ، لازالة ما علق باسمه من قذارة ، مكّنه الآن ولكن بعد فوات الاوان ، عن طريـــق تشكيل محكمة عسكرية للنظر في قضيته من تبرئة نفسه . وقد رئس المشير غورنغ المحكمة والى جانبيه قائدا الجيش والاسطول الفريق فون براوخيتش وامير البحر ريدر ومعهما اثنان من القضاة المحترفين من اعضاء المحكمة العليا .

---

١ – يوميات فون هاسيل ١٩٣٨ - ١٩٤٤ (ص ٢٣).

وبدأت المحاكمة التي منعت الصحافة والجماهير من شهودها في برلين في العاشر من آذار عام ١٩٣٨ ، وسرعان ما تقرر تأجيلها قبل ان ينتهي النهار. وكانت الانباء قد وردت في الليلة السالفة من فيينـــا بشكل دفع الفوهرر الى ثورة عظيمة من ثورات غضبه المشهورة [1] . وتطلب الوضع وجوب ذهاب المشير غورنغ والفريق فون براوخيتش الى مكان آخر بسرعة كبيرة .

١ ـ عندما وصل فون بابن الى دار المستشارية في برلين بعد ست وثلاثين ساعة وجد ان هتلر لا يزال في حالة تقرب من الهستيريا . (بابن ـ مذكرات ـ ص ٤٢٨).

١١

الأنشلوس ... اختطاف النمسا

نقلت مقر عملي في الايام الاخيرة من عام ١٩٣٧ من برلين إلى فيينا وذلك بسبب تبدل هذا العمل في نقل الأنباء من الصحافة إلى الاذاعة . وكنت أعرف فيينا تمام المعرفة ، إذ كنت فيها مراسلاً شاباً ، قبل اكثر من عقد كامل من السنوات. وعلى الرغم من انه قدر لي ان اقضي القسم الأكبر من السنوات الثلاث التالية الشديدة الحراجة في المانيا، إلا أن عملي الجديد الذي اقتضاني تغطية جميع انباء القارة الأوروبية اتاح لي المجال لاستجلاء صورة معينة عن الرايخ الثالث من هذه الدول المجاورة له والتي قدر لها ان تكون الضحايا الأولى لعدوان هتلر ، قبيل وقوع العدوان أو اثناء وقوعه . وجلت ذهاباً وإياباً في تلك الأيام بين المانيا وتلك البلاد التي غدت في تلك الآونة الهدف الأول لغضب هتلر العنيف، فجمعت تجارب شخصية مباشرة عن الأحداث التي سأتناولها بالشرح الآن والتي أدت بصورة لا تقبل الشك إلى اعظم حرب خبرها الانسان واكثرها سفكاً للدماء . وعلى الرغم من اننا كنا نلاحظ هذه الوقائع ملاحظة مباشرة ، إلا أن من المدهش ان نرى الآن اننا لم نكن نعرف آنذاك إلا القليل عن الشكل الذي وقعت فيه . فلقد دارت جميع المؤامرات والمناورات ، والخدع والمكائد، والقرارات القدرية ولحظات التردد، والمقابلات الدراماتية بين الرؤوس من ذوي العلاقة ، وهي كلها عوامل أدت إلى وقوع الاحداث على الشكل الذي وقعت فيه، وراء الكواليس وبصورة سرية لا تنفذ اليها عيون المتلصصين من الدبلوماتيين الاجانب ورجال الصحافة ووكلاء المخابرات والجواسيس ، وظلت سنوات

طويلة مجهولة من الجميع إلا من القلة التي اشتركت فيها اشتراكاً فعلياً .

وتحتم علينا ان ننتظر متاهات الوثائق السرية ، وشهادات الممثلين الأُول الذين اشتركوا في المسرحية وعاشوا بعدها ، وان كان معظمهم في ذلك الحين ، قد ظلوا أسرى السجون والمعتقلات النازية ،لنعرف منها ومنهم القصة الحقيقية . ولهذا فقد استندت في القصة التي سأرويها في الصفحات التالية الى حد كبير على الحشد الضخم من الادلة الواقعية التي توافرت منذ عام ١٩٤٥ . ولكن لعل من النافع بالنسبة إلى من يروي مثل هذا التاريخ ، ان يكون قد عاش احداثه هو شخصياً ، وشهد ما وقع فيه من أزمات اساسية ونقاط تحول فاصلة . وهكذا فقد قدر لي ان اكون في فيينا في تلك الليلة التي لا تنسى ، ليـــلة الحادي عشر ـ الثاني عشر من آذار عام ١٩٣٨ ، عندما زالت النمسا من عالم الوجود .

* * *

ولقد انقضى على تلك العاصمة الجميلة الغريبة بابنيتها والقائمة على نهر الدانوب ، اكثر من شهر كامل ، كان فيه اهلها ، الذين يمتازون اكثر من أي شعب آخر عرفته في حياتي بالجاذبية واللطف ، والوداعة والموهبة الخارقة في التمتع بالحياة ، فريسة القلق العميق . وقد اطلق الدكتور كورت شوشنيغ مستشار النمسا فيما بعد على هذه الفترة التي انقضت بين الثاني عشر من شباط والحادي عشر مـــن آذار اسم « اسابيع المحنة الأربعة » . فلقد دأب فرانز فون بابن سفـــير هتلر الخاص في فيينا منذ توقيع الاتفاق النمسوي – الالماني في الحادي عشر مـــن تموز عام ١٩٣٦ ، وهو الاتفاق الذي قدم فيه الدكتور شوشنيغ ، ضمن ملحقه السري ،تنازلات ضخمة للنازيين النمسويين ، على بذل كل ما لديه من جهد لتحطيم استقلال النمسا وتحقيق وحدتها مع المانيا النازية . ولقد نقل الى الفوهرر في تقرير طويل مسهب في نهاية عام ١٩٣٦ ،ما حققه من تقدم في جهوده ،وعاد في نهاية العام الذي تلاه ،فقدم تقريراً آخر مماثلاً ،مؤكداً فيه هذه المرة «ان تحقيق أي تقدم آخر لا يمكن ان يتم دون تعريض المستشار الاتحادي شوشنيغ الى اقسى ضغط ممكن » [1]

---

١ – وثائق وزارة الخارجية الالمانية (١) ص ٤٨٦ .

وعلى الرغم من ان نصائحه لم تكن ذات قيمة عادة عند المسؤولين في الرايخ ، إلا أنها نفذت في هذه المرة تنفيذاً حرفياً بصورة تفوق ما كان هو يتوقعه .

وكان النازيون النمسويون الذين يتلقون العون المالي والتحريض من برلين ، قد واصلوا طيلة عام ١٩٣٧ ، حملتهم الارهابية . فالقنابل تنفجر في كل يوم تقريباً في ناحية من نواحي البلاد ، وكانت المظاهرات النازية الجماهيرية والعنيفة على الغالب قد اضعفت سلطة الحكومة في الاقاليم الجبلية . واكتشفت بعض الخطط التي تشير الى أن السفاحين النازيين كانوا يعدون العدة لاغتيال شوشنيغ كما اغتالوا سلفه من قبل . وقامت الشرطة النمسوية اخيراً ، في الخامس والعشرين من كانون الثاني عام ١٩٣٨ ، بالاغارة على مركز لجماعة في فيينا تطلق على نفسها اسم لجنة السبعة ، والتي كانت غايتها الظاهرية تحقيق التفاهم بين النازيين والحكومة النمسويه ، وان كانت في حكم الواقع ، تمثل المقر المركزي للحكومة النازية السرية وغير المشروعة . وعثر رجال الشرطة في هذا المركز على وثائق موقعة من رودلف هس ، نائب الفوهرر ، توضح ان على النازيين النمسويين ان يقوموا بثورة مسلحة علنية في ربيع عام ١٩٣٨ ، وان الجيش الالماني سيدخل النمسا عندما يحاول شوشنيغ اخماد هذه الثورة ليحول « دون سفك الدم الألماني على ايدي الالمان» . ويقول بابن ان احدى هذه الوثائق كانت تقضي بقتله هو أو قتل ملحقه العسكري اللواء موف (Muff) ، على ايدي النازيين المحليين ليتخذ من هذا الحادث ذريعة للتدخل الألماني [١] .

واذا كان فون بابن المتسامح لم يفرح كثيراً لسماعه بأن اسمه كان قد ادرج للمرة الثانية في قائمة الاغتيال على أيدي النازيين الأوباش، طبقاً لأوامر صادرة عن زعماء الحزب في برلين ، فإن ألمه كان اشد ، من جراء المكالمة الهاتفية التي تلقاها من دار المفوضية الألمانية في فيينا عشية الرابع من شباط . فلقد كان محدثه على الطرف الثاني من الخط هانس لاميرز (Hans Lammers) ،وزير الدولة الذي ابلغه من دار المستشارية في برلين، ان مهمته الخاصة في فيينا قد انتهت . اجل

١ ـ فون بابن ـ مذكرات ـ ص ٤٠٤ .

لقد اقيل من منصبه مع نوراث وفريتشه وآخرين .

وتذكر فون بابن فيما بعد [1] ... لقد ذهلت حتى انني لم استطع الكلام . ولا ريب في انه أفاق من ذهوله إلى الحد الذي جعله يدرك ان هتلر قد قرّر كما يبدو القيام بعمل اكثر تطرفاً في النمسا ، بعد ان تم له الخلاص الآن من نوراث وفريتشه وبلومبرغ. وبالفعل فقد أفاق بابن من ذهوله إلى الحد الذي مكّنه من ان يقرر ان يعمل « شيئاً » غير مألوف لدى الدبلوماتيين على حد تعبيره . لقد قرر ان يودع نسخاً من جميع مراسلاته مع هتلر في « مكان امين »، ظهر فيما بعد انه سويسرا . ومضى يقول ... « ولقد كنت اعرف تمام المعرفة حملات الافتراء التي ألفها الرايخ الثالث » . وكنا قد رأينا من قبل كيف ان احدى هذه الحملات قد كادت تكلفه حياته في حزيران عام ١٩٣٤ .

ولقد كانت اقالة فون بابن بمثابة انذار الى شوشنيغ . ولم يكن يثق كل الثقة بهذا الضابط السابق الدمث من ضباط الفرسان ، ولكنه كان سريعاً في ان يدرك ان هتلر كان لابد وقد قرر شيئاً اسوأ من ان يفرض عليه هذا السفير الماكر ، الذي كان على كل حال كاثوليكياً مثله ، وكان على درجة من التهذيب . ولم يكن سير الدبلوماتية الأوروبية في الاشهر القليلة الاخيرة مواتياً للنمسا . فموسوليني زاد تقرباً من هتلر ، منذ تم توقيع محور برلين ـ رومة . ولم يكن كثير الاهتمام بالحفاظ على استقلال هذه البلاد الصغيرة كما كان في الماضي عندما اغتيل دلفوس ، وبعث على الفور باربع فرق الى ممر برينر لايقاع الرعب في قلب الفوهرر . ولم تكن بريطانيا كذلك ، التي شرعت مؤخراً في ظل رئاسة تشمبرلين ، تتبع سياسة الترضية لهتلر ، او فرنسا التي مزقتها الخلافات السياسية الداخلية الخطيرة ، قد اظهرتا مؤخراً أي اهتمام بالدفاع عن استقلال النمسا في حالة تعرضها لهجوم هتلر . اما الآن ، وها هو بابن يمضي ، وها هم القادة المحافظون من رجال الجيش الالماني ووزارة الخارجية الذين كانوا يكبحون جماح هتلر الى حد ما ويحددون بنفوذهم مطامحه ، فقد تغير الوضع .

١ـ فون بابن ـ مذكرات ـ ص ٤٠٦ .

ولم يكن شوشنيغ على الرغم من ضيق تفكيره ، الممتزج بشيء من الذكاء ضمن حدوده ، جاهلاً بالنسبة الى معلوماته المتوافرة عن حقيقة ما الحق بوضعه من سوء وتردٍ . وقد شعر ان الوقت قد حان ، كما حان من قبل بعد ان ذبح النازيون دلفوس ، للقيام بترضيات جديدة للديكتاتور الألماني .

وعلى الرغم من ان فون بابن قد اقيل من منصبه،إلا انه ضمن فرصة طيبة . فهذا الرجل ليس من النوع الذي يثور على صفعة يتلقاها في وجهه ، اذا كانت الصفعة قدجاءته من علٍ،ولذا فقدسارع الى هتلرفي نفس اليوم الذياقيل فيه، أو بعده بيوم واحد « للحصول على صورة عما كان يجري ». وعندما وصل الى برختسغادن في الخامس من شباط ، وجد الفوهرر « تعباً ومأخوذاً » من جراء النضال الذي وقع له مع قادته العسكريين . ولكن قدرة هتلر على الابلال من اوجاعه ، واستعادة قواه،قدرة خارقة ،وسرعان ما كان المبعوث الذي صرف من الخدمة يثيراهتمامه باقتراح كان قد عرضه على مسامعه قبل نحو من اسبوعين عندما قابله في برلين.انه يقول له:«لم لا تصفي القضية مع شوشنيغ شخصياً؟». « ولماذا لا تدعوه الى برختسغادن لاجراء حديث شخصي معه ؟ » ورأى هتلر في الفكرة ما يثير اهتمامه . ونسي انه كان قد اقال فون بابن قبل فترة قصيرة فأمره بأن يعود الى فيينا وان يتخذ الترتيبات اللازمة لعقد الاجتماع .

ووافق شوشنيغ لتوه على الفكرة ، ولكنه اشترط على الرغم من ضعف مركزه بعض الشروط . فهو يريد ان يعرف مسبقاً النقاط التي يود هتلر الحديث فيها ، وهو يريد ان يتأكد سلفاً بأن اتفاق الحادي عشر من تموز عام ١٩٣٦ الذي وعدت المانيا بموجبه ان تحترم استقلال النمسا وان لا تتدخل في شؤونها الداخلية ، سيحترم ويصان. وأراد فوق ذلك كله ان يؤكد البلاغ الرسمي الذي سيصدر في نهاية الاجتماع ان البلدين سيتمسكان بمعاهدة عام ١٩٣٦ . وهكذا لم يكن شوشنيغ راغباً في ان يجازف بالتطاول على الاسد وهو في عرينه . وعاد بابن مسرعاً الى اوبرسالزبرغ ليتحدث الى هتلر ، ثم رجع الى فيينا يحمل تأكيد الفوهرر بأن اتفاق عام ١٩٣٦ ، سيظل قائماً دون أي تبدل وان كل ما يريده

هو البحث في « بعض نقاط الاحتكاك وسوء التفاهم التي قامت بين البلدين بعد توقيع المعاهدة ». ولم يكن هذا الرد دقيقاً ومحدداً على النحو الذي طلبه المستشار النمسوي . ولكنه اعرب عن ارتياحه على أي حال للرد . وتقرر تبعاً لهذا ان يعقد الاجتماع في الثاني عشر من شباط [1] ، وفي مساء الحادي عشر من الشهر ، استقل شوشنيغ بصاحبه غيدو شميدت وكيل وزارة الخارجية قطاراً خاصاً في منتهى السرية الى سالزبورغ ، حيث تقرر ان يستقل السيارة من هناك مجتازاً بها الحدود الى ملاذ هتلر الجبلي في الصباح التالي.وقد برهنت هذه الرحلة على انها رحلة قدرية .

اجتماع برختسغادن في ١٢ شباط ١٩٣٨

وظهر فون بابن على الحدود ، ليحمي ضيفيه النمسويين ، وقد بدا في ذلك الصباح المتجمد من ايام الشتاء القارص ، على حد تعبير شوشنيغ « في احسن اوضاعه».واكد لضيفيه ان هتلر في حالة نفسية طيبة في ذلك الصباح.وسرعان ما جاء أول انذار.فقدقال فون بابن بمنتهى الدماثة واللطف،ان الفوهرريأمل بأن

---

١ - صادف هذا التاريخ الذكرى السنوية الرابعة لمذبحة الاشتراكيين الديموقراطيين النمسويين على ايدي حكومة دلفوس ، التي كان شوشنيغ احد اعضائها . ففي الثاني عشر من شباط عام ١٩٣٤ ، وجه نحو من سبعة عشر الفاً من جنود الحكومة والمتطوعة الفاشيست ، نيران مدافعهم الى مساكن العمال في فيينا فقتلوا نحواً من الف رجل وامرأة وطفل ، واصابوا بجراح ما يتراوح عدده بين ثلاثة واربعة آلاف من العمال.وانتهى عهد الحرية السياسية الديموقراطية في النمسا ، وغدت البلاد تحكم بعد هذا التاريخ من ديكتاتورية اكليريكية فاشية رئيسها دلفوس اولاً ومن بعده شوشنيغ.لكن هذه الديكتاتورية كانت على اي حال أخف وطاة من الديكتاتورية النازية ، وهو ما يستطيع ان يشهد به امثالنا من الذين عملوا في برلين وفيينا في تلك الايام . لكنها على اي حال حرمت الشعب النمسوي من حريته السياسية واخضعته الى المزيد من الاضطهاد الذي يفوق ما مارسه آل هابسبورغ في ايام الملكية .وقد بحثت في هذا الموضوع بالتفصيل في كتابي « رحلة اواسط القرن » .

لا يتضايق الدكتور شوشنيغ من وجود ثلاثة من الفرقاء العسكريين في « عش النسر » ، اذ وصلوا بمحض الصدفة اليه ، وهم كايتل الرئيس الجديد للقيـادة العليا للقوات المسلحة ، ورايخناو الذي يقود قوات الجيش على الحدود النمسوية — البافارية ، وسبيرل المسؤول عن السلاح الجوي في هذه المنطقة .

وقد تذكر فون بابن فيما بعد ان ما نقله الى ضيفيه كان « نتفة من الاخبار التي لم يستسغها ذوقهما » . ويقول شوشنيغ انه ابلغ السفير بأن وجود هؤلاء الناس لا يضايقه لا سيما وان « ليس له حق الخيار في الموضوع » . ومن هنا يتبين ان هذا المثقف ثقافة يسوعية ، كان قد قرر اتخاذ موقف الحيطة والحذر .

ومع ذلك ، لم يكن شوشنيغ على استعداد لتقبل ما حدث بالفعل . فقد خرج هتلر وهو يرتدي قميص جنود العاصفة البني اللون ، وسروالاً أسود ، ويحيط به الفرقاء الثلاثة الى درج الدارة لاستقبال ضيفيه . واحس المستشار النمسوي ان الاستقبال كان ودياً وان اكتسب طابع الرسمية . وبعد لحظات وجد نفسه وحيداً مع الديكتاتور الألماني في غرفة المكتبة الفسيحة في الطبقة الثانية من الدارة ، التي تطل نوافذها الكبيرة على جبال الالب السامقة والتي تكلل هاماتها الثلوج وعلى النمسا مسقط رأس هذين الرجلين اللذين يقفان معاً أمامه .

ويتفق كل من عرف كورت فون شوشنيغ البالغ من العمر احدى واربعين سنة ، انه كان من طراز اولئك الاشخاص الذين يتميزون بالاخلاق النمسوية العريقة والمعصومة من الاخطاء ، ولذا لم يكن من غير الطبيعي بالنسبة اليه ان يبدأ حديثه بلفتة كريمة من الاطراء للمنظر الساحر ، والطقس الرائع ، وبكلمة منمقة فيها بعض التملق ، عن تلك الغرفة التي وصفها بأنها شهدت ولا ريب كثيراً من المؤتمرات الحاسمة. وسرعان ما قطع عليه هتلر حديثه قائلاً : « اننا لم نجتمع هنا لنتحدث عن المنظر الرائع أو عن الطقس » وسرعان ما انفجرت العاصفة . وكان الحديث في الساعتين التاليتين على حد قول المستشار النمسوي في شهادته فيما بعد « صادراً على الغالب من جانب واحد » [1] فقد قال هتلر مرغياً مزبداً . . .

---

١ — كتب الدكتور شوشنيغ فيما بعد معتمداً على ذاكرته ، وصفاً لما سماه هو « بالفقرات المهمة » من هذا النقاش الصادر عن جانب واحد . وعلى الرغم من انه لا يعتبر سجلاً حرفياً لما وقع ،

« لقد عملت كل ما في وسعك لتجنب اتباع سياســـة ودية . فتاريخ النمسا كله ، قصة متواصلة من اعمال الخيانة العظمى . لقـد كان هذا هو شأنها في الماضي ، وليس الوضع بأحسن حالاً اليوم . ومن الواجب ان يصل هذا التناقض التاريخي الى نهايته التي طال انتظارها . وفي وسعي ان اقول لك يا هر شوشنيغ ، في هـــذه اللحظة انني عازم عزماً اكيداً على وضع حد لكل هذا . فالرايخ الألماني احدى الدول العظمى ، ولن يرفع انسان صوته ، إذا قام الرايخ بتسوية مشاكل حدوده » .

واصيب المستشار النمسوي بالفزع من تفجر هتلر وثورته ، وحاول هـــذا الانسان المهذب ان يظل على موقفه من محاولة التفاهم مع محدثه ، وان ظل ثابتاً على موقفه . وقال انه يختلف مع مضيفه في موضوع الدور الذي لعبته النمسا في التاريخ الألماني ، واضاف ان « إسهام النمسا في هذا الصدد كان عظيماً » .

هتلر .. « ان اسهامها صفر مكعب . اسمعت انه صفر مكعب . فقد قامت النمسا طيلة تاريخها بمحاولة هدم كل فكرة قومية ، ولا ريب في ان هذه الاعمال الهدامة كانت النشاط الرئيسي الذي قام به آ ل هابسبورغ والكنيسة الكاثوليكية [1] » .

شوشنيغ .. « على أي حال يا حضرة مستشار الرايخ ، لا يمكن فصل الكثير من الاسهام النمسوي من الصورة العامة للثقافة الألمانية .. لنأخـذ رجلاً كبيتهوفن ..

إلا انه يبدو صحيحاً لكل انسان استمع الى خطب هتلر التي لا عد لها ولا حصر او درسها ، وقد تم التثبت من صحتها ، لا عن طريق الاحداث التي وقعت في نتيجتها فحسب بل وعن طريق ماقاله الذين كانوا في «عش النسر» في ذلك اليوم وعلى الاخص بابن ويودل وغيدو شميدت . وقد تابعت قصة شوشنيغ كما اوردها في كتابــه « مطالب النمسا» وكذلك في شهادتــه المشفوعة باليمين في نورمبرغ . (شوشنيغ ـ مطالب النمســا) ص ١٢ – ١٩ .

١ ـ من الواضح ان صورة هتلر المنحرفة عن التاريخ الالماني النمسوي ، قد انطبعت لديــه كما رأينا في فصول سابقة من هذا الكتاب أثناء صباه في لينز وفيينا ، وقد ظلت على حالها دون اي تبدل .

هتلر .. « آه .. بيتهوفن ؟ دعني أقول لك ان بيتهوفن ينتمي الى حوض الراين الادنى ... »

شوشنيغ : « ومع ذلك فقد كانت النمسا هي البلد الذي فضله ، كما كانت كذلك بالنسبة إلى كثيرين .. »

هتلر ... « قد يكون هذا صحيحاً . ولكنني اود ان اقول لك مرة ثانية أن الأمور لا يمكن لها ان تستمر على هذا النحو . ان لي رسالة تاريخية ، وسأحقق هذه الرسالة، لأن العناية الإلهية قدرت لي أن افعل ذلك ... وكل من لا ينضم إلي سيسحق ... ولقد اخترت اكثر الطرق التي سلكها الألمان في الماضي صعوبة . وحققت اعظم المآثر في التاريخ الألماني ، بل لعلها اعظم مما حققه أي انسان آخر . وقد تم كل ذلك دون اللجوء إلى القوة ، وهذا أمر مهم . ... انني اجد نفسي مدفوعاً بحب شعبي . ...

شوشنيغ : « يا سيدي المستشار انني على استعداد لتصديق كل ما تقول » .

وبعد انقضاء ساعة تقريباً على هذا النحو من الحديث سأل شوشنيغ مناقشه ان يعدد الأمور التي يشكو منها . وقال : «سنعمل كل شيء لازالة العوائق التي تقف في طريق تفاهم افضل . أجل سنفعل كل ما هو ممكن » .

هتلر ...«هذا ما تقوله يا هر شوشنيغ . ولكنني أبلغك بأنني مصمم على حل ما يسمى بالمشكلة النمسوية في أي شكل كان .

وهنا شن حملة شعواء على النمسا لقيامها بتحصين حدودها المقابلة لألمانيا ، وهي تهمة نفاها شوشنيغ .

هتلر ... « اسمع ؛ لا اظنك تجهل ،انك لا تستطيع ان تحرك حجراً واحداً في النمسا دون ان اسمع بما فعلت في اليوم التالي . أتجهل ذلك ؟ ... ان كل ما احتاجه هو ان اصدر الأمر، وفي ليلة واحدة ليس إلا ، تصبح جميع اجهزتك الدفاعية المضحكة ، ممزقة شذر مذر . انك لا تعتقد جاداً ان في وسعك ان توقفني عن التقدم

نصف ساعة . هل تعتقد ذلك ؟ ولكنني ارغب خالص الرغبة وصادقها في تجنيب النمسا مثل هذا المصير ، لأن مثل هـذا العمل يعني سفك الدماء . فوراء الجيش سيزحف جيش العاصفة والفيلق النمسوي ، وليس في وسع انسان حتى ولو كنته ، ان يحول دون أخذ الثأر .

وراح هتلر يذكر شوشنيغ بعد هذه التهديدات (موجهاً خطابه اليه بطلاقة باسمه المجرد ، دون ذكر المنصب الذي يشغله، خلافاً لاصول المجاملة الدبلوماتية) بما هي عليه النمسا من عزلة،وما ينجم عن ذلك من يأس لا تستطيع ان تدرأه .

هتلر ... « وأرى ان لا يخيل اليك لحظة واحدة ، ان في وسع أي انسان على وجه هذه البسيطة ان يغير من قراري . هل تفكر في ايطاليا ؟ ان موقف موسوليني واضح امامي . أو هـل تفكر بانكلترا؟إن انكلترا لن تحرك ساكناً في سبيل النمسا ... وفرنسا؟

وراح هتلر يقول : انه كان في وسع فرنسا ان توقف المانيا في حوض الراين، وكان يتحتم عليه آنذاك ان يتراجع . « ولكن فرنسا فوتت فرصتها » .

وأخيراً : ...

هتلر ... « انني امنحك يا هر شوشنيغ الفرصة مرة أخرى ولعلها المرة الأخيرة ، للوصول إلى التفاهم معي . فاما ان نجد الحل الآن أو أن الاحداث ستسير سيرها المقرر ... فكر بمـا قلت يا هر شوشنيغ . أجل فكر به جيداً . انني لا استطيع الانتظار إلى ما بعد ظهر اليوم ...

وهنا سأله شوشنيغ عن شروطه بالدقة . فرد هتلر قائلاً : « في وسعنا ان نبحث في ذلك بعد الظهيرة » .

وبدا هتلر في عيني شوشنيغ ، اثناء مأدبة الغداء ، « في أحسن حالاته » ، وهذا ما ادهشه . وقد خصص حديثه الطويل اثناء الطعام للبحث في مواضيع الخيول والبيوت . وقال متطلعاً الى شوشنيغ « سيرى الامريكيون ان المانيا قد

شرعت في بناء ابنية اضخم واحسن من ابنيتهم في الولايات المتحدة » . أمـــا بالنسبة إلى المستشار النمسوي المضطهد ، فقد لاحظ فون بابن انه بدا « قلقـــاً ومشغول الخاطر » . وعلى الرغم من نهمه في التدخين، إذ يشعل اللفافة مع اختها ، لم يسمح له بالتدخين في حضرة هتلر . ولكن بعد ان تناول الجميع القهوة في غرفة مجاورة ، اعتذر هتلر بالانسحاب من الغرفة ، وتمكن شوشنيغ اخيراً من تدخين لفافة للمرة الأولى . وتمكن في هذه الفترة من ابلاغ وكيل خارجيته ، غيدو شميدت ، الانباء السيئة . وسرعان ما قدر لهذه الانباء ان تزداد سوءاً .

وبعد ان انتظر النمسويان نحواً من ساعتين ، في احدى الغرف الصغـيرة ، سمح لهما بالدخول عند ريبنتروب ، وزير خارجية المانيا الجديد وكان معه فون بابن . وقدم اليهما ريبنتروب مسودة اتفاق وضعت في ورقتين مطبوعتين على الآ لة الـكاتبة ، قائلاً ان هذه هي مطالب هتلر النهائية وان الفوهرر لن يسمح بمناقشتها ، وان عليهما توقيعها فوراً . ويقول شوشنيغ انه شعر أخيراً بشيء من الارتياح ، اذ حصل في النهاية على شيء واضح من هتلر . ولكن ارتياحه هذا ما لبث ان زاوله ، عندما مضى يقرأ الوثيقة . اذ اتضح له انها لا تعدو مجرد انذار بوجوب تسليم الحكومة النمسوية في الواقع الى النازيين في غضون اسبوع واحد .

فلقد نصت المعاهدة على وجوب رفع الحظر عن الحزب النمسوي النازي ، وعلى اطلاق سراح جميع المسجونين النازيين والعفو عنهم ، وعلى تعيين المحامي النمسوي الديكتور سايكس اينكوارت ، وزيراً للداخلية مع الحق في السيطرة على الشرطة ودوائر الأمن . وطلبت المعاهدة تعيين شخص آخر من مشايعي النازية وهو غليس — هورستيناو **Glaise - Horstenau** وزيراً للحربية ، وأن يقيم الجيشان الألماني والنمسوي علائق اكثر وثوقـــاً عن طريق بعض الاجراءات وبضمنها التبادل المنظم لنحو من مائة ضابط بين الجيشين . ونص الطلب النهائي على وجوب اتخاذ الاستعدادات لدمج النمسا في النظام الاقتصادي الالمـــاني . ولتحقيق هذا الهدف يجب تعيين الدكتور فيشبوك (**FishboecK**) — وهو ايضاً

من مشايعي النازية وزيراً للمالية [١] .

وقد ادرك شوشنيغ ، كما كتب فيما بعد ، ان قبول هذا الانـــذار النهائي يعني نهاية استقلال النمسا . وقال . .

« ونصحني ريبنتروب ان اقبل الطلبات فوراً . واعترضت على ذلك واحلته الى اتفاقي السابق مع فون بابن ، الذي جعلته شرطاً مسبقاً لمجيئي إلى برختسغادن، ثم اوضحت له انني لست على استعداد لأن أواجه بمثل هذه المطالب غير المعقولة » [٢] .

ولكن هل كان شوشنيغ على استعداد لتقبل هذه المطالب ؟ أما انه لم يكن مستعداً لمواجهتها ، فهذا أمر واضح حتى بالنسبة إلى انسان بليد كريبنتروب. وكان السؤال الذي يجب ان يسأل الآن ، هل هو على استعداد لتوقيعها؟ وهناك وفي هذه اللحظة الشاقة والحاسمة ، بـــدأ الضعف يتسلل الى نفس المستشار النمسوي الشاب . وسأل بشيء من الضعف والاستخذاء ، كما قال هو نفسه في روايته « هل في استطاعتنا ان نركن إلى حسن نية المانيا» وهل تعتزم حكومة الرايخ حقاً التزام حدودها في الصفقة [٣] ؟ ويقول هو انه تلقى رداً ايجابياً .

وشرع فون بابن يحاول التأثير عليه. فقد اعترف السفير المتقلب « بدهشته » عندما قرأ الانذار وقال « حقاً انه تدخل لا داعي له في السيادة النمسويـة » . ويقول شوشنيغ ان بابن اعتذر له ، واعرب عن « دهشته الفائقة من الشروط » ولكنه على اي حال نصح المستشار النمسوي بقبولها وتوقيعها .

« ومضى يبلغني ان في وسعي ان اكون واثقاً من ان هتلر سيضمن في حالة توقيعي لها وموافقتي على المطالب، ان تظل المانيا ابتداء من ذلك الوقت على ولائها واخلاصها لهذا الاتفاق مؤكداً انه لن تقوم بعد ذلك اية متاعب أمام النمسا» [٤].

ويبدو من جميع هذه الأقوال ، وقد ورد الأخير منها في شهادته المشفوعة

---

١ – وثائق وزارة الخارجية الالمانيـــة (١) ص ٥١٣ – ٥١٥ .

٢ – المؤامرة النازية والعدوان (٥) ص ٧١١ .

٣ – شوشنيغ - مطالب النمسا – ص ٢٣.

٤ – الوثائق النازية ص ٢٩٩٥.

باليمين في نورمبرغ ، ان شوشنيغ لم يكن قد ضعف فحسب ، بـــل وسمح لسذاجته وبلاهته بالتسلط عليه .

وكانت لديه فرصة وحيدة اخيرة للصمود. واستدعي مرة ثانية لمقابلة هتلر ، فوجده يذرع غرفة مكتبه جيئة وذهاباً وقد سيطر عليه التهيج والعصبية .

هتلر .. « هر شوشنيغ ... هذه هي مسودة الوثيقة . ليس ثمة ما يناقش فيها . اذ لن ابدل حرفاً واحداً فيها . فاما ان توقعها كما هي وتنفذ طلباتي في غضون ثلاثة أيام ، واما ان آمر بالزحف على النمسا [1] .

واستسلم شوشنيغ ، وأعلم هتلر عزمه على التوقيـع . ولكنه ذكره بان الدستور النمسوي ينص على ان توقيـع مثل هذه الاتفاقات وتنفيذها حق من حقوق رئيس الجمهورية وحده . ولذا فمع رغبته في ان يناشد رئيس جمهوريته قبول الاتفاق فانه لا يستطيـع ضمان ذلك .

وصرخ هتلر ... ولكن عليك ان تضمن ذلك !

ويقول شوشنيـغ انه رد قائـــلاً ... ولكني لا استطيـع يا حضـــرة المستشار » [2] . وعاد شوشنيغ يتذكر فيما بعد :

« ويبدو ان هتلر شرع بعد هذا الرد يفقد سيطرته على اعصابه . فركض إلى الباب وفتحه وهو يهتف ... « يا فريق كايتل ! » . وعاد فالتفت إلي ثانيـــة وقال ... « سأدعوك لمقابلتي فيما بعد » [3] .

ولم يكن هذا أكثر من مجرد تمثيل . ولكن المستشار النمسوي المنهـــار الاعصاب ، الذي لفت انتباهه منذ البداية وجود القادة العسكريين الثلاثة ، لم يكن يدري على الغالب ذلك . ويروي بابن ان كايتل روى له فيما بعد كيف أن

---

١ ـ اختلفت روايتا شوشنيـغ عن تهديدات هتلر بعض الاختلاف في كتابـه ص ٢٤ وفي شهادته امام محكمة نورمبرغ (المؤامرة النازية والعدوان(٥) ص ٧١٢)وقد استعملت الروايتين مختصرتين .

٢ ـ شوشنيـغ ـ مطالب النمسا ـ ص ٢٤.

٣ ـ شوشنيـغ ـ مطالب النمسا ـ ص ٢٧ .

هتلر حياه بابتسامة عريضة عندما هرع يرد على ندائه ويقف متأهبــاً لتلقي الأوامر...ثم قال ... « ليس هناك أوامر ،وانما أردت ان تكون معي هنا ».

ولكن شوشنيغ والدكتور شميدت، وكانا يقفان في الانتظار خارج مكتب الفوهرر تأثرا من التمثيلية . وهمس شميدت في اذن رئيسه بانه لن يدهش اذا ما وجد انهما قد اعتقلا في غضون الخمس دقائق التاليــة . واستدعي المستشار النمسوي بعد ثلاثين دقيقة للمثول امام هتلر . وقال الفوهرر :

« لقد قررت ان ابدل رأيي لأول مرة في حيــاتي . ولكنني انذرك بأن هذه هي فرصتك الأخــيرة . انني اعطيك ثلاثة ايام اضافية اخرى لتنفيذ الاتفاق [1] .

وكان هذا اقصى ما يستطيع الديكتاتور الألماني ان يقدمه من تنازلات. وعلى الرغم من ان كلمات المسودة الاخـيرة قد خففت ، إلا ان التبدلات التي طرأت عليها لم تكن كما شهد شوشنيغ فيما بعد كبيرة الاهمية . ووقع المستشار النمسوي ، الاتفاق وبتوقيعه صدرت شهادة وفاة النمسا .

ويختلف سلوك الناس في أوقات الأزمات باختلاف طبائعهم ، وكثيراً مــا يكون هذا الاختلاف مدهشاً ومحيراً . ولا يشك إلا القليـلون في ان شوشنيغ وهو المتمرس على اشواك السياسة وجنادلها التي اودت بسلفه دلفوس على الرغم من حداثة سنه نسبياً ،كان رجلاً شجاعاً . لكن استسلامه لهتلر في الحادي عشر من شباط عام ١٩٣٨ تحت وطأة التهديد بالهجوم المسلح ، قد ترك رواسب من الشكوك التي لم تنجل بين مواطنيه وعند المراقبين ومؤرخي هذه الفترة القدرية . ترى هل كان الاستسـلام ضرورياً ؟ او لم يكن هناك مجال آخر ؟ قد يكون من التهور بالنسبة إلى أي انسان ان يقول بأن بريطانيــا وفرنسا بالنظر الى سلوكها التالي ،أمام عدوان هتلر ، كانتا ستهرعــان الى نصرة النمسا لو إن هتلر كان قد نفذ وعيده فعلاً بالزحف عليهـا . ولكن هتلر لم يكن حتى تلك اللحظة قد خرج عن حدود بلاده ، كما لم يكن قد هيأ شعبه والعـالم لتقبل مثل

---

١ – شوشنيغ – مطالب النمسا – ص ٢٥ .

هذا العمل من أعمال العدوان المجازف . ولم يكن الجيش الألماني نفسه قد غـدا متأهباً للحرب في حـالة تقرير فرنسا وبريطانيا التدخل . ولكن « اتفاق » برختسغادن قد اسفر في غضون اسابيع عن اضعاف النمسا على أيدي النازيين المحليين والحيل الألمانية الى الحد الذي غدا في مكنة هتلر ان يحتلها دون كبير مجازفة بالتدخل الأجنبي كما كان الوضع في الحادي عشر من شباط . وقد اعترف شوشنيغ نفسه ، فيما كتبه ، بعد سنوات ، بأن قبول شروط هتلر لم يكن يعني أكثر من النهاية الكاملة لاستقلال الحكومة النمسوية .

ومن المحتمل ان يكون شوشنيغ قد ذهل من المحنة التي مر بها . فبعد ان وقع على شهادة وفاة باستقلال بلاده تحت تهديد القوة ، شرع في محادثة غريبة مع هتلر ، كان هو الذي دوّنها في كتابه فيما بعد . فلقد وجه الى الفوهرر هذا السؤال : « هل يعتقد السيد مستشار الرايخ ، ان الأزمات المختلفة التي يمر بها العالم يمكن ان تحل بطريقة سلمية » ؟ ورد الفوهرر بحماقة قائلاً ... « أجل ، اذا اتبعت نصائحي » . وهنا قال شوشنيغ « دون ان يضمن حديثه كما يبدو أية اشارة من اشارات السخرية .. » ان الوضع العالمي يبدو في هذه اللحظة مشرقاً بعض الاشراق ، او لا توافقني على ذلك ؟ »[1] .

وكان مثل هـــذا السؤال في مثل تلك اللحظة ، شيئاً لا يـكاد يصدق ، ولكن هذا ما قاله المستشار النمسوي المغلوب على أمره ، كما يعترف هو . ولم تكن جعبة هتلر قد فرغت بعد من وسائل اذلال ضيفـــه . فعندما اقترح شوشنيغ ان يذكر البلاغ الصحفي الذي سيصدر عن الاجتماع ، ان المباحثات أكدت معاهدة عام ١٩٣٦ ، صرخ الفوهرر قائلاً : « لا . عليك أولاً أن تنفذ شروط اتفاقنا هذا . أما البلاغ الذي سيصدر الى الصحف فسيكون على النحو التالي: «لقد تشاور الفوهرر ومستشار الرايخ اليوم مع مستشار الاتحاد النمسوي في عش النسر . هذا كل شيء » .

واعتذر شوشنيـغ عن قبول دعوة الفوهرر للبقاء حتى العشاء ، واستقل

---

١ - شوشنيـغ - مطالب النمسا - ص ٣٥ - ٣٦ .

سيارته مع شميدت عائداً من الجبال الى سالزبرغ . وكانت ليلة مغبرة يلفهـــا الضباب من ليالي الشتاء . ورافق فون بابن الذي يظهر في كل مكان الضيفين الى الحدود ، وبدا منزعجاً مما أسماه «الصمت الطاغي».ولم يستطع ان يكبح نفسه عن محاولة التسرية عن صديقيه .

وعاد يقول لهما ... حسناً لقد رأيتما الحالة التي يمكن للفوهرر ان يكون فيها أحياناً . ولكني واثق من ان الوضع سيكون مختلفاً في المرة التاليـــة . فليس ثمة من شك في ان الفوهرر يستطيع ان يكون ساحراً كل السحر في حديثه » [1] .

الاسابيع الأربعة من المحنة

١٢ شباط - ١١ آذار ١٩٣٨

منح هتلر المستشار شوشنيغ أربعة ايام أي حتى يوم الثلاثاء الخامس عشر من شباط ، ليبعث اليه « برد ملزم » يتضمن تعهده بتنفيذ الإنذار ، وثلاثة أيام اضافية أخرى ، أي حتى الثامن عشر من شباط ، لتنفيذ شروطه المعينة والمحددة.وقد عاد شوشنيـغ الى فيينا في صبيحة الثاني عشر من شباط ،وبادر لفوره الى التشاور مع رئيس الجمهورية ميكلاس.وكان ويلهلم ميكلاس هذا انساناً عادياً من أواسط الناس،يمتاز بالاناة في كل شيء،وكان أهل فيينا يتندرون عنه قائلين ان أهم ما حققه في الحياة هو انجابه لعدد كبير من الأطفال . ولكنه كان يتميز كذلك بشيء من ثبات الفلاحين ، وقد برهن في هذه الأزمة التي مرت به بعد اثنين وخمسين عاماً من العمل كموظف في الدولة ، على شجاعة تفوق ما أظهره أي نمسوي آخر. إذ كان راغباً في منح بعض التساهلات لهتلر كالعفو عن

---

١ - تختلف رواية بابن (راجع مذكراته ص ٤٢٠) بعض الاختلاف عن رواية شوشنيغ هذه التي أراها أكثر صحة ودقة .

النازيين النمسويين مثلاً ، ولكنه رفض أن يعين سايكس - اينكوارت في منصب المسؤول عن الشرطة والجيش . وقد أبلغ فون بابن ، هذه الحقيقة لبرلين مساء الرابع عشر من شباط ، وانهى تقريره قائلاً ... « ولكن شوشنيغ يأمل في التغلب على معارضة الرئيس غداً » .

وأقر هتلر في الساعة السابعة والنصف من ذلك المساء ، الأوامر التي أعدها الفريق كايتل لفرض ضغط عسكري على النمسا ...

« انشروا أنباء كاذبة على ان تكون من النوع الذي يصدق ، والذي يؤدي الى افهام الناس ضرورة استكمال الاعدادات العسكرية ضد النمسا » [1] .

وكان الفوهرر قد شرع في الحقيقة فور مغـادرة شوشنيـغ برختسغادن يتظاهر باتخاذ اجراءات عسكرية ليرغم المستشار النمسوي على تنفيذ ما مر به . وقد دوّن يودل كل ذلك في يومياته :

« ١٣ شباط - استدعاني الفريق كايتل ، للذهاب الى شقته بعد ظهر اليوم مع أمير البحر كاناريس [2] . ابلغنا ان أوامر الفوهرر تقضي باستمرار الضغط العسكري عن طريق التظاهر بعمل عسكري حتى الخامس عشر من الشهر ، لقد تم اعداد الاقتراحات عن هذه الاجراءات وقدمت الى الفوهرر هاتفيـاً لنيل موافقته عليها .

« ١٤ شباط - كان التأثير سريعاً وقوياً . فالانطباع السائد في النمسا هو ان المانيا تقوم باعدادات عسكرية جدية » [3] .

ولم يكن الفريق يودل مبالغاً في قوله . فقبل انتهاء مهلة الانذار بالغزو الألماني المسلح ، أذعن الرئيس ميكلاس ، وتولى شوشنيغ في الخامس عشر من شباط ابلاغ السفير فون بابن رسمياً بأن اتفاق برختسغادن سينفذ قبل الثامن عشر من شباط . وأعلنت الحكومة النمسوية في السادس عشر من شباط العفو العام عن

---

١ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٤) ص ٣٥٧ .
٢ ـ ويلهيلم كاناريس وكان رئيس مكتب المخابرات في القيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية.
٣ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٤) ص ٣٦١ .

النازيين بما فيهم أولئك الذين أدينوا باغتيال دلفوس ، كما اعلنت تعديل الوزارة الذي تضمّن تعيين آرثر سايس ـ اينكوارت ، وزيراً للأمن العام . وهرع الوزير النازي في اليوم التالي الى برلين لمقابلة هتلر وتلقي أوامره .

كان سايس ـ اينكوارت ، الرائد الأول بين الكويزلنغيين ، شاباً ، ذكياً ، دمث الاخلاق ، يعمل في المحاماة في فيينا ، تحرّقه منذ عام ١٩١٨ ، رغبة ساعرة وقع تحت سيطرتها في ان النمسا متحدة مع ألمانيا . وكانت هذه الفكرة مطلباً قومياً شعبياً في السنوات الأولى التي تلت الحرب . وكانت الجمعية الوطنية المؤقتة في الثاني عشر من تشرين الثاني عام ١٩١٨ ، أي بعد يوم واحد من توقيع الهدنة ، وقد حاولت بعد أن اطاحت بملكية آل هابسبورغ واعلنت الجمهورية النمسوية ، تنفيذ الاتحاد مع ألمانيا (انشلوس) باعلانها ان « النمسا الألمانية جزء لا يتجزء من الجمهورية الألمانية . ولكن الحلفاء الظافرين ، لم يسمحوا بقيام هذا الاتحاد ، وعندما جاء هتلر الى الحكم في عام ١٩٣٣ ، لم يكن ثمة من شك في ان الغالبية الغالبة من النمسويين قد اضحوا ضد انضمام بلادهم الصغيرة الى ألمانيا النازية . ولكن النازيين ظلوا كما قال سايس اينكوارت أثناء محاكمته في نورمبرغ ، صامدين في تأييدهم للاتحاد (الأنشلوس) ، ولهذا السبب لم يتوان عن تقديم المساعدة اليهم . ولم يشترك هو في الحزب كما لم يسهم في أعماله المتطرفة والصخابة . وظل يمثل على أي حال دور الواجهة الأمامية المحترمة للنازيين النمسويين ، وبعد اتفاق تموز عام ١٩٣٦ ، التي عين بموجبها مستشاراً للدولة ، ركز جهوده يساعده فيها باپن وغيره من الموظفين والعملاء الألمان على « الحفر » من الداخل للاطاحة بأسس الدولة النمسوية . ومن الغريب أن يبدو وكأن ميكلاس وشوشنيغ كانا يثقان به الثقة التي استمرت حتى النهاية وقد اعترض ميكلاس فيما بعد وهو الكاثوليكي المتدين ، كشوشنيغ ، بأنه كان متأثراً من الحقيقة الواقعة وهي أن سايس ـ اينكوارت كان مواظباً على حضور الصلاة في الكنيسة . ولعل كاثوليكية الرجل ، والظروف التي جمعت بينه وبين شوشنيغ في الخدمة المشتركة أثناء الحرب في كتيبة القناصة القيصرية التيرولية أبان الحرب الكونية الأولى التي أصيب فيها بجراح خطيرة ، هي التي أدت الى تلك الثقة التي

أولاه إياها المستشار النمسوي . ومن سوء حظ شوشنيغ انه كان عاجزاً عجزاً فاضحاً عن الحكم على الناس على أسس أكثر رسوخاً . ومن المحتمل ان يكون قد تصور ان بامكانه الحفاظ على وزيره الجديد منسجماً مع سياسته عن طريق الرشاوى الصغيرة . وقد حدثنا هو نفسه في كتابه عن التأثير السحري الذي تركه مبلغ الخمسمائة دولار في نفس وزيره عندما قدم اليه هذا المبلغ قبل نحو من عام إثر تهديده بالاستقالة من منصبه كمستشار للدولة ، فقد حملته هذه الرشوة بعد ان تسلمها على إعادة النظر في موقفه . ولكن كان في وسع هتلر ، ان يلوح أمام المحامي الشاب الطموح بجوائز اضخم وهو مـــا قدر لشوشنيغ ان يعرفه بعد فترة قصيرة .

وألقى هتلر في العشرين من شباط خطابه الذي طال انتظاره ، في قاعـة الرايشستاغ ، بعد ان كان قد اجله من الثلاثين من كانون الثاني المنصرم بسبب انشغاله في أزمة بلومبرغ - فريتشه وبسبب المكائد التي كان يدبرها ضد النمسا . وعلى الرغم من تحدثه بحرارة عن « تفهم » شوشنيغ، وعن « رغبته الصادقة » في ايجاد تفاهم أوثق بين النمسا والمانيا - وهي خدعة جازت على تشمبرلين ، رئيس وزراء بريطانيا فإن الفوهرر وجه انذاراً وجد آذاناً متفتحة لسماعه في فيينا وفي براغ على الرغم من عدم وقوعه على آذان صاغية في لندن . فلقد قـــال الفوهرر ...

« هناك أكثر من عشرة ملايين من الألمان يعيشون في الدولتين اللتين تجاوران حدودنا ... ومن الواجب ان لا يكون ثمة شك في شيء واحد، وهو ان الانفصال السياسي عن الرايخ يجب ان لا يؤدي الى الحرمان من الحقوق ، وأعني بهـا الحقوق العامة في تقرير المصير . ولا ريب في ان مما لا يطاق بالنسبة الى دولة ذات مكانة عالمية ، ان تعرف ان هناك اخوة لها في العنصر ، يعيشون الى جانبهـــا ، ويتعرضون بصورة دائمة للآلام بسبب ما يحسونه من عطف أو وحدة مشاعر مع الأمة كلها تجاه مصيرها وتجاه نظرتها العالميـــة

(Weitanschauung) . وان من مصلحة الرايخ الألماني ان يتولى حماية هؤلاء الألمان الذين ليسوا في وضع يمكنهم من ضمان حريتهم السياسية والروحية على حدودنا بفضل مجهوداتهم وحدها »[1] .

ولقد كان هذا القول بمثابة اعلان صريح وواضح ، بأن هتلر بات يعتبر منذ تلك اللحظة مستقبل الملايين السبعة من النمسويين . والملايين الثلاثة من الألمان السوديت في تشيكوسلوفاكيا شأناً من شؤون الرايخ الثالث .

وراح شوشنيغ يرد على هتلر بعد أربعة أيام أي في الرابع والعشرين من شباط ،في خطاب ألقاه في البرلمان النمسوي (البوندستاغ Budestag)، الذي كان أعضاؤه يعينون كزملائهم في الرايشستاغ ، من قبل العهد الديكتاتوري للحزب الواحد . وعلى الرغم من لهجة الخطاب الودية تجاه ألمانيا ، إلا ان شوشنيغ أكد فيه ان النمسا قد مضت الى اقصى حدود التساهل والتنازلات حيث بات لزاماً عليها ان تتوقف وأن تقول : « الى هنا فقط ، ولا خطوة بعدها » . وعاد فأكد ان النمسا لن تتخلى طوعاً عن استقلالها ، ثم انهى خطابه رافعاً الشعار المثير التالي : « الأحمر والأبيض والأحمر (الوان العلم النمسوي) ، سيظل خفاقاً الى أن نموت » .

ولقد كتب شوشنيغ بعد انتهاء الحرب يقول ان اليوم الرابع والعشرين من شباط ، « كان بالنسبة إلي أكثر التواريخ حراجة وخطورة » . انه ينتظر بفراغ صبر رؤية رد فعل الفوهرر على خطابه المنطوي على التحدي . وأبرق فون بابن الى برلين في اليوم التالي ناصحاً وزارة الخارجية بعدم حمل الخطاب على محمل الجد الكلي . وذكر ان شوشنيغ قد عبر عن مشاعره الوطنية القوية ، ليستعيد سمعته الداخلية ، فهناك مؤامرات تحاك في فيينا للاطاحة به بسبب موقفه المتساهل في برختسغادن . وأبلغ فون بابن برلين في نفس الوقت ان « عمل سايس ـ اينكوارت يسير وفق الخطة المرسومة »[2] . وراح بابن في

---

١ - من أوراقي الخاصة التي دونت فيها الخطاب عند إذاعته .

٢ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية - (١) ص ٥٤٦ .

اليوم التالي ، بعد أن قاربت سنواته الطويلة من العمل الخادع من أثمارها النهائي يطلب إجازة رسمية من الحكومة النمسوية ، ثم مضى إلى كيتزبوهيل ، لممارسة رياضة التزحلق على الثلوج .

ولقد أثار خطاب هتلر في العشرين من شباط الذي أذيع على شبكة الاذاعة النمسوية، سلسلة من التظاهرات النازية الجماهيرية في جميع أنحاء النمسا. وفي الرابع والعشرين من شباط ، وكان شوشنيغ يذيع رده على خطاب هتلر ، قام حشد ضخم من الدهماء يضم نحواً من عشرين الفاً من النازيين في «غراز» بالهجوم على ساحة المدينة العامة ، حيث حطموا مكبرات الصوت ، وأنزلوا العلم النمسوي ليرفعوا بدله علم الصليب المعقوف الألماني . ولما كان سايس اينكوارت هو المسؤول شخصياً عن قيادة الشرطة ، فان قوات الأمن لم تقم بأية محاولة للحد من الاضطرابات النازية . وبدأت حكومة شوشنيغ تنهار . ولم يقتصر الأمر على الفوضى السياسية ، بل غدت البلاد مهددة أيضاً بالاضطراب الاقتصادي . وهجم الناس في داخل البلاد وخارجها على المصارف يسحبون ودائعهم منها. وشرعت تنهال على فيينا البرقيات الأجنبية القلقة طالبة إلغاء عروضها التجارية وطلباتها . وتوقفت حركة السواح الأجانب التي تعتبر من أهم دعائم الاقتصاد النمسوي بسبب تخوفهم من الأوضاع . وأبرق توسكانيني من نيويورك يقول أنه ألغى اشتراكه في مهرجان سالزبرغ الذي كان يجتذب عشرات الألوف من السائحين في كل صيف « بسبب التطورات السياسية في النمسا » ، وكان الوضع قد غدا يائساً الى الحد الذي دفع أوتو هابسبورغ المطالب الشاب بعرش النمسا ، الى إرسال كتاب من مكان إقامته في منفاه في بلجيكا إلى شوشنيغ يستحلفه فيه ، كما ذكر المستشار فيما بعد ، بالقسم السابق الذي كان قد أقسمه بالولاء بوصفه ضابطاً سابقاً في الجيش الامبراطوري أن يعينه -- أي أوتو -- مستشاراً إذا كان يعتقد أن مثل هذه الخطوة قد تنقذ النمسا .

وتطلع شوشنيغ في غمرة يأسه الى العمال النمسويين الذين كان قد أبقى على قرار وقف نقاباتهم المهنية وحزبهم السياسي ــ الاشتراكي الديموقراطي ــ ساري

المفعول بعد أن كان سلفه دلفوس قد حطمهم بمنتهى القسوة في عام ١٩٣٤ . فلقد كان هؤلاء الناس يمثلون (٤٢) في المائة من مجموع الناخبين النمسويين ، ولو تمكن المستشار طيلة السنوات الأربع الماضية من النظر بعيداً الى ما وراء الآفاق الضيقة لديكتاتوريته الفاشية الاكليريكية ، وناشدهم العون لاقامة ائتلاف ديموقراطي معتدل ومناوىء للنازية ، فان النازيين وهم يمثلون أقلية ضئيلة نسبياً ، ما كانوا ليتمكنوا مطلقاً من تحقيق أهدافهم . ولكن شوشنيغ كان مفتقراً الى «العملقة» السياسية الضخمة التي تحمله على اتخاذ مثل هذه الخطوة . وعلى الرغم من استقامته ونزاهته كانسان ، فإنه كان واقعاً تحت سيطرة فكرة ، وقع فيهـــا الكثيرون من أمثاله ، وهي فكرة ازدراء الديموقراطية الغربية ، والميل إلى حكومة الحزب الواحد الجماعية .

وخرج الاشتراكيون الديموقراطيون من المصانـع ومن السجون التي كان الكثيرون منهم قد غادروها مع النازيين قبل قليل بموجب قرار العفو العام ، يؤلفون كتلة في الرابع من آذار تستجيب لنداء المستشار . وأعلنوا أنهم على الرغم من كل ما وقع ، على استعداد لنصرة الحكومة في الدفاع عن استقلال البلاد . وكل ما طلبوه ، هو أن يسمح لهم المستشار بما سمح به للنازيين ، وهو الحق في إقامة حزبهم السياسي والتبشير بعقيدتهم ، ومبادئهم . ووافق شوشنيغ على طلبهم ، ولكن موافقته جاءت متأخرة للغاية .

ودوّن الفريق يودل الواسع الاطلاع دائماً في يوميته في الثالث من آذار يقول : « لقد باتت القضية النمسوية في منتهى التعقيد . وسيرسل إلى هنا مائة ضابط . ويريد الفوهرر أن يجتمع إليهم شخصياً ، انه لا يريد أن يتأكد من أن القوات المسلحة النمسوية ، لن تحسن الحرب ضدنا فحسب ، بل ومن أنها لن تقاتلنا مطلقاً » .

وقرر شوشنيغ في هذه اللحظة الحرجة أن يقوم بخطوة أخيرة يائسة ، كانت تداعب خياله منذ الأيام الأخيرة من شهر شباط ، عندما شرع النازيون في السيطرة على الأقاليم . انه يريد أن يجري استفتاء . انه يريد أن يسأل الشعب

النمسوي ما اذا كان يريد بلاده «حرة مستقلة ، واشتراكية ومسيحية ومتحدة أولاً » [١].

وكتب فيما بعد يقول: « وشعرت أن اللحظة لاتخاذ قرار واضح قد حانت. وبدا لي مما ينافي الشعور بالمسؤولية أن نظل واقفين وقد قيدت أيدينا إلى ان نكون في غضون بضعة أسابيع قد غدونا مكممي الأفواه أيضاً. وكانت لعبة المقامرة قد استهدفت الآن مجازفات تتطلب جهوداً فائقة وكلية. » [٢]

وكان شوشنيغ بعد عودته من برختسغادن قد جس نبض موسوليني، حامي حمى النمسا، ونقل إليه تهديدات هتلر، فتلقى منه رداً فورياً يقول ان موقف ايطاليا من النمسا باق على حاله دون أي تبدل. وعاد في السابع من آذار فبعث بملحقه العسكري في رومة الى الدوتشي ليبلغه أنه بالنظر إلى الأحداث وجريانها، فانه « قد يجد نفسه مضطراً إلى اللجوء إلى استفتاء». وقد رد الديكتاتور الايطالي قائلاً، ان مثل هذه الخطوة تعتبر خطيئة. ونصح شوشنيغ بأن يتابع السير على طريقته السابقة. وأضاف أن الأوضاع تسير في طريق التحسن، وانه إذا ما وقع انفراج في العلاقات بين رومة ولندن، فإن هذا الانفراج قد يؤدي كثيراً إلى تخفيف الضغط. وكان هذا آخر ما سمعه شوشنيغ من موسوليني.

وأعلن شوشنيغ في خطاب ألقاه مساء التاسع من آذار في مدينة اينتربروك ان الاستفتاء سيجري بعد أربعة أيام، أي في يوم الأحد في الثالث عشر من آذار. ودفعت هذه الأنباء غير المتوقعة بهتلر إلى نوبة من نوبات ثورته وغضبه. وقد شرح يودل في يومياته بتاريخ العاشر من آذار رد الفعل الأولي في برلين إذ قال:

---

١ - ذكر الرئيس ميكلاس في شهادة تقدم بها أثناء محاكمة أحد النازيين في فيينا بعد الحرب، ان فرنسا هي التي اقترحت فكرة الاستفتاء على شوشنيغ. وذكر فون بابن في يومياته ان الوزير الفرنسي في فيينا المسيو بو، وهو صديق شخصي حميم للمستشار، كان « والد فكرة الاستفتاء» ولكنه - أي بابن - يعترف بأن شوشنيغ تبنى الفكرة، وحملها على مسؤوليته. (شهادة ميكلاس المؤامرة النازية والعدوان. الملحق (٩) ص ٥٢٣. مذاكرت بابن ص ٤٢٥).

٢ - شوشنيغ - مطالب النمسا ص ٤٧.

« أمر شوشنيغ ، على شكل مباغت ودون استشارة وزرائه ، باجراء استفتاء يوم الأحد في الثالث عشر من آذار ...

« ان الفوهرر مصمم على عدم التسامح تجاه هذا العمل . وقد استدعى في نفس الليلة أي ليلة التاسع من آذار غورنـغ لمقابلته . وصدر الأمر للفريق شوبرت قــائد منطقة ميونيخ العسكرية على الحدود النمسوية بالمجيء ، كما استدعى غليس – هورستينـاو «Glaise-Horstenau» وزير النمسا المفوض،وكان غائباً عن برلين في البلاتينات.تأخر ريبنتروب في لندن.وتولى نوراث وزارة الخارجية ».

وسادت الحركة برلين في اليوم التالي ، أي يوم الخميس العاشر من آذار . لقد صمم هتلر على احتلال النمسا عسكرياً وليس ثمة من شك في أن قادته العسكريين قد بوغتوا بهذا القرار . وإذا كان لا بد من الحيلولة دون استفتاء شوشنيغ المقرر له يوم الأحد بالقوة ، فإن الجيش يجب أن يدخل إلى النمسا يوم السبت،ولم تكن الخطط قد أعدت لمثل هذه الحركة السريعة . واستدعى هتلر كايتل لمقابلته في الساعة العاشرة صباحاً . ولكن الفريق قبل أن يمضي لمقابلة الفوهرر تحدث ملياً إلى يودل وإلى الفريق ماكس فون فيبان ، رئيس دائرة العمليات في القيـادة العامة . وتذكر يودل الداهية « حالة أوتو الخاصة » التي كانت قد أعدت خطتها لمواجهة أية محاولة تجري لاعادة أوتو آل هابسبورغ ، إلى العرش النمسوي. ولما كانت هذه هي الخطة الموجودة للقيام بعمليات عسكرية ضد النمسا ، فقد قرر هتلر تطبيقها . وأصدر أمره قائلاً « أعدوا حالة أوتو » .

وهرع كايتل إلى مقر القيادة العامة للقوات المسلحة في «بندلشتراسة» للتشاور مع الفريق بيك رئيس هيئة أركان الحرب . وعندما طلب تفصيلات عن الخطة رد بيك قائلاً : «إننا لم نعد شيئاً ، أبداً ، على الاطلاق. لا شيء أبداً». واستدعي بيك بدوره إلى مستشارية الرايـخ . وأمسك القائد بالفريق فون مانشتاين الذي كان على وشك أن يغادر برلين لتسلم قيادة إحدى الفرق ، وطلب منه أن يصحبه لمقابلة هتلر ، الذي أبلغهما أن على الجيش ان يكون مستعداً للزحف على

النمسا يوم السبت . ولم يعترض أي من الجنرالين على هذا الاقتراح الذي ينطوي على العدوان المسلح، وكان همهما مركزاً على صعوبة تأمين العمل العسكري في مثل هذا الوقت القصير. وعاد مانشتاين إلى «البندلشتراسة» ليشرع فوراً في إعداد الأوامر اللازمة منهياً عمله في غضون خمس ساعات أي حوالي السادسة مساء. وتقول يوميات يودل ان أوامر التعبئة صدرت في الساعة السادسة والنصف مساء إلى ثلاثة فيالق وإلى السلاح الجوي . وأصدر هتلر في الساعة الثانية من صباح اليوم التالي ، أي الحادي عشر من آذار ، أول توجيه لعملية اوتو . ولقد كان على عجلة من أمره إلى الحد الذي حمله على إهمال توقيع التوجيه . ولم يكن في الامكان الحصول على توقيعه إلا بعد الساعة الواحدة بعد الظهر . وهذا ما جاء فيه :

سري للغاية

إذا ثبت أن الوسائل الأخرى غير ناجحة ولا مجدية فأنا أعتزم غزو النمسا بالقوات المسلحة لاقامة أوضاع دستورية ولأحول دون وقوع أية اعتداءات أخرى ضد السكان الموالين لألمانيا .

سأتولى بنفسي توجيه العملية كلها ...

يجب أن تكون قوات الجيش والسلاح الجوي التي أدرجت وحداتها بالتفصيل في الفقرة السابعة جاهزة للقيام بالغزو قبل الساعة الثانية عشرة من ظهر الثاني عشر من آذار عام ١٩٣٨ .

« ٥ — يجب أن يوحي سلوك الجنود بالانطباع بأننا لا ننوي أن نشن حرباً على إخواننا النمسويين.. ولهذا يجب تجنب أي استفزاز . أما إذا بدرت مقاومة ، فمن الواجب تحطيمها بلا شفقة وبقوة السلاح ... » [١]

وبعد بضع ساعات أصدر يودل ملحقاً سرياً للغاية للأمر ، بالنيابة عن رئيس القيادة العليا للقوات المسلحة :

« ١ — إذا واجهنا قوات تشيكوسلوفاكية أو وحدات من

١ — المؤامرة النازية والعدوان (٦) . ص ٩١١ — ٩١٢ .

المتطوعين في النمسا فيجب اعتبارها وحدات معادية .

« ٢ ـ يجب معاملة الايطاليين أينما كانوا كأصدقاء ولا سيما بعد أن أعلن موسوليني عدم اكتراثه بحل المشكلة النمسوية »[١] .

وكان هتلر قد أحس بالقلق من موسوليني . فبعد ظهر العاشر من آذار ، وكان قد قرر القيام بالغزو العسكري ، أوفد على طائرة خاصة الأمير فيليب آل هسي إلى الدوتشي يحمل رسالة مؤرخة بتاريخ الحادي عشر من آذار ، يبلغه فيها ما انتوى القيام به من اجراء ، ويطلب الى الديكتاتور الايطالي تفهم موقف ألمانيا . وكانت الرسالة طافحة بالأكاذيب عن معاملته لشوشنيغ وعن الأوضاع في النمسا ، التي أكد للدوتشي أنها اقتربت من حالة الفوضى ، وقد استهله بحجج طافحة بالخداع ، حتى أن الفوهرر اضطر الى حذفها عندما سمح بنشر الرسالة فيما بعد في ألمانيا[٢] . وقد ذكر أن النمسا وتشيكوسلوفاكيا كانتا تتآمران لإعادة آل هابسبورغ وتتأهبان « للقذف بنحو من عشرين مليون جندي ضد ألمانيا » . ثم لخص المطالب التي وجهها إلى شوشنيغ والتي أكد لموسوليني انها كانت «أكثر معتدلة» ثم حدثه عن تقاعس شوشنيغ عن تنفيذها، وعن « المهزلة التي أعدها لاجراء الاستفتاء المزعوم » . ثم مضى يقول :

واني بصفتي مسؤولاً كزعيم للرايخ الثالث ومستشاراً له ، وكإبن لهذه التربة ، لا أستطيع ان أظل في موقف السلبية تجاه مثل هذه التطورات .

ولقد عزمت الآن على إعادة الأمن والنظام الى وطني ، وعلى تمكين شعبه من ان يقرر لنفسه مصيره ، طبقاً لمشيئته وبطريقة واضحة وصريحة ولا خطأ فيها .

ومهما كان شكل الطريقة التي سيتم فيها الاستفتاء ، فانني أرغب صادقاً في ان أؤكد لسعادتك ، بوصفك « الدوتشي » في

١ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٩١٣ .

٢ ـ لقد عثر على الفقرات المحذوفة بعد انتهاء الحرب في وثائق وزارة الخارجية الايطالية .

ايطاليا الفاشية :

١ ـ ان تعتبر هذه الخطوة مجرد حركة وطنية للدفاع عن النفس ، وان تعتبرها بالتالي عملاً يضطر كل انسان صاحب أخلاق ان يفعله لو كان في نفس الموقف الذي أجد نفسي فيه . ولا أعتقد انك يا صاحب السعادة ستتصرف تصرفاً مخالفاً لو رأيت ان مستقبل الايطاليين مهدد بالخطر ...

٢ ـ لقد أثبت لك في الساعات الحرجة التي مرت بها ايطاليا دوام عطفي . وأود ان تتأكد بأن أي تبدل في هـذا الموقف لن يقع في المستقبل .

٣ ـ ومهما كانت نتائج الأحداث التالية ، فقد رسمت خطـاً نهائياً للحدود بين ألمانيا وفرنسا ، وها انا أرسم اليوم خطاً آخر لا يقل عنه تحديداً وبتاً ، بين ايطاليا وبيننا . انه ممر برينر [١] .

دائماً الصديق المخلص لك

ادولف هتلر [٢]

انهيـــار شوشنيغ

مضى الدكتور شوشنيغ ،مساء العاشر من آذار الى فراشه غير آبه بالنشاط المحموم الذي يدور على حدود بلاده من ناحية الرايخ الثالث ، وهو واثق كل الثقة ، كما ذكر فيما بعد ، من ان الاستفتاء سيؤدي الى نجاح النمسا ، ومن أن

١ ـ كان هذا التخطيط للحدود في ممـــر برينر بمثابة ترضية لموسوليني . اذ ان هذا التحديد يعني ان هتلر لن يطلب قط عودة التيرول الجنوبي،الذي انتزعته معاهدة فرساي من النمسا واعطته لايطاليا .

٢ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية ص ٥٧٣ ـ ٥٧٦ .

النازيين « لن يبدوا أية معارضة قوية »[1]. وكان الدكتور سايكس اينكوارت قد أكد له تلك الليلة تأييده للاستفتاء وعزمه على اذاعة خطاب بتأييده .

وأفاق المستشار النمسوي في الساعة الخامسة والنصف من صباح الجمعة الحادي عشر من آذار على صوت جرس الهاتف برن على مقربة من فراشه. وكان الدكتور سكوبل رئيس الشرطة النمسوية هو المتحدث . انه يبلغ المستشار ان الألمان قد أغلقوا حدودهم عند سالزبورغ، وقد توقفت حركة القطارات بين البلدين. وتقول الأنباء ان الألمان يحشدون قواتهم على الحدود النمسوية .

ولم تأزف الساعة السادسة والربع ، حتى كان شوشنيغ يسير في طريقه الى مكتبه في « بالهوسبلاتز » ، ولكنه قرر ان يتوقف عند كاتدرائية القديس اسطفان . وجلس الرجل في ساعات الفجر الأولى ، وبينما كان القدّاس المبكر يسير سيره المعتاد. قلقاً في مقعده يفكر بهذه الأنباء المشؤومة التي استمع اليها قبل قليل من رئيس شرطته . وكتب فيما بعد متذكراً ما حدث يقول : « ولم أكن واثقاً تمام الثقة مما تعنيه هذه الأنباء . وكل ما عرفته أنها ستؤدي إلى وقوع تبدل » .. وأخذ يتفرّس في الشموع التي تحترق أمام صورة السيدة العذراء ، ثم تطلع بعصبية الى ما حوله ، ورسم اشارة الصليب كما كان أهل فيينا جميعاً يفعلون أمام صورة العذراء في أوقات محنتهم .

وكان الهدوء يسود دار المستشارية ، كما لم تكن أية برقيات مزعجة قد

---

١ - يفرض العدل عليا ن اقول ان استفتاءات شوشنيغ لم تكن اكثر حرية أو ديموقراطية من الاستفتاءات التي كان هتلر يعتزم تزويرها في المانيا . ولما لم تكن النمسا قد شهدت اية انتخابات حرة منذ عام ١٩٣٣ ، فان جداول الناخبين لم تكن صحيحة او دقيقة . أو شاملة . فلقد كان من حق الذين تجاوزوا الرابعة والعشرين من عمرهم ان يقترعوا . ولما كانت المهلة التي أعطاها المستشار لاجراء الاستفتاء لاتعدو اربعة ايام،فان الوقت لم يتوافر لفئات المعارضة سواء أكانت نازية أو اشتراكية ديموقراطية للقيام بحملات دعائية حتى ولو سمح لهم بها . وكان من المتوقع ان يقترع الاشتراكيون الديموقراطيون بالايجاب لانهم يعتبرون شوشنيغ أخف ضررا وشراً من هتلر ، ناهيك عن وعده لهم باعادة الحريات السياسية . وليس ثمة من شك في ان اقتراعهم كان سيضمن النصر لشوشنيغ .

وصلت تلك الليلة من الدبلوماتيين النمسويين في الخارج . وهتف لمقر قيـــادة الشرطة ، طالباً من المسؤولين فيها أن يفرضوا نطاقاً كاجراء احتياطي على الأجزاء الداخلية من المدينة وعلى أبنية الحكومة . وسرعان ما استدعى زملاءه الوزراء إلى اجتماع عاجل ، ولم يتخلف عن الحضور إلا سايس-اينكوارت . ولم يتمكن شوشنيغ من العثور في أي مكان ، إذ كان الوزير النازي بالفعل في مطار فيينا . فلقد دعي فون بابن في الليلة الماضية بصورة عاجلة للذهاب الى برلـــين ، وكان قد غادر المدينة بطائرة خاصة في السادسة صباحاً ، حيث ودعه سايس في المطار . وظل « الكويزلنغ » النمسوي رقم واحد في المطـــار ينتظر زميله « الكويزلنغ » رقم اثنين ، غليس ـ هورستيناو ، العضو في وزارة شوشنيغ أيضاً ، والغارق مثل زميله سايس في الخيانة ، إذ كان من المنتظر ان يصل من برلين حاملاً أوامر هتلر فيما يجب عليهما عمله في موضوع الاستفتاء .

وكانت هذه الأوامر تقضي بإلغاء الاستفتاء ، وقد نقلها الى شوشنيغ في الساعة العاشرة صباحاً ، مـع التأكيد له ، بأن هتلر ثائر إلى حد الجنون . وقد وافق شوشنيغ بعد ساعات طويلة من المشاورات مع الرئيس ميكلاس ومع أعضاء وزارته ، ومع الدكتور سكوبل ، رئيس شرطته ، على إلغاء الاستفتاء. وكان رئيس الشرطة هذا قد أبلغه والتردد يغلبه ، ان الشرطة وقد انتشر فيها النازيون بعد ان أعيدوا الى مراكزهم تنفيذاً لانذار برختسغادن ، لم تعد موثوقة ، وليس في وسع الحكومة الاعتماد عليها. وكان شوشنيغ واثقاً من الناحية الأخرى من أن أفراد الجيش ومتطوعة « الجبهة الوطنية » ، وهي الحزب الرسمي الحاكم في النمسا. سيحاربون. ولكن شوشنيغ قرر في هذه اللحظة الحرجة ، كما قال هو تنفيذاً للفكرة التي كان دائماً واقعاً تحت سيطرتها ، بأنه لن يعرض أية مقاومة لهتلر ، اذا كانت هذه المقاومة تعني سفك الدم الألماني. وكان هتلر على أتم استعداد ليفعل ذلك ، أما شوشنيغ فقد انكمش أمام الفكرة نفسها .

واستدعي سايس - اينكوارت في الساعه الثانية بعد الظهر ، وأبلغه أنـه قرر إلغاء الاستفتاء . وهرع « يهوذا » المهذب الى الهاتف ليبلغ غورنغ في برلين

هذا القرار . ولكن المخطط النازي للأمور كان يتطلب دائماً من الخصم الذي يخضع، تنازلاً اثر آخر ، وبسرعة كبيرة . وهكذا بدأ هتلر وغورنغ على الفور في رفع قيمة « الرهان » في المقامرة . وقد سجلت وقائع ما حدث دقيقة بعد أخرى ، كما سجلت وقائع التهديدات والخداع ، – وهنا موضع السخرية – من قبل جهاز غورنغ الخاص الملقب « بمؤسسة البحث » ، إذ تولى تسجيل سبع وعشرين محادثة هاتفية من مكتب المشير ، ابتداء من الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والأربعين بعد ظهر الحادي عشر من آذار . وقد عثر على هذه الوثائق بعد الحرب في مقر وزارة الطيران الألمانية ، وهي تؤلف سجلاً كاشفاً للطريقة التي اتبعت في تقرير مصير النمسا على الهاتف من برلين في غضون الساعات القليلة والحرجة التالية[١].

فعندما تلقى المشير أول مكالمة هاتفية من سايس في الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والأربعين ، ليبلغه فيهـــا ان شوشنيغ قد قرر إلغاء الاستفتاء ، رد غورنغ بان هذا الالغاء لم يعد كافياً ، وانه سيتحدث اليه ثانية بعد أن يشاور هتلر . وبالفعل فقد عاد يحادثه في الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة . وكان أمر هتلر ان على شوشنيغ ان يستقيل وان سايس – اينكوارت يجب أن يغـــدو مستشاراً في غضون ساعتين . وقال غورنغ لسايس أيضاً أن عليهم «ان يبرقوا الى الفوهرر بموافقتهم على مطالبه» . وكانت هذه هي المرة الأولى التي ذكرت فيها هذه البرقية التي ذاع أمرها في غضون الحوادث المحمومة التي وقعت في الساعات القليلة التالية والتي استخدمت لتغطية الخديعة التي برر بهـــا هتلر عدوانه الى الشعب الألماني والى وزارات الخارجية في مختلف دول العالم .

وعرض ويلهلم كيبلر ، مندوب هتلر الخاص في النمسا ، والذي وصل بعد الظهر الى فيينا قادماً من برلين ، ليتسلم الأمور في غياب فون بابن على سايس – اينكوارت نص البرقية التي يجب عليه ان يبعث بهـــا الى الفوهرر . وتطلب البرقية ايفاد الجنود الألمان الى النمسا لوضع حد للاضطرابات فيها . وقد أعلن سايس في شهادته المشفوعة باليمين التي قدمها الى محاكات نورمبرغ ، انه رفض

١ – المؤامرة النازية والعدوان (٥) ص ٦٢٩ - ٦٥٤ .

ارسال هذه البرقية لعدم وجود اضطرابات في البلاد. واصر كيبلر على وجوب ارسال البرقية ، وسارع الى دار المستشارية النمسوية حيث بلغت به الوقاحة حداً حمله على ان يقيم له مكتباً للطوارىء الى جانب سايس وغليس- هورستيناو.
ولا يستطيع انسان ان يفهم لماذا سمح شوشنيغ لأمثال هؤلاء المتطفلين والخونة بالتمركز في مقر الحكومة النمسوية في هذه الساعة الحرجة ، ولكنه سمح لهم فعلاً بذلك . وقد ذكر فيما بعد ان دار المستشارية بدت اشبه ما تكون بخلية نحل ، وقد اقتعد سايس - اينكوارت وغليس - هورستيناو زاوية من البهو ، بينما تحلق حولهما جماعة من الرجال من ذوي السحن الغريبة ، وهم غادون رائحون. ولكن يبدو ان فكرة طردهم جميعاً من الدار لم تدر بخلد المستشار المذهول.
وكان قد حزم أمره على الاذعان لضغط هتلر والاستقالة من منصبه . وبينما كان ينفرد بسايس ، سجل مكالمة هاتفية لموسوليني . ولكن تعذر عليه الاتصال بالدوتشي فوراً وما لبث بعد دقائق أن ألغى المكالمة الهاتفية ولقد قرر ان طلب المعونة من موسوليني « مجرد اضاعة للوقت » . فحتى هذا الصديق الدعي المحب للتعاظم ، قد تخلى عن النمسا في أحرج ساعات محنتها . وبعد بضع دقائق وكان شوشنيغ يحاول حمل الرئيس ميكلاس على قبول الاستقالة ، تلقى رسالة عاجلة من وزارة الخارجية تقول « ان الحكومة الايطالية قد اعلمتها بعجزها عن تقديم اية نصيحة في هذه الظروف ، في حالة قيام الحكومة النمسوية بطلبها » [١].
ولم يكن الرئيس ويلهلم ميكلاس بالرجل العظيم ، ولكنه كان رجلاً عنيداً مستقيماً . ولقد قبل استقالة شوشنيغ مضطراً ، ولكنه رفض ان يجعل سايس اينكوارت خليفة له . وقال الرئيس ... « هذا مستحيل . اننا لن نقبل الاكراه » . واصدر امره الى شوشنيغ بابلاغ الألمان رفضه لإنذارهم [٢] .

١ - شوشنيغ - مطالب النمسا ص ٥١ .
٢- شهادة ويلهلم ميكلاس في ٣٠ كانون الثاني ١٩٤٦ في محاكمة الدكتور نوماير . وعلى الرغم من تردد الرئيس السابق في الارقام والتواريخ وتسلسل الاحداث إلا ان شهادته مهمة وممتعة - المؤامرة النازية والعدوان - الملحق (٢) .. ص ٥١٨ - ٥٣٤.

وسرعان ما نقل سايس ـ اينكوارت هـــذا الأمر الى غورنغ في الساعة الخامسة والنصف مساء . وهذا بعض ما دار من حديث .

« سايس ـ اينكوارت، ـ لقد قبل الرئيس استقالة شوشنيغ ... اقترحت ان يعهد إلي بالمستشارية ... ولكنه يؤثر ان يعهد بها إلى رجل كإيندر ...

« غورنغ ـ حسناً هذا لن يجدي . ولن نقبل به في ظل أية ظروف ! عليكم ابلاغ المستشار فوراً بأن عليه ان يسلم صلاحيات المستشار الاتحادي إليك ، وان يقبل بتشكيل الحكومة على النحو الذي رسمناه » .

وانقطع الحديث في هذه اللحظة ، فقد سلّم سايس ـ اينكوارت سماعة الهاتف الى الدكتور موهلمان ، وهو نازي نمسوي مغمور ، كان شوشنيغ قد رآه يتسكع في حديقة بيرختسغادن الخلفية ، عندما زارها ، وعرف انـه صديق شخصي لغورنغ .

« موهلمان ـ ما زال الرئيس مصراً على الرفض... ولقد مضينا نحن الثلاثة لمقابلته والتحدث اليه شخصياً ... ولكنـــه رفض مقابلتنا . ويبدو لنا حتى الآن وكأنه لايريد التسليم » .

« غورنغ ـ اعطني سايس . اسمع يا سايس . تذكر ما أقوله لك الآن . اذهب على الفور ومعك اللواء موف (الملحق العسكري الألماني) وابلغا الرئيس ، انـــه اذا لم يقبل شروطنا فوراً ، فان قواتنا الزاحفة الآن باتجاه الحدود ستقتحم خط الحدود الليلة ، على طوله ، وآنذاك ستزول النمسا من الوجود ... قل له ان الوقت لا يسمح للمزاح الآن ... فالوضع يتمثل في ان الغزو سيقع من جميع الزوايا في هذه الليلة . ولن يتوقف الغزو ولن يقف جنودنا عنـــد الحدود إلا إذا تلقينا اشعاراً في السابعـــة والنصف من هذا المساء بأن ميكلاس قـد عهد إليك بمستشارية الاتحاد ... ثم عليـك ان

تستدعي الآن جميع الاشتراكيين الوطنيين في طول البلاد وعرضها للخروج الى الشوارع . اذن تذكر . يجب ان نتسلم الرد قبل السابعة والنصف . واذا لم يتمكن ميكلاس من فهم ذلك في غضون اربع ساعات . فسنحمله على فهمه في غضون دقائق . »

ولكن الرئيس صاحب العزيمة ظل مصراً على رأيه .

وفي الساعة السادسة والنصف عاد غورنغ يهتف إلى كيبلر وسايس – اينكوارت . وقد ابلغه الرجلان ان الرئيس يرفض الاذعان .

« غورنغ ... اذن على سايس اينكوارت ان يقيله من منصبه . اصعد إليه ثانية وقل له بصراحة ، ان سايس ، سيدعو الحرس الإشتراكي الوطني الى العاصمة ، وبعد خمس دقائق ستزحف الجيوش عبر الحدود .

ومضى اللواء موف وكيبلر اطاعة لهذا الامر الى الرئيس ميكلاس ، وقدما إليه انذاراً عسكرياً ثانيـاً يهدده بأنه اذا لم يذعن في غضون ساعة ، أي قبل السابعة والنصف فان القوات الألمانية ستزحف على النمسا . وشهد ميكلاس فيما بعد قائلاً : وقد ابلغت السيدين انني ارفض انذارهما ... وان النمسا وحدها هي التي تقرر من يتولى الحكم فيها » .

وكان النازيون النمسويون في غضون ذلك ، قد فرضوا سيطرتهم على الشوارع وعلى المستشارية . وكنت قد وعدت في الساعة السادسة من ذلـك المساء من المستشفى حيث كانت زوجتي في صراع مع الموت ، بعد عملية وضع عسيرة تمت على الطريقة القيصرية . وعندما خرجت من احد الشوارع الفرعية لأصل إلى « كارلزبلاتس » ، وجدت نفسي في خضم حشد من الدهمـاء النازيين يزحفون باتجاه قلب المدينة وهم يهتفون هتافات هستيرية ، وكنت قد رأيت هذه الوجوه المشوهة في مهرجانات الحزب في نورمبرغ . انهم يصرخون « سيغ ! هايل ! سيغ ! هايل ! هايل هتلر ! هايل هتلر ! اشنقوا شوشنيغ ! اشنقوا شوشنيغ ! » اما رجال الشرطة الذين كانوا قبل بضع ساعات قد فرقوا على مرأى مني جماعة نازية صغيرة دون أي صعوبة ، فقد وقفوا الآن جامدين .

وسمع شوشنيغ الجلبة والضجة وهتافات الدهماء ، وانتابه القلق فسارع إلى قصر الرئيس ليرجوه للمرة الأخيرة . وقد وصف هذه المقابلة بقوله :

« كان الرئيس ميكلاس صامداً كالصخر . انه لن يعين أي نازي مستشاراً للنمسا . وعندما رأى إلحاحي عليـه بتعيين سايس اينكوارت عاد يقول : « لقد تخليتم عني جميعاً . أجل جميعاً » . ولكنني لم أر مناصاً من تعيين سايس اينكوارت . وعلى الرغم من ان أملي قد تضاءل ، إلا انني ظللت متعلقاً بالأمل في تعيين سايس - اينكوارت ، وبما قطعه لي من وعود . وكنت اعلق الكثير من الأهمية على سمعته الشخصية كـكاثوليكي متدين ورجل شريف[1] »

حقاً لقد ظل شوشنيغ متعلقاً بحبال الخيال وأوهام الماضي .

ثم اقترح المستشار الذي هوى ان يذيع رسالة وداعية يشرح فيها الاسباب التي ادت إلى استقالته . ويقول شوشنيغ ان الرئيس قد وافق على ذلك ، وان كان هذا قد نفى اخيراً انه قد وافق . وكانت تلك الاذاعة من اكثر الاذاعات التي سمعتها في حياتي تأثيراً على العواطف . وقد وضع مكبر الصوت على بعد خمس خطوات من المكان الذي اغتيل فيه دلفوس . وبدأ شوشنيغ اذاعتـه يقول :

لقد قدمت الحكومة الألمانية انذاراً نهائياً الى الرئيس ميكلاس اليوم ضربت فيه موعداً معيناً لتعيين شخص اختارته هي لتولي المستشارية ... مهددة بأن الجيوش الألمانية ستغزو النمسا في حالة تأخره عن اطاعة هذا الانذار .

« وانني لأعلن للعالم ان الانباء التي نشرتها المانيا عن قيـام العمال بالفتن في النمسا ، وعن سفك الدماء وجريانها انهاراً ، وعن خلق اوضاع عجزت الحكومة النمسوية عن السيطرة عليها ، كلها محض اختلاقات من ألفها إلى يائها . وقـد طلب إليّ الرئيس ميكلاس ان اعلن لشعب النمسا اننـا اذعنا للقوة مدفوعين الى ذلك برغبتنا في تجنب سفك الدماء . ولقـد اصدرنا أوامرنا الى القوات

١ - شوشنيغ - مطالب النمسا - ٥٢ .

العسكرية بأن لا تبدي اية مقاومة [1] .

« وهكذا فانني اودع الشعب النمسوي بكلمة وداع المانية منبعثة من اعماق فؤادي قائلاً ... ليحفظ الله النمسا ! »

وكان في مكنة المستشار ان يودع الشعب ، ولكن الرئيس العنيد لم يكن مستعداً للسير على منواله . وقد عرف غورنغ هذا عندما هتف الى اللواء موف بعد اذاعة شوشنيغ بدقائق ... وراح غورنغ يقول ... ان خير حل هو ان يستقيل ميكلاس .

اللواء موف ـ « أجل ولكنه لا يريـد . انها مسرحية . لقد تحدثت اليه نحواً من خمس عشرة دقيقة فأكد لي انـه لن يذعن للقوة مهما كانت الظروف .

ولم يستطع غورنغ ان يصدق ما سمع فعاد يسأل محدثه ... إذن لن يذعن إلى القوة ؟

اللواء موف ــ لا . انه لن يذعن .

ــ إذن فهو يريد أن يطرد طرداً ؟

ـ أجل ، انه يريد البقاء .

ـ حسناً . وله اربعة عشر طفلاً . انه يريد البقاء ! حسناً قل لسايس ان

---

١ ــ نفى ميكلاس في شهادته التي صدرت عنه بعد انتهاء الحرب ان يكون قد طلب الى شوشنيغ ان يضمن خطابه ما ذكره على لسانه ، كما نفى ان يكون قد وافق على الخطاب كلية . اذ لم يكن الرئيس على النقيض مما قاله المستشار المستقيل على استعداد للاذعان للقوة . وقد ذكر انه قال لشوشنيغ آنذاك: « ان الاوضاع لن تسوء الى الحد الذي يحملنا على الاستسلام. » فلقد رفض الانذار الالماني الثاني وكان لا يزال ثابتاً على موقفه . ولكن اذاعة شوشنيغ عملت على اضعاف مركزه، وفرض الوضع الجديد عليه. وسنرى ان الرئيس العجوز العنيد ظل صامداً عدة ساعات اخرى قبل ان يستسلم. وقد رفض في الثالث عشر من آذار ان يوقع على قانون «الانشلوس» الذي يكرس زوال النمسا المستقلة،وهو القانون الذي قدمه اليه سايس- اينكوارت بأمر من هتلر. وعلى الرغم من انه تنازل عن صلاحياته للمستشار النمسوي، طالما انه بات عاجزاً عن ممارستها، إلا انه لم يقدم استقالته ابداً من الرئاسة . ولقد شرح فيما بعد موقفه الى محكمة في فيينا قائلاً : لو فعلت ذلك لكنت جباناً . ولكن هذا لم يحل بين سايس ـ اينكوارت وبين الاعلان رسمياً في الثالث عشر من آذار ان «الرئيس قد استقال من منصبه بناء على طلب المستشار وان صلاحياته قد انتقلت الى المستشار ». (المؤامرة النازية والعدوان (الملحق ٢) ص٥٢٥ - ٥٣٤ والمؤامرة النازية والعدوان (٥) ص ٢٠٩) .

يتولى زمام الأمر .

وكانت قصة البرقية ، التي أراد هتلر ان يتلقاها ليبرر الغزو لا تزال قائمة . وكان الفوهرر ، كما ذكر فون بابن الذي انضم إليه الآن في دار المستشارية في برلين « قد وصل إلى حالة من التوتر العصبي تقرب من الجنون » ان الرئيس النمسوي العنيد يقلب له بتصرفاته ما وضعه من خطط. وسايس - اينكوارت ايضاً ماذا دهاه ؟ انه يقلب له خطته رأساً على عقب برفضه ارسال البرقيـــة التي تطلب إلى هتلر ايفاد قواته إلى النمسا لوضع حـد للفتن فيها . ووصل الاجهاد العصبي عند هتلر ذروته فلم يعد يحتمل ، واصدر أوامره ببدء الغزو في الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والاربعين مساء [1] . وبعد ثلاث دقائق كان غورنغ يحدث كيبلر على الهاتف في فيينا .

« اسمع. اصغ الي باهتمام . من الضروري جداً ان يبعث سايس — اينكوارت بالبرقية التالية فوراً ، اكتب النص :

« تبعث الحكومة النمسوية المؤقتة التي أخذت على عاتقها ، بعد استقالة حكومة شوشنيغ ، توطيد دعائم السلام والنظام في النمسا ، بتحياتها الى الحكومة الألمانية وتطلب اليها طلباً عاجلاً أن تؤيدها في هذه المهمة وأن تساعدها في الحيلولة دون سفك الدماء . وهي لهذا ترجوها أن تبعث بالجنود الألمان في أسرع وقت ممكن » .

وأكد كيبلر للمشير انه سيطلع سايس اينكوارت على البرقية فوراً .

ورد غورنغ قائلاً : « حسناً انه لا يحتاج حتى إلى إرسال البرقية . كل مـــا يطلب اليه هو أن يقول « موافق » .

وطلب كيبلر بعد ساعة برلين ليتحدث اليها. وقال لمحدثه : « ابلغ المشير ان

---

١ ـ كان هذا الأمر وثيقة سرية تحمل عنوان « التوجيه رقم (٢) لعملية اوتو ـ سري للغاية» وهذا بعض ما جاء فيه : « لم تنفذ الحكومة النمسوية مطالب المانيا منها ... وللحيلولة دون المزيد من سفك الدماء في المدن النمسوية، سيبدأ دخول القوات الألمانية المسلحة الى النمسا وفقاً للتوجيه الاول عند فجر الثاني عشر من آذار. وأتوقع وصول جميع القوات الى اهدافها في اسرع وقت ممكن » ـ التوقيـع « ادولف هتلر » ـ المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ١٠١٧ .

سايس اينكوارت موافق » . [1]

وهكذا قدر لي عندما مررت ببرلين أن أجد عنواناً صارخاً في الفولكشاير بيوباختر يقول « انقاذ النمسا الألمـــانية من الفوضى » . وكانت هناك قصص لا يمكن تصديقها خلقها غوبلز تتحدث عن الاضطرابات الحمراء ، والقتل والنهب والقتال في شوارع مدينة فيينا الرئيسية . ونشرت الصحيفة ايضاً نص البرقية التي اصدرتها وكالة الأنباء الألمانية الرسمية في الليلة السابقة والتي ذكرت فيها ان هتلر قد تلقاها من سايس ـ اينكوارت. وقد عثر بالفعل على نسختين من البرقية كما أملاها غورنغ ، في وثائق وزارة الخارجية الألمانية في نهاية الحرب . وشرح بابن فيما بعد كيف وصلت هاتان النسختان الى الوزارة إذ ذكر أن وزير البرق والبريد الألماني « دبرهما » ووضعهما في ملفات الحكومة .

وكان هتلر ينتظر بفارغ الصبر طيلة ذلك المساء والليل المحمومين لا مجرد انباء اذعان الرئيس ميكلاس ، بل ورسالة من موسوليني ايضاً . فقد تشاءم من هذا الصمت الذي خيم على من كان يعتبر نفسه حامياً للنمسا . وهتف الامير فيليب هيسي من روما طالباً المستشارية في الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة والعشرين مساء . وراح هتلر نفسه يمسك بسماعة الهاتف . وسجل خبراء غورنغ المحادثة على النحو التالي :

الأمير – ها أنا عائد لتوي من قصر البندقية . لقد قبل الدوتشي القضية كلها بشكل ودي . انه يبعث إليك بأحر احتراماته... كان

---

١ ـ لقد حاول سايس اينكوارت بالفعل حتى ساعة متأخرة بعد منتصف تلك الليلة ، ان يحمل هتلر على وقف الغزو . وتقول مذكرة في وزارة الخارجية الالمانية ان اللواء موف تحدث هاتفياً مع برلين في الساعة الثانية والدقيقة العاشرة صباحاً من اليوم الثاني عشر من آذار ليطلب بناء على تعليمات المستشار سايس ـ اينكورات ، بقاء «القوات المستنفرة على الحدود دون ان تعبرها ». وجاء كيبلر الى الهاتف ليؤكد هذا الطلب ايضاً . ويبدو ان اللواء موف ، وهو رجل شريف وضابط من رجال المدرسة القديمة ، وجد ان موقفه مزعج كل الازعاج في فيينا . وعندما ابلغته برلين ان هتلر رفض وقف القوات ومنعها عن الدخول اجاب بأنه « يأسف لهذه الرسالة » ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (١) ص ٥٨٤ ـ ٥٨٦ .

شوشنيغ هو الذي نقل إليه الأنباء ... ورد موسوليني بأن النمسا لم تعد تهمه .

وأحس هتلر بشعور من الراحة والفرح .

هتلر — إذن ارجوك قل لموسوليني انني لن أنسى له هذا الصنيع

الأمير — أمرك يا سيدي .

هتلر — ابداً . ابداً . ابداً . مهما حدث . انني على استعداد لعقد معاهدة معه تختلف كل الاختلاف عن معاهدتنا السابقة .

الأمير — لقد قلت له هذا ايضاً يا سيدي .

هتلر — بعد ان ننتهي من مشكلة النمسا . سأكون على استعداد للمضي معه حيث يشاء — أجل حيث يشاء .

الأمير — أجل يا زعيمي .

هتلر — اسمع . سأعقد أي اتفاق . انني لم اعد أخشى من الوضع المخيف الذي كان لا بد وان يقوم من الناحية العسكرية في حال اشتباكنا في صراع ، ارجو ان تبلغه عميق شكري النابع من صميم فؤادي . انني لن أنسى له هذا الفضل .

الأمير — أجل يا زعيمي .

هتلر — لن أنسى له صنيعه هـذا ، مهما حدث . واذا حدث وكان في حاجة الى العون ، أو وقع في خطر ، ففي وسعه أن يثق كل الثقة بأنني سأقف الى جانبه مهما حدث ، حتى ولو تألب العالم بأسره عليه .

الأمير — أجل يا زعيمي .

ونتساءل الآن ، ترى ما هو الموقف الذي كانت بريطانيا وفرنسا وعصبة الأمم ، تقفه في هذه الآونة الحرجة لوقف عدوان المانيا ضد جارتها المسالمة الوادعة ؟ انها لم تقف أي موقف . ابداً ، فرنسا تمر في ازمة وزارية ، ولم تتألف الحكومة الجديدة فيها بعد ، إذ استقالت وزارة شوطان في العاشر من آذار .

ولم يكن هناك في باريس طيلة اليوم الحادي عشر من آذار ، عندما كان غورنغ يطلق انذاراته وتهديداته على فيينا واحداً اثر آخر ، من يستطيع ان يعمل . ولم تتألف الحكومة الجديدة برئاسة ليون بلوم إلا في الثالث عشر ، وبعد ان اعلن الاتحاد بين المانيا والنمسا (الانشلوس) .

وبريطانيا . ما شأنها يا ترى ؟كان انتوني ايدن قد استقال من منصبه كوزير للخارجية في العشرين من شباط أي بعد استسلام شوشنيغ في برختسغادن ، وكانت استقالته ناجمة على الغالب من معارضته لأي تنازل جديـــد من جانب رئيسه نيفيل تشمبرلين لموسوليني . وقد خلفه الآن اللورد هاليفاكس .ورحبت برلين بهذا التبديل كما رحبت ايضاً بالبيان الذي القاه تشمبرلين في مجلس العموم بعد انذار برختسغادن . وقد بعثت سفارة المانيـــا في لندن بتقرير مسهب الى برلين عن هذا البيان في الرابع من آذار [1] ونقـل التقرير عن تشمبرلين قوله بالحرف الواحد : « ان ما حدث في برختسغادن لا يعدو اجتماعاً بـــين سياسيين اتفقا على بعض الاجراءات لتحسين العلاقـــات بين بلاديهما ... ويبدو ان من المستحيل ان يظل المرء على الاصرار ، بأن مجرد الاتفاق بين سياسيين على وقوع بعض التبدلات الداخلية في أحد البلدين ، وهي تبدلات مستحبة تخدم مصلحة العلاقات بينهما — يعني ان تلك البلاد ، قـــد تخلت عن استقلالها ، في مصلحة البلاد الثانية . فعلى النقيض من ذلك، يوحي الخطاب الذي القاه مستشار الاتحاد النمسوي . في الرابـع والعشرين من شباط ، ان شيئاً من هذا لن يحدث ، كما يوحي بان المستشار نفسه (شوشنيـغ) ، لا يعتقد مطلقاً انه تخلى عن استقلال بلاده » .

ولما كنت قد عرفت في ذلك الحين ، ان المفوضية البريطانية في فيينـــا ، كانت قد ابلغت تشمبرلين تفاصيل انذار هتلر في برختسغادن لشوشنيغ ، فان هذا الخطاب الذي القاه الرئيس البريطاني في مجلس العموم في الثـاني من آذار

---

١ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (١) ص٥٨٤ - ٥٨٦ .

يبدو مذهلاً لي كل الذهول [١] . ولكنه كان مرضياً لهتلر غـــاية الرضى . إذ ادرك ان باستطاعتــه ان يزحف على النمسا دون ان تثير له بريطانيا ايـــة تعقيدات . وكان ريبنتروب وزير خارجية المانيا الجديد قد وصل الى لندن في التاسع من آذار ليصفي اعماله في السفارة الالمانيـــة هناك حيث كان يتولى رئاستها . وقد دارت له احاديث طويلة مع تشمبرلين وهاليفاكس والملك ورئيس أساقفة كنتر بري . وقد ابرق الى برلين يقول ان انطباعاته من مقابلته لرئيس الوزارة البريطانية ووزير خارجيته كانت طيبة للغـــاية . وابرق ريبنتروب مباشرة الى هتلر في العاشر من آذار بعد حديث طويل مع اللورد هاليفاكس يشرح له موقف بريطانيا في حالة « عدم التمكن من حل المشكلة النمسوية حلاً سلمياً » . ولقد كشف في برقيته هـــذه عن قناعته بصورة رئيسية من « ان انكلترا لن تفعل شيئاً في موضوع النمسا [٢] » .

وفي يوم الجمعة الحادي عشر من آذار ، كان ريبنتروب يتناول طعام الغداء في داوننغ ستريت مع رئيس الوزراء ومساعديه ، عندما اقتحم القاعة رسول من وزارة الخارجية يحمل برقيات عاجلة مرسلة الى تشمبرلين تتحدث اليه عن الأنباء المذهلة المنقولة من فيينا . وكان تشمبرلين قد طلب الى ريبنتروب قبل بضع دقائق إبلاغ الفوهرر « صادق رغبته وثابت عزمـــه على تحسين العلاقات الألمانية - البريطانية » . أما وقد وصلت هذه الأنباء الشديدة المرارة من النمسا ، فقد انتقل الساسة الى مكتب رئيس الوزراء ، حيث تلا تشمبرلين على مسامع وزير خارجية المـــانيا الذي أحس بالقلق الشديد ، برقيتين من المفوضية البريطانية في فيينا تتحدثان عن انذار هتلر . ويقول ريبنتروب في برقيته التي بعث بها الى هتلر يصف ما حدث ... « ودار الحديث في جو يسوده التوتر ، وكان اللورد هاليفاكس

١ - اقسم غيدو شميدت في شهادته في نورمبرغ بأنه هو وشوشنيغ قد ابلغا ممثلي جميع الدول العظمى بانذار هتلر بصورة مفصلة . يضاف الى هذا انني اعرف تمام المعرفة ان مراسلي « التايمز » و « الديلي تلغراف » اللندنيتين ، في فيينا قد بعثا الى صحيفتيهما ، بتقرير دقيق وكامل عن كل ما وقع . (محاكمات كبار مجرمي الحرب (١٦) ص ١٥٣ .

٢ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (١) ص ٢٦٣ .

الهادىء عادة ، اكثر هياجاً من تشمبرلين ، الذي ظل محتفظاً في ظاهره على الاقل بشيء من الهدوء وبرودة المزاج » . واعرب ريبنتروب عن شكه في « صحة هذه الانباء »، ويبدو أن قوله هذا قد هدأ من ثائرة مضيفيه البريطانيين إذ « أن الوداع دار في شكل ودي حتى ان هاليفاكس نفسه استعاد هدوءه ايضاً » [1].

وتمثل رد فعل تشمبرلين بالنسبة الى هذه البرقيات الواردة من فيينا في اصدار تعليماته الى هندرسون سفيره في برلين بأن يقدم مذكرة الى فون نوراث وزير الخارجية بالنيابة يوضح له فيها انه اذا صح وجود الانذار الالماني للنمسا « فان حكومة جلالته تجد نفسها مضطرة الى تسجيل احتجاج في اقصى صيغة ممكنة »[2] لكن مجرد الاحتجاج الدبلوماتي في مثل هذا الوقت المتأخر لم يكن كافياً لاثارة قلق هتلر . وفي الثاني عشر من آذار ، أي في اليوم التالي ، وكانت الجيوش الألمانية تتدفق على النمسا ، قدم فون نوراث رداً الى السفير البريطاني ، ينطوي على الازدراء [3] ، اعلن فيه ان العلاقات النمسوية – الألمانية ، شيء يهم الشعب الألماني وحده ، ولا علاقة للحكومة البريطانية بها ، ثم عاد يكرر الاكاذيب عن عدم وجود انذار الماني الى النمسا ، ومن ان القوات الألمانية قد دخلت الى النمسا تلبية لنداء عاجل من حكومتها الجديدة . وعاد يلفت بعد ذلك نظر السفير البريطاني الى « البرقية التي كانت الصحافة الألمانية قد نشرتها [4] » .

---

١ – وثائق وزارة الخارجية الالمانية (١) ص ٢٧٣ – ص ٢٧٥ . وقد روى المستر تشرشل وصفاً ممتعاً عن هذه المأدبة في مذكراته ص (٢٧١ – ٢٧٢) (المذكرات التي نقلها الى العربية معرب هذا الكتاب). وتوجد القصة المذكورة في (ص ٢١٣ – ٢١٤) من المجلد الاول.

٢ – وثائق وزارة الخارجية الالمانية ص ٥٧٨ .

٣ – المؤامرة النازية والعدوان (١) ص ٥٠١ – ٥٠٢ .

٤ – كررت برقية وزعها البارون فون وايزساكر من رجال وزارة الخارجية الالمانية على المبعوثين الدبلوماتيين الالمان في الخارج ، بقصد « العلم وتوجيه المحادثات » ، هذه الاكاذيب كلها . وذكر وايز ساكر ان ما جاء على لسان شوشنيغ فيما يتعلق بالانذار الالماني ، ليس إلا اختلاقاً فاضحاً ، ثم مضى يقول لدبلوماتييه في الخارج : اما الحقيقة فهي ان موضوع ايفاد

وظل هتلر ليلة الحادي عشر من آذار ، قلقاً من موقف موسوليني بــل ولعل هذا الموقف من عدوانــه كان مصدر قلقه الوحيد[1] ، ولكن برلين شعرت ايضاً بشيء من القلق تجاه موقـف تشيكوسلوفاكيا ولكن سرعان ما أوضح غورنغ ، الرجل الذي لا يكل ولا يمل ، هذه القضية . فعلى الرغم من اشتغاله في توجيه الحركات الانقلابية في فيينا . عن طريق الهاتف ، إلا انه تمكن من التسلل اثناء المساء ليصل الى « هاوس دير فليغر » أي نادي الطيارين حيث تولى دور المضيف الرسمي لأكثر من الف شخص من كبار الموظفين والدبلوماتيين جاءوا ليشهدوا حفلة ساهرة مشرقة ، اسهمت في انجاحها فرق الموسيقى والغناء ورقص الباليه ، من دار الاوبرا الرسمية . وعندما وصل الوزير التشيكي من برلين الدكتور ماستنيني ، الى الحفلة الساهرة ، انتحى المشير الذي ملأت صدره الاوسمة به جانباً ، واقسم له بشرفه ان ليس ثمة ما يدعو تشيكوسلوفاكيا الى الخوف من المانيا وان دخول قوات الرايخ الى النمسا « ليس اكثر من مجرد قضية عائلية » ، وان هتلر يريد تحسين علاقاته مع براغ . واضاف ان كل ما يطلبه مقابل ذلك، التأكد من ان الحكومة التشيكوسلوفاكية لن تقوم بتعبئة قواتها . وراح الدكتور ماستنيني يغادر الحفلة فوراً فيهتف الى وزير خارجيته في براغ ثم يعود الى القاعة ليقول لغورنغ ان بلاده لا تعتزم تعبئة قواتها ، وان تشيكوسلوفاكيا لا تنوي التدخل فيما يدور في النمسا من

القوات العسكرية الالمانية قد اثير لأول مرة في البرقية المشهورة التي بعثت بها الحكومة المؤلفة حديثاً . وبالنظر الى وجود الخطر الماثل للحرب الاهلية فان حكومة الرايخ قررت الاستجابة لهذا النداء. (وثائق وزارة الخارجية الالمانيــة (١) ص ٥٨٦ — ٥٨٧) وهكذا فان وزارة الخارجية الالمانية لم تكتف بالكذب على الدبلوماتيين الاجانب بل وكذبت على دبلوماتييها ايضاً. ولقد ذكر وايزساكر في كتاب ضخم وضعيف كتبه بعد انتهاء الحرب ، شأنه في ذلك شأن غيره من الالمان الذين خدموا هتلر ، بأنه كان خصماً للنازية طيلة الوقت .

١ — أكد المشير فون مانشتاين فيشهادته في نورمبرغ في التاسع من شهر آب عام ١٩٤٦ انه « عندما اصدر هتلر امره الينا بالزحف على النمسا ، لم يكن قلقه الاساسي متجهاً الى الخوف من تدخل الحلفاء الغربيين . وانما كان مهتماً بمعرفة ما ستفعله ايطاليا ، إذ بدا ان ايطاليا كانت تقف دائماً الى جانب النمسا وآل هابسبورغ » (محاكمة كبار مجرمي الحرب (٢٠) ص ٦٠٥.

احداث ، واحس غورنغ بالارتياح ، وعاد يكرر تأكيداته ، مضيفاً اليها ، انه مخول من هتلر ، بأن يتعهد بذلك ايضاً .

ومن المحتمل ان لا يكون التشيكي الداهية ادوار بنيش ، قد وجد الوقت الكافي ليدرك في ذلك المساء ان نهاية النمسا، تعني نهاية تشيكوسلوفاكيا ايضاً . ولقد وجـــد هناك في اوروبا كثيرون في ذلك الحين ، رأوا ان تشيكوسلوفاكيــا كانت قصيرة النظر ، وانه كان أولى بها ان ترى الوضع الاستراتيجي المفجع ، الذي ستجد نفسها فيه من جراء احتلال النازيين للنمسا، بعد ان تحيط بها القوات الألمانية من جوانبها الثلاثة ، وانه كان حرياً بها ان ترى ان تدخلها لمساعدة النمسا على النجاة من الخطر ، قد يزعم روسيا وفرنسا وبريطانيا وكذلك عصبة الأمم على الأشتباك في صراع مع الرايخ الثالث ، وهو صراع ما كان باستطاعة الألمان آنذاك ان يواجهوه ، وان من الافضـــل لها والحالة هذه لو انها تدخلت في تلك الليلة ، ليلة الحادي عشر من آذار . ولكن الاحداث التالية ، التي سأسردها باختصار في هذا الكتاب تستبعد ، بالتأكيد كل حديث من هذا النوع . اذ اتيحت بعد فترة قصيرة فرصة افضل من هذه للديموقراطيتين الغربيتين الكبيرتين ، ولعصبة الأمم كذلك لوقف عدوان هتلر ، ولكنها كلها تقاعست عن العمل متراجعة . على أي حال ، ليس ثمة من شك في ان شوشنيغ لم يوجه في ذلك اليوم المليء بالاحداث أي نداء رسمي للتدخل ، لا للندن ولا لباريس أو براغ أو جنيف. ومن المحتمل ان يكون قد اعتقد كما تشير إلى ذلك مذكراته ، بأن مثل هذا العمل يعني مجرد اضاعة للوقت . أما الرئيس ميكلاس، فقد اعتقدمن الناحية الأخرى ، كما ذكر فيما بعد في مذكراته ان الحكومة النمسوية التي قامت فـــوراً بابلاغ باريس ولندن بالانذار الالماني ، تواصل « محادثاتها » مـع الحكومتين الفرنسية والبريطانية طيلة ذلك اليوم ، للتأكد من « اتجاه تفكيرهما » .

وعندما اتضح ان « اتجاه تفكيرهما » لا يعدو أن يكون مجرد احتجاجات فارغة ، اذعن الرئيس ميكلاس قبيــل منتصف الليل بقليل ، فاختار سايس

اينكوارت مستشاراً . وقبل القائمة التي قدمها اليه باسماء وزرائه . وعلق فيما بعد على الوضع بقوله : « لقد تخلى عني الجميع داخل الوطن وخارجه » .

* * *

واصدر هتلر بياناً ملؤه الغرور إلى الشعب الألماني ، برر فيه عدوانه بما ألفه من ازدراء للحقيقة ، ووعد بأن تتاح للشعب النمسوي الفرصة لتقرير مستقبله عن طريق « استفتاء حقيقي » ، وراح غوبلز يذيع هـــذا البيان من محطات الأذاعة الألمانية والنمسوية ظهر الثاني عشر من آذار ،أما هتلر ، فقد بادر بزيارة وطنه الاصلي ، حيث لقي ترحيباً كبيراً ، واكتظت جميع القرى التي مر بها ، والتي ارتفعت فيها علائم الزينة في اسرع وقت ممكن ، بحشود المستقبلين الذين يهتفون بحياته . ووصل بعد ظهرذلك اليوم الى لينز ، وهي هدفه الاول ، إذ انها المدينة التي قضى فيها سني حياته المدرسية . وكان الاستقبـال هناك هستيرياً ، وتأثر هتلر ابلغ التأثر . وبعد ان بعث باليوم التالي ببرقية إلى موسوليني يقول له فيها « لن انساك قط لما طوقتني به من فضل » ، راح يضع اكاليل الزهور على ضريحي والديه في ليوندينغ ثم عاد الى لينز حيث القى خطاباً قال فيه :

« عندما غادرت هذه المدينة قبل عدة سنوات ، كنت احمل في فؤادي ، نفس عواطف الايمان الصادقة التي تغمر قلبي اليوم . وفي وسعكم ان تحكموا على ما في عواطفي من عمق ، عندما ترون انني تمكنت بعد هذا العدد الكبير من السنوات ، ان اصل بذلك الايمان الى مرحلة التحقيـق . وإذا كانت العناية الآلهية قد شاءت ان تطلع بي من هـذه المدينة لأغدو زعيم الرايخ ، فانها ولا ريب قد حمّلتني في عملها هذا رسالة ، لا يمكن ان تكون إلا اعادةوطني العزيز إلى الرايخ الألماني . ولقد آمنت بهـــذه الرسالة ، وعشت وناضلت من اجلها ، وانني لاعتقد بأنني قد تمكنت الآن من تحقيقها . »

وراح سايس اينكوارت يطير بعد ظهر الثاني عشر من آذار الى لينز ، مصحوباً بهملر لمقابلة هتلر ، وهناك اعلن هذا المستشار النازي ان المادة الثامنة

والثمانين من معاهدة « سان جرمان » التي اعلنت ان استقلال النمسا لا يمكن ان يمس ، والتي جعلت من عصبة الامم ضامناً له ، قد الغيت . ولم يكتف هتلر ، الذي استبد به الحماس الذي ابدته الجماهير النمسوية بهذا الاعلان ، فأصدر أمره الى الدكتور ويلهلم شتوكارت ، وكيل وزارة الداخلية الألمانيـــة ، الذي كان الدكتور فريك وزيره قد اوفده على جناح السرعة الى فيينـــا لوضع مشروع قانون يقضي بتعيين هتلر رئيساً لجمهورية النمسا ، بالمجيء الى لينز . وقد فوجيء هذا الخبير القـــانوني ، كما ذكر فيما بعد في نورمبرغ ، بأمر من الفوهرر يقضي « بوضع قانون لاعلان الوحدة الـكاملة بين البلدين » [١] .

وقد قدم شتوكارت مشروع القانون الى الحكومة النمسوية الجديدة في فيينا يوم الأحد في الثالث عشر من آذار ، وهو اليوم الذي كان من المقرر ان يجري فيه شوشنيـغ استفتاءه . ورفض الرئيس ميكلاس ، كما رأينا من قبل توقيـع هذا القانون ، ولكن سايس – اينكوارت الذي كان قد تولى في ذلك اليـــوم صلاحيات الرئيس ، طار في المساء الى لينز ليقدم القانون الى الفوهرر . وقد اعلن القانون ، زوال النمسا من الوجود ، إذ استهل بالعبـــارة التالية : « ان النمسا مقاطعة من الرايخ الألماني » . وقد تذكر سايس – اينكوارت فيما بعد ان دموع الفرح قد انهمرت من عيني هتلر [٢] . وابرمت الحكومة الألمانية هـــذا القانون الاتحادي المسمى « بقانون الانشلوس » في نفس اليـــوم في لينز ، وتولى توقيعه كل من هتلر وغورنغ وريبنتروب وفريك وهيس . وقد نص على اجراء « استفتاء سري حر » في العاشر من نيسان يقرر فيه الشعب النمسوي « مسئلة عودة الاتحاد مع الرايخ الالماني » واعلن هتلر ايضاً ان ألمان الرايـخ سيستفتون في موضوع الاتحاد في الثـــامن عشر من آذار ، وهو موعد اجراء الانتخابات الجديدة لمجلس الرايشستاغ .

ولم يدخل هتلر إلى مدينة فيينا التي عاش فيها أفاقاً مدة طويـلة ، دخول

---

١ – محاكمات كبار مجرمي الحرب (١٥) ص ٦٣٢ .
٢ – المؤامرة النازية والعدوان (٥) ص ٩٦١ – ٩٩٢ .

الظافرين إلا بعد ظهر الاثنين في الرابع عشر من آذار . وقد اخره عن ذلك عاملان لم يكن يتوقعها . اذ على الرغـــم من حماس النمسويين الجنوني لتوقع رؤيتهم الفوهرر في عاصمتهم ، طلب هملر ، يوماً اضافيـــاً آخر ، ليستكمل اجراءات الأمن الاحتياطية . وكان قد شرع في اعتقال الألوف من غير الموثوق بهم ، وارتفع عددهم في غضون بضعة اسابيـع ليصل الى تسعة وسبعين الفـاً في فيينا وحدها . أما العامل الثاني فهو ان الوحدات الألمانية المدرعة ، التي طالما تبجح بها هتلر ، قد انهارت قبل ان تصل الى مرأىً من تلال فيينا . ويقول يودل ان سبعين في المائة من المدرعات قد تعطلت على الطريق من سالزبرغ وباساو الى فيينا ، وان كان الفريق غودريان الذي يتولى قيادة هـــذه القوات المدرعة قد اكد فيما بعد ان ثلاثين في المائة فقط من قواته قد تعطلت عن الحركة . لكن هتلر ثار على أي حال ثورة عارمة على هذا التأخير . ولم يقض في فيينا اكثر من ليلة واحدة صرفها في فندق « امبريال » .

ومع ذلك فقد كانت هذه العودة الظافرة الى العاصمة الامبراطورية السابقة التي ما زال يذكر طردها له ، وحياته فيها في شبابه الباكر حياة المجاعة والشقاء، والتي تلقاه الآن بالهتافات والافراح الصاخبة ، في روحه حيوية دافقة . وطار بابن الذي يود ان يكون موجوداً في كل مكان ، من برلين إلى فيينا ليشترك في الاحتفالات ، ووجد هتلر يقف على منصة العرض المواجهة لقصر (هوفبيرغ) قصر آل هابسبورغ القديم وكتب فون بابن فيما بعد يقول : « لا يمكنني ان أقول إلا انه كان في حالة من النشوة لا مثيل لها » [١] .

---

١ – ومع ذلك كان وراء تلك النشوة شيء لم يلاحظه فون بابن، الضحل التفكير. انها الرغبة المحرقة في ان يثأر من تلك المدينة وشعبها، لأنهما لم يقدراه حق قدره في شبابه ، فبات يحتقرهما في قرارة فؤاده ، ولعل هذا الشعور هو الذي دفعه الى اطالة المكوث في المدينة ،وان كان قد تحدث بعد بضعة اسابيـع فقط الى محافظها قائلاً :« ارجو ان تتأكد بأن هذه المدينة جوهرة في نظري. وسأصل بها الى وضع تستحقه كل الاستحقاق » . ومن المحتمل ان يكون هذا القول اقرب الى الدعاية الانتخابية ، منه الى التعبير عن عميق المشاعر . وقد كشف عن حقيقة احساسه الى بالدور فون شيراخ الحاكم النازي لفيينا إبان الحرب في اجتماع سيطرت الحدة عليه في « عش النسر » في

وقد ظل على هذه الحالة طيلة القسم الأكبر من الأسابيع الأربعة التالية ، عندما كان يذرع المانيا والنمسا من هذا الطرف الى ذاك مذكياً الحماس عند الجماهير ليقترعوا « بنعم » تأييداً للاتحاد . ولكنه في خطاباته الفياضة ، لم يترك فرصة دون ان يهتبلها للنيل من شوشنيغ والاتجار بالأكاذيب التالفة التي يرددها عن طريقة تحقيق الاتحاد. واكد في الخطاب الذي ألقاه في الرايشستاغ في الثامن عشر من آذار ان شوشنيغ قد « خان عهده »، بما « زيفه من انتخابات » مضيفاً ان العمل الذي قام به ، لا يمكن ان يصدر « إلا عن رجل مجنون اعمى » . وتحولت « الانتخابات المزيفة » في الخطاب الذي القاه في كوينغزبرغ في الخامس والعشرين من آذار الى « مهزلة مضحكة » . وادعى هتلر العثور على بعض الرسائل التي تثبت ان شوشنيغ كان ينتوي خداعه عامداً متعمداً بما يبديه من تسويف في تنفيذ اتفاق برختسغادن املاً في ان « تحل الفرصة الأكثر مواتاة لإثارة الدول الاجنبية ضد المانيا » .

ورد هتلر في خطاب كوينغزبرغ ايضاً على ما ورد في الصحف الاجنبية من حملات على استخدامه القوة ، وعلى لجوئه إلى الخديعة في الاعلان عن الاتحاد دون ان ينتظر نتيجة الاستفتاء وقال :

عام ١٩٤٣ . ولقد شرح شيراخ هذه المقابلة في شهادته امام محكمة نورمبرغ قائلاً :

« وآنذاك شرع الفوهرر يتحدث بشيء من الكراهية التي لا حدود لها والتي لا تصدق عن شعب فيينا ... وقد ذكر هتلر في الساعة الرابعة صباحاً وبصورة مفاجئة شيئاً اود ان اكرره الآن لأسباب تاريخية . فقد قال : «كان من الواجب ان لا نقبل بدخول فيينا في اتحاد المانيا العظمى . » ان هتلر لم يحب قط مدينة فيينا ، وانما كان يكره شعبها » (محاكمات كبار مجرمي الحرب (١٤) ص ٤٢٩ .)

وقد تمكر مزاجفون بابن المرح الذي جاء يشترك في الاحتفالات في نفس اليوم عندما سمع بأن ويلهلم فون كيتلر ، صديقه الحميم ، ومساعده في السفارة الألمانية قد اختفى في ظروف تشير الى وجود لعبة قذرة من الغستابو . وكان صديق آخر من اصدقاء المفوضية والمتعاونين معها وهو البارون تشيرشكي ، قد فر قبل ثلاثة ايام الى لندن لينجو من الموت المحقق على ايدي رجال الحرس النازي . وقد عثر على جثة كيتلر في نهاية شهر نيسان ، اذ قذفت بها مياه الدانوب الى اليابسة . وكان رجال الغستابو في فيينا قد قتلوه وقذفوا بجثته الى الماء .

« ذكرت بعض الصحف الاجنبية اننا فرضنا انفسنا على النمسا مستخدمين الأساليب الوحشية الفظة . وأود أن اقول ، ان الموت لا يمنع هؤلاء الناس عن الكذب . حقاً لقد كسبت الكثير من الحب من شعبي طيلة نضالي السياسي ، ولكن في وسعي أن اقول انني عندما عبرت الحدود السابقة الى النمسا، لقيت فيها تياراً جارفاً من الحب، لم اشهد له مثيلاً من قبل. فنحن لم نمض الى هناك كمستعمرين، وانما مضينا محررين . وتحت وطأة هذا الانطباع القوي ، قررت ان لا انتظر حتى العاشر من شهر نيسان ، وان امضي في تحقيق الوحدة فوراً ... »

واذا كانت هذه الاقوال قد بدت مفتقرة الى المنطق او الصدق ، في آذان الأجانب ؛ فليس ثمة من شك ، انها تركت انطباعاً عظيماً في نفوس الألمان .
وعندما راح هتلر في نهاية الخطاب الذي القاه في الرايشستاغ يتوسل بصوت تخنقه العاطفة قائلاً : « ايها الشعب الألماني ، امنحني اربع سنوات اخرى ، عساي احقق لك فيها ما تتوخاه من استغلال للاتحاد الذي اقمناه لمصلحة الجميع » ، قوبل قوله هذا بعاصفة مدوية وطاغية بحيث صغرت امامها جميع انتصاراته السابقة من فوق هذا المنبر .

وانهى الفوهرر حملته الانتخابية في فيينا في التاسع من نيسان عشية اليوم الذي سبق الاقتراع . وأحس هذا الرجل ، الذي جاب في وقت سابق ارصفة الشوارع في هذه المدينة كأفاق متصعلك ، خاوي المعدة والوفاض، وقذر الهيئة واللباس ، والذي أمسك قبل اربع سنوات فقط بما كان لملوك الهوهنزولرن في المانيا من سلطان ، والذي قبض الآن على زمام السلطة التي تمتع بها اباطرة الهابسبورغ ، بشعور يغمره من قدسية الرسالة الالهية التي يحملها . ودفعه هذا الاحساس الى ان يقول :

« اعتقد ان ارادة الله هي التي شاءت ان تبعث بشاب من ابناء هذه المدينة الى الرايخ ، ودفعته في معارج النهوض ، ورفعت

من شأنه ليصبح زعيم الأمة ، وليتمكن من ضم وطنه الى حظيرة الرايخ .

« وهناك إرادة اسمى من إرادتنا ، ولسنا في الحقيقة إلا وكلاء لها . وعندما نقض الهر شوشنيغ وعده في التاسع من آذار، شعرت آنذاك ، وفي تلك اللحظة ان نداء العناية الالهية ، قد قرع بابي . ولم أجد في كل ما وقع في الايام الثلاثة التالية إلا تحقيقاً لمشيئة العناية الالهية ورغباتها .

« ولم تنقض أيام ثلاثة حتى كان الربّ قد اصابهم بغضبه ، وشاءت العناية الالهية أن تمنحني القوة لأجعل من خيانتهم للعهد سبيلاً لتوحيد وطني مع الرايخ .

« واني لأتطلع إلى الله بالشكر الآن ، لأنه سمح لي بالعودة إلى وطني ، ولأنه أراد أن أقوده إلى حظيرة الرايخ الألماني . والآن أسأل الله ان يمكّن كل ألماني من إدراك هذه الساعة وتقدير أهميتها وأن يمكنه من الوقوف خاضعاً امامه جل شأنه ، ليشكره على المعجزة التي حققها لنا في غضون بضعة أسابيع » .

وكان الاستنتاج طبيعياً في ان غالبية النمسويين التي كان ينتظر منها ان تقول « نعم » لشوشنيغ في الثالث عشر من آذار، ستقول عين الكلمة لهتلر الآن، وفي العاشر من نيسان . فلقد كان الكثيرون منهم يؤمنون ايماناً صادقاً ، بضرورة الاتحاد النهائي بين بلادهم وبين أي شكل من أشكال المانيا حتى ولو كان نازياً ، وبأن هذا الاتحاد شيء لا مناص منه ، بل ومرغوب فيه،لا سيما ولا يمكن للنمسا التي بترت عن ملحقاتها الفسيحة من أراضي السلافيين والمجريين في عام ١٩١٨ ، أن تظل قائمة بشكل كريم ومنفصلة عن غيرها، لأن الوسيلة الوحيدة لبقائها هذا هو في أن تغدو جزءاً من الرايخ الألماني . وبالاضافة إلى هؤلاء النمسويين كان هناك النازيون المتعصبون الذين أخذت اعدادهم في الإزدياد بسرعة من الانتهازيين وطلاب المناصب والحريصين عليها ، الذين أجتذبهم النصر النازي وباتوا راغبين

في تحسين أوضاعهم . ولا ريب كذلك في أن الكثيرين من الكاثوليك في هذه البلاد ذات الصبغة الكاثوليكية الطاغية قد تأثروا كثيراً بالبيان الذي أصدره الكردينال اينتيزر ، والذي استغله النازيون في دعايتهم . مرحباً فيه بمجيء النازية الى النمسا وحاثاً أهلها على الإقتراع ايجابياً . [1]

ولو اتيحت الفرصة للديموقراطيين الاشتراكيين ولحزب شوشنيغ من الاشتراكيين المسيحيين ، في استفتاء نزيه وعادل، للدعوة بحرية وبصورة صريحة لكانت نتيجة الاستفتاء متعادلة تقريباً . اما الآن فقد اختلف الوضع تماماً . اذ كان الاقتراع « بلا » يتطلب شجاعة خارقة من النمسويين . فلقد كان المقترعون هنا كما كانوا في المانيا ، ولهم كل ما يبرر موقفهم هذا ، يخشون كل الخشية ، ان يكتشف اقتراعهم « السلبي » وان يصيبهم من ذلك ضر شديد . ورأيت في مركز الاقتراع الذي زرته في فيينا بعدظهر ذلك اليوم الاحد ، الذي جرى فيه الاقتراع ، شقوقاً واسعة في زوايا صندوق الاقتراع ، تمكن اعضاء لجنة الاقتراع من النازيين الجالسين على بعد بضعة اقدام من ان يروا الطريقة التي يقترع فيها كل انسان . أما في المناطق الريفية ، فان عدد الذين حرصوا على ان يكون اقتراعهم سرياً او جرؤوا عليه ، كان قليلاً ، إذ آثر الجميع الاقتراع علناً حتى يرى كل انسان شكل اقتراعهم . وكان من المتوقع ان اذيع رسالتي في الساعة السابعة والنصف من ذلك المساء ، أي بعد نصف ساعة من اغلاق صناديق الاقتراع ، وقبل ان يكون فرز الاصوات قد بدأ . وجاءني موظف نازي يؤكد لي قبل ان اذيع ان النمسويين سيقترعون إلى جانب الاتحاد بنسبة (٩٩) في المائة . وبالفعل فقد كان هذا هو الرقم الرسمي الذي اعلن فيما بعد ، إذ اقترع إلى جانب الاتحاد ٩٩,٠٨ في المائة في المانيا و٩٩،٧٥ في المائة في النمسا. وهكذا اختفى اسم النمسا كبلد مستقل مؤقتاً من التاريخ ، وكان العامل

---

١ - وبعد ثمانية اشهر أي في الثامن من تشرين الاول هاجم المشاغبون النازيون قصره القائم امام كاتدرائية القديس اسطفان ونهبوه . فلقد عرف اينتيزر متأخراً ماتعنيه الاشتراكية الالمانية. وكان قد هاجمها في احدى مواعظه بسبب اضطهادها للكنيسة .

في زواها ، النمسوي المنتقم الذي ضمها الآن الى المانيا . والقيت كلمة الألمانية القديمة للنمسا وهي « اويسترايخ » ، واصبحت تدعى الآن « اوستمارك أي المانيا الشرقية » . ولكن سرعان ما اختفى هذا الاسم ايضـــاً واصبحت مجزأة إلى مقاطعات ملحقة ببرلين مباشرة واعيد اطلاق الاسماء القديمة على هذه المقاطعات « كالتيرول وسالزبرغ وستيرنا وكارينثيا » . وغدت فيينا مدينة اخرى من مدن الرايخ ، واصبحت منطقتها مجرد مركز اقليمي اداري ، يسير في طريق الذبول ، وهكذا قضى الأفاق النمسوي السابق الذي غدا الآن ديكتاتوراً بمحو بلاده من الخريطة وحرمان عاصمتها التي كانت متألقة ذات يوم على آخر خيط من خيوط مجدها واهميتها . وبات من الحتمي ان تعم خيبة الأمل جميع النمسويين .

وكان سلوك النمسويين النازيين في فيينا في الاسابيع القليلة الأولى اسوأ سلوك شهدته عيني في المانيا . فلقد ظهر بينهم مظهر فاجر من مظاهر الصادية (Sadism) . وبات في وسع المرء أن يرى يومـــاً بعد آخر اعداداً كبيرة من رجال اليهود ونسائهم يقومون بازالة صور شوشنيغ وشعـــاراته من الشوارع والأزقة وتنظيف مجاري المياه. وبينما كان هؤلاء يعملون تحت وطأة تهديد قوات العاصفة الواقفة فوق رؤوسهم ، كانت الجماهير تحتشد حولهم موجهة اليهم الاهانات والسباب . وكثيراً ما جمع المئات منهم في الشوارع ليقوموا بتنظيف المراحيض العامة والمراحيض القائمة في ثكنات فرق العاصفة والحرس النازي. وزج بالألوف في السجون أيضاً بعد أن صودرت جميع أموالهم أو سرقت . ورأيت بنفسي من شقتي في «بلوسفلاسيه» فصائل من رجال الحرس النازي يحملون الأواني الفضية والستائر والصور الزيتية وغير ذلك من الاشياء التي نهبوها من قصر آل روتشيلد المجاور لمسكني. وقد تمكن البارون لويس دي روتشيلد نفسه فيما بعد من الخروج من فيينا بعد أن تنازل عن مصانع الفولاذ التي يملكها إلى مؤسسة هيرمان غورنغ. وتمكن نحو من نصف أهل المدينة من اليهود الذين كان عددهم نحواً من مائة وثمانين الفاً قبل نشوب الحرب من النجاة بأرواحهم والهجرة الى الخـــارج بعد ان تخلوا عن كل ما يملكونه الى النازيين .

وقد تولت منظمة خاصة اقامها هايدريش واطلق عليهـــا اسم « دائرة الهجرة اليهودية » ، القيام بهذا الاتجار المربح بالحرية ، وسرعان ما غدت هذه المنظمة التي تعمـــل تحت اشراف الحرس النازي الوكالة النـــازية الوحيدة المخولة باصدار اذونات السفر لليهود .. وتولى الاشراف على هــذه المنظمـــة منذ قيامها نازي نمسوي ، من مواطني مدينـة لينز ، وهي مسقط رأس هتلر ، ويدعى كارل ادولف ايخمان . وسرعان مـا انقلبت هذه المنظمـة الى مؤسسة لإبادة اليهود ، اذ تولت القضاء على نحو من اربعـة ملايين شخص اغلبهـم من اليهود [1] . وقد استغل هملر وهايدريش ايضاً اقامتهما في النمســا في الاسابيع الأولى من الاتحاد فأقاما معتقلاً ضخماً في موتهاوزن على الضفة الشماليـة من نهر الدانوب على مقربة من اينز . فلقد كان من العسير نقل مئات الألوف من المعتقلين النمسويين الى معتقلات المانيا . وهكذا قرر هملر ان يكون للنمسا معتقلهـــا الخاص بها . وكان عدد النزلاء في هذا المعتقل من المسجونين غير النمسويين قبيل انهيار الرايخ الثالث ، اكبر من عدد المعتقلين النمسويين ، كما اشتهر امره بمـا سجله من ارقام قياسية في عدد الذين اعدموا فيه ، اذ اشارت الارقام الرسمية الى اعدام (٨ ٣٥,٣) رجلاً في السنوات الست والنصف الأولى من وجوده .

وهرع مئات الألوف من الألمان من جميع اطراف الرايخ ، الى النمســا على الرغم من الارهاب الذي فرضه هملر وهايدريش عليها ، حيث كان في وسعهم ان يبتاعوا بما يحملونه من « ماركات » وجبات غنية من الطعام حرموا منهـا في المانيا منذ سنوات ، وان يقضوا اجازاتهم بتكاليف طفيفة في جبالها ومناطق بحيراتها التي لا نظير لها . وتدفق رجال الأعمال الألمان واصحاب المصـارف ليبتاعوا ما فيها من مصالح اليهود وغير النازيين بأسعار متناهية في هبوطها . وكان بين الزائرين الضاحكين الدكتور شاخت الفذ ، الذي كان لايزال وزيراً

[1] ـ اكتفى المؤلف بسرد هذه الارقام دون ان يعود بها الى الوثائق الرسمية كما هي عادته في جميع ما اورده في كتابه من احصاءات وارقام . ولا ريب في انه استند فيها على ارقام الدعاية الصهيونية ، التي يعتبرها الكثيرون خيالية في مبالغتها . ـ المعرب ـ

بلا وزارة على الرغم من خلافاته مع هتلر ، ورئيساً لمصرف الرايخ، فلقد كان من اكثر الناس فرحاً بالاتحاد . ووصل إلى فيينا ليتسلم زمـــام المصرف النمسوي الوطني بالنيابة عن مصرف الرايخ حتى قبل اجراء الاستفتاء ، والقى خطاباً على موظفي المصرف في الواحد والعشرين من آذار . وبعد ان سخر من الصحافة الاجنبية لما وجهته من نقد للأساليب التي اتبعها هتلر في تنفيذ الاتحـاد ، راح الدكتور شاخت يدافع عن هذه الاساليب بقوة ، قائلاً ان الاتحاد « الانشلوس» كان النتيجة الطبيعية لأعمال الغدر والوحشية والعنف التي ارتكبتهـــا البلاد الاجنبية ضدنا ثم مضى يقول :

انما لنتوجه بالشكر الى الله،على ان ادولف هتلر قد خلق مجتمعاً « للارادة الألمانية والفكر الألماني . » وقد دعم هـذا المجتمع بجيش «الفير ماخت» الذي تقوّى حديثاً،ثم اضفى في النهاية الشكل الظاهري على الاتحاد الحقيقي القائم في الداخل بين المانيا والنمسا ...

« وكل من لا يقف من صميم فؤاده وراء ادولف هتلر ، لن يجد له مكاناً او مستقبلاً بيننا...ولن يكون مصرف الرايخ إلا مصرفاً اشتراكياً وطنياً ، وإلا فانني سأتخلى عن ادارته » .

وهنا تقدم الدكتور شاخت الى الموظفين النمسويين بصيغة قسم طلب منهم جميعاً ان يؤدوه ، لكي يكونوا دائماً « اوفياء ومطيعين للفوهرر » .

وراح الدكتور شاخت يصرخ بعد ذلك هاتفاً ... « ان كل من ينقض هذا اليمين يعتبر وغداً » ، ثم تعالى صوته بالهتاف لهتلر ... « سيغ هايل ، سيغ هايل ، هايل هتلر ، هايل هتلر » ، والكل يردد هتافه معه [١] .

* * *

وقد اعتقل الدكتور شوشنيغ في غضون ذلك وتعرّض لمعـاملة في منتهى الإذلال والهوان ، بحيث يصعب على المرء أن يصدق أن هـذه الأوامر لم تكن صادرة عن هتلر نفسه . وكان أول إعتقال له في منزله بين الثاني عشر من آذار

١ ــ المؤامرة النازية والعدوان (٧) ص ٣٩٤ - ٤٠٢ .

والثامن والعشرين من ايار . حيث كان رجال الغستابو يحرمون جفنيه من الرقاد بألاعيبهم وحيلهم الدنيئة ثم ما لبث أن نقل إلى مقر قيادة الغستابو في فندق ميتروبول في فيينا ، حيث احتجز في غرفة صغيرة في الطابق الخامس مدة سبعة عشر شهراً أخرى . وهناك كان يرغم على القيام بتنظيف الغرف ، والمغاسل والمجالي والمراحيض في الاقسام التي يعيش فيها رجال الحرس النازي ، مستخدماً المناشف التي تعطى له لاستعماله الخاص ، كما يرغم على القيام بكل ما يخطر في بال الغستابو من أعمال مهينة ذليلة . ولمـــا حلّت الذكرى السنوية الأولى لسقوط حكومته أي في الحادي عشر من آذار عام ١٩٣٩ ، كان قد فقد ثمانية وخمسين رطلاً من وزنه ، ومع ذلك ، فقد ذكر طبيب الحرس النازي في تقريره ، أن وضعه الصحي كان على ما يرام . وشرح الدكتور شوشنيغ في كتابه – مطالب النمسا – السنوات الطويلة من السجن الإنفرادي ، ومن الحياة بين « الأحيـاء الأموات » في عدد من أسوأ المعتقلات الألمانية كداخاو وساشينهاوزن .

وقد سمح له بعيد اعتقاله بالزواج عن طريق الوكالة ، من الكونتيسةالسابقة فيرا تزيرنين التي كانت المحكمة الكنسية قد قضت بالغاء زواجها السابق (وكان شوشنيغ مترملاً في هذه الآونة)، هذا وقد أُتيح لها في آخر سنوات الحرب أن تشترك معه في الحياة في معتقله، مع طفلها الذي ولد عام ١٩٤١. ولا ريب في أن تمكن هذه الاسرة من الصمود لكابوس الاعتقال يعتبر معجزة من المعجزات. وقد انضم اليها قبيل إنتهاء الحرب، عدد من الضحايا البارزين لحقد هتلر وغضبه من أمثال الدكتور شاخت ، وليون بلوم رئيس وزراء فرنسا السابق ، والسيدة زوجته ، والقس نيمويلر ، وعدد من كبار القادة العسكريين ، والأمير فيليب هيسّي الذي قتل رجالُ الحرس النازي في معتقل بوخنفولد في عام ١٩٤٤ زوجته الأميرة مغالدا إبنة ملك إيطاليا، كجزء من إنتقام الفوهرر من فكتور عمانوئيل ملك ايطاليا لتخليه عن المانيا وانضمامه إلى جانب الحلفاء .

وقد وصلت هذه المجموعة من كبار المسجونين في اليوم الأول من ايار عام ١٩٤٥ الى احدى القرى النائية في اعالي جبـال التيرول الجنوبي ، بعد ان

اجابت بسرعة من معتقل داخاو ونقلت باتجاه الجنوب ، للحيلولة دون تحريرها على ايدي القوات الامريكية الزاحفة من الغرب . وقد اطلع ضباط الغستابو شوشنيغ على قائمة باسماء الذين تقرر قتلهم بـــأمر من هتلر خشية تحريرهم على ايدي الحلفاء ، ورأى المستشار النمسوي السابق ، اسمه واسم زوجته واضحين تمام الوضوح في هذه القائمة . وهنا زاولته شجاعته . فقد تمكن من الصمود طيلة هذه المدة الطويلة ، وها هو يواجه الموت في اللحظة الأخيرة .

لكن شوشنيغ تمكن في الرابع من ايار على أي حال من تدوين العبـــارة التالية في يومیته :

«اطلقت صافرات الانذار في الساعة الثانية بعد ظهر اليوم ! آه الامريكيون.

« لقد تمكن فصيل امريكي من احتلال الفندق .

« ها نحن احرار ! » .

* * *

وهكذا تمكن هتلر دون ان يطلق طلقة واحدة ، ودون أي تدخل من جانب بريطانيا العظمى وفرنسا وروسيا ، التي كان في وسع قواتها العسكرية أن تتغلب عليه ، من اضافة سبعة ملايين من الرعايا إلى الرايخ ومن الفوز بموقع استراتيجي ذي قيمـــة كبيرة لخططـــه المقبلة . فقد غدت جيوشه تحيط بتشيكوسلوفاكيا من جهاتها الثلاث ، كما غدت باحتلالها فيينا مسيطرة على بوابة أوروبا الجنوبية الشرقية . ولقد كانت هذه المدينة بوصفها عاصمة الامبراطورية النمسوية - المجرية القديمة ، المركز الرئيسي للمواصلات وانظمة التجـــارة في الاوروبيتين الوسطى والجنوبية الشرقية . وها هو هذا المركز الحساس يصبح الآن في ايدي الألمان .

وتبين هتلر الآن حقيقة واضحة كل الوضوح ، وهي أن بريطانيا وفرنسا لن تحركا قلامة ظفر في وجهـه لوقف عدوانه . اذ القى تشمبرلين في الرابع عشر من آذار خطاباً في مجلس العموم تحدث فيه عن « الأمر الواقع » الذي قام به هتلر في النمسا . وراحت السفارة الألمـــانية في لندن تبعث إلى برلين بسلسلة

متلاحقة من البرقيات العاجلة عن سير المناقشة في المجلس . لم يكن ثمة ما يخشاه هتلر . فقد أعلن تشمبرلين « ان الحقيقة القاسية هي انه لم يكن ثمة سبيل لوقف ما حدث بالفعل في النمسا ، إلا إذا كانت هذه البلاد ، وغيرهـــا على استعداد لاستخدام القوة » .

واتضح لهتلر الآن أن رغبة رئيس الوزراء البريطاني ، لا تقتصر على عـدم استخدام القوة بل وتمضي إلى الميل عن التشاور مع الدول الكبرى الاخرى لوقف الحركات الألمانية المقبلة . وكانت الحكومة السوفياتية قد اقترحت في السابع عشر من آذار ،عقد مؤتمر للدول الكبرى داخل عصبة الأمم أو خارجها، لإتخاذ الاجراءات اللازمة للحيلولة دون وقوع أي عدوان الماني جديد . ووقف تشمبرلين موقفاً بارداً كالثلج من هذا الاقتراح ، وما لبث أن اعلن رفضه له ، في جلسة عقدها مجلس العموم في الرابع والعشرين من آذار ، إذ قال : « ان النتيجة الحتمية لمثل هذا العمل ، هي زيادة الميل إلى اقامة كتل دولية خاصة ، مما يعتبر عملاً مناقضاً ومعادياً للآمال المعلقة على ايجاد سلام اوروبي » . ويبدو ان الرئيس البريطاني قد تجاهل ، محور برلين ـ رومة والميثاق الثلاثي لمكافحة الشيوعية الذي يضم المانيا وايطاليا واليابان ، أو لم يحملها على محمل الجد .

واعلن تمشبرلين في نفس الخطاب قراراً اتخذته حكومته ، وكان ولا ريب اكثر بعثاً للمسرة في فؤاد هتلر . فقد رفض رفضاً باتاً الاقتراح القائل بأن تتولى بريطانيا تقديم تعهد بالإسراع الى مساعدة تشيكوسلوفاكيا في حالة تعرضهـــا للاعتداء ، كما رفض أيضاً الاقتراح بأن تهب بريطانيا لمساعدة فرنسا في حالة اضطرارها الى الوفاء بالتزاماتها بموجب الميثاق الفرنسي ـ التشيكي . ولا ريب في ان هذا البيان الصريح قد ابعد القلق تماماً عن فؤاد هتلر الذي بات واثقاً الآن من ان بريطانيا ستقف كذلك موقف المتفرج ، عندما يشرع في خطوته الثانية تجاه ضحيته الأخرى . واذا كانت بريطانيا ستقف هذا الموقف ، ألا ينتظر من فرنسا أن تقف موقفاً مماثلاً له ؟ . ان أوراقه السرية في الأشهر القليلة التالية ، توضح بجلاء ، انه كان واثقاً من ذلك كل الثقة . ولقد عرف ان نصوص الميثاقين

اللذين عقدتهما روسيا مع فرنسا وتشيكوسلوفاكيا، لا تفرض على الاتحاد السوفياتي أن يهرع إلى مساعدة التشيكيين إلا إذا تحركت فرنسا أولاً . ولم يكن بحاجة إلى أكثر من هذا العلم ليمضي فوراً بمشاريعه في طريق التنفيذ .

* * *

وكان في وسع هتلر أن يفترض بعد نجاح الاتحاد (الانشلوس) أن الفرقاء العسكريين الألمان ، الذين كان التردد مسيطراً عليهم، لن يقفوا بعد الآن موقف المناوىء له في تنفيذ مشاريعه . وإن كانت هناك بقية من شكوك تساوره في هذه القضية . لكن هذه الشكوك ما لبثت أن اختفت بنتيجة الخاتمة السعيدة التي انتهت اليها قضية الفريق فريتشه .

وقد رأينا في فصل سابق كيف توقفت فجأة محاكمة الفريق فون فريتشه أمام محكمة عسكرية بتهم الشذوذ الجنسي ، في يوم استهلالها ، في العاشر من آذار بسبب استدعاء هتلر للمشير غورنغ وقائدي الجيش والاسطول ، لمعالجة بعض الشؤون العاجلة المتعلقة بالنمسا. وقد استؤنفت المحاكمة في السابع عشر من آذار ، ولكن بالنظر إلى ما وقع من أحداث في فترة التأجيل، فقد كان من الطبيعي أن تفقد أهميتها وأن لا تصبح ذات خطورة من أي نوع كان . فقبل بضعة أسابيع ، خيل لكبار القادة العسكريين ، ولربما كان بعضهم واثقاً من صحة خيالاته ، بأنه عندما تكشف المحاكمة العسكرية عن الاساليب التي اتبعها هملر وهايدريش ضد فريتشه والتي لا تكاد تصدق بما فيها من خديعة وتزوير . فان نتائج هذا الكشف لن تقتصر على اعادة قائدهم العام الى منصبه فحسب ، بل ستتعداها إلى رجة ضخمة في قواعد الحرس النازي بل وفي قواعد الرايخ الثالث وادولف هتلر نفسه ، تعرضها للانهيار أيضاً . يا له من أمل فارغ مغرور ! ولقد رأينا كيف تمكن هتلر في الرابع من شباط، من تحطيم احلام فيلق الضباط، بتسلمه شخصياً قيادة القوات المسلحة ، وصرفه فريتشه ومن يحيط به من كبار القادة العسكريين من الخدمة . وها هو الآن يحتل النمسا دون أن يطلق رصاصة واحدة . ولم يعد هناك بعد هذا النصر المحيّر للعقول ، في المانيا كلها، حتى وبين القادة العسكريين

القدامى من يفكر تفكيراً جدياً بالفريق فون فريتشه .

ولقد برئت ساحته بسرعة فائقة . إذ انهار في المحكمة المجرم السابق شميدت المعتاد على التشهير وابتزاز الأموال عن طريق التهديد وذلك بعد قليـــل من الصرامة والعنف اللذين ابداهما غورنغ رغبة منه في أن يبدو في مظهر القاضي العادل . واعترف هذا الرجل بأن الغستابو قد هدده بالموت إذا لم يتهم الفريق فون فريتشه وهو تهديد ما لبث أن نفذ تماماً بعد بضعة أيام . وذكر انالتشابه في الاسماء بين الفريق فون فريتشه والضابط الفـــارس فون فريش ، الذي كان شميدت بالفعل قد ابتز منه المال ، نتيجة إمساكه به متلبساً في قضية اخلاقية تتعلق بالشذوذ الجنسي ، هو الذي أدى إلى هذا الاتهام ولم يقم فريتشه أو الجيش الآن بمحاولة للكشف عن دور الغستابو الفعلي في القضية ولا عن جريمة هملر وهايدريش الشخصية في بناء هذا الاتهام الزائف . وانتهت المحاكمة في اليوم الثاني أي في الثامن عشر من آذار ، بالقرار المتوقع التالي « ثبت للمحكمة عدم صحة التهم ، وبرئت ساحة المتهم » .

ولقد كان هذا القرار تبرئة شخصية للفريق فون فريتشه ، لكنه لم يعد إلى منصبه ، كما لم يؤد القرار إلى عودة الجيش إلى مركزه الســـابق المستقل بعض الاستقلال عن الرايخ الثالث . ولما كانت المحا كمة قد جرت بصورة سرية ، فان الرأي العام لم يدر بشيء عنها أو عن القضايا المتعلقة بها . وقد بعث هتلر في الخامس والعشرين من آذار ببرقية الى فريتشه يهنؤه فيها على «استعادته صحته». وهكذا اسدل الستار .

أما الفريق الذي ابعد عن منصبه ، والذي فزع من ان يشير بأي أصبع من أصابع الاتهام الى هملر في المحكمة ، فقد أبدى الآن ايماءة اخيرة غير مجدية ، إذ تحدى قائد الغستابو طالباً اياه للمبارزة . وقد وقع التحدي طبقاً للانظمة العسكرية القديمة المتعلقة بالشرف ، واشرف على تنفيذه الفريق بيـك نفسه ، الذي سلمه بدوره الى الفريق فون رونشتادت بوصفه اقدم الضباط رتبة في الجيش ، ليقدمه الى قائد الحرس النازي . ولكن رونشتـادت تردد كثيراً ،

وحمل رسالة التحدي في جيبه عدة أسابيع إلى ان نسيها اخيراً .

وسرعان ما اختفى الفريق فون فريتشه وكل ما يمثله من حياة المانيــا .

ولكن ترى ماذا كان يمثل هذا الانسان؟انه يبعث في شهر كانون الأول برسالة الى صديقته البارونة مارغو فون شوتزبار ، تشير الى الاضطراب العاطفي الذي كان يحس به هو وغيره من القادة العسكريين الآخرين . قال فيها :

« ان من الغريب حقاً أن ينظر كثير من النـــاس إلى المستقبل بشيء من الخوف المتزايد ، على الرغم من انتصـــارات الفوهرر الرائعة في السنوات الماضية ... « فلقد توصلت فور انتهاء الحرب الى الاستنتاج بأن من واجبنا أن ننتصر في ثلاث معارك ،إذا أريد لألمانيا أن تستعيد قوتها ثانياً .

« ١ ــ المعركة ضد الطبقة العاملة ، وقد انتصر هتلر فيها .

« ٢ ــ المعركة ضد الكنيسه الكاثوليكيــة ، التي أرى من الأفضل تسميتها بالمعركة ضد الإيغال في الإنعزالية .

« ٣ ــ المعركة ضد اليهود .

« وما زلنا الآن في خضم المعركتين الأخيرتين،ولا ريب في ان معركتنا ضد اليهود هي اصبعها . وكلي أمل أن يدرك الجميع ما في هذه الحملة من تعقيدات » [١] .

وفي السابع من آب عام ١٩٣٩ ، وكانت سحب الحرب تتجمع وتتكاثف كتب الفريق الى البارونة يقول : « ليس لي من دور فى المانية هتلر لا في ايام السلم ولا في ايام الحرب ، ولكنني سأرافق فوجي في خيالي ، لأنني لااستطيع البقاء في البيت .

وهذا ما فعله حقاً . ففي الحادي عشر من آب عام ١٩٣٨ ، عين عقيداً أعلى لفوجه القديم ــ فوج المدفعية الثاني عشر ــ وهو لقب فخري . وفي الثـــاني والعشرين من ايلول عام ١٩٣٩، اصابته نيران مدفع رشاش بولندي أمام وارشو

١ ــ المؤامرة النازية والعدوان (٤) ص ٥٨٥ .

المحاصرة ، ودفن بعد أربعة أيام في برلين باحتفال عسكري مهيب ، ذات يوم بارد ممطر ومعتم من أشد الايام التي عشتها قسوة في برلين ، طبقاً لما دونته في مذكراتي .

وهكذا حقق هتلر بتسريحه فريتشه من منصبه كقائد عام للجيش الألماني قبل عشرين شهراً ، النصر الكامل على آخر قلعة ممكنة من قلاع المعارضة في المانيا ، وهي قلعة طبقة الضباط في الجيش التقليدي القديم . أما الآن وفي ربيع عام ١٩٣٨ فقد تمكن بلعبته الماكرة في النمسا من تثبيت سيطرته على الجيش ، عارضاً قيادته الجريئة ، ومؤكداً انه هو الشخص الوحيد الذي يستطيع اتخاذ القرارات في السياسة الخارجية ، وان دور الجيش هو تأمين القوة العسكرية اللازمة أو التهديد بها . يضاف إلى هذا انه أعطى للجيش دون ان يضحي برجل واحد ، موقعاً استراتيجياً ، جعل من تشيكوسلوفاكيا دولة لا يمكن الدفاع عنها من الناحية العسكرية . ولم يبق امامه من وقت يضيعه قبل الانتفاع من هذه المزية الجديدة .

وفي الواحد والعشرين من نيسان أي بعد أحد عشر يوماً من الاستفتاء النازي في النمسا ، استدعى هتلر ، الفريق كايتل ، رئيس القيادة العليا للقوات المسلحة العليا ليبحث معه في « الحالة الخضراء » .

١٢

الطريق إلى ميونيخ

« الحالة الخضراء » ... هي الاسم الرمزي للخطة الرامية الى القيام بهجوم مباغت على تشيكوسلوفاكيا . ولقد سبق لنا أن رأينا أن المشير فون بلومبرغ، كان اول من رسم هذه الخطة في ٢٤ حزيران عام ١٩٣٧ ، ثم عاد هتلر فتوسع فيها في المحاضرة التي القاها على قادته العسكريين في الخامس من تشرين الثاني ناصحاً اياهم « بأن الهجوم على التشيكيين يجب أن يأخذ سرعة البرق الخاطف ، وان من الواجب وقوعه ، في عام ١٩٣٨ » .

ولقد أدى احتلال النمسا السريع ، كما يظهر، إلى أن تصبح «الحالةالخضراء» قضية ملحة للغاية ، واتضحت ضرورة تعديلها لتكون متفقة مع آخر التطورات ، ولذا فمن الواجب الشروع ، في اتخاذ الاعدادات اللازمة لها . وكان هذا هو الهدف من استدعاء هتلر لكايتل في الواحد والعشرين من نيسان عام ١٩٣٨ . وقام الرائد رودلف شموندت مساعد هتلر العسكري الجديد ، في اليوم التالي باعداد ملخص عن الحديث ، قسمه الى ثلاثة اجزاء : « النواحي السياسية » و « والاستنتاجات العسكرية » و « الدعاية » [١] .

---

١ — عثر على الملف المتضمن للحالة الخضراء في مقر قيادة هتلر . وقد استولت عليه القوات الامريكية كاملاً في « اوبرسالزبرغ » ، ويؤلف ملخص الحديث الذي دار بين هتلر وكايتل في الواحدوالعشرين من نيسان الورقة الثانية في هذه المجموعة. وقد قدم الملف كله كدليل في محاكمات نورمبرغ . (المؤامرة النازية والعدوان (٣) ص ٢٩٦ - ٣٠٩) .

هناك أي سبب أو امكان للتبرير » ، وذلك مخافة « التيار المعادي من الرأي العام العالمي الذي قد يؤدي الى خلق وضع حرج كل الحراجة » . وفكر في طريقة ثانية « وهي القيام بعمل بعد فترة من المباحثات السياسية ، التي تؤدي بصورة متدرجة إلى ازمـــة والى الحرب » ، ورأى « أن هذه الطريقة ليست مجدية بسبب اجراءات الأمن التي لا بد وان تكون قد اتخذتها الجبهة الخضراء (تشيكوسلوفاكيا) » . وآثر الفوهرر في الوقت الحاضر على الأقل ، حلاً ثالثاً وهو « عمل سريع كالبرق ، يرتكز على حادث (كقتل الوزير الألماني المفوض مثلاً أثناء مظاهرة مناهضة لألمانيا) . وجدير بنا أن نذكر أن مثل هـــذا « الحادث » كان ضمن المخطط لتبرير الغزو الألماني للنمسا ، عندمـــا تقرر ان يكون فون بابن هو الضحية . ففي عالم الجريمة الذي تميز به عهد هتلر ، كان المبعوثون الألمان في الخارج من الأشياء القابلة للصرف .

وقد اكد سيد الحرب الألماني ، وهو المكان الذي بات هتلر يحتله الآن بعد أن تولى القيادة العامة للقوات المسلحة ،بصورة شخصية للفريق كايتل ، الضرورة الماسة للسرعة في العمليات العسكرية ، ثم قال :

« ان الأيام الأربعة الأولى من العمل العسكري حاسمة من الناحية السياسية تمام الحسم . وإذا كان ثمة افتقار إلى انتصار عسكري بارز ، فلا بد من نشوء أزمة أوروبية . ومن الواجب أن يقنع الأمر الواقع الدول الأجنبية بلا جدوية التدخل العسكري » .

أما من ناحية الجانب الدعائي للحرب ، فان الوقت لم يحن بعد لاستدعاء الدكتور غوبلز . ولم يبحث هتلر الآن إلا في موضوع المنشورات التي يجب توزيعها « لتوجيه الألمـــان في تشيكوسلوفاكيا » والتي يجب أن تتضمن « تهديدات لإرهاب التشيكيين » .

* * *

وكانت جمهورية تشيكوسلوفاكيا التي قرر هتلر الآن تحطيمهـــا المخلوق الذي ولدته معاهدات الصلح بعد الحرب الكونية الأولى ، وهي المعاهدات التي

غالى الألمان في كراهيتها . وكانت هذه الجمهورية ايضاً ، النتاج اليدوي لمثقفَيْنَ تشيكيين بارزين هما تومـاس غاريغ مازاريك ، نجل سائق العربة ، العصامي الذي تولى تثقيف نفسه فغدا من ابرز الحكماء وأول رئيس للجمهورية ، وادوارد بنيش ، نجل الفلاح ، الذي شق طريقـه في جامعة براغ وفي ثلاث مؤسسات فرنسية للتعليم العالي ، والذي غدا بعد أن خدم بصورة مستمرة كوزير للخارجية ، الرئيس الثاني للجمهورية بعد تقاعد مازاريك في عام ١٩٣٥ . وقد انتشلت هذه الجمهورية في عام ١٩١٨ من امبراطورية آل هابسبورغ السابقة التي كانت قد استولت في القرن السادس عشر على مملكة بوهيميا العريقة ، وراحت تتطور عبر السنوات التي تلت انشاءها في عـام ١٩١٨ ، لتغدو اكثر الدول ديموقراطيـة وتقدمية واستنارة وازدهاراً في اوروبا الوسطى .

وأدى تألفها من عدة قوميات مختلفة ، إلى وقوعها تحت سيطرة مشكلة داخلية مستعصية لم تستطع حلها طيلة عشرين عاماً . انها مشكلة الأقليات . فهناك نحو من مليون مجري ونصف مليون روثيني وثلاثة ملايين ونصف المليون من الألمان السوديت ، يعيشون فيها . وكانت هـذه الشعوب تتطلع بتلهف إلى أوطانها الأصلية في المجر وروسيا والمانيا ، على الرغم من الحقيقة الواقعة وهي أن السوديت لم يكونوا في يوم من الأيام يمتون إلى الرايخ الألماني (إلا كجزء من الأمبراطورية الرومانية المقدسة ، المهلهلة التركيب) ، وانما كانوا جزءاً من النمسا. وكانت هذه الاقليات تطمع على الاقل في طراز من الحكم الذاتي يفوق ما هي فيه من استقلال داخلي .

وكان السلوفاكيون أيضاً الذين يؤلفون ربع الشعب التشيكوسلوفاكي الذي يعد عشرة ملايين ، يطمعون في شكل من اشكال الاستقلال الداخلي . وعلى الرغم من الصلة العنصرية واللغوية الوثيقة التي تقوم بينهم وبين التشيكيين فان السلوفاكيين كانوا قد تطوروا تاريخياً وثقافياً واقتصادياً تطوراً مغايراً بفضل تبعيتهم للمجر قروناً طويلة . ونص الاتفاق الذي عقد في مدينة بتسبرغ بين المهاجرين التشيكيين والسلوفاك في اميركا ، في ٣٠ ايار عام ١٩١٨ على ان يكون

للسلوفاكيين حكومتهم وبرلمانهم ومحاكمهم . ولكن حكومة براغ لم تجد نفسها مقيدة بهذا الاتفاق ولذا فلم تلتزم به .

واذا قارنا بين وضع هذه الأقليات ، وبين امثالها في معظم البلاد الأخرى في الغرب وحتى في امريكا ، فان الأقليات التشيكوسلوفاكية لم تكن قط في وضع سيء ، إذ انها لم تكن تتمتع بالحقوق الديموقراطية والمدنية الكاملة فحسب وبينها الحق في الاقتراع ، وانما كانت تتمتع ايضاً بالحرية في ادارة مدارسها ، وقد سمح لها بالحفاظ على منظماتها الثقافية . وكان زعماء احزاب الأقليات السياسية ، يعملون كوزراء في الحكومة المركزية . ومع ذلك فان التشيكيين الذين لم يكونوا قد أفاقوا بعد من تأثيرات قرون من الاضطهاد النمسوي، سمحوا ببقاء الكثير من المشاكل التي تتعلق بالأقليات دون حل . وكانوا يتميزون بالوطانية (الشوفينية) ، والافتقار الى الكياسة . واني لأذكر من زياراتي السابقة للبلاد ، ما أحس به أهل سلوفاكيا من سخط عميق بسبب اعتقال الدكتور فوجتيش توكا ، الأستاذ الجامعي المحترم ، الذي حكم عليه بالسجن خمسة عشر عاماً بتهمة الخيانة العظمى ، على الرغم من انه كان من المشكوك فيه أن الرجل قد ارتكب ذنباً اكبر من المطالبة باستقلال سلوفاكيا . وقد شعرت جماعات الأقليات ايضاً ان الحكومة التشيكوسلوفاكية لم تحترم الوعود التي قطعها مازاريك وبنيش على نفسيهما في مؤتمر باريس عام ١٩١٩ ، عندما تعهدا باقامة نظام للكنتونات شبيه بالنظام السويسري .

ولعل من سخرية القدر ، بالنسبة الى ما سنقوله بعد قليل ، أن الألمان السوديت قد اصابوا نجاحاً في الدولة التشيكوسلوفاكية اكبر من النجاح الذي حققته اية اقلية اخرى في البلاد ، واكبر من النجاح الذي حققته الاقليتان الالمانيتان في بولندة وايطاليا الفاشية . وكانوا يثورون على اعمال الاستبداد الحقيرة التي يقوم بها بعض الموظفين التشيكيين والتمييز العنصري الذي تقوم به حكومة براغ تجاههم احياناً . وقد وجدوا ان من الصعب عليهم ان يكيفوا انفسهم لخسارة سيطرتهم السابقة في بوهيميا ومورافيا في ظل اسرة الهابسبورغ .

ولكنهم كجماعات متماسكة تعيش على طول حدود الأجزاء الشمالية الغربيـــة الجنوبية الغربية من الجمهورية الجديدة ، حيث تتركز معظم صناعة البلاد ، ازدهرت احوالهـــم ، ومع مضي السنين وصلوا بصورة متدرجة إلى حالة من الانسجام النسبي مع التشيكيين مواصلين ضغطهم دائماً في سبيل الحصول عـلى مزيد من الاستقلال ومزيد من الاحترام لحقوقهم اللغوية والثقافيـة . ولم تكن هناك قبل قيام هتلر ، اية حركة سياسية جدية تنشد المزيد . وكان الاشتراكيون الديموقراطيون وغيرهم من افراد الأحزاب الديموقراطية الاخرى ينالون معظم اصوات السوديت .

وعندما غدا هتلر مستشاراً في عام ١٩٣٣ ، اصابت جرثومة الاشتراكية الوطنيه ، السوديت الألمان . وتألف في ذلك العام الحزب الالمـاني السوديتي بزعامة استاذ الرياضة الدمث الاخلاق ، كونراد هينلاين . ولم يحل عام ١٩٣٥ ، حتى كان الحزب يتلقى معونة سرية من وزارة الخارجية الألمانيـة بقيمة خمسة عشر الف مارك في الشهر الواحد[1]. ولم تمض سنتان حتى كان الحزب قد استأسر بغالبية السوديت الألمان ، ولم يبق خارج نطاقه إلا الاشتراكيون الديموقراطيون والشيوعيون . وعندما وقع الاتحاد مع النمسا (الانشلوس) ، كان حزب هينلاين ، الذي ظل يتلقى أوامره مدة ثلاث سنوات من برلين عـــلى استعداد لتنفيذ اوامر ادولف هتلر .

سارع هينلاين إلى برلين بعد اسبوعين من ضم النمسا ليتلقى أوامر الفوهرر ، وفي الثامن والعشرين من آذار اختلى بهتلر مدة ثلاث ساعات وحضر المقابـــلة أيضاً كل من ريبنتروب وهيس . وكانت تعليمات هتلر ، كما تكشفهـــا مذكرة وجدت بين وثائق وزارة الخارجية الألمانية تقضي بأن « يتقدم حزب الألمـان السوديت بطلبات لا تكون مقبولة لدى الحكومة التشيكية » . وقـــد لخص هينلاين وجهات نظر الفوهرر بقوله : « علينا ان نطلب دائماً الكثير بحيث يغدو من الصعب ارضاؤنا »[2] .

---

١ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٨٥٥ .

٢ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية ، (٢) ص ١٩٧ ـ ١٩٨ .

وهكذا لم تكن حالة الأقلية الألمانية في تشيكوسلوفاكيا بالنسبة الى هتلر ، إلا مجرد ذريعة كما كانت دانزيغ بالنسبة إلى بولندة بعد نحو من عام ، يطبخ عن طريقها مؤامراته في ارض تشتهيها نفسه ، ويعمل على تقويضها . مضللاً اصدقاءها وباعثاً في نفوسهم الارتباك ، ومخفياً حقيقة اهدافه . وقد اوضح هذه الاهداف في الخطاب الذي القاه في الخامس من تشرين الثاني على الزعماء العسكريين ، وفي التوجيهات الأولية للحالة الخضراء ، وحددهـــا بالعمل على تحطيم الدولة التشيكوسلوفاكية ، واغتصاب أراضيها وسكانهـا لضمهم الى الرايخ الثالث . ولم يتمكن زعماء فرنسا وبريطانيا العظمى مل ادراك هذا الوضع على الرغم مما وقع في النمسا . فطيلة ايام الربيع والصيف ، وحتى النهاية تقريباً ، بدا أن رئيس الوزراء تشمبرلين ورئيس الوزراء ديلادييه قد اعتقدا جد مخلصين ، كما اعتقد بقية اهل العالم ، ان كل ما ينشده هتلر هو العدالة لأبنـــاء شعبه في تشيكوسلوفاكيا .

ومع اقتراب فصل الصيف أخذت الحكومتان البريطانية والفرنسية تضغطان على الحكومة التشيكية لتمنح السوديت الألمان ، امتيازات واسعة النطـاق . وابرق هيربرت فون ديركسين السفير الألماني الجديد في لندن في الثالث من ايار إلى برلين يقول ان اللورد هاليفاكس قد ابلغه بالخطوة التي ستخطوها الحكومة البريطانية عما قريب في براغ « هادفة إلى اقناع بنيش باظهار اقصى ما يستطيع من التساهل مع الألمان السوديت » [1] . وقام الوزيران البريطاني والفرنسي بعد اربعة ايام أي في السابع من ايار بهذه الخطوة وحثا الحكومة التشيكية ، على المضي الى اقصى الحدود « كما ذكر الوزير الالماني في برقية بعث بها الى برلين » ، لتلبية طلب السوديت . ويبدو ان هتلر وريبنتروب قد طربا اشد الطرب عندما وجدا ان الحكومتين البريطانية والفرنسية مهتمتان بالغ الاهتمام بمساعدتهما .

وكان من الضروري جداً في هذه المرحلة ، اخفاء حقيقة النوايا الألمانيـة . فلقد قام هينلاين في الثاني عشر من ايار بزيارة سرية للويلهلمشتراسة في برلين حيث

١ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٢) ص ٢٥٥ .

تلقى تعليمات من ريبنتروب ، عن الطريقة التي يضلل فيها البريطانيين عندما يصل إلى لندن في ذلك المساء لمقابلة السير روبرت فانسيتارت، كبير المستشارين الدبلوماسيين لوزير الخارجية وغيره من الموظفين البريطانيين . وقد اعد وايزساكر مذكرة حدد له فيها المخطط الذي يسير عليه بقوله : « على هينلاين ان ينفي في لندن انه يعمل بوحي من تعليمات برلين ... وعلى هينلاين ان يتحدث اخيراً عن اطراد الانحلال في الكيان السياسي التشيكي ، ليثبط من عزائم تلك الجهات التي تعتبر أن تدخلها لحمايته ، قد يكون امراً مجدياً »[1] . وأبرق الوزير الألماني المفوض في براغ في اليوم نفسه إلى ريبنتروب عن ضرورة اتخاذ الحيطة والحذر في عدم تسرب أي شيء عما تقوم به مفوضيته من تقديم الأموال والتوجيهات إلى الحزب الألماني السوديتي .

وقد قام هيوويلسون السفير الامريكي في برلين بزيارة وايزساكر في الرابع عشر من ايار ، للبحث معه في مشكلة السوديت، وقيل له أن المانيا قلقة من ان السلطات التشيكية كانت تقوم باستفزاز متعمد للأزمة الأوروبية ، رغبة منها في محاولة الحيلولة دون « تفسخ تشيكوسلوفاكيا » . وبعد يومين أي في السادس عشر من ايار بعث الرائد شموندت ببرقية مستعجلة « وسرية للغاية » إلى مقر القيادة العامة للقوات المسلحة بالنيابة عن هتلر الذي كان يقضي فترة من الراحة والاستجمام في اوبر سالزبرغ ، يسأل فيها القيادة عن عدد الفرق الموجودة على الحدود التشيكية والتي تستطيع ان تكون «جاهزة للزحف في غضون اثنتي عشرة ساعة في حالة إعلان التعبئة العامة» . ورد المقدم زيتسلر من اركان حرب القيادة العامة فوراً بأن الفرق الجاهزة هي اثنتا عشرة. ولم يرض هتلر عن هذا الرقم . وبعث يسأل ... « ارجو ان ترسلوا لي ارقام هذه الفرق » . وسرعان ما تلقى الرد بأسماء عشر فرق للمشاة وفرقة واحدة مدرعة واخرى جبلية[2] .

وانتاب القلق هتلر ، فهو يريد أن يعمل . وبعث في اليوم التالي أي السابع عشر برقية اخرى يسأل فيها القيادة العليا تزويده بالمعلومات الصحيحة والدقيقة

---

١ ـ مذكرة وايز ساكر ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٢) ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

٢ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٣) ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩ .

عن التحصينات التي اقامها التشيكيون ، في جبال السوديت في الطرف القائم في بلادهم من الحدود . وكانت هذه التحصينات تعرف باسم خط ماجينو التشيكي. ورد زيتسلر ببرقية من برلين في نفس اليوم تتضمن معلومات مفصلة وسرية للغاية عن التحصينات التشيكية . وقد اوضح في برقيته أن هذه التحصيات منيعة الى حد كبير [1] .

الازمة الأولى ــ أيار ١٩٣٨

أتخذت الأزمة التي بدأت يوم الجمعة في العشرين من أيار شكلاً جاداً للغاية . وباتت تعرف فيما بعد بأزمة « أيار » . وساد الفزع حكومات لندن وباريس وبراغ وموسكو في غضون الثماني والأربعين ساعة التالية بأن أوروبا اصبحت الآن أقرب إلى الحرب من أي وقت مضى منذ صيف عام ١٩١٤ . ومن المحتمل أن يكون السبب في هذا الفزع هو أن الخطط الجديدة التي وضعتها القيادة العامة للغزو الألماني لتشيكوسلوفاكيا والتي قدمتها لهتلر ،قد تسربت في ذلك اليوم الى الخارج . ولقد ساد الاعتقاد على أي حال براغ ولندن بأن هتلر يوشك ان يشن عدواناً على تشيكوسلوفاكيا . وبدأ التشيكيون التعبئة العامة بعد أن سيطر عليهم هــــذا الاعتقاد ، كما وقفت بريطانيا وفرنسا وروسيا ، موقفاً صلباً تميّز بالوحدة فيما بينها لمواجهة ما أعتبرته هذه الحكومات الثلاث تهديداً المانياً واقعاً لا محــــالة ، وهي وحدة لم تعد هذه الدول الثلاث الى إظهارها ،إلى أن كادت الحرب الكونية تقضي عليها .

وبعث الفريق كايتل يوم الجمعة في العشرين من أيار الى هتلر في اوبرسالزبرغ بمسوّدة جديدة للحالة الخضراء ، كان قد أعدها هو وأركان حربه بعد أن وضع لهم الفوهرر خطوطها العامة في الاجتماع الذي عقده معهم في الواحد والعشرين من نيسان . وأوضح كايتل في رسالة تنطوي على الخنوع بعث بها إلى الزعيم مرفقة بالخطة الجديدة ، ان هذه الخطة تأخذ في حسابها الوضع الذي خلقه دمج النمسا

١ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٣) ٣٠٩ ـ ٣١٠ .

في الرايخ الألماني » ، وأضاف انه لن يبحث في هذه الخطة مع القادة العامين للقوات المسلحة الثلاث الى أن «تكون أنت يا زعيمي قد وافقت عليها ووقعتها».

ويعتبر التوجيه الجديد للعملية الخضراء الصادر عن برلين في العشرين من أيار عام ١٩٣٨ ، وثيقة هامة وملفتة للاهتمام . انها نموذج لطراز التخطيط النازي للعدوان الذي ألفه العالم فيما بعد ... وقد بدأت الوثيقة على النحو التالي :

« لست أرمي إلى تحطيم تشيكوسلوفاكيا عن طريـــق العمل العسكري في المستقبل القريب بدون وجود أي استفزاز إلا إذ وقع تطور لا مناص منه .. داخل تشيكوسلوفاكيا بحيث يرغمنا على العمل ، وإلا إذ خلقت الاحداث السياسية في أوروبا فرصة مواتية بصورة خاصة ، قد لا تتكرر ثانية » [١] .

ودرس التوجيه ثلاثة « احتمالات سياسية للبدء بالعمليات العسكرية » ، وكان الاحتمال الأول وقوع « هجوم مفاجىء دون وجود مبرر خارجي مناسب» وقد رفضه التوجيه. ويمضي التوجيه فيتحدث عن الاحتمالين الباقيين ويقول ...

« ومن الأفضل أن تشن العمليات العسكرية إما ...

« ا – بعد فترة من الخلافات الدبلوماتية المتزايدة والتوتر المرتبط بالعمليات العسكرية التي يمكن استغلالها بحيث تلقي تبعة الحرب على العدو .

« ب – بعمل خاطف نتيجة حادث خطير ، يعرض المانيا الى استفزاز لا تستطيع تحمله ، ويبدو في عيون شطر كبير من الرأي العام العالمي على الأقل مبرراً معنوياً للاجراءات العسكرية .

« ولا ريب في أن الحالة « ب » هي أفضل من الحالة « ا » من النواحي العسكرية والسياسية » .

أما بالنسبة الى العملية العسكرية نفسها ، فقد كان من المفروض ان تحقق نجاحاً في غضون اربعة ايام من الطراز «الذي يظهر الدول المعادية التي قد ترغب

١ - وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٢) ص ٢٩٩ - ٣٠٣ .

في التدخل مدى اليأس من موقف تشيكوسلوكيا العسكري ، والذي يؤمن في الوقت نفسه حافزاً لتلك الدول صاحبة المصالح الاقليمية في تشيكوسلوفاكيا مدى الفائدة التي قد تجنيها من الانضمام الينا فوراً ضدها » . وكان التوجيه يعني « بهذه الدول » كلاً من المجر وبولندة ، اللتين اعتمدت الخطة على تدخلها . واعرب التوجيه عن شكه في أن تفي فرنسا بالتزاماتها للتشيكيين ، وان شدد على وجوب توقع « المحاولات الروسية لتقديم العون العسكري الى تشيكوسلوفاكيا » .

ولقد كانت القيادة العليا الألمانية او كايتل وهتلر على الاقل، على ثقة تامة من أن الفرنسيين لن يحاربوا وان المانيا لن تحتاج إلا الى « أقل عدد ممكن من القوات لتؤمن غطاء للمؤخرة في الغرب » ، وعاد التوجيه فأكد « أن معظم الثقل في قواتنا العسكرية يجب ان يستخدم في غزو تشيكوسلوفاكيا » . واضاف «ان مهمة القسم الأكبر من الجيش مدعوماً بالسلاح الجوي تنحصر في تحطيم الجيش التشيكوسلوفاكي واحتلال بوهيميا ومورافيا في اسرع وقت ممكن » .

اذن فقد قرر التوجيه أن تكون الحرب من النوع الشامل، وللمرة الأولى في التخطيط العسكري الألماني، يؤكد التوجيه اهمية « الحرب الدعائية » و «الحرب الاقتصادية » ، وينص على استخدامها ضمن نطاق المخطط العسكري الشامل للهجوم ... وهذا ما جاء في التوجيه ...

« يجب ان تستخدم الحرب الدعائية من الناحية الأولى لإرهاب التشيكيين عن طريق التهديد ، واضعاف ما لديهم من قدرة على المقاومة . ومن الواجب من الناحية الأخري ان تؤمن الحرب الدعائية هذه للأقليات القومية الدلائل على الطريقة التي تستطيع فيها مساعدة عملياتنا العسكرية ، والتأثير على المحايدين تأثيراً يكون في مصلحتنا .

« وتكون مهمة الحرب الاقتصادية استخدام كافة الموارد الاقتصادية المتوافرة للاسراع في انهيار التشيكيين .... ومن المهم في سير العمليات العسكرية ، ان نساعد في زيادة

المجهود الحربي الاقتصادي الشامل عن طريق جمع المعلومات المتعلقة بالمصانع المهمة ، وحمل هذه المصانع على العودة للعمل في اسرع وقت ممكن . وقد يكون من المهم اهمية حاسمة لنا لهذا السبب توفير المؤسسات الصناعية والهندسية التشيكية بقدر مـــا تسمح بذلك ظروف العمليات الحربية » .

وكان من المقدر ان يظل هذا النموذج للعدوان النــازي على الشكل الذي وضع فيه دون أي تبدل ، وان يستخدم بطريقة ناجحة تبعث على الذهول ، الى ان يتمكن العالم الذي افاق من سباته من الاحساس بها .

وبعث الوزير الألماني المفوض في براغ بعــــد ظهر العشرين من ايار ببرقية عاجلة وسرية للغاية الى برلين يقول فيها ان وزير خارجية تشيكوسلوفاكيا ابلغه هاتفياً قبيل لحظات قلق حكومته « من الانباء المزعجة عن وجود تحشدات المانية في سكسونيا » . وأضاف الوزير المفوض انه رد على محدثه نافياً وجود أي سبب يدعو فعلاً إلى القلق » ، ولكنه يرجو برلين ابلاغه فوراً إذا كان ثمة شيء من هذا القبيل .

وكانت هذه البرقية الأولى في سلسلة من الرسائل الدبلوماتية المتبادلة والمحمومة في نهاية ذلك الاسبوع ، وهي التي قدر لها أن تهز اوروبا كلها وان تبعث الخوف من ان يكون هتلر على وشك الحركة ثانية ، ومن ان حرباً عامة على وشك الوقوع من جراء حركة كهذه. ولا اعرف حتى الآن كيفية القاء ضوء صحيح على الطريقة التي وصلت فيها انباء الحشود الالمانية على حدود تشيكوسلوفاكيا إلى مخابرات كل من بريطانيا وتشيكوسلوفاكيا . وكانت هناك عدة خيوط تذروها الرياح بالنسبة الى اوروبا التي كانت لا تزال متأثرة بالهزة التي اصابتها من جراء احتــــلال الألمان العسكري للنمسا . ونشرت صحيفة تصدر في لايبتزيغ في التاسع عشر من ايار ، انباء عن وجود تحركات عسكرية المانية . وكان هينلاين الزعيم السوديتي قد اعلن قطع المفاوضات التي يجريها حزبه مـــع الحكومة التشيكية في التاسع من ايار ، وعرف أنه في طريق عودته من لندن

في الرابع عشر من ايار قد توقف في برختسغادن لمقابلة هتلر ، وانه ما زال هناك . ووقعت عدة اشتباكات اطلقت فيها النار في بلاد السوديت . وظلت حرب غوبلز الدعائية تتحدث طيلة شهر ايار عن « الفظائع التشيكية » ضد الألمان السوديت . وبدا أن التوتر يسير نحو الذروة .

وعلى الرغم من وجود بعض التحركات التي قامت بها القوات الألمانية نتيجة مناورات الربيع ولا سيما في المناطق الشرقية ، لم يعثر على أي دليل بين الوثائق الألمانية المصادرة يشير إلى وجود أي حشد جديد للقوات المسلحة على الحدود التشيكية في هذه اللحظة . وتتضمن ورقتان رسميتان ، من اوراق وزارة الخارجية الألمانية على النقيض من ذلك تأكيدات مكتومة من العقيد يودل من رجال القيادة العامة إلى الولهمشتراسة ، بعدم وجود أية تحشدات لا في سيليزيا ولا في الأجزاء الدنيا من النمسا . وعاد يودل فأكد في رسائل لم تكن الغاية منها أن تنشر على الاوساط الاجنبية، عدم وجود شيء من هذا النوع باستثناء « بعض المناورات السلمية العادية [1] » . ولم تكن هذه التأكيدات تعني أن الحدود التشيكية قد اخليت من الجنود الألمان ، فلقد سبق لنا أن رأينا في السادس عشر من ايار أن هتلر قد تلقى معلومات من القيادة العليا رداً على برقيته العاجلة في طلبها تفيد أن اثنتي عشرة فرقة المانية على الحدود التشيكية « على استعداد للزحف في غضون اثنتي عشرة ساعة » .

فهل كان من الممكن أن تستطيع المخابرات التشيكية أو البريطانية التقاط البرقيات التي تضمنت مثل هذه المعلومات المتبادلة ؟ وهل من الممكن أن تعلم هذه المخابرات بالتوجيه الجديد حول الحالة الخضراء ، وهو التوجيه الذي بعث به كايتل إلى هتلر في العشرين من ايار لنوال موافقتـه عليه ؟ ولقد ابلغ الفريق كريجسي ، رئيس هيئة اركان حرب الجيش التشيكي ، العقيد توسنيت الملحق العسكري الألماني في براغ ، ان لديه براهين لا يمكن دحضها على وجود حشد يتراوح بين الثماني والعشر فرق ألمانية في سكسونيا [2]. ولم تكن هذه الارقام

١ - وثائق وزارة الخارجية الألمانية ص ٣٠٧ - ٣٠٨ .
٢ - وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٢) ص ٣٠٩ - ٣١٠ .

عن عدد الفرق بعيدة كثيراً عن الحقيقة ، حتى ولو كانت المعلومات عن الطريقة التي اتبعت في توزيعها ، تفتقر إلى الدقـــة . على أي حال ، قرر مجلس الوزراء التشيكي ، الذي عقد جلسة طارئة بعد ظهر العشرين من ايار في قصر هرادشين في براغ ، وبرئاسة الدكتور بنيش رئيس الجمهورية ، أن يتم في الحال اجراء تعبئة جزئية . واستدعيت إلى الخدمة فوراً ، احدى طبقات الجنود كما جرت تعبئة بعض القوات الاحتياطية . وهكذا تبين أن الحكومة التشيكية على النقيض من موقف الحكومة النمسوية ، قبـل شهرين ، كانت عازمة على القتال دفاعاً عن نفسها .

وعلى الرغم من أن التعبئة التشيكوسلوفاكية كانت جزئية ، إلا أنها اثارت سخط هتلر وهياجه ، ولم تهدىء البرقيات التي تلقاها في اوبرسالزبرغ من وزارة الخارجية في برلين من ثائرته على الرغم من انهـا تتحدث اليه عن الزيارات المتكررة التي يقوم بها سفير بريطانيا وفرنسا محذرتين المانيا من أن العدوان على تشيكوسلوفاكيا يعني نشوب حرب اوروبية .

ولم يتعرض الألمان قط لمثل هذا الضغط الدبلوماتي الثقيل والمتكرر ، الذي لجأ اليه البريطانيون في نهاية الأسبوع . وكان السير لغيل هندرسون ، السفير البريطاني الذي اوفده رئيس الوزراء تشمبرلين إلى برلين ليمارس مواهبه كدبلوماتي محترف في تهدئة هتلر وترضيته ، والذي مارسها إلى حدها الأقصى ، يواصل زيارة وزارة الخارجية الألمانية مستعلماً عن الحركات الألمانية العسكرية وناصحاً بالحذر . وليس ثمة من شك في أنه كان يدفع إلى ذلك دفعاً من اللورد هاليفاكس ومن وزارة الخارجية البريطانية ، لأن هندرسون الدبلوماتي الدمث والمهذب ، كان كما ادرك كل انسان عرفه وعاش في برلين هذه الأيام ، لا يعطف على التشيكيين عطفاً كبيراً . ولقد قام بزيارة ريبنتروب مرتين في الواحد والعشرين من ايار واليوم الذي تلاه ، مع انه كان من أيام الآحاد ، كما زار وزير الدولة فون وايزساكر ، بعـد ان استدعي ريبنتروب على جناح السرعة إلى اوبرسالزبرغ لمواجهة هتلر ، وقدم الى وايزساكر هذا رسالة شخصية من هاليفاكس

يؤكد له فيها خطورة الوضع . وقام وزير الخارجية البريطانية في لندن ايضاً باستدعاء السفير الألماني على الرغم من عطلة نهاية الأسبوع ، وأكـــد خطورة اللحظة .

ولم يفشل الألمان طيلة جميع هذه الاتصالات ، في أن يلاحظوا كما ذكر السفير فون ديركسين في برقية بعث بها بعد مقابلته لهاليفاكس ، بأن الحكومة البريطانية لم تؤكد على الرغم من ثقتها ، من أن فرنسا ستمضي إلى نصرة تشيكوسلوفاكيا ، عزمها على أن تحذو حذو فرنسا . وكان التحذير هو اقصى ما سيفعله البريطانيون ، كما أشار السفير فون ديركسين في برقيته ، استناداً إلى أقوال هاليفاكس نفسه ، إذ « يستحيـــل في حالة نشوب صراع اوروبي أن يتكهن المرء بعدم اضطرار بريطانيا إلى خوضها [١] » . وكان هذا بالفعل هو اقصى ما تستطيع حكومة تشمبرلين أن تمضي اليه ، حتى الوقت الذي بات معه وقف هتلر عن العدوان أمراً مستحيلاً ، وكان الانطباع السائد عند مؤلف هذا الكتاب منذ تلك اللحظة حتى النهاية ، هو أن تشمبرلين لو أبلغ هتلر بصراحة بأن بلاده ستفعل، ما فعلته حقاً في النهاية لمواجهة العدوان النازي ، فإن الفوهرر ما كان ليقدم على تلك المغامرات التي أدت إلى الحرب الكونية الثانية ، ولا ريب في أن الوثائق الألمانية السرية التي اكتشفت فيما بعد قد ايدت صحة هذا الانطباع . ولكن هـــذه هي الخطيئة القاضية التي ارتكبها رئيس الوزراء الحسن النية .

* * *

وقبع ادولف هتلر في ملاذه الجبلي فوق برختسغادن ، حيث اخذت تهاجمه نوبات عصبية من جراء الاحساس العميق بالذلة الذي شعر به من عمل التشيكيين ومن التأييد الذي يلقونه في لندن وباريس وحتى في موسكو . وكان هذا الشعور السبب في نقل الديكتاتور الألماني إلى حالة مزاجية سوداء وبشعة . وقد اشتد هذا السخط اكثر فأكثر نظراً لما لقيه من اتهامات قبل أوانها من انه على وشك

١ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٢) ص ٣٢٢ - ٣٢٣ .

القيام بعدوان كان ينتوي فعلاً القيام به . وكان في عطلة نهاية الاسبوع تلك ، قد شرع في دراسة الخطة الجديدة التي قدمها اليه كايتل عن الحـالة الخضراء ، لكنه لم ير احتمالاً في امكان تنفيذها فوراً . وابتلع هتلر كبرياءه ، متغاضياً عنها، فأصدر أمره إلى وزارة خارجيته في برلين لإبلاغ المبعوث التشيكي يوم الاثنين في الثالث والعشرين من ايار بأن ليس لألمانيا اية نوايا عدوانية تجاه تشيكوسلوفاكيا، وان انباء تحشدات القوات الألمانية على الحدود، مختلقة ولا أساس لها من الصحة. وهدأت المشاعر في براغ ولندن وباريس وموسكو ، وتنفس زعماء الحكومات فيها الصعداء . فلقد انقضت الأزمة وأمكن التغلب عليها . وتلقى هتلر درساً ، ولا ريب في انه قد ادرك الآن ان ليس في وسعه أن ينجح في تشيكوسلوفاكيا بنفس السهولة التي نجح فيها في موضوع النمسا .

ولكن هؤلاء الساسة كانوا يجهلون طبيعة الديكتاتور النازي .

وبعد أن قضى عدة أيام اخرى مسترخياً في اوبرسالزبرغ ، كان فيهـــا فريسة غضب ساعر يتلظى في فؤاده بازدياد لتصفية حساباته مع تشيكوسلوفاكيا ومع الرئيس بنيش بصورة خاصة إذ اعتقد بأن هذا الرجل قد تمكن من اذلاله عامداً متعمداً ، ظهر فجأة في برلين في الثامن والعشرين من ايار ، ودعـــا كبار قادة الجيش الألماني « الفيرماخت » إلى اجتماع عاجل في دار المستشارية للاستماع إلى قرار خطير . وقد اذاع هتلر نفسه سر هذا الاجتماع في خطاب القاه في الرايشستاغ بعد ثمانية اشهر إذ قال :

« لقد قررت أن اسوي مرة واحدة وإلى الأبد تسوية جذرية مشكلة السوديت . « واصدرت أمري في الثامن والعشرين من ايار :

« ١ - باتخاذ كافة الاستعدادات اللازمة للقيام بعمل عسكري ضد هذه الدولة في الثاني من تشرين الأول .

« ٢- وببناء تحصيناتنا الدفاعية في الغرب ومدها في اسرع وقت ممكن .

« ٣ - وبتعبئة ٩٦ فرقـــة فوراً ، على أن تكون هذه هي الطليعة ...[١]

وقال يحدث الذين شهدوا هذا الاجتماع وهم غورنغ وكايتـل وبراوخيتش وبيك والاميرال ريدر وريبنتروب ونوراث بصوت كهزيم الرعد ، « لقد قررت قراراً لا رجوع عنه ، وجوب زوال تشيكوسلوفاكيا من خارطة الوجود[٢] . وهكذا ظهرت الحالة الخضراء من جديد وأُعيد النظر فيها . .

وتتابع يوميات يودل ما كان يدور في عقل هتلر المحموم والمتطلع إلى الثـأر والانتقام إذ تقول :

« تبدل عزم الفوهرر على عدم تحريك المشكلة التشيكية وذلك بسبب تحشدات القوات الاستراتيجية التشيكية التي تمت في الواحد والعشرين من ايار ، دون أي سابق تهديد الماني أو مبرر . وقـــد أدى موقف المانيا من كبح جماحها ، إلى اصابة سمعة الفوهرر بنكسة لا يود أن يتعرض لها ثانية . ولهذا السبب فقد صدر التوجيه الجديد عن العمليه الخضراء في الثلاثين من ايار [٣] » .

ولا تختلف تفاصيل التوجيه الجديد الذي وقعـــه هتلر في الثلاثين من ايار اختلافاً جوهرياً ، عن تلك الموجودة في الصيغة التي قدمت إلى هتلر قبل تسعة ايام . ولكن هناك تبدلين مهمين على الأقل . فبدلاً من العبارة الاستهلالية في توجيـــه الواحد والعشرين من ايار التي تقول ... « ليس في نيتي أن احطم تشيكوسلوفاكيا في القريب العاجل » ، وضعت في التوجيه الجديد العبـــارة الاستهلالية التالية : لقد قررت قراراً لا رجوع عنه تحطيم تشيكوسلوفاكيا عن طريق العمل العسكري في المستقبل القريب » .

---

١ - كتاب « نظامي الجديد » اعداد روسي دي سال ص ٥٦٣ .

٢ - شهادة فرتيز ويدرمان - احد المقربين من هتلر - المؤامرة النازيه والعدوان (٥) ص ٧٤٣ - ٧٤٤ .

٣ - يوميات يودل - محاكات كبار مجرمي الحرب (٢٨) ص ٣٧٢ .

وقد شرح كايتل ما يعنيه بعبارة « المستقبل القريب » في رسالة مرفقة ضمنها أمره الذي قال فيه : « أن تنفيذ العملية الخضراء يجب أن يتم في الأول من تشرين الأول عام ١٩٣٨ على اكثر تقدير [١] » .

وكان هذا التاريخ هو الذي تمسك به هتلر بتصميم واصرار رغم كل الظروف والأحوال ، ورغم الازمان المتعاقبة والوصول إلى شفير الحرب .

تردد القادة العسكريين

سجل يودل في يومياته أن هتلر قد وقع التوجيه الجديد في الثلاثين من ايار وأن هذا التوجيه المتعلق بالعملية الخضراء ، كان يتطلب « التوغل فوراً في تشيكوسلوفاكيا في اليوم المقرر وأن النوايا السابقة للجيش يجب ان تتبدل تبدلاً اساسياً ومهماً » . ثم اضاف يودل العبارة التالية :

« ويبدو الخلاف حاداً من جديد بين حدس الفوهرر بأن علينا أن نقوم بهذا العمل في هذا العام وبين رأي الجيش في أننا لا نستطيع القيام به حتى الآن وذلك بسبب ثقته من أن الدول الغربية ستتدخل ، ومن أننا لم نصبح بعد متكافئين معها في القوة » [٢] .

وهكذا نرى ان هذا الضابط الركن من ضباط « الفيرماخت » والمتميز بقدرته على تمييز الأمور والاحساس بها ، وقد وضع اصبعه على الخلاف الجديد بين هتلر وبين عدد من كبار الفرقاء في الجيش . وكان الفريق لودفيغ فون بيك رئيس هيئة اركان حرب الجيش هو الذي يتولى زعامة المعارضة لخطط هتلر الضخمة والمتطلعة للعدوان ، وقد قدر لهذا القائد أن يمثل منذ تلك اللحظة قيادة حركات المقاومة للفوهرر في الرايخ الثالث . وقدر لهذا القائد الشديد الاحساس والمتقد

---

١ ـ الفقرة الثانية من العملية الخضراء - المؤامرة النازية والعدوان (٣) ص ٣١٥ - ٣٢٠

٢ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٤) ص ٣٦٠ ـ ٣٧٠ .

الذكاء ، والكثير النزاهة على الرغم من افتقاره للتصميم ان يركز نضاله ضد الديكتاتور النازي على اسس عامة. وهكذا نرى بيك في ربيع عام ١٩٣٨ وبعد اكثر من اربعة اعوام من الاشتراكية الوطنية يعارض الفوهرر على اسس احترافية ضيقة في أن المانيا لم تغد بعد على درجة من القوة تمكنها مـــن مواجهة الدول الغربية وروسيا ايضاً .

وقد سبق لنا أن رأينا كيف أن بيك قد هلل لمجيء هتلر إلى الحـكم، وكان قد اطراه بصورة علنية لقيامه بانشاء الجيش الألماني المجنّد تحدياً لمعاهدة فرساي. وجدير بنا ان نذكر ، أن بيك كان في عام ١٩٣٠، كما روينا من قبل، قد اندفع وهو القائد المغمور لإحدى الكتائب يدافع عن ثلاثة من ضباطه وجهت اليهم تهمة الخيانة، وانهم يدعون الى النازية في صفوف الجيش، ثم مضى يشهد تأييداً لهم امام المحكمة العليا، بعد ظهور هتلر على منصة الشهادة وتحذيره من ان رؤوساً كثيرة «ستتطاير وتتدحرج» عندما يصل الى الحكم. ولم يكن عدوان هتلر على النمسا هو الذي اوضح معالم الطريق امام هذا القائد ، وذلك لأنه قد ايد هذا العدوان، بل كان تدحرج رأس الفريق فون فريتشه (تدحرج مجازي ليس إلا) بعـــد المؤامرة التي لفقتها الغستابو عليه ، هو الذي اثار له فكره . وانطلق هـذا الفكر من الشباك التي لفته ليدرك أن سياسة هتلر في المجازفة عن عمد بخوض الحرب ضد بريطانيـــا وفرنسا وروسيا على الرغم من نصيحة كبار قادته العسكريين ستؤدي إن نفذت إلى دمار المانيا .

وكان بيك قد سمع بالاجتماع الذي عقده هتلر مع كايتل في الواحد والعشرين من نيسان ، والذي صدرت إبانه التعليمات إلى « الفيرماخت » للاسراع في وضع الخطط لمهاجمة تشيكوسلوفاكيا ، فبعث في الخامس من ايار بأول مذكرة من سلسلة متعاقبة من المذكرات إلى الفريق فون براوخيتش القائد العام الجديـــد للجيش ، يعارض فيها بشدة في القيام بمثل هذا العمل [١] . وتعتبر هذه الرسالة متناهية في الذكاء والاشراق، وحاشدة بالحقائق المرة والمنطق السليم والجـدل

١ - ولفغانغ فورستر - ص٨١ - ١١٩ .

المقنع . وعلى الرغم من انبيك قد غالى في الحديث عن قوة العزيمة عند بريطانيا وفرنسا ، وعن الدهاء السياسي عند قادتها وعن قوة الجيش الفرنسي ، واقـام في النهاية الدليل على الخطأ من تقدير ما ينجم عن المشكلة التشيكية ، إلا ان السلسلة الطويلة من تكهناته ، اثبتت فيما بعد ، فيما يتعلق بألمانيا على انها دقيقة كل الدقة .

وقد أوضح بيك في مذكرته المؤرخة بالخامس من أيار ، انه مقتنع كل القناعة من أن الهجـوم الألماني على تشيكوسلوفاكيا سيستثير حرباً أوروبيـــة ، تقف فيها بريطانيا وروسيا وفرنسا موقف المعارضة لألمانيا ، وتلعب فيهـــا الولايات المتحدة دور مستودع السلاح للديموقراطيات الغربيـــة . وأضاف أن المانيا عاجزة عن أن تكسب حرباً كهذه . فمجرد افتقارها الى المواد الأوليـة وحدها ، يجعل النصر أمراً مستحيلاً عليها . وراح يؤكد أن وضع المانيـا من وجهة نظر الاقتصاد الحربي ، اسوأ بكثير مما كان عليه في عام ١٩١٧ - ١٩١٨ ، عندما بدأ انهيار جيوش القيصر .

وكان بيك بين القادة العسكريين الذين استدعاهم هتلر في الثامن والعشرين من ايار إلى مستشارية الرايخ بعد « ازمة ايار » ليستمعوا إلى زوبعته الكلامية وهو يعلن لهم عزمه على محو تشيكوسلوفاكيا من خارطة الوجود في الخريف القادم . وقد دون ملاحظاته الدقيقة على خطاب الفوهرر ، وأعد بعـــد يومين ، أي في نفس اليوم الذي كان فيه هتلر يوجه توجيهه الجديد للعملية الخضراء ، الذي حدد موعد الهجـــوم بالأول من تشرين الأول ، مذكرة أقسى وأشد من مذكرته السابقة ، بعث بها إلى براوخيتش ، ينتقد فيها برنامج هتلر نقطة إثر أُخرى . واراد بيك أن يضمن تفهم قائده العام المعروف بجذره ، للمذكرة تمام التفهم ، فراح يتلوها على مسامعه بصورة شخصية . وعاد يؤكد في النهاية لبراوخيتش الضحل في تفكيره ، والشقي في وضعه ، ان ثمة أزمة في « قمة القيادةالعسكرية» أدت إلى الفوضى ، وانه ما لم يكن في الامكان التغلب عليها فان مصير الجيش بل ومصير المانيا كلها ، يغدوان معرضين للخطر . وبعـد بضعة أيام ، أي

في الثالث من حزيران ، بعث بيك بمذكرة أخرى إلى براوخيتش أعلن له فيها ان التوجيه الجديد المتعلق بالعملية الخضراء ، غير سليم من الناحية العسكرية ، وان هيئة الأركان العامة للجيش ترفضها تمام الرفض .

لكن هتلر أصر على خطته . وحسر ملف « العملية الخضراء » الذي وقع في أيدي الحلفاء بعد الحرب النقاب عن الهوس الذي بلغ حد الجنون والذي نما في نفس هتلر مع تقدم فصل الصيف . وأصدر أمره بتقديم موعد مناورات الخريف المعتادة حتى يكون الجيش على أهبة للهجوم . وأوصى باجراء تمارين خاصة على « اقتحام الحصون عن طريق الهجوم المباغت » . وتلقى الفريق كايتل التعليمات اللازمة بأن «الفوهرر يؤكد باستمرار ضرورة الإسراع في أعمال التحصين في الغرب » . وطلب هتلر في التاسع من حزيران معلومات أخرى عن تسلح تشيكوسلوفاكيا ، وسرعان ما تلقى تقريراً مفصلاً عن جميع الاسلحة التي يستعملها التشيكيون ، خفيفة كانت أو ثقيلة . وراح يسأل في نفس اليوم ... هل ما زالت التحصينات التشيكية ، تفتقر إلى القوات الدفاعية الكبيرة ؟ » . وكانت معنوياته وهو في ملاذه الجبلي حيث قضى الصيف محاطاً بالمداهنين والمدلسين ، ترتفع وتهبط ، مع ما يرافق احلامه عن الحرب من ارتفاع وهبوط . واصدر في الثامن عشر من حزيران توجيهاً عاماً جديداً عن « العملية الخضراء» .

« ليس ثمة من خطر في نشوب حرب وقائية ضد المانيا ...
ولن أقرر القيام بعمل ضد تشيكوسلوفاكيا إلا إذا غدوت مقتنعاً
كل الإقتناع... من أن فرنسا لن تزحف وان انكلترا لن تتدخل» .

ومع ذلك فقد راح هتلر في السابع من تموز يحلل « الاعتبارات » عما يجب أن يفعله في حالة تدخل فرنسا وبريطانيا . ويقول أن « الإعتبار الاساسي » هو « الصمود في التحصينات الغربية » الى أن يتم تحطيم تشيكوسلوفاكيا ويصبح في الامكان نقل القوات بسرعة إلى الجبهة الغربية . أما الحقيقة الواقعة وهي أن ليست لديه قوات متوافرة للحفاظ على التحصينات الغربية ، فلا تقحم نفسها على تفكيره المحموم . وهو يرى « أن روسيا قد تتدخل في الغالب » كما انه ما زال

في شك من أن بولندة قد تتدخل كذلك . وهو يقول أن من الضروري مواجهة هذه الاحتمالات ولكنه لا يشرح كيفية مواجهتها .

ويبدو أن هتلر وقد اعتزل بعض العزلة فى أوبرسالزبرغ لم يكن قد استمع بعد إلى دمدمات الاعتراض تصدر عن كبار دهاقنة هيئة أركان الحرب . فعلى الرغم من انهمار سيل المذكرات التي كتبها بيك على قائده براوخيتش ، إلا أن رئيس هيئة أركان الحرب ، بدأ يدرك فيأواسط الصيف أن قائده العام المتردد وغير المستقر كان لا ينقل آراءه إلى مسامع الفوهرر . ولهذا فلم يحل منتصف شهر تموز حتى كان بيك قد صمم على القيام بآخر محاولة يائسة لإثارة ما يريد قوله بطريق أو بآخر . وراح يقدم في السادس عشر من تموز آخر مذكرة منه إلى براوخيتش ، طالباً فيها أن يقوم الجيش بابلاغ هتلر وجوب وقف إعداداته للحرب . وقال :

« وادراكاً مني كل الادراك لضخامة مثل هذه الخطوة معتفهمي الكامل لمسؤولياتي ، اجد من واجبي ان اطلب بمنتهى الجد ، من القائد الأعلى للقوات المسلحة (هتلر) وقف ما يقوم به من اعداد للحرب ، والتخلي عن نواياه في حل المشكلة التشيكية بطريق العنف ، الى ان يتبدل الموقف العسكري تبدلاً اساسياً . وإنني لأعتبر أن من غير المجدي في الوقت الحاضر ، القيام بعمل كهذا ، ويشاركني في رأيي هذا جميع كبار ضباط هيئة أركان الحرب » .

وحمل بيك مذكرته شخصياً الى براوخيتش ، داعماً إياها بحديثه الشفوي ، وباقتراحاته التي قدمها لاتخاذ عمل موحد من جانب قادة الجيش في حالة وقوف هتلر موقف الإصرار على رأيه . واقترح بصورة محددة ان يقوم كبار القادة العسكريين في مثل هذه الحالة بالاستقالة من مناصبهم فوراً . وأثار للمرة الأولى في حياة الرايخ الثالث ، قضية قدر لها فيما بعد ان تسيطر على محاكمات نورمبرغ وهي هل يدين الضابط بولاء اسمى من الولاء الذي يدين به للفوهرر؟ وقد حاول عشرات القادة العسكريين في نورمبرغ تبرير جرائمهم الحربية بالرد على هذا

السؤال رداً سلبياً ، والقول بأن واجبهم كان يحتم عليهم اطاعة الأوامر . أمـــا بيك فقد رأى في السادس عشر من تموز رأياً آخر ، وقدر له أن يدافع عنه دون نجاح ، في غالب الأحايين حتى النهاية . فلقد ذكر أن ثمة حدوداً لولاء الجندي لقائده الأعلى ، ولا سيما في الحالات التي يحول فيها الضمير والفهم والمسؤولية دون تنفيذ الأوامر. وقال انه يحس بأن القادة العسكريين قد وصلوا الى تلك الحدود. فاذا اصر هتلر على الحرب فإن واجبهم ان يستقيلوا دفعة واحدة . واضاف ان الحرب تغدو مستحيلة فيَ مثل هذه الحالة نظراً لافتقـــار الجيش إلى من يتولى قيادته .

وكان رئيس هيئة اركان حرب الجيش الألماني قد بلغ الآن مرحلة من الإثارة لم يسبق له أن بلغها في الماضي طيلة حياته . فالمقاييس تنهار أمام ناظريه. ورأى أخيراً ان ما تتعرض له الأمة الألمانية من خطر ، يفوق مجرد احباط ما يفكر به انسان مهووس يتولى رئاسة الدولة ، ويعتزم مدفوعاً بغلّه وانفعالاته الى مهاجمة دولة صغيرة مجاورة معرضاً العالم كله الى خطر الوقوع في حرب عظمى . وتألقت في عقل هذا القائد الذي كان في يوم ما مغالياً في حماسه للنازية الحقيقة المرة ، وهي ان حماقات الرايخ الثالث وطغيانه وإرهابه والفساد المستشري فيه كلها ناجمة عن شيء واحد ، وهي ازدراؤه للقيم المسيحية . ومضى هذا القائـد بعد مضي ثلاثة ايام اخرى ، أي في التاسع عشر من تموز ، الى براوخيتش ليتحدث اليه من جديد ، عن هذه الرؤيا التي تسلطت عليه .

واصر هذه المرة ، لا على مجرد اضراب القادة العسكريين ليحولوا بين هتلر وبين شن الحرب بل وعـــلى وجوب الاسهام في تطهير الرايخ الثالث . فمن الواجب تحرير الشعب الألماني والفوهرر نفسه من إرهاب الحرس النازي ، وقادة الحزب . ومن الواجب كذلك إعادة الدولة والمجتمع اللذين يتحكم فيهما القانون . ولخص بيك برنامجه الاصلاحي من النقاط التالية :

« تأييد الفوهرر ومعارضة الحرب ومقاومة تحكم زعماء الحزب ، والتفاهم مع الكنيسة ، وضمان حرية التعبير عن الرأي ، وإنهـــاء

إرهاب الأجهزة السرية ، وإعادة قواعد العدل ، وتخفيض التبرعات للحزب بمعدل النصف ، والتوقف عن بناء القصور الجديدة ، وبناء المنازل لعامة الشعب والمزيد من الاستقامة والبساطة البروسيتين ».

وكان بيك على درجة من السذاجة السياسية بحيث فشل في أن يدرك ان هتلر نفسه ، هو المسؤول قبل غيره عن جميع الأوضاع التي تسود المانيا اليوم والتي يثور هو عليها . لكن مهمة بيك الفورية انطوت على مواصلة الالحاف على براوخيتش المتردد لتقديم انذار نهائي باسم الجيش الى هتلر ، طالباً اليه وقف ما يقوم به من اعداد للحرب . ورتب رغبة منه في إنجاح هدفه ، عقد اجتماع سري لكبار فرقاء الجيش وقادته في الرابع من شهر آب ، وأعد خطاباً حماسياً رأى ان يلقيه قائد الجيش ، حاشداً وراءه جميع الفرقاء في اصرار واحد ومشترك على ان لا تكون هناك مغامرات نازية تؤدي الى الصراع المسلح . ولكن من سوء حظ بيك ان براوخيتش كان يفتقر إلى الشجاعة لإلقاء هذا الخطاب . واقتنع بيك بأن يتلو مذكرته التي قدمها في السادس عشر من تموز والتي تركت انطباعاً عميقاً في نفوس معظم الفرقاء. ولم يتخذ أي إجراء حاسم، وانفض اجتماع كبار قادة الجيش الألماني ، دون ان يجدوا الجرأة الكافية لاستدعاء هتلر للحساب ، كما فعل اسلافهم من قبل مع اباطرة الهوهنزولرن ومستشاري الرايخ .

وتدرع براوخيتش بالشجاعة الكافية ليعرض مذكرة بيك المؤرخة في السادس عشر من تموز على انظار هتلر. وتمثل رد فعل هتلر ، لا في دعوة الفرقاء المعارضين الذين يدعمون هذه المذكرة إلى الإجتماع به ، وانما في دعوة الضباط الشبان الذين يلونهم في الرتبة من كبار رجال اركان الحرب في مختلف قيادات الجيش والطيران الذين يؤلفون الفئة التي يؤمن بامكان الإعتماد عليها بعد اقناع أفرادها بخطاب يضمنه حججه المقنعة . وهكذا استدعى هتلر هؤلاء الضباط إلى « عش النسر » في العاشر من آب إذ لم يكن قد غادر دارته الجبلية طيلة الصيف ، وراح بعد انتهاء العشاء يلقي عليهم خطاباً ، ذكر يودل الذي كان واحداً منهم في يوميته

الصادقة انه استغرق نحواً من ثلاث ساعات . ولكن بلاغة الفوهرر خانته هذه المرة ، فلم يكن مقنعاً في خطابه كما كان ينتظر ويتوقع . فلقد تحدث كل من يودل ومانشتاين اللذين شهدا الإجتماع أيضاً فيما بعد ، عن « تصادم خطير ومؤلم» وقع بين الفريق فون ويترشايم وبين هتلر . وكان ويتر شايم هذا أعلى الحاضرين رتبة ، وبوصفه رئيس أركان حرب جيش الغرب الذي يقـــوده الفريق ويلهلم آدم ، تجرأ على الحديث عن المشكلة الأساسية التي كان هتلر والقيادة العليـــا للقوات المسلحة يتجنبان الخوض فيها ، وذكر انه في حالة انشغال كافة القوات العسكرية في توجيه الضربة إلى تشيكوسلوفاكيا ، فان المانيا تصبح عاجزة عن الدفاع في الغرب ، ويغدو في مكنة الفرنسيين اجتياحها . وراح يؤكـــد أن « الجدار الغربي » لا يستطيع الصمود في الحقيقة اكثر من ثلاثة اسابيع ، ويروي يودل في يومياته قائلاً :

« واشتد غضب الفوهرر ، واتقدت عيناه بلهب ساعر من الثورة وراح يتفجر قائلاً أن الجيش كله في هذه الحالة ، لن يكون صالحاً لأي شيء . وارتفع صوت هتلر قائلاً ... « انني أود أن أقول لك يا حضرة الفريق ، أن مواقعنا لن تصمد لثلاثة اسابيع فقط ، بل لثلاث سنوات ! [1]» .

ولكنه لم يشرح كيف تتمكن هذه المواقع من الصمود . وكان الفريق آدم قد نقل إلى اجتماع كبار القادة الذي عقـد في الرابع من آب ، أن خمس فرق فقط ستكون تحت أمرته . وان في مكنة الفرنسيين التغلب عليها حتماً . ومن المفروض أن يكون ويترشايم قد قدم نفس الرقم إلى هتلر ، ولكن الفوهرر لم يكن على استعداد للاستماع . أما يودل فعلى الرغم من براعته كضابط ركن إلا انه كان واقعاً في هذه الآونة تحت سيطرة سحر الزعيم ، ولذا فقد غادر الاجتماع وقد سيطر عليه الأسى العميق ، لأن القادة لم يحاولوا فهم عبقرية هتلر ، وراح يكتب في يومياته :

---

١ - يوميات يودل - محاكات كبار مجرمي الحرب (٢٨) ص ٣٧٤ .

« والسبب في هـذا الرأي اليائس – رأي ويترشايم – الذي يحمله أكثر ضباط الأركان يرتكز إلى أسس عدة .

« فهيئة الاركان العامة من الناحية الأولى ترى نفسها مقيـــدة بذكرياتهـــا القديمة وتشعر بنفسها مسؤولة عن القرارات السياسية بدلاً من أن تحصر نفسها في حدود الطاعـــة وتنفيذ الواجبات العسكرية . وهي تتظاهر بالطاعة بما عرف عنها من ولاء تقليدي ، ولكنها تفتقر إلى حماس الروح ، لأنها في النهاية لا تقر بعبقريـــة الفوهرر ، مع أن في وسع الإنسان أن يقرن بينه وبين شارل الثاني عشر .

« وينجم عن هذه الروح الإنهزامية شيء واحد أكيد وثابت ، لا يقـل في تأكيده عن الثقة بانسياب المياه من الاماكن العالية إلى الأماكن المنخفضة ، وهو حدوث ضرر سياسي بالـــغ . فالجميع يتحدثون الآن عن تقارب الآراء بين القادة العسكريين وبين الفوهرر مما يترك أثراً خطراً على معنويات الجنود . ولكنني واثق كل الثقة من أن الفوهرر سيكون قادراً على التحليق بمعنويات الشعب عندما تحل اللحظة الحاسمة [١] » .

وكان في وسع يودل ان يقول ايضاً أن هتلر كان قادراً على إخماد روح الثورة عند الفرقاء : ولقد ذكر مانشتاين أمام محكمة نورمبرغ في عام ١٩٤٦ ، ان هذا الإجتماع كان الأخير من نوعه ، إذ لم يسمح هتلر بعده بأي سؤال او نقـاش من ناحية العسكريين[٢] . ففي العرض العسكري الذي جرى في الخامس عشر من آب ، راح هتلر يؤكد من جديد للفرقاء بأنه مصمم كل التصميم على « حل المشكلة التشيكية بالقوة » ولم يجرؤ ضابط واحد ، على التفوّه بعبارة واحدة تحمل معنى المعارضة .

ورأى بيك انه قد هزم ، وان هزيمته نتجت عن جبن إخوانـــه الضباط ،

---

١ - محاكمات كبار مجرمي الحرب (٢٨) ص ٣٧٤ .

٢ - محاكمات كبار مجرمي الحرب (٢٠) ص ٦٠٦ .

فقدم في الثامن عشر من آب استقالته من منصبه كرئيس لهيئة أركان حرب الجيش ، وحاول ان يقنع براوخيتش باحتذاء حذوه ، ولكن قائد الجيش ، وكان قد وقع الآن اسيراً لسلطان هتلر المغناطيسي ، ومتأثراً ولا شك بحماس المرأة التي يوشك على الزواج منها للنازية[١] ، رفض ان يتضامن مع مرؤوسه . وقال هاسيل مشيراً اليه : « لقد رفع براوخيتش ياقة بزته العسكرية الى الاعلى وقال .. إنني جندي ، وان من واجبي أن أطيع »[٢].

وكان من المألوف ان تؤدي استقالة رئيس هيئة اركان الحرب في خضم اية ازمة من الأزمات ولا سيما اذا كان من الطراز المحترم كل الإحترام كالفريق بيك، الى قيام عاصفة في الدوائر العسكرية ، وان تترك نتائج واختلاطات اخرى في الخارج . ولكن هتلر اظهر مواهبه ودهاءه مرة ثانية . وعلى الرغم من أنه قبل استقالة بيك فوراً ، وبكثير من الارتياح ، إلا أنه أصدر الأمر بمنع الحديث عنها في الصحف أو حتى في صحيفة الجيش الرسمية او صحيفة الحكومة الرسمية، وأوعز الى الفريق المتقاعد وزملائه الضباط بالاحتفاظ بالسر لأنفسهم ، فليس من المفيد في شيء ان يسمح للحكومتين البريطانية والفرنسية بمعرفة أي شيء عن وقوع خلاف في قمة الجيش الألماني في هذه الحالة الحرجة ، ومن الممكن ان تظل باريس ولندن على جهل بالموضوع حتى نهاية شهر تشرين الأول ، حتى يذاع أمر هذه الإستقالة بصورة رسمية من برلين . ولو سمعت هاتان العاصمتان بشيء من ذلك ، لكان في وسع الانسان ان يتصور ، بأن التاريخ كان ولا بد وان يتجه اتجاهاً مغايراً ، وان لا تمضيا في سياسة ترضية الفوهرر الى ذلك الحد.

ولم يحاول بيك نفسه ، مدفوعاً بشعور من الوطنية والولاء للجيش ان يقوم بأي جهد لذيوع هذا النبأ ، والوصول إلى آذان الجمهور . ولكنه شعر بالكثير من خيبة الأمل لأن أياً من الضباط الفرقاء ، الذين كانوا قد شاركوه الرأي ،

١ ـ صدر القرار بطلاق الفريق فون براوخيتش من زوجته الاولى في الصيف ، وفي الرابع والعشرين من ايلول تزوج الآنسه شارلوث شميدت .

٢ ـ يوميات فون هاسيل ص ٦ .

ودعموه في معارضة الحرب ، لم يشعر بالواجب في ان يحذو حذوه ويستقيل من منصبه . ولم يحاول الرجل اقناعهم بذلك . فلقد كان كما قال عنه هاسيل فيما بعد « كاوسوتيز مجرداً ، دون ان تكون فيه أية لمحة من لمحات بلوخر أو يورك »[١] أي أنه رجل مبدأ وفكر لا رجل عمل . وقد أحس بأن براوخيتش ، بوصفه قائداً عاماً للجيش قد خانه وتخلى عنه في لحظة حاسمة من لحظـــات التاريخ الألماني ، وقد اثار هذا حفيظته ، وألهب سخيمة الحقد عنده . ولاحظ مؤرخ حياة بيك وصديقه بعد سنوات طويلة شعور القائد العميق بالمرارة ، كلما حاول ان يتحدث عن قائده السابق . فهو في مثل هذه الحالات ، كان يهتز عادة من شدة الهياج والتأثر ويتمتم قائلا ... « لقد تركني براوخيتش في مأزق »[٢].

وخلف بيك في منصبه كرئيس لهيئة أركان الحرب ، جـــنرال يدعى فرانزهولدر ، وهو يبلغ الرابعة والخمسين من عمره وينتمي إلى أسرة عسكرية بافارية إذ كان والده فريقاً من قبله . لكن أمر هذا التعيين ظـل سراً حافظ عليه هتلر عدة أسابيع إلى أن انتهت الأزمة . وقد نشأ هولدر كضابط مدفعي ثم عمل كضابط صغير بين أركان حرب ولي العهد الأمير روبرخت ، في الحرب الكونية الأولى ، وعلى الرغم من انه كان صديقاً لروهم في أيام ميونيخ التي تلت الحرب الكونية الأولى ، مما كان من المحتمل أن يعرضه لشيء من الشك في برلين ، إلا أنه ارتقى بسرعة في الجيش إلى أن بلغ خلال عام واحد منصباً خوله لأن يغدو نائباً لبيك في رئاسة أركان الحرب . وقد أوصى به بيك إلى براوخيتش ليخلفه في منصبه إذ كان واثقاً من أن نائبه كان يشاطره آراءه .

وهكذا كان هولدر أول بافاري وأول كاثوليكي يصل إلى هذا المنصب مما يعتبر خروجاً على التقليد البروسي البروتستانتي العريق في فيلق الضباط . وكان هذا الرجل ، شغوفاً بالأمور الفكرية والادراكية ، ميالاً إلى الرياضيات وعلم النبات ، وكان أول انطباع لي عنه أنـه يبدو كاستاذ جامعي للرياضيات أو

١ - يوميات فون هاسيل ص ٣٤٧ .
٢ ـــ وولفغانغ فويرستر - « جنرال يكافح ضد الحرب » ص ١٢٢ .

العلوم ، كما كان مسيحياً متديناً ، ولذا لم يكن ثمة من شك في انه سيكون في عقله وروحه ، خير خلف لبيك . وكان السؤال الذي يخطر على البال ، هو هل كان هولدر كسلفه الذاهب يفتقر إلى الفراهة والموهبة في اتخاذ الخطوات الحاسمة في اللحظة المناسبة . أو إذا لم يكن مفتقراً اليهما في ذلك الوقت ، هل كانت لديه الشخصية الجديرة بتجاهل قسم الولاء للفوهرر الذي اقسمه وبالقيام بعمل حازم تجاهه . فلقد كان هولدر مثل بيك ، على الرغم من أنه لا ينتمى إلى عضوية المؤامرة الناشئة ضد هتلر ، يعرف شيئاً عنهـــا ، وكان على الغالب كبيك أيضاً ، على استعداد لدعمها ومساندتها . وهكذا فقد غدا بوصفه الرئيس الجديد لهيئة أركان الحرب ، الشخصية الهامة التي تلتف حولها المؤامرة الجدية الأولى التي تهدف إلى الاطاحة بالديكتاتور في الرايخ الثالث .

ولادة مؤامرة على هتلر

أتضح بعد خمس سنوات ونصف السنة من الاشتراكية الوطنية للقليلين من الألمان الذين قاوموا هتلر ،أن الجيش كان الهيئة الوحيدة التي تملك القوة الفعلية للاطاحة به . أما فئة العمال والطبقتان الوسطى والعليـــا فلم تكن كلها تملك الوسائل لذلك حتى ولو ارادت الاطاحة به . فلم يكن لأي من أفراد هـــذه الطبقات أية منظمات خارج نطاق الحزب النازي ، وكانوا بالطبـع يفتقرون إلى السلاح . وعلى الرغم من الكثير الذي كتب فيما بعد عن حركة المقاومة الألمانية ، إلا أنهـــا ظلت منذ البداية حتى النهاية شيئاً تافهاً وضعيفاً ، تقودها حفنة من الرجال الشجعان والشرفاء ، وتفتقر إلى الأتباع والأعوان .

وكان مجرد الإحتفاظ بوجودها عارياً ، يعتبر أمراً شاقاً في دولة بوليسية يتحكم فيها الإرهاب واعمال التجسس . يضاف إلى هذا ، كيف يمكن لمجموعـة صغيرة حتى ولو لمجموعة كبيرة لو وجدت ، أن تعلن الثورة ضد المدافع الرشاشة والدبابات وقاذفات اللهب التي يملكها الحرس النازي ؟

وكانت المعارضة التي يواجهها هتلر في البداية تنبع من أوساط المدنيين ، إذ كان الفرقاء العسكريون كما رأينا ، فرحين كل الفرح بهذا النظام الذي حطم قيود معاهدة فرساي ، واتاح لهم المهمة التقليدية لبناء هذا الجيش العظيم مرة ثانية . ومن المضحك أن كبار المدنيين الذين ظهروا في قيادة المعارضة قد تولوا في خدمة الفوهرر مناصب مهمة ، وكانوا على الغالب ينطوون في البداية على حماس مبدئي للنازية ، ثم ما لبث أن ضعف عندما شرعوا يدركون في عام ١٩٣٧ أن هتلر يقود المانيا إلى حرب كان من المؤكد تماماً انها ستخسرها .

وكان من اوائل هؤلاء المعارضين كارل غوبرديلر ، رئيس بلدية لايبزيغ الذي كان براونينغ قد عينه مراقباً للأسعار ثم استمر يعمل في هذا المنصب ثلاث سنوات اخرى في ظل هتلر . وكان هذا الرجل محافظاً ومبالاً للملكية في قرارة فؤاده . كما كان بروتستانتياً متديناً عرف بالكفاية والحماس والذكاء ، مع شيء من العناد وعدم التحفظ ، وكان اول خلاف له مع النازيين عام ١٩٣٦ على موضوع مناهضة السامية وموضوع سياسة التسلح المهووسة ، ولذا فقد استقال من منصبه ومضى يعمل كل ما في قلبه وروحه من عزيمة في معارضة هتلر . وكان من اول أعماله ارتحاله الى فرنسا وانكلترا والولايات المتحدة في عام ١٩٣٧ ، ليحذر هذه الدول الثلاث سراً من خطر المانيا النازية .

واتضح النور بعد فترة أُخرى الى متآمرين مهمين آخرين هما جوهان بوبتيز وزير مالية بروسيا والدكتور شاخت . وكان كل من الرجلين قد تلقى ارفع وسام للحزب النازي وهو شريط الشرف المذهب ، تقديراً لما بذلاه من جهود في تطوير الاقتصاد الألماني لتحقيق الاغراض الحربية . وقد استفاق الرجلان ليدركا حقيقة ما يهدف اليه هتلر في عام ١٩٣٨ . ولم تكن حلقات المعارضة الداخلية لتثق بأي من الرجلين بالنسبة الى ماضيهما والى شخصيتهما . فلقد كان شاخت من كبار الانتهازيين ، وقد لاحظ هاسّيل في يومياته ان رئيس مصرف الرايخ كان ذا قدرة على « الحديث من زاوية والعمل من زاوية اخرى » ، وهو رأي كان يشترك فيه كما يقول هاسّيل كل من الفريقين بيك وفون فريتشه . وكان بوبيتز في

منتهى الذكاء ولكنه يفتقر الى الثبات والاستقرار . وقد انتمى بوصفه من الضليعين بلغة الإغريق وآدابها ، ومن كبار رجال الاقتصاد البارزين الى نادي الأدباء الذي يضم ستة عشر رجلاً مثقفاً بينهم الفريق بيك وهاسيل ، يجتمعون مرة في الاسبوع للنقاش في شؤون الفلسفة والتاريخ والفن والعلم والأدب ، والذين الفوا مع مضي الزمن مركزاً من مراكز المعارضة الرئيسية لهتلر .

واصبح اولريخ فون هاسّيل مستشاراً في الشؤون الخارجية لزعماء المقاومة . وكانت البرقيات التي بعث بها وهو يتولى منصب السفير في رومـة إبان الحرب الحبشية والحرب الأهلية الإسبانية طافحة كما رأينا من قبل ، بالنصائح الى برلين عن الطريقة التي يجب اتباعها للابقاء على ايطاليا في حالة من الإشتباك مع فرنسا وبريطانيا لضمان بقائها الى جانب المانيا . وسرعان ما بات يخشى من أن تكون الحرب مع فرنسا وبريطانيا قاضية على المانيا وان يكون الحلف بين المانيا وايطاليا قاضياً عليهما ايضاً . وعلى الرغم من ان ثقافته العالية كانت تحتم عليه ان لا يحمل سوى مشاعر الإزدراء لرخص الإشتراكية الوطنية وتفاهتها ، إلا انـه مع ذلك لم يتخل طائعاً مختاراً عن العمل في خدمة العهد . وقد طرد من السلك السياسي في حركة التطهير الكبرى التي قام بها هتلر في الرابـع من شباط عام ١٩٣٨ والتي تناولت المناصب الكبرى في ميادين السياسة والشؤون الخارجية والشؤون العسكرية . ويبدو ان هذا الرجل بوصفه منتمياً إلى أسرة مـن أسر النبلاء العريقة في هانوفر ، وزوجاً لكريـمـة الأميرال الأكبر تيربتيز منشىء الاسطول الألماني ، وسيداً مهذباً من افراد المدرسة القديمة التي يعود اليها مـن رأسه الى أخمص قدميه ، كان في حاجة كالكثيرين من أبناء طبقته الى التعرض للصدمة العنيفة التي أحس بها من جراء طرد النازيين له ، قبل ان يغدو كثـير الإهتمام بالقيام بعمل للاطاحة بعهدهم . ولكن طالما وقع هذا التطور ، فان هذا الرجل الحساس المثقف والصعب العود ، كرس نفسه الآن لهذه المهمة ، كما ضحى في النهاية كما سنرى بحياته في سبيلها ، مواجهاً نهاية هي غاية في الوحشية .

وكان هناك آخرون ، أقـل من هؤلاء شأناً وأصغر عمراً ، قد عارضوا

النازية منذ البداية وتلاقوا بصورة تدريجية لتأليف مختلف حلقات المقاومة . وكان بين كبار المثقفين في احدى هذه الجماعات شخص يدعى ايوولدفون كلايست ، وهو مزارع نبيل . ينتمي إلى ذرية الشاعر العظيم . وقد عمل هذا الرجل بالتعاون الوثيق مع ايرنست نيكيش ، الإشتراكي الديموقراطي السابق ومحرر صحيفة « وايدرستاند » السرية ، وفابيان فون شلابر يندورف ، المحامي الشاب وحفيد طبيب الملكة فكتوريا الخاص ومستشارها الموثوق البارون فون ستوكار . وكان هناك أيضاً عدد من الزعماء النقابيين السابقين من امثال جوليوس ليبر وجاكوب قيصر وويلهلم لوشنر . وبات ضابطان من رجال الغستابو ، هما ارتور نيبي رئيس دائرة البوليس الجنائي ، وبيرند غيزيفيوس ، ضابط الشرطة الشاب ، ذا نفع كبير مع تطور المؤامرات ونموها . وقد غدا الأخير معبود الادعاء العام الامريكي في محاكمات نورمبرغ ، ووضع كتاباً يلقي كثيراً من الأضواء على المؤامرات ضد هتلر ، وان كان الكثيرون من المؤرخين لا يولون هذا الكتاب وصاحبه قلامة ظفر من الاهتمام .

وكان هناك أيضاً عدد من ابناء بعض الأسر الالمانية العريقة والمحترمة من امثال الكونت هيلموث فون مولتيكيه ، قريب المشير مولتيكيه المشهور في تاريخ المانيا الذي الف فيما بعد جماعة للمقاومة تضم عدداً من المثاليين الشبان ، اطلق عليهم اسم حلقة كريساو ، والكونت اولبرخت بيرنستورف ، قريب السفير الألماني في واشنطن في ايام الحرب الكونية الأولى ، وفويهير كارل لودفيغ فون غوتنبرغ ، محرر احدى الصحف الشهرية الكاثوليكية الجريئة ، والقس دايتريخ بونهوفر الذي ينتمي إلى أسرة بروتستانتية من رجال الدين البارزين ، والذي اعتبر هتلر مناهضاً للمسيح وآمن ان من واجبه المسيحي ان « يقضي عليه » .

وقد تمكن جميع هؤلاء الرجال البواسل من البقاء إلى أن اعتقلوا أخيراً وعذبوا ثم اعدموا إما بحبل المشنقة أو بالمقصلة أو قتلاً على أيدي الحرس النازي. ولم تحقق هذه النواة الصغيرة للمعارضة المدنية لمدة طويلة أي نجاح في اثارة

اهتمام الجيش بأعمالها . فلقد شهد المشير فون بلومبرغ محـــاكات نورمبرغ « أن الفرقاء العسكريين الألمان لم يعارضوا هتلر قبل عام ١٩٣٨ — ١٩٣٩ ، إذ لم يكن ثمة داع لمعارضته طالما انه قد حقق لهم النتـائج التي كانوا يرغبون في تحقيقها » . وقد وقع بعض الاتصال بين غويردلر والفريق فون هامرشتاين ، ولكن القائد العام السابق للجيش الألماني ، كان يعيش حياة التقاعد منذ عام ١٩٣٤ ،ولم يكن له أي نفوذ بين الفرقاء العاملين في الجيش. وتمكن شلابريندورف في بداية العهد النازي من الاتصال بالعقيد هانز اوستر المساعد الأول للاميرال كافاريس في مكتب مخابرات القيادة العـــامة للقوات المسلحة ، فوجد انه لا يعادي النازية عداء شديداً فحسب وانما يبدي كل استعداد لمحاولة تقريب الفجوة بين العسكريين والمدنيين أيضاً. لكن القادة العسكريين الألمان لم يتعرضوا قبل شتاء عام ١٩٣٧ — ١٩٣٨ ، للسلسلة المتعاقبة من الهزات العنيفة التي ولدهـــا قرار هتلر بالمضي نحو الحرب ، وتطهيره للقيادة العسكرية التي تولى زمامهـا بنفسه ، ومعاملته السيئة للفريق فريتشه ،مما حمل بعضهم على الاحساس بخطر الديكتاتور النازي على المانيا . واتاحت استقالة الفريق بيك في نهاية شهر آب عام ١٩٣٨ ، بعد أن غدت الازمة التشيكية اكثر خطورة وتهديداً ، فرصة جديدة ، ليقظة اخرى ، وعلى الرغم من أن اياً من زملائه الضباط لم يحذو حذوه في الاستقالة كما كان يأمل ، إلا انه اتضح فوراً أن رئيس الاركان العامة الذي هوى ، كان الشخص الوحيد الذي يستطيع القادة المتذمرون ورجال المقاومة من المدنيين الالتفاف حوله ، إذ كانت الفئتان تنظران اليه بعين الاحترام والثقة .

واتضح اعتبار آخر للفريقين . فايقاف هتلر عن خطته ، يتطلب استعمال القوة ، وهي شيء لا يملكه إلا الجيش . ولكن من يستطيع في الجيش استخدام هذه القوة؟ إن هامرشتاين أو بيك لا يستطيعان ذلك لأنهما اصبحا خارج الجيش. واتضح أن الحاجة باتت ماسة إلى ضم فرقاء يتولون قيادات فعلية في الوقت الحاضر في برلين وحولها ، ويستطيعون أن يعملوا عملاً فعالاً بعد مجرد اشارة سريعة . وليست هناك تحت تصرف الفريق هولدر الرئيس الجديد لهيئة اركان

حرب الجيش قوات فعلية يتولى قيادتها. اما الفريق فون براوخيتش فيسيطر على الجيش بأكمله ولكنه ليس بالرجل الموثوق. ولا ريب في أن سلطته ستكون نافعة. ولكن المتآمرين اعتقدوا أن الإستعانة بـــه يجب أن لا تكون إلا في اللحظة الأخيرة.

وسرعان ما اكتشف المتآمرون بعض الفرقاء المهمين الذين كانوا على استعداد للمساعدة وضموهم إلى مؤامراتهم الناشئة. وكان ثلاثة منهم يسيطرون على قيادات مهمة كل الأهمية بالنسبة إلى نجاح المغامرة، وهم الفريق ايرون فون ويتزليبين، القائد العام للمنطقة العسكرية الثالثة المهمة التي تضم برلين وجميع المناطق المحيطة بها. والفريق الكونت ايريك فون بروكدورف- اهلفيلد، قائد حامية بوتسدام التي تضم فرقة المشاة الثالثة والعشرين والفريق ايريك هويبنر، الذي يتولى قيادة فرقة مدرعة في تورنجيا.

وتضمنت الخطة التي رسمها المتآمرون، والتي توضحت خطوطهـــا في نهاية شهر آب تقريباً. اعتقال هتلر حالما يصدر أمره النهائي لمهاجمة تشيكوسلوفاكيا وجرّه إلى احدى محاكم الشعب التي الفها بتهمة محاولة دفع المانيــا الى حرب أرروبية دون استعداد لها، وانه تبعاً لذلك لم يعد قادراً على الحــكم. وتقرر في غضون ذلك إقامة ديكتاتورية عسكرية لفترة قصيرة. تعقبها حكومـــة مؤقتة يرئسها احد المدنيين البارزين. وتقوم في النهاية حكومـــة ديموقراطية محافظة.

وكان هناك اعتباران يعتمد عليهما نجاح الانقلاب ويتصلان بالمتآمرين المهمين وهما الفريق هولدر والفريق بيك. أمـــا الإعتبار الأول فهو التوقيت إذ رتب هولدر مع القيادة العامة للقوات المسلحة أن تبلغه قبل ثمان واربعين ساعـة من صدور أمر هتلر النهائي بالهجوم على تشيكوسلوفاكيا. وكانت هذه المهلة كافية لوضع المؤامرة موضع التنفيذ قبل أن تستطيع القوات عبور الحدود التشيكية. وهكذا لا يتمكن من اعتقال هتلر فحسب بل ومن منع الخطوة القاضيـة التي ستؤدي الى الحرب ايضاً.

أما الاعتبار الثاني فهو أن يتمكن بيك من اقناع الفرقاء العسكريين سلفاً ، والشعب الالماني فيما بعد أثناء المحاكمة المقررة لهتلر ، من ان الهجوم علـى تشيكوسلوفاكيا كان سيؤدي حتماً الى اشتراك بريطانيا وفرنسا في الحرب ، ووقوع حرب اوروبية لم تكن المانيا على استعداد لخوضها ، ولذا فهزيمتها فيها شيء حتمي . وكانت هذه الآراء هي العبء الذي تضمنته مذكراته طيلة فصل الصيف كما كانت الأساس لكل ما بات على استعداد لعمله الآن . وهـو حماية المانيا من صراع اوروبي يعتقد جازماً بأنه سيقضي عليها ، عن طريقة الإطاحة بهتلر .

ولكن من سوء حظ بيك وسوء حظ مستقبل العالم بأسره أن هتلر ، كان أصدق رأياً من رئيس الاركان المستقيل حديثاً ، في احتمالات قيام حرب كبرى. فلم يكن في وسع بيك الاوروبي المثقف الذي يعرف التاريخ ، ان يتصور ان بريطانيا وفرنسا على استعداد للتضحية بمصالحها الذاتية ، بالامتناع عن التدخل في حالة وقوع هجوم الماني على تشيكوسلوفاكيا . أجل لقد كان يعرف التاريخ ولكنه لم يكن يعرف منطق السياسة الحديثة . أما هتلر فقد كـان يعرفه . وكان قد شعر منذ وقت ما بأن حكمه في أن رئيس الوزراء تشمبرلين عـلى استعداد للتضحية بالتشيكيين على ان يغامر بدخول الحرب ، قد تعزز ، كما غدا مقتنعاً بأن فرنسا في هذه الحالة لن تكون على استعداد لتنفيذ التزاماتها التعاهدية لبراغ .

ولم تتأخر الويلهلمشتراسة بالطبع عن ملاحظة البرقيات التي نشرتها صحف نيويورك في الرابع عشر من ايار ، عندما نقل اليها مراسلوهـا في لندن حديثـاً «ليس للنشر» جرى على مائدة غداء مع المستر تشمبرلين في ادارة الليدي استور. فلقد نقل الصحفيون ان رئيس وزراء بريطانيا اعرب عن اعتقاده بأن أياً من بريطانيا أو فرنسا او روسيا لن تهرع الى مساعدة تشيكوسلوفاكيا في حـالة تعرضها لهجوم الماني ، وان الدولة التشيكية لا يمكن ان تظل على وضعها الراهن. وأن بريطانيا تؤيد حفاظاً منها على السلام ، ان تعيد تشيكوسلوفاكيا بـلاد

السوديت الى المانيا . وعلى الرغم من الأسئلة الغاضبة التي وجهت الى رئيس الوزراء في مجلس العموم ، فقد لاحظ الألمان ايضاً أن تشمبرلين لم يقدم على إنكار حقيقة ما نشره الصحفيون الأمريكيون .

وتحدث المستر تشمبرلين في الأول من حزيران حديثاً « ليس للنشر أيضاً » الى المراسلين الصحفيين البريطانيين ، وبعد يومين اثنين نشرت التايمز اللندنية ، المقالة الافتتاحية الأولى من سلسلة قدر لها ان تساعد على تحطيم مركز التشيكيين، فقد حثت الحكومة التشيكية على منح حق « تقرير المصير » الى اقليات البلاد حتى ولو أدى هذا إلى انفصالها عن تشيكوسلوفاكيا . واقترحت لأول مرة إجراء عمليات استفتاء كوسيلة لتقرير ما يرغب فيه السوديت الألمان وغيرهم من الأقليات . وابرقت السفارة الألمانية في لندن بعد بضعة أيام إلى برلين تقول إن افتتاحية التايمس تستند إلى حديث شخصي لتشمبرلين لم يكن يستهدف نشره، وأن هذه الإفتتاحية تعكس آراءه . وفي الثامن من حزيران ، أبلغ السفير فون ديركسين وزارة الخارجية الألمانية أن حكومة تشمبرلين ستكون راغبة في أن ترى مناطق السوديت مفصولة عن تشيكوسلوفاكيا شريطة أن يتم ذلك نتيجة استفتاء فيها « لا تتخلله أية اجراءات عنيفة من جانب المانيا [١] » .

ولا ريب في أن كل هذه الانباء بعثت النشوة في فؤاد هتلر . ولم تكن أنباء موسكو سيئة كذلك . ففي نهاية حزيران، أبلغ الكونت فريدريش ويرنر فون ديرشولنبرج ، السفير الألماني في روسيا ، حكومته في برلين « انه لا يعقل أن يزحف الاتحاد السوفياتي دفاعاً عن دولة بورجوازية » — والمقصود بها تشيكوسلوفاكيا [٢] . وعندما حل الثالث من شهر آب ، كان ريبنتروب يبلغ البعثات الدبلوماسية الألمانية في الخارج أن ليس ثمة ما تخشاه المانيا كثيراً من تدخل بريطانيا أو فرنسا أو روسيا في قضية تشيكوسلوفاكيا [٣] .

وراح تشمبرلين في الثالث من آب ، يوفد اللورد رانسيمان إلى تشيكوسلوفاكيا

١ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٢) ص٣٩٥ ، ٣٩٩ - ٤٠١ .
٢ - « « « « (٢) ص ٤٢٦ .
٣ - « « « « (٣) ص ٥٢٩ - ٤٠١ .

في بعثة غريبة ، ليعمل كوسيط في أزمة السوديت . وحدث انني كنت في براغ يوم وصوله ، وبعد أن شهدت مؤتمره الصحفي ، وتحدثت الى عدد من مرافقيه رحت أُسجل في يوميتي ما يلي : «ان الشك يكاد ينصب على بعثة رانسيمان كلها ».
ولقد صاحب الاعلان عن ايفادها في مجلس العموم في السادس والعشرين من تموز بيان ينطوي على المراوغة صدر عن تشمبرلين نفسه ، ولا ريب في انه كان فريداً في نوعه في تاريخ البرلمان البريطاني . فلقد ذكر رئيس الوزراء انه قـــد اوفد رانسيمان « استجابة لرغبة ابدتها الحكومة التشيكوسلوفاكية ». والحقيقة في هذا الموضوع أن تشيكوسلوفاكيا، قد ارغمت ارغاماً على ابتلاع قضية رانسيمان وايفاده، فلقد عرف كل انسان ، حتى تشمبرلين نفسه ، أن مهمة رانسيمان وهي التوسط بين الحكومة التشيكية والزعماء السوديت ، مهمة سخيفة ومستحيلة . ولقد عرف الجميع أن هينلاين ، الزعيم السوديتي لم يكن اكثر من مجرد عميل ، وأن ليست لديه الحريه ليتفاوض ، وأن المشكلة تقوم الآن بين براغ وبرلين . وتوضح يومياتي التي دونتها في ذلك اليوم وما تلاه من أيام، أن التشيكيين عرفوا تمام المعرفة ، أن تشمبرلين أوفد رانسيمان إلى برلين ليمهد الطريق لتسليم بلاده السوديت لبرلين . حقاً لقد كانت خدعة دبلوماسية دنيئة .

وها نحن نقترب الآن من نهاية صيف عام ١٩٣٨ ، وكان رانسيمان في غضون ذلك يطوّف في انحاء بلاد السوديت وفي براغ ، مبدياً ايماءات ودية الى الألمان السوديت ومغالياً في طلباته الى الحكومة التشيكية لمنحهم ما يريدون . وكان هتلر وقادته العسكريون ووزير خارجيته مشغولين بصورة محمومة . واستضاف الفوهرر في الثالث والعشرين من آب على ظهر الباخرة « باتريا » في خليج كييل ، اثناء المناورات البحرية ، الأميرال هورثي الوصي على عرش المجر ، واعضـــاء حكومته . وقـــال لهم هتلر ، انهم إذا كانوا يرغبون في الاشتراك في الوليمة التشيكية ، فان عليهم ان يسرعوا إلى ذلك . وراح يقول : « ان على كل من يريد الجلوس الى مائدة الوليمة ، ان يمد يد العون على الأقل في المطبخ »[1] .

---

١ - وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٢) ص ٦١١.

وكان بيرناردو اتوليكو ، السفير الايطالي بين الضيوف ايضاً على ظهر الباخرة . وعندما راح يضغط على ريبنتروب ليطلعه على موعد « الحركة الألمانية ضد تشيكوسلوفاكيا » ، حتى يتمكن موسوليني من الاستعداد سلفاً ، راح الوزير الألماني يرد رداً ينطوي على التهرب . وكان من الواضح ، أن الألمان لم يكونوا يركنون كل الركون ، إلى محافظة حلفائهم على السر . واصبحوا الآن على ثقة من موقف بولندة . وظل فون مولتيكيه السفير الألماني في وارشو ، يمطر برلين طيلة الصيف بالتقارير التي تقول : ان بولندة لا تكتفي بالامتناع عن مساعدة تشيكوسلوفاكيا عن طريق الحيلولة بين روسيا وارسال الجنود والطائرات عبر اراضيها الى تشيكوسلوفاكيا ، على ان وزير خارجيتها العقيد جوزيف بيك ، يتطلع باشتهاء الى قطعة من الأراضي التشيكية هي منطقة تيشين . وهكذا كان بيك يعرض منذ ذلك الحين ، تلك السياسة القصيرة النظر التي اشترك فيها الكثيرون في اوروبا في ذلك الصيف والتي ثبت في النهاية انها كانت اكثر مدعاة للكوارث مما يتصوره أي إنسان .

واستمر النشاط بلا انقطاع في مقر القيادة العامة للقوات المسلحة ومقر القيادة العامة للجيش . وتم وضع الخطط النهائية لاستكمال تأهب القوات المسلحة لتزحف على تشيكوسالوفاكيا في الأول من تشرين الأول . وبعث العقيد يودل في الرابع والعشرين من آب ، من مقر القيادة العامة للقوات المسلحة الى هتلر بمذكرة يؤكد فيها اهمية « تحديد موعد « الحادث » الذي سيتيح لألمانيا ، فرصة الاستفزاز للتدخل العسكري ، لأهمية هذا التحديد » . وراح يقول ان توقيت موعد الزحف يعتمد على تعيين ذلك الموعد . ثم قال :

« لا يمكن اتخاذ اية اجراءات مسبقة قبل اليوم الأخير الذي يسبق موعد الزحف ، اذ لا يمكن ايجاد الايضاح البريء لهذه الاجراءات ، وإلا بدونا وكأننا قد « فبركنا » الحادث ... وإذا كانت « ساعات المساء » تعتبر صالحة للحادث لأسباب تقنية ، فإن اليوم التالي لا يمكن أن يكون يوم الغزو ، ويجب تأجيله إلى اليوم

الثالث .... وان غايتي من هذه الملاحظات ، ان أُشير إلى ما يعلقه « الفيرماخت » من إهتمام على الحادث ، وان أُبين ان الجيش يجب أن يبلغ بعزم الفوهرر مسبقاً ، لاسيما وان فرع المخابرات، سيكون مسؤولاً عن ترتيب الحادث » [١] .

ولم تحل نهاية الصيف ، حتى كانت اعدادات الخبراء قد استكملت ، للهجوم على تشيكوسلوفاكيا . وظل السؤال قائماً ترى ماذا سيحدث في الغرب اذا حافظ الفرنسيون على كلمتهم ، ووفوا بالتزاماتهم للتشيكيين وهاجموا المانيا من الغرب ؟ وراح هتلر في السادس والعشرين من آب يقوم بجولة في التحصينات الغربية يرافقه يودل والدكتور تودت المهندس الألماني المسؤول عن بناء الجدار الغربي وهملر ، وعدد كبير من موظفي الحزب . وانضم إلى الفريق في السابع والعشرين من آب ، الجنرال ويلهيلم ادام ، وهو ضابط بافاري قدير وخشن الطباع كان يتولى قيادة المنطقة الغربية ، وشهد في اليومين التاليين النشوة التي سيطرت على الفوهرر نتيجة الاستقبال الرائع الذي قوبل به من أهل منطقة الراين . ولم يتأثر آدام نفسه ، بل شعر بالرعب حقاً ،وراح في التاسع والعشرين من آب ، يطلب بصورة مفاجئة وهو يستقل سيارة الفوهرر الخاصة ،مقابلة مع الفوهرر للتحدث اليه على انفراد، وروى الفريق فيما بعد ، أن هتلر صرف هملر وغيره من اخدان الحزب مستهزئاً بهم . ولم يضع آدام الوقت أو الكلمات عبثاً،وانما مضى يقول لهتلر انه على الرغم من كل هذه الضجة الدعائية فانه لا يستطيع الصمود في هذا الجدار الغربي بالقوات المتوافرة لديه مدة طويلة . وسرعان ما تفجر هتلر في نوبة هستيرية وراح يلقي خطاباً مطولاً يتحدث فيه عن الجهود التي بذلها ليجعل من المانيا متفوقة في قوتها على بريطانيا وفرنسا مجتمعتين .

وصرخ هتلر بأعلى صوته قائلاً : « إن الرجل الذي لا يستطيع الصمود في هذه التحصينات ، وغد سافل [٢] » .

١ – المؤامرة النازية والعدوان (٣) ص ٣٣٢ - ٣٣٣ .

٢ – وتقول يوميات يودل ان هتلر استخدم عبارة اقسى من كلمة الوغد السافل وهي كلمة =

ومع ذلك ، فقد كانت الشكوك في سلامة هذا الخط ، تزداد في عقـــول الفرقاء العسكريين الآخرين بالإضافة إلى آدام . ففي الثالث من ايلول ، دعا هتلر رئيس القيادتين العامتين للقوات المسلحة والجيش ، أي كايتل وبراوخيتش إلى الإجتماع به في عش النسر . وقد تم الاتفاق على أن تتحرك وحدات الميدان إلى مواقعها على طول الحدود التشيكية في الثامن والعشرين من ايلول . واتفق كذلك على وجوب إبلاغ القيادة العامة للقوات المسلحة عن موعد الغزو قبل ظهر السابع والعشرين من ايلول . ولم يرض هتلر عن الخطة العملية الموضوعة للحالة الخضراء ، وامر باجراء تغييرات عدة فيها . ويتضح من الملاحظات التي دونت عن هـــذا الاجتماع والتي سجلها الرائد شموندت ، أن براوخيتش أثار على الأقل ، قصـــة كيفية الصمود في الغرب ، إذ أن كايتل كان أجبن من أن يقـــول شيئاً ، وراح هتلر يخادعه مؤكداً له انه قـــد أصدر أوامره للاسراع في بناء التحصينات الغربية [1] .

واجتمع الفريق هينريخ فون ستولبناغل في الثامن من ايلول مع يودل ، الذي دون في يومياته أن تشاؤم الفريق كان قـــد بلغ حده من الوضع العسكري في الغرب . فقد بدأ يتضح لكل منهما أن هتلر وقد سيطر على روحه الحماس من جراء روح التعصب التي بدت في مهرجان الحزب الذي كان منعقداً في نورمبرغ آنذاك ، يعتزم المضي في غزو تشيكوسلوفاكيـــا سواء تدخلت فرنسا أو لم تتدخل . وكتب يودل المتفائل عادة يقول : « يجب أن اعترف بأنـــني اشعر بالقلق أيضاً » .

واستدعى هتلر في اليوم التالي ، أي التاسع من ايلول كـــلاً من كايتل وبراوخيتش وهولدر للاجتماع به في نورمبرغ . وقد بدأ هذا الاجتماع في الساعة العاشرة مساء واستمر حتى الرابعة من صباح اليوم التالي . وكان الاجتماع على

=:« Hunolsfott » اي كلب قذر (محاكمات كبار مجرمي الحرب (٢٨) ص ٣٧٥) ويقدم لنا تيلفورد تيلور في كتابه « السيف والصليب المعقوف » وصفاً اكمل اعتمد فيه على مذكرات الفريق آدام التي لم تنشر .

١ – المؤامرة النازية والعدوان (٣) ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥ .

حد تعبير كايتل ليودل الذي دونه في يوميته ، عاصفاً للغاية . وقد وجد هولدر نفسه في وضع حرج، إذ كان محور المؤامرة الرامية إلى الاطاحة بهتلر في اللحظة التي يصدر فيها أمره بالهجوم ، ورأى أن عليه أن يوضح بإسهاب خطة الأركان العامة لحملة تشيكوسلوفاكيا ، ولكن الوضع سرعان ما تطور نحو السوء ، إذ رأى هتلر يمزق الخطة ارباً ارباً ، ويتجه بالسباب لا اليه وحده بـل وإلى براوخيتش ايضاً متهماً إياهما بالجبن والعجز العسكري [1] . وسجل يودل في يوميته للثالث عشر من ايلول أن كايتل « تأثر تأثراً فظيعاً » من جراء التجربة التي مر بها في نورمبرغ ومن مشاهدته لهذه الروح الانهزامية مسيطرة على هؤلاء الذين يحتلون قمة الجيش الألماني . وقال :

« نقلت الاتهامات الى الفوهرر عن الروح الانهزامية التي تسيطر على القيادة العامة للجيش .... واعلن كايتل انه لن يتسامح مع أي ضابط في القيادة العامة للقوات المسلحة ، يقحم نفسه في توجيه الانتقادات والافكار غير المستقرة والانهزامية... ويعرف الفوهرر ان قائد الجيش (براوخيتش) ، قد طلب الى القادة العسكريين في الجيش تأييده في محاولته تبصير الفوهرر بالمغامرة التي حزم أمره على القيام بها. ولم يعد لبراوخيتش أي نفوذ لدى الفوهرر .. «وهكذا سيطر جو متجمد وبارد كل البرودة على نورمبرغ ، ولعل من سوء الحظ ان الفوهرر يجد البلاد بأسرها وراءه باستثناء بعض كبار القادة العسكريين في الجيش » .

قد احزن هذا الوضع ، يودل الشاب الطموح الذي ربط مصيره بمصير هتلر كل الحزن .. وراح يدون في يومياته قائلاً :

« لا يستطيع هؤلاء الفرقاء ، ان يصلحوا اصلاحاً شريفاً الأضرار التي اوقعوها من جراء افتقارهم الى قوة العزيمة والطاعة إلا بالعمل وحده. انها عين المشكلة التي وقعت في عام ١٩١٤، تتكرر

١ - المؤامرة النازية والعدوان (٣) ص ٣٣٥ - ٣٣٨.

الآن . . وليس ثمة إلا مثل واحد على عدم الطاعة في الجيش ، وهو قائم عند الفرقاء ، وتابع في النهاية من صلفهم وغطرستهم . فليس في وسعهم ان يؤمنوا ، وبالتالي ان يطيعوا لأنهم لا يبصرون عبقرية الفوهرر. ولا يزال الكثيرين منهم، يرون فيه عريف الحرب العالمية، لا اعظم سياسي عرفته المانيا منذ ايام بسمارك » [1] .

وقد طلب الفريق فون ستويلبناغل في الحديث الذي دار بينه وبين يودل في الثامن من ايلول ، وكان يشغل منصب رئيس الشعبة الأولى في مقر القيادة العامة للجيش كما كان مشتركاً في مؤامرة هولدر . ان يتلقى تأكيدات خطية من القيادة العامة للقوات المسلحة ، بأنها ستتولى إبلاغ القيادة العامة للجيش بالموعد الذي يحدده امر هتلر بالهجوم على تشيكوسلوفاكيا قبل خمسة أيام على الأقل من تنفيذه وقد رد يودل ، انه بالنظر الى عدم استقرار حالة الطقس فإنه لن يستطيع ان يضمن اعطاء الموعد إلا قبل يومين . وكان هذا كافياً على أي حال للمتآمرين.

ولكنهم كانوا في حاجة الى تأكيدات من نوع آخر ، هذا اذا كانوا على أي حال على حق في افتراضهم ان بريطانيا وفرنسا ستعلنان الحرب على المانيا اذا قام هتلر بتنفيذ تصميمه على مهاجمة تشيكوسلوفاكيا . وتحقيقاً لهذا الغرض فقد قرروا ايفاد بعض الوكلاء الموثوقين الى لندن . لا ليكتشفوا ما ستفعله الحكومة البريطانية بل وليحاولوا اذا كان ضرورياً التأثير على قرارها بابلاغها ان هتلر قد قرر مهاجمة التشيكيين في تاريخ معين في الخريف ، وأن هيئة اركان الحرب التي تعرف موعد الهجوم تعارض فيه ، وهي على استعداد لاتخاذ اكثر الخطوات حسماً للحيلولة دونه هذا اذا ظلت بريطانيا صامدة امام هتلر حتى النهاية .

وكان اول مبعوث اوفده المتآمرون واختاره العقيد اوستر من رجال المخابرات هو ايوولدفون كلايست الذي وصل الى لندن في الثامن عشر من آب . وبعث السفير هندرسون من برلين ، وكان تواقاً لاعطاء هتلر كل ما يطلبه في تشيكوسلوفاكيا الى وزارة الخارجية البريطانية ينصحها بعدم استقبال فون

---

١ - محاكمات كبار مجرمي الحرب (٢) ص ٣٧٨ - ٣٧٩ .

كلايست لدى المراجع الرسمية [1] . لكن السير روبرت فانسيتارت كبير المستشارين الدبلوماتيين لوزارة الخارجية البريطانية ، وأحد الخصوم الأشداء في لندن لسياسة ترضية هتلر ، استقبل كلايست يوم وصوله كما قام ونستون تشرشل الذي كان لا يزال بعيداً عن السياسة الفعلية في بريطانيا باستقباله في اليوم التالي . وقد كرر كلايست للرجلين اللذين تأثرا برصانة الزائر وإخلاصه ، ما عُهد اليه ان ينقله مؤكداً ان هتلر قد حدد موعداً للعدوان على تشيكوسلوفاكيا وان الفرقاء الذين يعارض معظمهم خطته ، على استعداد للعمل ، ولكن قيام بريطانيا بتقديم أية ترضية جديدة لهتلر يعني إضعاف مركزهم . وقال إنه إذا أعلنت بريطانيا وفرنسا أنهما لن تقفا مكتوفتي الأيدي في الوقت الذي يقذف فيه هتلر بجيوشه على تشيكوسلوفاكيا ، وأنه إذا قام سياسي بريطاني بارز بإصدار تحذير صارم الى المانيا عن نتائج العدوان النازي ، فإن الفرقاء الألمان سيعملون بدورهم لوقف هتلر [2] .

وقدم تشرشل إلى كلايست رسالة طنانـــة ليحملها معه إلى المانيا لتقوية مركز رفاقه قال فيها :

« إنني واثق من أن عبور الجيوش الألمانية او الطائرات حدود تشيكوسلوفاكيا ، سيؤدي إلى تجـــدد الحرب الكونية . وإنني لواثق الآن كما كنت واثقاً في نهاية تموز عام ١٩١٤ ان بريطانيـــا ستمضي قدماً مع فرنسا ... وإني لأرجو أن لا تخطئوا في فهم هذه الحقيقة [3].

---

١ – تقول مذكرة من وثائق وزارة الخارجية الالمانية مؤرخة في السادس من آب، ان هندرسون قال في حفلة خاصة لبعض الحاضرين من الالمان « ان بريطانيا العظمى لن تفكر بالمجازفة ببحار واحد او طيار في سبيل نصرة تشيكوسلوفاكيا، وان أي حل معقول يمكن الاتفاق عليه طالما ان القوة ستستبعد من محاولة فرضه » – (وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٢) ص ٥٣٦).

٢ – وثائق وزارة الخارجية البريطانية – السلسلة الثالثة (٢) .

٣ – عاد كلايست إلى برلين في الثالث والعشرين من آب ، وعرض كتاب تشرشل على بيك وهولدر وهامرشتاين وكناريس واوستر وغيرهم من رجال المؤامرة. ويقول ويلر بنيت في كتابه « نقمة السلطان » في الصفحة ١٣ ؛ انه بناء على المعلومات الخاصة التي تلقاها بعد الحرب من

وقد حمل فانسيتارت تحذير كلايست محمل الجد مما حمله على ان يقدم تقريراً عنه على الفور إلى كل من رئيس وزراء بريطانيا ووزير الخارجية ، وعلى الرغم من أن تشمبرلين يقول في رسالة بعث بها إلى اللورد هاليفاكس أنه ميال إلى عدم تعليق أهمية كبيرة على ما يقوله كلايست . واضاف بأنه يشعر بأن من واجب بريطانيا أن لا تفعل شيئاً [١] ، وكل ما فعله أنه استدعى السفير هندرسون إلى برلين في ذيل موجة طاغية من الدعاية في الثامن والعشرين من آب ، وذلك للتشاور معه .

وقد أوعز إلى سفيره في برلين بأن يقوم بعملين ، أولهما توجيه تحذير حازم إلى هتلر وثانيهما أن يرتب بصورة سرية « اتصالاً شخصياً » بينه وبين الفوهرر ، ويقول هندرسون انه اقنع رئيس الوزراء بالعدول عن طلبه الأول [٢] . أما بالنسبة إلى الطلب الثاني فقد كان مستعداً كل الاستعداد لتنفيذه [٣] .

ولقد كانت هذه هي الخطوة الأولى نحو ميونيخ ونحو أعظم انتصار حققه هتلر دون سفك للدماء .

فابيان فون شلابريندورف ، طبع كاناريس صورتين عن الرسالة ، احداهما له والاخرى لبيك ، وان كلايست اخفى النسخة الاصلية في بيته الريفي في شميتزين في بوميرانيا . وقد عثرت عليها الغستابو هناك بعد محاولة اغتيال هتلر في ٢٠ تموز عام ١٩٤٤ ، وكانت سبباً في صدور حكم بالاعدام على كلايست من محكمة الشعب وقد نفذ في ١٦ نيسان ١٩٤٥ . وقد غدت محتويات رسالة تشرشل معروفة لدى السلطات النازية في وقت اسرع مما خيل الى المتآمرين. وقد عثرت على هذه المحتويات في مذكرة لوزارة الخارجية الالمانية يعتقد انها مقدمة في ٦ ايلول ١٩٣٨. وقد كتب عليها مايلي: « مقتطفات من رسالة من ونستون تشرشل الى شخص الماني » (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٢) ص ٧٠٦) .

١ ــ وثائق وزارة الخارجية البريطانية ـ السلسلة الثانية (٢) ص ٦٨٦ ـ ٦٨٧ .

٢ ــ نيفيل هندرسون ــ فشل بعثة ص ١٤٧ وص ١٥٠ .

٣ ــ كتب السفير الى اللورد هاليفاكس من برلين في الثامن عشر من تموز يقول : « اني لا اعتقد اعتقاداً صادقاً بأن اللحظة قد حانت للضغط على براغ.. واذا لم يكن في وسع بنيش ان يرضي هينلاين فانه لا يستطيع ارضاء اي زعيم سوديتي ... وعلينا ان نقف موقفاً حازماً مع التشيكيين » (وثائق وزارة الخارجية البريطانية ـ السلسلة الثالثة (١). ولعل مما لا يكاد يصدق ان هندرسون نفسه لم يكن يعرف في هذه الآونة ان هينلاين لم يكن إلا مجرد أداة في يد هتلر، وان الامر قد صدر اليه لزيادة الضغط الى الحد الذي لا يستطيع فيه بنيش ارضاء طلباته .

وقام المتآمرون جهلاً منهم بالمخطط الجديد للمستر تشمبرلين ، بمحاولة جديدة لتحذير الحكومة البريطانية . ففي الواحد والعشرين من آب بعث العقيد اوستر بمندوب عنه لإبلاغ الملحق العسكري البريطاني في برلين بعـزم هتلر على غزو تشيكوسلوفاكيا في نهاية شهر ايلول . وراح الموفد يقول للملحق البريطاني : « إذا ارغم هتلر عن طريق العمل الحازم في الخارج على العدول عن نواياه الراهنة في اللحظة الأخيرة ، فانه لن يتمكن من الصمود لهذه الضربة الموجعة » . . ومضى الرجل يقول . . . « أما إذا وصلت القضية إلى مرحلة الحرب فإن التدخل الفوري لفرنسا وانكلترا ، سيؤدي إلى انهيـــار العهد كله » . وقد بعث السير نيفيل هندرسون بهذا التحذير إلى لندن تنفيذاً لواجبه ولكنه وصفه « بأنـــه واضح التحيز مجرد دعاية ليس إلا » . وكان من الواضح أن « المتمنّتين » الموضوعتين على عيني السفير الساذج كانتا قد بلغتا حداً من الضخامة ، مع إزدياد الأزمة وتحرجها حال بينه وبين رؤية أي شيء سوى ما يقع أمامه بينهما .

وأحس الفريق هولدر أن رسائل المتآمرين لا تصل بصورة فعـــالة إلى البريطانيين ، فراح يرسل في الثاني من ايلول موفداً خاصاً ، وهو ضابط متقاعد يدعى المقدم هانز بوهيم – تيتلباخ إلى لندن ليتصل بوزارة الحرب البريطانية ودوائر المخابرات هناك . وعلى الرغم من أن المقـدم قـد اجتمع بعدد من الشخصيات المهمة في لندن ، إلا انه كما يبدو ، وطبقـــاً لرواية هولدر نفسه لم يستطع أن يؤثر كثيراً على هذه الشخصيات .

ولجأ المتآمرون أخيراً إلى استخدام وزارة الخارجية الألمانيـــة وسفارة لندن في محاولة يائسة وأخيرة لإقناع البريطانيين بالبقاء صامدين . فلقد كان ثيودور كوردت يشغل منصب مستشار السفارة والقائم بأعمالها . وكان شقيقه الأصغر اريك رئيساً لسكرتيري ريبنتروب في وزارة الخارجية . وكان الأخوان يتمتعان برعاية البارون فون وايزساكر ، وزير الدولة ، والدماغ المفكر لوزارة الخارجية ، وهو الرجل الذي طبل كثيراً بعد الحرب لما ادعاه من خصومة للنازية ، ولكنه ظل يخدم هتلر وريبنتروب حتى النهاية . ويبدو من الواضح طبقاً لوثائق وزارة الخارجية المصادرة انه كان في هذا الوقت يعارض

العدوان على تشيكوسلوفاكيا لنفس الأسباب التي دفعت القادة العسكريين إلى معارضته، ولعل اهمها أن هذا العدوان سيؤدي إلى حرب خاسرة . وتم بتدبير من ويزساكر وبعد التشاور مع بيك وهولدر وغويردلر ، الإتفاق على أن يقوم ثيودور كوردت باطلاق آخر تحـــذير إلى داونينغ ستريت . ولم تكن زيارة مستشار السفارة للسلطات الألمانية لتثير أي اشتباه أو شكوك .

وراح مستشار السفارة الألمانية مساءالخامس من ايلول ينقل إلى السير هوراس ويلسون المستشار الخاص لتشمبرلين ، معلومات على جانب كبـــير من الأهمية والخطورة مما دفع المستشار إلى أن يبعث به من الباب الخلفي الى داوننغ ستريت وإلى جناح وزير الخارجية البريطانية . وهناك أبلغ كوردت اللورد هاليفاكس بصراحة أن هتلر سيعلن التعبئة العامة في السادس عشر من ايلول ، وأن موعد الهجوم على تشيكوسلوفاكيا قد تحدد في الأول من تشرين الأول على ابعد تقدير ، وأن الجيش الألماني يستعد لتوجيه ضربته إلى هتلر في اللحظة التي يصدر فيها أمره الأخير بالهجوم ، وأن هذه الضربة ستنجح كل النجاح إذا صمدت بريطانيا وفرنسا في موقفها. وتلقى هاليفاكس تحـــذيراً آخر من زائره بأن هتلر في خطابه الختامي في مهرجان الحزب في نورمبرغ، في الثاني عشر من ايلول، سيلقي بقنبلة يفجرها عن تشيكوسلوفاكيا ، وأضاف أن هذه الفرصة ستكون مواتية لبريطانيا للوقوف موقفاً صامداً تجاه الديكتاتور [1] .

ولكن على الرغم من اتصالات كوردت الشخصية المستمرة بداونينغ ستريت. وعلى الرغم من صراحته في هذه القضية مع وزير الخارجية ، فإنه لم يكن على علم بالجهة التي تهب فيها رياح لندن . ولكنه سرعان ما فهم ذلك كما فهمه كل انسان آخر بعد يومين عندما صدرت صحيفة « التايمز » اللندنية تحمل المقال الافتتاحي المشهور الذي جاء فيه :

« قد يكون من الأفضل للحكومة التشيكوسلوفاكية أن

---

١ ـ يقدم اريك كوردت في كتابه « خارج نطاق العمليات المرسومة » رواية اخيه عن الاجتماع ص ٢٧٩ - ٢٨١ .

تدرسها إذا لم يكن من الخير لها أن لا تصرف النظر نهائياً عن المشروع الذي يلقى بعض التأييد عند بعض الجهات، لتحويل تشيكوسلوفاكيا إلى دولة متماسكة التجانس ، عن طريق فصل الأطراف التي تقيم فيها قوميات غريبة تمت من ناحيتها العنصرية إلى بلاد أُخرى ... وليس ثمة من شك في أن المزايا التي تجنيها تشيكوسلوفاكيا من التحول إلى دولة متجانسة العنصر، قد تفوق الاضرار الواضحة التي تلحق بها من جراء خسارتها لمناطق السوديت الألمانية الواقعة على الحدود » .

ولم يرد هناك ذكر في المقال الافتتاحي للحقيقة الواضحة وهي ان التشيكيين سيخسرون عن طريق تسليم بلاد السوديت إلى المانيا المناطق الجبلية الدفاعية في بوهيميا ، وخطهم الدفاعي المسمى « خط ماجينو » ، وتصبح بلادهم عاجزة عن الدفاع في وجه المانيا النازية .

وعلى الرغم من اسراع وزارة الخارجية البريطانية الى القول بأن المقال الإفتتاحي هذا لا يمثل رأي الحكومة ، ابرق كوردت إلى برلين في اليوم التالي يقول ان من المحتمل ان يكون هذا المقال « مستمداً من اقتراح وصل إلى هيئة تحرير الصحيفة من حاشية الوزراء » أهذا ممكن حقاً !!

ومن الصعب علينا في تلك السنوات التي اجتاحتها الأزمات والتي عقبت الحرب الكونية الثانية أن نذكر التوتر العصيب وغير المحتمل الذي سيطر على العواصم الأوروبية عندما اقترب مهرجان الحزب النازي في نورمبرغ الذي بدأ في السادس من ايلول من ذروته في الثاني عشر من الشهر ، إذ بات من المقرر أن يلقي هتلر خطابه الختامي ، واصبح منتظراً أن يعلن فيه للعالم بأسره ، قراره النهائي بصدد الحرب أو السلام مع تشيكوسلوفاكيا . وكنت في براغ ، محور الأزمة في ذلك الاسبوع ، وقد دهشت من الهدوء الذي ساد العاصمة التشيكية ، على الرغم من حملات العنف التي شرعها الألمان في بلاد السوديت ، وعلى الرغم من التهديدات الصادرة عن برلين ومن ضغط الحكومتين البريطانية والفرنسية

على حكومتها للإذعان ومن الخوف بأن تتخليا عنها ، ولا ريب في انها كانت اهدأ العواصم الأوروبية كلها ، من الناحية الظاهرية على الأقل .

وادرك الرئيس بنيش في الخامس من ايلول ، ضرورة القيام بخطوة حاسمة من جانبه ، لإنقاذ السلام ، فاستدعى الزعيمين السوديتيين كوندت وسيبيكونسكي إلى قصر هرادستين ، وطلب اليهما أن يضعا مطالبهما كلها كتابة ، قائلاً لهما انه سيقبل هذه الطلبات مهما كانت . وهتف كارل هيرمان فرانك في اليـــوم التالي يقول « إلهي ، لقد اعطونا كل شيء » . ولكن هذا كان آخر مـــا ينشده الساسة السوديت واسيادهم في برلين . ففي السابع من ايلول قطع هينلاين ، بناء على تعليمات برلين جميع المفاوضات مع الحكومة التشيكية ، وكانت الذريعة التي اتخذها وسيلة لذلك كاذبة ، إذ استند إلى عمليات بوليسية تشيكية مزعومة في موارافسكا – اوسترافا .

والقى غورنغ في العاشر من أيلول خطاباً حربياً في مهرجان نورمـــبرغ النازي ، قال فيه .. « تثير بقعة صغيرة في أوروبا الفزع الآن للجنس البشري .. فهذا العنصر الشقي من الأقزام (يعني التشيكيين) ينزل الاضطهاد بشعب مثقف . وتقف موسكو وراءه كما يقف القناع الدائم للشيطان اليهودي » . ولكن بنيش تجاهل في الخطاب الذي ألقاه في نفس اليوم ، خطاب غورنغ المليء بالذم والطعن ، وناشد بمنتهى الهدوء والانفة الجميع حُسْنَ النية والثقة المتبادلة والركون إلى السلام .

لكن التشيكيين كانوا متوتري الأعصاب في الحقيقة . فقد هرعت إلى الدكتور بنيش في قاعة دار الاذاعة بعد الخطاب الذي القاه ، ولاحظت ما في وجهه من عبوس وتقطيب ، وأدركت انه يعي تمام الوعي الموقف العصيب الذي يقفـه . وكانت محطة ويلسون للسكك الحديدية ، ومطار براغ مليئين باليهود ، اللذين يتدافعون بيأس للعثور على وسائل تنقلهم إلى أماكن أكثر أمنـــاً . وقامت السلطات ذلك اليوم بتوزيع أقنعة الغاز على الأهلين . وتناقلت الأنباء من باريس أن الفزع يسود الحكومة الفرنسية من احتمال الحرب ، كما أشارت برقيات لندن

إلى أن تشمبرلين كان يخطو خطوات يائسة لتقبل طلبات هتلر علــى حساب التشيكيين طبعاً .

وهكذا ظلت اوروبا بأسرها تنتظر خطاب هتلر من نورمبرغ في الثاني عشر من أيلول . وعلى الرغم من أن الخطاب كان مليئاً بالعنف والزهو،وكان يقطر بالسم والضغينة على الدولة التشيكية ولا سيما على الرئيس التشيكي ، فإن الفوهرر القى خطابه في حشد ساده الحماس الجنوني من النازيين المتعصبين الذين اجتمعوا في مدرج نورمبرغ الضخم في الليلة الأخيرة من مهرجان الحزب،لم يعلن الحرب على تشيكوسلوفاكيا . وهكذا احتفظ بسرية القرار الذي اتخذه ، إذ كلنا يعلم الآن من الوثائق الألمانية المصادرة انه كان عندما ألقى خطابه، قد حدد اليوم الأول من تشرين الأول موعداً للهجوم على الحدود التشيكوسلوفاكية . وكان كل ما طلبه في خطابه أن تضفي الحكومة التشيكية ، العدل والانصاف على الألمان السوديت . وقال انها إذا تقاعست عن ذلك فإن المانيا ستعرف كيف ترغمها عليه .

وترك خطاب هتلر اصداء مختلفة . فلقد أوحى لبلاد السوديت بالثورة التي سرعان مان ما اخمدتها الحكومة التشيكية في غضون يومين من القتال الوحشي، بواسطة القوات الضخمة التي أوفدتها والأحكام العرفية التي اعلنتهـــا . وانسل هينلاين عبر الحدود الى المانيا ، معلناً أن الحل الوحيد الذي بقي الآن هو فصل مناطق السوديت وضمها إلى المانيا .

وكان هذا هو الحل الذي بدأ يلقى التأييد في لندن كما سبق لنا أن رأينا ، وان كان مضيها في الدعوة اليه يتطلب الموافقة المسبقة من فرنسا . وعقد مجلس الوزراء الفرنسي ، اليوم الذي تلا خطـــاب هتلر ، أي في الثالث عشر من ايلول ، اجتماعاً طيلة النهار ، دون أن يصل إلى نتيجة إذ اختلف الوزراء فيما إذا كان واجب فرنسا أن تفي بالتزاماتها إلى تشيكوسلوفاكيا في حالة وقوع هجوم الماني ، وهو ما تعتقد باريس انه واقـــع لا محالة . واستدعي السفير البريطاني في باريس السير ايريك فيبس ، من دار « الاوبرا كوميك » تلك الليلة

ليعقد اجتماعاً عاجلاً مع رئيس الوزراء ديلادييه . وقد بعث هذا عن طريق السفير إلى تشمبرلين يرجوه أن يحاول فوراً عقـــد أحسن صفقة ممكنة مع الديكتاتور الألماني .

ولم يكن المستر تشمبرلين ، كما رأينا ، في حاجة إلى من يحثه ويشجعه . ففي الساعة الحادية عشرة من نفس الليلة بعث رئيس الوزراء البريطاني برسالة عاجلة الى هتلر تقول :

« بالنظر إلى تزايد الحرج في الوضع ، اقترح أن اسافر اليك على الفور لألقاك ، على أمل أن نحاول الوصول إلى حل سلمي . واني لأقترح أن اسافر بطريق الجو ، كما واني على استعداد للبدء بالرحلة غداً .

« أرجو ابلاغي عن اقرب موعد تستطيع أن تلقاني فيه ، وان تقترح مكان الاجتماع . اكون ممتناً إذا تلقيت منك رداً مبكراً [1].

وكان ثيودور كوردت القائم بالأعمال الالماني في لندن قد ابرق قبل ساعتين إلى برلين يقول ان السكرتير الصحفي لتشمبرلين قد ابلغه بأن رئيس الوزراء « على استعداد لدرس اقتراحات المانية شاملة ، تضم اقتراح الاستفتاء ، وان يشترك في وضعها موضع التنفيذ ، وان يدعو إلى قبولها بصورة علنية [2] » .

وهكذا بدأت عملية الاستسلام التي قدر لها ان تنتهي في ميونيخ .

تشمبرلين في برختسغادن

١٥ أيلول عام ١٩٣٨

هتف هتلر من صميم قلبه . عندما تلقى رسالة تشمبرلين ... « آه يا إلهي [3] » لقد اذهلته الرسالة ، وان كانت قد بعثت في فؤاده السرور ، إذ رأى ان الرجل

---

١ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٢) ص ٧٥٤ .

٢ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٢) ص ٧٥٤ .

٣ - إل. بي. نامير ـ مقدمة دبلوماسية ص ٣٥ .

الذي يمسك بمقدرات الامبراطورية البريطانية العظيمة ، يتوسل اليه ليسمح له بزيارته ، كما سيطر عليه الغرور من ان الرجل البالغ التاسعة والستين من عمره ، والذي لم يسبق له ان سافر بطريق الجـــو ، اصبح على استعداد ليقطع رحلة الساعات السبع في الجـو إلى برختسغادن الموجودة في ابعد مكان في المانيا عن بلاده. ولكن هتلر لم يكن من النوع السمح الذي يمكن ان يقترح مكاناً للاجتماع على نهر الراين ليقصر على زائره من الرحلة النصف .

ومهما كان حماس الانكليز[1] الذين خيل إليهم ان رئيس وزرائهم يعتزم القيام برحلته الطويلة ليحقق ما عجز المستر اسكويث والسير ادوارد غري عن تحقيقه في عام ١٩١٤ ، وهو تحذير المانيا من أن أي عدوان على دولة صغيرة ، سيرغم فرنسا وبريطانيا على محاربتها ، فإن هتلر قد أدرك ، طبقاً لما روته الوثائق الألمانية السرية ، وما دللت عليه الأحداث التالية ، بأن عمل تشمبرلين كان بمثابة هدية من السماء بعثها الله اليه . ولمـــا كان الفوهرر قد تلقى معلومات من سفارته في لندن تقول أن الزعيم البريطاني كان على استعداد لتبني « اقتراحات المانية واسعة » ، فقد احس إحساساً ثابتاً بأن زيارة تشمبرلين كانت تأكيداً لما اعتقده دائماً من أن بريطانيا وفرنسا لن تتدخلا دفاعاً عن تشيكوسلوفاكيا . ولم يكن رئيس الوزراء البريطاني قد مضى معه اكثر من ساعة عندما بات هذا التقدير للوضع حقيقة مؤكدة لديه .

ولقد كان هناك في البداية بعض الإشتباك الدبلوماتي ؛ وإن كان هتلر ، كما هي عادته دائماً [2]، قد أخذ زمام المبادرة في الحديث . فقد هبط تشمبرلين في

---

١ – رحب حتى اكثر النقاد قوة لسياسة تشمبرلين الخارجية في الصحف والبرلمان ترحيباً حاراً بالخطوة التي قرر رئيس الوزراء اتخاذها للسفر الى برختسغادن. وقد نظم شاعر التاج البريطاني جون مانسفيلد قصيدة من المديح عنوانها « نيفيل تشمبرلين » ونشرتها التايمز في السادس عشر من ايلول .

٢ ـ هناك مصادر كثيرة لما دار في هذه المقابلة. كفى نص التقرير الرسمي الذي وضعه المترجم بول شميدت ، وهو الشخص الوحيد الذي حضر المقابلة هو اقربها الى الصحة . (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٢) ص ٧٨٦ ـ ٧٩٨) .

مطار ميونيخ ظهر الخامس عشر من ايلول ، ثم نقلته سيارة مكشوفة إلى محطة السكة الحديدية ، حيث استقل قطاراً خاصاً في رحلة استغرقت ثلاث ساعات إلى برختسغادن. ولم تفت عيني الزائر القطارات المتعاقبة الملأى بالجنود التي كان يمر بها قطاره وهي متجهة إلى الناحية المضادة . ولم يكن هتلر في انتظار القطار في برختسغادن ، وإنما اكتفى باستقباله على قمة السلم في عش النسر ، حيث حيّا زائره البارز . وقد تذكر الترجمان الألماني ، الدكتور شميدت ، فيما بعد ، أن المطر بدأ يتساقط ، وان السماء ادلهمت بالسحب المعتمة التي غطت قمم الجبال . وكانت الساعة قد بلغت الآن الرابعة مساء ، وكان المستر تشمبرلين قد بدأ رحلته عند الفجر .

وبعد تناول الشاي ، صعد هتلر وتشمبرلين السلم إلى مكتبة هتلر في الطبقة الثانية من المنزل ، وهو نفس المكان الذي استقبل فيه الديكتاتور قبل سبعة شهور المستشار شوشنيغ النمسوي . ولم يسمح لريبنتروب بحضور المقابلة ، بناء على اقتراح من السفير هندرسون ، مما أثار وزير الخارجية المغرور ابلغ الإثارة ، وحمله في اليوم التالي على أن يرفض إعطاء نسخة من تسجيل شميدت لوقائع الحديث ، إلى رئيس الوزراء ، وهو عمل ينبو كثيراً على الذوق ، وقد حتّم على تشمبرلين أن يعتمد على ذاكرته في تسجيل ما دار بينه وبين هتلر .

بدأ هتلر الحديث ، كما ألف ان يبدأ جميع خطبه ، بسرد مفصل لكل ما حققه للشعب الألماني والسلام والتقارب الانكليزي - الألماني. وكانت هناك مشكلة واحدة ، كما قال ، عزم على حلها « بطريق أو بآخر » ، إنها مشكلة الملايين الثلاثة ، من الألمان في تشيكوسلوفاكيا الذين تحتم عودتهم إلى الرايخ[1] .

وهو لا يرغب - كما ذكرت تسجيلات شميدت للحديث - في ان يترك مجالاً للشك في تصميمه على عدم التسامح ، أمداً آخر ، في أن يترك لدولة صغيرة من

---

١ - لقد قبل تشمبرلين في حديثه مع هتلر وبيانه في مجلس العموم، هذا الاستعمال المضلل من هتلر لكلمة « العودة» ، ويبدو ان معلوماته عن التاريخ الالماني لم تكن واسعة . لقد كان الالمان السوديت خاضعين للنمسا ، لا لألمانيا .

الدرجة الثانية المجال في ان تعامل الرايخ القوي ، والذي تعود عراقته إلى أكثر من الف عام ،معاملة تنطوي على الازدراء... ..وقال انه في الخامسة والاربعين من عمره،وإذا قدر لألمانيا أن تخوض حرباً من أجل المشكلة التشيكوسلوفاكية ، فهو يود أن يقود بلاده في غمرة الأزمة وهو في ذروة رجولته ... وهو يأسف كل الأسف إذا كان لا بد من نشوب حرب كونية بسبب هذه المشكلة . لكن هذا الخطر ، ليس بقادر على أي حال على أن يقلل من تصميمه وعزيمته .. فهو سيخوض أي حرب ، حتى ولو كانت عالمية ، لتحقيق هدفـه . وفي وسع العالم أن يفعل ما يشاء ، أما هو فلن يتراجع خطوة واحدة .

ومن المعروف عن تشمبرلين ، الذي لم يترك له هتلر مجالاً للكلام ، أنه رجل كثير الأناة ، شديد الصبر ، ولكن هناك حدوداً للصبر ، لا يستطيع المرء أن يمضي إلى أبعد منها . فقد اضطر عندما وصل مضيفه إلى هذا الحد من خطابه إلى مقاطعته قائلاً : « وإذا كان الفوهرر مصمماً على تسوية هذه القضية بالقوة دون أن ينتظر حتى قيام مناقشة بيني وبينه ، فلماذا أراد مني ان ، تي إلى هنا ؟ إنني اشعر بأنني قد أضعت وقتي » .

ولم يكن الديكتاتور الألماني متعوداً على مثل هذه المقاطعات ، إذ لم يكن هناك ألماني واحد يجرؤ في هذا الوقت على أن يقاطعه ، ويبدو أن اعتراض تشمبرلين ترك أثره ، إذ هدأت ثائرة هتلر . وأعرب عن رأيه في إمكان الدخول في «أبحاث تتعلق بما إذا كان في الامكان الوصول إلى تسوية سلمية على أي حال». وراح بعد ذلك يقفز إلى إقتراحه ....

« هل توافق بريطانيا على فصل منطقة السوديت عن تشيكوسلوفاكيا أو لا توافق ؟ ...على أن يكون هذا الفصل قائماً على أساس حق تقرير المصير ... »

ولم يفاجأ تشمبرلين لهذا الاقتراح ، بل راح يعرب عن ارتياحه في « أنهما قد وصلا الآن إلى لباب الموضوع » وتقول رواية تشمبرلين عن الحديث ، وهي الرواية المستمدة من الذاكرة ، انه رد بأنه لا يستطيع أن يتعهد بشيء إلى

أن يكون قد استشار أعضاء وزارته والحكومة الفرنسية. أما رواية شميدت، وهي المنقولة من ملاحظاته التي دوّنها بطريق الاختزال، أثناء قيامه بدور الترجمة، فتقول ان تشمبرلين قد فاه بمثل هذا ولكنه أضاف إليه « إن في استطاعته أن يقول شخصياً بأنه يعترف من ناحية المبدأ بوجوب فصل مناطق السوديت .... وإنه يود أن يعود إلى إنكلترة، لينقل إلى الحكومة موقفه الشخصي هـــذا ويضمن موافقتها عليه ».

ونتجت عن هذا الإستسلام في برختسغادن جميع النتائج التالية.

ومن الواضح أن هذا الإستسلام لم يكن مفاجئـاً للألمان، بل كانوا يتوقعوه وكان هينلاين في هذه اللحظة التي يقع فيها اجتماع برختسغادن يخط رسالة سرية إلى هتلر، من مدينة إيغر، مؤرخة في الخامس عشر من ايلول، أي قبيـــل فراره عبر الحدود إلى ألمانيا ... وهذا بعض ما جاء فيها :

« يا زعيمي !

لقد ابلغت البعثة البريطانية أمس ـ بعثة رانسيمان ـ ان أساس المحادثات المقبلة، يجب أن يكون تحقيق الاتحاد مع الرايخ.

« ومن المحتمل أن يقترح تشمبرلين مثل هذا الاتحاد [1]».

وبعثت وزارة الخارجية الألمانية في اليوم التـالي، أي في السادس عشر من ايلول، برقية مكتومة إلى سفاراتها في واشنطن وعدة عواصم أخرى قالت فيهـــا :

« ابلغ الفوهرر تشمبرلين أمس تصميمه النهائي على وضع حـد بشكل أو بآخر للأوضـــاع التي لا تحتمل في بلاد السوديت خلال فترة قصيرة. ولم يعد ثمة مجال للبحث في الحـكم الذاتي للسوديت، بل يجب عودة المنطقة إلي المانيا. وقد ابدى تشمبرلين موافقته الشخصية. وهو يستشير الآن وزارته، كما يجري اتصـــالات مع باريس. وتم الإتفـــاق على عقد اجتماع قريب بـــين الفوهرر

١ ــ وثائق وزارة الخارجية الالمانيه (٢) ص ٨٠١.

وتشمبرلين [1] .

وتمكن تشمبرلين قبيل انتهاء الاجتماع من استخلاص وعد من الفوهرر بعدم اتخاذ أي إجراء عسكري قبل أن يعودا إلى الإجتماع والتشاور . وكان رئيس الوزراء البريطاني في هذه الفترة ، يثق ثقة كبيرة في وعود الفوهرر ، فلقد علق بعد يوم أو يومين في حديث خاص قائلاً : « وعلى الرغم مما رأيته في وجهه من صلابة وقسوة ، إلا أنني حملت الإنطباع ، بأن في وسع الإنسان ان يعتمد على هذا الرجل وعلى وعوده [2] » .

وبينما كان الزعيم البريطاني ، يعيش على هذه الاوهام المريحة ، مضى هتلر قدماً باستعداداته العسكرية والسياسية لغزو تشيكوسلوفاكيا . وراح العقيد يودل ، يعمل منتدباً من القيادة العامة للقوات المسلحة مع وزارة الدعاية فيما أسماه في يومياته « بالاستعدادات المشتركة لمتنفيذ ما قد يسمى بخرق من جانبنا للقانون الدولي » . وكان من المحتوم أن تشن حرب قاسية من جانب الألمان على الأقل ، وكان على غوبلز أن يبرر ما يصدر عن النازيين من تطرف . وقد تم وضع المخططات لأكاذيبه بصورة مفصلة [3] . وعهد هتلر في السابع عشر من ايلول إلى ضابط ركن من القيادة العامة للقوات المسلحة بمساعدة هينلاين الذي كان يعمل الآن من قصر دوندورف ، الواقع إلى الخارج من بايروث ، في تنظيم فيلق المتطوعين السوديت . وتقرر تسليح أفراد هذا الفيلق بالأسلحة النمسوية . وكانت أوامر الفوهرر اليهم تقضي بمواصلة « الإضطرابات والمصادمات » مع التشيكيين .

وصرف تشمبرلين اليوم الثامن عشر من ايلول، في اجتذاب أعضاء وزارته والفرنسيين إلى سياسته القائمة على التسليم بما يريده النازيون، بينما كان هتلر وقادته العسكريون مشغولين في أمور جد هامة وخطيرة . وتم إعداد البرنامج لقفز خمسة جيوش هي الثاني والثامن والعاشر والثاني عشر والرابع عشر تضم ستاً

---

١ ــ وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٢)ص ٨١٠ .

٢ ــ فيلينغ ــ حياة نيفيل تشمبرلين ص ٣٦٧ .

٣ ــ المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٧٩٩ .

وثلاثين فرقة بينها ثلاث فرق مدرعة. ووافق هتلر أيضاً على اختيار القادة لعشر فرق.
وقد ظل الفريق آدام، على الرغم من كل صخبه وضجيجه قائداً عاماً في الغرب.
ومن الغريب كل الغرابة، أن اثنين من المتآمرين قد استدعيا من حياة التقاعد،
وعهداليهما بقيادة جيشين من الجنود، فقد عين الفريق بيك قائداً للجيش الأول
والفريق فون هامر شتاين قائداً للجيش الرابع.

واستمرت الاستعدادات السياسيـــة كذلك لتوجيه الضربة القاضية إلى
تشيكوسلوفاكيا. وقد وجدت وثائق وزارة الخارجية الألمانية المصادرة ملأى
بالتقارير عن زيادة الضغط الألماني على المجر وبولندة للإشتراك في الغنائم. وأدخل
هتلر السلوفاكيين أيضاً في قائمة الحساب للإشتراك في تحريك «الطبخة»، إذ
راح هينلاين في العشرين من ايلول يحثهم على أن يصيغوا مطالبهم في الإستقـلال
الذ تي بشكل أكثر حدة. واستقبل هتلر في نفس اليوم ايمريدي رئيس وزراء
المجر، ووزير خارجيته كانيا، وأنبهما تأنيباً عنيفاً لما تبديه بودابست من تردد.
ويسرد تقرير في وزارة الخارجية تفاصيل ما دار في الاجتماع:

«انحى الفوهرر باللوم الشديد أولاً على السيدين المجريين للموقف
المتردد الذي تقفه حكومتهـــما وكان الفوهرر مصمماً على تسوية
المشكلة التشيكية حتى على حساب حرب عالمية. وكان مقتنعاً على
أي حال بأن انكلترا وفرنسا لن تتدخلا. ورأى أن هذه هي
الفرصة الأخيرة للمجر للتدخل. فان لم تتدخل فلن تكون في وضع
يمكنها من أن تقول كلمة واحدة دفاعاً عن المصالـح المجرية. وهو
يرى ان خير طريقة هي تحطيم تشيكوسلوفاكيا.» وقدم طلبين
إلى المجريين أولهما أن على المجر أن تقدم طلباً مباشراً لإجراء استفتاء
في المناطق التي تدعي بحقها فيها وثانيهما أن لا تضمن أيـــة حدود
جديدة مقترحة لتشيكوسلوفاكيا [1]».

ومهما حدث لتشمبرلين؛ أو مهما عمل، فلقـــد قرر هتلر، كما أوضـــح

١ - وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٢) ص ٨٦٣ - ٨٦٤.

للزعيمين المجريين ، ان لا يسمح حتى لتشيكوسلوفاكيا مهلة بالبقاء. أما بالنسبة إلى رئيس وزراء بريطانيا :

« لقد اعلن الفوهرر انه سيقدم الطلبات الألمانية الى تشمبرلين بصراحة تنطوي على الشراسة ، فهو يرى ان العمل العسكري سيضمن الحل المرضي الوحيد. وكان هناك خطر في أن يقبل التشيكيون جميع هذه الطلبات » .

وكان هذا الخطر هو الذي ظل يعذب الديكتاتور في كافة الاجتماعات اللاحقة التي عقدها مع رئيس الوزراء البريطاني السليم النية .

وراحت الحكومة البولندية بتحريض من برلين تطلب في الواحد والعشرين من ايلول من التشيكيين اجراء استفتاء في منطقة تيشين حيث توجد اقلية بولندية ضخمة ، وتنقل الجنود الى حدودها . وراحت الحكومة المجرية تحذو حذوها في اليوم التالي . وقام فيلق المتطوعين السوديت في ذلك اليوم ايضاً أي في الثاني والعشرين من ايلول ، تدعمه وحدات من الحرس النازي الالماني باحتلال مدينتي آخ وايغير التشيكيتين ، الواقعتين على الحدود والمندفعتين داخل الأرض الألمانية .

وكان الثاني والعشرون من ايلول في الحقيقة من الايام العصيبة في اوروبا كلها ، فلقد طار تشمبرلين في ذلك اليوم من جديد إلى المانيا للاجتماع بهتلر . وأرى لزاماً علي الآن ان اشير بايجاز الى ما فعله رئيس الوزراء في لندن في الفترة الواقعة بين الزيارتين .

عندما عاد تشمبرلين الى لندن ليلة السادس عشر من ايلول ، دعا الى اجتماع لمجلس الوزراء لاطلاع وزرائه على مطالب هتلر . وقد استدعي اللورد رانسيمان من براغ ، ليتقدم بتوصياته ، التي جاءت باعثة على الذهول . فلقد مضى في حماسه لترضية الالمان الى ابعد مما طلبه هتلر نفسه . إذ دعا إلى نقل المناطق التي يكون السوديت غالبية اهلها من ملكية تشيكوسلوفاكيا إلى ملكية المانيا دون اية حاجة إلى استفتاء . ولقد أوصى توصية شديدة بخنق كل نقد لألمانيا

في تشيكوسلوفاكيا سواء أصدر هذا النقد « عن أحزاب أو عن أفراد » بواسطة الاجراءات القانونية . وطالب بأن تقوم تشيكوسلوفاكيا ، على الرغم من حرمانها وفقاً لتوصياته من الحواجز الجبلية التي تحميها ومن الحصون المنيعة ، وعلى الرغم من بقائها عاجزة لا حول لها ولا طول ، « بتعديل علاقاتها الخارجية على نحو يؤكد لجاراتها أنها لن تهاجم بأي حال من الاحوال ولن تشترك في أية اعمال عدوانية ضدها ناجمة عن التزاماتها تجاه الدول الاخرى » . ولا يكاد المرء ان يصدق ،أن شخصاً كرانسيمان يشغل نفسه في مثل هذه الساعة بخطر العدوان من دولة تشيكوسلوفاكية مهشمة على المانيا النازية ، ولكن هذه التوصيات قد تركت أثراً عميقاً كما يبدو على الوزارة البريطانية ، وشددت من تصميم تشمبرلين على إرضاء مطالب هتلر [1] .

ووصل إلى لندن في الثامن عشر من أيلول ديلادييه رئيس وزراء فرنسا ، ووزير خارجيته جورج بونيه ، لاجراء مشاورات مع الوزارة البريطانية . ولم يدر أي تفكير في دعوة التشكيين إلى هذه المشاورات . ولما كان البريطانيون والفرنسيون تواقين إلى تجنب الحرب بأي ثمن ،فإنهم لم يضيعوا وقتاً للوصول إلى اتفاق تناول اقتراحات مشتركة يتحتم على التشيكيين قبولها . ونصت هذه الاقتراحات على وجوب تسليم جميع المناطق التي يؤلف السوديت فيها أغلبية تفوق نصف السكان إلى ألمانيا وذلك للتأكد من « الحفاظ على السلام والأمن وسلامة مصالح تشيكوسلوفاكيا الحيوية». وتوافق بريطانيا وفرنسا مقابل ذلك على الاشتراك في « ضمانة دولية للحدود الجديدة ... ضد أي عدوان

---

١ — على الرغم من ان النقاط الاساسية لتوصيات رانسيمان قد قدمت الى مجلس الوزراء البريطاني عشية السادس عشر من ايلول إلا ان التقرير نفسه لم يقدم بصورة رسمية إلا في الحادي والعشرين منه ولم ينشر إلا في الثامن والعشرين عندما حولته الأحداث التي وقعت الى مجرد تقرير ذي قيمة اقاديمية . ويشير ويلر بنيت الى ان بعض اجزاء التقرير توحي بالانطباع بأنها كتبت بعد الواحد والعشرين من ايلول. فعندما غادر رانسيمان مدينة براغ في صباح السادس عشر من ايلول ،لم يكن انسان واحد حتى ولا هتلر او اي من الزعماء السوديت ،يشتط في الطلب الى حد اقتراح تسليم اراضي السوديت الى المانيا دون أي استفتاء . (ويلر بنيت ، ميونيخ ص ١١١ - ١١٢ . يوجد نص تقرير رانسيمان في الكتاب البريطاني الابيض رقم ٧ : ٥٨ - ١) .

لا مبرر له » . ويستعاض بهذه الضمانة عن معاهدتي العون المتبادل المعقودتين بين تشيكوسلوفاكيا من ناحية وبين فرنسا وروسيا من الناحية الأخرى . وكان هذا الاتفاق مخرجاً سهلاً لفرنسا من التزاماتها ،ولذا فقد سارع الفرنسيون بقيادة بونيه الذي أثبتت الوقائع التاليـــة ، انه كان مصمماً على أن يبز تشمبرلين في محاولاته لترضية هتلر ، الى اغتنام هذه الفرصة . ثم جاء دور النفاق الرخيص . وراحت الحكومتان البريطانية والفرنسية تبعثان بمذكرة رسميـــة إلى تشيكوسلوفاكيا جاء فيها :

« تدرك الحكومتان الفرنسية والبريطانية عظم التضحيـــة المطلوبة على هذا النحو من جانب الحكومة التشيكوسلوفاكيـة في سبيل السلام . ولكن لما كانت قضية السلام هذه ، مشتركة بالنسبة الى أوروبا عامة وتشيكوسلوفاكيا خاصة ، فقد شعرت هاتان الدولتان بواجبها في ان تضعا بصراحة الشروط الاساسية اللازمة لضمانه » .

وكانت الدولتان على عجلة من امرهمـــا فالديكتاتور الألماني لا يستطيع الانتظار . ... وراحت المذكرة تقول :

«وترى الدولتان أن على رئيس وزراء بريطانيا أن يستأنف محادثاته مع الهر هتلر في موعد لا يتأخر عن يوم الاربعاء في الثاني والعشرين من ايلول أو في موعد يسبق ذلك اذا أمكن . ونحن نشعر والحالة هذه بضرورة تلقي ردكم في اسرع وقت ممكن [1] » .

وهكذا قدم الوزيران المفوضان البريطاني والفرنسي في براغ ظهر اليـــوم التاسع عشر من ايلول الى الحكومة التشيكية الاقتراحات الانكليزيـــة — الفرنسية المشتركة . وقد رفضت الحكومة التشيكية هذه الاقتراحات في اليوم التالي بمذكرة فيها الانفة والاعتزاز بالنفس ، وفيها الايضاح بشكل ينطوي على

---

١ — الكتاب الابيض البريطاني ٥٨٤٧ رقم(٢). وفي وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٢) ص ٨٣١ — ٨٣٢ .

التكهن بأن قبول هذه الاقتراحات سيضع تشيكوسلوفاكيا «ان عاجلاً وإن آجلاً تحت سيطرة المانيا المطلقة» . وبعد تذكير فرنسا بالتزاماتها التعاهدية وبنتائج الخضوع التشيكي في تعريض مركز فرنسا في اوروبا للخطـر ، راحت المذكرة الجوابية تقترح عرض قضية السوديت كلها على التحكيم ، طبقاً لنصوص المعاهدة الألمانية ـ التشيكية المعقودة في السادس عشر من تشرين الاول عام ١٩٢٥ [١] .

ولكن الحكومتين البريطانية والفرنسية لم تكونا في وضع يسمح لمزاجيهما بأن يقبلا تدخل القداسة التي تنطوي عليها المعاهدات في الخطة السياسية التي قررا السير عليها . ولم تكد المفوضيتان الانكليزية والفرنسية في براغ تتسلمـان رد الحكومة التشيكية في الساعة الخامسة من مساء العشرين من ايلول ، حتى راح السير باسيل نيوتن الوزير البريطاني المفوض يحذّر الدكتور كميل كروفتا وزير خارجية تشيكوسلوفاكيا من تمسك الحكومة التشيكية بهذا الموقف منذراً بأن هذا التمسك سيؤدي إلى عدول بريطانيا عن موقف الاهتمام بمصير تلك البلاد . وقـد اشرك المسيو دي لاكروا الوزير الفرنسي المفوض نفسه في هذا التحذير بالنيابـة عن حكومته .

وتلقت لندن وباريس في الوقت نفسه المذكرة التشيكيـة بشيء من الحنق واستدعى تشمبرلين وزارته «المصغرة» إلى جلسة عاجلة ، وأقيم اتصال هاتفي طيلة المساء مع باريس للتحدث إلى ديلادييه وبونيه . واتفق عـلى أن تقوم الحكومتان بفرض ضغط جديد على براغ ، كما اتفق على إبـلاغ الحكومـة التشيكية بأنها إذا أصرت على موقفها ، فإن عليها أن لا تنتظر عوناً من فرنسا وبريطانيا .

وأدرك الرئيس بنيش في هذا الوقت أن الأشخاص الذين كان يفترض وجود صداقتهم قد تخلوا عنه . وراح يبذل محاولة أخيرة ، لاستنفار فرنسا على الأقل لنجدته . فبعيد الساعة الثامنة من مسـاء العشرين من ايلول ، أوعز إلى وزير

١ ـ من الجدير بالملاحظة ان أياً من الحكومتين البريطانية والفرنسية لم تنشر نص المذكرة التشيكية عندما اصدرتا فيما بعد الوثائق التي حاولتا عن طريقها تبرير سياستيهما اللتين ادتا الى ميونيخ .

خارجيته الدكتور كروفتا بأن يوجه إلى الوزير الفرنسي لاكروا السؤال الحيوي التالي : « هل ستفي فرنسا بعهدها لتشيكوسلوفاكيا في حالة تعرضها لهجوم من المانيا أو لا ؟ » . وعندما أيقظ نيوتن ولاكروا الدكتور بنيش من نومه في الساعة الثانية والربع من صباح الواحد والعشرين من ايلول ، ليطلبا اليه سحب مذكرة الرفض ، وليعلنا اليه ، أنه إذا امتنع عن سحبها وعن قبول الاقتراحات الانكليزية ـ الفرنسية ، فإن على تشيكوسلوفاكيا أن تحارب المانيا وحدها ، طلب الرئيس التشيكي من الوزيرالفرنسي المفوض أن يقدم اليه هذا التبليغ خطياً . ومن المحتمل أن يكون الدكتور بنيش قد قرر في هذه اللحظة التسليم ، ولكنه أراد هذا التسجيل الخطي للتاريخ (١)

وقضى بنيش طيلة اليوم التالي ،أي الواحد والعشرين من ايلول في مشاورات مع اعضاء وزارته وزعماء حزبه ، ورجال القيادة العامة لجيشه وقد اجهده التعب والسهاد وتصور الخيانة والكارثة . وكان الجميع قد ابدوا شجاعة في مواجهة تهديدات العدو ،ولكنهم بدأوا في الانهيار أمام تخلي الاصدقاء والحلفاء عنهم . وانطلق سؤال ... ترى ما هو موقف روسيا ؟ وحدث أن القى لتفينوف وزير الخارجية السوفياتية خطاباً في ذلك اليوم في جنيف أكد فيه ان الاتحاد السوفياتي سيلتزم بمعاهدته مع تشيكوسلوفاكيا . واستدعى بنيش الوزير الروسي المفوض في براغ ، فأكد له هذا ما أعلنه وزير خارجيته . ولكن من سوء حظ التشيكيين أن الميثاق المعقود بينهم وبين روسيا ، ينص على أن يهرع السوفيات الى مساعدتهم شريطة ان تقدم فرنسا مثل هذه المساعدة . ولكن فرنسا قد تنصلت منها .

واستسلمت الحكومة التشيكية في ساعة متأخرة من بعد ظهر الواحد

---

١ ـ اعتقد ان خيانة بونيه في هذه الفترة ،اكثر شمولاً من ان يجري الحديث عنها في مثل هذا التاريخ الشامل لألمانيا. فلقد حاول اشياء كثيرة منها اقناع اعضاء الحكومتين الفرنسية والبريطانية بالأكذوبة القائلة بأن الحكومة التشيكية أرادت من الفرنسيين ان يقولوا بأنهم لن يحاربوا في سبيل تشيكوسلوفاكيا وذلك حتى يجدوا المبرر للاستسلام . (راجع كتاب « ميونيخ » لويلر بنيت وكتاب « ميونيخ من قبل ومن بعد »لهيربرت ريبكا ،وكتاب« حافرو قبر فرنسا» لبيرتيناكس) .

والعشرين من أيلول ، وقبلت الاقتراحات الانكليزية ــ الفرنسية . وصدر بلاغ حكومي رسمي يقول بلهجة تنطوي على المرارة والألم « لم يكن ثمة مجال للخيار فقد غدونا وحدنا في الميدان » . ورسم بنيش في حديث خاص ، الوضع بصورة اكثر ايجازاً فقال : « لقد خانونا بشكل وضيع » . واستقالت الحكومة التشيكية في اليوم التالي وقام الفريق جان سيردفي المفتش العام للجيش بتأليف حكومة جديدة للتركيز الوطني » .

تشمبرلين في غودسبرغ

٢٢ – ٢٣ ايلول

استحوذ القلق على تشمبرلين وهتلر عندما اجتمعا في مدينة غودسبرغ الصغيرة في حوض الراين بعد ظهر الثاني والعشرين من ايلول على الرغم من أن تشمبرلين قد حمل لهتلر كل ما طلبه عندما اجتمعا في برختسغادن قبل مدة قصيرة . فلقد هرع القائم بالأعمال الالماني في لندن بعد ان ودع رئيس الوزراء في المطار ، إلى مكتبه ليبرق إلى برلين قائلاً : « لقد غادرنا تشمبرلين وصحبه ، وقد خيم عليهم جو ثقيل من القلق .. وليس ثمة من شك في أن المعارضة آخذة في الازدياد لسياسة تشمبرلين » .

وكان هتلر في حالة عصبية عنيفة . ولقد كنت اجلس في صباح الثاني والعشرين من ايلول اتناول فطوري على شرفة فندق دريسين ، حيث تقرر ان تدور المباحثات ، عندما مر بي هتلر في طريقه الى شاطىء النهر ليرى يخته . وبدت في وجهه اختلاجة غريبة . إذ كان كلما خطا بعض خطوات، يرفع كتفه الأيمن بصورة عصبية ، بينما ترتفع ساقه اليسرى مع هذا الكتف . وكانت هناك بقع سوداء تظهر واضحة على جفنيه . وبدا لي ، كما دوّنت في يومياتي وكأنه على عتبة انهيار عصبي . وتمتم رفيقي الألماني قائلاً .. لقد غدا فاقد الاتزان ، وكان هذا الرفيق محرراً يزدري النازيين بصورة سرية . وراح يوضح ان هتلر

كان في حالة أقرب الى الجنون ، بالنسبة إلى التشكيين وذلك في غضون الايام القليلة الماضية ، حتى انه كان يفقد سيطرته على نفسه في اكثر من مناسبة ، قاذفاً بنفسه الى الارض يلوك طرف البساط بأسنانه . ومن هنا نشأ التعبير ...« آكل البسط » . وكنت قد سمعت هذا التعبير ، وقد ورد على ألسنة بعض المتهامسين ، في الليلة السابقة عندما كنت اتحدث الى بعض رجال الحزب في دريسين [1] .

وعندما وصل تشمبرلين الى غودسبرغ ، بدا في أروع حالاته على الرغم من تشاؤمه من المعارضة المتزايدة لسياساته في الوطن ، وراح يجتاز في السيارة التي وضعت تحت تصرفه الشوارع المزدانة بأعلام الصليب المعقوف «واليونيون جاك» ، الى المكان الذي أُعد لنزوله في فندق « بيترز هوف » وهو فندق كالقلعة يقوم على قمة «بيترزبرغ» على الضفة الثانية من «الراين» . وكان قد جاء ليحقق لهتلر كل ما طلبه في اجتماع برختسغادن بل وأكثر مما طلب . ولم يبق عليه الآن إلا أن يتفق معه على التفاصيل ، ولهذا السبب فقد استصحب معه بالاضافة الى السير هوراس ويلسون وويليام سترانغ ، والأخير من خبراء وزارة الخارجية البريطانية في شؤون اوروبا الشرقية السير ويليام مالكين رئيس الدائرة القانونية واعداد المعاهدات في وزارة الخارجية .

وعبر رئيس الوزراء نهر الراين في ساعة متأخرة من المساء ، في عبّارة الى فندق دريسين [2] ، حيث كان هتلر في انتظاره . وراح تشمبرلين في بداية الاجتماع على الأقل يتولى زمام الحديث . وبعد أن شرح رئيس الوزراء ما بذله من جهود قضى أكثر من ساعة في الحديث ، كما توحي الملاحظات المسهبة التي دونها الدكتور شميدت عن الاجتماع [3] ، وقد وصف في حديثه «المفاوضات المضنية»

---

١ ــ يوميات برلين — للمؤلف ص ١٣٧ .

٢ — انطلق هتلر من هذا الفندق نفسه ، الذي يديره الهر دريسين ، احد اخدانه القدامى في الحزب ليلة ٢٩ – ٣٠ حزيران ١٩٣٤ لقتل روهم وتنفيذ عملية التطهير الدامية . وكان هتلر يلجأ دائماً الى هذا الفندق كمكان للانزواء يستجمع فيه افكاره ويحزم امره .

٣ ــ اهم مصادر اجتماع غودسبرغ هي ما يلي : الملاحظات التي دونها شميدت ، وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٢) ص ٨٧٠ – ٨٧٩ و ٨٩٨ – ٩٠٨ ، كتاب شميدت ترجمان هتلر ص ٩٥ =

التي قام بها والتي مكنته من حمل الحكومات البريطانية والفرنسية والتشيكية على قبول طلبات الفوهرر . ثم أخذ يشرح بتفصيل وافٍ الوسائل التي يمكن اللجوء اليها لتنفيذها . وقد قبل نصيحة رانسيمان وبات على استعداد للرضى بانتقال ملكية بلاد السوديت الى المانيا دون أي استفتاء. أما بالنسبة الى المناطق المختلطة ، فيمكن تقرير مصيرها عن طريق لجنة تضم ثلاثة أعضاء ، أحدهم ألماني ، والثاني تشيكي ، والثالث من المحايدين .

وبدا كل شيء بسيطاً ومعقولاً ومنطقياً لرجل الأعمال البريطاني المحب للسلام الذي غدا رئيساً لوزراء بريطانيا . وتوقف عن الحديث وهو بادي الرضى عن نفسه ، كما ذكر شاهد عيان ، ينتظر رد فعل هتلر .

وقال هتلر يسأل ضيفه : « هل افهم من هذا أن الحكومات البريطانية والفرنسية والتشيكية قد قبلت بنقل اراضي السوديت من تشيكوسلوفاكيا الى المانيا ؟ » [1]. ولقد روى تشمبرلين فيما بعد انه ذهل من ضخامة التنازلات التي قدمت اليه بمثل هذه السرعة .

وقال رئيس الوزراء البريطاني وهو يبتسم ... أجل .

وقال هتلر ... انني آسف جداً فبعد احداث الايام الاخيرة لم يعد لهذه الخطة اي جدوى .

ويروي شميدت أن تشمبرلين جلس ذاهلاً . وتضرج وجهه الذي يشبه وجه

= ١٠٢ ، وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٢) ص ٨٨٧ - ٨٩٢ ،وثائق وزارة الخارجية البريطانية - الحلقة الثانية . ص ٤٦٣ - ٤٧٣ ، ٤٩٩ - ٥٠٨ ،وكتاب «فشل بعثة» لهندرسون ص ١٥٦ - ١٦٢ .

١ - عرف هتلر ان التشيكيين قد قبلوا الاقتراحات الانكليزية الفرنسية.وقد سجل يودل في يومياته انه في الساعة الحادية عشرة والنصف من صباح ٢١ ايلول ، اي قبل وصول تشمبرلين الى غودسبرغ بيوم واحد ، تلقى هاتفاً من مرافق الفوهرر يقول ان هتلر تلقى انباء تقول أن براغ قد وافقت دون قيد او شرط . وفي الساعة ٥ : ١٢٠، سجل يودل ،ما يلي «صدر الأمر الى رؤساء الدوائر بمواصلة الاستعدادات للعملية الخضراء مع الاستعداد لكل امكانيات التغلغل السلمي»(المؤامرة النازية والعدوان(٤)ص ٣٦٧)،ومن المحتمل على اي حال ان لا يكون هتلر قد عرف بالشروط التي قبلها التشيكيون .

« البوم » بحمرة الغضب والدهشة . ولكن هذه الحمرة لم تكن حمرة السخط على أن هتلر قد خدعه ، وأنه كأي « بلطجي » عادي ألف الابتزاز بالتهديد ، قد رفع مطالبه الآن بعد ان قبلت مطالبـه الأولى . وقد شرح رئيس الوزراء مشاعره في هذه اللحظة في تقرير قدمه الى مجلس العموم بعد بضعة ايام قال فيه :

« أنا لا اريد من المجلس ان يتصور بأن هتلر قد خدعني عامداً متعمداً ، فأنا لا اعتقد بصحة ذلك لحظة واحدة . أما بالنسبة إلي فقد توقعت عندما عدت الى غودسبرغ أن ابحث معه الاقتراحات التي حملتها معي . وقد اصبت بصدمة عنيفة عندما قيل لي أن هذه الاقتراحات باتت غير مقبولة » .

وهكذا رأى تشمبرلين ان صرح السلام الذي « أجهد نفسه » في بنائه على حساب التشيكيين قد انهار كما ينهار بيت من الورق . ولذا فقد اصيب كما قال لهتلر « بخيبة الأمل والدهشة . » وكان في وسعه ان يقول ان الفوهرر قد حصل منه على كل ما طلبه .

وقد غامر تشمبرلين في سبيل تحقيق ذلك بكل مستقبله السياسي . . . وقد اتهمته بعض الجهات في بريطانيا العظمى بأنه باع تشيكوسلوفاكيا وخانها ، وانه استسلم للديكتاتورية ، وعندمـا غادر انكلترة في ذلك اليـــوم انطلقت الأصوات ساخرة منه .

ولكن الفوهرر لم يتأثر بحالة رئيس الوزراء الشخصية . فمن الضروري أن تحتل المانيا منطقة السوديت فوراً . ومن الضروري أن تحل المشكلة « حلاً كاملاً ونهائياً قبل الاول من تشرين الاول على أكثر تقدير » . وكانت هناك خريطـة جاهزة توضح المناطق التي يجب تسليمها فوراً .

وهكذا اكتظ عقل رئيس الوزراء البريطاني كما ذكر لأعضاء مجلس العموم فيما بعد ، بالأفكار السيئة ، وانسحب عبر نهر الراين « ليدرس ما يتحتم عليـه عمله ». ولم يكن ثمة كبير أمل في ذلك المساء حتى انه عندما استشار عن طريق الهاتف اعضاء وزارته تلك الليلة ، وكذلك اعضاء الحكومة الفرنسية ، اتفق

على أن تقوم لندن وباريس بابلاغ الحكومة التشيكية في اليوم التالي بأن ليس في وسعها « ان تواصلا حمل مسؤولية نصحها بعدم اعلان التعبئة العامة [1] » .

وهتف الفريق كايتل في الساعة السابعة والثلث من ذلك المساء الى قيادة الجيش العامة يقول: «لا نستطيع حتى الآن تحديد موعد الغزو. واصلوا الاستعداد طبق الخطة المرسومة . اذا قدر للعملية الخضراء ان تقع فلن يكون ذلك قبل الثلاثين من ايلول . أما اذا وقعت في موعد اقرب، فانها ستكون مرتجلة في مثل هذه الحالة » [2] .

وهكذا وجد هتلر نفسه في ورطة حرجة . فعلى الرغم من جهل تشمبراين بالحقيقة كان الفوهرر يهدف كما ظهر من التوجيه الذي بعث به الى القيادة العامة للقوات المسلحة بعد ازمة ايار الى « تدمير تشيكوسلوفاكيا بالعمل العسكري المباشر » . ولا يعني قبول المشروع الانكليزي - الفرنسي ، الذي وافق عليه التشيكيون ، برمين متذمرين ، بمجرد حصول هتلر على ما يريده ضم السوديت الألمان الى بلاده ، بل يعني ايضاً تدمير الدولة التشيكية تدميراً فعلياً ، لا سيما وانه سيترك الدولة التشيكية عزلاء من كل وسائل الدفاع. ولكن هذه الاهداف لم تتحقق عن طريق العمل العسكري ، وكان الفوهرر عازماً لا على اذلال الدكتور بنيش والحكومة التشيكية ، لما ارتكباه من اساءة له في شهر ايار فحسب ، بل وعلى الكشف عن جبن الدولتين الغربيتين وخورهما أيضاً . ولهذا السبب وحده على الاقل ، كان من الضروري أن يتم الاحتلال بطريقة عسكرية . وقد يكون هذا الاحتلال دون أي سفك للدماء كما حدث في النمسا ، ولكنه احتلال عسكري على أي حال . فمن الواجب ان يثأر من تلك الدولة التشيكية الحديثة النعمة وينتقم منها .

ولم يدر أي اتصال آخر بين الرجلين في تلك الليلة . وهكذا ناما على المشكلة ، وعندما افاق تشمبرلين في الصباح التالي ، واخذ يذرع شرفة الجناح

---

١ - بدأت التعبئة العامة التشيكية فعلاً في العاشرة والنصف من مساء الثالث والعشرين من ايلول.

٢ - المؤامرة النازية والعدوان (٤) ص ٣٦٧ .

الذي يقيم فيه والمطلة على نهر الراين ، طولاً وعرضاً ، جلس بعـــد أن تناول افطاره ، يسطر رسالة الى هتلر ، يقول فيها انه سيقدم طلبات المانيا الجديدة الى التشيكيين وان كان غير واثق من قبولهم لهـــا . وهو على ثقة من ان التشيكيين سيعارضون في الحقيقة ، في أي احتلال فوري من جانب القوات الألمانية . ولكنه على استعداد لأن يقترح على براغ ، طالما أن جميع الفرقـــاء قد وافقوا على نقل مناطق السوديت الى المانيا ، بأن يتولى السوديت انفسهم الاشراف على الأمن والنظام في منطقتهم الى أن يتم تسليمها الى الرايخ .

ولكن هتلر لن يقبل بمثل هذا الحل الوسط . وبعد أن جعل رئيس الوزراء ينتظر معظم ساعات النهار ، راح يرد عليه بمذكرة مقذعة وناطقة بالمرارة مكرراً شكاواه من مساوىء التشيكيين وما اقترفوه في حق الألمان ، ومجدداً رفضه لأي تعديل في موقفه ، ومتوصلاً الى النتيجة القائـــلة « بأن الحرب غدت أمراً لا مناص منه » . وكان رد تشمبرلين قصيراً ، فقد طلب من هتلر ، أن يقدم اليه طلباته خطياً مشفوعة بخريطة ، وتعهد بأن يبعث بها « كوسيط » الى براغ . وانتهى من رسالته قائلاً : « لا اعتقد أن في وسعي أن اؤدي أية خدمة أخرى هنا . ولذا فإنني سأعود الى انكلترا » .

ولكنه قبل أن يعود جاء مرة ثانية الى فندق دريسين ليجتمع بهتلر للمرة الأخيرة . وقد بدأ هذا الاجتماع في الساعة العاشرة والنصف من مساء الثالث والعشرين من أيلول . وقدم هتلر طلباته في شكل مذكرة ، وأرفقها بخريطة . ووجد تشمبرلين نفسه يواجه حداً زمنياً جديداً . فعلى التشيكيين أن يبدأوا بالجلاء عن المنطقة في الساعة الثامنة من صباح السادس والعشرين من أيلول - أي بعد يومين — وأن يكملوه قبل الثامن والعشرين .

وراح تشمبرلين يهتف قائـــلاً ... « ولكن هذا لا يعدو أن يكون انذاراً نهائياً » ورد هتلر ... « لا انه ليس بإنذار » . وعندما قال تشمبرلين ان كلمة « إملاء » الألمانيـــة تنطبق على الوضع رد هتلر قائـــلا : « كلا ، انه ليس املاء ابداً . انظر لقد استعملت في الوثيقة عبارة «مذكرة» .

ودخل مرافق عسكري في هذه اللحظة يحمل الى الفوهرر رسالة عاجلة . فتطلع اليها ثم دفع بها الى شميدت ترجمانه قائلاً : « اقرأ هذه للمستر تشمبرلين» .

وقرأها شميدت . « كان بنيش قد أذاع قبل قليل اعلان التعبئة العامة في تشيكوسلوفاكيا » .

وساد الغرفة كما ذكر شميدت فيما بعد صمت مطبق ... ثم راح هتلر يتحدث وقال : « والآن ، لقد تقرر كل شيء بالطبع . فالتشيكيون لا يريدون أن يسلموا المانيا أية منطقة من البلاد » .

ويروي شميدت ايضاً ، أن تشمبرلين خالفه رأيه هذا . ودار بين الرجلين في الحقيقة حديث عاصف .

وقال هتلر : لقد كان التشيكيون البادئين بالتعبئة ، ولكن تشمبرلين اعترض على هذا القول مؤكداً أن المانيا كانت البادئة ... ونفى الفوهرر أن تكون المانيا قد عبأت قواتها .

واستمر الحديث على هذا النحو حتى الساعات الأولى من الصباح . واخيراً سأل تشمبرلين ، إذا كانت هذه المذكرة « هي كلمة هتلر الاخيرة فعلاً ؟» ، فرد هتلر بأنها الكلمة الاخيرة .

وقال رئيس الوزراء ، انه لم يعد ثمة جدوى من الاستمرار في المحادثات . لقد بذل وسعه ، ولكن جهوده منيت بالفشل . وها هو يقرر العودة ، وفؤاده مفعم بالأسى ، لأن الآمال التي حملها عندما جاء إلى المانيا قد انهارت .

ولكن الديكتاتور الألماني لم يرغب في ابتعاد تشمبرلين عن «الطعم» . وهكذا فقد رد عارضاً « تنازلاً واحداً » إذ قال ... « إنك ولا ريب أحد الرجال القلائل الذين اتساهل معهم على النحو الذي سأذكره الآن . انني على استعداد لتحديد موعد واحد للجلاء التشيكي ، وهو الأول من تشرين الأول ، إذا كان هذا التحديد يسهل عليك مهمتك » . والتقط قلماً ، وغير به الموعد بنفسه . وبالطبع لم يكن هذا تنازلاً . إذ أن الاول من تشرين الأول هو موعد الغزو [1] .

---

١ ـ طلبت المذكرة سحب جميع القوات التشيكية المسلحة بما في ضمنها الشرطة ، قبل الاول من =

ولكن يبدو أن هذا التنازل أثر على رئيس الوزراء . إذ سجل شميدت أنه قال : « إنني أُقدر تماماً موقف الفوهرر من هذه النقطة » . ولكنه أضاف بأنه ليس في وضع يمكنه من قبول الإقتراحات أو رفضها ، وأنه سيقوم بنقلها على أي حال .

لكن الجليد قد تحطم كما يقولون. وعندما انفض الاجتماع في الساعة الواحدة والنصف صباحاً ، بدأ الرجلان ، رغم كل ما حدث ، قريبين من النـــاحية الشخصية لبعضهما ، أكثر من أي وقت مضى منذ اجتمعا لأول مرة . ورحت أرقب الرجلين من نقطة مواتية ، إذ أقمت في غرفة البواب « استديو » مؤقتاً للإذاعة ، وهما يودعان بعضهما على باب الفندق ، ودهشت من هذا الود الشخصي القائم بينهما. ودوّن شميدت بالطبع الكلمات التي تبادلاها والتي لم استطع سماعها.

« وودع تشمبرلين الفوهرر وداعاً حاراً . وقال له أنه يحس بقيام علاقة من الثقة بينه وبين الفوهرر نتيجة المحادثات التي دارت في الأيام القليلة الماضية . . وأكد أنه لم يتوقف عن الايمان بإمكان التغلب على الأزمة العصيبة الراهنة. وأضاف ان مما يسره غاية السرور العودة إلى البحث معه في المشاكل الأخرى التي ما زالت معلقة ، بنفس الروح » .

« وقد شكر الفوهرر المستر تشمبرلين ما قاله ، وأكد له انه يحمل نفس آماله . وعاد يكرر ما سبق له ان قاله من أن المشكلة التشيكية هي آخر مطلب اقليمي له في أوروبا » .

ويبدو أن هذا التخلي عن فكرة اغتصاب أية أراض أُخرى قد أثرت على

= تشرين الاول من منطقة واسعة صبغت باللون الأحمر على الخريطة. كما طلبت إجراء استفتاء لتقرير المصير في مناطق اخرى اشير اليها باللون الأخضر . ونصت المذكرة على وجوب بقاء كافة الأماكن العسكرية في المناطق التي سيجلى عنها سليمة ، وكذلك على تسليم جميع وسائل المواصلات والسكك الحديدية الى الالمان سليمة ، وعلى عدم نقل اية مواد غذائية او سلع او ماشية او مواد اولية من المنطقة (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٢) ص ٩٠٨ - ٩١٠ واشترطت المذكرة عدم السماح لمئات الالوف من التشيكيين في بلاد السوديت بنقل امتعتهم البيتية او مواشيهم عند نزوحهم الى تشيكوسلوفاكيا .

رئيس الوزراء أيضاً ، إذ أنه في تقريره التالي إلى مجلس العموم أكد أن هتلر قد تقدم بهذا الوعد بمنتهى الجدية والصدق .

وعندما وصل تشمبرلين إلى فندقه حوالي الساعة الثانية صباحاً ، سأله أحد الصحفيين ... « هل الوضع يائس يا سيدي ؟ »

فرد رئيس الوزراء « لا أود أن أقول ذلك . فـــالموقف يعتمد الآن على التشيكيين »[1].

ولم يخطر بباله ان يقول ، ان الموقف يعتمد على الألمان ايضاً بمطالبهم التي تنطوي على الغلو .

ولم يكد رئيس الوزراء يعود إلى لندن في الرابع والعشرين مـن ايلول ، حتى أخذ يحاول القيام بما سبق له التأكيد لهتلر بأنه لن يفعله ، وهو اقنـــاع الوزارة البريطانية بقبول مطالب المانيا . ولكنه وجد الآن معـــارضة لم يكن يتوقعها ، فقد عارضه دف كوبر وزير البحرية معارضة عنيدة. ومن الغريب ان اللورد هاليفاكس قد وقف نفس الموقف ايضاً ، ولكن مع شيء من التردد . وعجز تشمبرلين عن اقناع اعضاء وزارته برأيه ، كما عجز عن اقنـاع الحكومة الفرنسية التي رفضت في الرابع والعشرين مذكرة غودسبرغ ، واعلنت التعبئة الجزئية في نفس اليوم .

وعندما وصل الوزراء الفرنسيون الى لندن برئاسة ديلادييه رئيس الوزراء يوم الأحد في الخامس والعشرين من ايلول، تلقت الحكومتان الرفض الرسمي من الحكومة التشيكية لاقتراحات غودسبرغ[2]. ولم يكن ثمة من سبيل للفرنسيين إلا ان يؤكدوا لتشيكوسلوفاكيا بأنهم سيحافظون على تعهدهم وسيمضون إلى مساعدتها اذا هوجمت . ولكنهم أرادوا الاطمئنان أولاً إلى موقف بريطانيا. واخيراً وجد تشمبرلين نفسه محصوراً في زاوية ، فوافق على ابلاغ هتلر ، بأن بريطانيا ستجد

---

١ ـ التايمز اللندنية عدد ٢٤ ايلول ١٩٣٨ .

٢ ـ كان الرد التشيكي مؤثراً وينطوي على شيء من التنبؤ. فقد ذكر أن اقتراحات غودسبرغ تحرم تشيكوسلوفاكيا من كل ضمانة لسلامتها الوطنية. (الكتاب البريطاني الابيض ٥٨٤٧ . رقم (٧).

نفسها مضطرة لمساعدة فرنسا ، في حالة اشتباكها في حرب مع المانيـــا نتيجة التزاماتها التعاهدية للتشيكيين .

واراد تشمبرلين أولاً التقدم بنداء اخير الى الديكتاتور الألماني . وكان من المقرر ان يلقي هتلر خطاباً في الميدان الرياضي في برلين في السادس والعشرين من ايلول . ورغبة منه في اقناع هتلر بألا يحرق كافة جسوره ، أوفد في السادس والعشرين من ايلول مساعده المخلص السير هوراس ويلسون إلى برلين على متن طائرة خاصة تحمل رسالة شخصية منه إلى هتلر .

وغرق الألمان في جو من الكآبة والوجوم بعد سفر تشمبرلين من دريسين في الساعات الأولى من الرابع والعشرين من أيلول . فقد بدا للجميع أنهم أصبحوا على شفير الحرب وكان بعضهم على الأقل لا يحب خوضها . وقد تـــأخرت في الفندق بعض الوقت حيث تناولت عشاء متأخراً . ورأيت غورنغ وغوبلز وريبنتروب والفريق كايتل وبعض الرجال الآخرين الأقل شأنـــاً يقفون وقد خاضوا في حديث جدي . ورأيتهم ذاهلين تقريباً من توقع الحرب .

وعندما عدت الى برلين في ساعة متأخرة من ذلك اليوم ، وجدت أن الآمال قد عـــادت إلى الإنتعاش . وكان الاحساس الذي يسود الولهمشتراسة (مقر وزارة الخارجية الألمانية) أن تشمبرلين بوصفه رئيساً لوزراء بريطانيا لا بد وأن يكون مؤيداً لاقتراحات هتلر ، طالما أنه وافق على نقلها إلى براغ . ولقد رأينا أن هذا الإفتراض كان صحيحاً .

وشهدت برلين في الخامس والعشرين من ايلول يوماً رائعاً من أيام الصيف التي تشبه أيامه في الهند ، فقد كان النهار دافئاً ومشمساً ، ولما كانت هذه هي آخر عطلة اسبوع تمتاز بمثل هذا الطقس في ذلك الخريف ، فإن أكثر من نصف سكان العاصمة مضوا إلى البحيرات والغابات التي تحيط بالعاصمة . وعلى الرغم من أن الأنباء قد تناقلت ثورة هتلر على رفض كل من باريس ولندن وبراغ لانـذار غودسبرغ ، إلا أنه لم يكن ثمة شعور لوجود أزمة كبيرة ، ولا إحساس بحمى الحرب في برلين . وقد سجلت في يومياتي في ذلك المساء ما نصه : « من الصعب

على المرء أن يصدق أن الحرب واقعة» [1]

وكان هناك تبدل نحو الأسوأ في يوم الاثنين الذي تلا عطلة نهاية الأسبوع. فقد وصل إلى دار المستشارية في الساعة الخامسة مساء، السير هوراس ويلسون يرافقه السفير هندرسون وإيفون كيركباتريك السكرتير الأول في السفارة البريطانية يحملون رسالة تشمبرلين [2]. وقد وجدوا هتلر في حالة مزاجية سيئة. إلا أنه كان على ما يبدو يحاول أن يعد نفسه لمستوى لائق لخطاب الميدان الرياضي الذي كان سيلقيه بعد ثلاث ساعات.

وعندما شرع الدكتور شميدت في ترجمة الرسالة التي بينت أن الحكومة التشيكية قد أبلغت رئيس الوزراء، أن مذكرة غودسبرغ «مرفوضة كل الرفض»، تماماً كما كان قد توقع أثناء محادثاتهما في غودسبرغ، قفز هتلر فجأة صارخاً «ليس ثمة من منطق في استمرار التفاوض»، واتجه نحو الباب [3].

ويقول المترجم الألماني أن المنظر كان مؤلماً، «فلأول مرة ولعلها المرة الوحيدة، رأيت هتلر، وقد فقد عقله». وروى البريطانيون الحاضرون أن الفوهرر عاد فوراً إلى مقعده، مواصلاً مقاطعته لتلاوة الرسالة بالهتاف قائلاً... «ان الألمان يعاملون الآن وكأنهم زنوج ... حسناً سأفعل بتشيكوسلوفاكيا ما أريد في الأول من تشرين الأول وإذا كانت فرنسا وانكلترا ستقرران الحرب... فلتفعلا ذلك ... ولن تهمني حربهما قيد شعرة».

وكان تشمبرلين قد اقترح في رسالته أن يعقد ممثلون عن ألمانيا وتشيكوسلوفاكيا نظراً لاستعداد الأخيرة لاعطاء هتلر ما يريد من المناطق السوديتية، اجتماعاً في أقرب وقت ممكن ليقرروا «عن طريق الاتفاق الطريقة التي سيتم التسليم

---

١ - سارع المراسلون الصحفيون البريطانيون والفرنسيون ورئيس مراسلي النيويورك تايمس في اوروبا وهو انكليزي الجنسيه الى مغادرة المانيا بعد انتهاء محادثات غودسبرغ، الى الحدود الفرنسية والبلجيكية والهولندية، اذ انهم جميعاً لم يرغبوا في ان يعتقلوا في حالة نشوب الحرب.

٢ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٢) ص ٩٩٤ - ٩٩٥.

٣ - ترجمان هتلر - الدكتور شميدت ص ١٠٢ - ١٠٣. ووثائق وزارة الخارجيه البريطانية الحلقة الثالثة (٢) رقم ١ ص ١١٨.

فيها » . وأضاف انه يرغب في اشراك الممثلين البريطانيين في هـذا الاجتماع . وكان رد هتلر أنه على استعداد للتفاوض في التفـــاصيل اذا كان التشيكيون يقبلون سلفاً بمذكرة غودسبرغ (التي كانوا قد رفضوها) ، واذا كانوا يوافقون على أن يحتل الألمان اراضي السوديت في الأول من تشرين الأول . وأضاف أنه يريد جواباً بالايجاب في غضون اربع واربعين ساعة اي قبل الثـــانية من مساء الثامن والعشرين من ايلول .

واحرق هتلر في تلك الليلة جميع جسوره ، أو هكذا بدا لنـــا نحن الذين اصغينا إلى اندفاعه الجنوني في الميدان الرياضي المكتظ في برلين . فلقـــد راح يصرخ ويزعق في أسوأ نوبة رأيته فيها في حياتي، ويوجه اقذاع السباب والشتائم المسمومة إلى « الهر بنيش » ، قائلاً أن مستقبل السلام أو الحرب متوقف الآن عـــلى الرئيس التشيكي ، ومؤكداً انه سيحتل اراضي السوديت في الأول من تشرين الأول مهما كانت النتائج ، واندفع مع تيار الكلمات الغاضبة التي تنطلق من فيه ، وتأثر بالهتافات الداوية التي واجهته الجماهير بها ، ومع ذلك فقـــد احتفظ بدهائه ليقدم « طعماً » جديداً إلى رئيس وزراء بريطانيا ، إذ وجـــه اليه الشكر على ما بذله من جهد لاحلال السلام ، ثم عاد يؤكد أن هذه هي آخر مطالبه الإقليمية في اوروبا ، ثم تمتم بازدراء قائلاً : « لا نريد أياً من التشيكيين في بلادنا » .

وجلست طيلة الفترة التي القى فيها هتلر خطابه في شرفة تعلو المكان الذي وقف فيه ، محاولاً دون أي نجاح يذكر ، أن اذيع ترجمة فورية لكلمـــاته . ودوّنت في يومياتي تلك الليلة ما نصه :

« بدا لي الليلة لأول مرة طيلة السنوات العديدة التي عرفته فيها ، وكأنه قد فقد سيطرته على اعصابه تماماً . وعندما انتهى من خطـــابه ، واقتعد مجلسه ، قفز غوبلز ليصرخ في مكبر الصوت ... « نحن واثقون من شيء واحـد ، وهو ان عام ١٩١٨ لن يتكرر أبداً » . وتطلع اليه هتلر ، وقد بدا في وجهه تعبير متلهف واتقدت عيناه ببريق وحشي . انها عين الكلمات التي كان يبحث عنها

طيلة المساء ولم يستطع العثور عليها . ورأيته يقفز على قدميه ، واتقدت عيناه ببريق جنوني لن انساه ما حييت وضرب بيمناه بعد حركة طويلة على المنصة ، وصرخ بكل ما لديه من قوة ... « نعم » ، ثم عاد يسترخي في مقعده منهوكاً.

وكان قد استعاد زمام السيطرة على أعصابه عندما استقبل السير هوراس ويلسون للمرة الثانية ظهر اليوم التـــالي أي السابع والعشرين من أيـــلول ، وهو رجـــل يفتقر إلى التجربة الدبلوماتية وإن كان تواقـــاً كتوق رئيس الـــوزراء ان لم يبزّه فيـــه لاعطـــاء هتلر اراضي السوديت ، إذا كان الديكتاتور يوافق على أخذها سلماً ، وراح ويلسون يلفت انتباه هتلر إلى بيان خاص صدر عن تشمبرلين في لندن بعيد منتصف الليلة الماضية رداً على خطاب هتلر في الميدان الرياضي . فلقد ذكر تشمبرلين أنـــه بالنظر إلى عـــدم ثقة المستشار بالوعود التشيكية ، فإن الحكومة البريطانية تعتبر نفسها « مسؤولة مسؤولية معنوية » عن ضمان تنفيذ الوعود التشيكية « تنفيذاً عادلاً وكاملاً وبمنتهى العزيمة » . وأعرب تشمبرلين عن أمله في أن لا يرفض المستشار اقتراحه .

ولكن هتلر لم يبد أي اهتمام بهذا الإقتراح . وقال للمبعوث ، أنه ليست لديه رسالة أُخرى يوجهها إلى المستر تشمبرلين . فالموقف الآن يعتمد على التشيكيين. وفي وسعهم إما أن يوافقوا على مطالبه أو أن يرفضوها. وراح يصرخ غاضباً... وإذا رفضوها « فسأحطم تشيكوسلوفاكيا » . وظل يكرر هذا التهديد بشيء من التذوق والتلذذ .

وكان هذا أكثر مما يحتمل حتى ويلسون المتسامح ، إذ قفز من مقعده وقال : « اذن ففي مثل هذه الحالة ، انا مكلف من رئيس الوزراء ، بأن اتلو البيان التالي : « إذا أصبحت فرنسا وفاء منها لالتزاماتها التعاهدية ، في حالة حرب فعلية مع المانيا ، فإن المملكة المتحدة ستجد نفسها مضطرة إلى معاونة فرنسا » .

ورد هتلر بشيء من الحماس... « لا أستطيع إلا أن أُلاحظ هذا الموقف أنه يعني أن فرنسا إذا اختارت أن تهاجم المانيا فإن انكلترا ستجد نفسها مضطرة لمهاجمتها أيضاً » .

وعندما رد السير هوراس ، بأنه لم يعن ذلك ، وإنما الموضوع أصبح الآن بين

يدي هتلر الذي يستطيع أن يقرر ما إذا كانت الحرب واقعة أو أن السلام باق، راح هتلر ينفجر مزيداً ... « إذا أرادت فرنسا وانكلترا أن تضربا ، فلتفعلا ذلك . فهذه قضية لا تهمني كثيراً . إننا الآن في يوم الثلاثاء . وسنكون يوم الاثنين القادم في حالة حرب » .

وتقول تسجيلات شميدت الرسمية عن المقابلة ، ان ويلسون بدا وكأنه يود الاستمرار في الحديث ، ولكن السفير هندرسون نصحه بالتوقف . ولكن هذه النصيحة لم تحل بين المبعوث الخاص المفتقر الى الخبرة الدبلوماتية وبين ان يتبادل كلمة على انفراد مع الفوهرر عندما انتهى الاجتماع . وقال هوراس : « سأحاول أن أحمل هؤلاء التشيكيين على التزام العقل والمنطق »[1] ورد هتلر قائلاً : « انني ارحب بذلك » . ومن المحتمل ان يكون الفوهرر قد ظن بأن في سعه أن يتملق لتشمبرلين وأن يدفعه الى حمل التشيكيين على التعقل والمنطق. وراح في تلك الليلة ، يملي رسالة الى رئيس الوزراء تنطوي على الدهاء .

وكانت هناك مبررات عدة لكتابة هذه الرسالة . فلقد حدث الكثير في برلين وفي غيرها في ذلك اليوم السابع والعشرين من ايلول .

ففي الساعة الواحدة مساء ، اي بعد سفر ويلسون بقليل اصدر هتلر امراً سرياً للغاية ، موعزاً الى وحدات الهجوم المؤلفة من احدى وعشرين كتيبة أي نحواً من سبع فرق ، بالتحرك فوراً من مناطق تدريبها نحو نقاط القفز على الحدود التشيكية . ومضى الأمر يقول ... « على هذه الوحدات ان تكون متأهبة للبدء بالعملية الخضراء في الثلاثين من ايلول، بعد أن اتخذ القرار بالشروع في العمل قبل يوم واحد عن الموعد السابق». وبعد بضع ساعات اصدر هتلر امراً آخر بتعبئة سرية جديدة . وهكذا تمت تعبئة خمس فرق اخرى لتكون مع بعض الاجراءات الاخرى جاهزة في الغرب :

ولكن على الرغم من مضي هتلر في استعداداته العسكرية فقد وقعت تطورات

---

١ - توجد تأكيدات ويلسون باللغة الانكليزية في تسجيلات شميدت الألمانية الأصلية .
٢ - المؤامرة النازية والعدوان (٣) ص ٣٥٠ - ٣٥٢ .

أُخرى في ذلك اليوم حملته على بعض التردد . فلقد أمر الفوهرر رغبة منه في استثارة الحماس للحرب عند السكان باجراء عرض لفرقة مدرعة في شوارع العاصمة بعد الغروب ، أي في الساعة التي يكون فيها مئـــات الالوف من البرلينيين خارجين من مكاتبهم إلى الشوارع . ولكن هذا العرض تحول إلى مهزلة ، بالنسبة إلى القـــائد الأعلى على الأقـــل . فلقد عزف شعب برلين الطيب عن قبول أي تذكير بالحرب . وقد سجلت في يومياتي لتلك الليلة المنظر المدهش التالي :

« خرجت إلى زاوية شارع ليندن ، حيث كان رتل من الجنود يسير ماراً بالولهلمشتراسة ، وتوقعت أن أرى مظاهرة هائلة . وعادت إلى مخيلتي المناظر التي كنت قد قرأت عنها عندما جرى عرض مماثل في عام ١٩١٤ ، وخرجت الجماهير الهاتفة إلى نفس الشارع تقذف بالزهور على الجنود المستعرضين ، وراحت الفتيات يهجمن عليهم ليقبلنهم . أما اليوم ، فقد اعتكف الناس في الشوارع الفرعية ، ورفضوا التطلع إلى الاستعراض ، بينما وقفت حفنات من الرجال في المنعطفات وقد خيم عليها صمت ثقيل ... ولقد كانت هذه المظاهرة أقوى احتجاج على الحرب رأيته في حياتي » .

ومضيت بطلب من رجال الشرطة اعبر أمام الولهلمشتراسة الى ميدان المستشارية حيث وقف هتلر على شرفة الدار الرسمية يستعرض الجنود .

« ولم يكن هناك اكثر من مائتي إنسان . وبدا هتلر عـــابساً مقطباً ، ثم أشتد غضبه ، ومضى الى الداخل ، تاركـــاً الجنود يستعرضون دون أن يكون هناك من يستعرضهم . ولا ريب في أن ما رأيتــه الليلة يبعث على شيء من الثقة ، بالشعب الالماني . أنــه يعارض الحرب معارضة شديدة » .

وكانت هناك داخل دار المستشارية انباء سيئة أُخرى تنتظر هتلر ، وصلت اليه من الخارج . فهناك برقية من بودابست تقول أن يوغوسلافيا ورومانيا ابلغتا الحكومة المجرية بأنها ستهـــاجمان المجر عسكرياً في حالة هجومهـــا هي على

تشيكوسلوفاكيا . وكان هذا يعني إمتداد نيران الحرب إلى البلقان وهو أمر لا يريده هتلر مطلقاً .

وكانت أنباء باريس أشد خطورة . فلقد وردت برقية « مستعجلة جداً » من الملحق العسكري الألماني هناك موجهة إلى وزارة الخارجية والقيـــادة العامة للقوات المسلحة ورئاسة هيئة أركان الحرب . وقد أنذرت البرقية بأن تعبئة فرنسا الجزئية تكاد تقرب من التعبئة الشاملة وأن الملحق العسكري « يعتقد أن توزيع خمس وستين فرقة على الحدود الألمانية سيتم في اليوم السادس من إعـلان التعبئة » . وكان هتلر يعرف أن عدد الفرق الألمانية التي تواجـــه هذا العدد الضخم لا تربو على اثنتي عشرة فرقة نصفها من القوات الاحتياطية التي يشك في في قيمتها العسكرية . وأضاف الملحق العسكري في برقيته يقول ... « ويبدو أن من المحتمل في حالة اتخاذ اجراءات حربية ضد ألمانيا ... أن تهجم هذه الفرق على الغالب من الألزاس السفلى ومن اللورين باتجاه ماينز » .

وقال هذا الضابط الألماني فى برقيته اخيراً أن الإيطاليين على مـــا يبدو لم يقوموا بأي عمل لإرغام فرنسا على الاحتفاظ بقوات كبيرة على الحدود الفرنسية الايطالية [١] . وبدا أن موسوليني الحليف الباسل ، قد تخلى عن هتلر في مثل هذه اللحظة الحـرجة .

وهناك أيضاً رئيس الولايات المتحدة الأميركية وملك السويد ، فقد شرعا في التدخل . ففي اليوم السابق أي في السادس والعشرين من ايلول وجه روزفلت نداء الى هتلر يطلب اليه فيه أن يعمـل على حفظ السلام ، وعلى الرغـم من أن هتلر قد رد عليه في غضون أربع وعشرين ساعة قائلاً أن السلام يعتمد عـــلى التشيكيين قبل غيرهم ، فقد وصلت رسالة أُخرى من الرئيس الأميركي أثنـــاء النهـــار ، أي في السابع والعشرين ، تقترح عقد مؤتمر فوري لجميع الدول ذات العلاقة المباشرة ، وتوحي بأن العالم سيعتبر هتلر مسؤولاً عن الحرب في حـالة نشوبها [٢] .

١ ــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٢) ص ٩٧٧

٢ ــ يوجد نص رسالتي روزفلت ورد هتلر في وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٢) .

أمـــا ملك السويد ، وقد برهن في الحرب الكونية الأولى ، على صداقته المخلصة لألمانيا ، فكان اكثر صراحة ، إذ جاءت برقية الى برلين بعد ظهر ذلك اليوم من الوزير الألماني المفوض في ستوكهولم تقول أن الملك استدعاه على جناح السرعة ، وقال له انه اذا لم يمدد هتلر الموعد المضروب في الأول من تشرين الأول عشرة أيام أُخرى ، فان الحرب الكونية ستنشب حتماً ، وان المانيـا ستكون المسؤولة الوحيدة عنها ، بالاضافة الى حتمية خسارتها لها بسبب « هذا الإئتلاف القائم بين الدول ضدها » . ولقد تمكن الملك الأريب الداهية في جو ستوكهولم المحايد البارد ، من تقييم حقيقة الوضع العسكري بصورة تفوق في موضوعيتها تقييم كل من حكومات برلين ولندن وباريس .

وقد اضعف الرئيس روزفلت ، كما يبدو تحت تأثير ضغط الرأي العام مفعول ندائيه السلميين بتأكيده أن الولايات المتحدة لن تتدخل في الحرب ولن تأخذ على عاتقها أية التزامات في « تسيير دفة المفاوضات الحالية » . ولهـذا رأى السفير الألماني في واشنطن ، هانز ديكهوف ، أن من الضروري ان يبعث برســـالة عاجلة للغاية الى برلين في ذلك اليوم . وقد حذر في رسالته حكومته ،من أن هتلر اذا لجأ الى القوة ، وعارضته بريطانيا معارضة عسكرية ، فان لديه كل ما يبرر الافتراض بأن « الولايات المتحدة ستلقي بكل ثقلها الى جانب بريطانيـــا » . وراح هذا السفير وهو معروف بجبنه أمام الفوهرر يضيف قائلاً : « واني لأشعر أن من واجبي ان اؤكد هذا تمام التأكيد » . وراح يقول انه لا يريد أن تقـع الحكومة الألمانية في نفس الافتراضات الخاطئة التي وقعت فيها بالنسبة الى موقف أمريكا في عام ١٩١٤ .

وكيف تطور موقف براغ يا ترى ؟ هل هناك دليل واحد على ضعف هـذا الموقف ؟ وصلت الى مقر القيادة العامة للقوات المسلحة الألمانية في المساء ، برقية من العقيد توسنيت ، الملحق العسكري في العاصمة التشيكية تقول : « الهدوء يخيم على براغ ، لقد نفذ الإجراء الأخير في التعبئة العامة ... يقدر عدد المدعوين إلى حمـــل السلاح بنحو مليون رجل ، بينما هناك في الميدان جيش قوامـــه

ثمانمائة الف ... » [1]. وكان هذا العدد من المدربين يعادل ما في حوزة المانيا في جبهتيها . وكان عدد التشيكيين والفرنسيين يتفوق على عدد الجنود الألمان بنسبة إثنين إلى واحد .

وهكذا عندما واجه هتلر هذه الحقائق جميعها ، ورأى كل مـــا وقع من تطورات ، ووعى ما قاله له ويلسون قبيل مغادرته ، وأدرك شخصية تشمبرلين وخوفه الكلي من الحرب ، راح في الساعات المبكرة من مساء ذلك اليوم السابع والعشرين من ايلول ، يملي رسالة إلى رئيس الوزارة البريطانية . وأحس الدكتور شميدت الذي استدعي لترجمة الرسالة إلى الإنكليزية ، بأن الديكتاتور بدأ في التراجع عن « الخطوة المتطرفة » . ولم يعرف حتى الآن ، ما إذا كان هتلر قد علم قبل أن يملي رسالته ،بالأمر الذي صدر ذلك المساء بتعبئة الاسطول البريطاني. وكان الأميرال ريدر قد طلب مقابلة الفوهرر في العاشرة من ذلك المساء ، ومن المحتمل أن يكون الأسطول الألماني قد عرف بالحركة البريطـانية التي بدأت في الثامنة مساء ، وأن لم يعلن رسمياً عنها إلا في الساعة الحادية عشرة والدقيقـــة الثامنة والثلاثين مساء ، وأن يكون ريدر قد أبلغ هتلر بها عن طريق الهاتف . على أي حال ، عندما وصل الأميرال ، ناشد الفوهرر بأن لا يمضي إلى الحرب .

وكل ما عرفه هتلر في تلك اللحظة أن براغ تقف موقف التحدي ، وأن باريس تستعجل تعبئة جيوشها ، وأن موقف لندن أخذ في التصلب ، وأن شعبه هو ، عزوف عن الحرب ، وأن قادته العسكريين يعارضونه أتم المعارضة وأن إنذاره بوجوب قبول إقتراحات غودسبرغ ينتهي في الساعة الثـــانية من مساء اليوم التالي .

وهكذا جاءت رسالته نتيجة حساب دقيق كنداء موجـه إلى تشمبرلين . كانت رسالة معتدلة في لهجتها،وقد نفى فيها الافتراض بأن اقتراحاته «ستنزع من تشيكوسلوفاكيا جميع الضمانات اللازمة لوجودها » وان قواته لن تقف عنـد خط الحدود الجديد. واعرب عن استعداده للتفاوض على التفاصيل مع التشيكيين،

1 — وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٢) ص ٩٧٦ .

و « لتقديم ضمانة رسمية لما يتبقى من تشيكوسلوفاكيا » . واضاف أن السبب في صمود التشيكيين راجع إلى أملهم في أن يؤدي عون انكلترة وفرنسا إلى نشوب حرب أوروبية . لكنه على أي حال لا يغلق الأبواب نهائياً في وجه كل أمل في السلام .

وراح ينهي رسالته قائلاً :

« وأرى من واجبي أن اترك لتقديرك، ما إذا لم يكن في وسعك بالنظر إلى جميع هذه الحقائق ، أن تواصل محاولاتك ... لإفساد هذه المناورات وحمل حكومة براغ على التزام جانب العقل في الساعة الأخيرة [1] » .

الساعة الحادية عشرة ...

ووصلت رسالة هتلر العاجلة إلى لندن وإلى تشمبرلين في الساعة العاشرة والنصف من ليلة السابع والعشرين من ايلول ، وقد جاءت عقب يوم حافل بالعمل بالنسبة إلى رئيس الوزراء .

وكانت الانباء التي حملها السير هوراس ويلسون الذي وصل إلى لندن في ساعة مبكرة بعد ظهر ذلك اليوم ، بعد مقابلته الثانية لهتلر ، قد حفزت تشمبرلين واعضاء حكومته إلى العمل . وقررت الوزارة البريطانية تعبئة الأسطول ، ودعوة القوات الجوية الاحتياطية إلى الخدمة، واعلان حالة الطوارىء في البلاد . وبدأ حفر الخنادق في الحدائق العامة والميادين للوقاية من الغارات الجوية ، كما شرع في اجلاء اطفال المدارس في مدينة لندن .

وبعث رئيس الوزراء ، على التو ، برسالة اخرى إلى الرئيس بنيش في براغ يحذره فيها من أن معلوماته الواردة من برلين « تؤكد أن الجيش الألماني سيتلقى الأوامر بعبور الحدود التشيكوسلوفاكية فوراً ، إذا لم تكن الحكومة التشيكية

---

١ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٢) ص ٩٦٦ — ٩٦٨ .

قد قبلت قبل الساعة الثانية من بعد ظهر اليوم التالي أي الثـامن والعشرين من ايلول ، الشروط الألمانية » . وبعد هذا التحذير النبيل للتشيكيين ، لم يستطع رئيس الوزراء الامتناع عن نصحهم في نهاية رسالته « بأن الألمان سيجتـاحون بوهيميا ، وان ليس في استطاعة أية دولة أو عدة دول أنقاذ بلادكم وشعبكم من هذا المصير . وسيظل هذا القول صحيحاً مهما كانت نتيجـة أي حرب عالميـة قد تقع » .

وهكذا أخذ تشمبرلين يحمل بنيش مسؤولية السلام أو الحرب ، بعـد أن رفعها عن هتلر . وهكذا نراه يبدي رأياً عسكرياً ، كان القادة الألمان انفسهم كما رأينا فيما مضى لا يؤمنون بصحته . لكنه على أي حـــال ، راح يضيف في في نهاية رسالته أنه لا بود أن يتحمل مسؤولية توجيه النصح للتشيكيين بما يجب أن يفعلوه ، فهذا أمر متروك لهم .

ولكن هل تركها لهم حقاً ؟ لا ، اذا لم يكد بنيش ، يتسلم الرسالة الأولى ، حتى جاءته برقية أخرى ، حاول فيها تشمبرلين أن يبصر الحكومة التشيكية بما يجب عليها أن تفعله . وقد أقترح في برقيته هذه أن يقبل التشيكيون باحتلال عسكري المـــاني محدود في الأول من تشرين الأول ، يشمل ايغرلاند وآخ ، الواقعتين خارج مناطق التحصينـات التشيكية ، وأن تتولى لجنة المـــانية – تشيكية – بريطانية تخطيط الحدود وتقرير بقية المناطق التي يجب تسليمها الى الألمان [1] . وراح رئيس الوزراء يضيف بعد ذلك هذا التحذير :

« وسيكون الحل البديل لما أقترحه ، الغزو الكامـل لبلادكم وتجزئتها بالقوة ، وعلى الرغم من أن حرباً قد تنشب ، وقد تؤدي الى نتائج وخسائر في الأرواح لا يمكن حسابها ، فإن تشيكوسلوفاكيا لا يمكن أن تعود إلى حدودها السابقة مهما كانت نتيجة الصراع [2] .

---

١ – وقد قدم السفير هندرسون هذه الاقتراحات ايضاً الى وزارة الخارجية الالمانية في الساعة الحادية عشرة مساء ، وطلب ان تنقل الى الفوهرر فوراً .

٢ – وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٢) . ص ٩٨٧ – ٩٨٨ . ويوجد نص رسالة المستر تشمبرلين في كتاب ميونيخ لويلر – بنيت. ص ١٥١ – ١٥٢.

وهكذا فقد تلقى التشيكيون إنذاراً من أصدقائهم (إذ أن فرنسا، اشتركت في تقديم هذه الإقتراحات الأخيرة) بأنهم حتى ولو تمكنوا مع حلفائهم من هزيمة الألمان في الحرب ، فإن على تشيكوسلوفاكيا أن تسلم بـلاد السوديت الى المانيا . وكان الاستنتاج واضحاً ، وهو ترى ما الذي يدعوكم الى دفع اوروبا إلى الحرب طالما أنكم ستضيعون منطقة السوديت على أي حال ؟

وبعد أن أنهى كل هذه الأعمـال ، راح رئيس الوزراء يذيع الى الشعب في الساعة الثامنة والنصف مساء هذه الرسالة :

« يا لها من فكرة مرعبة وخيالية ، لا يمكن تصديقها ، أن نقوم بحفر الخنادق ... هنا وذلك بسبب نزاع يقع في بلاد بعيدة بين شعبين لا نعلم عنهما شيئاً » .

وقد حصل هتلر على « لباب ما أراد » . وكانت بريطانيا قد تعهدت بـأن يقبل التشيكيون هذه الإقتراحات وأن ينفذوهـا ... وراح تشمبرلين يقول :

« انني لن أتردد لحظة واحدة في أن أقوم بزيارة ثالثة الى المانيا اذا رأيت أن هذه الزيارة ستكون نافعة .

« ومهما كان شعور العطف الذي نحس به تجاه بلاد صغيرة تواجهها جارة قوية وضخمة ، فليس في وسعنا في جميع الحالات أن نقوم بإقحام الأمبراطورية البريطانية كلها في حرب ، من أجـل هذه البلاد الصغيرة . واذا كان لا بد لنا من أن نحارب فإن حربنا يجب أن تكون في سبيل قضايا اضخم من هذه ....

« انني رجل من دعاة السلام في صميم فؤادي ، واعماق روحي . فالصراع المسلـح بين الدول كابوس يجثم على صدري ، ولكن اذا قنعت من أن هناك دولة حزمت أمرها على السيطرة على العالم عن طريق التهديد بالقوة ، فانني أحس آنذاك بوجوب مقـاومة هذه الدولة . وفي ظل مثل هذه السيطرة ، فان الحيـاة بالنسبة الى الشعوب التي تؤمـن بالحرية قد لا تكون جديرة بالعيش . ولكن

الحرب شيء مخيف . وعلينا ان نكون واضحين كل الوضوح ، بأننا قبل أن نشرع فيها يجب أن نتأكد تمام التأكد من أن قضايا كبرى ، هي المعرضة الى الخطر » .

وقد دوّن ويلر – بنيت أن معظم الناس في بريطانيا ، قد مضوا الى فراشهم تلك الليلة بعد أن استمعوا الى الخطاب ، وهم على ثقة من أن بريطانيا والمانيا ستكونان مشتبكتين في حرب قبل مضي اربع وعشرين ساعة [1]. ولكن هؤلاء الناس الطيبين لم يعرفوا بما حدث في داوننغ ستريت في ساعة متأخرة من تلك الليلة .

وصل خطاب هتلر في الساعة العاشرة والنصف مساء ، وكان بمثابة «القشة» التي تعلق بها رئيس الوزراء بلهفة زائدة . وراح يرد على الفوهرر قائلاً :

« لقد تأكدت بعد أن قرأت رسالتك ، بأن في وسعك أن تحصل على جميع المطالب الجوهرية دون حرب ودون تأخير . واني لعلى استعداد للمجيء فوراً الى برلين لأبحث معك ومع ممثلي الحكومة التشيكية ، وبإشتراك ممثلين عن فرنسا وايطاليا ، اذا رغبت في اشتراكهم الترتيبات لنقل المناطق الى المانيا . واني لعلى ثقة من أن في وسعنا الوصول الى اتفاق في غضون اسبوع . وليس في وسعي أن أُصدق بأنك ستتحمل مسؤولية اشعال حرب عالمية قد تكون فيها نهاية الحضارة ، من أجل التأخر بضعة أيام في هذه المشكلة التي طال عليها العهد »[2].

وبعث تشمبرلين في الوقت نفسه ببرقية الى موسوليني يطلب اليه فيها أن يحث الفوهرر على قبول مشروعه وان يوافق على الاشتراك في الإجتماع المقترح. وكانت فكرة مثل هذا المؤتمر تساور خيال رئيس الوزراء منذ وقت طويل. وكان السير نيفيل هندرسون قد اقترح هذا الإجتماع في رسالة بعث بها الى لندن

١ – وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٢) ص ١٥٨ .

٢ – الكتاب البريطاني الابيض رقم ٥٨٤٨ رقم واحد .

منذ تموز الماضي ، وذكر فيها أنه يرى وجوب حل المشكلة السوديتية في مؤتمر رباعي يضم المانيـــا وايطاليا وبريطانيا وفرنسا . ولكن وزارة الخارجية البريطانية ذكرت كلاً من السفير ورئيس الوزراء بعدم إمكان استثنـــاء دول أخرى من هذا المؤتمر وعدم إشراكها فيه [1] . وكان المعني « بالدول الأخرى » هنا كل من روسيا التي يربطها بتشيكوسلوفاكيا ميثاق للمساعدة المتبـــادلة والحكومة التشيكية . وكان تشمبرلين قد عاد من غودسبرغ وهو مقتنع – وله الحق في اقتناعه هذا – بأن هتلر لن يوافق مطلقاً على أي مؤتمر يضم الإتحـــاد السوفياتي . ولم يكن رئيس الوزراء نفسه راغباً في اشراك الروس . وعلى الرغم من وضوح الحقيقة لأبسط الناس عقلاً في بريطانيا ، وهي أن اشتراك السوفيات إلى جانب الدول الغربية ، في أية حرب تنشب مع المانيا سيكون كبير النفع والفائدة ، وهو أمر طالما حاول تشرشل ايضاحه لرئيس الحكومة البريطانية ، إلا أن رئيس الوزراء لم يكن مقتنعاً بهذا الرأي . وكان قد رفض كما رأينا من قبل اقتراحاً روسياً بعقد مؤتمر بعد (الانشلوس) ، لبحث وسائل مقاومة أي عدوان الماني مقبل . وعلى الرغم من الضمانة السوفياتية لتشيكوسلوفاكيا ، ومن أن لتفينوف كان حتى هذه اللحظة يعلن أن روسيا ستفي بتعهدها ، فإن تشمبرلين ، لم يكن عازماً على السماح للسوفيات بالتدخل في تصميمه على الحفاظ على السلام عن طريق إعطاء مناطق السوديت الى هتلر .

ولكنه حتى يوم الاربعاء في الثامن والعشرين من ايلول . لم يكن قد مضى بعيداً في تفكيره الى الحد الذي يقضي بحرمان التشيكيين أنفسهم من حضور هـــذا المؤتمر . وكان على النقيض من ذلك ، قد استدعى في الخامس والعشرين من ايلول ، وبعـــد أن رفضت براغ مطـــالب هتلر في غودسبرغ ، السيد جـــان مازاريك ، سفير تشيكوسلوفاكيا في لندن واقـــترح عليـــه ان توافق تشيكوسلوفاكيا على إجراء مفاوضات في « مؤتمر دولي تشترك فيه المانيـــا وتشيكوسلوفاكيا ودول أخرى » . وسرعان ما قبلت الحكومة التشيكية

---

١ – هندرسون – فشل بعثة . ص ١٤٤ . وثائق وزارة الخارجية البريطانية الحلقة الثالثة (٢) ص ٦١٤ .

الفكرة في اليوم التالي. وقد رأينا قبل قليل أن المستر تشمبرلين قــد حضّ في رسالته التي بعث بها إلى هتلر في ساعة متأخرة من ليلة السابع والعشرين عــلى وجوب اشتراك « ممثلين عن تشيكوسلوفاكيا » في المؤتمــر الرباعي المقترح لألمانيا وايطاليا وفرنسا وبريطانيا العظمى .

الأربعاء السوداء
ومؤامرة هولدر على هتلر

وسيطرت كآبة عميقة على برلين وبراغ ولندن وباريس عندما طلع نهـار « الأربعاء السوداء » في الثامن والعشرين من ايلول. وبدت الحرب وكأنها شيء لا بد منه .

ونقل بودل عن غورنغ قوله في صباح ذلك اليوم: « قد لا يمكن تجنب الحرب الكبرى مدة أطول . إنها قد تدوم سبع سنوات ولكننا سنفوز فيها » [1] .

واستمرت في لندن عملية حفر الخنادق ، وإخلاء مدارس الأطفال ،واجلاء المستشفيات من المرضى . وتدافع الناس من باريس على القطارات التي تغـادر المدينة ، كما اكتظت الطرقات بالسيارات التي تحاول الخروج من العــاصمة . وكانت هناك مناظر مماثلة في المانيا الغربية. وسجل بودل في يوميته أنباء الصباح القائلة بفرار اللاجئين الألمان من مناطق الحدود . وكانت الساعة الثانيـة مساء وهي الموعد الأخير الذي حدده هتلر لقبول تشيكوسلوفاكيا اقتراحات غودسبرغ تقترب دون أية اشارة عن وجود نية لديها في قبولها . وكانت هناك عــلى أي حال علامات أُخرى ، فالنشاط على أوسعه في الولهلمشتراسة ، وسفراء فرنسا وبريطانيا وايطاليا ، يأتون ويروحون في عصبية ظاهرة . أما الشعب الألمـاني والقادة العسكريون الألمان فقد كانوا على جهل مطبق بما هو واقع .

وحان الوقت الآن بالنسبة الى بعض القادة العسكريين والى الفريق هولدر

---

١ – يوميات بودل – ٢٨ ايلول ١٩٣٨ ـ المؤامرة النازية والعدوان(٤)ص ٣٦٨ .

بصفة خاصة ، وهو رئيس هيئة أركان الحرب ، لتنفيذ المؤامرة للاطاحة بهتلر وانقاذ الوطن من الانغماس في حرب اوروبيـــة لا بد وان يخسرها . وكان المتآمرون طيلة شهر ايلول ، كما روى الذين عاشوا بعد المؤامرة ، يعـــدون خططهم [1] .

وكان الفريق هولدر على اتصال دائم ووثيـق بالعقيد اوستر ، وبرئيسه في مكتب المخابرات ، الاميرال كاناريس ، الذي حاول اطلاعه على جميع حركات هتلر السياسية وعلى أنبـاء المخابرات الأجنبية . ولقد رأينا المتآمرين ينذرون لندن بعزم هتلر على مهاجمة تشيكوسلوفاكيا ، في نهاية شهر ايلول ، ويرجون الحكومة البريطانية بأن توضح تمام الايضاح مع فرنسا ، بأنهما تعتزمان الرد على عدوان المانيا ، باستخدام القوة المسلحة . وكان الفريق فون ويتزليبين القائـد العسكري لمنطقة برلين ، والذي كان من المقرر أن يقوم بتزويد معظم القطعات العسكرية اللازمة للحركة الانقلابية ، قد تردد وتخاذل ، لأنه كان يشك في أن لندن وباريس ، قـــد سمحتا لهتلر بصورة سرية ، بأن يكون حر التصرف في الشرق . وأنهما تبعاً لذلك لن تخوضا الحرب من أجل تشيكوسلوفاكيا ، وهو رأي كان يشاركه فيه عدد كبير من القادة العسكريين، وكان هتلر وريبنتروب يشجعانه بدورهما. وكان أمثال هولدر وويتزليبين ، يرون أنه إذا صحت هذه النظرية ، فلا جدوى مطلقاً من مثل هذه المؤامرة ، إذا أن همهم الشاغل كان منصرفاً في هذه الآونة من حياة الرايخ الثالث إلى الخلاص من الفوهرر لتجنب

١ - تضمنت هذه الروايات اقوالاً مباشرة من هولدر وغيزيفيوس وشاخت (المؤامرة النازية والعدوان . الملحق (ب) . ص ١٥٤٧ - ١٥٧١) ، وكتاب « الى النهاية المرة » لغيزيفيوس ص ٢٨٣ - ٣٢٨ ، ومحاكمات كبار مجرمي الحرب (١٢) ص ٢١٠ - ٢١٩ ، وكتـــاب «تصفية الحساب » لشاخت ١١٤ - ١٢٥) ولكن هذه الروايات كثيراً ما تتناقض وتتضارب. وعلينا ان نذكر ان هؤلاءالرجال الثلاثة الذين بدأوا بخدمة العهد النازي، كانوا تواقين بعد انتهاء الحرب ، لإقامة الدليـــل على معارضتهم لهتلر وعلى حبهم للسلام . وكان ايريخ كوردت رئيس سكرتيري ريبنتروب في وزارة الخارجية من كبار المسهمين فيالمؤامرة والذين نجوا منالعقاب . اعد في نورمبرغ مذكرة مطولة عن احداث شهر أيلول عام ١٩٣٨ ، ووضعها تحت تصرف هذا المؤلف .

الاشتباك في حرب اوروبية لم تكن المانيا مستعدة لها أو قادرة على كسبها . وإذا لم يكن هنـــاك خطر في نشوب حرب عظمى ، وإذا كان تشمبرلين على استعداد لاعطاء هتلر ما يريده في تشيكوسلوفاكيا دون حرب، فليس ثمة فائدة في رأيهم من القيام بأية ثورة .

ولقد رتّب العقيد اوستر وغيزيفيوس، رغبة منهما في اقناع القادة العسكريين بأن بريطانيا وفرنسا جادتان في القضية ، اجتماعـــاً بين الفريقين هولدر وفون ويتزليبين وبين شاخت ، الذي كان يتمتـع بمكانة بارزة لدى الزمرة العسكرية المسيطرة ، لا بوصفه الرجل الذي تولى تمويل عملية التسلح الألماني فحسب ، او بوصفه الرجل المشغل لمنصب في الوزارة ، بل بوصفه ايضاً الخبير في الشؤون البريطانية . ولقد اكد لهما شاخت ان البريطانيـين سيحاربون اذا لجأ هتلر الى السلاح ضد التشيكيين .

وأثارت الانباء التي وصلت الى ايريخ كوردت، وهو أحد المتآمرين في وزارة الخارجية الألمانية في ساعة متأخرة من ليـــلة الثالث عشر من ايلول ، من ان تشمبرلين قد تقدم باقتراح عاجل « للمجيء عن طريق الجـو » الى برلين ، بحثاً عن حل سلمي للمشكلة التشيكية ، الكثير من القلق والاضطراب في صفوف المتآمرين . وكانوا قد علقوا الكثير من الاهتمام على عودة هتلر الى برلين من مهرجان الحزب النازي في نورمبرغ في الرابع عشر من الشهر . وروى كوردت فيما بعد انهم كانوا قد اعدوا خططهم للقيام بحركتهم الانقلابية في اليوم التالي أو الذي يليه . ولكن الفوهرر لم يعد الى العاصمة [1] . وانما مضى الى ميونيـــخ ،

---

١ – هناك الكثير من التناقض بين اقوال المؤرخين وحتى المتآمرين ، حول المكان الذي كان فيه هتلر في الثالث عشر والرابع عشر من ايلول. فلقـــد ذكر تشرشل استناداً الى رواية وردت في مذكرة للفريق هولدر ان هتلر وصل إلى برلين من برختسغادن « في صباح الرابع عشر من ايلول»، وان هولدر وويتزليبين، عندما سمعا بذلك «قررا ان يضربا في الساعة الثامنة من ذلك المساء » . وتمضي هذه الرواية فتقول انهما قررا تأجيل العملية عندما سمعا في الساعة الرابعة من مساء اليوم نفسه أن تشمبرلين قد طار الى برختسغادن . (مذكرات تشرشل — ص ٣١٢) .

ولكن يبدو ان ذاكرة هولدر، وبالتالي رواية تشرشل، كانتا على خطأ . فلقد روى كتاب=

حيث واصل سفره في الرابع عشر الى برختسغادن ، حيث أقام ينتظر زيارة رئيس الوزراء البريطاني في اليوم التالي .

وكانت هناك أسباب مزدوجة من الشعور بخيبة الأمل الكاملة بين المتآمرين. ولم يكن ثمة مجال لوضع خططهم في حيّز التنفيذ ، إلا اذا كان هتلر في برلين ، وكانوا على ثقة من أنه سيعود الى برلين حتماً ، بعد أن أدّى مهرجان الحزب في نورمبرغ، إلى ازدياد حدة الازمة التشيكية .وعلى الرغم من ان بعض المشتركين في المؤامرة ، كانوا يفترضون من الناحية الثانية ، افتراضاً ينم عن الاسترخاء ، والهدوء النفسي ، ما ساور نفوس البريطانيين جميعاً ، من أن تشمبراين ، يعتزم الطيران إلى برختسغادن، لتحذير هتلر من ارتكاب الخطأ الذي وقع فيه غليوم الثاني في عام ١٩١٤ ، بالنسبة الى ما ستفعله بريطانيا في حالة وقوع العدوان الألماني ، إلا أن كوردت كان أكثر علماً بالحقيقة من زملائه ، فلقد رأى بنفسه نص الرسالة العاجلة التي بعث بها تشمبرلين الى هتلر ، يشرح له فيها أنه يريد أن يراه ، « هادفاً الى الوصول الى حل سلمي ».وكان قد رأى أيضاً البرقية الأخرى التي بعث بها أخوه ثيودور كوردت ، مستشار السفارة الألمـــانية في لندن ،في ذلك اليوم ، مُسِر بها بأن رئيس الوزراء البريطاني ، على استعداد للمضي شوطاً بعيداً ، للاستجابة الى مطالب هتلر في بلاد السوديت .

ويقول كوردت « وكان تأثير هذه الحركة على خططنا مفجعاً ، حتماً . فلقد كان من السخف كل السخف ، ان نعد حركة انقلابية للاطاحة بهتلر ، في وقت ، كان فيه رئيس وزراء بريطانيا ، يصل إلى المانيـــا ، للبحث معه في موضوع « السلام العالمي » .

ويمضي اريك كوردت فيقول، أن الدكتور بول شميدت، وكان مشتركاً في المؤامرة ايضاً ، كما كان الترجمان الوحيد ، والشاهد الفرد لمحادثات هتلر —

=«اعمال هتلر اليومية » الموجودة الآن في مكتبة الكونغرس، ان هتلر قضى يومي الثالث عشر والرابع عشر في ميونيخ ، حيث كان يتشاور مع ريبنتروب في دارة بورمان ، وانه زار في التاريخ نفسه ملهى « سونينونيكل » في المدينة ، ثم غادرها في نهايـــة اليوم المذكور اي في الرابع عشر الى « اوبر سالزبرغ » .

تشمبرلين ، قد أبلغه ، على الرغم من ذلك ، وفي مساء الخامس عشر من ايلول ، « بطريقة رمزية سرية أعد ترتيبها من قبل » ، أن الفوهرر ، كان لا يزال عازماً على احتلال تشيكوسلوفاكيا كلها ، وانه تقدم بطلبات مستحيلة إلى تشمبرلين « أملاً في أن يرفضها الرئيس البريطاني » . وقد احيت هذه المعلومات ، آمال المتآمرين من جديد. وسرعان ما قام كوردت بابلاغها إلى العقيد أوستر في نفس المساء ، وتقرر المضي قدماً بالخطط ، حالما يعود هتلر إلى برلين . وراح أوستر يقول : « ولكن علينا قبل كل شيء ، أن نضع الطائر في القفص في برلين أولاً » .

وطار العصفور إلى قفصه في برلين ، بعد ان انتهى من محادثات غودسبرغ بعد ظهر الرابع والعشرين من ايلول . وعندما حل صباح « الأربعاء السوداء » ، في الثامن والعشرين من ايلول ، كان قد مضى على وجود هتلر في العاصمة أربعة ايام . وبدا وكأنه قد احرق جميع جسوره في السادس والعشرين عندما القى خطابه الناري في الميدان الرياضي . وراح في السابع والعشرين ، يعيد السير هوراس ويلسون خالي الوفاض إلى لندن ، مما أدى إلى قيام الحكومة البريطانية كرد فعل لها ، بتعبئة الأسطول ، وبتحذير براغ من هجوم الماني متوقع . وكان هتلر في نفس اليوم ، قد أصدر أيضاً ، كما رأينا من قبل ، إلى « وحدات الهجوم » ، باتخاذ مواقعها استعداداً للقتال على الحدود التشيكية ، وان تكون متأهبة « للعمل » في الثلاثين من ايلول ، أي بعد ثلاثة أيام من هذا الموعد .

ترى ما الذي حمل المتآمرين على الانتظار ؟ لقد تحققت لهم جميع الاشتراطات التي وضعوها . إن هتلر موجود في برلين . وهو عازم على المضي الى الحرب . وكان قد حدد اليوم الثلاثين من ايلول ، للشروع في الهجوم على تشيكوسلوفاكيا ، أي بعد يومين . وهكذا بات من المحتوم تنفيذ الانقلاب فوراً ، وإلا فاتت الفرصة للاطاحة بالطاغية ، ووقف الحرب .

ويقول كوردت ، إن المتآمرين في ذلك اليوم ، السابع والعشرين من ايلول قد حددوا اليوم التاسع والعشرين منه ، موعداً نهائياً للعمل. وذكر غيزيفيوس ،

في شهادته أمام محكمة نورمبرغ ، وفي كتابه أيضاً ، أن الفريقين هولدر وويتزليبين ، قد قررا العمل فوراً في الثامن والعشرين من ايلول ، بعد ان حصلا على نسخة من « رسالة التحدي التي بعث بها هتلر » والتي ضمنها « مطالبه المهينة » إلى تشمبرلين في اليوم السابق .

ويقول غيزيفيوس : « لقد تلقى أوستر صورة من هذه الرسالة التي تنطوي على التحدي ، في ساعة متأخرة من ليلة السابع والعشرين من ايلول ، ثم حملت هذه الصورة في صباح الثامن والعشرين الى ويتزليبين . وحملها هذا بدوره الى هولدر فوراً . وهكذا حصل رئيس اركان الحرب ، اخيراً ، على ما كان يتوخاه من دليل قاطع ، على ان هتلر لم يكن يحاول البلف والخداع ، وانه يعتزم الحرب .

« وتساقطت دموع الغضب والسخط على وجنتي هولدر ... واصر ويتزليبين على أن الوقت قد حان للعمل أخيراً . وراح يقنع هولدر ، بالمضي لمقابلة براوخيتش . وعاد هولدر بعد فترة وجيزة ، يقول أنه يحمل أنباء سارة ... أن براوخيتش ثائر ايضاً ، ومن المحتمل أن يشترك في الانقلاب كذلك [1] » .

ولكن يبدو احد احتمالين ، فإما ان يكون نص رسالة هتلر قد ابدل ، او ان القادة العسكريين قد اساؤا فهمها ، إذ انها كانت كما رأينا على درجة كبيرة من اعتدال اللهجة ، ومن التدفق بالوعود « في التفاوض على التفاصيل مع التشيكيين » وفي « اعطاء الضمانة الرسمية في ما يتبقى من تشيكوسلوفاكيا » ، ومن الميل الى التفاهم والى اقتراح مضي تشمبرلين ، في بذل محاولاته ، الى الحد الذي دفع رئيس وزراء بريطانيا ، الى الابراق فور قراءته لها ، الى هتلر ، مقترحاً عقد مؤتمر للدول العظمى ، لوضع التفاصيل ، والى الابراق ايضاً الى

---

١ - غيزيفيوس « حتى النهاية المرة » ص ٣٢٥ . وشهادته في نورمبرغ « محاكمات كبار مجرمي الحرب (١٢) ص ٢١٩ » .

موسوليني طالباً تأييده لمثل هذا الاقتراح .

ويبدو ان القادة العسكريين قد جهلوا بهذه المحاولة ، التي بذلت في الساعة الأخيرة ، لتهدئة الأمور ، وان كان من الواضح ان الفريق فون براوخيتش القائد العام للجيش ، لا بد وأن يكون قد فهم شيئاً عنها ، ويقول غيزيفيوس ، أن ويتزليبين،هتف لبراوخيتش من مكتب هولدر ، وأبلغه أن كل شيء قد بات جاهزاً ، وتوسل اليه ان يقود الثورة بنفسه . ولكن قائد الجيش لا يريد الالتزام بشيء . وأبلغ كلاً من هولدر وويتزليبين أنه يود أولاً أن يمضي الى مستشارية الفوهرر ، ليرى بنفسه اذا كان الفريقين ، قـــد قدرا الوضع تقديراً صحيحاً . ويقول غيزيفيوس ، أن ويتزليبين سارع بالعودة الى مقر قيادته العسكرية ... وهتف بحماس قائلاً ... « لقد حان الوقت يا غيزيفيوس » .

ورن جرس الهاتف في الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم الثامن والعشرين من ايلول في مكتب كوردت في وزارة الخارجية . كان تشيانو هو المتحدث على الجانب الآخر ، من الخط الهاتفي من رومة ، وهو يريد التحدث بصورة عاجلة الى وزير الخارجية الألمانية . ولم يكن ريبنتروب حاضراً في الوزارة ، اذ كان آنذاك في دار المستشارية ، فطلب الوزير الايطالي ان يوصل بسفيره في برلين بيرناردو أوتوليكو . وقد استمع الألمان الى المخابرة الهاتفية وسجلوها . وسرعان ما تبيّن أن موسوليني هو المتحدث ، لا صهره ، ووزير خارجيته ، تيشانو ...

« موسوليني ... أنا الدوتشي. هل تستطيع أن تسمعني ؟

« اتوليكو ... نعم انا اسمعك .

« موسوليني ... اطلب مقابلة المستشار فوراً . قل له أن الحكومة البريطانية قد طلبت إلي عن طريق اللورد بيرث [١] ، التوسط في المشكلة السوديتية . إن نقطة الخلاف ضئيلة جداً . قل للمستشار ، إنني وإيطاليا الفاشية ، نقف إلى جانبه . إن عليه إن يقرر.

---

١ – السفير البريطاني في رومة .

ولكن قل له ، إنني أميل إلى قبول الاقتراح . هـــل تسمعني ؟

« اتوليكو ... نعم إني أسمعك .

« موسوليني ... إذن أسرع ! »[1].

ويروي الدكتور شميدت ، المترجم ، ان السفير اتوليكو ، وصـــل وهو يلهث من الجري . وقد احمر وجهه من الحماس ، إلى دار المستشارية ، ليجد أن السفير الفرنسي ، قد اختلى بهتلر ، في حديث خاص . وكان المسيو فرانسوا - بونيه ، قد وجد مشقة في الوصول إلى هذه الخلوة . فلقـد كان المسيو بونيه ، وزير خارجية فرنـا ، وهو العازم في هذه اللحظة على ان يبزّ تشمبرلـــين في تساهله ، قد تحدث هاتفياً في ساعة متأخرة من الليلة الفائتة ، إلى سفيره في برلين ، وأمره بمقابلة هتلر ، في أقرب فرصة ممكنة ، وأن يقدم إليه اقتراحاً فرنسياً ، بتسليم أراضي السوديت ، وأن يمضي إلى أبعد مما يمضي اليه المشروع البريطاني . إذ بينما كان اقتراح الرئيس البريطاني ،الذي قدم الى هتلر في الساعة الحادية عشرة من مساء السابع والعشرين من ايلول ، يعرض عليه احتلال المنطقة « الأولى » من اراضي السوديت في الأول من تشرين الأول ، وهو احتـــلال رمزي مجرد ، لا يعدو الاستيلاء على بقعة محصورة ضيقة من الأرض ، جـــاء الاقتراح الفرنـسي ، الآن ، يعرض عليـــه ، تسلم ثلاث مناطق واسعة ، تشمل الجزء الأكبر من الأراضي المختلف عليها ، وذلك في الموعد نفسه .

ولقد كان العرض مغرياً كل الاغراء ، ولكن السفير الفرنسي وجـــد كل صعوبة في تقديمه ، فلقد هتف في الساعة الثامنة من صباح الثامن والعشرين من ايلول ، طالباً تحديد موعد فوري لمقابلة الفوهرر . وعندما حلت الساعة العاشرة ، ولم يكن قد تلقى رداً إيجابياً بعد ، أوفد ملحقه العسكري على جناح السرعة إلى هيئة أركان الحرب الألمانية ، لإبلاغ القادة العسكريين الألمان بالعرض الذي لم يتمكن السفير من تقديمه بعد . وراح يستنجد بالسفير البريطاني لمساعدتـــه .

---

١ - مذكرة ايريخ كوردت التي وضعت تحت تصرف المؤلف . وكذلك الصفحة (٦٤) من كتاب « الحركة السرية في المانيا » لآلان دالاس .

وكان السير نيفيل هندرسون ، على استعداد لتقديم كل خدمـــة لمن يعمل على منع الحرب - بأي ثمن - ولذا فقد هتف إلى غورنغ،الذي أعرب عن استعداده للقيام بمحاولة لتحديد موعـــد المقابلة . وكان هندرسون يسعى في الحقيقة ، للحصول على موعد له مع المستشار ايضاً ، إذ كان قد تلقى الأمر بأن يقدم إلى هتلر « رسالة شخصية اخيرة من رئيس الوزراء »،وهي الرسالة التي كان تشمبرلين قد أعدها في ساعة متأخرة من الليلة المضية - والتي ذكرناها من قبل - والتي يؤكد فيها لهتلر انفي وسعه أن يحصل على ما يشاء« دون حرب وبدون ابطاء »، مقترحاً عقد مؤتمر للدول الكبرى لاعداد التفاصيل [1] .

واستقبل هتلر ، المسيو فرنسوا - بونيه في الساعة الحادية عشرة والربع صباحاً . ووجده السفير في حالة من التوتر والهياج العصبي . وأخذ السفير يلوح بخريطة قام برسمها بسرعة ، تظهر الأجزاء الكبيرة من الأرض التشيكية التي كانت كبيرة حليفات تشيكوسلوفاكيا ، على استعداد الآن لتقديمها « على طبق » إلى هتلر ، وراح يحث الفوهرر على قبول الاقتراحات الفرنسية ، وعلى تجنيب أوروبا خطر الحرب . وعلى الرغم من تعليقات ريبنتروب السلبية ، التي يقول السفير انه عالجها بسرعة . فقد تأثر هتلر ،كما ذكر الدكتور شميدت،بخريطة السفير ، وما فيها من تخطيط كريم وسخي .

وانقطعت المقابلة فجأة في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الاربعين ، عندما دخل رسول ، يعلن وصول اتوليكو ، سفير ايطاليا ، حاملاً رسالة مستعجلة إلى الفوهرر من موسوليني . وغادر هتلر القاعة مع ترجمانه ، شميدت ، لتحية السفير الايطالي ، اللاهث .

وصرخ اتوليكو ، ذو الصوت الأجش من مكان بعيد ... « إنني احمل اليك رسالة عاجلة من الدوتشي » [2] . وبعد أن نقل إلى الفوهرر الرسالة أضاف أن

---

١ - تحدث كثيرون من المشتركين في هذه الاجتماعات عما دار فيها . فقد تحدث عنها شميدت في كتابه « ترجمان هتلر » في الصفحة ١٠٥ - ١٠٨ ، وتحدث عنها فرانسوا بونيه في كتابه « سنوات القدر » ص ٢٦٥ - ٢٦٨ ، وهندرسون في كتابه « فشل بعثة » ص ١٦٦ - ١٧١ .

٢ - شميدت ... « ترجمان هتلر » ص ١٠٧ .

الدوتشي يتوسل إليه أن يمتنع عن التعبئة العامة .

ويروي شميدت ،الشاهد الوحيـــد الذي عاش.أن القرار بإحلال السلام قد اتخذ في تلك اللحظة . وكان الوقت قد قارب الظهيرة ، أي قبل ساعتين فقط من الوقت الذي حدده هتلر في إنذاره إلى التشيكيين .

وقال هتلر لأتوليكو ، وقد بدا عليه الارتياح بوضوح ... « قل للدوتشي ، إنني أقبل إقتراحه [1] » .

ومضت بقية النهار ، في أوضاع عادية . فلقد حذا السفير هندرسون حذو زميليه اتوليكو وفرانسوا - بونيه في مقابلة الفوهرر .

رراح هتلر يقول للسفير البريطاني... لقد قررت تلبية لطلب صديقي العظيم وحليفي ، موسوليني ، تأجيل تعبئة قواتي ، مدة أربع وعشرين ساعة [2] . وأضاف أنه سيقرر المواضيع الأخرى ، كموضوع المؤتمر المقترح للدول العظمى بعد التشاور مع موسوليني [3] .

وانشغل خط الهاتف بين برلين ورومة في ذلك النهار ، ويقول شميدت ، أن الديكتاتورين الفاشيين ، تبادلا الحديث مباشرة مرة واحدة . وقبيل الساعة الثانية من بعد ظهر الثامن والعشرين من ايلول ، أي قبل دقائق قليلة من انتهاء موعد الانذار ، حزم هتلر أمره ، ووجه الدعوة العاجلة إلى رؤساء حكومات بريطانيا العظمى وفرنسا وايطاليا لمقابلته في ميونيخ ظهر اليوم التالي لحـــل المشكلة التشيكية . ولم يبعث هتلر ، بأية دعوة إلى براغ أو إلى موسكو . وهكذا تقرر أن لا يسمح لروسيا الشريكة في حماية كيان تشيكوسلوفاكيا في حالة تعرضها للعدوان ، بالتدخل . وهكـــذا لم يسمح ايضاً للتشيكيين ، بأن يحضروا صدور الحكم عليهم بالموت .

ويرد السير نيفيل هندرسون، في مذكراته معظم الفضل في انقاذ السلام في

---

١ ــ شميدت ... « ترجمان هتلر » ص ١٠٧ .

٢ ـ رأينا من قبل ، ان هتلر كان قد عبأ بالفعل جميع القوات المتوافرة لديه .

٣ ــ هندرسون « فشل بعثة » ص ١٦٨ ـ ١٦٩ وشميدت « ترجمان هتلر » ص ١٠٨ .

هذه الآونة إلى موسوليني ، وقد أيده في ذلك كثيرون من المؤرخين ، الذين أرخوا هذا الفصل من التاريخ الأوروبي [1]. ولكنني لا أشك في أن هذا الرأي اغراق في السخاء . فلقد كانت ايطاليا أضعف الدول العظمى في اوروبا، وكانت قوتها العسكرية ، تافهة إلى الحد الذي دفع القادة العسكريين الألمان ، كما تشير الى ذلك أوراقهم الرسمية الى اعتبارها مهزلة بل وأضحوكة . فبريطانيا العظمى وفرنسا، هما الدولتان الوحيدتان اللتان تحتلان مكاناً كبيراً في الحسابات الألمانية . ولقد كان رئيس وزراء بريطانيا ، هو الرجـــل الذي حاول إقناع هتلر، منذ البداية ، بأن في وسعه أن يحصل على بلاد السوديت دون حرب . ولقد كان تشمبرلين ، لا موسوليني ، هو الذي جعل تسوية ميونيخ ، شيئاً ممكناً ، فحفظ بذلك السلام ، أحد عشر شهراً اخرى . ولقد كان ثمن هذا السلام ، بالنسبة إلى بلاده، والى حلفائها وأصدقائها، وهو ما سنتحدث عنه فيما بعد، فوق كل تقدير، في اية عملية حسابية مهما كان شكلها، وهو ما قام الدليل عليه في الأحداث التالية .

وبدأ رئيس وزراء بريطانيا في الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والخمسين من بعد ظهر تلك «الأربعاء السوداء» ،التي أخذ سوادها يضعف شيئاً فشيئاً، كما بدا، بالنسبة الى ما كان عليه في ساعات الصباح ، يخطب في مجلس العموم البريطاني في لندن، سارداً باسهاب وتفصيل المشكلة التشيكية والدور الذي لعبه هو وحكومته في محاولة حلها. وراح يتكهن بأن الوضع ما زال موضع الشك، ولكنه قد تحسّن. وأضاف أن موسوليني قد نجح في حمل هتلر على تأجيل التعبئة العامـــة أربعاً وعشرين ساعة أخرى . وبلغت الساعه الرابعة والربع ، وكان قد مضى على تشمبرلين وهو يخطب اكثر من ساعة وثلث الساعة، وقد اشرف على نهاية خطابه. وهنا وقعت المفاجأة. فقد قطع عليه خطابه . إذ سلمه السير جون سيمون ، وزير المالية ، ورقة ، كان اللورد هاليفاكس ، الجالس في مقاعد اللوردات، قد قدمها اليه . وكان تشمبرلين يقول في تلك اللحظة ...

« ومهما كان رأي النواب المحترمين في السنيور موسوليني ، فانني

---

١ - آلان بولوك «هتلر - دراسة في الطغيان ». ص ٤٢٨ ... وقد وردت العبارة التالية: « لقد كان تدخل موسوليني في الحقيقة ، هو الذي قلب الأوضاع كلها » .

اعتقد ، بأن كل واحد منا ، يرحب بهذه البادرة... التي قام بها...
من أجل السلام » .

وتوقف رئيس الوزراء ... ثم تطلع إلى الورقة التي سلمت اليه ، وابتسم ...
ثم راح يقول ...

« وهذا ليس كل ما أود قوله ... فهناك شيء آخر ، أود أن أبلغه إلى المجلس ايضاً ... لقد تلقيت نبأ من الهر هتلر في هـذه اللحظة ، يدعوني فيه إلى لقائه في ميونيخ في صباح غد . ولقد وجه دعوة مماثلة ايضاً إلى السنيور موسوليني والمسيو ديلادييه . وقد قبل السنيور موسوليني الدعوة . وليس لدي من شك في أن المسيو ديلادييه سيقبلها أيضاً . ولا أرى داعياً إلى بيان ما سيكون عليه ردي ايضاً ... » .

أجل لم يكن ثمة من داع إلى ذلك . فلقد استجاب المجلس العريق ، الذي يعتبر والد المجالس البرلمانية ، بمظاهرة هستيرية جماعية ، لم يسبق لهـا مثيل في تاريخه الطويل إلى قوله . وارتفعت الهتافات ، وتطايرت الأوراق ، في الهواء ، وانهالت العبرات، ولم يسمع لها في القاعة إلا دوي واحد ، علا كل ما فيهـامن ضجة وضوضاء ، معرباً عن عواطف الجميع ... «الشكرلله ،على هذا الرئيس » .

وتطلع جان مازاريك ، الوزير التشيكي المفوض ، ونجل مؤسس الجمهورية التشيكوسلوفاكية ، من شرفة رجال السلك الدبلوماتي ، وهو لا يكاد يصدق عينيه . وسارع إلى زيارة رئيس الوزراء ،ووزير الخارجية في داونينغ ستريت، مستعلماً ، عما إذا كانت بلاده ، التي يطلب اليها تقديم كل هـذه التضحيات ، ستدعى الى إجتماع ميونيخ . ورد تشمبرلين وهاليفاكس ، بأنهـا لن تدعى ، وان هتلر لن يستطيع الموافقة على دعوتها . وعرت الدهشة وجه مازاريك وهو يتطلع الى هذين السيدين الانكليزيين اللذين يخافان الله ، وجاهد جهاداً كبيراً ليكبت عواطفه .

وراح الرجل يقول لهما اخيراً ... وإذا كنتما قد ضحيتما ببلادي لحمـاية

السلام العالمي ، فانني سأكون أول من يصفق لكما . أمـــا إذا لم تستطيعاحفظ هذا السلام ، فلترحمكما عناية الله ، أيها السادة [1] » .

* * *

ترى ماذا حدث للمتآمرين منقادةعسكريين ومدنيين ، وفي طليعتهمالفريق هولدر والفريق فون ويتزليبين ، وشاخت وغيزيفيوس وكوردت ، وبقيـــة الجماعة ، والذين كانوا قد اعتقدوا قبيل ظهر ذلك اليوم ؛ كما قال ويتزليبين ،أن ساعتهم قد حانت ؟ إن الرد على هـــذا السؤال ، يمكن أن يرد باختصار على لسانهم هم ، إذ راحوا يتحدثون به فيما بعد ، عندمـــا انتهى كل شيء ، وكانوا تواقين لإقامة الدليل للعالم ، على أنهـــم كانوا يعارضون هتلر أشد المعارضة ، ويقاومون حماقاته المدمرة ، وهي الحماقات التي قادت المانيا إلى خرابها الشامل. بعد حرب طويلة ومهلكة .

ولقد زعموا جميعاً أن نيفيل تشمبرلين كان وغـد المسرحية ! فلقد ارغمهم بموافقته على المجيء الى ميونيخ في اللحظة الأخيرة على الغـــاء جميـــع خططهم للاطاحة بهتلر والعهد النازي !

ففي الخامس والعشرين من شباط عام ١٩٤٦ ، وكانت محاكمات نورمبرغ الطويلة تقترب من نهايتها ، قام الرئيس (الكبتن) سام هاريس ، المحـــامي الامريكي الشاب من أهل مدينة نيويورك ، والذي يعمل مع موظفي النيابـــة العامة الامريكية في المحاكمات ، بتوجيه أسئلة خاصة الى الفريق هولدر ، وراح الفريق يقول :

« كانت خطتنا أن نحتل عسكرياً دار مستشارية الرايخوبعض الدوائر الحكوميـــة الاخرى ولاسيما دور الوزارات التي يقوم على إدارتها أعضاء الحزب ، وأعوان هتلر المقربون ، وجل غايتنا، تجنب سفك الدماء ، ومحاكمة الجميع أمام الشعب الألماني بأسره...

١ـ كان مازاريك قد حدثني فيما بعد عن هذا المنظر . ولكن اوراقي ضاعت .وقد اعتمدت على وصف ويلر ـ بنيت في الصفحتين ١٧٠و١٧١ من كتابه « ميونيخ » .

وقد جاء ويتزليبين ظهر ذلك اليوم الثامن والعشرين من أيلول ، لرؤيتي في مكتبي . ورحنا نبحث القضية . وطلب مني أن اصدر اليه الأمر بالتنفيذ . ورحنا نناقش بعض التفاصيل الاخرى ، كالوقت الذي نحتاجه للتنفيذ . وما شابه ذلك . وجاءت الأنباء اثناء الحديث ، تقول أن رئيس الوزراء البريطاني ، ورئيس الوزارة الفرنسية وافقا على القدوم لمقابلة هتلر ، واجراء محادثات اخرى معه . وكان ويتزليبين حاضراً عندما جاءت هذه الأنباء . ولهذا سحبت منه أمر التنفيذ ، إذ أن الأساس الكلي ، قد اختفى بسبب هذا الواقع ...

« وكنا على ثقة مطلقة من إننا سننجح في خطتنا . ولكن المستر تشمبرلين ، ظهر على المسرح من جديد في هذه اللحظة وأمكن اجتناب خطر الحرب بضربة واحدة ... وهكذا اجتنبت ساعة العنف الحرجة ... ولم يكن ثمة مناص من الانتظار لحلول فرصة اخرى مواتية ... »

وسأله الرئيس هاريس ... « هل أفهم من قولك ، أنه لو لم يأت تشمبرلين إلى ميونيخ ، لكنتم قد نفذتم خطتكم وأطحتم بهتلر ؟ » .

ورد الفريق هولدر قائلاً : « في وسعي أن أقول ، أننا كنا سننفذ الخطة حتماً . وليس في مكنتي أن أقول ، ما اذا كانت ستنجح حتماً » .[1]

وقد انحى الدكتور شاخت أيضاً ، وهو الرجل الذي بالغ بوضوح في محاكمات نورمبرغ ، وفي الكتب التي ألفها فيما بعد ، في الدور الذي لعبه في المؤامرات المختلفة على هتلر ، بالملامة على تشمبرلين ، لفشل الألمان في تنفيذ مؤامرة الثامن والعشرين من ايلول إذ قال :

« لقد اتضح من سير التاريخ اللاحق ، أن هذه المحاولة الأولى ، من جانبي وجانب ويتزليبين ، للقيام بإنقلاب على هتلر ، كانت

١ – المؤامرة النازية والعدوان (الملحق ب) . ص ١٥٥٣ – ١٥٥٨ .

العملية الوحيدة، التي كان في وسعها أن تحقق تحولاً فاصلاً في مصير المانيا . فلقد كانت المحاولة الوحيدة التي تم إعدادها ووضعت لهـا المخططات اللازمة ، قبل مدة طويلة ... وفي الوقت المناسب... فلقد كان في الامكان في خريف عام ١٩٣٨ ، الوثوق من امكان تقديم هتلر إلى المحاكمة أمام محكمة عليا . بينما تطلب جميع المحـاولات اللاحقة للخلاص منه ، وجوب اغتياله وقتله ... وكنت قد قمت بإعداداتي للانقلاب في الوقت المناسب ، ووصلت بهذه الاعدادات إلى عتبة النجاح . ولكن التاريخ شاء أن يقف ضدي . فلقد كان تدخل الساسة الأجانب ، شيئاً لم يكن في وسعي أن أحتـاط له مسبقاً وأُدخله في حسابي »[١] .

وأضاف غيزيفيوس الذي كان المدافع القوي عن شاخت على منصة الشهادة في نورمبرغ قائلاً :

« لقد وقع المستحيل .فلقد اعتزم تشمبرلين وديلادييه الطيران الى ميونيخ . وهكذا قضى على ثورتنا بالفشل . وخيل الي بضـع ساعات أن في وسعنا أن نثور على أي حال . ولكن سرعان مـا أكد لي ويتزليبين أن الجنود لن يثوروا مطلقاً على الزعيم الظافر... لقد أنقذ تشمبرلين هتلر »[٢] .

هل أنقذه حقاً ؟ أو كان هذا القول مجرد مبرر اعتمد عليه المدنيون الألمان والقادة العسكريون لتبرير تقاعسهم عن العمل ؟

ولقد أوضح الفريق هولدر في الاستجواب الذي جرى معه في نورمبرغ ، على يد الرئيس هاريس ، أن هناك ثلاثة شروط لنجاح « العمل الثوري » ... فقد قال :

« ان الشرط الأول هو وجود قيادة واضحة ومصممة . أمـا

---

١ - شاخت « تصفية الحساب » ص ١٢٥ .

٢ - غيزيفيوس « حتى النهاية المرة » ص ٣٢٥ .

الشرط الثاني، فاستعداد الجماهير الشعبية للمضي وراء فكرة الثورة. ويكون الشرط الثالث في حسن اختيار الوقت . وكنا نرى ان الشرط الاول عن وجود القيادة الواضحة المصممة ، قائم تماماً . وكنا نعتقد أيضاً ، ان الشرط الثاني متوافر كذلك ، لأن الشعب الألماني لا يريد الحرب . وهكذا فقد كانت البلاد على استعداد للموافقة على العمل الثوري مخافة نشوب الحرب . وكان الشرط الثالث ، وهو حسن اختيار الوقت ، متوافراً أيضاً ، اذ كنا نتوقع ان يصدر الأمر للقيام بالعمل العسكري في غضون ثمان وأربعين ساعة . وعلى هذا فقد كنا على ثقة مطلقة من نجاحنا .

« ولكن تشمبرلين يقتحم المسرح ، ويتمكن بضربة واحدة من تجنب خطر الحرب » .

وفي وسع المرء ان يشك في ان شرط الفريق هولدر الاول كان متوافراً كما ادعى . اذ لو كانت هناك « قيادة واضحة ومصممة » كما قال ، فما الداعي الى تردد القادة العسكريين أربعة ايام؟ كان المتآمرون يملكون القوة العسكرية الكافية لإزالة هتلر وجميع عهده من الميدان، وكان لدى ويتزليبين فيلق كامل من الجيش، هو الفيلق الثالث، في برلين وضاحيتيها بروكدورف واهليفليدت ، وكان يسيطر كذلك على فرقة مشاة آلية في بوتسدام القريبة. وكان هوفنر - وهو من المتآمرين - يقود فرقة مدرعة في الجنوب بينما كان ضابطا الشرطة الكبيران في العاصمة وهما الكونت فون هيلدورف والكونت فون دير شولنبرغ، يسيطران على قوة ضخمة من رجال الشرطة الحسني التسلح ، لتقديم المساعدة اللازمة . وكان جميع هؤلاء الضباط ، كما قال المتآمرون أنفسهم ، لا ينتظرون إلا مجرد صدور الأمر من هولدر ليقفزوا الى العمل ، على رأس قوة عسكرية طاغية . وكان اهل برلين أيضاً ، قد أفزعهم حتى حدود الموت ان هتلر ينتوي ان يأتي لهم بالحرب ، وكان في وسعهم ، كما يستطيع مؤلف هذا الكتاب ان يؤكد بناء على خبرته ، ان يدعموا الحركة الانقلابية فوراً .

وليس في وسع أي انسان ، ان يؤكد تأكيداً جازماً، ان هولدر وويتزليبين كانا سيعمدان أخيراً الى العمل ، لو لم يوافق تشمبرلين على المجيء الى ميونيخ . ولو أخذنا بعين الاعتبار ، الموقف الواضح ، الذي كان هذان الفريقان يقفانه في تلك الآونة ، والذي لم يكن مهتماً بالاطاحة بهتلر ووضع حد لطغيانه وارهاب عهده ، بقدر اهتمامه بتجنب الوقوع في حرب قضي عليها بالخسارة ، لأمكننا ان نقول باحتمال لجوئهما الى العمل ، لو لم تكن الترتيبات قد أعدت لعقد مؤتمر ميونيخ . لكننا ما زلنا نفتقر الى المعلومات اللازمة لإقامة الدليل على ان هولدر وويتزليبين كانا على وشك اصدار الأمر بالعمل . وكل ما لدينا مجموعة من بيانات حفنة من المشتركين في المؤامرة كانوا تواقين بعد انتهاء الحرب الى إقامة الدليل على معارضتهم للاشتراكية الوطنية،ولا ريب في ان كل ما قالوه وكتبوه دفاعاً عن أنفسهم يثير الكثير من التضارب والتناقض [1] .

واذا صح ما ادعاه هؤلاء المتآمرون ، من ان خططهم كانت على وشك ان تنفذ ، فإن اعلان قيام تشمبرلين برحلته الى ميونيخ ، كان لا بد وان يهيل الارض من تحت أقدامهم . إذ لم يكن في وسع القادة العسكريين ان يعتقلوا هتلر وان يقدموه الى المحاكمة كمجرم حرب ، في الوقت الذي كان من الواضح فيه ، انه على وشك تحقيق نصر هام دون اللجوء الى الحرب .

وكل ما نستطيع التأكد منه وسط هذا الجو من الغموض والشك، هو ما قاله الدكتور شاخت ، الذي يجب ان نصدقه في قوله هذا من ان الفرصة الذهبية التي أتيحت الآن للمعارضة الالمانية للخلاص من هتلر ، ووضع نهاية سريعة للرايخ الثالث وإنقاذ المانيا والعالم من الحرب ، قد ضاعت ولن تعود ثانية . وفي وسع

---

١ – اود ان أضرب هنا مثلاً ، باسباب الفشل التي أوضحها الفريق جورج توماس ، المدير البارع لفرع الاقتصاد والتسلح في القيادة العامة للقوات المسلحة ، وأحد المتآمرين إذ قال : «لقد فشل تنفيذ هذا المشروع لسوء الحظ بسبب،ما ذكره القائد العسكري الذي اختير للقيام بالمهمة ـ وهو ويتزليبين ـ من ان الضباط الشبان ،قد برهنوا على عدم امكان الركون اليهم في عمل سياسي من هذا النوع» .راجع رسالته «التفكير والتطورات» المنشورة في عدد كانون الاول عام ١٩٤٥ من «المجلة الشهرية السويسرية» .

المرء ، إذا جازف بالتعميمات ان يقول ان الألمان مصابون بمرض ايقاع اللوم على الأجانب ، بالنسبة الى كل ما يمنون به من فشل . ولا ريب في ان مسؤولية تشمبرلين وهاليفاكس ، وكذلك دیلادییه وبونیه عن میونیخ وعن كل ما لحق بها من نتائج مفجعة مسؤولية ضخمة وطاغية . ولكن في وسعنا ان نتسامح معهم الى حد ما اذا لم يكونوا قد حملوا على محمل الجد ، نذر «الثورة» التي سيقوم بها لفيف من القادة العسكريين الألمان والمدنيين ، لأن هؤلاء ، كانوا ، ولم يزالوا حتى تلك اللحظة يخدمون هتلر بكل اخلاص ، وبكل مـــا لديهم من مؤهلات . وكان هؤلاء الساسة الاربعة أو بعض مستشاريهم على الأقل في لندن وباريس ، لا يزالون يذكرون الحقائق الصارخة المستمدة من التاريخ الالماني الحديث ،وهي ان الجيش هو الذي ساعد العريف النمسوي السابق على الوصول الى الحكم ، وانه كان مبتهجاً من الفرص التي أتاحها له هذا العريف للتسلح ، ولم يكن قد اعترض كما يبدوعلىالقضاء على الحرية الفردية في ظل الاشتراكيةالألمانية، ولم يكن قد عمل شيئاًلمعارضة قتل أحد جنرالاته وهو فون شلايخر،أو للتخلص بعملية تواطؤ رخيصة من قائده البارز الفريق فون فريتشه،وكان قد مضى مع هتلر في عملية لاغتصاب النمسا ، وزوده بالقوة العسكرية اللازمة لتنفيذ هذا الاغتصاب . ومهما كان اللوم الذي يلقى على كبار دعاة سياسة الترضية في لندن وباريس ، وهو لوم عظيم حتماً ، الا ان الحقيقة تظل صارخة ، وهي ان القادة العسكريين الألمان أنفسهم ، والمتآمرين معهم من المدنيين قد فشلوا في ان يعملوا عندما أتيحت لهم الفرصة المواتية للعمل .

استسلام ميونيخ

٢٩ - ٣٠ ايلول عام ١٩٣٨

استقبل ادولف هتلر في هذه المدينة البافارية الباروكية العجيبة ، التي شرع في غرفها الخلفية القاتمة القائمةفي مقاهيها المنحطة، بداية حياته السياسيةالخفيضة، والتي عانى في شوارعها ، مهزلة حركته الانقلابية الفاشلة في حانة الجعة ،رؤساء

حكومات بريطانيا العظمى وفرنسا وايطاليا ، استقبال الظافرين المنتصرين ، في الساعة الثانية عشرة والنصف من بعد ظهر التاسع والعشرين من ايلول .

وكان قد ذهب في ساعة مبكرة من ذلك الصباح الى كوفستين الواقعة على الحدود النمسوية ـ الألمانية السابقة ، لاستقبال موسوليني ، وللاتفاق معه على أسس العمل المشترك في المؤتمر . وعندما استقل مع ضيفه القطار الى ميونيخ ، كان الفوهرر منشرح المزاج ، كل الانشراح ، وراح يشرح له على الخرائط التي يحملها ، الخطط التي وضعها « لتصفية » تشيكوسلوفاكيا . وقال للدوتشي ، انه إذا لم تسفر المحادثات التي ستبدأ في ذلك اليوم عن نجاح فوري ، فإنه سيعمد الى استخدام السلاح فوراً . ويروي تشيانو ، الذي كان حاضراً المقابلة ، انالفوهرر أضاف قائلاً : « وبالاضافة الى هذا ، فان الوقت سيحين قريباً ، عندما يتحتم علينا ان نحارب أنا وأنت ، جنباً الى جنب ضد فرنسا وانكلترا » . وقد وافقه موسوليني على قوله[1] .

ولم يقم تشمبرلين بمحاولة مماثلة للاجتماع الى ديلادييه مسبقاً ، ولترتيب خطة مشتركة للعمل بين الديموقراطيتين الغربيتين ، تواجهان بها الديكتاتورين الفاشيين . وقد اتضح للكثيرين منا ، الذين كنا على اتصال بالوفدين البريطاني والفرنسي في ميونيخ ، مع مرور ساعات ذلك اليوم ، ان تشمبرلين كان عازماً عزماً أكيداً وقاطعاً عند مجيئه الى ميونيخ ، على ان لا يسمح لأي انسان مهما كان ، تشيكياً كان أو فرنسياً ، بالوقوف في طريق وصوله الى اتفاق سريع مع هتلر .[2] ولم يكن ثمة

---

١ ـ يوميات تشيانو الخفية ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨ ، ص ١٦٦ . وقد ذكر موسوليني في برقية تاريخها ٢٦ حزيران ١٩٤٠ ، هتلر بأنه كان قد وعده في ميونيخ بالاشتراك في الهجوم على بريطانيا . ويوجد نص البرقية في وثائق وزارة الخارجية الالمانية (١٠) ص ٢٧ .

٢ ـ بعث تشمبرلين في الساعة السادسة والدقيقة الخامسة والاربعين من مساء اليوم السابق برسالة الى الرئيس بنيش ، يبلغه فيها رسمياً ، نبأ اجتماع ميونيخ . وقد قال في رسالته : « سأضع مصالح تشيكوسلوفاكيا نصب عيني دائماً ، واني ذاهب الى هناك ، وانا عازم عزماً اكيداً على ايجاد وسيلة للتقريب بين موقفي الحكومتين الالمانية والتشيكوسلوفاكية » . ورد عليه بنيش فوراً برسالة قال فيها : « اني لأرجو ان لا يتخذ أي قرار في ميونيخ قبل الاستماع إلى وجهة نظر تشيكوسلوفاكيا » . (وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٢) الحلقة الثالثة ، ص ٥٩٩ و ٦٠٤) .

من حاجة الى الاحتياط من جانب ديلادييه في ذلك النهار، الذي كان أشبه ما يكون في دوّامة، طيلة ذلك اليوم، ومع ذلك فان تشمبرلين نظراً لتصميمه على هذا الموقف، لم ير من حاجة الى المغامرة.

وبدأت المحادثات في الساعة الثانية عشرة والدقيقة الخامسة والأربعين من بعد ظهر اليوم نفسه فيما يسمى «بدارة الفوهرر» في ميدان «كونيغزبلاتز»، وكانت خالية من اية اثارة او حماس، إذ كانت بمثابة التسليم للفوهرر رسمياً بكل ما يطلبه عندما يطلبه. وقد لاحظ الدكتور شميدت الترجمان الذي لا يضاهى والذي طلب اليه ان يتولى الترجمة من لغات ثلاث هي الألمانية والفرنسية والانكليزية، منذ البداية «جواً من الوئام وحسن النية يسود الاجتماع». وتذكر السفير هندرسون فيما بعد، ان «المحادثات لم تصل في أية مرحلة من المراحل الى حد الحماس والحرارة». وكانت الاجتماعات تعقد بلا رئيس. وساد جو من اللارسمية المحادثات من أولها، واذا ما حكمنا على الواقع من السجلات المدونة عند الألمان [1]، والتي سلطت عليها الأضواء بعد الحرب، تبيّن لنا ان رئيس الوزراء البريطاني، ورئيس الوزارة الفرنسية، كانا يتناقشان في إرضاء هتلر، حتى عندما استهل الاجتماع قائلاً:

«لقد اعلنت في الخطاب الذي القيته في ميدان برلين الرياضي ان علينا ان نزحف في الأول من تشرين الأول مهما كانت النتيجة. وقد تلقيت الرد بأن عملي هذا سيحمل طابع العنف. وهنا يقوم الواجب في تحرير هذا العمل من ذلك الطابع. لكن العمل يجب ان يقع على أي حال».

وشرع المؤتمرون يعملون فوراً، عندما أعلن موسوليني، وكان ترتيبه الثالث في الكلام، إذ ترك ديلادييه الى الأخير، انه «رغبة منه في ايجاد حل عملي للمشكلة». فقد حمل معه اقتراحات خطية محددة. ولا ريب في ان أصول هذه الاقتراحات مهمة للغاية، وقد ظلت مجهولة من تشمبرلين، كما أعتقد، حتى مات. وتشير مذكرات فرانسوا - بونسيه وهندرسون، ان السفيرين كانا

---

١ - وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٢) ص ١٠٠٣ - ١٠٠٨ و ١٠١١ - ١٠١٤).

يجهلان اصول هذه الاقتراحات جهلاً واضحاً ايضاً . ولم تعرف القصة الحقيقية إلا بعد عهد طويل ، من الميتة الفظيعة التي لاقاها الديكتاتوران .

فالخطة التي تقدم بها الدوتشي الآن ، وكأنها اقتراحات منه للوصول الى تسوية ، كانت قد أعدت بصورة عاجلة في اليوم السابق ، في مقر وزارة الخارجية الألمانية في برلين ، وقد تولى اعدادها ، خفية عن فون ريبنتروب ، وزير الخارجية ، كل من غورنغ وفون نوراث ووايز ساكر ، وذلك لأن هؤلاء الثلاثة لم يكونوا يثقون بصحة أحكام ريبنتروب وسداد رأيه . وتولى غورنغ حملها الى هتلر ، الذي اعرب عن ارتياحه لها وقبوله بها ، وسرعان ما قام الدكتور شميدت بترجمتها ترجمة سريعة الى الفرنسية، وسلمت الى السفير الايطالي اتوليكو ، الذي نقلها عن طريق الهاتف الى الديكتاتور الايطالي في رومة، قبيل تحركه باتجاه ميونيخ . وهكذا فإن « الاقتراحات الايطالية » التي أمنت لهذا المؤتمر غير الرسمي ، جدول اعماله الوحيد ، والتي ضمنت له في النهاية الشروط التي غدت أساساً « لاتفاق ميونيخ » لم تكن في الحقيقة ، وعلى سبيل التأكيد الا اقتراحات ألمانية تم اعدادها وطبخها في برلين نفسها [1] .

وكان لا بد ان تظهر هذه الحقيقة واضحة من نص المقترحات التي تطابقت تطابقاً كلياً مع نصوص طلبات هتلر المرفوضة في غودسبرغ ، ولكنها لم تتضح كما يبدو لأعين دیلادييه وتشمبرلين، وأعين سفيريها في برلين . وتقول السجلات

---

١ – روى اريك كوردت ، قصة الاصول الالمانية لاقتراحات موسوليني في الشهادة التي تقدم بها الى المحكمة العسكرية الامريكية الرابعة في نورمبرغ في الرابع من حزيران عام ١٩٤٨ ، في القضية التي رفعتها الحكومة الامريكية على وايز ساكر . وتورد وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٢) في الصفحة (١٠٠٥)، ملخصاً من سجل المحكمة الرسمية . ويروي كوردت القصة ايضاً في كتابه « اكاذيب وحقائق » في الصفحات من ١٢٩ الى ١٣١ . وتؤيد رواية الدكتور شميدت في صفحة ١١١ من كتابه « ترجمان هتلر » ، رواية كوردت وتضيف ان ترجمة اقتراحات الدوتشي كانت امراً سهلاً ، لأنه كان قد ترجمها في برلين في اليوم السابق . وتروي يوميات تشيانو الخفية (ص ١٦٧) في يوميته بتاريخ ٢٩ – ٣٠ ايلول في ميونيخ ان موسوليني اطلع في المؤتمر على الوثيقة التي « كان سفيرنا في برلين قد نقلها الينا في الليلة السابقة على اعتبار انها تمثل رغبات الحكومة الالمانية » .

الألمانية المدونة لوقائع الاجتماع ان رئيس الوزراء الفرنسي « رحب باقتراحات الدوتشي،التي وضعت في روح واقعية وموضوعية » وان رئيس الوزراء البريطاني « رحب أيضاً باقتراحات الدوتشي واعلن انه كان قد فكر كذلك بحل على نفس الخطوط التي وضعها هذا الاقتراح » . أما السفير هندرسون ، فقد كتب فيما بعد ، انه رأى في اقتراح موسوليني « مزجاً بارعــاً يبدو كأنه مبتكر لاقتراحات هتلر من ناحيــة ، والاقتراحات الانكليزية ـ الفرنسية من الناحية الاخرى » ، بينما اعتقد السفير الفرنسي فرانسوا بونيه ، ان الاقتراحات التي درسها المؤتمرون،بدت وكأنها مذكرة بريطانية «اعدها هوراس ويلسون » [1]. وهكذا كان من السهل خداع هـــؤلاء الساسة والدبلوماتيين البريطانيـــين والفرنسيين العازمين عزماً قاطعاً على ترضية هتلر ، مهما كان الثمن .

وهكذا عندما وافق جميع المؤتمرين تلك الموافقة الحارة على « الاقتراحات الايطالية »،لم يعد ثمة من حاجة إلا الى بعض التفاصيل لوضعها وصياغتها .وكان من المنتظر من رجل سبق له ان عمل في التجارة كتشمبرلين،وكان وزيراً سابقاً للمالية ، ان يسأل عن المصـدر الذي سيتولى التعويض على الحكومة التشيكية بالنسبة الى الممتلكات العامة التي سيجري نقلها في بلاد السوديت الى ملكية ألمانيا. ويقول فرنسوا ـ بونيه الذي ذكر ان هتلر بدا شاحب الوجه قلقاً الى حد ما ، وانه كان منزعجاً لتعذر متابعته الحديث بالانكليزية والفرنسية كزميله موسوليني، ان الفوهرر ردّ بحرارة على الرئيس البريطاني مؤكداً انه لن يكون هناك اي تعويض . وعندما اعترض تشمبرلين على الشرط القائل بعدم السماح للتشيكيين المطرودين من المنطقة بنقــــل مواشيهم معهم (وهو شرط كان قائماً في طلبات غودسبرغ المرفوضة)وقال: « . . . هل يعني هذا ان الفلاحين سيطردون وان مواشيهم ستظل في المنطقة ؟ »انفجر هتلر غاضباً وهو يقول لتشمبرلين . . . « ان وقتنا أثمن من ان نضيعه في مثل هذه التفاهات » [2]. واضطر رئيس الوزراء البريطاني الى

---

١ ـ هندرسون ... « فشل بعثة » ص ١٧١ . فرانسوا ـ بونيه ـ سنوات القدر ص ٢٧١
٢ ـ شميدت ... ترجمان هتلر ... ص ١١٠

اغلاق الموضوع .

وكان تشمبرلين قد أصر في البداية على وجوب اشراك ممثل تشيكوسلوفاكي في البحث ، او على ان يكون «قريباً» على حد التعبير الذي استعمله، على الأقل. وأضاف ان بلاده « لا تستطيع ان تتعهد بالطبع ، بأن يتم اخلاء بلاد السوديت قبل العاشر من تشرين الأول ، كما اقترح موسوليني ، اذا لم تتلق تأكيداً من هذا النوع من الحكومة التشيكية » . وراح ديلادييه يؤيده تأييداً مستخذياً في قوله هذا فذكر ان الحكومة الفرنسية « لن تتسامح في الوقت نفسه بأية مماطلة من جانب الحكومة التشيكية » . ولكنه يرى على أي حال ان «وجود ممثل تشيكي تمكن مشاورته ، اذا اقتضى الأمر ، شيء نافع ومفيد » .

ولكن هتلر كان متصلباً في رأيه كالصخر . فهو لن يسمح بمثول أي تشيكي في حضوره . وسرعان ما سلم له ديلادييه بما أراد مستخذياً ؛ أما تشمبرلين فقد تمكن اخيراً من الحصول على تنـــازل طفيف منه ، إذ اتفق اخيراً على السماح لممثل تشيكي بأن يكون في « متناول اليد في الغرفة المجاورة » ، طلباً لاقتراح رئيس الوزراء البريطاني .

وبالفعل وصل ممثلان تشيكيان بعد الظهر الى المكان وهما الدكتور فوجتيش ماستني ، الوزير التشيكي المفوض في برلين ، والدكتور هيوبرت مازاريك ، من رجال وزارة الخارجية في براغ ، وأدخلا بصورة تنطوي على الفتور والبرود الى الغرفة المجاورة . وهناك بعد ان مكثا من الساعة الثانية بعد الظهر حتى السابعة مساء ، لتهدئة أعصابهما الثائرة ، سقطت الصاعقة على رأسيهما أخيراً ، فقد جاء اليهما في السابعة فرانك اشتون -- غواتكين ، العضو السابق في بعثة رانسيمان ، واحد أفراد وفد تشمبرلين اليوم ، لينقل الى مسامعهما الأنباء السيئة ، وأبلغهما ان المؤتمرين توصلوا الى اتفاق عام ، لا يستطيع ان يفضي حتى تلك اللحظة بتفاصيله اليهما ، وإن كانت هذه التفاصيل « اقسى » الى حد مـــا من الاقتراحات الفرنسية ـ البريطانية . وعندما سأله مازاريك ، اذا لم يكن ثمة مجال ، للإستماع الى وجهة نظر بلادهما ، رد الانكليزي قائلاً ، كما روى الممثل التشيكي فيما بعد لحكومته :

« بأنني أبدو وكأنني اتجاهل الوضـــع الصعب الذي تواجهه الدول الكبرى ، وكأنني لا استطيع ان افهم مدى الصعوبة في التفاوض مع هتلر » .

واستدعي التشيكيان البائسان في الساعة العاشرة مساء ، لمقـــابلة السير هوراس ويلسون المستشار الأمين لرئيس الوزراء البريطاني ، وقد أبلغهما ويلسون نيابة عن رئيسه ، النقاط الأساسية في اتفاق الدول الأربع ، وسلم اليهما خريطة للمناطق السوديتية التي يجب ان يجلوا التشيكيون عنها فوراً . وعندما حاول المبعوثان التشيكيان الاحتجاج ، راح الموظف البريطاني يقطع عليهما طريقه قائلاً ان ليس لديه ما يضيفه على ما أبلغهما إياه ، ثم بادر الى مغادرة الغرفة فوراً . وواصل التشيكيان الاحتجاج الى اشتون-غواتكين ، الذي ظل معهما في الغرفة ولكن دون جدوى .

وقال لهما وهو يستعد للخروج ... « واذا لم تقبلوا بهذا الاتفاق ، تحتم عليكم ان تسووا مشاكلكم مع الالمان وحدكم . وقد يبلغكم الفرنسيون هذا بصورة اكثر نعومة . ولكن في وسعكم ان تصدقوني عندما أقول لكم ان الفرنسيين يشاطروننا الرأي . إنهم لم يعد لهم اهتمام بالموضوع » .

وكانت هذه هي الحقيقة بعينها ، على الرغم مما بدا فيها من مرارة في عيون الموفدين التشيكيين . فبعد دقائق قليلة من حلول الساعة الواحدة من صباح الثلاثين من ايلول . وقع كل من هتلر وتشمبرلين وموسوليني ودیلادييه [1] ، وعلى هذا

---

١ - ارخ الاتفاق في التاسع والعشرين من ايلول ، على الرغم من ان التوقيع الفعلي عليه لم يتم إلا في الساعات المبكرة من صباح الثلاثين من ايلول . وقد نص الاتفاق على ان يتم الاحتلال الالماني « للمناطق المأهولة بغالبية المانية » على اربع مراحل بين الاول من تشرين الاول والسابع منه . اما المنطقة الباقية التي ستتولى «اللجنة الدولية» تخطيط حدودها ، فيتم احتلالها قبل العاشر من تشرين الأول . وتقرر أن تتألف اللجنة المذكورة من ممثلين عن الدول الأربع الكبرى وتشيكوسلوفاكيا . وقد وافقت بريطانيا وفرنسا وايطاليا «على ان يتم الجلاء عن المنطقة قبل العاشر من تشرين الاول ، دون ان تصاب التجهيزات والمؤسسات فيها بأي ضرر او أذى ، وتعتبر الحكومة التشيكية مسؤولة عن اتمام الجلاء دون الحاق الضرر بهذه التجهيزات » .

وتتولى «اللجنة الدولية» ايضاً إعداد العدة لاجراء استفتاء على «ان لا يتأخر موعده عن نهاية شهر تشرين الثاني» وذلك في المناطق التي يشك فيها في الطبيعة العرقية والعنصرية لأهلها ، وان =

الترتيب ، على اتفاق ميونيخ الذي قضى بأن يبـــدأ الجيش الألماني زحفه على تشيكوسلوفاكيا في الأول من تشرين الأول ، تنفيذاً لوعد الفوهور ، على ان يتم احتلال منطقة السوديت في العاشر منه . وهكذا حصل هتلر في ميونيخ على ما ضُنّ عليه به في غودسبرغ .

وظلت هناك قضية مؤلمة للضحايا على الأقل ، وهي كيفية ابلاغ التشيكيين بما يتوجب عليهم تسليمه ، ومتى يجب ان يتم التسليم . ولم يكن هتلر وموسوليني معنيين بهذا الجزء من الحفلة،ولذا فقد انسحبا تاركين هذه المهمة الى ممثلي فرنسا حليفة تشيكوسلوفاكيا والى ممثلي بريطانيا العظمى . وقد وصف مازاريك المنظر،في التقرير الرسمي الذي بعث به الى وزارة الخارجية التشيكية إذ قال:

« وفي الساعة الواحدة والنصف صباحاً ، قادونا الى القاعة التي شهدت المؤتمرالذيانتهى.ورأينا هناك أنا والدكتور ماستني كلاً من المستر تشمبرلين والمسيو ديلادييه والسير هوارس ويلسون والمسيو ليغير (السكرتير العام لوزارة الخارجية الفرنسية)، والمستر أشتون غواتكين . وكان الجو مقبضاً للنفس . فالحكم بالاعدام يوشك على الصدور . وبدأ الفرنسيون في حالة الهياج العصبي الواضح ، تواقين للحفاظ على السمعة الفرنسية أمام المحكمة. وأشار المستر تشمبرلين في مقدمة طويلة ألقاها كخطاب متحمس الى الاتفاق الذي وقع ، ثم سلم نصه الى الدكتور ماستني ... »

= تقوم كذلك بتقرير الحدود الجديدة نهائياً.واعلنت بريطانيا وفرنسا في ملحق للاتفاق انهما تعلنان تأكيدهما « لعرضهما المتعلق بايجاد ضمانة دولية للحدود الجديدة للدولة التشيكوسلوفاكية ، ضد كل عدوان يقع عليها دون استفزاز . واعلنت المانيا وايطاليا بدورهما ، انهما عندماتتم تسوية مشكلة الاقليات البولونية والمجرية ، سيضمنان حدود تشيكوسلوفاكيا ضماناً مماثلا » (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٢) ص ١٠١٤-١٠١٦) .

ولم ينفذ التعهد باجراء الاستفتاء قط . ولم تقم المانيا اوايطاليا باعطاء الضمانة لتشيكوسلوفاكيا ضد العدوان حتى بعد ان تمت تسوية مشكلة الاقليات البولندية والمجرية ، كما ان بريطانيا وفرنسا امتنعتا كما سترى فيما بعد ، عن الوفاء بالتزاماتهما .

ويمضي مازاريك، فيقول انه ورفيقه شرعا في توجيه بعض الأسئلة ولكن ...

« كان المستر تشمبرلين يتثاءب باستمرار، دون ان يقوم بأي مجهود لإخفاء تثاؤبه. وسألت المسيو ديلادييه والمسيو ليغير ما إذا كانا ينتظران بياناً من حكومتنا أو رداً على الاتفاق. وبدا المسيو ديلادييه في حالة عصبية عنيفة. ورد المسيو ليغير، بأن الوقت ضيق مع الكبار الأربعة. وأضاف مسرعاً في جوابه، وبشيء من التظاهر بالهدوء المتصنع، انهم لا يتوقعون رداً من جانبنا، وانهم يعتبرون قبولنا بالاتفاق شيئاً منتهياً، وان على حكومتنا ان توفد قبل الساعة الثالثة من مساء اليوم نفسه، ممثلاً الى برلين ليشهد اجتماع اللجنة الدولية، وان على الضابط التشيكي، ان يكون في برلين ليعدّ مع اعضاء اللجنة تفاصيل الجلاء عن المنطقة الأولى. وأضاف ان الجو، قد بدأ يميل الى الخطورة، بالنسبة الى العالم كله.

« وكان في حديثه من الخشونة ما كفانا ...... ولقد سلك سلوك الفرنسيين حقاً. أما المستر تشمبرلين، فلم يخف ما يحس به من تعب واعياء. وقدموا الينا خريطة ثانية مصححة. وهكذا أنهوا عملهم معنا، وبات في وسعنا ان ننصرف [1] ».

وعندما أعود بذاكرتي الآن الى ذلك اليوم، اتمثل أمامي في تلك الليلة القدرية، هتلر وهو يهبط سلم الدارة بخطوات واسعة، وقد تألقت عيناه ببريق النصر بعد انتهاء الاجتماع، واتمثل موسوليني وهو يزهو مختالاً كالطاووس ببزته العسكرية الخاصة، واتصور تشمبرلين وهو يواصل التثاؤب، وتبدو عليه علائم الارتياح والنعاس وهو يعود الى الفندق في «ريجينا بالاس».

---

١ – من التقرير الرسمي الذي بعث به الدكتور مازاريك الى وزارة خارجية براغ. المصادر هي ... وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٢) ص ١٠١٤ – ١٠١٦ وثائق وزارة الخارجية البريطانية – الحلقة الثانية – الجزء الاول ص ٢٢٧. ومؤلفات شيانو وشميدت وهندرسون. وفرانسوا – بونيه ووايز ساكر.

ودونت في يوميتي تلك الليلة أقول :

« وبدا لي ديلادييه من الناحية الأخرى رجلاً محطماً ومهزوماً كل الهزيمة. وسرعان ما وفد الى فندق ريجينا ليودع تشمبرلين .... وراح أحد الموجودين يسأله ... « يا سيدي الرئيس ، هـل أنت راض عن الاتفاق ؟ » ... والتفت ديلادييه الى سائله ، وكأنه يود ان يقول له شيئاً ... ولكنه صمت . وبدا عليه الاعياء الشديد ، وصورة الانسان المغلوب على أمره .... وامتنعت الكلمات على لسانه ، وراح يتعثر ، جاراً قدميه ، وهو يخرج من الغرفة صامتاً [1] ».

ولم يكتف تشمبرلين بما أجراه من احاديث مع هتلر ، لتوطيد اركان السلام العالمي . ففي الساعات المبكرة من صباح اليوم التالي ، الثلاثين من ايلول ، راح يسعى الى لقاء الفوهرر في دارته الخاصة ، بعد ان انعشته الساعات القليلة التي نامها ، وأحس بالارتياح مما حققته متاعب اليوم المنصرم من نتائج ، ليبحث معه في أوضاع اوروبا الأخرى ، وليحصل منه على شيء من التساهلات ، خيّل اليه انها ستكون ذات فائدة في تحسين وضعه السياسي في بلاده .

ويقول الدكتور شميدت ، الذي قـام بدور المترجم في هـذا الاجتماع الطارىء ، والذي كان الشاهد الوحيد لما دار فيه من أبحاث ، ان هتلر بـدا شاحباً وفي حالة انفعال . وأضاف ان الفوهرر استمع وهو شارد الذهن ، الى رئيس الوزارة البريطانيـة الثرثار ، وهو يعرب عن ايمانه بأن المانيا ستسلك « سلوكاً كريمـاً في تنفيذ اتفاق ميونيخ » ، ويكرر أمله بأن ينطوي سلوك التشيكيين « على التعقل بحيث لا يثيرون متـاعب جديدة » ، وبأن لا يقوم هتلر ، حتى ولو أثاروا هذه المتاعب ، بضرب براغ جواً « موقعاً في أهلها من المدنيين خسائر بالغة من جراء هذا القصف الجوي » . ولم تكن هذه الأقوال إلا مقدمة لخطاب طويل وداوٍ لا يكاد المرء ان يصدق صدوره عن رئيس وزراء بريطانيا ، حتى ولو كان هذا الرئيس ، هو الذي استسلم في اليوم السابق ذلك

١ – المؤلف – يوميات برلين . ص ١٤٥ .

الاستسلام المخزي المعيب للديكتاتور الألماني . ولكن الدكتور شميدت قدسجل هذا الخطاب في وثيقة رسمية من وثائق وزارة الخارجية الألمانية . وعندما يقرأ المرء حتى في هذه الأيام ، الوثيقة المصادرة ، يبدو عليه انه لا يستطيع تصديقها .

ولم تكن ملاحظات الرئيس البريطاني الاولى ، إلا مقدمة لما تلاها من أحاديث . فبعد هذا العرض غير المنقطع،الذي راح تشمبرلين يتلوه على مسامع الديكتاتور الألماني المتهجم والذي ضمنه اقتراحاته للتعاون بين البلدين في إنهاء الحرب الأهلية الاسبانية (التي كان المتطوعون الألمان والايطاليون في طريق كسبها لفرانكو) ، وفي العمل على نزع التسلح ، وضمان الرخاء الاقتصادي للعالم، وتحقيق السلام السياسي لأوروبا،وحتى للتعاون بينهما على حل المشكلة الروسية، أخرج الرئيس البريطاني من جيبه ورقة كان قد أعدها ، وأعرب عن أمله في ان يوقعاها معاً ، ليصدراها فوراً وهذا نص ما جاء فيها :

« عقدت أنا فوهرر ألمانيا ومستشارها اجتماعاً آخر اليوم مع رئيس وزراء بريطانيا واتفقنا معاً على اعتبار العلاقات الإنكليزية – الألمانية محتلة مركز الصدارة والأهمية بالنسبة لبلدينا ولأوروبا كلها .

« ونحن نعتبر الإتفاق الذي وقعناه ليلة أمس،والمعاهدة البحرية الانكليزية الألمانية ، رمزين للرغبة المسيطرة على شعبينا في ان لا يعودا الى الاشتباك في حرب أخرى مع بعضهما .

« ونحن عازمان على ان تكون طريقة التشاور هي الوسيلة التي نتبناها لمعالجة أية قضية أخرى قد تهم بلدينا ، كما نصمم على مواصلة جهودنا لازالة كل أسباب الخلاف الممكنة ، وان نسهم بذلك إسهاماً مباشراً في تثبيت دعائم السلام الأوروبي » .

ويروي الدكتور شميدت في تقريره الرسمي ، ان تشمبرلين قد دهش دهشة بالغة من السرعة الكبيرة التي تلا فيها هتلر الاعلان الرسمي ، والتي وقعه بها .

وكان الانطباع الذي حمله الراوي ان الفوهرر قد وافق على الصيغة المعروضة بشيء من التردد ... « رغبة منه في إرضاء تشمبرلين » الذي سرعان ما راح يوجه «شكره الحار الى الفوهرر ... ويؤكد الأثر النفسي الذي يتوقعه من هذه الوثيقة » .

ولم يعرف رئيس الوزراء البريطاني المخدوع ، بالطبع ، ان هتلر وموسوليني كانا قد اتفقا قبل توقيع تلك الوثيقة ، كما كشفت الوثائق الألمانية والايطاليـة فيما بعد ، على ان يخوضا ، « جنباً الى جنب » الحرب ضد بريطانيـا العظمى . ولم يتمكن الرئيس البريطاني ايضـاً من استشفاف ، ما كان يعده هتلر في عقله الكئيب من خطط ، سرعان ما تتكشف لنا [1] .

وعاد تشمبرلين الى لندن كما عاد ديلادييه الى باريس ، وقد سيطرت عليهما نشوة النصر والظفر . وواجه الرئيس البريطاني الذي أثمله السرور حشداً ضخماً من الجماهير التي اكتظت في داوننغ ستريت ، وهو يلوح بيده الوثيقة التي وقعها مع هتلر . وبعد ان استمع الرئيس الى الجمـــاهير وهي تهتف « لنيفيل الطيب العجوز » ، منشدة كذلك بشيء من الحماس أنشودة « إنه حقاً لشخص طيب سعيد » أطـــل ، تشمبرلين ، من نافذة في الطبقة الثـانية من الدارة رقم ١٠ في داوننغ وألقى عليهما الكلمات القليلة التالية :

«هذه هي المرة الثانية ، أيها الأصدقاء الخلص، في تاريخنا ، يعود فيهـــا السلام من المانيا الى داوننغ ستريت محملاً بالشرف والكرامة [2]. وإنني لأعتقد أيها السادة ان السلام سيسود العصر الذي نعيشه » .

وراحت صحيفة «التايمز » تعلن انه «لم يعد قط أي فاتح منتصراً من ميادين القتال ، كما عاد تشمبرلين متوجاً بأكاليل الغار الشريفة » ، وظهرت حركة

---

١ ــ مصادر هذا الاجتماع – وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٢) ص ١٠٠١، وثائق الوزارة (٤) ص ٢٨٧ ــ ٣٩٣ . كتاب شميدت « ترجمان هتلر » ص ١١٢ – ١١٣ . وثائق وزارة الخارجية البريطانية ـ الحلقة الثالثة (٢) . رقم ١٢٢٨ .

٢ – الاشارة هنا الى عودة دزرائلي من مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ .

تدعو الى القيام «بحملة قومية لتقديم الشكر» الى تشمبرلين ، تكريماً له ، ولكن الرئيس اعتذر عن قبولها اعتذاراً لطيفاً. وكان داف كوبر وزير البحرية هو الشخص الوحيد الذي استقال من الحكم احتجاجاً على استسلام ميونيخ. وعندما التأم شمل مجلس العموم ، لمناقشة السياسة الخارجية ، وهبّ ونستون تشرشل ، وكان لا يزال صوتاً وحيداً تائهاً في الصحراء ، ينطلق بكلماته الخالدة ... « لقد تعرضنا لهزيمة ساحقة لا مثيل لها »، ارغمه النواب ، كما روى هو فيما بعد في مذكراته ، على التوقف عن الكلام ، حتى تهدأ عاصفة الاحتجاج التي أثارتها اقواله .

* * *

وكانت الحالة النفسية في براغ ، مختلفة بالطبع تمام الاختلاف . ففي الساعة السادسة والدقيقة العشرين من صبـــاح الثلاثين من ايلول ، تولى القائم بالاعمال الالماني في براغ ، ايقاظ الدكتور كروفتا وزير خارجية تشيكوسلوفاكيا من نومه ، ليسلمه نص اتفاق ميونيخ ، مع الطلب الموجه الى تشيكوسلوفاكيا لإيفاد ممثلين عنها الى الاجتماع الاول الذي ستعقده «اللجنة الدولية» في الساعة الخامسة من ذلك اليوم في برلين للاشراف على تنفيذ الاتفاق .

ولم يكن هناك سبيل آخر ، امام الرئيس الدكتور بنيش ، الذي واصل عقد الاجتماعات في قصر « هرادشين » مع القادة السياسيين والعسكريين ، الا ان يذعن. إذ لم تكتف بريطانيا وفرنسا، بالتخلي عن بلاده ، وانما باتتا على استعداد لدعم هتلر في حالة لجوئه الى استخدام القوة المسلحة اذا رفضت تشيكوسلوفاكيا الشروط التي وضعت في ميونيخ . واستسلمت تشيكوسلوفاكيا في الساعة الثانية عشرة والدقيقة الخمسين من بعد ظهر ذلك اليوم ، واعلنت في بلاغها الرسمي الذي اصدرته الى العـالم ، ان استسلامها هذا « مصحوب بالاحتجاج » . وراح الفريق سيروفي رئيس الوزراء الجديد يعلن بمــرارة ، في الرسالة الـتي أذاعهـا على الشعب التشيكوسلوفاكي ، في الساعة الخامسة مساء قائلاً : « لقد تخلوا عنا وخانونا . وأصبحنا نقف وحيدين » .

وواصلت بريطانيـا وفرنسا ، الضغط حتى النهاية ، على الدولة التي توليا

غوايتها وخداعها . وراح وزراء بريطانيا وفرنسا وايطاليا في براغ ، يقابلون في ذلك اليوم ، وزير الخارجيـــة الدكتور كروفتا ، للتأكد من ان تشيكوسلوفاكيا لن تثور في اللحظة الأخيرة ، احتجاجاً على الاستسلام. وبعث الدكتور هينكه ، القائم بالاعمال الألماني الى برلين برقية يشرح فيها الموقف قائلاً :

« عندما حاول الوزير الفرنسي توجيـه بعض عبارات العزاء الى كروفتا ، راح وزير الخارجية التشيكي يقاطعه قائلاً : « لقد ارغمنا على قبول هذا الوضع . وقد انتهى الآن كل شيء . لقد جاء دورنا اليوم ، ولكن دور غـــيرنا سيحل غداً » . وافلح الوزير البريطاني بعد مشقة بالغة في ان يقول للوزير التشيكي بأن تشمبرلين قد بذل كل ما في وسعه ، ولكنه تلقى عين الرد الذي تلقاه زميـله الفرنسي . لقد كان وزير الخارجية التشيكي ، محطماً تمام التحطيم ولم يعرب إلا عن رغبـــة واحدة ، وهي ان يسارع الدبلوماتيون الثلاثة بمغادرة الغرفة ، وتركه الى افكاره [1] » .

واستقال الدكتور بنيش في الخامس من تشرين الأول ، تلبيـة لإصرار المانيا على استقالته ، وعندما اتضح له ان حياته معرضة للخطر ، فر الى انكلترا ، ليعيش في منفـــاه . وقد خلفه في الرئاسة مؤقتاً الفريق سيروفي . وفي الثلاثين من تشرين الثاني ، انتخبت الجمعية الوطنية الدكتور اميل هاشا ، رئيس المحكمة العليا ، وهو رجل حسن النية ، طيب القلب ، ضعيف الشخصية، ليكون رئيساً لما تبقى من تشيكوسلوفاكيا ، البلد الذي غدت تسميته الرسمية الآن ، بايجاد فاصل بين الكلمتين اللتين يتألف منهما الاسم « تشيكو ـ سلوفاكيا » ترمز الى الحكم عليه بالموت .

وراحت « اللجنة الدولية » تسلم الآن لألمانيا ، في تشيكوسلوفاكيا ما نسي تشمبرلين وديلادييه تسليمه اليها في ميونيخ . وقد تألفت هذه اللجنة بسرعة من سفراء ايطاليـــا وبريطانيا وفرنسا ومن وزير تشيكوسلوفاكيا في برلين

---

١ ـ وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٤) ص ٤ ـ ٥ .

بالاضافة إلى البارون فون وايز ساكر وزير الدولة في وزارة الخارجية الألمانية . وكان كل نزاع على أرض اضافية، سرعان ما يسوى لمصلحة الألمان ، تحت وطأة التهديد المتواصل من هتلروالقيادة العليا للقوات الألمانية المسلحة باللجوء الى القوة المسلحة . واقترعت اللجنة أخيراً وفي الثالث عشر من تشرين الأول على العدول عن الاستفتاء الذي اقر إتفاق ميونيخ اجراءه في المناطق المتنازع عليها، إذ رأت اللجنة ان لاضرورة لهذا الاستفتاء .

وراح البولنديون والمجريون ، بعد التهديد باستخدام القوة ، ضد البلاد التي غدت بلا حول أو طول ، ينتزعون منهـا كالنسور مساحات من الأراضي التشيكوسلوفاكية . واستولت بولندة بالحاح من وزير خارجيتها جوزيف بيك، الذي قدر له أن يغدو في الأشهر الاثني عشر المقبلة شخصية بارزة في هذا السرد التاريخي ، على نحو من ٦٥٠ ميلاً مربعاً من الأرض حول تيشين تضم نحواً من (٢٢٨) الفاً من السكان بينهم (١٣٣) الفاً من التشيكيين . واستولت المجر على قطعة اكبر ، في الجائزة التي اقرها لها شيانو وريبنتروب في اجتماعها في الثاني من تشرين الثاني،فقد حصلت على(٧٥٠٠)ميل مربع من الارض تضم نصف مليون من المجريين و(٢٧٢) الفاً من السلوفاكيين .

وأرغمت البلاد المجزّأة التي غدت الآن فاقدة لمقومات الدفاع ، تلبية لأوامر برلين ، على قبول حكومة موالية لألمانيا ذات ميول فاشية واضحة ، واتضح تمام الوضوح أن بقاء الدولة التشيكوسلوفاكية ، غدا منذ هذه اللحظة رهناً بمشيئة زعيم الرايخ الثالث .

نتـــائج ميونيـــخ

وهكذا حصل هتلر بموجب شروط اتفاق ميونيخ على معظم الطلبات التي تقدم بها في غودسبرغ ، بينما تولت « اللجنة الدولية » إذعاناً منها لتهديداته ، إعطاءه اكثرمما سبق له ان طلبه.وأرغمت التسوية النهائية التي تم الوصولاليها في

العشرين من تشرين الثاني ،تشيكوسلوفاكيا، على التسليم لألمانيا بأحد عشر الف ميل مربع من الارض يسكنها نحو من (٢،٨٠٠،٠٠٠) من الالمان السوديت وثمانمائة الف من التشيكيين. وتضم هذه المنطقة كافة التحصينات التشيكية،التي كانت تؤلف حتى ذلك التاريخ ، أكثر الخطوط الدفاعية مناعة في اوروبا ، إذا استثنينا خط ماجينو في فرنسا .

ولم يكن هذا كل شيء . فقد تحطم جهاز تشيكوسلوفاكيا في طرق مواصلاتها الحديدية والبرية والهاتفية والبرقية تحطيماً كلياً . وتقول الأرقام الالمانية نفسها ان تشيكوسلوفاكيا المجزأة خسرت (٦٦) في المائة من فحمها و (٨٠) في المائة من الفحم المعدني و(٨٦) في المائة من موادها الكيمائيةو (٨٠) في المائة من اسمنتها ، و (٨٠) في المائة من صناعة نسيجها و (٧٠) في المائة من حديدها وفولاذها و(٧٠) في المائة من قوتها الكهربائية و(٤٠)في المائة من خشبها . وتم تمزيق شعب صناعي ناجح تمزيقاً كاملاً واصبح معرضاً للإفلاس بين عشية وضحاها .

وليس من الغريب والحالة هذه أن نجد يودل ، يدوّن طرباً في يومياته على تلك الليلة في ميونيخ ما يلي :

« لقد وقع ميثاق ميونيخ ، وانتهت تشيكوسلوفاكيا كدولة قوية .... وقد تمكنت عبقرية الفوهرر وتصميمه حتى ولو أدى الأمر الى حرب عالمية من تحقيق نصر جديد دون اللجوء الى القوة. ويتركز الأمل الآن في ان يكون المتشككون والضعفاء ، والمتخوفون قد تحولوا إلى شيء آخر وان يظلوا كذلك [١] » .

وحقاً لقد تحول الكثيرون من المتشككين الى مؤمنين ، أما القلة الباقية منهم ، فقد هووا في غمرة طاغية من اليأس . وثبت ان القادة العسكريين من امثال بيك وهولدر ، وويتزليبين ومستشاريهم المدنيين كانوا على خطأفي رأيهم ، فقد حقق هتلر ما أراد ، وتمكن من إحراز نصر ضخم آخر ، دون أن يطلق

---

١ ـ يوميات يودل ـ المؤامرة النازية والعدوان (٤) ص ٣٦٨ .

رصاصة واحدة . وحلقت مكانته في ذرى جديدة . وليس في وسع إنسان ، وجد في المانيا ، بعد مؤتمر ميونيخ ، كما وجـد مؤلف هذا الكتـاب ، أن ينسى ما سيطر على الشعب الالماني من نشوة النصر والابتهاج . فلقـد غمرهم شعور طاغ من الإرتياح لتجنب الحرب ، واستفزهم احسـاس ضخم من الكبرياء والزهو لما حققه هتلر من نصر دون أن يسفك دماً ، لا على تشيكوسلوفاكيا وحدها بل وعلى بريطانيا العظمى وفرنسا أيضـاً . وكانوا لا يتوانون عن تذكير من يقابلهم بأن الفوهرر قد تمكن في غضون ستة أشهر فقط ، من احتلال النمسا ومناطق السوديت ، وأن يضيف عشرة ملايين الى مجموع سكان الرايخ الثالث ، وأن يضم الى أراضيه مناطق سوقية (استراتيجية) ضخمة . مهدت لالمانيا السبيل للسيطرة على الاجزاء الجنوبية الشرقية من اوروبا. وقد تم كل ذلك دون أن تفقد المانيا رجلاً واحداً من أبنائها. وتمكن هتلر بغريزة العبقري ، النادر الظهور في المانيا وتاريخها، أن يسيطر لا على الدول الصغيرة في أواسط اوروبا ويرهبها فحسب بل وعلى الدول الديموقراطية الغربية الكبرى أيضاً ، وفي مقدمتها بريطانيا العظمى وفرنسا، وأن يرغمها على الإذعان لمشيئته . وقد ابتكر بنجاح مذهل اسلوب « الحرب السياسية » وسوقيتها ، واستعملها استعمالاً ناجحاً جعل الحرب الفعلية أمراً لا ضرورة له البتة .

وفي غضون ما لا يزيد عن أربع سنوات ونصف، تمكن هذا الرجل المغمور الاصل والوضيع القواعد، من أن يشمخ بألمانيا المفلسة تقريباً والمنزوعة السلاح ، والخاضعة للفوضى ، والمعتبرة أقل الدول الكبرى شأناً وأضعفها قوة ، وأن يصل بها الى وضع باتت تعتبر فيه أقوى دولة في العالم القديم، تقف أمامها الدول الاخرى ، وبينها بريطانيا أيضاً وفرنسا ، مرتجفة هلوعـة . ولم تجرؤ دول فرساي الظافرة ، في أية مرحلة من مراحل هذا الارتقاء المذهل ، على محاولة وقفه ، حتى عندما كانت تملك القوة الكافيه لتحقيق ذلك . وفي ميونيخ ، التي سجلت الانتصار الاكبر لألمانيا، انجرفت بريطانيا وفرنسا الى الحد الذي دفعها الى محاولة مساعدة هذا الإرتقاء والتضخم . ولا ريب في أن ما أدهش هتلر وأذهله،

من مستخذية كهذه التي تقفها الدولتان الكبيرتان أمامه ، قد أذهل الفريق بيك وهاسيل وغيرهما أيضاً من رجال تلك الفئة الصغيرة من المعارضين، إذ أدركوا، أن أياً من الرجال المسيطرين على حكومتي بريطانيا وفرنسا ، والذين كثيراً ما أسماهم هتلر «بالحشرات الصغيرة» امتهاناً لهم في أحاديثه الخاصة بعد ميونيخ ، لم يكن ليقدر نتائج هذا العجز في الرد رداً قوياً وفعلياً على حركات الفوهرر العدوانية المتوالية .

ويبدو أن ونستون تشرشل كان الوحيد في انكلترا ، الذي فهم هذه النتائج وقدرها حق قدرها ، ولم يكن هناك من اوضحها ايضاحاً كافياً اكثر منه في الخطاب الذي ألقاه في مجلس العموم بعد ميونيخ ، وفي الخامس من تشرين الأول عندما قال :

« لقد منينا بهزيمة كلية ، لا مثيل لها .... وها نحن نجد أنفسنا في خضم كارثة من الطراز الأول. فقد باتت الطريق مفتوحة إلى الدانوب ... وإلى البحر الأسود ايضاً .... وسنرى عما قريب جميع بلاد أوروبا الوسطى وحوض الدانوب ، تجر واحدة إثر أخرى إلى فلك السياسات النازية .... الذي يتلقى الإشعاع من برلين.... ولا يخيل لكم أن هذه هي النهاية ... فهي في الحقيقة بداية البداية ... » .

ولكن تشرشل لم يكن في الحكم آنذاك ، وضاعت أقواله في مهاب الرياح .

فهل كان هناك ضرورة لإستسلام الانكليز والفرنسيين في ميونيخ ؟ وهل كان هتلر جاداً في تهديداته ، ولا يلجأ إلى البلف ؟

إن الرد على هذين السؤالين ، أصبح معروفاً الآن . وهو لا يعدو كلمة «لا». فجميع القادة العسكريين الذين كانوا على اتصال بهتلر ، والذين عاشوا إلى ما بعد انتهاء الحرب ، يتفقون على انه لو لم يقع اجتماع ميونيخ ، لهاجم هتلر تشيكوسلوفاكيا في الأول من تشرين الأول عام ١٩٣٨ . وهم يفترضون ، انه مهما كانت الترددات المؤقتة آنذاك في لندن وباريس وموسكو ، فإن بريطانيا

وفرنسا وروسيا ، كانت ستخوض الحرب حتماً .

ولعل كل ما يهم السرد التاريخي الراهن في هذه المرحلة،أن القادة العسكريين الألمان ، يتفقون دون استثناء ، على ان المانيا كانت ستخسر الحرب حتماً ، وفي وقت قصير . أما ادعاء أنصار تشمبرلين وديلادييه ، وكانوا كثراً في ذلك الحين بأن ميونيخ قد أنقذت الغرب لا من الحرب فقط بل ومن الهزيمة فيها ،وحفظت بالتالي مدينتي لندن وباريس من أن تزالا من الوجود بقنابل السلاح الجوي الألماني الفتاكة ، فلا أساس له من الصحة ، إذ نفاه اولئك الذين كانوا يعرفون الحقيقة أكثر من غيرهم، وأعني بهم القادة العسكريين الألمان ولا سيما اولئك،المقربين من هتلر والذين تعاونوا معه وساعدوه بحماس منقطع النظير منذ البداية حتى النهاية.

ولعل أبرز الأنوار الكاشفة هذه قد سطع من جانب الفريق كايتل ، الرئيس لأعلى للقيادة العليا للقوات المسلحة ، ورفيق هتلر ، والواقف إلى جانبه في كل حين .فعندما وجه السؤال اليه في محاكمات نورمبرغ عن موقف القادة العسكريين الألمان ورأيهم في اجتماع ميونيخ ، قال :

« لقد كنا جد سعداء لأن الامر لم يتطور إلى عمل عسكري . ولقد كان من رأينا أن وسائلنا الهجومية ضد تحصينات الحدود في تشيكوسلوفاكيا لم تكن كافية .ولقد كنا نفتقر من ناحية عسكرية مجردة الى الوسائل الهجومية التي يتطلبها اختراق تحصينات منيعة على الحدود » [1] .

وكان الخبراء العسكريون في دول الحلفاء يفترضون دائماً أنه كان في وسع الجيش الالماني ان يقتحم تشيكوسلوفاكيا بسهولة ، ولكن في وسعنا ان نضيف إلى شهادة كايتل السابقة بأن هذا الافتراض كان خاطئاً ، شهادة اخرى صدرت عن المشير فون مانشتاين ، الذي اصبح من أبرز قادة الميدان العسكريين عند الالمان . فعندما تقدم إلى الشهادة في محاكمات نورمبرغ، ولم يكن متهماً ككايتل ويودل ، قال موضحاً موقف المانيا العسكري ايام ميونيخ :

---

١ ـ شهادة كايتل ـ ٤ نيسان ١٩٤٦ ،محاكمات كبار مجرمي الحرب (١٠) ص ٥٠٩ .

« لو نشبت الحرب آنذاك ، لما تمكنا من الدفاع بصورة فعالة عن حدودنا الغربية وحدودنا مع بولندة ، وليس ثمة من شك في أن تشيكوسلوفاكيا لو دافعت عن نفسها ، لتمكنت من الصمود أمامنا بتحصيناتها الدفاعية إذ أننا لم نكن نملك الوسائل اللازمة لإقتحامها [1] » .

أما يودل ، وهو « الدماغ المفكر » للقيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية فقد وصف الوضع على النحو التالي في نورمبرغ ، عندما شرع يدافع عن نفسه :

« ولم يكن هناك أمل في ان نتمكن بخمس فرق مقاتلة وسبع فرق احتياطية في تحصيناتنا الدفاعية الغربية التي لم تكن اكثر من مجرد مواقع ضخمة مشيدة ، من الصمود أمام مائة فرقة فرنسية . لقد كان هذا الصمود أمراً مستحيلاً من الناحية العسكرية » [2] .

فإذا صح مايقوله هؤلاء القادة العسكريون الألمان ، من أن جيش هتلر كان يفتقر إلى الوسائل اللازمة لإختراق الحصون التشيكية ، وان المانيا كانت في « وضع عسكري مستحيل » أمام قوة فرنسا الطاغية في الغرب ، وإذا كان ثمة خلاف خطير كما رأينا من قبل ، بين القادة العسكريين الألمان حتى أن هيئة اركان الحرب كانت على استعداد للاطاحة بهتلر لتجنب حرب يائسة ، فلماذا ، كانت هيئتا أركان الحرب البريطانية والفرنسية تجهلان هذه الحقائق يا ترى ؟ وإذا افترضنا الرأي الأخير ، فكيف أمكن لرئيسي حكومتي بريطانيا وفرنساأن يتعرضا في ميونيخ الى ذلك الارغام الذي حملهما على التضحية بالكثير

---

١ - شهادة مانشتاين - ٩ آب ١٩٤٦ - محاكمات كبار مجرمي الحرب (٢٠) ص ٦٠٦ .
ويقال ان هتلر نفسه بات مقتنعاً بعض الاقتناع بهذه الحقيقة بعد ان قام بزيارة خطوط تشيكوسلوفاكيا الدفاعية ، فلقد ذكر للدكتور كارل بيركهاردت مفوض عصبة الامم في دانزيغ فيما بعد انه عندما قام بعد ميونيخ بفحص تحصينات تشيكوسلوفاكيا العسكرية من الداخل ، اصابه الكثير من الإضطراب ، فقد ادرك ان المانيا تعرضت لأخطار كبيرة ، اذ كانت الخطط المعدة من العسكريين التشيكيين هائلة . واضاف يقول : « وقد فهمت آنذاك لماذا كان قادتي العسكريون ينصحون بالتريث » (بيرتيناكس - الذين حفروا قبر فرنسا . ص ٥) .

٢ - شهادة يودل - ٤ حزيران ١٩٤٦ . محاكمات كبار مجرمي الحرب (١٥) ص ٣٦١ .

من مصالح بلديهما ؟ وعندما نحاول العثور على ردود هذه الأسئلة ، فإننـا نواجه بعض الأسرار المتعلقة بذلك العهد ، وهي اسرار لم يحسر النقاب عنها بعـــد . فتشرشل نفسه ، على الرغم من عنايته الكلية بالشؤون العسكرية ، لا يحاول المساس بهذه الأسرار في مذكراته الضخمة .

ولا يستطيع المرء أن يصدق أن هيئتي أركان الحرب في بريطانيا وفرنسا ، وأن حكومتيهما ، كانتا على جهل بمعارضة هيئة أركان الحرب الألمانية ، لنشوب حرب اوروبية . فلقد لاحظنا من قبل ، أن المتآمرين في برلين كانوا قد أبلغوا الحكومة البريطانية بهذه المعارضة عن أربع طرق في شهري آب وايلول ، وقد عرفنا أيضاً ، أن هذه القضية أُثيرت أمام تشمبرلين نفسه كذلك . ولا ريب في أن باريس ولندن قد عرفتا في مستهل شهر ايلول باستقالة الفريق بيك ، وبمـــا ينطوي عليه عصيان أبرز قائد عسكري ألماني وأكثرهم موهبة من نتائج واضحة على الجيش الألماني .

وكان من المعروف في برلين في ذلك الحين أن المخابرات العسكرية البريطانية والفرنسية كانت قوية الى حد ما . وهكذا يصبح من العسير علينا أن نصدق أن القادة العسكريين في لندن وباريس لم يكونوا على علم بالضعف الواضح في جيش المانيا وسلاحها الجوي ، وبعجزها عن الاشتباك في حرب على جبهتين . فأية شكوك يمكن أن تثور في رأس الفريق غاملان ، رئيس اركان حـــرب فرنسا ، على الرغم من شدة حذره ومن حرصه الفطري ، عن احتمال عجزه بمائة فرقة فرنسية عن اكتساح خمس فرق المانية نظامية وسبع فرق احتياطية في الغرب ، وعن التوغل بسرعة وسهولة داخل المانيا ؟ .

لقد روى غاملان فيما بعد ، أن شكوكه كانت قليلة على الغالب [1] . فلقد ذكر القائد العسكري الفرنسي الكبير ،أنه أبلغ ديلادييه في الثاني عشر من ايلول وهو نفس اليوم الذي تدفق فيه هتلر بوعيده القاصف في الخطاب الذي ألقاه في

---

١ - كتاب غاملان الفاشل « الانصاف» ص ٣٤٤ - ٣٤٦ . وكتاب بيرتيناكس . « الذين حفروا قبر فرنسا » ص ٣ .

مهرجان نورمبرغ ، مهدداً تشيكوسلوفاكيا بالويل والثبور وعظائم الأمور ،بأن « الدول الديموقراطية قادرة في حالة نشوب الحرب على فرض السلام ». وأضاف غاملان أنه عزز قوله هذا بمذكرة خطية ضمنها الأسباب التي تحمله على هـــذا التفاؤل. وذكر أنه في السادس والعشرين من أيلول ،وكانت الأزمة التشيكية قد بلغت أوج حدتها بعد اجتماع غودسبرغ ، رافق رجـال الحكومة الفرنسية في رحلتهم الى لندن ، حيث أعاد تأكيداته السابقة على مسامع تشمبرلين ، محاولاً دعمها بتحليل للوضع العسكري قصد منه التأثير لا على رئيس الوزراء البريطاني فحسب ، بل وعلى رئيسه الفرنسي المتردد . ويبـدو أنه فشل في هـذه المحاولة فشلاً ذريعاً ، ولكنه راح يبذل محاولة اخيرة ، قبل طيران ديلادييه الى ميونيخ إذ حدد له المناطق التي يمكن للألمان الاستيلاء عليها في بلاد السوديت دون تعريض سلامة فرنسا للخطر . وأكد له وجوب عدم تخلي تشيكوسلوفاكيا لألمانيا عن الحصون الدفاعية الرئيسيـة . وشبكات السكك الحديدية الاساسيـة وبعض الخطوط الفرعية الاستراتيجية والصناعات الدفاعية المهمة . وأضاف أن من الواجب قبل كل شيء عدم السماح للألمان بقطع مضيق مورافيا . ولا ريب في أن هذه النصيحة كانت طيبة إذا اريد من تشيكوسلوفاكيا أن تكون ذات نفع لفرنسا في أية حرب مقبلة ، ولكن ديلادييه ، لم يكن كما رأينا من قبل ، من طراز الذين يعملون بهذه النصيحة .

ولقد قيل الكثير ايام ميونيخ ، أن من أهم الاسباب التي دعت تشمبرلين الى الاستسلام ، خوفه من أن تمحى لندن من الوجود بفعل القذائف الجوية الألمانية ، وليس ثمة من شك في ان الفرنسيين قد خافوا على عاصمتهم الجميلة من نفس المصير ايضاً. ولكن طبقاً لما نعرفه الآن عن حقيقة قوة السلاح الجوي الألماني آنذاك ، يتبين لنا ان أهل لندن وباريس وفي طليعتهم رئيسا وزارتيهما ، لم يكونوا على حق في هذا الفزع من القوة الجوية الألمانية . لقد حشدت هذه القوة كما حشد الجيش على حدود تشيكوسلوفاكيا ولذا فقد كانت عاجزة ، كعجز الجيش تماماً عن القيام بأي عمل جدي في الغرب. ولو افترضنا تمكن الألمان من توفير عدد

من قاذفاتهم لمهاجمة لندن وباريس ، فان هذه الطائرات لم يكن في وسعها على الغالب أن تصل الى اهدافها . فلقد كان الألمان ضعفاء كالبريطانيين والفرنسيين في طائراتهم الدفاعية المحاربة ، ولم يكن في وسعهم والحالة هـذه ان يوفروا الطائرات اللازمة لحماية طائراتهم القاذفة إذ توافر عدد منها للهجوم . يضاف إلى هذا أن قواعد الطائرات المحاربة الألمانية كانت بعيدة للغاية عن أهداف الهجوم الجوي في لندن وباريس .

ولقد قيل ايضاً ، وكان السفيران فرانسوا - بونيه وهندرسون ، في مقدمة هؤلاء القائلين ، بأن اتفاق ميونيخ اتاح للدولتين الديموقراطيتين الغربيتين فرصة سنة واحدة للحاق بالألمان في ميدان السباق على التسلح ، لكن الحقائق تقيم الدليل على كذب هذه الأقوال وتفندها . ولقد روى تشرشل ، وايده في روايته هذه ، مؤرخ عسكري من الحلفاء يعتبر حجة في موضوعه بأن « السنة التي قيل ان ميونيخ قد اتاحتها للحلفاء ، قد تركت بريطانيا وفرنسا في موضع أسوأ بكثير بالنسبة إلى المانية هتلر ، من الوضع الذي كانتا فيه عند أزمة ميونيخ [1] ». وسنرى بعد قليل ان جميع الحسابات العسكرية الألمانية بعد سنة واحدة من ميونيخ ، تؤيد رواية تشرشل ، كما ان الاحداث التالية ، تزيل أية شكوك في الموضوع مهما كانت .

وفي وسعنا الآن وبعد التفكير في الاحداث التي وقعت، وعلى ضوء ما تجمع لدينا من معلومات من وثائق الألمان السرية ، ومن شهادات الألمان أنفسهم بعد الحرب ، أن نلخص الوضع على النحو التالي ، الذي لم يكن ميسوراً في أيام ميونيخ :

كانت المانيا على استعداد للمضي إلى الحرب في الأول من تشرين الأول عام ١٩٣٨ ضد تشيكوسلوفاكيا وفرنسا وبريطانيا ، دون أن نذكر شيئاً عن روسيا ، ولو مضت إلى الحرب في ذلك التاريخ فعلاً ، لكان في الامكان هزمها بسهولة وسرعة ، ولكانت في ذلك نهاية هتلر والرايخ الثالث . ولو تدخل

---

١ - مذكرات تشرشل .... ص ٣٣٩ .

الجيش الألماني في اللحظة الأخيرة للحيلولة دون نشوب حرب اوروبية ، لكان من المحتمل أن ينجح هولدر وويتزليبين وشركائها ، من تنفيذ الخطة للاطاحة بهتلر فور إصداره الأمر النهائي بالهجوم على تشيكوسلوفاكيا .

وليس ثمة من شك في أن هتلر بتبجحه العلني أكثر من مرة في أنه سيزحف على مناطق السوديت في الاول من تشرين الاول « مهما كان الثمن » ، قد وضع نفسه في موقف حرج ، وتعرض « لورطة لا طاقة له بها » ، كما توقع الفريق بيك من قبل . إذ لو حاول هتلر بعد كل هذه التهديدات وذلك الاعلان التراجع ذاتياً ، عن تنفيذ ما أعلنه ، لما استطاع البقاء طويلاً في الحكم ، إذ أخذنا بعين الإعتبار الشروط الاساسية اللازمة لبقاء الحكم الديكتاتوري ، ولا سيما حكمه هو . فلقد كان من العسير جداً ، بل ومن المستحيل عليه أن يتراجع ، إذ لو تراجع ، فإن هيبته في اوروبا وبين شعبه ، وعند قادته العسكريين ستنهار ، وفي انهيارها ، القضاء المبرم عليه .

ولكن عناد تشمبرلين وإصراره الحماسي على إعطاء هتلر ما أراده ، ورحلاته الى برختسغادن وغودسبرغ ، واخيراً سفرته المفجعة إلى ميونيخ ، كلها عوامل انقذت هتلر من ورطته وقوّت مركزه قبل بضعة اسابيع . ولا ريب في ان هذه العوامل قد اضافت إلى حد كبير إلى سلطان الرايخ الثالث وقوته على مواجهة الدول الديموقراطية الغربية والاتحاد السوفياتي .

ولقد كانت ميونيخ كارثة بالنسبة إلى فرنسا ، وليس في إمكان المرء ان يفهم كيف ان باريس لم تدرك هذه الحقيقة . فقد تحطم موقف فرنسا العسكري في اوروبا . إذ لما كان جيش فرنسا لا يربو في تعداده في حالة التعبئة العسكرية الكاملة في المانيا نصف الجيش الألماني ، بالنظر إلى أن عدد سكان المانيا يبلغ ضعف عدد سكان فرنسا ، ولما كان انتاجها في الأسلحة لا يزيد ايضاً على نصف ما تنتجه المانيا من ناحية الطاقة الإنتاجية ، فلقد عملت فرنسا جاهدة على اقامة محالفات مع الدول الصغرى في الشرق اي الى الجانب الآخر من المانيا وهي تشيكوسلوفاكيا وبولندة ويوغوسلافيا ورومانيا بالاضافة الى ايطاليا ، لأن

طاقاتها العسكرية جميعها تؤلف طاقات دولة كبرى . أما الآن فقد غدت خسارة نحو من خمس وثلاثين فرقة تشيكية حسنة التدريب والتسلح ، تتوزعها حصون دفاعية جبلية منيعة، وترغم عدداً أكبر من الفرق الألمانية على مواجهتها ضربة شلت الجيش الفرنسي كله . ولم يكن هذا كل شيء . اذ كيف يمكن لمن تبقى من حلفاء فرنسا في اوروبا الشرقية بعد اجتماع ميونيخ أن تحافظ على ثقتها في عهود فرنسا الخطيرة ؟ وأي قيمة هناك للأحلاف مع فرنسا ؟ وكان الرد على هذين السؤالين في وارشو وبوخارست وبلغارد، غير ايجابي ، فقد تعالت الصيحات في هذه العواصم مطالبة بعقد أحسن الصفقات ، قبل أن يفوت الوقت مع الفاتحين النازيين .

وساد القلق موسكو ، ان لم نقل أن الهياج قد سادها. فعلى الرغم من الحلف العسكري المعقود بين الاتحاد السوفياتي وبين كل من تشيكوسلوفاكيا وفرنسا ، فان الحكومة الفرنسية سارت مع المانيا وبريطانيا في مسعاهما لإبعاد روسيا عن اجتماع ميونيخ حتى دون أي احتجاج . ولم ينس ستالين قط هذه الاهانة التي كلفت الدولتين الديموقراطيتين الغربيتين غالياً في الأشهر القادمة . وقد بعث ويرنر فون تيبلسكيرش ، مستشار السفارة الألمانية في موسكو ببرقية في الثالث من تشرين الأول ، أي بعد اربعة ايام من ميونيخ يتحدث فيها عن «نتائج» ميونيخ وآثارها على السياسة السوفياتية . واعرب عن اعتقاده بأن ستالين سيتوصل إلى « استنتاجات معينة » كما أعرب عن ثقته بأن الاتحاد السوفياتي « سيعيد النظر في سياسته الخارجية » وسيغدو أقل وداً لحليفته فرنسا « وأكثر ايجابية » مع المانيا . وعاد الدبلوماتي الألماني فأكد أن « الظروف الراهنة تتيح فرصاً اجدى لعقد اتفاق جديد واكثر شمولاً بين المانيا والاتحاد السوفياتي [١] » . وكان هذا التقرير أول ذكر ، في الوثائق السرية الألمانية لوقوع التبدل الجديد في اتجاه الرياح التي بدأت بالهبوط ضعيفة الآن ، على برلين وموسكو ، والتي قدر لها أن

١ – وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٤) ص٦٠٢ – ٦٠٤ .

تثمر في غضون عام واحد عن نتائج ضخمة للغاية .

* * *

وقد أصيب هتلر على الرغم من نجاحه المدهش في ميونيخ ومـــن اذلاله لا لتشيكوسلوفاكيا وحدها، بل الدولتين الغربيتين أيضاً ، بشيء من خيبة الأمل في نتائج ميونيخ . ولقد استمع اليه شاخت وهو يقول عند عودته إلى برلين ، إلى افراد بطانته من قادة الحرس النازي : « لقد فسد علي هـــذا الرجل ، تشمبرلين ، أملي في دخول براغ ظافراً [1] » .وكان هذا الدخول،هو ما تطلع اليه دائماً وما أسر به إلى قادته العسكريين منذ القى عليهم محاضرته في الخامس من تشرين الثاني السنة الفائتة . وقد أوضح لهم في تلك المحاضرة ، ان احتلال النمسا وتشيكوسلوفاكيا ، لم يكن إلا مجرد خطوة أولية في طريق سعيه إلى تحقيق « المجال الحيوي » في الشرق والى الوصول إلى تسوية عسكرية مع فرنسا في الغرب ، وكان قد ذكر في العشرين من ايلول لرئيس وزراء المجر ، أن خير ما يفعله هو « أن يحطم تشيكوسلوفاكيا » ، وأضاف أن هذا التحطيم ، يؤمن له « أفضل الحلول المرضية » ، ولم يكن يخشى إلا أن يذعن التشيكيون لجميع طلباته .

ولكن المستر تشمبرلين ، جاء يحمل مظلته التي اشتهر امرها الى ميونيخ وأرغم التشيكيين على الإذعان لجميع مطالبه ، فحرمه بذلك من ان يحقق حلمه في الاحتلال العسكري . وقد اتضح من الوثائق الألمانية المصادرة،ان هذه هي الأفكار التي اقضت على هتلرمضجعه بعد ميونيخ.وقد أسر إلى قادته العسكريين فيما بعد بقوله : « لقد اتضح لي في اول وهلة ، ان المناطق السوديتية الألمانية لن تكون مرضية لي . انها لا تؤلف إلا حلاً جزئياً » [2].

ولم تمض إلا ايام قليلة على انتهاء مؤتمر ميونيخ حتى كان الطاغية الألماني يثير خططاً جديدة للوصول إلى حل كامل .

---

١ – شاخت في محاكمات نورمبرغ .محاكمات كبار مجرمي حرب الالمان (١٢) ص ٥٣١.

٢ـ خطاب الى القادة العسكريين في ٢٣تشرين الثاني عام ١٩٣٩ـالمؤامرة النازية والعدوان (٣) ص ٥٧٣ .

١٣

زالت تشيكوسلوفاكيا من الوجود

لم تكد تمضي أيام عشرة على التوقيع على اتفاق ميونيخ ، وقبل أن يتم احتلال مناطق السوديت عسكرياً وبصورة سلمية حتى كان أدولف هتلر ، يبعث برسالة سرية للغاية وعاجلة إلى الفريق كايتل رئيس القيادة العليا للقوات المسلحة يوجه اليه فيها الأسئلة التالية :

« ١ ـ ما هي القوات اللازمة في الوقت الحالي لتحطيم كل مقاومة تشيكية ممكنة في بوهيميا ومورافيا ؟

« ٢ ـ ما هو الوقت المطلوب لإعادة تجميع القوات الجديدة او تحريكها ؟

« ٣ ـ ما هو الوقت المطلوب لتحقيق نفس الهدف ، إذا كان التنفيذ سيتم بعد التسريح المقرر للقوات وبعد اتخاذ إجراءات العودة ؟

« ٤ ـ ما هو الوقت اللازم لتحقيق نفس حالة الاستعداد التي كانت قائمة في الأول من تشرين الأول ؟ » [١] .

وقد بعث كايتل إلى الفوهرر في الحادي عشر من تشرين الأول برقية ضمنها ردوداً مسهبة على اسئلته . وقد جاء في هذه الردود أن الأمر لا يتطلب نجدات كبيرة ، ولا وقتاً طويلاً . فهناك اربع وعشرون فرقة المانية موجودة الآن في

---

١ ـ الملف الاخضر . ٤٨ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٣) ص ٣٧٢ ـ ٣٧٤ .

منطقة السوديت نفسها بينها ثلاث فرق مدرعة ، واربع آلية . وراح كايتل يقول : « وتعتقد القيادة العامة للقوات المسلحة ، أن في الإمكان البدء بالعمليات دون حاجه إلى تعزيزات جديدة ، بالنظر الى الدلائل الراهنة على الضعف في المقاومة التشيكية » [١] .

وبعد ان اطمأن هتلر الى الوضع راح ينقل بعد عشرة ايام افكاره الى قادته العسكريين على النحو التالي :

سري للغاية   برلين ٢١ تشرين الأول ١٩٣٨

« سأقوم في توجيه لاحق ، بتحديد الواجبات المقبلة للقوات المسلحة ، والإعدادات اللازمة لإدارة العمليات الحربية الناجمة عن هذه الواجبات .

« والى ان يصدر هذا التوجيه ويغدو قابلاً للتنفيذ،على القوات المسلحة ، في جميع الأوقات ، ان تكون متأهبة للطوارىء التالية :

« ١ - ضمان سلامة حدود المانيا

« ٢ – تصفية ما تبقى من تشيكوسلوفاكيا

« ٣ – احتلال منطقة ميميل » .

وكانت المانيا قد خسرت في معاهدة فرساي ، ميناء ميميل الواقع على بحر البلطيق والذي يبلغ تعداد سكانه اربعين الفاً،إذ ضم الميناء إلى جمهورية ليتوانيا. ولما كانت ليتوانيا بلداً أصغر وأضعف من النمسا وتشيكوسلوفاكيا،فإن احتلال هذا الميناء ،لم يكن يشكل اية مشكلة للجيش الألماني ،ولذا فقد اكتفى هتلر في توجيهه بالقول بـــأن هذا الميناء « سيضم » الى المانيا . ومضى يتحدث عن تشيكوسلوفاكيا قائلاً :

« يجب ان يكون في امكاننا تحطيم ما تبقى من تشيكوسلوفاكيا في اية لحظة ، هذا إذا اتجهت سياستها إتجاهاً معادياً لألمانيا . »

«ويجب ان تكون الإعدادات التي تتخذها القوات المسلحة لهذه

---

١ ـ الملف الاخضر . نفس الرقم ايضاً .

الحالة الطارئة، أضيق مدى ومجالاً من تلك المتخذة للعملية «الخضراء».
ومن الواجب أن تضمن على أي حال، حالة أكبر من الاستعداد،
لا سيما وان اجراءات التعبئة العامة، المخطط لها، قد تم التصرف
فيها. ومن الواجب ترتيب الوحدات وتنظيمها ونسق تأهبها للمعارك
وحالة تأهبها، في اوقات السلم، بشكل يضمن قيامها بعملية هجوم
مباغتة، بحيث تعجز تشيكوسلوفاكيا نفسها عن كل إمكان لتقديم
مقاومة منظمة، وتصبح محرومة من ذلك تمام الحرمان. ولا ريب
في ان الغاية من هذه الاعدادات كلها، احتلال بوهيميا ومورافيا
احتلالاً سريعاً، وعزل سلوفاكيا عنهما». [1]

ومن الممكن طبعاً، قطع سلوفاكيا وعزلها بالوسائل السياسية مما لا يتطلب استخدام القوات العسكرية الألمانية. ولهذا فقد عهد إلى وزارة الخارجيـــة الألمانية باعداد الترتيبات اللازمة لذلك، وقد واصل ريبنتروب ومساعدوه طيلة الأيام الاولى من تشرين الاول حث المجريين على المطالبة بحصتهم من الاسلاب في سلوفاكيا، ولكن، عندما راحت المجر، التي لم تكن في حاجة كبرى الى مثل هذا الحث من جانب المانيا لإشباع نهمها، تتحدث عن احتلال سلوفاكيا كلها، تدخلت الولهلمشتراسة (وزارة الخارجية الألمانية) فوراً. فلقد اعدت، لهذه البلاد خططاً أخرى تتناول المستقبل. وكانت حكومة براغ قد سارعت بعد مؤتمر ميونيخ الى منح سلوفاكيا استقلالاً ذاتياً فورياً واسع النطاق. وقـــد نصحت وزارة الخارجية الالمانيـــة «بقبول» هذا الحل في الوقت الحاضر. اما بالنسبة إلى المستقبل فقد تولى الدكتور ارنست ويرمان، مدير الدائرة السياسية في وزارة الخارجية الالمانية، تلخيص خطط المانيا المقبلة في مذكرة اعدها في السابع من تشرين الاول، قال فيها: «تتيح سلوفاكيا المستقلة والضعيفـــة دستورياً الفرصة لدعم حاجات المانيا في التوسع والإستقرار في الشرق [2].

---

١ - توجيه هتلر ٢١ تشرين الاول ١٩٣٨. المؤامرة النازية والعدوان (٤) ص ٩٤٧-٩٤٨.
٢ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية ص ٤٦.

وهنا تقوم نقطة تحول جديدة بالنسبة الى الرايخ الثالث . فلأول مرة ، يصل هتلر الى مرحلة الشروع في فتح بلاد غير المانية ، فلقد كان في الأسابيع الستة الأخيرة ، يؤكد لتشمبرلين ، سراً وعلانية ، ان بلاد السوديت هي آخر مطامحه الإقليمية في أوروبا . وعلى الرغم من أن رئيس الوزراء البريطاني كان ميالاً حتى أقصى حدود الميل إلى قبول وعود هتلر ، فلقد كانت هناك بعض الدوافع التي تحمله على الاعتقاد بأن الديكتاتور الألماني سيتوقف عن الغزو عندما ينتهي من هضم جميع الالمان الذين كانوا يعيشون في السابق خارج حدود الرايخ واصبحوا يعيشون في داخلها الآن . اولم يقل الفوهرر مراراً وتكراراً ، انه لا يريد « تشيكياً » داخل الرايخ الثالث ؟ أو لم يؤكد في كتابه « كفاحي » وفي عدد كبير من خطبه العامة النظرية النازية القائلة بأن قوة المانيا تتطلب نقاءها عنصرياً وان عليها أن لا تضم إليها شعوباً غريبة ولا سيما من الشعوب السلافية ؟ أجل لقد أكد ذلك . ولكنه قد نادى ، ولعل لندن قد نسيت ذلك ، في اكثر من صفحة متضخمة من صفحات كفاحي ، بأن مستقبل المانيا ، يقوم في السيطرة على مجالها الحيوي في الشرق . والشعوب السلافية ، هي التي تسيطر على هذا المجال منذ اكثر من الف عام .

اسبوع الجليد المتحطم

ووصلت المانيا النازية في خريف عام ١٩٣٨ الى نقطة تحول اخرى . وقد وقع هذا التحول في غضون الفترة التي اطلقت عليها دوائر الحزب اسم « اسبوع الجليد المتحطم » . .

فلقد قام لاجىء يهودي ألماني في السابعة عشرة من عمره ، يدعى هيرشيل غرينزبان في السابع من تشرين الثاني باطلاق النار على ايرنست فون رات ، السكرتير الثالث في السفارة الألمانية في باريس. وأصابه إصابة قاتلة. وكان هذا الشاب قد أراد أن يثأر لما لقيه والده الذي نفي مع عدة الوف آخرين من اليهود

في سيارات الشرطة إلى بولندة قبل نحو من اسبوع ، ولما لقيه اليهود من اضطهاد عام في ألمانيا النازية، فمضى الى السفارةالألمانية معتزماً اغتيال سفيرها الكونت جوهان فون ويكلزيك ، ولكن السفير اوفد سكرتيره الثالث لمقابلة الشاب والاستعلام منه عما يريده ، فكان نصيبه الطلقات النارية التي أصابته ، وكان ثمة الكثير من سخرية القدر في مصرع السكرتير الشاب ، الذي وصف رجـال الغستابو مصرعه كشيء ناجم عن موقفه المناوىء للنازية ، إذ أن هذا السكرتير لم يكن موافقاً قط على الموقف المناوىء للسامية الذي يقفه حكام بلاده .

ولم يكن زعماء النازيين وفي مقدمتهم هتلر وغورنغ ، ينتهون من الاحتفال ليلة التاسع – العاشر من تشرين الثاني بالذكرى السنوية لحركـة انقلاب حانة الجعة في برلين حتى بدأت أقسى عمليات اضطهاد اليهود التي شهدهـا الرايخ الثالث . وذكر الدكتور غوبلز ، والصحافة التي يسيطر عليها ، أن هذه العملية كانت رداً عارضاً على حادث الاغتيال في باريس . ولكن الوثائق التي صودرت بعد انتهاء الحرب ، ألقت ضوءاً على هذا الرد العارض ، إذ أن هـذه الوثائق ، من اكثر الأوراق « سرية » في الحقبة النازية التي سبقت الحرب [1].

ويقول تقرير سري كتبه كبير القضاة في الحزب ، الرائـد ولتربوخ ، أن الدكتور غوبلز اصدر أمراً ليلة التاسع من تشرين الثاني ، بإعداد « مظاهرات عارضة » وتنفيذها في تلك الليلة . لكن المنظم لهذه المظاهرات كان رينهـارد هايدريش الرجل الثاني بعد هملر في الحرس النازي والفرقة الخاصة والغستابو ، والذي لا يتجاوز عمره الرابعة والثلاثين . وكانت أوامره المطبوعة تلـك الليلة بين الوثائق الألمانية المصادرة .

فلقد بعث برسالة برقية عاجلة على آلات « التليبرنيتر » في الساعة الواحدة والدقيقة العشرين من صباح العاشر من تشرين الثاني وجهها إلى مراكز قيادات الشرطة والفرقة الخاصة ، مصدراً أمره إلى رجالها للاجتماع إلى قـادة الحزب والحرس النازي في مناطقهم للبحث في تنظيم «هذه المظاهرات » . وقد تضمنت

١ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٥) ص ٧٩٧ – ٨٠١ .

هذه الأوامر ...

أ – عدم اتخاذ أية إجراءات قد تؤدي إلى إنزال الخطر بأرواح الألمان وممتلكاتهم .

ب – يمكن تدمير مساكن اليهود ومكاتبهم دون نهبها .

ج – يجب أن لا تتدخل الشرطة في منع هذه المظاهرات .

د – يمكن اعتقال اكبر عدد من اليهود ولا سيما الأثرياء الذين يمكن للسجون القائمة إيواءهم ...

وقد دمر عدد كبير من كنائس اليهود ومنازلهم وحوانيتهم في تلك الليلة كما قتل عدد كبير منهم وهم يحاولون النجاة بأرواحهم[1] وقد قـدم هايدريش تقريراً اولياً سرياً إلى غورنغ في اليوم التالي جاء فيه :

« لا يمكن حتى الآن التأكد بالارقام من مدى الدمار الذي لحق بحوانيت اليهود ومساكنهم . ولكن المعروف ان ٨١٥ مخزناً قد دمرت و١٧١ مسكناً قد احرقت . واحرق ١١٩ كنيساً. كما دمر ٧٦ كنيساً آخر تمام التدمير . واعتقل (٢٠) الف يهودي . وقتل (٣٦) كما اصيب ستة وثلاثون آخرون ... وكلهم من اليهود »[1].

ومن المعتقد أن عدد من قتل من اليهود في تلك الليلة، كان يبلغ عدة أضعاف هذه الارقام . وقد قدر هايدريش نفسه بعد يوم واحد من هذه الأرقام الأولية التي قدمها عدد الحوانيت اليهودية التي تم نهبها بسبعة آلاف وخمسمائة . وكانت هناك عدة حوادث من الاعتداء على الفتيات اليهوديات ، طبقاً لما ورد في تقرير الرائد بوخ إلى محكمة الحزب ، وهي تعتبر من وجهة النظر الحزبية اكثر خطورة من القتل لانها تعتبر مخالفة صريحة لقوانين نورمبرغ التي حرمت العلاقات الجنسية

١ ـ يبدو ان المؤلف كان متأثراً كل التأثير في هذا السرد بالدعايات اليهودية التي بالغت كل المبالغة بما نزل باليهود الألمان . وهناك حقيقة اخرى يجب ان لا ننساها في هذا الصدد وان كان المؤلف قد نسيها ، وهي ان اليهود انزلوا بعرب فلسطين الابرياء ، مظالم وارتكبوا جرائم تفوق في اهوالها ما ارتكب مع اليهود في المانيا مما اجمع المنصفون من المؤرخين وغير المؤرخين كتوينبي والكونت برنادوت على وصفه بالهول . ـ المعرب ـ

بين اليهود والاغيار . وقد طرد مرتكبو هذه الحوادث من الحزب وقدموا إلى المحاكم المدنية . وقال الرائد بوخ أنــه لم يكن في الامكان عقاب اعضاء الحزب الذين ارتكبوا عمليات القتل إذ أنهم كانوا ينفذون تعليمات الحزب وأضـــاف بعبارة صريحة واضحة ... وكان « الجمهور يدرك أن العمليات السياسية الـــتي انطوت عليها حوادث التاسع من تشرين الثاني كانت من عمل الحزب[1] ».

ولم يقتصر العقاب الذي فرض على اليهود بسبب قتـــل راث في باريس على القتل والاغتصاب والسلب بل تعداه ايضاً إلى ارغام اليهود على دفع نفقـــات تدمير ممتلكاتهم ، وقامت الدولة بمصادرة أموال التأمين التي كانت من حق اليهود. وفرضت على اليهود غرامة جماعية قدرها بليون من الماركات ، عقوبة كما قـال غورنـغ لهم « على جرائمهم البشعة ». وقد قدرت هـــذه العقوبات الاضافية في اجتماع ضخم ضمّ عدداً كبيراً من أعضاء الوزارة الالمانية وكبار الموظفين ورئسها غورنـغ نفسه في الثاني عشر من تشرين الثاني .

وواجهت شركات تأمين المانية عديدة الافلاس . إذ تحتم عليهـــا أن تدفع قيمة التأمين على الأبنية التي تم تهديمها ، والتي كان يملكها ألمان من غير اليهود، وان كان اليهود هم الذين أقاموا فيها . وقد قدر الخراب الذي لحق بالزجاج فقط في الابنية بنحو من خمسة ملايين مارك ، وهو رقم ذكره الهر هيلفارد الذي أوكل اليه أمر الدفاع عن شركات التأمين في الحديث الذي دار بينه وبـــين غورنـغ، ويبدو أن معظم هذا الزجاج كان مستورداً من الخارج وكان على ألمانيا أن تؤمن النقد الاجنبي اللازم لاستبداله ، وهو أمر غير متوفر لها .

وراح غورنـغ يهتف قائلاً وهو المسيطر على الاقتصاد الالماني .... لا يمكن الاستمرار في هذا ، إذ لا يمكن لنا أن نستمر مع كل هذه الخسائر ... والتفت إلى هايدريش قائلاً : « كنت اود لو قتلت مئتي يهودي ولا تدمر هذه الكمية الضخمة من الاشياء الثمينة ! »[2]

---

١ - سرد الرائد بوخ عدداً من الحوادث ، ذاكراً اسماء القتـــلى من اليهود وقاتليهم من النازيين الألمان - المؤلف .

٢ - رد غورنـغ عندما سأله القاضي جاكسون في محاكمات نورمبرغ عما اذا كان قد صدر عنه مثل هذا القول .. « اجل لقد كنت في ساعة غضب وثورة عصبية » ، انني لم اكن جدياً في قولي .

ورد هايدريش مدافعاً عن نفسه : « لقد قتل خمسة وثلاثون يهودياً [1].

ولم يكن جميع الحديث المسجّل في هذه الجلسة في نحو من عشرة آلاف كلمة من النوع الجدي . فلقد سخر غورنغ وغوبلز كثيراً في موضوع تعريض اليهود لمهانات أكثر ، فلقد قال وزير الدعاية أن على اليهود أن يقوموا بتنظيف حطام الكنس المهدمة ، وأن تحوّل هذه الكنس إلى حدائق وأماكن لوقوف السيارات . وأصر على حرمان اليهود من كل شيء ومنعهم من دخول المدارس ودور السينما والمسارح وأماكن الاصطياف ، وشواطيء الاستحمام العامة ، والحدائق وحتى الغابات . واقترح أن تكون هناك عربات خاصة باليهود في القطارات . على أن لا يسمح لهم باستخدامها إلا بعد أن تكون الاماكن اللازمة للآريين قد وجدت .

وضحك غورنغ وهـــو يقول ... « حسناً ، واذا أصبح القطار مكتظاً بالركاب فسنرغم اليهود على اللجوء إلى المراحيض » .

وعندما طلب غوبلز بمنتهى الجدية ان يمنع اليهود من دخول الغابات قـــال غورنغ ... « سنعطي اليهود جزءاً معيناً من الغابة ، ونضع فيها جميع الحيوانات التي يشبهونها كالبوم مثلاً » .

وهكذا قضى زعماء الرايخ الثالث طيلة عام ١٩٣٨ الكثير الخطورة والحراجة وهم يهزأون ويسخرون . ولكن مشكلة من سيتولى التعويض على الأضرار المادية التي وقعت إبان الحوادث والتي قدرت بخمسة وعشرين مليوناً من الماركات ظلت المشكلة التي تؤرق غورنغ ، الذي غـــدا الآن مسؤولاً عن كيان المانيا النازية الإقتصادي . وقد أشار هيلفارد وكيل شركات التأمين ، بأن ثقة الشعب الألماني بهذه الشركات ستزول إذا لم تتول دفع قيم « بوالص » التأمين الى اليهود ، كما أن ثقة الناس في الخارج بشركات التأمين الألمانية ستنهار ايضاً ، واضاف أنــه لا يستطيع أن يرى كيف يمكن ان تفي الشركات الصغيرة بالتزاماتها دون أن تفلس وتنهار .

---

١ ـ ارتكب اليهود من الجرائم في فلسطين ما يفوق بكثير هذه الاقوال ، ومـــع ذلك لم تستفز المؤلف . فقد قتلوا في دير ياسين وحدها نحواً من ثلاثمائة ومعظمهم من النساء والاطفال والامهات الحبالى اللائي بقر اليهود بطونهن . ـ المعرب ـ

وسرعان ما حل غورنغ المشكلة برمتها . فعلى الشركات أن تدفع لليهود قيمة التأمين كاملاً ، وتقوم الدولة بمصادرة هذه المبالغ فتعيد الى الشركات بعض ما دفعته . ولكن هذا الحل لم يرض الهر هيلفارد ، الذي يبدو من وقائع الإجتماع المدوّنة وكأنه قد أحس بأنه يواجه مجموعة من المجانين .

غورنغ ... « سيقبض اليهودي قيمة تأمينه من شركة التأمين ولكن الدولة تتولى مصادرة هذه القيمة . أما الشركة فتفيد من أن جزءاً من القيمة سيعاد اليها ، ولا ريب في ان من واجبك يا هر هيلفارد ان تعتبر نفسك حسن الحظ بهذا الحل .

هيلفارد ... « ليس ثمة ما يدعوني إلى هذا الاعتبار ... فأنت تعتبر أن عدم اضطرارنا إلى دفع المبالغ بكاملها نفع وفائدة !

ولم يكن المشير قد الف هذا النوع من الحديث ، وسرعان ما اسكت رجل الأعمال الحائر ...

غورنغ ... « ماذا دهاك ... لحظة واحدة ... إذا كان القانون يجبرك على أن تدفع خمسة ملايين ، ثم يهبط عليك ملاك من السماء ، في شكل شخص بدين عريض الكتفين ويقول لك أن في وسعك الاحتفاظ بمليون ودفع اربعة ملايين فقط... ألا يعتبر هذا ربحاً بحق السماء ؟ ، إنني أُريد أن أخطو معك نصف الطريق ... وليس علي إلا أن أتطلع إليك ... وإني لأرى علائم الرضى تنطلق من محياك ...

ولكن ممثل شركات التأمين كان بطيئاً في الفهم ...

هيلفارد ... « إن شركات التأمين هي الخاسرة وحدها . هذه هي الحقيقة ، وستظل كذلك . وليس في إمكان أحد أن يقنعني بعكسها » .

غورنغ ... « إذن لم لا تعمل حسابك على أن عدد النوافذ التي تحطمت أقل مما تقول ؟...»

وملّ المشير من هذا الرجل ذي العقل التجاري ، فصرف الهر هيلفارد من حضرته ، وانطوى الرجل في زوايا النسيان والتاريخ .

وجاء ممثل لوزارة الخارجية الالمانية يجترىء على القول أمام المشير بأن على النظام الاهتمام بالرأي العام الامريكي من أية حوادث مقبلة تقع لليهود [1] .

وراح المشير يتفجر غاضباً ... « شعب دولة الاوغاد ! تلك الدولة اللصّة » .

وتم الاتفاق بعد محادثات طويلة ، على حل المشكلة اليهودية على النحو الآتي : إزالة اليهود من الاقتصاد الألماني ، ونقل ملكية جميع المشاريع والممتلكات اليهوديه الى أيةٍ آرية بعد التعويض على اليهود بسندات يستطيعون الإفادة من أرباحها دون قيمها ، وتقرر أن يعهد إلى لجنة خاصة بدراسة موضوع حرمان اليهود من دخول المدارس والمصايف والحدائق والغابات وما شابهها . وقضية طردهم أو نقلهم إلى معتقلات خاصة بعد انتزاع املاكهم منهم .

وقال هايدريش في نهاية الاجتماع ... « على الرغم من حرمان اليهود من حياة البلاد الاقتصادية ، فان المشكلة الرئيسية تظل قائمة ، وهي كيف يمكن طردهم من المانيا » ووافق الكونت شفيرين فون كروزيك وزير المالية ، والعالم البحاثة الذي يعتز بأنه كان يمثل « المانيا التاريخية والكريمة » في الحكم النازي على وجوب « القيام بكل عمل لطرد اليهود الى الخارج » ، ولكنه عارض في فكرة عزل اليهود في معازل خاصة .

وأنهى غورنغ الإجتماع بعد نحو من اربع ساعات من بدئه أي في الساعة الثانية والنصف بعد الظهر وهو يقول :

---

١ -- استدعى الرئيس روزفلت سفيره في برلين هيو ويلسون في الرابع عشر من تشرين الثاني « لاجراء مشاورات »ولم يعد قط الى منصبه. واستدعى الألمان سفيرهم من واشنطن هانز ديكهون في الثامن عشر ، بعد ان بعث بتقرير الى حكومته قال فيه ان «بركاناً من الغضب قد تفجر في امريكا» من عملية اليهود ، ولم يعد الى منصبه كذلك . واقترح هانز توبسون القائم بأعمال السفارة الالمانية في واشنطن في الثلاثين منه انه بالنظر الى توتر الوضع : يقترح نقل ملفات السفارة السرية الى برلين لا سيما وانها من الضخامة بحيث لا يمكن تدميرها في وقت قصير » . وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٤) ص ٦٣٩ - ٦٤٩ .

« أود أن انهي الاجتماع بالعبارات التالية : على اليهود الألمان عقاباً لهم على جرائمهم المخزية ان يدفعوا غرامة قدرها بليـون من الماركات ، أعتقد أن هذا يكفي . ولن يعود هؤلاء الخنازير إلى ارتكاب جريمة أُخرى ، وأود ان أقـول على أي حال ... انني لا احب أن اكون يهودياً في المانيا ».

وقدر لهذا الرجل ودولته النازية وزعيمه هتلر ، أن يرتكبوا مظالم أُخرى تجاه اليهود ، (أين ذهبت مظالم اليهود في فلسطين !) . فلقد فتحت المانيا ليلة التاسع من تشرين الثاني عام١٩٣٨ ، صفحة جديدة لم يكن هناك سبيل للنكوص عنها ، ولقد وقعت حوادث من قبل ولكن مرتكبيها كانوا أفراداً مـن ذوي القمصان البنية المعروفين بروحهم الاجرامية ، أما الآن فقـد تولت الحكومة الالمانية نفسها تنظيم هذه الاعمال . وقد صدرت الآن وبعد الاجتماع ثلاثة مراسيم يفرض أولها على اليهود غرامة مشتركة قدرها بليون من الماركات ويحرمهم الثاني من العمل في الاقتصاد الألماني ، ويسلبهم الثالث مـا تبقى من ممتلكاتهم .

وقد اهتز الرأي العام العالمي ، وثار على هـذا العمل يصدر عن دولة تعتبر نفسها من الدول العريقة في الثقافة المسيحية والانسانية . (أين ذهب هذا الشعور في قضية ما أنزله اليهود بأهل فلسطين) . ولكن هتلر ثار على هـذا الرأي العالمي ، وأقنع نفسه بأن ما حدث من رد فعل ، يقوم دليلاً جديداً على سلطان « المؤامرة اليهودية العالمية » .

وإذا ما عدنا بافكارنا الآن إلى الماضي ، أمكننا أن نرى أن ما أنزله الألمان باليهود في التاسع من تشرين الثاني ، وما تبع ذلك من اجراءات قاسية ، كانت من العوامل التي أدت إلى اضعاف المانيا اضعافاً كلياً ، وإلى الاطاحة نهائياً بالطاغية وعهده ، وبلاده . ولقد قام الدليل على جنون هتلر في أكثر من صفحة واحدة من صفحات هذا الكتاب ، ولكنه كان قادراً حتى الآن على كبح جماح هذا الجنون وذلك أثناء نهوض بلاده وارتقاء عهده . وكانت عمليات الحساب

الدقيقة التي تميزت بها عبقريته أثناء كل ما قام به من عمل جريء ، قد أكسبه نصراً إثر آخر . ولكن عمليات التاسع من تشرين الثاني وما تلاها ، أقامت الدليل على أن هتلر ، قد بدأ يفقد سيطرته على نفسه . وعلى أن جنونه قد بدأ يطغى على كل شيء . وأظهرت السجلات المحفوظة عن اجتماع الثاني عشر من تشرين الثاني ، أن هتلر ، كان في النهاية المسؤول عن كل ما وقع ، وأنه هو الذي أصدر أمره بالسماح بما وقع ، وأنه الرجل الذي استحث غورنغ على المضي في عمله لإزالة اليهود من الحياة الألمانية . ومنذ هذا التاريخ ، لم يعد سيد الرايخ الثالث المطلق يظهر شيئاً من ضبط النفس الذي كان يحرص على اظهاره في الماضي ، وعلى الرغم من أن عبقريته وعبقرية بلاده ، كانتا ستؤديان حتماً إلى انتصارات مذهلة أخرى ، إلا أن البذور المسمومة ، للدمار الذاتي بالنسبة إلى الديكتاتور وإلى بلاده كانت قد بذرت الآن .

وكان مرض هتلر من النوع الساري ، والناقل للعدوى ، وقد بدأت البلاد تصاب به ، وكأنه وباء مستشر . ويستطيع مؤلف هذا الكتاب أن يقرر من ناحية فردية بحكم تجربته بأن كثيرين من الألمان ، قد أصابهم شعور من السخط على ما وقع في التاسع من تشرين الثاني تماماً كالانكليز او الامريكيين وغيرهم من الاجانب . ولكن أياً من قادة الكنائس المسيحية أو القادة العسكريين أو ممثلي المانيا « الطيبة » لم يرفع صوته على الفور احتجاجاً على ما وقع ، فقد أحنى جميعهم رؤوسهم إذعاناً لما وصفه الفريق فون فريتشه بالشيء « المحتوم » أو « مصير المانيا » .

وسرعان ما اختفى جو ميونيخ . وقد القى هتلر في ساربروكن وويمار وميونيخ خطباً نارية في ذلك الخريف محذراً العالم الخارجي ولا سيما البريطانيين من التدخل في شؤون الغير . وطالباً إلى الانكليز الاهتمام بشؤونهم ، وأن يتوقفوا عن الاهتمام « بمصير الألمان ضمن حدود الرايخ » . وقال موعداً أن هذا المصير هو من شؤون الألمان وحدهم . وتبين أنه لن يمضي طويل وقت قبل أن يستفيق نيفيل تشمبرلين إلى طبيعة الحكومة الألمانية التي مضى شوطاً بعيداً في

محاولة إرضائها . وشرع رئيس وزراء بريطانيا مع اقتراب عام ١٩٣٨ المشحون بالأحداث من نهايته مخلياً الطريق لعام ١٩٣٩ المليء بالنذر المشؤومة ، يـــدرك بصورة متدرجة ما هي عليه حقيقة الفوهرر الذي عمل كل ما في وسعه لارضائه شخصياً ، حرصاً منه على مصلحة السلام الاوروبي[١].

ولم يكن قد انقضى على ميونيخ طويل عهد ، عندما راح ريبنتروب يسافر إلى رومة. ودوّن شيانو في يومياته بتاريخ الثامن والعشرين من تشرين الاول أن عقله كان « متركزاً » على وجوب خوض الحرب [٢] . ثم قال :

« أبلغنا وزير خارجية المانيا أنا والدوتشي، أن الفوهرر مقتنع من ان علينا ان نقيم حساباتنا الحتمية على نشوب حرب مع الدول الغربية في غضون بضع سنوات ، قد تكون ثلاثاً أو اربعاً .... وقد اظهرت ازمة تشيكوسلوفاكيا مدى قوتنا ! ونحن نتمتع بميزة المبادرة ووجود زمامها في ايدينا ، كما اننا سادة الموقف تماماً . ولا يمكن لأحد ان يهاجمنا ، والموقف العسكري ممتاز ، وفي قدرتنـا اعتباراً من ايلول عام١٩٣٩ ان نواجه حرباً مع الدول الديموقراطية الكبيرة[٣]» .

---

١ ـ بعث اللورد هاليفاكس في الثامن والعشرين من كانون الثاني عام ١٩٣٩ بتحذير سري الى الرئيس روزفلت يقول فيه انه منذ « تشرين الثاني عام ١٩٣٨ ، كانت هناك دلائل، اصبحت اكثر وضوحاً بصورة متدرجة على ان هتلر ، يعتزم القيام بمغامرة خارجية اخرى في ربيع عام ١٩٣٩». واضاف وزير خارجية بريطانيا ان التقارير «تشير الى ان هتلر،وقد تلقى التشجيع من ريبنتروب وهملر وغيرهما يدرس احتمال القيام بهجوم على الدول الغربية، كشيء تمهيدي لعمل لاحق في الشرق » ، (وثائق وزارة الخارجية البريطانية ـ الحلقة الثالثة (٤) ، رقم ٥) .

٢ ـ يوميات شيانو الخفية . ص ١٨٥ ، اوراق شيانو السرية ص ٢٤٢ - ٢٤٦ .

٣ - يؤيد الرواية الألمانية عن الحديث الذي دار في رومة بين ريبنتروب وشيانو في الثامن والعشرين من تشرين الاول والتي اعدها الدكتور شميدت الموقف المشاغب الذي وقفه ريبنتروب . وتنقل عن الوزير الالماني قوله ان على المانيا وايطاليا ان تستعدا «لصراع مسلح مع الديموقراطيتين الغربيتين منذ هذه اللحظة». وأكد ريبنتروب لشيانو في هذا الاجتماع ايضاً ان ميونيخ قد حسرت النقاب عن قوة دعاة العزلة في الولايات المتحدة . مما يحمل المانيا وايطاليا على « الاطمئنان الى موقف امريكا » . (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٤) ص ٥١٥ - ٥٢٠).

ووصف وزير خارجية إيطاليا الشاب ، زميله الألماني بأنـــه « مغرور ، وتافه ثرثار » ، وراح يضيف بعـد ذلك قوله : « ويقول الدوتشي انـ في امكانك من مجرد التطلع إلى رأسه ، ان ترى مدى ما يتميز بـــه من صغر عقل » ، وقد جاء وزير خارجية المانيا الى رومة لإقناع موسوليني بتوقيع ميثاق تحالف عسكري بين المانيا واليابان وايطاليا وكان الألمان قـد سلموا مسودته الى موسوليني اثناء اجتماع ميونيخ ، ولكن موسوليني تردد بعض الوقت في توقيعه . وقد دوّن شيانو في يومياته ، ان الدوتشي لم يكن مستعداً بعد لأغلاق الباب نهائياً في وجه بريطانيا وفرنسا .

واستهوت هتلر في ذلك الخريف ، فكرة القيام بمحاولة لانتزاع فرنسا من من احضان حليفتها عبر المانش ، وعندمـا استقبل فرانسوا - بونيه السفير الفرنسي الذي جاء لوداعه بمناسبة انتقاله ، في مقره في « عش النسر » الواقع على قمة جبل مرتفع فوق برختسغادن[1] ، انفجر في هجوم عنيف على بريطانيا العظمى وقد وجد السفير الفرنسي هتلر ، شاحب الوجـــه تبدو عليه آثار الإعياء ، ولكن هذا الهجوم لم يكن من الضخامـــة بحيث يمكن أن يعتبر انتقاصاً من قدر بريطانيا . وقال إن بريطانيا ترد « بالتهديد والدعوة إلى السلام » . ثم اتهمها بالأنانية والغطرسة ، وقال أن بريطانيا هي التي تعمل على تحطيم روحية اتفاق ميونيخ ، وكال لهاشتى التهم ، ثم أعرب عن اعتقاده بأن فرنسا تختلف عنها في موقفها كل الاختلاف ، ولذا فهو يريد أن يوثق أواصره وصلاته بها ، وهو على استعداد لأن يوقع معها على الفور ميثاق صداقة ضامناً لها حدودها

---

١ - كان من الصعب الوصول الى هذا الملاذ الخيالي ، الذي استغرق بناؤه ثلاث سنوات كلف نفقات طائلة . فقد شقت طريق طولها عشرة أميال ، ورفعها رفع الشعرة ، داخل الجبل ، لتصل الى نفق طويل تحت الارض ، حفر في الصخر ، يرتفع منه مصعد كهربائي يعلو الى مسافة ٣٧٠ قدماً ليصل الى مسكن صغير ارتفاعه ستة آلاف قدم على قمة احد الجبال . وكان هذا المسكن يطل على منظر يخلب الالباب لجبال الالب . ويمكن للانسان أن يرى منه سالزبرغ على مدى بعيد . وقد وصف فرانسوا - بونيه هذا المكان فيما بعد قائلاً : « ترى هل كان هذا الصرح من نتاج عقل عادي ، او من ابتكار عقل يسيطر عليه الجنون والرغبة المطلقة في السيطرة والعزلة . »

الحالية ، ومتنازلاً من جديد عن أية مطالب لألمانيـا في الالزاس واللورين ، ومقترحاً حل أي خلاف في المستقبل عن طريق التشاور .

وقد وقع الميثاق المقترح في وقت قريب في باريس في السادس من كانون الأول عام ١٩٣٨ ، وتولى توقيعه وزيرا خارجيتي المانيـا وفرنسا . وكانت فرنسا قد استفاقت إبان ذلك إلى حدٍ ما ، من الفزع الإنهزامي الذي أصابها في أيام مؤتمر ميونيخ . وكان مؤلف هذا الكتاب في باريس في يوم توقيع هـذا الميثاق ، ولاحظ الجو الفاتر الذي أحاط بالتوقيع . فعندما مر ريبنتروب بسيارته عبر الشوارع كانت هذه الشوارع مهجورة تماماً ، ورفض عدد كبير من الوزراء ومن الشخصيات البارزة في حياة فرنسا السياسية والادبية ، ربينها رئيسا مجلس الشيوخ والنواب المسيو جانيني والمسيو هريو ، حضور ، الحفلات التي صاحبت زيارة الوزير النازي .

ونجم على الاجتماع الذي عقد بين بونيه وريبنتروب ، سوء تفاهم قـدر له أن يلعب دوراً معيناً في احداث المستقبل . وقد زعم وزير خارجية ألمانيا أن بونيه قد أكد له بأن فرنسا غدت بعد ميونيخ ، لا تهتم بشؤون اوروبا الشرقية ، وقد فسر هو هذا القول على أنه تسليم من فرنسا ، لألمانيا بحرية التصرف في تلك المنطقة ولا سيما بالنسبة الى الاجزاء الخلفية من تشيكوسلوفاكيا وبولندة . وقـد نفى بونيه ذلك . وتقول الرواية التي دوّنها شميدت عن هذا الاجتماع أن بونيه قد أعلن رداً على طلب من ريبنتروب بأن تعترف فرنسا لألمانيا بمنطقة نفوذهـا في الشرق « إن الأوضاع قد تبدّلت تبدلاً جوهرياً منذ أيام ميونيخ [1] وسرعان ما حوّر وزير خارجية ألمانيا المتلوّن هذه الملاحظة المبهمة الى بيان صريح قدمه إلى هتلر ذكر فيه أن بونيه قد اعلن في باريس ، أنه لم يعد مهتماً بالقضايا المتعلقة بالشرق ». ولا ريب في أن استسلام فرنسا السريع في ميونيـخ قد أقنع هتلر بصحة هذا الادعاء . ولكن الحقيقة لم تكن على هذا النحو أبداً .

١ـ شميدت « ترجمان هتلر » ص ١١٨ . وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٤) ص ٤٧١-٤٧٧

سلوفاكيا « تفوز » « باستقلالها »

ترى ماذا حدث للضمانة الألمانية التي وعدهتلر وعداً قاطعاً في ميونيخ بتقديمها الى ما تبقى من تشيكوسلوفاكيا ؟ لقد جاء السفير الفرنسي الجديد في برلين المسيو روبير كولوندر الى وزارة الخارجية الألمانية في الواحد والعشرين من كانون الاول عام ١٩٣٨ ، مستعلماً من وايزساكر ، عما حل بهذه الضمانة ، فكان رد هذا بأن مصير تشيكوسلوفاكيا رهن بمشيئة المانيا ، وانها ترفض تبعاً لذلك أية ضمانة من جانب بريطانيا وفرنسا . وعندما جاء وزير خارجية تشيكوسلوفاكيا الجديد فرانتيسك شفالكوفسكي الى ميونيخ في الرابع عشر من تشرين الأول مستجدياً الفتات من هتلر ، ومستفهماً عما إذا كانت المانيا ستشترك مع بريطانيا وفرنسا في ضمان حدود بلاده المحطمة ، رد الفوهرر متعالياً ، بأن « الضمانات البريطانية والفرنسية تافهة ولا قيمة لها .... وان الضمانة الفعالة الوحيدة هي تلك التي تصدر عن ألمانيا[1] ».

وبدأ عام ١٩٣٩ دون أن تصل هذه الضمانة . والسبب في ذلك في غاية البساطة . فالفوهرر لا ينوي التقدم بها ، لأن مثل هذه الضمانة ستعرقل الخطط التي شرع في وضعها فور الانتهاء من ميونيخ . ولن تبقى هناك عما قريب بلاد تحمل اسم تشيكوسلوفاكيا ، وتكون صالحة لإعطاء مثل هذه الضمانة . ورأى ان الخطة الأولى يجب ان تتجه إلى اقناع سلوفاكيا، بالخروج عن تشيكوسلوفاكيا.

وقد استقبل غورنغ بعد بضعة ايام من انتهاء اجتماع ميونيخ ، أي في السابع عشر من تشرين الأول ، زعيمين سلوفاكيين ، هما فيرديناند دوركانسكي دماخ، كما أستقبل فرانز كارماسين زعيم الأقلية الألمانية في سلوفاكيا ، وقد أكد دوركانسكي ،نائب رئيس وزراء دولة سلوفاكيا التي نالت استقلالها الذاتي حديثاً، للمشير ان سلوفاكيا تريد « الاستقلال الكامل حقاً، وتريد ان تكون لها علاقات اقتصادية وسياسية وعسكرية وثيقة العرى مع المانيا » . وتقول مذكرة سرية لوزارة الخارجية الألمانية تحمل نفس التاريخ أن غورنغ قرر أن من الواجب

١ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٤) ص ٦٩ – ٧٢ .

دعم فكرة استقلال سلوفاكيا ، واضافت المذكرة تقول ... « أن دولة تشيكية تقتطع منها سلوفاكيا تكون اكثر خضوعاً لإرادتنا . ولا ريب في ان قاعدة جوية في سلوفاكيا للعمل ضد الشرق ، أمر في منتهى الأهمية [1] » .... هذه هي الافكار التي راودت غورنغ في أواسط شهر تشرين الاول .

وأرى لزاماً علينا هنا ، أن نتابع خيطاً مزدوجاً في الخطة الألمانية، يتناول أحدهما ، فصل سلوفاكيا عن براغ ، وثانيهما اعداد العدة لتصفية ما تبقى من الدولة التشيكوسلوفاكية باحتلال الأراضي التشيكية عسكرياً ، وأعني بها بوهيميا ومورافيا . وقد رأينا من قبل كيف أن هتلر أصدر أمره في الواحد والعشرين من تشرين الأول إلى الجيش الألماني « الفير ماخت » بأن يكون على استعداد لتنفيذ عملية التصفية [2] . واصدر كايتل في السابع عشر من كانون الأول ، ما دعاه « بملحق لتوجيه الواحد والعشرين من تشرين الأول » .

سري للغاية

بالاشارة إلى «تصفية الدولة التشيكية المحطمة » أصدر الفوهرر الأوامر التالية :

« من الواجب إعداد العملية على اساس الافتراض بعدم توقع أية مقاومة تستحق الذكر .

« ويجب ان يظهر العمل أمام العالم الخارجي وكأنه اجراء سلمي لا عسكري .

« ومن الواجب أن يتم العمل عن طريق القوات العسكرية الجاهزة في أوقات السلم العادية وبدون أية إجراءات تعبوية » [3] .

---

١ — وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٤) ص ٨٢ — ٨٣ .

٢ - اصدر هتلر في الرابع والعشرين من تشرين الثاني امراً سرياً آخر، يطلب فيه الى القوات المسلحة ان تتخذ استعداداتها لاحتلال دانزيغ على ان يتم ذلك في وقت لاحق . ويتبين من هذا ان الفوهرر اخذ يتطلع الى ما بعد احتلال تشيكوسلوفاكيا .

٣ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٤). ص ١٨٥ - ١٨٦ . المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٩٥٠ - ٩٥١ .

وعلى الرغم من جميع المحاولات التي بذلتهـــا الحكومة التشيكوسلوفاكية الجديدة . الموالية للالمان ، لإرضاء هتلر ، فإنها بدأت تدرك مع طلوع العـــام الجديد ، أن طبخة « البلاد » قد أصبحت جاهزة للإلتهـــام . وكانت الوزارة التشيكية قد أصدرت أمرها قبيل عيد الميلاد ، رغبة منها في إرضـاء الفوهرر أيضاً ، بحل الحزب الشيوعي ، ومنع جميع المعلمين اليهود من التعليم في المدارس الألمانية . وأكد وزير خارجية تشيكوسلوفاكيا تشفالكوفسكي في مذكرة بعث بها في الثامن عشر من كانون الثاني إلى وزارة الخارجية الألمانية أن حكومته « ستبذل كل جهودها ، لإثبات ولائها وحسن نيتها ، عن طريق تحقيق كل مـا تبديه ألمانيا من رغبات . » وقد لفت في نفس اليوم اهتمام القائم بالأعمال الألمـاني في براغ ، إلى الإشاعات الدائرة عن « قرب ضم تشيكوسلوفاكيـــا إلى الرايخ الألماني »[1] .

وتمكن تشفالكوفسكي أخيراً من إقناع هتلر بمقابلته في الواحد والعشرين من كانون الثاني محاولاً إنقاذ ما يمكن إنقاذه من الأجزاء البـاقية من البلاد . وسرعان ما تبين أن هذه المقابلة كانت من النوع المؤلم جداً للتشيكيين وإن لم تكن على نفس الدرجة من الالم بالنسبة إلى الاحداث التالية . فلقد تذلل وزير الخارجية التشيكية في حضرة الديكتاتور الالماني الجبار ، الذي كان في حـالة نفسية من أكثر حالاته « بلطجة » . ولقد ذكر هتلر أثناء هذه المقابلة، أن إنقاذ تشيكوسلوفاكيا قد تم بفضل « اعتدال المانيا » . ولكنه مصمم على ابادة التشيكيين إلا إذا أظهروا روحـاً مختلفة تمام الإختلاف عما يظهرون الآن . وعليهم أن ينسوا « تاريخهم » الذي لا يعدوا مجرد « سخافات اطفال » ، وأن ينفذوا كل ما يأمرهم الألمان بتنفيذه ، إذ أن هذا سبيلهم الوحيد للخلاص. وحدد ما يتحتم على تشيكوسلوفاكيا عمله ، فقال : إن عليها أن تتخلى عن عصبة الامم وأن تخفض من جيشها خفضاً « جذرياً » لأن هذا الجيش لا « ينفعهـــا شيئاً في أية حال من الاحوال » وأن تنضم إلى ميثـــاق مكافحة الشيوعية ،

---

١ — وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٤) ص ١٨٨ — ١٨٩ .

وتقبل بتوجيه المانيا في سياستها الخارجية وتعقد معها اتفاق الدولة المفضلة في الميدان الاقتصادي على ان ينص في هذا الاتفاق على عدم السماح باقامة أيـــة صناعات تشيكية جديدة ، بدون موافقة المانيا[1]. وان تطرد جميع الموظفين ومحرري الصحف المعادين للرايخ وان تعزل جميع اليهود من الحياة العامة على غرار ما فعلته المانيا في قوانين نورمبرغ ، وراح هتلر يقول لزائره : « لن يبقى اليهود في وجودنا » . وتلقى تشفالكوفسكي في نفس اليوم طلبات جديدة من ريبنتروب ، الذي أنذره « بنتائج مفجعة » ، إلا إذا قام التشيكيون باصلاح أوضاعهم ، ونفذوا ما يطلب إليهم فوراً . وراح وزير الخارجية الالماني الذي يبدو طيّعاً ذليلاً في حضرة هتلر ، ومتكبراً متعجرفاً أمام من يشعر بقوته تجاههم ، يأمر تشفالكوفسكي ، بأن لا يذكر مطالب المانيا الجديدة للبريطانيين والفرنسيين ، وان يمضي فوراً في تنفيذها دون اعتراض[2].

وعلى تشيكوسلوفاكيا أن تفعل ذلك دون ان تتلقى نفسها بأيـــة ضمانات المانية للحدود التشيكية. وبدا ان لندن وباريس كانتا غير قلقتين من تأخر هذه الضمانات ، فلقد انقضت اشهر اربعة منذ مؤتمر ميونيخ ، ولم يكن هتلر قد نفذ وعده بعد ، باضافة الضمانة الالمانية لتلك التي قدمتها بريطانيا وفرنسا . وأخيراً وجهت الحكومتان البريطانية والفرنسية مذكرة شفوية إلى برلين في الثامن من شباط تقولان فيها أن الحكومتين « ستشعران بالسعادة إذا عرفتا وجهة نظر الحكومة الالمانية في خير السبل المؤدية الى ما تم الاتفاق علية من تفـاهم في

---

١ ـ طلب هتلر ان يقوم المصرف الوطني التشيكوسلوفاكي ، بتسليم جزء من احتياط الذهب فيه الى مصرف الرايخ ، وكان المبلغ المطلوب (٣٩١٠٢) مليوناً من الكراونات التشيكية بالعملة الذهبية ، وبعث غورنغ في الثامن عشر من شباط الى وزارة الخارجية الالمانية يقول : « بالنظر الى الصعوبة المتزايدة في وضع النقد ، ارى لزاماً ان اصر بشدة ، على وجوب تسلمنا ٣٠ او ٤٠ مليوناً من الماركات الذهبية من المصرف التشيكي الوطني في أقرب وقت ممكن ، وذلك لأن هذا المبلغ ضروري لتنفيذ أوامر الفوهرر » (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٤) ص ٢١٥).

٢ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٤) ص ١٩٠ ـ ٢٠٢ . الكتاب الفرنسي الاصفر ص ٥٥ ـ ٥٦ .

ميونيخ بالنسبة إلى الضمانات لتشيكوسلوفاكيا »[1].

وقد كتب هتلر نفسه كما تؤكد وثائق وزارة الخارجية الألمانية المصادرة الرد الذي لم يسلم إلا في الثامن والعشرين من شباط. وذكر هذا الرد أن الوقت لم يحن بعد لصدور ضمان ألماني، وأن على ألمانيا أن تنتظر أولاً « إيضاحاً للموقف الداخلي في تشيكوسلوفاكيا »[2].

وبدا ان الفوهرر كان يرسم صورة « هذا التطور الداخلي » على النحو الذي يريده للوصول إلى النتيجة الواضحة. وقد استقبل في الثاني عشر من شباط في دار المستشارية في برلين الدكتور فوجتيش توكا، أحد الزعماء السلوفاكيين، الذين أثارت المدة الطويلة التي قضاها في السجن حقده على التشيكيين. وتقول المذكرة السرية الألمانية التي دوّنت وقائع الاجتماع أن الزائر السلوفاكي كان يخاطب هتلر بعبارة « يا زعيمي » ثم راح يرجوه تحرير سلوفاكيا وإعلانها دولة مستقلة، ويقول: « إنني أضع مصير شعبي في يديك يا زعيمي، وذلك لأنه ينتظر منك تحريره تحريراً كاملاً ».

وانطوى رد هتلر على بعض التهرب، فقد ذكر أنه لم يفهم لسوء الحظ، حقيقة المشكلة السلوفاكية. وأضاف بأنه لو عرف أن السلوفاكيين يريدون الاستقلال، لحقق لهم ذلك في مؤتمر ميونيخ، ولكن في وسعه أن يضمن للسلوفاكيين الاستقلال في كل حين حتى في هذه اللحظة. وكانت هذه العبارات مطمئنة للدكتور توكا[3] أيضاً فقد ذكر فيما بعد، أن تلك المقابلة كانت أعظم حادث وقع له في تاريخه.

وهكذا بات في الامكان أن يزاح الستار عن الفصل التالي في المأساة التشيكوسلوفاكية. ولعل من سخريات الأقدار أيضاً التي يحتشد بها هذا السرد التاريخي، أن التشيكيين في براغ، كانوا هم الذين رفعوا هذا الستار قبل أوانه.

---

١ - وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٤) ٢٠٧ - ٢٠٨

٢ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٤) ص ٢١٨ - ٢٢٠

٣ - وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٤) ص ٢٠٩ - ٢١٣ .

فلقد واجهتهم في مستهل شهر آذار عام ١٩٣٨ مشكلة مستعصية للغاية . إذ وصلت الحركتان الانفصاليتان في سلوفاكيـا وروثينيا ، اللتان أثارت ألمانيـا اولاهما ، واثارت المجر ثانيتهما طمعاً منها باغتصاب تلك المنطقة الصغيرة ، حداً ، بات لزاماً على تشيكوسلوفاكيا معالجته وإخماده ، وإلا تعرضت للانهيار . وصار من حق هتلر أن يحتل براغ في هذه الحالة . ولكن كان هناك خوف من الناحية الاخرى بأن يؤدي قيام الحكومة المركزية باخماد الحركة الانفصالية ، إلى انتهاز الفوهرر ، فرصة الاضطرابات التي ستنجم عن هذه المحاولة للزحف على براغ أيضاً.

وقد آثرت الحكومة التشيكية بعد كثير من التردد، وبعد أن بات الاستفزاز من النوع الذي لا يحتمل ، اختيار السبيل الثاني . وفي السادس من آذار ، أقال الدكتور هاشا رئيس الجمهورية التشيكوسلوفاكية ، وحكومة روثينيا المستقلة ، كما أقال ليلة التاسع - العاشر منه ، حكومة سلوفاكيا المستقلة أيضاً. وأصدر امره في اليوم التالي ، باعتقال المونسنيور تيزو رئيس وزراء سلوفاكيا والدكتور توكا والسيد دوركانسكي ، واعلن الاحـكام العرفية في البـلاد . ولكن هذا العمل الجريء الوحيد ، الذي قامت بـه هذه الحكومة التي غدت خانعة مستكينة لبرلين قد تحوّل ليصبح السبب في الكارثة التي حلت بها وحطمتها .

وذهلت برلين لهذه المفاجأة التي أثارها عمل براغ السريع ، وكان غورنغ قد مضى إلى سان ريمو ، ليستجم ويتمتع بشمسها الدافئة . وكان هتلر بدوره يستعد للمضي إلى فيينا ليحتفل بالذكرى الاولى لضم النمسا إلى الرايخ . ولكن سرعان مامضى المخطـط الأعظم إلى العمل بحماس وقرر في الحادي عشر من آذار احتلال بوهيميا ومورافيا بانذارهما . وقد أعد الفريق كايتل بأمر من هتلر في نفس اليوم صيغة الإنذار الذي بعث به إلى وزارة الخارجية الالمانية والذي يطلب إلى التشكيين الإذعان دون مقاومة لاحتلال المانيا العسكري [1] ولكن هـذا الانذار ظل بعض الوقت يحمل طابع السرية الكبيرة .

وقد حان الوقت الآن لتحرير سلوفاكيا . وكان الرئيس هاشا قد عين

---

١ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٤) ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

كارول سيدور، ممثل حكومة سلوفاكيا ذات الاستقلال الذاتي في براغ ، رئيساً لوزرائها بدلاً من المونسنيور تيزو الذي كان قد أقاله . وعندما عاد سيدور إلى براتيسلافا، عاصمة الحكومة السلوفاكية يوم السبت في الحادي عشر من آذار دعا وزارته الجديدة إلى اجتماع عاجل ، ولكن الجلسة التي عقدتها الحكومة ، انقطعت فجأة في الساعة العاشرة مساء ، بوصول زائرين في منتهى الغرابة ، هم سايس - انيكوارت الحـــاكم النازي « الكويزلنغي » في النمسا ، وجوزيف بيركل ، ممثل الحزب النازي فيها ، وخمسة من الفرقاء العسكريين الألمان ، وقد شقوا طريقهم إلى قاعة الاجتماع ، وطلبوا إلى أعضاء الوزارة إعلان استقلال سلوفاكيا فوراً ، وهدد الزائرون أعضاء الوزارة ، بأنهم إذا لم يفعلوا ذلك ، فإن هتلر الذي قرر تسوية مشكلة سلوفاكيا تسوية نهائية وفورية، سيفقد اهتمامه بمصير سلوفاكيا [١].

وتردد سيدور الذي كان يعارض قطـع جميع العلاقات مع التشيكيين ، في تنفيذ الأمر ، ولكن المونسنيور تيزو الذي كان قد فرّ من الدير الذي كان قـد أودع فيه رهن الاعتقال ، وصل في الصباح التالي ، وطلب عقد اجتماع عاجل للوزارة التي لم يكن في تلك اللحظة عضواً فيها . ورغب سيدور في إحباط أي تدخل جديد من كبار الموظفين الألمان والقادة العسكريين ، فطلب عقدالاجتماع في الشقة التي يقيم فيها ، ولكن عندما بات هذا المكان مفتقراً إلى السلامـــة والامن أيضاً، بسبب إقتحام جنود العاصفة الألمان للمدينة، فض سيدور الاجتماع وطلب التئامه من جديد ، في مكاتب إحدى الصحف المحلية . وأبلغه تيزو إبان الاجتماع أنه تلقى برقية قبل لحظات من بيركل ، يدعوه فيهـــا إلى المضي فوراً إلى برلين لمقابلة الفوهرر . وأضافت البرقية ، أنه إذا رفض الدعوة، فإن فرقتين ألمانيتين ستعبران الدانوب عند براتيسلافا ، وأن سلوفاكيـا ستجزأ بين ألمانيا والمجر. ووصل الكاهن الرث الهيئة القميء الى فيينا في الصباح التالي الثالث عشر

---

١ - المؤامرة النازية والعدوان (شهادة الوزير البريطاني في براغ) (٧) ص ٨٨ - ٩٠ .

من آذار ، معتزماً المضي منها بالقطار الى برلين[1]، ولكنه حمل حملاً الى الطائرة التي أقلته لمقابلة هتلر . ولم يكن الفوهرر راغباً في اضاعة الوقت .

وعندما وصل تيزو ودور كانسكي الى دار المستشارية في برلين في الساعة السابعة والدقيقة الاربعين من مساء الثالث عشر من آذار ، وجدا هتلر وقد أحاط به ريبنتروب وزير خارجيته والفريقان براوخيتش القائد العام للجيش الالماني وكايتل رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة . وقد وجد السلوفاكيان، الفوهرر أيضاً في حالة مزاجية خاصة ، ولم يستطيعا فهمها، ويرجع الفضل هنا في الكشف أيضاً عما دار في هذا الاجتماع الى السجلات السرية للوقائع التي صودرت كذلك ، كما تكشف أيضاً عن الحالة العقلية التي سيطرت على الديكتاتور الالماني الذي سرعان ما تحول الى الجنون وعن صورته وهو ينسج اكاذيبه الخيالية ، مطلقاً تهديداته الجريئة بطريقة لم يكن يتوقع قط أن يطلع عليها الرأي العام وبأسلوب ما كان يأمل في أن يصل الى الناس[2] .

قال هتلر ... «ان تشيكوسلوفاكيا مدينة لألمانيا وحدها ، إذا لم تكن قد جزئت أكثر من تجزئتها الحالية » وأضاف أن الرايخ قد أظهر منتهى التسامح وضبط النفس ، ومع ذلك لم يقدر له التشيكيون هذا الموقف . وراح يقول بعد ذلك وقد اشتد حماسه ... « وفي غضون الاسابيع الاخيرة ، أصبحت الاوضاع من الطراز الذي لا يطاق . فقد بعثت روحية بنيش القديمة من مرقدها ثانية » .

وقال ان السلوفاكيين قد خيبوا أمله كذلك . وراح يمن على زائريه بالقول أنه اختلف مع حلفائه المجريين بعد مؤتمر ميونيخ لأنه لم يسمح لهم باغتصاب سلوفاكيا . وكان يخيل إليه، بأن سلوفاكيا تنشد الاستقلال فعلاً . وراح يقول:

---

١ ـ كان المونسنيور تيزو بديناً وقصيراً . وكان نهماً اكولا . ولقد قال للدكتور بول شميدت ذات يوم.. « عندما اجد نفسي منهمكاً في العمل آكل رطلا من لحم الخنزير فتهدأ اعصابي المتعبة» وقدر له ان يموت على حبل المشنقة إذ اسره الامريكيون في الثامن من حزيران عام ١٩٤٥ ، وسلموه الى الحكومة التشيكوسلوفاكية الجديدة فقضت عليه بالاعدام بعد محاكمة استغرقت اربعة اشهر وقد نفذ الحكم في الثامن عشر من نيسان .

٢ ـ وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٤) ص ٢٤٣ ـ ٢٤٥ .

« لقد استدعيت تيزو الآن لايضاح هذه القضية في وقت قصير للغاية ... والقضية الآن ... هي هل تريد سلوفاكيا حقاً أن تنال وجوداً مستقلاً او لا ؟ إنها قضية ساعات لا أيام ... وإذا كانت سلوفاكيا ... تريد أن تستقل حقاً فإنه سيؤيدها ويضمن استقلالها كذلك ... أما إذا ترددت ورفضت أن تنفصل عن براغ ، فإنه سيترك مصير سلوفاكيا إلى الاحداث التي لن يعود مسؤولاً عنها ».

وتقول الوثيقة الالمانية أن ريبنتروب سلّم في هذه اللحظة إلى الفوهرر ، تقريراً تلقاه قبل لحظات عن تحركات عسكرية مجرية على حدود سلوفاكيا . وقد قرأ هتلر التقرير ثم نقل محتوياته إلى تيزو ، معرباً عن أمله في أن تصل سلوفاكيا إلى قرار عاجل » .

ولم يتخذ تيزو قراره على الفور وانما رجا من الفوهرر أن يغفرله اذا كان تحت وطأة كلمات المستشار قد آثر عدم اتخاذ أي قرار فوري ، ولكنه أضاف بسرعة قائلاً ... « ان السلوفاكيين سيقيمون الدليل على أنهم جديرون بإحسان الفوهرر » .

وقد أُقيم هذا الدليل في اجتماع عقد في وزارة الخارجية واستمر حتى ساعة متأخرة من الليل . ويقول كيبلر عميل هتلر السري في براتيسلافا والذي كان عميلاً له قبل عام في فيينا عشية عملية ضم النمسا ، في شهادته أمام محكمة نورمبرغ ان الألمان ساعدوا تيزو في اعداد برقية تقرر أن يبعث بها «رئيس الوزراء» حال عودته الى براتيسلافا ، معلناً استقلال سلوفاكيا ، ومناشداً الفوهرر بسرعة أن يتولى حماية الدولة الجديدة [1]. ولا ريب في أن هذه البرقية تذكرنا بالمذكرة التي أملاها غورنغ قبل نحو من عام تقريباً من سايس – انيكوارت ليناشد بها هتلر ارسال القوات الالمانية الى النمسا ، وكان اسلوب النازيين في اعداد البرقيات قد بلغ حد الكمال هذه المرة . اذ اختصرت البرقية هذه المرة ، وبعث بها تيزو في السادس عشر من آذار ، وردّ هتلر على الفور ، بأنه سيكون مسروراً غاية

١ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٤) ص ٢٥٠ .

السرور « لتولي حماية الدولة السلوفاكية » .

ووضع ريبنتروب في وزارة الخارجية أيضاً تلك الليلة الاعلان السلوفاكي بالاستقلال ، وتمت ترجمته بسرعة الى اللغة السلوفاكية ليحمله تيزو معه الى براتيسلافا، حيث يتولى رئيس الوزراء قراءته. بعد أن حرفه بعض التحريف – كما روى عميل ألماني – امام البرلمان في اليوم التالي أي الثلاثاء في الرابع عشر من آذار . وقد احبط كارمازين زعيم الاقلية الألمانية أية محاولات قام بها بعض النواب السلوفاكيين للبحث في البيان ، بعد أن أنذرهم بأن القوات الألمانية ستهرع الى احتلال البلاد في حالة تأخرهم في اعلان الاستقلال. وقد أذعن النواب امام هذا التهديد وسكتوا .

وهكذا ولدت سلوفاكيا المستقلة في الرابع عشر من آذار عام ١٩٣٩. وعلى الرغم من اسراع الممثلين الدبلوماسيين البريطانيين الى ابلاغ لندن عن الطريقة التي ولدت فيها الدولة الجديدة ، إلا أن تشمبرلين كان سريعاً أيضاً ، كما سنرى ، في استخدام « انفصال » سلوفاكيا ذريعة تتحلل فيها بريطانيا من تعهداتها لتشيكوسلوفاكيا،بعد أن قام هتلر في تلك الليلة نفسها بإكمال ما لم يتمه في ميونيخ.

وانتهت الآن حياة جمهورية مازاريك وبنيش ، واذعن زعماء براغ الواقعين تحت الضغط من جديد لإرادة هتلر ، لوضع تصميم الفصل الاخير في مأساة بلادهم . وراح الرئيس العجوز هاشا ، الذي سيطرت عليه الحيرة ، يطلب الاجتماع بالفوهرر [1] . ووافق هتلر على ان يسمح له برؤيته ، فقد أتاحت له

---

١ ـ هناك خلاف في الآراء حول هذه النقطة ، إذ يرى بعض المؤرخين ان هتلر قد ارغم هاشا على المجيء الى برلين ولا ريب في انهم يقيمون ادعائهم هذا على برقية بعث بها السفير الفرنسي في برلين يقول فيها انه علم هذه الحقيقة من « مصدر موثوق » ، ولكن وثائق وزارة الخارجية الالمانية التي تم الوصول اليها فيما بعد ، تظهر ان المبادرة جاءت من هاشا نفسه ، فلقد طلب هذا في البداية، إجراء مقابلة له مع هتلر في الثالث عشر من آذار عن طريق المفوضية الألمانية في براغ ثم عاد فكرر هذا الطلب في صباح الرابع عشر منه ، وقد وافق هتلر على المقابلة بعد ظهر ذلك اليوم ايضاً . (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٤) ص ٢٤٩ – ٢٦٠ ، اما برقية السفير الفرنسي فقد وردت في الكتاب الفرنسي الاصفر ٩٦) .

المقابلة ، الفرصة ، ليرسم مخططات فصل يعتبر من أقسى الفصول التي ارتكبها في حياته كلها .

وعلينا ان ندرس بإمعان الطريقة الممتازة التي أعدَّ فيها الديكتاتور منظر المسرحية ، عندما كان يترقب بعد ظهر الرابع عشر من آذار وصول الرئيس التشيكوسلوفاكي . وكان اعلان استقلال سلوفاكيا وروثينيا ، الذي رتبه ببراعة ودقة ، قد ترك براغ ، لا تسيطر إلا على مقاطعتي بوهيميا ومورافيا التشيكيتين ، او لم يُزل وجود تشيكوسلوفاكيا من حكم الواقع ، وهي الدولة التي ضمنت بريطانيا وفرنسا حدودها ضد العدوان؟ وكان قد أدرك ان تشمبرلين وديلادييه زميليه في ميونيخ، حيث قدمت الضمانات بصورة تنطوي على الجد ، قد وجدا « المخرج » من الإلتزامات ، ولم يكن يشك مطلقاً في انهما سيتحللان من هذه الالتزامات ، وكان محقاً في يقينه كل الحق . وكان هـذا اليقين مزيلاً لكل خطر في وقوع تدخـل خارجي . ولكن رغبة منه في التأكد تمام التأكد من هذا اليقين ، ومن التظاهر بالشرعية والقانونية في خطوته التالية طبقاً لمفاهيم القانون الدولي الغامضة ، من ناحية نصها على الأقل ، رأى أن يزعم هاشا الشيخ المهدم والضعيف ، بعد أن طلب هذا مقابلته، راجياً السماح له بها ، على قبول نفس الحل الذي كان قد عزم على الوصول اليه مستخدماً القوة العسكرية . وأيقن أنه بعمله هذا ، سيجعل اجراءه ، بعد أن أتقن الأسلوب الجديد في الاحتلال الذيلا تسفك فيه الدماء في اوروبا. كما فعل في النمسا وفي ميونيخ ، وكأنه ناجم عن طلب فعلي ورسمي من الرئيس التشيكوسلوفاكي . وهكذا أراد أن يحافظ على مظاهر «الشرعية» التي أتقنها تمام الإتقان في وصوله إلى الحكم في المانيا ، إبان احتلال أرض غير المانية .

وأعد هتلر المسرح أيضاً لخداع الشعب الألماني وغيره من شعوب اوروبا السليمة الطوية . وكان المحرضون الألمان ، يحاولون منـذ بضعة ايام إحداث إضطرابات في مختلف المدن التشيكية كبراغ وبرون وايفلاد . ولم يكونوا قد حققوا نجاحاً فيها ، وذلك لأن الشرطة التشيكية ، كما روت المفوضية الألمانية

في براغ قد تلقت الأوامر من المسؤولين «بأن لا تتخذ أي اجراء ضد الألمان حتى في حالة وقوع الاستفزاز» [1] ولكن هذه الاوامر، لم تحـل بين الدكتور غوبلز، وبين إلهاب سخط جماهير الألمان عن طريق الصحافة التي راحت تخترع روايات عن أعمال إرهابية يقوم بها التشيكيون ضد الالمان المساكين. وذكر السفـير الفرنسي المسيو كولندر في تقريره لباريس، أن هـذه القصص، كانت عين الروايات التي اختلقها غوبلز إبان أزمـة السوديت، وحملت عين العناوين في الصحف الالمانية كالإدعاء بقتل الوحوش التشيكيين للنساء والحوامـل من الالمانيات وكحمامات الدم التي تعرض لها الالمان على أيدى البرابرة التشيكيين. وكان في وسع هتلر أن يؤكد للشعب الالماني المتغطرس، بأن إخوانه لن يظلوا مفتقرين إلى الحماية أمداً طويلاً.

هكذا كان الوضع، وهكذا كانت خطـط هتلر، كما كشفت عنها الوثائق الألمانية فيما بعد، عندما وصل القطار الذي يقل الرئيس هاشا ووزير خارجيته شفالكوفسكي الى محطة انهولت في برلين في الساعة العاشرة والدقيقة الاربعين من مساء الرابع عشر من آذار. وكان الرئيس عاجزاً عن ركوب الطائرة بسبب ضعف في قلبه، نجم عن سوء حالته الصحية.

محنة الدكتور هاشا

أُستقبل هاشا استقبالاً رسمياً رائعاً، وأُقيمت له المراسيم التي تقام لرئيس أية دولة من الدول، فلقد كان حرس الشرف في المحطة ينتظر وصول الضيف حيث قدم لكريمته التي رافقته باقة من الزهر، ووجدت الآنسة هاشا في فندق ادلون الفخم، حيث حل الضيوف في أجنحة رائعة خاصة، علبة من «الشوكولاته» هدية خاصة من ادولف هتلر، الذي كان يعتقد بأن الناس جميعاً يشاركونه حبه للحلوى. وعندما وصل الرئيس العجوز ووزير خارجيته إلى دار المستشارية،

---

١ ــ وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٤) ص ٢٤٦.

أدت لهما التحية شلة من الحرس النازي .

ولكنهما ظلا ينتظران المثول بين يدي هتلر حتى الساعة الواحدة والربـــع صباحاً ، ولا ريب في أن هاشا « كان يعرف مقدماً » ما هو مخبوء له . فقبل أن يغادر القطار الذي أقله من الارض التشيكية ، كانت الانباء قد وصلته من براغ ، بأن القوات الالمانية احتلت فعلاً موراڤسكا – اوسترافـــا ، المدينة التشيكية الصناعية الهامة . وكانت قد انتشرت على طول قطاع بوهيميا ومورافيا مستعدة للهجوم . وعندما دخل إلى مكتب الفوهرر في الساعة المبكرة من الصباح ، رأى على الفور إلى جانبه بالاضافة الى ريبنتروب وواېز ساكر ، كلاً من المستر غورنغ ، الذي استدعي على عجل من إجازته في سان ريمو ، والفريق كايتل . ولعله لم يرَ عندمادخل عرين الأسدأن طبيب هتلر الخاص الدكتور تيودور موريل كان على مقربة ، وأن وجوده هناك كان ضرورياً ولأمرٍ ما .

وتكشف الوثائق الألمانية السرية عن الاجتماع ، النقاب عن منظر في منتهى الألم . وقع منذ البداية ، فلقد هدر الدكتور هاشا التعس ، أمام الفوهرر الالماني المزهو بنفسه ، كل ما لديه من كرامة انسانية ، على الرغم من ماضيه العريق كقاض محترم في المحكمة العليا . ولعل الرئيس قد فكر أنه بتصرفه هذا وحده ، يستطيع ان يستفز رحمة هتلر وكرامته ، وينقذ لشعبه بعض ما يمكن انقاذه ، ولكننا إذا تجاهلنا هذا الحافز ، فإن كلماته ، مهما كان سببها ، كانت طبقاً لما سجله الالمان في وثائقهم السرية عنها ، من النوع الذي تتقزز منه نفس القارىء ، حتى ولو تلاها بعدانقضاء هذا الأمد الطويل عليها . فلقد راح يؤكد لهتلر ، أنه لم يسبق له قط ، أن أقحم نفسه في السياسة ، وأنه لم يلق مؤسسي الجمهورية التشيكوسلوفاكية ، مازاريك وبنيش ، إلا لماماً « وأن ما رآه منهما لم يعجبه ، وقال أن عهدهما كان « غريباً » عليه ، وان هذه الغرابة قد دفعته فور تبدل العهد بعد ميونيخ « إلى أن يسائل نفسه عما إذا كان بقاء تشيكوسلوفاكيا دولة مستقلة ، أمراً يراه صالحاً » . ثم راح يقول ....

« إنني على ثقة من أن مصير تشيكوسلوفاكيا رهن بإرادة

الفوهرر ، وإن هذا المصير أمين بين يديه ... وراح الدكتور هاشا يصل بعد ذلك إلى ما كان أبلغ الأثر عليـــه ، وهو مصير شعبه . وهو يشعر تمام الشعور بأن الفوهرر ، يفهم كل الفهم ، رأيه في ان من حق تشيكوسلوفاكيا ان تحيا حياة قومية ... وما اللوم الموجه الى تشيكوسلوفاكيا إلا نتيجة وجود بعض العناصر التي ما زالت تؤيد نظام بنيش ... ولكن الحكومة لن تتقاعس عن اللجوء إلى كل وسيلة لاسكات هذه العناصر . واضاف بعد ذلك أن هذا هو كل ما ود أن يقوله الى الفوهرر » .

وراح هتلر يفضي بعد ذلك ، بكل مـــا كان قد أعده من قول ، فبعد أن كرر جميع الاخطاء المزعومة التي ارتكبتها تشيكوسلوفاكيا مازاريك وبنيش في حق المانيا والألمان ، وبعـد ان اكد ان التشيكيين ، لم يتبدلوا لسوء الحظ ، بعد ميونيخ ، وصل إلى النقطة المهمة ... قائلاً .... بأنه :

« قد توصل إلى الإستنتاج بأن هذه الرحلة التي قام بها الرئيس على الرغم من شيخوختـــه ، قد تكون كبيرة النفع لبلاده إذ لم يبق أمام تدخل الألمان إلا بضع ساعات ... واضاف انه لا يحمل عداء لأي بلد من البلاد .. وان وجود تشيكوسلوفاكيا المحطمة لا يعود إلا لموقفه الودي منها .. ولم يكن قد رغب في الخريف الماضي أن يصل إلى النتيجة الحاسمة ، لأنه اعتقـــد بامكان وجود تعايش ودي بين البلدين ، ولكنه كان قد أوضح إيضاحاً ، بأنه ما لم تختف الاتجاهات المؤيدة لبنيش اختفاء كلياً ، فانه سيحطم الدولة الصغيرة تحطيماً نهائياً » .

وراح هتلر يؤكد ان هذه الاتجاهات لم تختفِ ، وأخذ يعدد « الأمثلة » على وجودها قائلاً :

« وهكذا لم يعد في امكانه الصبر بعد الثاني عشر من آذار .... ولقد اصدر أوامره إلى القوات الألمانيـــة بالزحف ، وضم

تشيكوسلوفاكيا إلى الرايخ الالماني » .

ويقول الدكتور شميدت في سجله عن الاجتماع « ان هاشا وشفالكوفسكي جلسا وكأنهما قد تحولا إلى صنمين من الحجر . ولم يكن هناك من دليل على بقائهما في قيد الحياة إلا ما يبدو في عينيهما من بريق » ، ولكن هتلر لم يستكمل حديثه بعد ، فقد رأى ان واجبه يحتم عليه إذلال ضيفيه بسيل من الوعيد التيوتوني ... ولذا مضى يقول :

« لقد بدأ الجيش الالماني زحفه اليوم . وتولى تحطيم إحدى الثكنات العسكرية التي أبدت شيئاً من المقاومة » .

« وسيقوم الجيش الالماني في الساعة السادسة من صباح اليوم التالي بدخول بلاد التشيك من جميع أطرافها ، كما سيتولى السلاح الجوي الالماني احتلال المطارات التشيكية ، وهناك احتمالان . فقد يتطور دخول القوات الالمانية إلى معارك ، وفي مثل هذه الحالة ، ستسحق المقاومة بمنتهى القوة والقسوة ، وقد يقع دخول القوات الالمانية في شكل سلمي ، وسيكون من السهل في مثل هذه الحالة على الفوهرر أن يمنح لتشيكوسلوفاكيا شكلاً كريماً من اشكال الحياة الذاتية ، كبلد يتمتع بالاستقلال الذاتي ، كما سيتيح لها شكلاً معيناً من أشكال الحرية القومية .

« وهو لا يعمل كل هذا بدافع الكراهية ، بل بدافع الرغبة في حماية المانيا . ولو لم تستسلم تشيكوسلوفاكيا في الخريف الماضي ، لكان مصير الشعب التشيكي الابادة . ولم يكن في وسع أحد أن يحول بينه وبين ذلك . ولو تطور الامر إلى قتال .... لتحطم الجيش التشيكي في يومين ، وزال من الوجود . ومن الطبيعي أن يقتل عدد من الالمان في مثل هـذه الحالة ، وسيولد ذلك كراهية ، ستجعله مضطراً نتيجة الرغبة في الحماية الذاتية إلى الضن بالاستقلال الذاتي على البلاد . ولن يكترث العالم مطلقاً بذلك . وهو يشعر بالعطف على الشعب التشيكي عندما يقرأ الصحف الاجنبية ، إذ انما يقرؤه ، يوحي له بالانطباع الذي يمكن تلخيصه بالمثل الالماني القائل ....

لقد قام المغربي بواجبه ... وأصبح في وسعه أن يمضي ... »

« وهذا هو السببالذي دعاه إلى استدعاء هاشا للمجيء. ولعل هذه هي الفرصة الطيبة الاخـيرة التي يستطيع منحها إلى الشعب التشيكي... ولعل في زيارة هاشا،ما يحول دون وقوع الاسوأ...

« وها هي الساعات تمضي ... وفي الساعة السادسة ستزحف الجيوش داخلة إلى البـــلاد . وهو يخجل من أن يكرر على مسامع الرئيس ان هناك فرقة المانية مقابل كل فوج تشيكي . وهو يود ان ينصح هاشا بأن يختلي مع وزيره شفالكوفسكي لبحث مـــا يمكن عمله » .

ولكن ترى ما الذي يجب ان يعمـــل ؟ لم يكن الرئيس العجوز المحطم في حاجة إلى الانسحاب إلى الغرفة المجاورة لاتخاذ قرار . وراح يقول لهتلر على التو واللحظة : « ان الوضع في غاية الوضوح . فالمقاومة امر في منتهى الجنون»، ولكن كيف يمكن له ، وقد تجاوزت الساعة الثانية صباحاً ان يرتب في غضون اربع ساعات فقط، حمل الشعب التشيكي كافة علىالامتناع عن تقديم المقاومة. ورد الفوهرر ، بأنه يؤثر ان يستشير رفاقه . فالآلة العسكرية الالمانية قد بدأت العمل ولا يمكن وقفهـــا مطلقاً . وعلى هاشا ان يتصل فوراً ببراغ . وروت السجلات الالمانية عن هتلر قوله ... « انه قرار خطير ، ولكنه يرى امكان اشراقة عهد طويل من السلام بين الشعبين . أما إذا كان القرار من نوع آخر فهو لا يرى إلا احتمالاً واحداً، وهو إبادة تشيكوسلوفاكيا ومحوها من الوجود».

وراح يصرف ضيفيه بعد هذه الكلمات . كانت الساعة قد بلغت الثانيـــة والربع ، وراح غورنغ وريبنتروب في الغرفة المجاورة يواصلان الضغط على الضحيتين ، ويقول السفير الفرنسي في رسالة رسمية بعث بها إلى باريس واستند في محتوياتها التي وصف فيهـا الموقف الى مصدر يعتقد بصحته ، أن هاشا وشفالكوفسكي قد احتجا على هذا العمل المجحف الذي تتعرض اليه بلادهما . واعلنا انهما لا يستطيعان توقيع وثيقة الاستسلام . واكدا انهما إن فعلا ذلك ، فستحل اللعنة بهما من الشعب إلى الأبد .... وواصل المسيو كولوندر الحديث

في رسالته قائلاً :

« وخلت روح الوزيرين الألمانيين (غورنغ وريبنتروب) من كل رحمة أو شفقة . وواصلا الضغط على الدكتور هاشا والمسيو شفالكوفسكي ، اللذين يجلسان معهما إلى المائـــدة التي تقوم فوقها الأوراق اللازمة دافعين إلى أيديهما بالاقلام ليوقعا بها ، مكررين باستمرار ، انهما إذ واصـلا الرفض ، فان أكثر من نصف براغ سيتعرض الى الهدم بالقنابل ، في غصون ساعتين ، وان هذا العمل سيكون مجرد البداية . فهناك المئات من القاذفات تنتظر الأمر بالطيران وستتلقى هذا الأمر في السادسة صباحاً هذا إذا لم يوقعـا على الوثائق [١] » .

وسمع الدكتور شميدت في هذه اللحظة ، وهو الرجل الذي يبدو حاضراً دائماً كلما وصلت مسرحية الرايخ الثالث إلى الذروة ، غورنغ ، يصرخ منادياً الدكتور موريل ... « اسرع أيها الطبيب لقد اغمي على هاشا » .

وخشي وحوش النازية لحظة واحـــدة ان يموت الرئيس التشيكي العجوز بين ايديهم ، وان يقول العالم بأسره ، كما روى شميدت « في اليوم التالي انالرجل قد قتل في دار المستشارية » ، وكانالدكتور موريل اخصائياً في استعمال «الإبر» وقد قدر له فيما بعد ان يشرف على قتل هتلر بها تدريجياً فيما بعد ، وسرعان ما غرز « إبرته » في الدكتور هاشا واعاده إلى الوعي ، وقد استعاد الرئيس حيويته تقريباً إلى الحد الذي مكنه من الأمساك بجهاز الهاتف الذي وضعه الألمان في يده ، ليتحدث منه إلى اعضاء حكومته في براغ ، على خط هاتفي خاص كان ريبنتروب قد أمر باعداده له . وقد نقل إلى الحكومة التشيكية كل ما وقع

١ ـ اعترف غورنغ امام محكمة نورمبرغ ، انه قـــال للرئيس هاشا ... « سيحزنني كل الحزن ان اضطر لقصف براغ الجميلة بالقنابل » ، واكد انه لم يكن يعتزم حقاً تنفيذ الوعيـــد موضحاً « ان هذا التنفيذ لم يكن امراً ضرورياً» . واضاف قائلاً ... « ولكنني ظننت ان نقطة كهذه قد تصلح حجة للنقاش ، وقد تؤدي الى الاسراع وبعث الحيويـــة في الموضوع كله » . (محاكمات كبار مجرمي الحرب (٩) ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤) .

ونصحها بالاستسلام . وعاد اليه وعيه كاملاً بعد « إبرة » أُخرى من الدكتور موريل ، وراح رئيس الجمهورية التي اشرف على الموت ، يخطو عائداً إلى حضرة ادولف هتلر، ليوقع شهادة وفاة بلاده، وكانت الساعة قد بلغت الثالثة والدقيقة الخامسة والاربعين من صباح الخامس عشر من آذار عام ١٩٣٩ .

ويروي شميدت أن هتلر نفسه هو الذي أعد نص هذه الوثيقة ، وقد عمل المترجم الألماني أثناء الفترة التي اغمي فيها على هاشا في نسخ البلاغ الرسمي الذي كان قد أعد من قبل أيضاً، والذي أرغم هاشا وشفالكوفسكي على توقيعه أيضاً. وهذا نصه :

برلين في ١٥ آذار ١٩٣٩

« استقبل الفوهرر اليوم في برلين كلاً من الرئيس التشيكوسلوفاكي الدكتور هاشا ووزير خارجيته الدكتور شفالكوفسكي بحضور فون ريبنتروب وزير الخارجية . وقد بحث في هذا الاجتماع وفي منتهى الصراحة الأوضاع الخطيرة التي خلفتها أحداث الأسابيع الأخيرة في الأراضي التشيكوسلوفاكية الراهنة .

« وكان ثمة إجماع في هذا الإجتماع في الاعراب من الفريقين على أن الهدف من جميع المحاولات يجب أن يكون ضمان الهدوء والنظام والسلام في هذا الجزء من اوروبا الوسطى . وقد أعلن الرئيس التشيكوسلوفاكي ، أنه رغبة منه في خدمة هذا الهدف ، وللوصول إلى التهدئة المطلقة، يضع مصير الشعب التشيكي والبلاد التشيكية في يدي فوهرر الرايخ الألماني، وقد قبل الفوهرر هذا الاعلان، وأعرب عن عزمه على وضع الشعب التشيكي في حماية الرايخ الألماني ، وفي أن يضمن له تطويراً ذاتياً لحياته العنصرية على النحو الذي يتفق مع طبيعته » .

وهكذا فقد وصل خداع هتلر في هذا البيان إلى ذروته . وتقول إحدى سكرتيرات الفوهرر ، أن هتلر راح يركض بعد التوقيع إلى مكتبه ، حيث عانق كل من في المكتب من السكرتيرات، وهو يهتف قائلا : « أيتها الطفلات .. إنه

أعظم أيام حياتي كلها! وسيسجل التاريخ أنني اعظم من أنجبته ألمانيا من الرجال».
ولم يدر في خلده ، كيف يمكن للتاريخ أن يسجل ذلك ، ولم يخطر في باله آنذاك أن نهاية تشيكوسلوفاكيا قد تكون بداية النهاية بالنسبة إلى ألمانيا فمنذ فجر الخامس عشر من آذار عام ١٩٣٩ — أو منذ منتصف آذار على حد تعبير شكسبير — انفتحت كما نعرف الآن الطريق فسيحة إلى الحرب وإلى الهزيمة وإلى الكارثة. ولم يحدث نفسه بأن هذه الطريق قد تكون قصيرة ، وقد تكون مستقيمة كخط مستقيم ، وأنه — أي هتلر . وقد بدأ في السير عليها كالاسكندر ونابوليون من قبل ، قد لا يستطيع الوقوف مطلقاً (١) .

* * *

وراحت القوات الألمانية تتدفق على بوهيميا ومورافيا في الساعة السادسة من صباح الخامس عشر من آذار . ولم تلق هذه القوات أية مقاومة ، واستطاع هتلر عند هبوط المساء ، أن يحقق الدخول إلى براغ دخول الظافرين وهـــو ما اعتقد بأن تشمبرلين قد حرمه منه في ميونيخ . وقد أصدر قبل مغادرته برلين بياناً يملؤه الغرور إلى الشعب الألماني ، مكرراً فيه أكاذيبه المملة عن « أعمال التطرف الوحشية وعن الارهاب » « الذي وجد نفسه مضطراً لوضع حدٍ له ، ومعلناً في الوقت نفسه بأن « تشيكوسلوفاكيا قد زالت من الوجود » .
وقضى هتلر تلك الليلة في قلعة هرادشين المقر العريق لملوك بوهيميا الأقدمين ، والقائمة فوق نهر مولداو ، حيث كان مازاريك وبنيش ، اللذان كرههما أشـد الكراهية ، قد عاشا قبلي قليل ، وعملا لإقامة أول حكم ديموقراطي عرفته اوروبا الوسطى . وتم للفوهرر ما أراده من الانتقام ، وكان هذا الانتقام عذباً ، وقد ظهر بوضوح في السلسلة المتلاحقة من النداءات التي أصدرها . وهكذا تخلص من كل ما كان يتسلط عليه من أحقاد محرقة ضد التشيكيين ، وهي الأحقـــاد التي أرقت عليه حياته كنمسوي في أيام تشرده في فيينا قبل ثلاثة أحقاب من العمر ،

---

١ — وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٤) ٢٦٣ - ٢٦٩ ، المؤامرة النازية والعدوان (٥) ص٤٣٣ - ٤٤٠ . كتاب ترجمان هتلر ص ١٢٣ — ١٢٦ . الكتاب الفرنسي الاصفر ص٩٦ . زولر - حياة هتلر الخاصة ص ٨٤ .

والتي عادت إلى الإشتعال من جديد عندما جرؤ بنيش على معارضة الديكتاتور الألماني الجبار طيلة السنة الماضية كلها .

وأعلن هتلر في اليوم التالي من قلعة هرادشين الحماية على بوهيميا ومورافيا وهي الحماية التي جاءت إلى التشيكيين على الرغم من وعدها لهم « بالاستقلال والحكم الذاتي » ، بالعبودية المطلقـة للنير الألماني ، طبقاً لما جاء في تعبيرها من نص . فلقد تضمن الاعلان إضفاء السلطان كله على « حامي البلاد » المعيّن من الرايخ وعلى وزير دولته ورئيس الادارة المدنية عنده ، وكلهم يعينهم الفوهرر . وأخرج هتلر نوراث « المعتدل » من جيبه رغبة منه في تهدئة الرأي العام في بريطانياوفرنسا وعيَّنه حامياً [١] . واتيحت الآن للزعيمين السوديتين البارزين كونرادهينلاين وقاطع الطرق كارل هيرمان فرانك، الفرصة للإنتقام من التشيكيين، إذ عين أولهما رئيساً للإدارة المدنية والثاني وزيراً للدولة، ولم يمض طويل وقت حتى كان هملر بوصفه رئيساً للشرطة الألمانية يفرض سيطرته على المحميّـــة . وقرر تسهيلاً لأعماله أن يعيّـن فرانك المشهور بشروره رئيساً للشرطة في المحميَّة وقائداً للحرس النازي [٢] . وأعلن هتلر في بيانه إلى الشعب التشيكي قائلاً :

« لقد كانت مقاطعتا بوهيميا ومورافيا منذ اكثر من الف عام وما زالتا تؤلفان جزءاً من المجال الحيوي للشعب الألماني .... ولقد اظهرت تشيكوسلوفاكيا عجزهـــا الفطري الموروث عن الحياة ،

---

١ – اعلن نوراث في محاكمات نورمبرغ انه فوجيء مفاجأة تامة بقرار هتلر تعيينه حامـيـــاً لبوهيميا ومورافيا وإن الظنون قد ساورته وتردد في قبول المنصب. لكنه قبل التعيين على كل حال عندما اوضح له هتلر انه بتعيينه رغب في بعث الطمأنينة عند بريطانيا وفرنسا وانه لا يرغب في تنفيذ سياسة معادية لتشيكوسلوفاكيا . (محاكمات كبار مجرمي الحرب ص ٦٥٤ - ٦٥٥) .

٢ – قد يكون المفيد هنا، ان نتخطى السرد التاريخي في هذه القصة، وان نرى ما حدث لبعض الشخصيات في هذه المسرحية التي شاهدناها. فلقد حكمت محكمة تشيكية بعد الحرب على فرانك، وشنق بصورة علنية على مقربة من براغ في الثاني والعشرين من ايار عام ١٩٤٦ وانتحر هينلاين بعد أن اعتقلته قوات المقاومة التشيكية في عام ١٩٤٥. وقتل شفالكوفسكي الذي اصبح ممثلاً للمحمية في برلين إبان غارة جوية قام بها الحلفاء على العاصمة في عام ١٩٤٤ . واعتقل التشيكيون هاشا في الرابع عشر من ايار عام ١٩٤٥ ، ولكنه مات قبل ان يحاكم .

ولذا فقد هوت الآن فريسة حقيقية للتفسخ العملي . وليس في وسع الرايخ الالماني ان يتسامح باستمرار الاضطرابات في هذه المناطق ... والرايخ الالماني ، رغبة منه في الحفاظ على قانون الحماية الذاتية ، مصمم الآن على التدخل بصورة حاسمة لإعادة بناء الاسس لقيام نظام معقول في أوروبا الوسطى ، ولقد اثبت الرايخ في اكثر من الف عام ، بفضل عظمته وبفضل مزايا الشعب الألماني ، انه الوحيد الذي توحي له رسالته بالقيام بهذا العمل » .

وجثم ليل طويل من الوحشية الألمانيــة الآن على مدينة براغ واراضي التشيكيين .

وتولى هتلر في السادس عشر من آذار أيضاً حماية سلوفاكيا كرماً منه وسخاء وتلبية « لبرقية » ، تم وضعها كما رأينا بالفعل في المانيا ، وبعث بها رئيس الوزراء تيزو . وسرعان ما دخلت القوات الالمانية إلى سلوفاكيا لتولي « الحماية » . ومضى هتلر في الثامن عشر من آذار إلى فيينا حيث تولى الموافقة على معاهدة الحماية « التي وقعت نهائياً وبصورة رسمية في برلين في الثالث والعشرين باشتراك ريبنتروب وتوكا ، وقد تضمنت هذه المعاهدة ملحقاً سرياً يعطي لألمانيا الحقوق الكاملة في استقلال الإقتصاد السلوفاكي [1] .

ولم يستمر استقلال روثينيا التي تؤلف الطرف الشرقي من تشيكوسلوفاكيا والتي أعلنت جمهورية « او كرانيا الكاراباتيه » في الرابع عشر من ايار اكثر من اربع وعشرين ساعة فلقد ذهب استصراخها لهتلر طلباً لحمايته ادراج الرياح ، إذ أن الفوهرر كان قد وعد المجر بها من قبل . وقد عثر في وثائق وزارة الخارجية الالمانية المصادرة على رسالة طريفة بخط يد ميكلوس هورتي الوصي على عرش المجر ، موجهة إلى أدولف هتلر هذا نصها :

« يا صاحب السعادة ... الشكر العميق لك .... لن استطيع ان أصف لك ما أحس به من سعادة ، من قرار تسليمك هذه

---

٢ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية ، (٦) ص ٤٢ ـ ٤٥ .

المنطقة روثينيا ، ذات مساقط الميـــاه إلى المجر ، التي تعتبرهـا – وانا لا أود المبالغة مطلقاً – قضية حيوية ... وها نحن نعالج القضية بكثير من الحمـاس . وقد تم وضع الخطط اللازمة . ففي يوم الخميس السادس عشر من آذار ، ستقع على الحدود مشكلة ، سرعان ما يتبعها يوم السبت الزحف الكبير [1] » .

ولكن التطورات التالية ، لم تترك سبيـلاً لوقوع « حادث » على الحدود . ففي السادس من صباح الخامس عشر من آذار زحفت القوات المجرية على روثينيا موقتة دخولها بدخول الالمان من الغرب ، وقامت المجر في اليوم التالي بضمها كلها إليها ضماً رسمياً .

وهكذا ففي ذلك اليوم الخامس عشر من آذار ، الذي بـدأ في برلين ، في الساعة الواحدة والربع ، عندمـــا وصل هاشا إلى دار المستشارية ، توقفت تشيكوسلوفاكيا عن الوجود كما قال هتلر .

* * *

ولم تقم بريطانيا او فرنسا بأية حركة لانقاذ تشيكوسلوفاكيا وان كانتـــا قد تعهدتا في ميونيخ تعهداً مقدساً بحمايتها من كل عدوان .

ولم يكن هتلر الوحيد الذي توصل بعد اجتماع ميونيخ الى الاستنتاج القائل بأن البريطانيين قد أصبحوا ضعفاء للغاية ، وان رئيس وزرائهم وهو على هذا النحو من التساهل قد وضعهم في موضع الذي لا يؤبه به مطلقاً ، بـــل كان موسوليني مشتركاً معه في هذا الرأي. وسافر تشمبرلين يرافقه اللورد هاليفاكس في الحادي عشر من كانون الثاني عام ١٩٣٩ إلى رومة باحثاً عن تحسين علاقات بريطانيا مع ايطاليا . وحدث أن كان مؤلف الكتاب في رومة عندما وصل السيدان إليها ودوّن في يومياته أن « بسمة متكلفة ساخرة » بدت على وجه موسوليني عندما حيّا ضيفيه . ورحت أقول في يوميتي ... « وعندما مر بي موسوليني ، إذ اتجه الجمع مغادراً المحطّة ... رأيته يمازح صهره شيانو ، وهو يتفوّه بعبارات ساخرة » [2] ولم يكن في وسعي أن أسمع آنذاك ما كان يقوله

---

١ – وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٤) ص ٢٤١ .

٢ – يوميات برلين . ص ١٥٦ .

لصهره ، ولكن شيانو كشف في يومياته فيما بعد عن حقيقة ما دار :

فقد كتب شيانو في الحادي عشر والثاني عشر منه يقول :

« وصل تشمبرلين ... ما أبعدنا عن هؤلاء الناس . انهم من عالم آخر . ولقد كنا نتحدث عنهم مع الدوتشي بعد العشاء ... وراح يقول ... « ان هؤلاء الناس ليسوا من طينتنا ... كما أنهم ليسوا من نفس جبلّـة فرنسيس دريك وغيره من عظماء المغامرين الذين خلقوا الامبراطورية . انهم على أي حال الأبناء المنهكون لسلسلة طويلة من الاغنياء ، ولا ريب في أنهم سيفقدون أمبراطوريتهم » .

« إن البريطانيين لا يريدون أن يقاتلوا . وهم يحاولون أن يؤخروا ما أمكن تراجعهم وانسحابهم ... وقد انتهت محـادثاتنا مع البريطانيين ولم نستطع الوصول إلى شيء من ذلـك . وقد هتفت لريبنتروب أقول له أن الزيارة كانت مجرد سخرية ومجون .

« ورافقت الدوتشي إلى المحطة عندما سافر تشمبرلين ... كانت عينا الرئيس البريطاني مغرورقتين بالدموع ، عندما شرع القطار في التحرك ... وبدأ مواطنوه ينشدون ... « حقاً إنه لانسان طيب ودلع » ... وسمعت الدوتشي يسأل ، ترى مـا هذه الأغنية الحقيرة ؟ » [1].

وعلى الرغم من ان هتلر كان ابان أزمـة السوديت شديد الاهتمام بآراء تشمبرلين ، فليس ثمة كلمة واحدة في الوثائق الألمانية المصادرة تشير إلى أنه أخذ في الآونة الأخيرة ، يهتم قيد انملة بما يفكر به رئيس الوزراء البريطاني ، في موضوع تدمير ما تبقى من تشيكوسلوفاكيا على الرغم من الضمانة البريطانية ، وعلى الرغم من اتفاق ميونيخ ، وفي الرابع عشر من آذار ، وعندما كان هتلر ينتظر في برلين اذلال هاشا ، وبينما كانت الأسئلة تنهال في مجلس العموم البريطاني عن قيام المانيا بطبخ استقلال سلوفاكيا ، وتأثير ذلك على الضمانة التي

---

١ - مذكرات شيانو ص ٩ - ١٢ .

قدمتها بريطانيا الى براغ ضد العدوان ، ردّ تشمبرلين قائلاً : « إن عدواناً من هذا النوع لم يقع » .

ولكن العدوان وقع في اليوم التالي أي في الخامس عشر من آذار، واستخدم المستر تشمبرلين اعلان « استقلال » سلوفاكيا ذريعة ، لعدول بلاده عن الوفاء بتعداتها . وراح يوضح قائلاً : « ان تأثير هذا الإعلان ، هو وضع حد نهـــائي عن طريق التفسخ الداخلي لدولة كنا قد اقترحنا ضمان حدودها . ولا تستطيع حكومة جلالته ان تعتبر نفسها والحالة هذه مرتبطة بهذا الالتزام » .

وهكذا وصلت تخطيطات هتلر الاستراتيجية حدود الكـــمال ، اذ اتاح لتشمبرلين المجال للخلاص من الورطة ، وقد استغل رئيس الوزراء هذه الفرصة.

ولعل ما يلفت النظر ان رئيس الوزراء لم يرغب ايضاً في اتهام هتلر ، بعدم الوفاء لالتزاماته ، فقد قال : « وكثيراً ما سمعت الاتهامات توجه عن النكث بالعهود ، وبدا لي أن هذه الاتهامات لم تكن تقوم قط على أُسس معقولة كافيـة ، مما يجعلني اليوم عزوفاً عن الرغبة في الارتباط باتهامات من هذا النوع» . وهكذا لم يوجه أية كلمة من كلمات التأنيب الى الفوهرر ، حتى ولا في موضوع معاملته لهاشا ، أو الخديعة القذرة التي بدا على الرغم من عدم معرفة تفاصيلها في ذلك الحين انها قد وقعت في دار مستشارية الرايخ في الساعات المبكرة من صباح ذلك اليوم الخامس عشر من آذار .

ولم يكن من المستغرب والحالة هذه ، ان يكون الاحتجاج البريطاني ، اذا استطعنا ان نسميّه احتجاجاً ، فاتراً كل الفتور ، وان يعامله الألمان ، كما عاملوا جميع الشكاوى البريطانية والفرنسية اللاحقة ، معـــاملة تنطوي على الزراية والغرور [1] . وقد جاء في هذا الاحتجاج ما يلي :

« لا تود حكومة جلالته ان تتدخل تدخلاً لا ضرورة له ، في قضية تكون الحكومـات الاخرى ، معنيّة بهـا بصورة اكثر

---

١ ـ قال المستر تشمبرلين في السادس عشر من آذار لمجلس العموم، ان حكومته لم تكن قد قدمت بعد أي احتجاج الى الحكومة الألمانية .

مباشرة ... ولكن حكومة جلالته ، معنيّة كل العناية ، كما تدرك الحكومة الألمانية ولا شك ، بنجاح جميع الجهود التي تبذل ، لاعادة الثقة ، وانقضاء التوتر في جميع انحاء اوروبا. وهي تستنكر ولا شك كل عمل يقع في اوروبا الوسطى ، ويؤدي الى نكسة في نمو الثقة العامة ... [1] .

وهكذا لم تشر هذه المذكرة التي قدمها في الخامس عشر من آذار السفير هندرسون الى ريبنتروب كرسالة رسمية من اللورد هاليفاكس ، الى الاحداث المحددة التي وقعت في ذلك النهار .

وكان الفرنسيون أكثر تحديداً على أي حال . ولم يكن روبرت- كولوندر ، السفير الفرنسي الجديد في برلين ، ليشترك مع زميله البريطاني في اوهامه عن النازية ، ولا في ازدرائه للتشيكيين . وراح يطلب في صباح الخامس عشر من آذار مقابلة ريبنتروب ، ولكن الوزير الألماني المغرور ، والذي يتقن الدفاع عن نفسه ، كان في طريقه إلى براغ ليشترك مع هتلر في إذلال شعب مهزوم . وقام الفون وايز ساكر باستقبال السفير الفرنسي بدلاً منه عندالظهيرة. ولم يتوان السفير عن قول ما تقاعس عن الافضاء به كل من تشمبرلين وهندرسون ، وعن التأكيد بأن المانيا قد خالفت بتدخلها العسكري في بوهيميا ومورافيا كلاً من اتفاق ميونيخ والبيان الألماني - الفرنسي المشترك والصادر في السادس من كانون الاول . ولكن البارون فون وايزساكر ، الذي زعم فيما بعد ، وأصر على زعمه ، بأنه كان من اشد خصوم النازية طيلة الوقت ، كان في تلك المقابلة كثير الاستفزاز والعنجهية بحيث تتضاءل امام موقفه ، مواقف ريبنتروب السابقة . ويروي هو عن هذه المقابلة ما نصه :

« ورحت التحدث بحدة الى السفير واطلب اليه ان لا يذكر اتفاق ميونيخ ، الذي زعم أننا خالفناه ، وأن لا يتكرّم علينا بمحاضراته البليغة ... وقلت له أنه بالنسبة إلى الاتفاق الذي تم

---

١ - وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٤) ص ٢٧٤ - ٢٧٥ .

الوصول اليه في الليلة الماضية مع الحكومة التشيكية لا أستطيع أن أرى مبرراً لأي احتجاج من جانبه ... وإنني واثق من أنه سيجد تعليمات جديدة في انتظاره عند عودته إلى سفارته ، وأن هـــذه التعليمات كافية لتهدئة ثائرته ... » [1] .

وفي الثامن عشر من آذار ، إي بعد ثلاثة ايام قدمت الحكومتان البريطانية والفرنسية إحتجاجين رسميين إلى الرايخ بعد أن أولتا الرأي العام الساخط في بلاديهما ، بعض العناية واستجابتا أخيراً لضغطه . وبزّ وايزساكر رئيسه ريبنتروب في الغطرسة والكبرياء ، وذلك طبقاً لما ورد على لسانه من اعتراف . فقد روى في مذكرة عثر عليها في سجلات وزارة الخارجية الألمانية ، بشيء من الاشراق واللمعان كيف أنه رفض حتى مجرد تسلم الوثيقة الاحتجاجية الرسمية التي قدمها السفير الفرنسي ... وقال :

« وسرعان ما اعدت المذكرة إلى غلافهـــا ، وقذفت به إلى السفير ملاحظاً ، إنني أرفض رفضاباتاً أن أتسلم منه أي احتجاج في الموضوع التشيكوسلوفاكي . وأضفت أنني أرفض كذلك أن آخذعلماً بالمذكرة ، وإنني اؤثر أن أنصح المسيو كولوندر بحث حكومته على إعادة النظر في المسوّدة ... » [2] .

وكان كولوندر يختلف عن هندرسون في هذه الفترة ، في انــه لم يكن من المبعوثين الدبلوماسيين الذين يستطيع الألمان أن يؤنبوهم وينتهروهم ، فعاد يؤكد ان حكومته قد وضعت مذكرتها بعد دراسة وافية ، وأكد انه لا يعتزم مطلقاً أن يطلب اليها إعادة النظر فيها . وعندما واصل وزيرالدولة رفض قبول الوثيقة أخذ السفير يذكره بالعرف الدبلوماسي ، ويصر على أن من حق فرنسا المطلق أن تعلن عن وجهة نظرها الى الحكومة الألمانية . وأخيراً يروي وايزساكر في وثيقته انه ترك المذكرة على مكتبه ، موضحاً انه سيعتبرها وكأنها قد وصلت

١ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٤) ص ٢٠ - ٢١ .
٢ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ٢٠ ـ ٢١ .

اليه « عن طريق البريد » . ولكنه قبل التوصل الى هذه الاساءة التي تنطوي على الحمق ، راح يعلن كل ما يطوف في رأسه . .

« فهناك من الناحية القانونية اعلان مشترك صادر عن الفوهرر وعن رئيس الدولة التشيكوسلوفاكية . ولقد جاء الرئيس التشيكي بطلب منه الى برلين ، واعلن على الفور ، بأنه يود أن يضع مصير بلاده في يدي الفوهرر . وقلت للسفير انني لا استطيع ان اتصور الحكومة الفرنسية ملكية اكثر من الملك نفسه أو كاثوليكية أكثر من البابا ، وانها تعتزم التدخل في أمور قد تمت تسويتها مباشرة بين برلين وبراغ [1]» .

وسلك وايز ساكر سلوكاً مغايراً مع السفير البريطاني المتساهل ، الذي نقل احتجاج حكومته في ساعة متأخرة من بعد ظهر الثامن عشر من آذار . وقد ذكرت بريطانيا في مذكرتها انها لا تستطيع إلا ان تعتبر أحداث الايام الاخيرة ، خرقاً فاضحاً وكاملاً لاتفاق ميونيخ ، وان « الاعمال العسكرية الألمانية خالية من كل اساس من اسس الشرعية » . وقد ذكر وايز ساكر في تسجيله ذلك الاجتماع ، ان « المذكرة البريطانية لم تمض بعيداً في هذا الميدان الى الحد الذي وصلت اليه مذكرة الاحتجاج الفرنسية التي قالت ان فرنسا لن تعترف « بشرعية الاحتلال الألماني » .

وقد مضى هندرسون لمقابلة وايز ساكر . في السابع عشر من آذار ، لابلاغه نبأ استدعائه الى لندن لاجراء « مشاورات » معه ، ويقول وزير الدولة الألماني ، ان السفير جاء يجسّ نبضه « باحثاً عن حجج يستطيع ان يقدمها الى تشمبرلين ليستخدمها هذا للرد على خصومه السياسيين ... وقد اوضح هندرسون ان ليس لبريطانيا مصلحة مباشرة في الارض التشيكوسلوفاكية » . واضاف ان

١ – تضمن الكتاب الفرنسي الاصفر رواية كولوندر عن المقابلة (الطبعة الفرنسية رقم ٧٨ ص ١٠٢ و ١٠٣) . وقد اكد الكتاب رواية وايز ساكر . وقد ادعى وايزساكر فيما بعد إبان محاكمته في نورمبرغ ، انه غالى في اظهار عواطفه المشايعة للنازية ليخفي حقيقة نشاطه المناوىء للنازية . ولكن رواية كولوندر ، تقيم دليلا آخر على ان وايزساكر كان مؤيداً حقاً للنازية . .

ما يحس به من قلق يتناول شؤون المستقبل [1] .

ويبدو ان قيام هتلر بتدمير تشيكوسلوفاكيا لم يحمل السفير البريطاني على ادراك طبيعة الحكومة التي يتولى تمثيل بلاده فيها ، كما يبدو انه لم يكن على احساس بما يقع للحكومة التي يمثلها هو في ذلك اليوم .

فلقد شعر نيفيل تشمبرلين فجأة وبصورة غير متوقعة في السابع عشر من آذار ، أي بعد يومين من قيام هتلر بازالة تشيكوسلوفاكيا من الوجود ، بتيقظة ذاتية تهزه هزاً عنيفاً . ولم تكن هذه الهزة دون شيء من الحث العنيف . فلقد ادهشه ان يرى معظم الصحف البريطانية ، وبينها التايمز اللندنية ، باستثناء الديلي ميل ، ومعظم اعضاء مجلس العموم البريطاني ، يتجاوبون تجاوباً عنيفاً مع العدوان الاخير الذي قام به هتلر . وقد ثار ، وهنا يكمن موضع الخطر ، معظم نواب حزبه ، واكثر من نصف اعضاء وزارته ، على القيام بأية محاولة جديدة لترضية هتلر . وابلغ السفير الألماني برلين بأن اللورد هاليفاكس قد أصرّ على ان يعترف رئيس الوزراء بما وقع ، وان يبدل موقفه بصورة مفاجئة [2] . واتضح لتشمبرلين ان موقفه الشخصي كرئيس للحكومة وكزعيم لحزب المحافظين قد اصبح معرضاً للخطر .

وقد جاءه التبدل الجذري في تفكيره بصورة مفاجئة . وألقى السير جون سيمون بالنيابة عن الحكومة ليلة السادس عشر من آذار ، خطاباً في مجلس العموم ، يحمل طابع الشر بالنسبة إلى التشيكيين ، كما يحمل طابع « روح ميونيخ » ، مما أثار المجلس على حد تعبير روايات الصحف إلى حد « الغضب بشكل لم يعهد له مثيل من قبل » . وكان من المقرر أن يلقي تشمبرلين خطاباً في مدينة بيرمنغهام مسقط رأسه ، في اليوم التالي بمناسبة عيد ميلاده السبعين . وكان قد أعد مسودة خطاب عن القضايا الداخلية مع التأكيد تأكيداً خاصاً على الخدمات الاجتماعية . واتخذ تشمبرلين أخيراً قراره النهائي وهو يستقل

---

١ - وثائق وزارة الخارجية الألمانية ص ١٦ - ١٧ ، ٤٠ .

٢ - تقارير ديركسين - ١٨ آذار ص ٢٤ - ٢٥ و ص ٣٦ - ٣٩ .

قطار المساء المسافر إلى برمنغهام ، وفقاً لرواية سمعها مؤلف هذا الكتاب من المصادر الدبلوماتية الفرنسية . وسرعان ما عدل عن خطـــابه الذي أعده في السابق ، وراح يضع نقاطاً سريعة لخطاب من طراز مختلف .

وأخذ تشمبرلين يعتذر في خطابه الذي اذيع ، إلى الشعب البريطاني والى معظم أنحاء العالم ، من « البيان الذي يتصف بالحذر وضبط النفس ... والفتور والموضوعية » الذي وجد نفسه مضطراً الى إلقائه قبل يومين اثنين . واضاف قائلاً ... « واني لآمل في أن اصحح ما ورد في ذلك الخطاب في هذه الليلة » .

وقد ادرك رئيس الوزراء في النهاية أن ادولف هتلر ، قد خدعه . وراح يلخص تأكيدات الفوهرر المختلفة بأن بلاد السوديت هي آخر مطالب أقليمية له في أوروبا ، وانه « لا يريد في بلاده أياً من التشيكيين».وها إن هتلر يتراجع عن هذه التأكيدات الآن ، « وها هو يلجأ إلى فرض القانون بيديه » . ثم راح يقول :

« وها هم يقولون لنا الآن أن اغتصاب الاراضي قد حتمتـــه ضرورة الاضطرابات التي وقعت في تشيكوسلوفاكيا ... ولكن إذا كانت هناك اضطرابات ، أو لم تكن هذه الاضطرابات وليدة تدبير خارجي ؟ ... وهل هذه هي نهاية مغامرة قديمـــة ، أو بداية مغامرة جديدة ؟ وهـــل هذا هو الهجوم الأخير عـــلى دولة صغيرة ، أو انه ستتلوه هجمات جديدة أُخرى ؟ وهل يعتبر هذا الهجوم في حكم الواقع خطوة في طريق المحاولة التي تستهدف السيطرة على العالم بالقوة ؟ وبينما لا أجد نفسي على استعداد لربط هذه البلاد بالتزامات جديدة وغير محدودة تعمل عملها في ظـــل أوضاع لا تمكن رؤيتها الآن ، ولكن لا يمكن ارتكاب خطيئة أكبر من الإفتراض بأن هذه البلاد بالنظر الى ايمانها بأن الحرب شيء فظيع وجنوني ، قد فقدت مافيها من قوة ، وانها لن تشترك إلى اقصى مالديها من طاقات في مقاومة مثل هذا التحدي فيما إذا وقع » .

وكان هذا التحول مفاجئاً وقدرياً بالنسبة الى بريطانيا والى تشمبرلين نفسه. وقد تلقى هتلر مثل هذا الانذار في اليوم التالي على التو ، عن طريق السفير الألماني الجبار في لندن . فقد بعث هيربرت فون ديركسين الى وزارة الخارجية في تقرير بعث به في الثامن عشر من آذار يقول : « قد يكون من الخطأ ، التعلق بأية آمال كاذبة ، بأن تبدلاً جوهرياً لم يقع في موقف بريطانيا من المانيا [1] » .

وكان من الواضح لكل إنسان قرأ كتاب « كفاحي » وألقى بنظره على خريطة اوروبا ، ورأى الأوضاع الجديدة التي اتخذها الجيش الألماني في سلوفاكيا ، وأحس ببعض الحركات الدبلوماتية الألمانية التي وقعت منذ أيام ميونيخ ، أو فكر بالأساليب التي اتبعها هتلر في فتوحاته الخالية من سفك الدماء في النمسا وتشيكوسلوفاكيا في الاثني عشر شهراً الماضية ، أن يساءل نفسه ترى أية دولة صغيرة تقع الآن في قائمة الفوهرر ؟ وقد عرف تشمبرلين كأي إنسان آخر هذه الحقيقة تمام المعرفة .

وأعلن رئيس الوزراء في مجلس العموم في الواحد والثلاثين من آذار ، أي بعد ستة عشر يوماً من دخول هتلر الى براغ قائلاً :

« وفي حالة وقوع أي حادث يهدد بوضوح استقلال بولندة ، وتعتبره الحكومة البولندية من الأمور التي تستدعي المقاومة ، باستخدام القوات العسكرية ، فإن حكومة جلالته سترى نفسها مضطرة الى المبادرة لتقديم كل عون في طاقتها إلى الحكومة البولندية . وقد قدّمت الحكومة البريطانية إلى الحكومة البولندية التأكيد اللازم في هذا الصدد . وفي وسعي أن أضيف بأن الحكومة الفرنسية قد اكدت لي أنها تقف عين الموقف الذي نقفه في هذه القضية » .

وقد حان دور بولندة فعلاً .

---

١ ـ تقارير ديركسين ـ ص ٣٩ .

١٤

دور بولندة

كان ريبنتروب في الرابع والعشرين من تشرين الاول عام ١٩٣٨ ، أي بعد أقل من شهر واحد من مؤتمر ميونيخ ، ضيف الشرف في مأدبة غداء أقامها جوزيف ليبكي ، السفير البولندي في برلين، واستمرت اكثر من ثلاث ساعات في الفندق الكبير في برختسغادن . وكانت بولندة قد تآمرت مع المانيــا ، واغتصبت شطراً من الأرض التشيكية . ودار حديث طويل إبان الغداء في جو وصفته مذكرة عثر عليها في وزارة الخارجية الالمانية « في منتهى الود » [(١)] .

ومع ذلك ، لم يضع وزير خارجية المانيا وقتاً في المباشرة بالعمل . وذكر للسفير البولندي،أن الوقت قد حان للوصول إلى تسوية عامة بين المانيا وبولندة. ومضى يقول ان من الضروري قبل كل شيء ، « التحـدث إلى بولندة بصدد دانزيغ التي يجب أن تعود إلى المانيا ». وقال ريبنتروب أيضاً أن الرايخ راغب في بناء طريق بري واسع، وطريق حديدي مزدوج عبر الرواق البولندي لايجاد اتصال بين المانيا ودانزيغ وبروسيا الشرقية . وهو يود أن تتمتع الطريقـــان بالامتيازات الخاصة بالممتلكات التي تقع خارج الحدود . وأنهى الوزير الألماني حديثه معلناً رغبة هتلر في أن تنضم بولندة إلى ميثاق مكافحة الشيوعية المناوىء

---

١ - وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٦) ص : ١٠٠ - ١٠٧ . كما الكتاب البولندي الابيض رقم ٤٤ المدرج في «المؤامرة النازية والعدوان» (٨) ص ٤٨٣ .

لروسيا . وتتعهد المانيا مقابل هذه الامتيازات بتمديد أجل المعاهدة الألمانية البولندية من عشر سنوات إلى عشرين ، ويضمان حدود بولندة .

وأكد ريبنتروب أنه يعـالج مع السفير هذه المشاكل « في منتهى التكتم والسرية »،واقترح أن يقوم السفير بتقديم تقريره عن الحديث إلى وزير خارجيته بيك ، شفوياً ، « مخافة تسرب الأنباء ولا سيما إلى الصحافة » . ووعد ليبسكي بنقل الحديث إلى وارشو . ولكنه حذر ريبنتروب من أنه لا يرى هناك إمكاناً بصورة شخصية في الاستجـابة الى طلب استعادة دانزيغ . وذكّر الوزير الألماني ايضاً بحادثتين وقعتا مؤخراً ، في الخامس من تشرين الثاني عـام ١٩٣٧ والرابع عشر من كانون الثاني عام ١٩٣٨ ، عندما أكد هتلر شخصياً للبولنديين انه لن يؤيد أي تبدل في وضع دانزيغ [١] ورد ريبنتروب بأنه لا يود الاجابة في الوقت الحاضر ، ولكنه ينصح البولنديين « بالتفكير في الموضوع » .

ولم تكن حكومة بولندة في حاجة الى وقت طويل لاستجماع افكارهـا . ففي الواحد والثلاثين من تشرين الأول ، أي بعـد اسبوع واحد ، بعث وزير الخارجية البولندية بيك ، بتعليماته المفصلة الى سفيره في برلين ، موضحـاً له الطريقة التي يجب عليه اتباعها للرد على الألمان . ولكن السفير لم يستطع أن يحظى بمقابلة ريبنتروب إلا في التاسع عشر من تشرين الثاني ، مما يشير إلى ان الألمان قد أرادوا اعطاء البولنديين مجالاً طويلاً للتفكير قبل ردهم . وكان هذا الرد سلبياً . واعلنت بولندة عن رغبتها في التفاهم ، وعن استعدادها للاستعاضة عن ضمانة عصبة الأمم لدانزيغ باتفاق الماني- بولندي يحدد وضع المدينة الحرّة.

وكتب بيك في المذكرة التي تلاها ليبسكي على مسـامع ريبنتروب يقول : « ولا ريب في أن كل حل آخر ، ولا سيما كل محاولة ، لدمج المدينة الحرة في حدود الرايخ يجب أن تؤدي إلى نزاع مسلح ». واضاف أن الماريشال بلسوسكي ديكتاتور بولندة الراحل ، قد أوضح للألمان في عام ١٩٢٤ وإبان المفاوضات لعقد ميثاق عدم إعتداء بأن قضية « دانزيغ تعتبر قاعدة واضحة لتقدير حقيقة

١ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ٢٦ ـ ٢٧ .

نوايا المانيا تجاه بولندة » .

ولم يرق مثل هذا الرد بالطبع إلى ذوق ريبنتروب . « فأعرب عن أسفه للموقف الذي اتخذه بيك » ونصح البولنديين « بأن مما يستحق العناء أن يولوا الاقتراحات الألمانية ما تستحقه من عناية بالدرس العميق والجدي » [1].

وكان رد هتلر على رفض بولندة اكثر صرامة وقسوة . ففي الرابع والعشرين من تشرين الثاني أي بعد خمسة ايام من الاجتماع بين ريبنتروب وليبسكي، أصدر توجيهاً آخر الى قادة قواته المسلحة هذا نصه :

سري للغاية

يأمر الفوهرر بما يلي : بالاضافة الى الاحتمالات الثلاثة المذكورة في التعليمات الصادرة في ٢١ / ١٠ / ٣٨ [2]، يجب اتخاذ الاستعدادات اللازمة لتمكين قوات الرايخ من احتلال دانزيغ الحرة بطريق المباغتة .

« ومن الواجب أن تتم جميع الاستعدادات على الأساس التالي وهو الاشتراط بأن يتم احتلال دانزيغ بطريقة شبه - ثورية ، مع استغلال الأوضاع السياسية المواتية دون الاشتباك في حرب مع بولندة .

ومن الواجب أيضاً أن لا تستخدم القوات التي ستعمل لهذا الهدف في الوقت نفسه لاحتلال أرض ميميل ، بحيث يكون في الامكان تحقيق العمليتين الحربيتين في وقت واحد . وسيعزز الاسطول هجوم الجيش بالغارة من البحر ومن الواجب تقديم

---

١ - الكتاب البولندي الابيض رقم ٤٥ - المؤامرة النازية والعدوان (٧) ص ٤٨٤ - ٤٨٦ ووثائق وزارة الخارجية الالمانية (٥) ص ١٢٧ - ١٢٩ .

٢ - كانت الاحتمالات الثلاث تصفية ما تبقى من تشيكوسلوفاكيا واحتلال ميميل وحماية حدود الرايخ.

الخطط التي تعدها فروع القوات المسلحة قبل العـــاشر من كانون الثاني عام ١٩٣٩ » .

وعلى الرغم من أن بيك كان قد أنذر بأن اية محاولة من جانب المانيا لاحتلال دانزيـغ ستؤدي بصورة « حتمية » الى الصراع ، إلا ان هتلر أقنع نفسه الآن بأن في الامكان اتمام هذا الاحتلال دون اللجوء الى الحرب . فالنازيون المحليون هم الذين يسيطرون على دانزيغ ، وكانوا يتلقون أوامرهم كالسوديت من برلين . وليس من الصعب احداث وضع « شبه ثوري » في المدينة .

وهكذا عندما دنا عام ١٩٣٨ من نهايته ، وهو العـــام الذي شهد احتلال النمسا وبلاد السوديت دون أي سفك للدماء ، كان هتلر غـــارقاً الى أُذنيه في الاعداد لفتوحات جديدة تشمل ما تبقى من تشيكوسلوفاكيا وميميل ودانزيغ. ولقد كان من السهل عليه أن يتولى إذلال شوشنيغ وبنيش . وقد حان الآن دور جوزيف بيك .

ولكن عندما استقبل الفوهرر وزير خارجية بولندة في برختسغادن بعد أيام قليلة من مطلع العام ؛ أو في الخامس من كانون الثـــاني عام ١٩٣٩ على وجه التحديد ، لم يكن على استعداد بعد لمعاملته على نفس الأسس التي عامل بهـــا شوشنيغ والتي كان على وشك تطبيقها مع الرئيس هاشا . فلقد كان من رأيه أن ما تبقى من تشيكوسلوفاكيا يجب أن يصفّى أولاً . وقد كان هتلر كما تظهر الوقائع البولندية والسرية للإجتماع ، في أحد أوضاعه المزاجية الميّالة إلى التفاهم . ولقد بدأ حديثه قائلاً بأنه على استعداد كلي ليكون تحت تصرّف بيك . وراح يسأل وزير خارجية بولندة إذا كان يفكر في شيء خـــاص معين . ورد بيك بأنه يفكر في موضوع دانزيغ ، وكان من الواضح أن هتلر كان يفكر في نفس الموضوع أيضاً .

وراح الفوهرر يذكّر ضيفه قائلاً : « إن دانزيغ المانية وستظل كذلك إلى الأبد ، ولا بد من أن تصبح جزءاً من المانيا إن عاجلاً وإن آجلاً » . ولكن كان في وسعه أن يؤكد لزائره أن « عملاً من أعمال الأمر الواقع لن يرتّب في

دانزيغ ولن يقع فيها » .

فهو يريد دانزيغ، ويريد طريقاً المانية وسكة حديد تعبران الممر البولندي. وأضاف أنه إذا تنكّب هو وبيك « الاساليب القديمة وراحا يبحثان عن حلول على أسس جديدة كل الجدّة » فإنه واثق من أنهما سيصلان إلى اتفاق ، يكون فيه العدل والخير لكل من البلدين .

ولكن بيك لم يكن واثقاً كثقة الفوهرر . وعلى الرغم من أنه لم يكن يود ، كما أسرّ لريبنتروب في اليوم التالي ، أن يكون خشناً وجافاً مع الفوهرر ، إلا أنه رد قائلاً بأن « مشكلة دانزيغ مشكلة مستعصية معقدة » . وهو لا يرى في اقتراح المستشار ما يمكن لبولندة أن تعتبره شيئاً يعادل التضحية التي يطلب إليه تقديمها . وهنا أشار هتلر إلى « النفع العظيم » الذي تجنيه بولندة من « رؤية حدودها مع المانيا بما في ضمنها الممر ، وقد ضمنتها المعاهدة » . لكن بيك لم يتأثر كما يبدو بهذا العرض ، ولكنه وافق في النهاية على أن يفكر في الموضوع من جديد [1] .

وراح الوزير البولندي يقتل الموضوع تلك الليلة تفكيراً وبحثاً قبل ان يعود الى التحدث مع ريبنتروب في اليوم التالي في ميونيخ . وطلب الى الوزير الألماني ان ينقل الى الفوهرر ، انه بعد أن كانت جميع محادثاته السابقة مع الالمان تبعث في نفسه التفاؤل ، فانه اليوم وبعد اجتماعه بهتلر ، يشعر لأول مرة « بحالة من التشاؤم » . واضاف أنه لا يرى بالنسبة الى دانزيغ على ضوء ما أثاره من نقاط ، أي إمكان مهما كان نوعه في الاتفاق [2] .

ويبدو ان الكولونيل بيـــك ، وغيره كثير من الذين ظهرت صورهم في صفحات هذا الكتاب ، قد تأخروا كثيراً في الوعي والوصول الى مثل هـذا

---

١ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٥)ص١٥٢-١٥٨ والكتاب البولندي الابيض رقم ٤٨ .المؤامرة النازية والعدوان (٨) ص ٤٨٦ - ٤٨٨ .

٢ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٥) ص ١٥٩ - ١٦١ . الكتاب البولندي الابيض رقم ٤٩ . المؤامرة النازية والعدوان (٨) ص ٤٨٨ .

الرأي المتشائم . فلقد كان بيك كمعظم البولنديين من أشد خصوم الروس . يضاف الى هذا ، انه كان يكره الفرنسيين الذين حمل لهم حقداً في فؤاده منذ عام ١٩٣٢ ، عندما كان ملحقاً عسكرياً لبولندة في باريس فطردته السلطات الفرنسية زعماً منها بأنه باع وثيقـــة تتعلق بالجيش الفرنسي . وكان الطبيعي على وجه الاحتمال ، بالنسبة إلى هذا الرجل الذي غدا وزيراً لخارجية بولندة في تشرين الثاني عام ١٩٣٢ ، أن يتجه نحو المانيا . وكان قد أحس بشيء من العطف الدافىء نحو الديكتاتورية النازية منذ نشوئها ، وقد جهد في السنوات الست الماضية جهداً كبيراً للتقريب بين بلاده وبين الرايخ الثالث ولاضعاف ما يربطها من علاقات تقليدية بفرنسا .

ولكن تحتم على بولندة في النهاية أن تكون أكثرالدول المحاذية لألمانياخوفاً. ومع ذلك فقد كانت أكثر هذه الدول عمى وتجاهلاً للخطر الألماني . إذ لم يكن هناك في بنود معاهدة فرساي ، بند آلم إلى الألمان من ذلك البند الذي نص على إقامة الممر البولندي ، متيحاً لبولندة فرصة الوصول إلى البحر ، وعازلاً بروسيا الشرقية عن بقية اجزاء الرايخ . وكان القرار بفصل ميناء دانزيغ « الهنسي Hanseatic»[١] القديم عن المانيا وإعلانه مدينة حرة تحت إشراف عصبة الأمم وسيطرة بولندة الاقتصادية عليه ، قد أثار سخط الرأي العام الألماني بصورة مماثلة . ولم تكن حتى جمهورية ويمار الضعيفة والمسالمة ، قد قبلت قط ما اعتبرته تجزئة من جانب بولندة للرايخ الألماني . ولقد رأينا في السابق كيف أن الفريق سيخت قد حدد موقف الجيش الألماني من هذا الموضوع في عام ١٩٢٢ إذ قال :

« ان وجود بولندة ، شيء لا يطاق . ويتعارض مع الأوضاع الاساسية للحياة الألمانية . ومن الواجب أن تزول بولندة ، ولا ريب في انها ستزول ، وذلك نتيجة عوامل الضعف الداخلية فيها

---

١ ــ الهنسي نسبة إلى عصبة المدن الهنسية الالمانية التي انشئت في أواخر القرون الوسطى وظلت مزدهرة حتى القرن السابع عشر ، تسيطر على تجارة اوروبا . وكانت دانزيغ من اهم مدنها .

والعمل العسكري من جانب روسيا بمساعدتنا ... ومن الواجب ان يكون محو بولندة من الخريطة ، دافعاً من الدوافع الاساسية للسياسة الألمانية ... وأن يتم الوصول اليه عن طريق روسيا وبمساعدتها » .

يا لها من نبوءات صادقة !

وقد نسي الألمان أو انهم شاؤوا أن يتناسوا ، أن معظم الأراضي الألمانية التي منحتها معاهدة فرساي الى بولندة ، بما في ضمنها مقاطعتا بوزون وبوميرانيا البولندية (بومورز Pomorze)، اللتان تؤلفان الممر ، كانت بروسيا قد غتصبتها إبان تقسيم بولندة ، عندما اتفقت بروسيا وروسيا والنمسا على تحطيم الدولة البولندية وتجزئتها . ولقد كان البولنديون يسكنون هذه البلاد أكثر من نحو الف عام وما زالو يسكنونها إلى حد كبير حتى الآن .

ولم تشهد أية بلاد أعادت معاهدة فرساي خلقها ، مـا شهدته بولندة من متاعب ومشاق . وكانت قد شنت في السنوات المضطربة الأولى من بعثها عدة حروب عدوانية ضد روسيا وليتوانيا والمانيا وحتى تشيكوسلوفاكيا ، مطالبة الأخيرة بمنطقة تيشيّن الغنية بمناجم الفحم فيها . وكان البولنديون بعد أن حرموا من حريتهم السياسية اكثر من قرن ونصف القرن ، وباتوا مفتقرين إلى التجارب العصرية في الحكم الذاتي ، قد غدوا عاجزين عن إقامة حكومة ثابتة مستقرة ، وحتى عن الشروع في حل مشاكلهم الاقتصادية والزراعية . وكان المشير بلسودسكي ، بطل ثورة عام ١٩١٨ قد زحف في عام ١٩٢٦ على وارشو ، وسيطر على الحكومة فيها ، وعلى الرغم من ميوله الاشتراكية القديمة ، استعاض بصورة متدرجة، عن النظام الديموقراطي الفوضوي القائم بديكتاتورية شخصية أقامها . وكان من آخر الأعمال التي قام بها قبل وفاته في عام ١٩٣٥ توقيع معاهدة عدم اعتداء مع هتلر ، إذ تم التوقيع عليها في السادس والعشرين من كانون الثاني عام ١٩٣٤ ، وكانت كما سبق لنا ان ذكرنا ، من الخطوات الأولى في هدم نظام المحالفات التي أقامته فرنسا مع جارات المانيا في الشرق ، وفي

اضعاف عصبة الأمم ومفهومها عن الأمن الجماعي . وتولى الحكم في بولندة بعد وفـــاة بلسودسكي ، فريق صغير من « العقداء » ، الذين عملوا تحت إمرته في الفيلق البولندي القديم ، والذين حاربوا الروس إبان الحرب الكونية الأولى . وكان في طليعة هؤلاء المشير سميغلي – ريدز ،وهو جندي يتمتع بكفاية عسكرية ممتازة ، ولكنه يفتقر إلى الفراهة السياسية . وتحوّلت السياسة الخارجية إلى أيدي العقيد (الكولونيل) بيك ، واتجهت منذ عام ١٩٣٤ إتجاهاً متزايداً نحو الالمان .

وكان من المحتوم ان تكون هذه السياسة انتحارية . وعندما يدرس المرء وضع بولندة في القارة الأوروبية التي خططتها معاهدة فرساي ، يجد من الصعب عليه ان لا يصل إلى الاستنتاج القائل بأن البولنديين كانوا في حقبة الثلاثين كما في عهود مضت في القرون السابقة ، يسيرون – غير مخيرين ، بدافع نقص في طبيعتهم القومية – نحو تحطيمهم الذاتي ، وأنهم كانوا في هذه الحقبة الأخيرة ، كما كانوا في الماضي أسوأ الأعداء لأنفسهم . وكان من المحال أن يستتب السلام الدائم بين المانيا النازية وبولندة . طالما أن الوضع في دانزيغ والممر سيظل على مـــا كان عليه . ولم تكن بولندة كذلك من القوة على درجة تمكنها من أن تسلك سلوك الترف الذي سلكته ، فتعادي كلاً من جاريها العملاقين ، روسيا والمانيا . ولقد كانت علاقاتها مع الاتحاد السوفياتي على أسوأ ما تكون عليه العلاقات منذ عام ١٩٢٠ عندما راحت بولندة تهاجم روسيا التي أضعفتها الحرب الكونية والحرب الأهلية ، ووقع بعد ذلك صراع وحشي بين الجارتين [١] .

واغتنم هتلر الفرصة المتاحة لكسب صداقة دولة من أشد أعداء روســـيـــا ،

---

١ – تمكنت بولندة نتيجة تلك الحرب مع دفع حدودها الشرقية مسافة مائة وخمسين ميلاً الى الشرق من خط كيرزون ، الذي يعتبر الحد الفاصل بين العنصرين الروسي والبولندي على حساب الاتحاد السوفياتي ، وادى هذا التحول في الحدود إلى نقل نحو من اربعة ملايين ونصف المليون من الاوكرانيين ومليون ونصف المليون من الروس البيض إلى الحكم البولندي. وهكذا كانت حدود بولندة الشرقية والغربية على حد سواء، وهي حقيقة يبدو ان الدول الديموقراطية الغربية قد اغفلتها عندما بدأت برلين وموسكو تقتربان من بعضهما في صيف عام ١٩٣٩ .

ورغب في الوقت نفسه في انتزاعها من تأييد عصبة الأمم ومن صداقة باريس ، ليحطم عن طريقها نظام فرساي ، فبادر إلى العمل لعقد الميثاق الألماني البولندي لعام ١٩٣٤. ولم تكن مثل هذه الحركة من النوع الذي يحبه الألمان او يستسيغونه. وثار عليها الجيش الألمـــاني الذي كان ميالاً إلى الروس ومعاديـــاً للبولنديين منذ ايام سيخت . ولكن هذه الحركة كانت نافعة لهتلر كل النفع في الوقت الحاضر . وكانت صداقات بولندة العاطفية قد ساعدته على تحقيق ما يهتم به أولاً من إعادة احتلال منطقة الراين، وتحطيم النمسا المستقلة وحرية تشيكوسلوفاكيا. وظل بيك ورفاقه من العقداء في وارشو يتطلعون بعطف إلى جميع هذه الخطوات التي شدّت من أزر المانيا وأضعفت الغرب وهددت الشرق . ويغمضون عيونهم عن عمى عن نتائجها الوخيمة .

* * *

وإذا صح ما قاله وزير خارجية بولندة منذ مستهل العـــام الجديد ، من أن روحه المعنوية قد اصابها شيء من المزاج المتشائم عن طريق مطالب هتلر ، فإن هذه الروح هبطت أكثر وأكثر مع مجيء الربيع . وعلى الرغم من أن هتلر قد تحدث في خطابه السنوي إلى الرايشستاغ في الثلاثين من كانون الثاني بتعليمات تنطوي على الدفء عن « الصداقة بين المانيا وبولندة » معلناً أن هذه الصداقة تؤلف « احد العوامل المطمئنة في حياة اوروبا السياسية » فـــان ريبنتروب قد تحدث بصراحة اكثر عندما قام بزيارة رسمية لوارشو قبـــل اربعة ايام من هذا التاريخ ، فقد أثار من جديد مع بيك موضوع مطالب هتلر المتعلقـة بدانزيـغ ، والمواصلات عبر الممر ، مصراً على انها « متنـاهية في الإعتدال » . ولكن وزير خارجية المانيا لم يتلق رداً مرضياً لا على هـــذه الاسئلة ولا على إصراره بأن تنضم بولندة إلى ميثاق مكافحة الشيوعية ضد الاتحاد السوفياتي[1]. وبدأ العقيد (الكولونيل) بيك يشعر بالسأم من اصدقائه . ولو تحرينا الحقيقة

١ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٥) ص١٦٧ - ١٦٨ . والكتاب البولندي الابيض رقم ٥٢ .

لقلنا انه بدأ يتلوى ويتعرج. وراح السفير الألماني في وارشو يبلغ برلين في السادس والعشرين من شباط ان بيك قد بادر إلى سؤال لندن ان تدعوه لزيارتها في نهاية شهر آذار ، وانه قد يمضي بعد انتهاء زيارته لها إلى باريس . وعلى الرغم من أن هذا الإتصال جاء متأخراً ، فقد راح مولتكيه يضيف في برقيته ان بيك «يرغب في الإتصال بالدولتين الديموقراطيتين مخافة ان ينشب نزاع مع المانيا على دانزيغ [1]» . وهكذا فبالنسبة إلى بيك كما هو بالنسبة إلى الكثيرين من الذين حاولوا إرضاء نهم هتلر الذي لا يشبع ، بدأت الموازين تتساقط أمام ناظريه .

وقد انهارت هذه الموازين تماماً وإلى الأبد في الخامس عشر من آذار عندما احتل هتلر بوهيميا ومورافيا وبعث بقواته تتولى حماية سلوفاكيا « المستقلة » ، وأفاقت بولندة في الصباح لتجد أن المانيا قد طوقت جناحها من الجنوب على الحدود السلوفاكية بعد ان كان جيشها قد طوق حدودها من الشمال من ناحيه بوميرانيا وبروسيا الشرقية . وهكذا بات موقفها العسكري بين عشية وضحاها شاقاً للغاية .

* * *

واليوم الواحد العشرون من آذار عام ١٩٣٩، تاريخ لا ينسى في قصة سير اوروبا نحو الحرب .

فقد أشتد النشاط الدبلوماتي في ذلك اليوم في برلين ووارشو ولندن. ووصل رئيس الجمهورية الفرنسية يرافقه وزير خـــارجيته إلى العاصمة البريطـــانية في زيارة رسمية واقترح تشمبرلين على الفرنسيين أن تنضم بريطانيا وفرنسا إلى بولندة والإتحاد السوفياتي في إعلان رسمي يوضح أن الدول الأربع ستهب إلى التشاور فوراً للبحث في الخطوات المؤدية إلى الحيلولة دون عدوان جديد في اوروبا . وكان لتفينوف قد اقترح قبل ثلاثة ايام ، ما سبق له أن اقترحه قبل نحو من عام بعد ضم النمسا (الانشلوس) وهو عقد مؤتمر أوروبي يضم في هذه المرة فرنسا وبريطانيا وبولندة وروسيا ورومانيا وتركيا ويقرر التعاون معاً

---

١ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ١٧٢ .

لوقف هتلر . ولكن رئيس الوزراء البريطاني وجد أن الفكرة ما زالت « سابقة لأوانها » . وكان كثيرَ الشكوك في موسكو ، وخيِّل اليه أن مجرد صدور « بلاغ » عن الدول الاربع ، وبينها الاتحاد السوفياتي ، هو أقصى ما يمكن له أن يمضي اليه . [1]

وقام السفير البريطاني في وارشو ، بتقديم اقتراحه هذا إلى بيك في نفس اليوم أي الواحد والعشرين من آذار ، فاستقبل هذا الإقتراح بشيء من البرود ولا سيما بالنسبة إلى إدخال الروس في الموضوع . فلقد كان وزير خارجية بولندة أكثر شكوكاً بالإتحاد السوفياتي من تشمبرلين ، وكان بالاضافة إلى ذلك يشاطر الرئيس البريطاني آرائه في تفاهة العون العسكري الروسي . وقد ظل متمسكاً بآرائه هذه دون أي تردد أو تبدل ، حتى اللحظة التي وقعت فيها الكارثة .

ولكن وقعت في برلين نفسها . في هذا اليوم الواحد والعشرين من آذار اكثر الاحداث خطورة بالنسبة إلى بولندة . فقد استدعى ريبنتروب السفير البولندي لمقابلته ظهر ذلك اليوم . وروى ليبسكي في تقرير لاحق ، أن الوزير الألماني لم يكتف باظهار الفتور له لأول مرة في علاقاتها بل كان كثير الاستفزاز ايضاً ، وراح يتوعد زائره قائلاً بأن الفوهرر « بات بالغ الحيرة من موقف بولندة » . وأضاف ان المانيا تريد رداً مرضياً على طلباتها بالنسبة إلى دانزيغ وإلى الطريق والخط الحديدي عبر الرواق البولندي ، وان مثل هذا الرد شرط اساسي لاستمرار العلاقات الودية بين بولندة والمانيا . ثم قال ريبنتروب « على بولندةأن تدرك أن ليس في استطاعتها أن تتبع طريقاً وسطاً بين روسيا والمانيا » . فسبيلها الوحيد للخلاص يقوم في « علاقة معقولة مع المانيا ومع الفوهرر » ومن المفروض ان تتضمن هذه العلاقة سياسة مشتركة مناوئة للسوفيات .

---

١ – كتب تشمبرلين في رسالة شخصية مؤرخة في السادس والعشرين من آذار يقول : « يجب ان اعترف بما احمله من شك مطلق في روسيا . فأنا لا اؤمن مطلقاً بقدرتها على القيام بأي هجوم فعال حتى ولو أرادت ذلك . يضاف إلى هذا انني اشك في دوافعها ، كما ان عدداً من الدول الصغرى وفي طليعتها بولندة ورومانيا وفنلندة، تكرهها كرهاً شديدا وتشك في نواياها.(فيلينغ حياة نيفيل تشمبرلين . ص ٦٠٣)

ونصح ريبنتروب السفير البولندي ايضاً بأن يسرع في الذهاب إلى وارشو ليوضح إلى وزير خارجيته شخصياً حقيقة الوضع . وقال ليبسكي في تقريره لبيك « أن ريبنتروب ينصح بأن لا يتأخر الحديث إلى هتلر ، مخافة ان يصل المستشار إلى الاستنتاج القائل بأن بولندة ترفض كافة عروضه [١] » .

عدوان طفيف شيئاً فشيئاً

وجه ليبسكي قبل ان يغادر الولهلمشتراسة سؤالاً إلى ريبنتروب عمّا إذا كان في استطاعته ان يفضي إليه بشيء عن المحادثات التي اجراها مع وزير خارجية ليتوانيا . ورد الوزير الألماني بأن الحديث تناول قضية ميميل « التي تتطلب حلاً » .

وكان ريبنتروب قد استقبل بالفعل جوزاس ادربيز وزير خارجية ليتوانيا الذي مر ببرلين في اليوم الفائت بعد زيارته لرومة ، وطلب اليه أن تقوم ليتوانيا باعادة منطقة ميميل إلى المانيا ، واضاف ريبنتروب انه في حالة تقاعس ليتوانيا عن ذلك فإن « الفوهرر سيقوم بعمل صاعق » . وراح يحذر الليتوانيين من أن لا يتعلقوا بالأوهام وان لا ينتظروا « أية مساعدة تأتيهم من الخارج [٢] . »

وكان السفير الفرنسي في برلين والقائم بالأعمال البريطاني قد قاما قبل بضعة أشهر فعلاً ، أي في الثاني عشر من كانون الأول عام ١٩٣٨ ، بلفت نظر الحكومة الألمانية إلى الأنباء القائلة بأن سكان ميميل من الألمان يضعون المخططات للثورة ، وطالباها بأن تستخدم نفوذها لضمان إحترام دستور ميميل الذي ضمنته كل من بريطانيا وفرنسا ، وقد أعربت وزارة الخارجية الألمانية في ردها عن « دهشتها واستغرابها » من الخطوة الدبلوماتية الأنكلو - فرنسية ، وأصدر ريبنتروب أوامره ، بأن على الوزارة في حالة إتخاذ خطوات مماثلة من جانب السفارتين

١ - الكتاب البولندي الابيض رقم ٦١ - المؤامرة النازية والعدوان (٨) ص ٤٨٩ - ٤٩٢ .
٢ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٥) ص ٥٢٤ - ٥٢٦ .

المذكورتين ، تبلغهما بأنها « تنتظر من الانكليز والفرنسيين أن يكونوا قد ملّوا أخيراً من التدخل في شؤون المانيا [1] » .

وكانت الحكومة الألمانية وزعماء الحزب والحرس النازي ، قد اشرفوا منذ أمد طويل على تنظيم الألمان في ميميل على غرار الاساليب التي عرفناها من تجربتنا في النمسا وبلاد السوديت . ورأينا من قبل ان القوات الألمانية المسلحة قد سئلت أيضاً التعاون في هذا الصدد وذلك بعد ثلاثة أسابيع فقط من اجتماع ميونيخ ، إذ أصدر هتلر أوامره إلى قادته العسكريين باتخاذ الاستعدادات اللازمة لاحتلال ميميل في نفس الوقت الذي تتم فيه تصفية ما تبقى من تشيكوسلوفاكيا . ولما كانت الفرصة لم تتم للاسطول للاشتراك في أمجاد الزحف على النمسا وبلاد السوديت المعزولتين عن البحار ، فان هتلر قد صمم هذه المرة على ان يتم الاستيلاء على ميميل بطريق البحر . وتم في شهر تشرين الثاني وضع المخططات البحرية للمغامرة ، وأطلق عليها الاسم الرمزي « تمرينات ستيتين في النقل البحري » . وقد اهتم كل من هتلر والاميرال ريدر أبلغ الاهتمام بهذا العرض الجزئي للقوة البحرية . حتى انهما استقلا من ميناء سوانيموند بارجة الجيب دوتيشلاند في الثاني والعشرين من آذار . متجهين بها الى ميميل، وذلك بعد اسبوع واحد من دخول الفوهرر دخول الظافرين إلى براغ ، وقبل أن تتمكن ليتوانيا المسالمة من إيجاد الوقت الكافي للاستسلام للإنذار الألماني .

وكان وايز ساكر الذي طالما ادعى فيما بعد احتقاره لوحشية الاساليب النازية قد ابلغ الحكومة الليتوانية في الحادي والعشرين من آذار أن « المانيا لا تستطيع الانتظار » وأن على موفدي ليتوانيا أن يأتوا إلى برلين « في طائرة خاصة غداً » ، ليوقعوا وثيقة التنازل لألمانيا عن مقاطعة ميميل . واطاع الليتوانيون الأمر ووصلوا إلى برلين في ساعة متأخرة من بعد ظهر الثاني والعشرين من آذار ، ولكن على الرغم من الضغط الألماني الذي تعرضوا له شخصياً من جانب ريبنتروب الذي كان يتلقى التعليمات التي تخصه من هتلر

١ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٥) ص ٥٠٢ - ٥٠٤ .

المصاب بدوار البحر وهو على ظهر البارجة ، فإنهم لم يكونوا على عجلة من أمرهم في توقيع وثيقة الاستسلام . وتكشف الوثائق الألمانية المصادرة أن الفوهرر بعث برسالتين برقيتين تلك الليلة من ظهر البارجة إلى ريبنتروب يسأله عما إذا كان الليتوانيون قد استسلموا لطلبه او لا . فلقد كان الطاغية واميراله يريدان أن يعرفا ما إذا كانا سيقتحمان الميناء في تلك الليلة او لا . وتمكن ريبنتروب اخيراً في الساعة الواحدة والنصف من صباح الثالث والعشرين من آذار من أن يبرق باللاسلكي إلى سيده نبأ توقيع الليتوانيين على الوثيقة .[1]

وفي الساعة الثانية والنصف من بعد ظهر الثالث والعشرين دخل هتلر مرة اخرى إحدى المدن الجديدة المحتلة دخول الظافرين ، وراح يلقي في المسرح الرياضي في ميميل خطاباً في الجمهور الألماني الذي أثمله التحرر. ومزّق بذلك بنداً آخر من بنود معاهدة فرساي . وتم للفوهرر تحقيق فتح هتلر آخر من فتوحاته التي تتم بلا سفك للدماء . ولم يكن الفوهرر يدري آنذاك أن هذا الفتح سيكون آخر فتوحاته السلمية .

تسليط الحرارة على بولندة

جاء احتلال الالمان لمنطقة ميميل « مباغتة مزعجة للغاية » للحكومة البولندية ، على حد تعبير هانز - ادولف فون مولتكيه السفير الألماني في وارشو في التقرير الذي بعث به إلى برلين في اليوم التالي . وأضاف في تقريره قائلاً : « ولعل السبب في هذا ، هو ما يسود هذه الحكومة من خوف من أن دور دانزيغ والممر البولندي قد حان »[2] وراح يبلغ وزارة الخارجية الألمانية أيضاً أن بولندة قد استدعت قواتها الاحتياطية . ونقل الأميرال كاناريس رئيس دائرة المخابرات الألمانية في اليوم التالي أي الخامس والعشرين من آذار أن

---

١ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٥) ص ٥٢٨ - ٥٣٠ .
٢ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ٩٧ .

بولندة أتمت تعبئة ثلاث دفعات من قواتها الاحتياطية ، وأنها تحشد الجنود حول دانزيغ، ولم يصدق الفريق كايتل أن هذا العمل « يظهر أية نوايا عدوانية من جانب البولنديين » ولكنه أضاف أن هيئة أركان حرب الجيش كانت « ترى رأياً مخالفاً لذلك وتجد فيه بعض الخطورة » [1] .

وعاد هتلر إلى برلين من ميميل في الرابع والعشرين من آذار وأجرى حديثاً مطولاً مع الفريق فون براوخيتش ، القائد العام للجيش . ويبدو من المذكرة السرية التي وضعها الأخير عن الحديث ، أن الزعيم لم يكن قد حزم أمره بعد على الطريقة التي يجب أن يسير عليها بالنسبة إلى بولندة [2] . وبدا أن فكره المضطرب ، كان في الحقيقة مشحوناً بالمتناقضات . وكان من المتوقع أن يعود السفير ليبسكي إلى برلين في اليوم التالي أي السادس والعشرين من آذار ولكن الفوهرر لم يكن راغباً في رؤيته ...

وكتب براوخيتش يقول :

« سيعود ليبسكي من وارشو يوم الأحد في السادس والعشرين من آذار . وكانت مهمته هناك ان يسأل مـا إذا كانت بولندة على استعداد للتفاهم بالنسبة إلى دانزيغ . وغادر الفوهرر العاصمة ليلة الخامس والعشرين ، إذ لم يكن راغباً في لقاء ليبسكي عندما يعود . فعلى ريبنتروب تقع مهمة المفاوضة أولاً . أن الفوهرر لا يود حل مشكلة دانزيغ عن طريق القوة . فهو لا يريد أن يدفع ببولندة إلى أحضان بريطانيا العظمى عن هذا السبيل .

« ولن يكون هناك بحث في احتلال دانزيغ عسكرياً إلا إذا كان ليبسكي ، سيشير بصورة خفية إلا أن الحكومة البولندية لا تستطيع أن تحمل على عاتقها المسؤولية تجاه شعبها في تسليم دانزيغ

---

١ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ١١٠ - ١١١.

٢ - المؤامرة النازية والعدوان (٧) ص ٨٣ - ٨٦ .

طوعاً إلى الرايخ ، وان الحل يصبح أسهل عليها إذا تم عن طريق الأمر الواقع » .

ولاريب في أن هذه الاشارة تحليل ممتع لعلقية هتلر وطبيعته في تلك اللحظة، فلقد كان يؤكد لبيك قبل ثلاثة اشهر ، وبصورة شخصية ، انه لن يكون هناك أي أمر واقع ألماني في دانزيغ . لكنه يتذكر الآن أن وزير خارجية بولندة قد أكد له ان الشعب البولندي ، لن يوافق مطلقاً على تسليم دانزيغ إلى المانيـا . إذن هل يكون إستيلاء الألمان عليها عن طريق الأمر الواقع شيئـاً يسهل على الحكومة البولندية قبول الحقيقة ؟ ومن هنا تظهر عبقرية هتلر في قياس ما يبدو على خصومه الاجانب من ضعف ، ومن استغلال هذا الضعف ، ولكن حكمه هنا ، ولأول مرة ، بدأ ينهار . فلقد كان « العقداء » الذين يحكمون بولندة من أوساط الناس ومن اكثرهم رغبة في التشويش ، ولكن الشيء الوحيد الذي لا يرغبون فيه أو الذي لا يقبلونه ، هو أن يتحقق الامر الواقع في دانزيغ .

وكانت « المدينة الحرة » الشغل الشاغل لتفكير هتلر ، ولكنه كان قد شرع الآن يفكر بما وراء هذه المغامرة ، تماماً كما فعل بالنسبة إلى تشيكوسلوفاكيا بعد أن قرر إجتماع ميونيخ اعطاءه بلاد السوديت .... ولقـد دوّن براوخيتش يقول :

« ان الفوهرر لا يريد في الوقت الحاضر حل المشكلة البولندية. الا أن من الواجب مواصلة العمل في هذا السبيل. ومن الواجب أن يتركوا الحل في المستقبل القريب على اوضاع سياسية مواتية بصورة خاصة . وفي مثل هذه الحالة يمكن أن تصرع بولندة وأن تحطم تحطيماً كاملاً ، بحيث لا يغدو من المحتمل اعتبارها كعامل سياسي في غضون الحقب القليلة القادمة. ويفكر الفوهرر على هذا الاساس في حل يستند إلى خط حدود يمتد من الحدود الشرقية لبروسيـا الشرقية إلى الطرف الشرقي من سليزيا العليا » .

ولا ريب في أن براوخيتش كان يدرك تمام الادراك ما يعنيه خط حدود

كهذا . أنها حدود المانيا الشرقية كما كانت قبل الحرب، وقبل أن تحطمها معاهدة فرساي والتي ظلت قائمة طالما أن بولندة ليست في حيّز الوجود .

وإذا كان هتلر قد شك بعض الشيء في ما سيكون عليه رد بولندة فإن هذه الشكوك سرعان ما اختفت عندما عاد ليبسكي إلى برلين يوم الأحد في السادس والعشرين من آذار ، وقدم رد بلاده في مذكرة مكتوبة [1] وقرأ ريبنتروب المذكرة فوراً ، ثم أعلن رفضه لها ، وراح يصب جـــام سخطه على إجراءات التعبئة التي قامت بها بولندة وحذر السفير من « مغبة النتائج المرتقبة » . وأعلن كذلك أن أي خرق من جـــانب القوات البولندية لأراضي دانزيغ ، سيعتبر عدواناً مباشراً على الرايخ .

وكان رد بولندة الخطي على الرغم من صياغته في عبارات ملطّفة ، بمثابة رفض قاطع للمطالب الألمانية . فقد أعرب الرد عن استعداد الحكومة البولندية لبحث وسائل أخرى لتسهيل مواصلات المانيا الحديدية والبرية عبر الممر البولندي، وان كانت ترفض أن تعتبر مثل هذه المواصلات خارجة عن نطاق سلطانهـا . وأعلنت بولندة استعدادها للاستعاضة بالنسبة إلى دانزيغ عن وجود عصبة الأمم بضمانة بولندية – المانية مشتركة ، ولكنها ترفض رفضاً تاماً أن ترى المدينة جزءاً من المانيا .

ولم تكن المانيا قد ألفت حتى الآن أن ترى دولة صغيرة تجرؤ عـــلى رفض مطالبها ، وراح ريبنتروب يلمح لليبسكي ، بأن موقفه هـــذا ذكره « ببعض الخطوات الخطرة التي قامت بهـا دولة أُخرى » ، مشيراً بقوله هذا من طرف خفي إلى تشيكوسلوفاكيا التي قامت بولندة بمساعدة هتلر في تمزيقها . ولا ريب في انه كان من الواضح لليبسكي ، عندما استدعي ثانية إلى وزارة الخـــارجية الألمانية في اليوم التالي لمقابلة ريبنتروب ، ان الرايخ الثالث سيلجـأ الآن ضد بولنـــدة إلى نفس الاساليب التي سبق له ان استخدمها بنجاح ضد النمســـا

---

١ ـــ وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٦) ص ١٢٢ - ١٢٤ . والكتاب البولندي الابيض رقم ٦٣ .

وتشيكوسلوفاكيا . وراح الوزير النازي يرغي ويزبد متذمراً من الاضطهـــاد المزعوم للأقلية الألمانية في بولندة ، الذي أثار على حد قوله « انطباعات مفجعة في المانيا » :

« وراح وزير الخارجية (الألماني) يلمح في النهاية بأنه لم يعـد يستطيع ان يفهم الحكومة البولندية ... فالاقتراحات التي نقلهـا السفير البولندي بالامس لا يمكن ان تعتبر أساساً لأية تسوية . ولهذا فإن العلاقات بين البلدين تسير ولا شك سيراً حثيثـــاً في طريق التدهور [١] » .

ولكن لم يكن من السهل بث الرعب في وارشو بنفس السهولة التي القت المانيا الرعب فيها في كل من فييتنام وبراغ . وبعث بيك في اليوم التالي أي الثـامن والعشرين من آذار في طلب السفير الألماني وابلغه رداً على بيان ريبنتروب الذي ذكر فيه بأن المانيا تنظر إلى أية حركة عسكرية بولندية ضد دانزيغ وكأنها ميدان حرب ، بأن بولندة تجد نفسها مضطرة بدورها إلى القول بأنها تعتبر أية محاولة من جانب المانيا او مجلس الشيوخ النازي في دانزيغ لتغيير وضع المدينة الحرة عملاً من اعمال الحرب والعدوان أيضاً .

وراح السفير الألماني يصرخ بمحدثه قائلاً : « إذن فأنتم تريدون التفـــاوض تحت ضغط الحراب !! »

ورد بيك قائلاً : « لقد تعلمنا هذه الطريقة منكم [٢] » .

وهكذا كان في استطاعة وزير خارجية بولندة الذي استفاق من سبـاته ، أن يقف أمام برلين موقفاً اكثر صموداً من ذلك الموقف الذي اتخـذه بنيش في الماضي ، إذ عرف الوزير أن الحكومة البريطانية التي كانت توّاقة قبل عام فقط لمساعدة هتلر في الحصول على مطالبه من تشيكوسلوفاكيا ، قد باتت الآن تتخذ

---

١ ـــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية ـ مذكرة شميدت (٦) ص ١٣٥ - ١٣٦ .

٢ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية ـ برقية مولتكيه (٦) ص ١٤٧ - ١٤٨ . الكتاب البولندي الابيض رقم ٦٤ .

على وجه التحقيق موقفاً معاكساً تماماً لموقفها السابق ، بالنسبة إلى بولنـــدة .
وكان بيك نفسه هو الذي نسف الاقتراح البريطاني بإصدار بيان رباعي ، معلناً أن بولندة ترفض تمام الرفض أن تربط نفسها إلى روسيا بأي شكل من الاشكال. ولكنه اقترح بدلاً من ذلك ، وفي الثامن والعشرين من آذار ، على السير هوارد كينارد ، السفير البريطاني في وارشو ، عقد معـاهدة انكليزية - بولندية سرية فوراً ، للتشاور في حـــالة وقوع تهديد بالهجوم من أية دولة ثالثة . ولكن تشمبرلين وهاليفاكس ، بعد أن أفزعهما مـــا بلغ إلى مسامعهما من تحركات عسكرية ألمانية على مقربة من دانزيغ والممر البولندي، ومانقلته اليهما المخابرات البريطانية عن المطالب الالمانية الموجهة إلى بولندة ، والتي نفى بيك المخـــاتل للبريطانيين وجودها ، رغبا في أن يمضيا إلى أكثر من « المشاورات » .
وقدم كينارد إلى بيك مساء الثلاثين من آذار اقتراحاً بريطانياً - فرنسياً مشتركاً يقضي بعقد ميثاقين للمساعدة المشتركة في حالة وقوع اعتداء الماني [1] ولكن الاحداث سبقت حتى هذه الخطوة . فلقد دفعت الانبـــاء الجديدة التي تلقتها الحكومة البريطانية عن احتمال قيام المانيا بهجوم فوري على بولندة ، هذه الحكومة إلى أن تطلب في نفس المساء من بيك رأيه فيما إذا كان لا يرى مانعاً في أن تصدر بريطانيا ضمانة فردية مؤقتة لاستقلال بولندة . وطلب تشمبرلين أن يتلقى رد الحكومة البولندية في الغد ، إذ انه كان يود الاجابة على سؤال وجـه اليه في البرلمان ، في هذا الصدد . وبالطبع لم يكن لدى بيك ، وقد أحس بشيء من الانفراج في وسعنا تصوره ، أي اعتراض على ذلك ؛ وراح بالفعـــل يقول

---

١ اوضحت الحكومة البريطانية في البرقية التي ضمنتها تعليماتها إلى كينارد (وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٤) رقم ٥٣٨) ان روسيا لن تشرك في هذه الترتيبات وقالت البرقية : « اصبح من الواضح ان محاولاتنا لتثبيت الوضع ستتعرض للفشل اذا اشرك الاتحـــاد السوفياتي بصورة علنية في وضع المشروع . فالبرقيات الواردة من مختلف بعثات جلالتـــه الدبلوماسية في الخارج ، تحذرنا من ان إدخال روسيا لن يحبط جهودنا البناءة فحسب، بل يساعد كذلك على توطيد اواصر العلاقات بين الدول الأعضاء في ميثاق مكافحة الشيوعية ، كما يثير قلقـــاً عند عدد من الحكومات الصديقة » .

لكينارد « انه موافق على هذا الاقتراح بلا تردد »[1] .

* * *

ولم يستطع كل من كان في برلين في عطلة نهاية ذلك الاسبوع، التي انتهى بها شهر آذار عام ١٩٣٩ ، كما يشهد مؤلف هذا الكتاب الذي كان في العاصمة الألمانية آنذاك ، ان يفهم هذه الضمانة البريطانية الصادرة عن جانب واحد لبولندة ، مهما كان الترحيب بها شديداً في البلاد الواقعة الى الشرق والغرب من المانيا . ولقد رأينا من قبل المرة تلو المرة ، عندما زحف الألمان في عام ١٩٣٦ على منطقة الراين المنزوعة السلاح ، وفي عام ١٩٣٨ عندما استولوا على النمسا ، وهددوا بحرب اوروبية في سبيل انتزاع بلاد السوديت ، وحتى قبل نحو من اسبوعين عندما اغتصبوا تشيكوسلوفاكيا ، كيف كان في وسع بريطانيا العظمى وفرنسا بدعم من روسيا ، ان تقوما بعمل يوقف هتلر عند حده ، ودون أن يكلفهما هذا العمل كبير ثمن ، بل كان هذا الرجل قد فقد عقله ، وقامر كما قال ، بمستقبله السياسي ليساعد ادولف هتلر على الحصول على ما يبغيه من الدول المجاورة لألمانيا . ولم يكن قد فعل شيئاً لإنقاذ استقلال النمسا . وتواطأ مع الطاغية الألماني على تحطيم استقلال تشيكوسلوفاكيا. الدولة الديموقراطية الحقة الوحيدة، التي تقع على حدود المانيا الشرقية ، والتي كانت مخلصة في صداقتها للغرب وفي تأييدها لعصبة الأمم ولفكرة الضمان الجماعي . ولم يكن قد اهتم حتى بالقيمة العسكرية بالنسبة إلى الغرب ، لفرقها الخمس والثلاثين المدربة أحسن تدريب . والمرابطة وراء حصونها الجبلية المنيعة ، في وقت لم تكن بريطانيا قادرة على ان ترسل اكثر من فرقتين إلى فرنسا ، ولم يكن الجيش الألماني قادراً على القتال في جبهتين ، أو حتى على اختراق الخطوط الدفاعية التشيكية طبقاً لاعتراف الفرقاء الألمان انفسهم .

---

١ – وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٤) ٤٨٥ ٥١٨ ، ٥٣٨ ، ٥٦١ ، ٥٦٣ ، ٥٦٦ ، ٥٧١ ، ٥٧٣ .

أما الآن ، وبين عشية وضحاها ، يقوم تشمبرلين في سورة تأثره العميق من احتلال هتلر للبقية الباقية من تشيكوسلوفاكيا ، وبعد أن كان قد أضاع عن عمد وإهمال ، الكثير من الفرص المواتية ، فيتعهد من جانبه ، ومن طرف واحد ، بضمان دولة شرقية تحكمها زمرة من « العقداء » العاجزين سياسياً ، والذين كانوا حتى هذه اللحظة قد تعاونوا تعاوناً وثيقاً مع هتلر ، وانضموا كالذئاب إلى الألمان في نهش لحم تشيكوسلوفاكيا ، وعرضوا بلادهم إلى أن تغدو غير صالحة للدفاع عسكرياً نتيجة الفتوحات الألمانية التي ساعدت بريطانيا وبولندة، الرايخ على تحقيقها [1] . وها هو الآن يغامر هذه المغامرة في الساعة الاخيرة دون أن يكلف نفسه عناء البحث عن مساعدة روسيا التي رفض اقتراحاتها لاتخاذ إجراء مشترك ضد أي عدوان نازي مقبل مرتين في سنة واحدة .

وأخيراً لقد فعل تشمبرلين الآن ما كان يواصل منذ اكثر من عام واحد التبجح مؤكداً بأن بريطانيا لن تفعله قط ، وهو أن تترك لدولة أُخرى حق التقرير بدخول بريطانيا الحرب .

---

١ – ليس من المحتمل ان يكون تشمبراين قد جهل ما كانت عليه بولندة من ضعف عسكري. فلقد كان العقيد سورد الملحق العسكري البريطاني في وارشو قد بعث قبل نحو من اسبوع إلى لندن اي في الثاني والعشرين من آذار تقريراً مطولاً يشرح فيه وضع بولندة السوقي المفجع «بعد ان غدت محاطة من جميع اطرافها بألمانيا » كما يشرح ما في القوات البولندية المسلحة من مظاهر الضعف ولا سيما من ناحية الاسلحة العصرية والمعدات . (وثائق وزارة الخارجية البريطانية رقم ٤٩٨).

وفي السادس من نيسان وكان بيك في لندن يباحثها في عقد ميثاق عون مشترك ، بعث العقيد سورد والملحق الجوي البريطاني في وارشو قائد المجموعة فاشيل تقارير جديدة كانت اقل مدعاة إلى الأمل . واكد فاشيل في تقاريره ان السلاح الجوي البولندي لن يتمكن في غضون الإثني عشر شهراً القادمة من ان يحشد «اكثر من ستمائة طائرة ، معظمها من النوع الذي لا يصلح لمقابلة الطائرات الألمانية » . وذكر سورد في تقاريره ان الجيش والطيران البولنديين يفتقران إلى المعدات الحديثة بحيث لا يستطيعان ان يقدما إلا مقاومة محدودة في وجه هجوم الماني شامل. وراح السفير كينارد يلخص تقارير ملحقيه فأبلغ لندن ان البولنديين لن يتمكنوا من الدفاع عن الممر البولندي او الحدود الغربية ضد المانيا ، وانهم سيضطرون الى التراجع نحو الفستولا في قلب بولندة . واضاف قائلاً : « وهكذا فان بقاء روسيا صديقة لبولندة امر في منتهى الأهمية للاخيرة»(وثائق وزاره الخارجية البريطانية (٥) رقم ١٢).

لكن الخطوة المتهورة التي خطاها رئيس الوزراء ، قد جعلت هتلر على الرغم من تأخرها ، يواجه وضعاً مختلفاً كل الاختلاف عن ذاك الذي عهده حتى الآن . فلقد قررت بريطانيا منذ هذه اللحظة أن تقف في طريقه لتحول بينه وبين اقتراف أي عدوان جديد . ولم يعد في وسعه بعد الآن أن يواصل الاسلوب الذي اتبعه في السابق ، وهو اغتصاب دولة واحدة بعد أخرى في الوقت الذي تواصل فيه الدولتان الديموقراطيتان الوقوف جامدتين تناقشان ما يمكن لهما أن تفعلاه . يضاف إلى هذا أن خطوة تشمبرلين وكأنهـــا الحركة الجدية الاولى في طريق تأليف حلف دولي ضد المانيا ، وهو حلف قد يؤدي إذا لم ينجح هتلر في إحباطه وتفسيخه إلى إعادة عملية التطويق التي كانت الكابوس الذي يقضي على الرايخ منذ أيام بسمارك .

العملية البيضاء

اثارت أنباء الضمانة التي اعلنها تشمبرلين لبولندة الديكتاتور الألمـــاني ، ودفعت به إلى سورة من سورات غضبه المعروفة . وحدث أن كان في غرفة مع الاميرال كاناريس رئيس دائرة المخابرات ، وروى هذا أنه أي الفوهرر أخـذ يدور في الغرفة كالمجنون قارعاً بقبضته المائدة الرخامية احياناً وقد احمر وجهه من سورة الغضب ، وموجهاً سبابه إلى البريطانيين وهو يقول : « سـأطبخهم في حساء يختنقون فيه »[1] .

وراح في اليوم التالي الأول من نيسان يلقي خطاباً وبلهمسهافن ، بمناسبة إنزال البارجة تيريتز إلى البحر ، وكان وهو يلقي الخطاب في وضع الرجـل الذي ينشد القتال ، حتى أنه خرج عن طوره كثيراً ، وأمر في اللحظة الأخيرة بوقف الاذاعة المباشرة للخطاب ، على أن تعاد إذاعته في تسجيلات بعد إعادة

---

١ - غزيفيوس - إلى النهاية المرة . ص ٣٦٣

النظر فيها [1] ومع ذلك فقد تضمنت الإذاعة المسجلة الكثير من الانذارات التي وجهها إلى بريطانيا وبولندة ... فقد قال :

« واذا كان يخيل للحلفاء الغربيين ان المانيا اليوم ستقف ساكتة صابرة حتى اللحظة الاخيرة ، وهي تراهم يخلقون الدول التابعة ، ويدفعون بها ضد المانيا ، فإنهم ولا شك يحسبون ان المانية اليوم هي المانية ما قبل الحرب .

« وعلى كل من يعرب عن استعداده لاخراج الكستناء من النار لهذه الدول ان يدرك انه بعمله هذا سيحرق أصابعه ....

« وعندما يقولون في البــلاد الأخرى ، انهم سيتسلحون ، وسيواصلون التسلح ، فان في وسعي أن أقول لهؤلاء الساسة شيئاً واحداً ليس إلا ... « ان ما أرجوه هو أن لا يدرككم الاعياء . انني عازم على مواصلة السير في هذه الطريق » .

وهكذا كان هتلر حذراً إلى الحد الذي يمنعه من الإغراق في استفزاز الرأي العام العالمي ، كما اثبتت أوامره بإلغاء الاذاعة المباشرة .ولقد قيــل في برلين في ذلك اليوم ان هتلر سيعلن إلغاء المعاهدة البحرية بين انكلترا والمانيــا كأول رد على تشمبرلين ، ولكنه أكتفى بأن يقول : « وإذا لم تعد بريطانيا العظمى راغبة في التمسك بهذه المعاهدة . فان المانيا « على استعداد لقبول ذلك بهدوء» . وانتهى هتلر كعادته من قبل ، باحدى عباراته المعهودة عن السلام فقال :

---

١ – انقطعت إذاعة الخطاب إلىشبكة الاذعات الأمريكية فعلا بعد انشرع هتلر فيخطابه. وادى انقطاع الإذاعة إلى انتشار الشائعات في نيويورك بان هتلر قد اغتيل. ولقد كنت في غرفة المراقبة في قسم الموجات القصيرة في شركة الاذاعة الالمانية في برلين ارقب الارسال الى شبــكة اذاعات كولومبيا في نيويورك ، عندما توقف البث فجأة . وعندما احتججت على ذلك قيل لي ان الأمر قد صدرعنهتلر مباشرة. وتلقيت بعد خمس عشرة دقيقة مكالمة هاتفيةمن نيويورك تطلب مني الشركة ان اتحقق من اغتيال هتلر. وكان في وسعي بالطبع ان انفي الشائعةبسهولة ، إذ انني كنت في تلك اللحظة استمع الى هتلر وهو يخطب عن طريق خطهاتفيمتصل بوهلمسهافن مباشرة. وكان من الصعب إطلاق النار على الفوهرر في ذلك اليوم اذ انه كـــان يخطب في قفص زجاجي لاينفذ منه الرصاص .

« ليست لألمانيا أية نوايا في مهاجمة أي شعب من الشعوب ... وانطلاقاً من هذا الاعتقاد ، قررت قبل ثلاثة أسابيع أن اطلق على مهرجان الحزب القادم اسم « مؤتمر الحزب للسلام » ... وهو شعار بدا في منتهى السخرية ، مع تقدم صيف عام ١٩٣٩ .

كان هذا الخطاب للاستهلاك الداخلي . أما رد هتلر الحقيقي على تشمبرلين وعلى بيك ، فقد صدر في منتهى السرية بعد يومين أي في الثالث من نيسان ، على شكل توجيه سري للغاية ، الى القوات المسلحة . ولم يطبع من هذا التوجيه الذي حمل اسم « العملية البيضاء » ، إلا خمس نسخ . وقدر لهذا الاسم الرمزي ان يلعب دوراً ضخماً في التاريخ اللاحق للعالم .

سري للغاية

العملية البيضاء

« يتطلب موقف بولندة الراهن... البدء في إعدادات عسكرية لازالة هذا الخطر من هذه الناحية إذا اقتضى الأمر ، مرة وإلى الأبد ...

١ – المقتضيات والأهداف السياسية :

« سيكون هدفنا تحطيم القوة العسكرية البولندية ، وخلق وضع في الشرق يتفق مع مقتضيات دفاعنا القومي . ومن الواجب إعلان دولة دانزيغ الحرة جزءاً من أراضي الرايخ عند بدء العمليات العسكرية على أبعد تقدير .

وعلى القادة السياسيين أن يعتبروا أن مهمتهم في هذه الحالة ، عزل بولندة إذا أمكن ، أي حصر الحرب في بولندة وحدها .

« وقد يخلق تطور الأزمات السياسية المتزايدة في فرنسا وما

ينجم عنه من وعي بريطاني وضعاً كهذا في المستقبل القريب جداً .

« ولا ينتظر أن يكون تدخل روسيا ذا نفع لبولندة ... أما موقف ايطاليا فيقرره محور رومة - برلين .

٢ - الاستنتاجات العسكرية :

سيظل عداء الدول الديموقراطية الغربية هو العامل الذي يقرر الأهداف العظيمة التي نتوخاها من بناء القوات العسكرية الالمانية . وليست « العملية البيضاء » إلا تكملة احتياطية لهذه الاعدادات ...

وسيكون في إمكاننا تحقيق عزل بولندة بسهولة ، حتى بعد بدء العمليات الحربية ، إذا نجحنا في أن نبدأ الحرب بضربات ماحقة مفاجئة ، وفي ان نحقق انتصارات سريعة عاجلة ...

٣ - واجب القوات المسلحة :

« سيكون من واجب القوات المسلحة « الفيرماخت » تدمير القوات البولندية المسلحة . وعلينا لتحقيق هذه الغاية ان نعد العدة لهجوم مفاجىء » .

وتحدث عن دانزيغ فقال :

« قد يصبح احتلال دانزيغ بصورة مباغتة أمراً ممكناً وبصورة مستقلة عن «العملية البيضاء» ، عن طريق استغلال الوضع السياسي المواتي .... وسيقوم الجيش بهذا الاحتلال من بروسيا الشرقية . وسيتولى الاسطول مساعدة الجيش في عمليته ، عن طريق التدخل من البحر » .

و« العملية البيضاء » وثيقة مطولة تتضمن عدداً من الذيول والملحقات والأوامر الخاصة ، وقد أعيد أصدار معظمها في أمر موحد في الحادي عشر من نيسان ، ثم اضيفت بالطبع إلى أوامر لاحقة أخرى مع اقتراب الموعد المحدد للعمليات. ولكن هتلر أصدر في الثالث من نيسان على أي حال الملحق

التالي من التوجيهات المتعلقة بالعملية :

« ١ – يجب أن تتخذ الاعدادات بطريقة تضمن تنفيذ العملية في أي وقت بعد الأول من ايلول عام ١٩٣٩ ».

وكما أن القيادة العامة حافظت على الموعد الذي ضربه هتلر لاحتلال اراضي السوديت قبل مدة طويلة من وقوعه وهو الأول من تشرين الأول عام ١٩٣٨ ، فإنها حافظت ايضاً على الموعد الآخر الأكثر أهمية وهو الأول من ايلول عام ١٩٣٩ .

ومضى التوجيه يقول :

« ٢ – ان القيادة العامة للقوات المسلحة مكلفة بأن تضع مخططاً دقيقاً للعملية البيضاء ، وعليها أن تتخذ التدابير لتوقيت متزامن بين الفروع الثلاثة للقوات المسلحة .

« ٣ – من الواجب تقديم كافة المخططات التي تضعها فروع القوات المسلحة الثلاثة ، وتفاصل المخططات والتوقيت الى القيادة العامة للقوات المسلحة قبل الاول من ايار عام ١٩٣٩[١] » .

وتركزت الأهمية الآن ، على ما إذا كان بإمكان هتلر أن يتلف إعصاب البولنديين إلى الحد الذي يدفعهم دفعاً إلى قبول مطالبه ، تماماً كما فعل مع النمسويين ومع التشيكيين بمساعدة بريطانيا ، أو ما إذا كانت بولندة ستظل في موقفها وتقاوم العدوان النازي إن وقع . وعلى ما تستطيع تأمينه من سلاح لهذه المقاومة إن قررتها . وراح مؤلف هذا الكتاب ، يقضي الأسبوع الأول من شهر نيسان في بولندة بحثاً عن الردود على هذه الأسئلة . وكان ما حصل عليه من ردود على ضوء مشاهداته ، أن البولنديين لن يستسلموا لتهديدات هتلر ، وأنهم كانوا في وضع مفجع من الناحية العسكرية والسياسية . ولقد كان سلاحهم

---

١ – المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٩١٦ – ٩٢٨ . وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ١٨٦ – ١٨٧ و٢٢٣-٢٢٨-محاكمات كبار مجرمي الحرب (٣٤) ص ٣٨٠-٤٢٢ .

الجوي من الطراز الذي فات وقته وكان جيشهم مشوشاً ، وكان موقفهم السوقي (الاستراتيجي) يائساً نظراً لإحاطة الألمان بهم من ثلاث جهات . يضاف إلى هذا أن تعزيز الجدار الالماني في الغرب ، قد جعـل من الصعب كل الصعوبة على الانكليز والفرنسيين القيام بهجوم على ألمانيا من الغرب ، في حالة مهاجمة بولندة. وكان من الواضح أخيراً أن « العقداء » البولنديين العنيدين لن يوافقوا قط على قبول المساعدة الروسية حتى ولو وصل الالمان إلى أبواب وارشو .

وراحت الاحداث تتحرك بسرعة . ووقع العقيد بيك في السادس من نيسان في لندن اتفاقاً مع بريطانيا العظمى احال الضمانة البريطانية الصادرة من جانب واحد الى ميثاق مؤقت للعون المشترك . وأضاف الاعـلان الرسمي الذي صدر في لندن أن المعاهدة الدائمة ستوقع بعد استكمال التفاصيل المتعلقة بها .

وبعث موسوليني في اليوم التالي أي في السابع من نيسان بقواته إلى البانيا وأضاف إلى احتلاله الحبشة من قبل ، الاستيلاء على هذه البلاد الجبلية الصغيرة . وأتاح له هذا الاحتلال نقطة قفز يستخدمها ضد اليونان ويوغوسلافيا ، كما ساعد هذا الجو المتوتر في اوروبا على بعث الرعب في افئدة الدول الصغيرة التي تجرؤ على تحدي المحـــور . وتظهر وثائق وزارة الخارجية الألمانية ان هذا العمل تم بموافقة المانيا الكاملة ، التي أبلغها موسوليني اعتزامه القيام بهذه الخطوة مسبّقاً . وردت فرنسا وبريطانيا في الثالث عشر من نيسان على هذا العمل بضمان كل من اليونان ورومانيا . وهكذا بدأ الجانبان يعدان صفوفهما . ووصل غورنـــغ في منتصف شهر نيسان إلى رومة ، واجرى محادثتين طويلتين في الخـــامس عشر والسادس عشر منه مع موسوليني مما اثار حفيظة ريبنتروب وسخطه[1]. وقد أتفق الرجلان على انهما « في حاجة إلى سنتين أو ثلاث سنوات » لاستكمال العدة لخوض « حرب عامـــة » ولكن غورنـغ أعلن بأن الحرب اذا وقعت في وقت

١ – وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) – ٢٤٨ – ٢٥٣ – ٢٥٨ و ٢٦٣ . ويوميات شيانو ص ٦٦ – ٦٧ .

ابكر من هذا « فإن المحور في وضـــع قوي للغاية ، وفي استطاعته أن يهزم أي اعداء محتملين » .

وسبق لي أن أشرت إلى نداء وجهه الرئيس روزفلت، وتسلمته رومةوبرلين في الخامس عشر من نيسان . ويروي شيانو أن الدوتشي رفض تسلّم النـداء في البداية ، وان غورنغ أعلن بأن هذا النداء لا يستحق الرد. ووصفه موسوليني بأنه « ثمرة شلل الاطفال» ، بينما كان انطباع غورنغ أن روزفلت يعاني من مرض « عقلي بدائي » . وكان رئيس الولايات المتحدة قد وجّه في برقيـــة إلى هتلر وموسوليني السؤال الصريح التالي :

« هل انتما على إستعداد لاعطاء تأكيدات بأن قواتكما المسلحة لن تهاجم أو تغزو أراضي الدول المستقلة التالية ؟ » .

وتضمنت القائمة اسماء إحدى وثلاثين دولة بينهـــا بولندة ودول البلطيق وروسيا والدانمـارك وهولندة وبلجيكا وفرنسا وبريطانية . واعرب الرئيس عن أمله في اعطاء مثل هذا التعهد بعدم الاعتداء لمدة « عشر سنوات على الاقل» أو « لمدة ربع قرن إذا غامرنا بالتطلع الى مثل هذا الأمد الأبعد» ووعد في حالة إعطاء مثل هذا التعهد باشتراك أمريكا في «محادثات» عالمية شاملة تستهدف تحرير العالم من عبء « التسلح الساحق » ، وفتح السبل أمام التجارة العالمية.

وراح الرئيس يذكر هتلر قائلاً : « لقد أكدت مراراً وتكراراً ، أنك أنت والشعب الألماني لا ترغبان في الحرب . واذا كان تأكيدك هـــذا صادقاً ، فلن تكون ثمة حاجة الى الحرب ».

ويبدو على ضوء ما نعرفه الآن من وقائع أن هذا النداء كان ساذجاً حسن الطوية ولكن الفوهرر وجده مربكاً له على الحد الذي دفعه الى الاعلان بأنه سيرد عليه لا بصورة مباشرة، بل في خطاب يلقيه فيجلسة طارئة للرايشستاغ في الثامن والعشرين من نيسان ، تعقد خصيصاً لهذه الغاية .

وتكشف وثائق وزارة الخارجيةالألمانية المصادرة ان الولهلمشتراسة،وجهت في غضون ذلك برقية دورية بتاريخ السابع عشر من نيسان الى جميع الدولالتي

ذكرها روزفلت باستثناء بولندة وروسيا وبريطانيا وفرنسا ، ضمنتها سؤالين : عما اذا كانت هذه الدول تشعر بأنها مهددة بأي شكل من الأشكال من جانب المانيا وما اذا كانت قد خوّلت روزفلت التقدم بهذا الاقتراح .

وراح ريبنتروب يبرق الى جميع مبعوثيه في الدول المعنية قائلاً : « اننا على ثقة من أن الردعلى هذين السؤالين سيكون سلبياً ، ومع ذلك ، ولأسباب خاصة ، فإننا نرغب في أن نتلقى معلومات موثوقة فوراً » . وسرعان ما اتضحت هذه الأسباب الخاصة في الخطاب الذي ألقاه هتلر في الثامن والعشرين من نيسان .

وتمكنت وزارة الخارجية الالمانية في الثاني والعشرين من نيسان من تقديم تقرير الى الفوهرر ذكرت فيه ان معظم الدول المعنية وبينها يوغوسلافيا وبلجيكا والدانمارك والنروج وهولندة ولكسمبورغ « قد ردت على السؤالين بالنفي » ، وهو رد سرعان ما ستكشف الأيام القريبة التالية عن الرأي البريء الذي كانت تراه حكومات هذه الدول في الرايخ الثالث . أما رومانيا فقد ردت رداً لاذعاً ، اذ قالت ان « على حكومة الرايخ نفسها أن تكون في وضع يمكنها من معرفة ما اذا كان التهديد سيصدر عنها » . ولم تفهم حكومة لاتفيا الصغيرة الواقعة على البلطيق في بداية الأمر ، ما يطلب اليها تقديمه من رد ، ولكن سرعان ما صححت وزارة الخارجية الألمانية هذا الوضع ، فقد هتف وايز ساكر في الثامن عشر من نيسان إلى وزيره المفوض في ريغا يقول :

« قل لهم ، أننا لم نستطع فهم رد وزير خارجية لاتفيا على السؤال الذي وجهناه بصدد برقية روزفلت . وبينما تلقينا الرد تقريباً من جميع الحكومات الأخرى ، وكان سلبياً بطبيعة الحال ، فان المسيو مونترز عامل هذه الدعاية الامريكية السخيفة كقضية تتطلب منه استشارة مجلس وزرائه . وإذا لم يرد المسيو مونترز « بالنفي » على سؤالنا فوراً ، فاننا نجد أنفسنا مضطرين إلى إضافة اسم لاتفيا إلىقائمةتلك البلاد التي آثرت أن تجعل من نفسهاشريكات للمستر روزفلت . ولقد قلت انني أفترض بأن كلمة واحدة منك

يا هرفون كوتزي ، على ضوء هذه التعليمات ستكون كافية للحصول على الرد الواضح من الوزير اللاتفي[1]».

رد هتلر على روزفلت

كانت الردود ذخيرة مؤثرة أعتمد عليها هتلر ، واستخدمها بنجاح ، عندما انطلق يهـــدر في خطابه الى الرايشستاغ في ذلك اليوم المشرق من ايام الربيع صبيحة الثامن والعشرين من نيسان عام ١٩٣٩ . ولقد كان هـــذا الخطاب كما أعتقد أطول خطاب رئيسي القاه في اجتماع عام ، إذ استغرق منه اكثر من ساعتين . ولقد كان هذا الخطاب من نواح عدة ولا سيما من ناحية مـا فيه من قوة تأثير على الألمان واصدقاء المانيا النازية من الخارج ، أروع ما ألقاه في حياته من خطب . ولا ريب في أنـــه اعظم ما سَمِعْتُهُ منه . وقـــد حلق هتلر في خطابه هذا من ناحية البلاغة اللفظية والدهاء ، والسخرية ، والتهكم ، والتصنع ، بشكل لم يصل إلى مستواه في أي خطاب لاحق . وعلى الرغم من أن هذا الخطاب قد أُعد لمسامع الالمان ، إلا أنه لم يذع على جميع محطات الاذاعة الالمانية فحسب بل وعلى مئات الاذاعات في العالم ايضاً . وقد تناقلته جميع الشبكات الاذاعية في الولايات المتحدة كذلك . ولم يقدر لهتلر أن يستمع إلى أي خطاب من خطبه اللاحقة مثل ذلك العدد الضخم الذي استمع اليه وهو يخطب في ذلك اليوم في جميع انحاء العالم[2].

---

١ ـ وثائق وزارة الخارجيـــة الالمانية (٦) ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥ ، وص ٣٠٩ ـ ٣١٠ ، وص ٢٨٣ - ٢٨٤ .

٢ ـ ابرق وابز ساكر يوم القاء الخطاب إلى هانز تومسون القائم بأعمال المانيا في واشنطن . مصدراً تعليماته بأن يعمل على إتاحة اوسع ما يمكن من النشر والاذاعة لخطاب الفوهرر في الولايات المتحدة ، مؤكداً له أن اموالاً إضافية خاصة ستوضع تحت تصرفه لهذه الغاية . ورد تومسون في الاول من ايار يقول : « لقد فاق الإهتمام بالخطاب كل ما عهدناه من قبل . ولهذا فقد أمرت =

بدأ هتلر خطابه بعد المقدمات المألوفة من التحدث عن إجحاف معاهـــدة فرساي ، وما أنزلته بالشعب الالماني من مظالم لا عد لها ولا حصر ، ومن آلام ومتاعب طويلة ، بالرد أولاً على بريطانيا العظمى وبولندة ، رداً أثار الخوف في اوروبا التي يسيطر عليها القلق والفزع .

وبعد أن أعلن ما يحس به من إعجاب وصداقة لانكلترا ، وبعد أن هاجمها على شكها فيه وعلى « سياسة التطويق الجديدة » التي تتبعهـا ضد المانيا ، راح يعلن إنهاء المعاهدة البحرية التي عقدت بينها وبين المانيا في عام ١٩٣٥ قائلاً أن الأسس التي أدت إلى عقدها قد زالت .

وكان حديثه عن بولندة، مماثلاً ... فبعد ان اعلن الاقتراح الذي قدمه اليها بصدد دانزيغ والممر (وكان هذا الاقتراح سراً حتى الآن) ، قال انـه – أي الاقتراح – يمثل «أعظم ما يمكن تصوره من تساهل فيمصلحة السلام الاوروبي» وابلغ الرايشستاغ أن الحكومة البولندية قد « رفضت هذا العرض الوحيد » ، ثم قال :

« ولقد آلمني هذا الموقف الذي وقفته الحكومـــة البولندية ، والذي لا يمكن فهمه مطلقاً .... ولعل ما هو أسوأ من ذلك أن بولندة تعتقد اليوم كما اعتقدت تشيكوسلوفاكيا قبل نحو من عام ، تحت ضغط حملة عالمية من الأكاذيب ، أن عليها أن تستنفر قواتها ، على الرغم من أن المانيا لم تدع إلى الخدمة جندياً واحداً من قواتها الاحتياطية ، وعلى الرغم من انها لم تفكر قط في التقدم باتجـــاه بولندة بأي شكل من الاشكال . ويدعو مثل هذا الموقف ، إلى الأسف حقاً ، وستقرر الأجيال القادمة ما إذا كان من الصواب حقاً أن ترفض بولندة هذا الاقتراح الذي تقدمتُ به ذات يوم اليها،

= بارسال النسخة الانكليزية من الخطاب التي تم طبعها هنا إلى عشرات الالوف من الناس من مختلف الطبقات والإتجاهات تنفيذاً للمخطط المقترح . وسأبعث اليكم فيما بعد بقائمة النفقات » (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ٣٥٥ ، ٣٩٩ .

والذي يؤلف حلاً وسطاً فريداً من نوعه ...» .

ومضى هتلر يقول أن الأنباء القائلة بأن المانيا تعتزم مهاجمة بولندة ليست « إلا مجرد اختلاقات من الصحافة العالمية »، (ولم يكن رجل واحد من عشرات الملايين من الاشخاص الذين استمعوا إلى الخطاب يعرف أن الرجل هذا قد أصدر قبل ثلاثة أسابيع أوامره الخطية إلى قواته المسلحة بأن تعد العدة لتحطيم بولندة قبل الأول من ايلول على ابعد تقدير ». واضاف ان اختلاقات الصحف قد حملت بولندة على عقد اتفاقها مع بريطانيا العظمى الذي « سيرغم بولندة في ظل ظروف معينة على اتخاذ اجراءات عسكرية ضد المانيا » . ولهذا فإن بولندة بعملها هذا قد خرقت ميثاق عدم الاعتداء المعقود بينها وبين المانيا . ثم قال : « ولهذا فانني انظر إلى الميثاق ، وكأنه لا وجود له بعد ان خرقته بولندة من جانبها وحدها » .

ولما كان هو وحده الذي مزق معاهدتين رسميتين في لحظة ، فقد راح يبلغ الرايشستاغ أنه على استعداد للتفاوض لاستبدالها بمعاهدتين أخريين ثم قال: ليس في وسعي إلا أن أرحب بمثل هذه الفكرة، ولن يكون هناك من هو أسعد مني إذا ما تحقق هذا الأمل » . ولم يكن قوله هذا إلا مجرد تكرار للخدعة التي طالما اتبعها في الماضي ، عندما كان كما رأينا ، يمزق المعاهدات ، ولكن يبدو كما ظهر فيما بعد ، أنه كان يجهل بأن حيلته لن تنطلي بعد اليوم على أي إنسان .

واتجه هتلر بحديثه بعد ذلك إلى الرئيس روزفلت ، وهنا وصل الديكتاتور الألماني إلى القمة في بلاغته الخطابية . وكان هذا الحديث بالنسبة إلى المستمع العادي حافلاً بالاصطناع والخداع ، أما بالنسبة إلى أعضاء الرايشستاغ الذين انتقاهم هو بيده ، وبالنسبة إلى ملايين الألمان ، فقد كان ما فيه من سخرية ومن هزء لاذع، مصدر متعة وتسلية. وانفجر النواب المهوشون في ضحك مدوٍ مرعد عندما راح الفوهرر ، يتدفق بقوة متزايدة بسخريته اللاذعة التي لا تنتهي بالرئيس الامريكي . وشرع يتلو نقاط برقية الرئيس واحدة تلو أخرى، متوقفاً بعد كل واحدة منها ليبتسم ، ثم ليقول في صوت خفيض وكأنه أستاذ مدرسة :

إن ردّنا هو هذا . وما زال مؤلف هذا الكتاب ، يتصور هتلر وهو يتوقف مرة تلو المرة ليقول بصوت خفيض ... الرد ... كذا ، بينما جلس غورنغ في مقعد على المنصة ، يحاول أن يكتم عطسة ، وبينما كان الأعضاء بعد كل مرة يتلفظ فيها بكلمة الرد ، يستعدون للانفجار في ضحكة داوية » وقال هتلر :

« يعلن الرئيس روزفلت أن من الواضح اليه أن جميع المشاكل الدولية يمكن حلها على مائدة المفاوضات والمشاورات ...

.. وردنا ... ان ما يسعدني كل السعادة أن تحل جميع هذه المشاكل على مائدة المفاوضات . ولكن شكي يرتكز على أي حال على الحقيقة الواقعة ، وهي أن أمريكا نفسها هي التي تنطلق بتعبيرها الصارخ على عدم ثقتها في جدوى المؤتمرات . فلقد كانت عصبة الأمم ، هي أعظم مؤتمرات التاريخ كله إذ أنها تمثل جميع شعوب العالم، وقد تم خلقها تنفيذاً لرغبة الرئيس الامريكي، ولكن الولايات المتحدة ، كانت الدولة الأولى على أي حال التي تراجعت عن هذه المحاولة .... ولم اتخذ قراري باحتذاء حذو امريكا إلا بعد سنوات طويلة من الأشتراك الذي لا فائدة فيه ...

« ولم تتحقق حرية امريكا الشمالية على مائدة المفاوضات كما لم يقرر الصراع بين ولايات الشمال والجنوب على تلك المائدة ايضاً . ولا أرى ضرورة لتعداد الحروب التي لا حد لها ولا حصر والتي اسفرت في النهاية عن اخضاع القارة الامريكية الشمالية بمجموعها .

« وانني لأورد كل هذه الأمثلة لأظهر أن رأيك يا مستر روزفلت على الرغم من جدارته بالاحترام والتقدير لا يجد مستنداً له في تاريخ بلادك أو في تاريخ ما تبقى من اجزاء العالم » .

وراح هتلر يذكر الرئيس بأن المانيا مضت ذات يوم الى مائدة المفاوضات في فرساي لا لتشترك في البحث ، بل لتملى عليها الأوامر املاء ، « وتعرض ممثلوها لإذلالٍ اكبر مما تعرض له حتى رؤساء قبائل السيوكس من الهنود الحمر » .

ووصل هتلر أخيراً إلى النقطة الاساسية في رده على طلب الرئيس بأن يتعهد بعدم مهاجمة أي من الدول الاحدى والثلاثين وقال :

« وردنا هو كيف تمكن المستر روزفلت من معرفة الدول التي تعتبر نفسها مهددة بالسياسة الألمانية والدول التي لا تعتبر نفسها مهددة ؟ وهل المستر روزفلت في موقف يمكنه تلقائياً على الرغم من جسامة المهام الضخمة الملقاة على عاتقه للعمل في بلاده ، ومن ادراك كل ما لدى الشعوب الاخرى وحكوماتها من انطباعات عقلية وروحية ذاتية ؟

« ويطلب المستر روزفلت أخيراً ان نقدم اليه التأكيدات بأن القوات الألمانية المسلحة لن تهاجم أو تغزو أراضي وممتلكات الدول المستقلة التالية ... »

ثم راح هتلر يقرأ ببطء اسم كل دولة من الدول . واني لأذكر أن الضحكات كانت تتعالى من أعضاء الرايشستاغ مع كل اسم يذكره ، ولم يلحظ أي عضو من أعضاء المجلس ، أو أي شخص من برلين وبينهم مؤلف هذا الكتاب ، انه قد تجاهل بولندة عن دهاء ومكر ....

وأخيراً أخرج هتلر ورقة « الآس » الرابحة من جيبه ، أو خيل إليه أنه أخرجها فقال :

« أن ردي ، هو انني جشمت نفسي مشقة التأكد من هذه الدول التي ذكرتها عما إذا كانت أولاً تحس بأنها مهددة حقاً . وعمّا إذا كانت ثانياً ، وهذا هو الشيء المهم ، هي التي اقترحت على الرئيس الامريكي أن يوجه إلينا هذا السؤال ، أو انها وافقت على الأقل على توجيهه ...

« ولقد كان رد هذه الدول في جميع الحالات سلبياً ... ومن الحق انني لم استطع التحري عن هاتين النقطتين من بعض الدول والبلاد المذكورة لأن هذه البلاد نفسها – كسوريا مثلاً – ليست

حائزة لحريتها في الوقت الحاضر ، ولأنها محتلة ، ومغتصبة الحقوق في النتيجة من قبل الممثلين العسكريين للدول الديموقراطية .

« وإذا ما استثنينا هذه الحقيقة ، فإن جميع الدول المتاخمة لألمانيا قد تلقت منا تأكيدات اكثر إلزاماً من تلك التي تفضل المستر روزفلت بطلبها في برقيته الغريبة ....

« وأرى لزاماً علي ان الفت نظر المستر روزفلت إلى خطأ أو خطأين تاريخيين. فلقد ذكر ايرلندة مثلاً، وطلب من المانيا بياناً بأنها لن تهاجمها . ولقد قرأت قبل قليل خطاباً ألقاه ديفاليرا رئيس وزراء ايرلندة (Taoiseach)[1] لم يتهم فيه المانيا ، ولعل هذا يبدو غريباً ومناقضاً لرأي المستر روزفلت ، بمحاولة اضطهاد ايرلندة ، وانما وجه الملامة إلى انكلترا ، متهماً اياها بتعريض بلاده إلى عدوان متواصل ...

« ويبدو أن الحقيقة قد فاتت ملاحظة المستر روزفلت بنفس الطريقة ، من أن القوات الألمانية ليست هي التي تحتل فلسطين الآن ، وإنما تحتلها القوات الانكليزية ، وأن حرية تلك البلاد تتعرض الآن إلى اشد القيود عن طريق اللجوء الوحشي جداً إلى العنف ... »

ومع ذلك فلقد ذكر هتلر ، انه على استعداد لتقديم الضمانات التي يرغب فيها المستر روزفلت إلى كل دولة من هذه الدول ، وأضاف قائلاً ، وقد لمع البريق في عينيه :

« ولكنني لا أُريد أن أترك هذه الفرصة تمر دون أن أقدم إلى رئيس الولايات المتحدة تأكيداً يتعلق بتلك البلاد ، التي تسبب له حتماً ، وقبل كل شيء ، الكثير من القلق ، وأعني بها الولايات

---

١ - كان هتلر حريصاً على استخدام الكلمة الغالية (لغة ايرلندة الاصلية) التي تعني رئيس الوزراء .

المتحدة نفسها والدول الاخرى الموجودة في القارة الامريكية ..

« وها أنا اعلن إعلاناً صادقاً ، بأن جميع المزاعم المنتشرة ، والمتعلقة بما يقال عن هجوم أو غزو الماني مقصود لأرض أمريكية أو داخلها ، ليست إلا إختلاقات وأكاذيب ضخمة ، بالإضافة إلى الحقيقة الواقعة وهي أن هذه المزاعم ، لا يمكن أن تكون بالنسبة إلا الامكانات العسكرية ، إلا ثمرة خيال سخيف ... »

وانفجر الرايشستاغ في قهقهة داوية ساخرة ، ولم يبتسم هتلر محافظاً بمجهود جبار على هيئة الجدية الوقور .

وراح هتلر يتدفق بعد ذلك بأبلغ ما استمعت اليه آذان الألمان كما اعتقد من عبارات إذ قال :

« والآن يا مستر روزفلت ! إنني افهم تمام الفهم أن اتساع بلادك وضخامة ما فيها من ثروات عظيمة قد يسمحان لك بأن تحس نفسك مسؤولاً عن تاريخ العالم بأسره ، وعن تاريخ جميع الدول . لكنني يا سيدي ، ارى نفسي في مجال اصغر من مجالك وأكثر تواضعاً ...

« ولقد سبق لي أن تسلمت الحكم في دولة كانت تواجه الدمار الكامل بفضل ما أولته من ثقة للوعود التي قطعتها لها بقية اجزاء العالم ، وبفضل النظام السيىء للحكم الديموقراطي .... وتغلبت على الفوضى في المانيا ، واعدت فرض النظام ، وضاعفت الانتاج إلى حدٍ هائل .... وطوَّرت طرق المواصلات ، وامرت بشق طرق ضخمة ، وقنوات عظيمة ، وخلقت مصانع جديدة هائلة وحاولت في نفس الوقت السير بالتعليم والثقافة عند شعبنا في مجالات التقدم .

« وقد افلحت في العثور على العمل النافع من جديد لنحو من سبعة ملايين عاطل من ابناء شعبنا .... ولم اكتف بتوحيد الشعب

الألماني سياسياً ، بل قمت ايضاً بإعادة تسليحه . وحاولت كذلك ان احطم ورقة ورقة تلك المعاهدة التي انطوت ببنودها الثمانية والاربعين بعد الاربعمائة على اسوأ طغيان يمكن للشعوب أو لبني البشر تصوره .

« وقد أعدت للرايخ مقاطعات سرقت منه في عام ١٩١٩ . وأعدت ملايين الألمان الذين سلخوا عنا وكانوا يحيون حياة الشقاء إلى وطنهم الأب ... وكل ذلك يا مستر روزفلت ، دون أن أسفك الدماء ، ودون أن أحمّل شعبي وبالتالي الشعوب الاخرى ما تجره الحروب من شقاء ....

« أما مهمتك أنت يا مستر روزفلت ، فأهون بكثير إذا ما قورنت بمهمتي ، فلقد أصبحت رئيساً للولايات المتحدة في عام ١٩٣٣ أي في نفس العام الذي غدوتُ فيه مستشاراً للرايخ. وخطوت منذ البداية يا مستر روزفلت إلى قيادة دولة تعتبر من أكبر دول العالم واكثرها ثراء....ولا ريب في أن الأوضاع التي تسود بلادك ، ضخمة إلى الحد الذي يمكنك من أن تجد الوقت والمتعة الكافيين لتوجيه اهتمامك إلى المشاكل العالمية ... وتشمل اقتراحاتك ونقاط اهتمامك منطقة أوسع بكثير واضخم من نقاط اهتمامي واقتراحاتي وذلك لأن عالمي يا مستر روزفلت الذي شاءت العناية الإلـهية ان تضعني فيه ، والذي أجد نفسي مرغماً على العمل من اجله ، اصغر بكثير ولسوء الحظ من عالمك ، على الرغم من الحقيقة الواقعة وهي أنه أثمن علي من أي شيء آخر ، لأنه محصور في شعبي ! « وإني لاعتقد على أية حال ، أن هذه هي الطريقة التي استطيع أن أخدم بها كل ما يثير اهتمامنا وقلقنا واعني بها العدالة والرخاء والتقدم والسلام للمجموع بأسره » .

ويعتبر هذا الخطاب اعظم روائع هتلر البلاغية في خداع الشعب الالماني .

ولكن تبين لكل من جال في اوروبا في الايام التالية بكل سهولة أن هذا الخطاب على النقيض من عددٍ من خطبه السابقة لم يخدع أي شعب أو أية حكومة في الخارج . فلقد تمكنت هذه الشعوب على النقيض من الالمان ، من رؤية الحقيقة عبر السراب الخادع . وأدركت ايضاً أن الفوهرر الألماني على الرغم من قوته الخطابية الرائعة . وعلى الرغم من تفوقه على روزفلت لم يجب إجابة حقيقية على سؤالَي الرئيس الجوهريين - : ترى هل انتهى من العدوان ؟ وهل سيهاجم بولندة ؟.

ولقد كان هذا الخطاب كما ثبت فيما بعد آخر ما القاه هتلر من خطب عامة ضخمة في حياته السلمية . وقد تمكن الأفاق النمسوي السابق من التقدم في هذا العالم إلى أقصى ما امكنه بفضل ما تتميز به خطابته من عبقرية . أما الآن فقد تحتم عليه أن يحاول حفر مكانته في التاريخ كإنسان محارب .

وعاد هتلر إلى ملاذه الجبلي في برختسغادن لقضاء فصل الصيف فيه دون أن يرد علناً على جواب بولندة الذي قدمته اليه في الخامس من أيار على شكل خطاب القاه العقيد بيك في البرلمان وتضمنته مذكرة رسمية بعثت بها الحكومة البولندية الى المانيا في ذلك التاريخ ايضاً . وقد انطوى البيان البولندي وخطاب بيك على ردٍ ودود يحمل طابع المجاملة مع الانفة ، ويظهر بمظهر الصلابة والحسم ... وقد جاء في هذا الرد ما يلي :

« من الواضح أن المفاوضات التي تضع فيها دولة مطالبها وترغم الدولة الأخرى على قبولها دون تغيير لا يمكن أن تعتبر مفاوضات مطلقاً » .

تدخل روسيا — ١

لم يضمّن هتلر خطابه في الرايشستاغ في الثامن والعشرين من نيسان هجماته المعهودة على الاتحاد السوفياتي ، ولم يشر الى روسيا فيه بكلمة واحدة . أما رد

العقيد بيك فقد ذكر عبارة « وبعض التلميحات الاخرى » من جانب المانيا التي تمضي الى ابعد من المواضيع التي يتناولها الحديث « ثم أحتفظ بالحق في العودة الى الموضوع اذا اقتضت الضرورة » ، وهي اشارة مبطنة ولكنها واضحة الى جهود المانيا السابقة في اقناع بولندة بالانضمام الى ميثاق مكافحة الشيوعية ضد روسيا. وعلى الرغم من أن بيك لم يعرف الحقيقة آنذاك ، كما لم يعرفها تشمبرلين أيضاً ، الا أن الجهود ضد روسيا بدأت تختفي الآن . وأخذت آراء جديدة في التوالد في كل من برلين وموسكو في هذه اللحظة .

ومن الصعب علينا التحقق من التاريخ الذي بدأت فيـــه أول خطىً في العاصمتين للوصول الى تفاهم بين المانيا النازية والاتحاد السوفياتي ، قـدر له أن يؤدي الى تلك النتائج الهائلة بالنسبة الى العالم بأسره . وكان أول مـــا وقع في اتجاه الريح من تبدل طفيف ، كما شرحنا من قبل ، في الثالث من تشرين الأول عام ١٩٣٨ ، أي بعد أربعة أيام فقط من مؤتمر ميونيخ ، عندما بعث مستشار السفارة الألمانية في موسكو ، تقريراً الى برلين يبلغها فيه ان ستالين سيستخلص ولا شك استنتاجات معينة من تسوية مشكلة السوديت التي استثني منها ، وأن هذه الاستنتاجات قد تجعله « اكثر ايجابية » مع المانيا . وقد تبنى الدبلومـاتي المذكور فكرة قيام تعاون اقتصادي « اوسع نطاقاً » بين البلدين ، وعاد يكرر اقتراحه بعد اسبوع واحد في تقرير برقي ثان .[١] وأبلغ السفير الألمـــاني في موسكو ، فريدريش فيريز كونت فون دير شولنبرغ برلين حوالي نهـــاية شهر تشرين الأول ، أنه يعتزم « في المستقبل القريب الاتصال بمولوتوف رئيس مجلس قوميسيري الشعب (رئيس الوزراء) محاولاً الوصول معه الى تسوية لكافـــة المشاكل التي تثير الاضطراب في العلاقات الالمانية الروسية »[٢] ومن المستبعـد جداً أن يكون السفير نفسه ، هو صاحب هذه الفكرة بالنظر الى مواقف هتلر العدائية السابقة من موسكو والتي تجاوزت كل حد . ولا ريب في أن الاشارة

---

١ - وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٤) ص ٦٠٢ - ٦٠٧ .

٢ - وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٤) ص ٦٠٧ - ٦٠٨ .

الأولى في هذا الاتجاه قد صدرت عن برلين .

وتوضح دراسة وثائق وزارة الخارجية الألمانية التي صودرت بعد الحرب ،ان هذه الاشارة قد صدرت عن برلين حقاً . وكان من رأي الألمان ، أن الخطوة الأولى يجب أن تتخذ شكل تحسين الاتجار بين البلدين . وتحسر مذكرة لوزارة الخارجية الألمانية بتاريخ الرابع من تشرين الثاني عام ١٩٣٨ النقاب عن أن « مكتب المشير غورنغ يلحف في المطالبة بمحاولة تنشيط الاتجار مع روسيا على الأقل ، ولا سيما فيما يتعلق بالمواد الأولية الروسية »[١] . وكان من المتوقع أن تنتهي الاتفاقات التجارية الألمانية ـ الروسية في نهاية العام ، وقد امتلأت ملفات الويلهمشتراسة بالوثائق التي تظهر ما صادف المفاوضات لتجديد هذه الاتفاقات من نكسات وما رافقها من آمال . وكان كل من الجانبين يشك كل الشك في الجانب الآخر ، ومع ذلك فإنهما شرعا يتقاربان بصورة غامضة . وجرت في الثاني والعشرين من كانون الأول في موسكو محادثات مطوّلة بين موظفي وزارة التجارة الروسية وبين جوليوس شنوري ، الحلاّل الماهر للمشاكل الاقتصادية الألمانية .

وقام اليكسي ميريكالوف السفير السوفياتي في برلين بعيد رأس السنة الجديدة بزيارة من زياراته غير المألوفة لوزارة الخارجية الالمانية لابلاغها « رغبة الاتحاد السوفياتي في بدء عهد جديد من العلاقات الاقتصادية بين البلدين » . واستمرت المحادثات موحية بالتفاؤل بضعة اسابيع ، ولكن عندما حل شهر شباط عام ١٩٣٩ ، بدت هذه المحادثات على وشك الانهيار تقريباً . وذلك بسبب الخلاف كما يبدو على ما إذا كانت المفاوضات الرئيسية ستدور في موسكو أو في برلين . لكن السبب الحقيقي لهذا الانقطاع ، ظهر فيما بعد جلياً في مذكرة لمدير دائرة السياسة الاقتصادية في وزارة الخارجية الألمانية مؤرخة في الحادي عشر من آذار عام ١٩٣٩ ، فقد اشارت هذه المذكرة إلى انه على الرغم من حاجة المانية الماسة إلى المواد الروسية الأولية وعلى الرغم من

---

١ ـ وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٤) ص ٦٠٨ ـ ٦٠٩

ان غورنغ يواصل الالحاف بوجوب الحصول عليها ، إلا أن الرايخ كان عاجزاً عن توفير السلع التي سيحصل عليها الاتحاد السوفياتي على سبيل المقايضة بدلاً من تلك المواد . وكان من رأي المدير ان « انقطاع المفاوضات » شيء يدعو إلى الأسف البالغ ، بالنظر إلى مركز المانيا المفتقر إلى المواد الأولية [1] .

ولكن إذا قدر لأولى المحاولات ان تفشل في مجال العلاقات الاقتصادية بين البلدين مؤقتاً ، فإن هناك مجالات أخرى تلوح في الأفق . وألقى ستالين في العاشر من آذار عام ١٩٣٩ خطاباً طويلاً في الجلسة الاولى التي عقدها المؤتمر الثامن عشر للحزب الشيوعي في موسكو. ولم تمض ايام ثلاثة حتى كان شولنبرغ الساهر على مصلحة بلاده ، يبعث بتقرير مطوّل عن هذا الخطاب الى برلين . وذكر السفير في تقريره أنه يرى بأن « مما تجدر ملاحظته ان سخرية ستالين وانتقاداته كانت موجهة بصورة أعنف إلى بريطانيا منها إلى الدول المعتدية المزعومة او المانيا بصورة خاصة » . واكد السفير على ملاحظات ستالين التي قال فيها أن « ضعف الدول الديموقراطية ... بات واضحاً من الحقيقة الواقعة وهي انها قد تخلت عن مبدأ الأمن الجماعي وتحولت إلى سياسة عدم التدخل والحياد . ولا ريب في ان النية المبيتة وراء هذه السياسة هي الرغبة في تحويل الدول المعتدية الى ضحايا أخرى » وراح يقتطف بعد ذلك اتهامات الديكتاتور السوفياتي بأن الدول الغربية ...

« تدفع بالالمان دفعاً إلى الشرق ، واعدة إياهم بفريسة سهلة جديدة وقائلة لهم ... « عليكم فقط ان تشرعوا في حرب مع البلاشفة ، وآنذاك ستحل كافة المشاكل تلقائياً » . ان هذا يبدو بمثابة تشجيع لهم...ويبدو انهذا الهدف منهذه الأقوال استثارة حنق الاتحاد السوفياتي ضد المانيا واستفزاز حرب بينهما دون أي سبب واضح معقول ... »

وختم ستالين خطابه متوصلاً إلى النتائج المبدئية التالية :

---

١ - وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٤) ص ٦٣١ .

« ١ – مواصلة السير على سياسة سلمية وتوطيـــد العلاقات الاقتصادية مع جميع البلاد .

« ٢ – ان لا نسمح لبلادنا بالانسياق إلى الحرب تحت تأثير دعاتها ، الذين الفوا أن يعهدوا إلى الآخرين بانتزاع الكستناء من النار »[١].

ولقد كانت هذه الأقوال انذاراً واضحاً من الرجل الذي يتصرف بقدرات الاتحاد السوفياتي ويتخذ له قراراته النهائية ، بأن روسيا لا تعتزم ان تساق عن طريق المناورات إلى حرب مع المانيا النازية ، لتوفر على بريطانيا وفرنسا عبء الاشتباك فيها معها . وقد تجاهلت لندن هذا الإنذار ، لكن برلين لم تتجاهله ابداً[٢] .

ومع ذلك فما زال واضحاً من خطاب ستالين ومن الاتصالات الدبلوماتية المختلفة التي جرت فيما بعد ، ان سياسة السوفيات الخارجية كانت لا تزال صريحة

---

١ – وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ١ -٣.

٢ – على الرغم من ان البرقية التي بعثت بهـــا وكالة الصحف المشتركة من موسكو ونشرتهـــا النيويورك تايمز في عددها الصادر في الثاني عشر من آذار قد ذكرت بأن حملة ستالين على المحاولات للزج بروسيا في حرب ضد المانيا قد اثارت الكثير من الأقوال في الدوائر الدبلوماتية في موسكو عن احتمال قيام تقارب بين الاتحاد السوفياتي والمانيا ، فإن السير وليليام سيدس ، السفير البريطاني لم يشترك في هذه الأقوال على الغالب . إذ يذكر السفير في برقيته التي نقل فيها خطاب ستالين شيئاً عن مثل هذا الاحتمال . وقد توصل دبلوماتي غربي هو جوزيف ديفيز السفير الامريكي السابق في موسكو والذي كان يقيم آنذاك في بروكسل الى الاستنتاجات الصحيحة من خطاب ستالين.وسجل في يوميته بتاريخ الحادي عشر من آذار يقول : « حقـــاً أنه لبيان هام للغاية . فهو يحمـــل صورة الانذار الواضح الى الحكومتين البريطانية والفرنسية بأن السوفيات قد بدأوا يملون من هذه المعارضة « اللاواقعية للمعتدين ، ولا ريب في ان هذا الملل نذير شر بالنسبة الى المفاوضـات بين وزارة الخارجية البريطانية والاتحاد السوفياتي . ولا ريب عندي في ان هذا الخطاب اوضح ناقوس للخطر رأيته في حياتي » وبعث في الواحد والعشرين من آذار برسالته الى الشيخ الامريكي كي بتهان قال فيها ... « يبذل هتلر محاولات يائسة لابعاد ستالـــين عن فرنسا وبريطانيا . واني لأتوقع له النجاح اذا لم تستفق الدولتان للخطر . » (ديفيز – بعثة دبلوماتيـــة الى موسكو . ص ٤٣٧ – ٤٣٩ . وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٤) ص ٤١٩ .

مكشوفة على الرغم من حيطتها . وفي الخامس عشر من آذار ، وكانت ثلاثة ايام قد انقضت على احتلال النازيين لتشيكوسلوفاكيا ، اقترحت الحكومة السوفياتية كما رأينا من قبل عقد مؤتمر سداسي لبحث الوسائل الرامية إلى منع العدوان في المستقبل ، فرفض تشمبرلين الاقتراح على اعتبار أنه « سابق لأوانه » [١] . وكان الرفض البريطاني في الثامن عشر من آذار . ولم يمض يومان حتى صدر بلاغ رسمي في موسكو ، حمل السفير الألماني فيها على المسارعة إلى الابراق به إلى برلين فقد نفى البلاغ أن يكون الاتحاد السوفياتي قد عرض على بولندة ورومانيا مساعدتهما « في حالة تعرضهما كفريستين للعدوان » وشرح البلاغ قائلاً « إن بولندة ورومانيا لم تتقدما الى الحكومة السوفياتية بأي طلب لمعونتها كما لم تبلغاها بوجود أي خطر يهددهما » [٢] .

وليس ثمة من شك في أن ضمانة « الطرف الواحد » التي أصدرتها الحكومة البريطانية لبولندة في الواحد والثلاثين من آذار قد ساعدت على إقناع ستالين بأن بريطانيا العظمى ، تؤثر التحالف مع البولنديين على التحالف مع الروس وأن تشمبرلين عازم كما يبدو ، وكما كان في ايام ميونيخ على إبقاء الاتحاد السوفياتي بعيداً عن مجموعة الدول الاوروبية [٣] .

وراح الالمان والايطاليون يلمحون في هذا الوضع بعض الفرص المواتية . وكان غورنغ الذي بات يتمتع الآن بنفوذ ضخم عند هتلر في الشؤون الخارجية

---

١ ـ قال اللوردهاليفاكس في محاولته ان يوضح للسفير السوفياتي في لندن، ايفان مايسكي ، في التاسع عشر من آذار ، الاسباب التي تدعو بريطانيا إلى اعتبار الاقتراح الروسي بعقد المؤتمر السداسي في بوخارست «أمراً غير مقبول»، بان بريطانيا لا تستطيع ان تستغني في تلك اللحظة عن أي من وزرائها للاشتراك في مؤتمر بوخارست . ومن الواضح ان هذا التفسير الفظ قد اثار حفيظة الروس وحملهم حقداً في المفاوضات المقبلة مع البريطانيين والفرنسيين . ولقد ذكر مايسكي فيما بعد لروبرت بوثبي العضو المحافظ في مجلس العموم ان رفض الاقتراح الروسي «ضربة قاصمة أخرى لسياسة الأمن الجماعي الفعالة » وانه قرر مصير لتفينوف (بوثبي ـ احارب لأعيش . ص ١٨٩ ووثائق وزارة الخارجية البريطانية (٤) رقم ٣٣ ؛ .

٢ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ٨٨ - ٨٩ .

٣ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ١٣٩ .

قد قابل موسوليني في رومة في السادس عشر من نيسان ولفت انتباه الدوتشي الى خطاب ستالين الاخير الذي وجهه الى مؤتمر الحزب الشيوعي. ولقد اثر عليه قول الديكتاتور الشيوعي « بأن الروس لن يسمحوا باستخدامهم حشيَّة مدافع للدول الاستعمارية » . واضاف « أنه سيسأل الفوهرر عما إذا لم يكن من الممكن بالنسبة اليه أن يجسّ نبض روسيا بمنتهى الحيطة والحذر ... هادفاً إلى شيء من التقارب » ، وراح يذكر موسوليني بأنه « لم يرد أي ذكـــر مطلقاً لروسيا في خطب الفوهرر الاخيرة » . وتروي المذكرة الألمانية السرية عن الاجتماع ان الدوتشي رحب ترحيباً حاراً بفكرة التقارب بين دول المحور وبـــين الاتحاد السوفياتي ، ويبدو ان الديكتاتور الايطالي قد لمس ايضـــاً تبدلاً في موقف موسكو ، ورأى ان عملية التقارب « يمكن ان تتم بسهولة نسبية » .

وقال موسوليني : « سيكون الهدف اقناع روسيا باتخـــاذ موقف الفتور والبرود من محاولات بريطانيا القيام بأعمال التطويق على ضوء الخطوط التي وردت في خطاب ستالين، يضاف إلى هذا أن دولتي المحور في نضالهما العقائدي ضد البلوتوقراطية والرأسمالية تقفان الى حد ما هادفتين الى نفس الاهداف التي يتطلع اليها النظام السوفياتي[1] » .

ولا ريب في أن هـذا التحول كان جذرياً بالنسبة الى سياسة المحور ، وليس ثمة من شك في ان تشمبرلين كان لا بد وان يدهش منـــه لو عرف به آنذاك . وليس من شك في ان لتفينوف ايضاً كان لا بد وان يدهش منه .

واستقبل وزير الخارجية السوفياتية في نفس اليوم الذي دار فيه هذا الحديث بين غورنغ وموسوليني أي في السادس عشر من نيسان سفير بريطانيا في موسكو وقدم اليه اقتراحاً رسمياً بعقد ميثاق ثلاثي للمساعدة المتبادلة يشمل بريطانيـــا وفرنسا والاتحاد السوفياتي . وانطوى الاقتراح على عقد حلف عسكري بـين الدول الثلاث لتنفيذ الميثاق ، مع تقديم ضمان من الدول الموقعة عليـه ، تشترك فيه بولندة اذا أرادت ، الى جميع الدول في الأوروبتين الوسطى والشرقيـة ، التي تشعر بأنها مهددة من جانب المانيا النازية . وكان هذا الاقتراح آخر محاولة

---

١ - المذكرة الالمانية عن الاجتماع-وثائق وزارة الخارجية الالمانية(٦)ص ٢٥٩-٢٦٠ .

من جانب لتفينوف لعقـــد حلف ضـد الرايخ الثالث ، ولا ريب في أن وزير الخارجية الروسية الذي كان قد قامر بمستقبله السياسي على سياسـة وقف هتلر بعمل جماعي ، لا بـد وان يكون قد ظن أخيراً بأنه لا بـد ناجح في توحيـد الديموقراطيتين الغربيتين مع الاتحاد السوفياتي لهذه الغاية . وكان تشرشل قد ذكر في خطاب ألقاه في الرابع من ايار محتجاً على التأخـر في قبول الاقتراح السوفياتي في لندن،بأن « ليست هناك وسيلة للحفاظ على جبهة في الشرق ضد العدوان النازي دون العون الفعلي من جانب روسيا ». واضاف أن ليست هناك دولة في أُوروبا الشرقية ، حتى ولا بولندة بالتأكيـد ، تملك القوة العسكرية اللازمة للحفاظ على جبهة قوية في تلك المنطقة . ومع ذلك فقـد لقي الاقتراح السوفياتي شيئاً من التجهم من جانب لندن وباريس .

ولكن ، حتى قبل صدور هذا الرفض قام ستالين بأول محاولة جدية من جانبه لمنازلة الجانب الآخر . فلقد زار السفير السوفياتي في برلين في السابع عشر من نيسان أي في اليوم الذي تلا العرض الشامل الذي قدمه لتفينوف الى السفير البريطاني في موسكو،بزيارة وايز ساكر في وزارة الخارجية الألمـانية . وقد دوّن وزير الدولة في مذكرة رسمية، ان هذه الزيارة كانت الأولى التي قام بها ميريكالوف له منذ توليه منصبه هذا قبل نحو من عام . وبعد محادثات تمهيدية عن العلاقات الاقتصادية بين المانيا وروسيا تحوّل السفير الى السياسة فقـال كما روى وايز ساكر :

«لقد سألني بصورة صريحه عما أراه بصدد العلاقات الألمانية ـ الروسية، وكان حديث السفير على النحو التالي: لقد سارت السياسة الروسية دائماً في خط واضح مستقيم . فلم تكن للخلافات العقائدية أي تأثير سيىء على العلاقات بين روسيا وايطاليا ، ولذا فليس ثمـة من حاجة الى ان تثير هذه الخلافات المشاكل مع المانيا .ولم تستغل روسيا النزاع الحالي القائم بين المانيا والديموقراطيات الغربيـة ضدنا كما لم ترغب في استغلاله. أما بالنسبة الى روسيا فليس ثمة من داعٍ

يدعوها إلى عدم العيش على نطاق العلاقات العادية معنا ، ولا ريب في أن هذه العلاقات العادية يمكن أن تنمو بصورة متزايدة إلى علاقات افضل .

« وقد انهى المسيو ميريكالوف حديثه بهذه الملاحظة التي كان يوجه الكلام نحوها . ثم اضاف انه يعتزم زيارة موسكو بعد يوم او يومين » [١] .

ويبدو أن شيئاً ما كان يجري إعداده الآن في العاصمة الروسية التي عاد اليها السفير السوفياتي .

وقد بان هذا الشيء في الثالث من ايار . فلقد ظهر في ذلك اليوم في الصفحة الاخيرة من الصحف السوفياتية ، وبشكل مغمور، في العمود الذي يحمل عنوان «الاخبار باختصار» النبأ الصغير التالي: « أُعفي المسيو لتفينوف قوميسار الشؤون الخارجية من منصبه بناء على طلبه » . وقد خلفه فياشيسلاف مولوتوف رئيس مجلس قوميساري الشعب (رئيس الوزراء) .

وراح القائم بالأعمال الألماني في موسكو ينقل النبأ الى برلين في اليوم التالي على النحو الآتي :

« لقد اثار التبدل المفاجىء دهشة كبيرة هنا ، اذ كان لتفينوف في خضم المفاوضات مع الوفد البريطاني ، وكان قد بدا قريباً جداً من ستالين في استعراض الاول من ايار ...

« ولما كان لتفينوف قد استقبل السفير البريطاني، في الثاني من ايار ، وكان اسمه قد ورد في الصحف أمس على أنه كان ضيف الشرف في الاستعراض ، فإن اخراجه من منصبه يبدو وكأنه نتيجة قرار ذاتي من ستالين...وكان ستالين في مؤتمر الحزب الاخير قد حذر من جرّ الإتحاد السوفياتي الى ميدان الصراع ، أما مولوتوف ، وهو غير يهودي ، فمعروف بأنه « أقرب أصدقاء

١ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ٢٦٦ ـ ٢٦٧ .

ستالين الى فؤاده ، واكثر القادة السوفيات تعاوناً معه» . ولا ريب في أن القصد من تعيينه واضح ، وهو ايجاد ضمان بأن السياسة الخارجية ستسير وفقاً لخطوط يضعها ستالين نفسه » [١] .

واتضحت اهمية تنحية لتفينوف المفاجئة للجميع . فقد عنت تحولاً عنيفاً وحاداً في سياسة السوفيات الخارجية . اذ كان هذا الرجل المدافع الاكبر عن سياسة الأمن الجماعي وتقوية سلطان عصبة الأمم ، والبحث عن أمن روسيا وسلامتها من خطر المانيا النازية عن طريق التحالف العسكري مع بريطانيا العظمى وفرنسا . وكان تردد تشمبرلين في عقد مثل هذا التحالف ضربة قاضية للوزير الروسي . وقضى ستالين ، وقضاؤه هو المبرم في موسكو ، ان سياسات لتفينوف قد منيت بالفشل. يضاف الى هذا ان هذه السياسات قد تدفع بالاتحاد السوفياتي الى حرب مع المانيا ، تقف فيها الديموقراطيتان الغربيتان موقف المتفرج . وقرر ستالين ان الوقت قد حان لتجربة اتجاه جديد . [٢] واذا كان تشمبرلين قد أرضى هتلر في الماضي فلماذا لا يرضيه الديكتاتور الروسي الآن ؟ ولا ريب في ان الحقيقة الواقعة وهي ان لتفينوف اليهودي قد استبدل بمولوتوف ، وهو غير يهودي كما تؤكد السفارة الالمانية في موسكو في

١ – وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ٤١٩ – ٤٢٠ .

٢ – إذ شئنا ان نصدق،على الرغم من حذرنا ، اليوميات المطبوعة التي اصدرها لتفينوف ، تبين لنا ان ستالين كان يفكر في مثل هذا التبدل في السياسة منذ مؤتمر ميونيخ الذي استبعد الاتحاد السوفياتي منه . وتقول هذه اليوميات ان ستالين قال للتفينوف حوالي نهاية عام ١٩٣٨ ... « اننا على استعداد للاتفاق مع الالمان ... ولجعل بولندة غير قادرة على الأذى ». ودون وزير الخارجية في شهر كانون الثاني قائلاً :«يبدو لي انهم قرروا تنحيتي من منصبي».وكشف النقاب في نفس اليومية عن ان ستالين قد طلب ان تمر عليه جميع اتصالات الوزير بالسفير الروسي في برلين، واضاف ان السفير ميريكالوف ، على وشك ان يبدأ المفاوضات مع وايزساكر تنفيذاً لتعليمات ستالين ، لابلاغ هتلر عملياً «ان في وسعنا الآن ان نصل الى اتفاق معه، بعد ان كان هذا مستحيلاً في الماضي » . وهناك شكوك كثيرة تحيط بهذه اليوميات . ويقول البروفسور ادوارد هاليتكار، وهو حجة بريطاني في شؤون الاتحاد السوفياتي ، بعد ان درس اليوميات ، ان مما لا شك فيه انها تعرضت لبعض التحريف الى الحد الذي يظهر بعض اجزائها بمظهر « الاساطير والاقاصيص الكاذبة » . الا ان قسماً كبيراً منها يمثل وجهات نظر لتفينوف .

برقيتها الى برلين ، تترك انطباعاً معيناً في الدوائر النازية العليا .

وأراد الروس ان يتأكدوا من ان الألمان قد فهموا مغزى التبدّل واهميته ، فراح جيورجي استاخوف ، القائم بالأعمال الروسي في برلين يثير الموضوع في الخامس من ايار عندما تحدث إلى الدكتور جوليوس شنوري ، خبير وزارة الخارجية الألمانية في الشؤون الاقتصادية لأوروبا الشرقية . وقال شنوري في تقريره عن المقابلة :

« وتحدث استاخوف عن تنحية لتفينوف وحاول أن يعرف ما اذا كان هذا الحادث سيؤدي الى تبدل في موقفنا من الاتحاد السوفياتي . وراح يؤكد الأهمية الكبرى لشخصية مولوتوف،الذي لم يكن خبيراً في السياسة الخارجية ، ولكنه سيلعب دوراً اكثر أهمية في السياسة الخارجية المقبلة [١] » .

وحث القائم بالاعمال الألمان على استئناف المفاوضات التجارية التي كانت قد انقطعت في شهر شباط الماضي .

ولم ترد الحكومة البريطانية على الاقتراح السوفياتي الذي وجه اليها في السادس عشر من نيسان حول موضوع الحلف ، الا في الثامن من آذار ، وكان الرد ، منطوياً على الرفض ، وادى الى تعزيز الشكوك في موسكو في أن تشمبرلين لا يرغب في عقد ميثاق عسكري مع روسيا لمنع هتلر من الاستيلاء على بولندة .

ولم يكن من المستغرب بعد هذا الرفض ان يشدد الروس في تقربهم من الألمان ، وعاد استاخوف في السابع عشر من ايار إلى مقابلة شنوري في وزارة الخارجية الألمانية وبعد ان تحدث في القضايا التجارية ،راح يعالج القضايا الكبرى وذكر شنوري في تقريره عن المقابلة ما نصه :

« قال استاخوف أن ليس ثمة من مجال للاصطدام في السياسة الخارجية بين المانيا والاتحاد السوفياتي ،ولذا فليس ثمة من داعٍ الى

١ – وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ٤٢٩ .

العداء بينهما . واضاف ان من الواضح أن الشعور يسود الاتحـــاد السوفياتي ، من انه مهدد من المانيا ، ولا ريب في ان من الممكن إزالة هذا الشعور من التهديد وعدم الثقة في موسكو .... وقـال رداً على سؤال عارض من جانبي أن المفاوضات بين انكلترا والاتحاد السوفياتي ، لا تبشر بامكان النجاح بالنسبة الى موقفها الحالي [١] » .

ودار حديث طويل بعد ثلاثة أيام بين السفير فون دير شولنبرغ وبـــين مولوتوف في موسكو . وكان وزير الخارجية السوفياتيـــة الجديد في « موقف ودود للغاية » ، وابلغ المبعوث الألماني أن في الامكان استئناف المفاوضات بـين البلدين إذا أمكن الوصول إلى الأسس السياسية اللازمة لهـا . ولقد كانت هذه البادرة حديثة عهد من الكرملن ولكنها تمت بمنتهى الحذر من جانب مولوتوف المتناهي في المكر والدهاء . وعندما سأله شولنبرغ عما يعنيه «بالأسس السياسية» رد الوزير الروسي بأن هذا المفهوم أمر يتطلب التفكير من الفريقين . وراحت جميع المحاولات التي بذلها السفير ، لاستخلاص المعاني من الوزير الداهيـة عبثاً . وبعث شولنبرغ إلى برلين يقول : « ومن المعروف عن مولوتوف انـــه رجل عنيد » . ومر السفير في طريق خروجه من وزارة الخارجية بفلاديمير بتومكين نائب مولوتوف وقال له انه لم يستطع ان يفهم ما يريده الوزير من امور ذات طابع سياسي . واضاف شولنبرغ في تقريره ... « لقد سألت الهر بتومكين ، أملاً في أن « أجد ما يريده مولوتوف [٢] » .

ولم تفت الاتصالات المتجددة بين برلين وموسكو ، انتباه السفير الفرنسي في العاصمة الألمانية . وبعث المسيو كولوندر في السابع من أيار ، أي بعد أربعة ايام فقط من تنحية لتفينوف بتقرير إلى وزير خارجيته يقول فيه ان المعلومات الموثوقة التي تلقاها ، من شخص قريب من الفوهرر تفيد أن المانيـــا تسعى إلى التفاهم مع روسيا وان هذا التفاهم سيؤدي إلى اشياء كثيرة منها تقسيم بولنـــدة

١ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ٥٣٥ - ٥٣٦ .

٢ – العلاقات النازية ـ السوفياتية (١٩٣٩ – ١٩٤١) ص ٥ ، ٧ ، ٨ ، ٩ .

للمرة الرابعة . وراح السفير بعد يومين يرسل برقية ثانية إلى باريس يذكر فيها ان الشائعات تنتشر في برلين « بأن المانيا قد قدمت أو على وشك ان تقدم إلى روسيا اقتراحات تهدف إلى تقسيم بولندة [1] ».

ميثـــاق الفولاذ

أخذ هتلر يضغط الآن لعقد حلف عسكري مع ايطاليا ، على الرغم من ان كبـــار قادة القوات المسلحة الالمانية لا ينظرون نظرة طيبة إلى قوة ايطاليـا العسكرية ، ولكن موسوليني لم يكن على عجلة من امره في قبول عقد هـــذا الحلف . وبدأت المحادثات العسكرية بـــين اركان حرب القيادتين في نيسان ، ونقل كايتل الى القيادة العامة للقوات المسلحة « انطباعه » بأن القوات الايطالية المقاتلة والتسلح الايطالي ، ليسا في وضع طيب . واضاف ان نتيجة الحرب يجب أن تقرر بسرعة ، وإلا فإن ايطاليا ستضطر إلى الخروج منها [2] .

وتظهر يوميات شيانو أنه أصيب بالفزع في منتصف شهر نيسان [3] ، مـن الدلائل المتزايدة على ان المانيا قد تهاجم بولندة في اية لحظة ، وتثير حربـــاً اوروبية لم تكن ايطاليا مستعدة لخوضها . وعندما ابرق اتوليكو السفير الايطالي في برلين الى رومة في العشرين من نيسان يقول ان العمل الالماني ضد بولندا اصبح « قريباً » راح شيانو يحثه على الاستعجال في إعداد الترتيبات لعقد اجتماع مـع ريبنتروب حتى لا تفاجأ ايطاليا بالتطورات .

واجتمع وزير الخارجيـــة في ميلان في السادس من ايار . ووصل شيانو إلى الاجتماع يحمل تعليمات خطية من موسوليني يؤكد فيها للألمان ان ايطاليا راغبة في تجنب الحرب مدة سنوات ثلاث على الأقل . ودهش الوزير الايطالي عندمـا

---

١ ــ الكتاب الفرنسي الاصفر ـ البرقيتان رقم ١٢٣ و ١٢٥.
٢ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ١ – ١١١ الملحق ١.
٣ — يوميات شيانو ص ٦٧ ـ ٦٨ .

اعلن ريبنتروب أن المانيا تود أيضاً الابقاء على السلام مثل هذه المدة . كذلك وقد وجد شيانو زميله الالماني « لأول مرة ، في حالة نفسية وعقلية هادئة » . وراح الوزيران يعرضان الموقف الاوروبي واتفقا على تحسين علاقـــات المحور بالاتحاد السوفياتي ثم افترقا ليستعدا لحضور حفلة تنكرية راقصة في المساء .

وعندما هتف موسوليني بعد الحفلة إلى وزيره يسأله عن سير المحادثات ، رد هذا بأنها سارت سيراً مرضياً ، وسرعان ما أُصيب الدوتشي بنوبة عصبية مباغتة ، فطلب إلى صهره أن يصدر بلاغاً إلى الصحافة يقول فيه أن المانيـــا وايطاليا اتفقتا على عقد حلف عسكري . وتردد ريبنتروب في بداية الأمر ، ثم وافق اخيراً على أن يسأل الفوهرر في الموضوع ،فلما سأل هتلر هاتفياً راح يوافق بسرعة على اقتراح موسوليني [1] .

وهكذا ربط موسوليني نفسه بصورة لا تقبل الفصم ، بمصير هتلر نتيجـــة حافز فجائي وبعد نحو سنة طويلة من التردد.وكانت هذه الخطوة الاشارة الأولى إلى أن الديكتاتور الايطالي مثل زميله الالماني بدأ يفقد تلك الارادة الحديدية من ضبط النفس ، التي مكنتها حتى تلك السنة ١٩٣٩، من صيانة مصالحها القومية بشيء من الوضوح المتأني. وسرعان ما أثبتت النتائج أنها كانت مفجعة بالنسبة الى موسوليني .

وقد وقع « الميثاق الفولاذي » ، وهو الاسم الذي عرف بـــه ، في حفل اتصف بالابهة ومظاهر العظمة في دار مستشارية الرايخ في برلـــين في الثاني والعشرين من ايار . وقدم شيانو الى ريبنتروب قلادة «انونزياتا» ، مما اثار حنق غورنغ ، ودفع بالدموع الى عينيه . وبالفعل اثار المشير مشكلة، فقد احتج بأنه صاحب الحق في القلادة المهداة ، إذ أنه الرجل الذي عمل فعلاً لتحقيق الحلف .

وروى شيانو في يومياته ... « ووعدت ماكنزن ، سفير المانيا في رومة بأن احاول الحصول على قلادة لغورنغ . »

---

١ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ٥٠٤ ـ ٥٢ ؛ أوراق شيانو الدبلوماتية ص ٢٨٢ ـ ٢٨٧

ووجد شيانو هتلر « في اتم صحة وعافية ، واضح الهدوء . وقليل الاستفزاز » ، وان بدا على حد تعبير الوزير الايطالي ، اكبر سناً وتملأ التجاعيد وجنتيه ، نتيجة الارق [1] . وكانت علائم الانشراح تبدو على وجه الفوهرر وهو يشهد وزيري الخارجية يوقعان الوثيقة .

وكانت عبارات الوثيقة واضحة كل الوضوح كحلف عسكري . وكانت طبيعتها الاستفزازية قد تجسدت في عبارة وردت في المقدمة ، واصرّ هتلر على ادراجها ، معلقة ان البلدين « متحدان في وشائج اصيلة من العقائد المشتركة » . وعازمان على العمل جنباً الى جنب وباستخدام قواهما المسلحة لضمان مجالهما الحيوي . أما زبدة المعاهدة فقد تمثلت في الفقرة الثالثة ... التي تقول :

« وإذا حدث خلافاً لرغبات الفريقين الساميين المتعاقدين وآمالها ، ان تورط احدهما في تعقيدات عسكرية مع دولة أُخرى او مجموعة دول ، فإن الفريق الثاني السامي يسارع فوراً إلى مساعدته كحليف ، ويقدم له كل ما لديه من قوات في البر والبحر والهواء » .

ونصت المادة الخامسة من الميثاق ، على عدم السماح لأي من الفريقين المتعاقدين في حالة الحرب بعقد صلح أو هدنة على انفراد [2] .

ولكن موسوليني ، كما ظهر فيما بعد لم يحافظ على الفقرة الأولى كما أن ايطاليا لم تكن صادقة في التزام الفقرة الأخيرة في النهاية .

---

١ – في يوميات شيانو للثاني والعشرين من ايار الكثير من النتف عن هتلر وحاشيته الغريبة. فقد ذكر الوزير الايطالي ان السيدة غوبلز تذمرت من الفوهرر يحمل اصدقاءه على البقاء ساهرين طيلة الليل وقالت : « ان هتلر هو المتحدث دائماً.وهو يعود ويكرر ما يقوله مضايقاً ضيوفه .» وسمع شيانو كذلك تلميحات عن مشاعر الفوهرر الرقيقة تجاه فتاة جميلة . انها في العشرين من عمرها.ولها عينان وديعتان جميلتان،وتقاطيع منتظمة وجسم رائع واسمها سيغريد فون لاباس . واضاف ان هتلر يلتقي بها كثيراً وله صلة وثيقة بها . (يوميات شيانو ص ٨٥) . ويبدو ان شيانو نفسه ، وهو شديدالولع بالسيدات قد تعرض أيضاًلاغراءشديد . ومنالواضح انه لم يكن قد سمع بعد بايفا براون عشيقة هتلر . التي لم يكن يسمح لها في هذا الوقت بالمجيء إلى برلين .

٢ – وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ٥٦١ – ٥٦٤ .

هتلر يحرق مراكبه : ٢٣ ايار ١٩٣٩

وفي الثالث والعشرين من ايارأي بعد يوم واحد من توقيع «ميثاق الفولاذ» استدعى هتلر قادته العسكريين إلىمكتبه في دار المستشارية في برلين،وابلغهم بصورة صريحة انه لم يعد في الامكان الحصول على مكاسب جديدة دون الحاجة إلى سفك الدماء ، وان الحرب باتت والحالة هذه أمراً لا مناص منه .

وقد ضم اجتماع اليوم عدداً اكبر من الاجتماع المماثل السابق الذي عقد في الخامس من تشرين الثاني عام ١٩٣٧،عندما أسرّ الفوهرر لأول مرة بقرارهفي المضي إلى الحرب الى قادة الفروع الثلاثة من قواته المسلحة . فقد حضر اجتماع اليوم نحو من اربعة عشر قائداً بينهم المشير غورنغ والاميرال الاكبر رايدر ، والفريق فون براوخيتش والفريق هولدر والفريق كايتل والفريق ايرهارد ميلش المفتش العام للسلاح الجوي والرير اميرال اوتوشنيويند رئيس هيئة اركان حرب البحرية،وحضر الاجتماع ايضاً مستشار هتلر العسكري المقدم رودلف شموندت ولعل من حسن حظ التاريخ انه دوّن وقائع الاجتماع ، وكان ما دونه بين الوثائق الألمانية المصادرة . ويبدو أن اقوال هتلر في هذا الاجتماع ، اعتبرت متناهية في السرية ، بحيث لم تعد نسخ عن الوقائع التي دونها شموندت ، والتي حفظت لنا بخط يده [١] .

وتعتبر هذه الوثيقة من أهم الأوراق السرية التي تلقي ضوءاً على اتجاه هتلر في الطريق إلى الحرب.وهنا وفي هذا الاجتماع الذي ضم نخبة من الرجال الذين تقع على عاتقهم مسؤولية الحقيقة ، عن الأسباب التي تحمله على مهاجمة بولندة ، وعلى احتلال بريطانيا العظمى وفرنسا إذا اقتضت الضرورة . وأخذ يتكهن بشيء من الدقة عن الصورة التي ستسير الحرب فيها في سنتها الأولى على الأقل. ومع ذلك فإن خطابه على الرغم من صراحته ـ وكان هو المتحدث معظم

---

١ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٧)ص ٨٤٧ ـ ٨٥٤. وثائق وزارة الخارجية الالمانية(٦) ص ٥٧٤ ـ ٥٨٠ محاكمات كبار مجرمي الحرب (٣٧) ص٥٤٦ ـ ٥٥٦ .

الوقت ـ يحسر النقاب ، عن الكثير من الشكوك واضطراب الفكر ، اكثر من أي شيء آخر صدر عنه حتى هذه اللحظة . فالبريطانيون ما زالوا يحاولون إقامة العراقيل في طريقه ، وهو ما دأبوا عليه حتى نهاية حياته .

ولكنه كان دقيقاً وواضحاً في موضوع وقوع الحرب واهدافه من شنها ، ولم يكن من الممكن ان يغادر أي قائد عسكري أو اميرال دار المستشارية في ذلك اليوم ، الثالث والعشرين من ايار دون أن يعرف بالضبط ، ما سيحدث في ذلك الصيف . وقد بيّن هتلر للمجتمعين أن السبيل الوحيد لحل مشاكل المانيا الإقتصادية هو في الحصول على مزيد من المجال الحيوي لها في اوروبا ، ومثل هذا « مستحيل دون غزو بلاد أخرى ، أو مهاجمة ممتلكات شعوب ثانية » ... ومضى يقول :

«ولم يعد في الامكان تحقيق مكاسب جديدة دون سفك دماء..

« وليست دانزيغ موضع خلاف على الاطلاق . فالقضية تتعلق بتوسيع مجالنا الحيوي في الشرق ، وتأمين ما نحتاج اليه من مواد غذائية ، وحل مشكلة دول البلطيق .... وليس ثمة امكانية أخرى في أوروبا . وإذا ما ختم علينا القدر ان ندخل في صراع مع الغرب ، فان مما يفيدنا أكبر فائدة ان تكون لنا ممتلكات واسعة في الشرق . ولن يكون في وسعنا أن نركن في أيام الحرب إلى الأرقام القياسية عن الحصاد ، لا سيا وان من المستحيل الاعتماد عليها زمن السلم » .

واضاف هتلر ، ان هناك فائدة أخرى ، وهي أن في إمكاننا استخدام سكان المناطق اللا ألمانية في الشرق كمصدر لتوفير اليد العاملة ، وكانت إشارته هذه تلميحاً مبكراً إلى برامج العمل الالزامي التي نفذها فيما بعد .

وكان الواضح انه اختار الضحية الأولى ...

«فليس هناك مجال لتوفير بولندة .. وقد اصبحنا نواجه قراراً واحداً لا ثاني له وهو أن نهاجم بولندة في أول فرصة ممكنة . فلا

يمكن ان نتوقع تكراراً لما حدث في تشيكوسلوفاكيا . اذن فالحرب ناشبة . وعلينا ان نعزل بولندة ، ونجاحنا في هـذا العزل شيء حاسم » .

وهكذا قرر هتلر خوض الحرب ولكن اتكون مع بولنـــدة « المعزولة » وحدها . ان الفوهرر لا يوضح نواياه في هذا الصدد . بل هو على النقيض من ذلك مشوش وكثير التناقض . وهو يحتفظ لنفسه كما يقول ، بالأمر الأخـير في توجيه الضربة ... فهو يقول :

« ويجب أن لا تؤدي هذه الحركة إلى معركة متزامنة مع الغرب أي مع فرنسا وانكلترا .

« وليس من الثابت ان الصراع الألماني ـ البولندي لن يؤدي إلى الحرب مع الغرب، وفي هذه الحالة يجب أن يتجه القتال بصورة اولية ضد انكلترا وفرنسا .

« وعلى هذا فمن الامور الجوهرية ان الصراع مع بولندة ، الذي سيبدأ بهجوم على بولندة ، لن ينجح الا اذا ظل الغرب بعيداً عنه .

« وإذا تعذر هذا ، فمن الأفضل أن يقع الهجـــوم على الغرب وان يصفّى أمر بولندة في وقت واحد» .

وليس ثمة من شك في أن الفرقاء «الجنرالات » قد انقبضت نفوسهم من هذه التناقضات السريعة ، ولا ريب ايضاً في أنهم أرخوا « مونوكلاتهم » على انوفهم على الرغم من أن سجل شموندت عن الاجتماع لم يرد حدوث أي شيء من هذا النوع ، أو أن أي فرد من الصفوة المختارة من المجتمعين قد جرؤ على توجيـــه سؤال لوضع الامور في نصابها الصحيح .

وعاد هتلر يتحدث عن روسيا، فقال « ان ليس من المستبعد ان تفقد روسيا أي اهتمام لها بتهشيم بولندة » . أما إذا تحالف الاتحاد السوفياتي من الناحية الأخرى مع بريطانيا وفرنسا،فان هذا التحالف « سيحملني على مهاجمة انكلترا وفرنسا بضربات ساحقة قليلة » ، وهذا يعني أن تقع المانيا في نفس الخطأ الذي

وقع فيه غليوم الثاني في عام ١٩١٤ . ولكن على الرغم من أن هتلر قد أفاد من دروس الحرب الكونية الأولى من عدة نواح ، إلا انه لم يستخلص هذه العبرة مطلقاً . وعادت أفكاره تتجه إلى بريطانيا العظمى ..

« إن الفوهرر يشك في امكان الوصول إلى تسوية سلمية مع انكلترا ، ومن الضروري أن نتأهب للمعركة . وترى انكلترا في نمو بلادنا قيام قوة منسجمة تضعف من قوتها . فهذه هي عدوتنا ، والصراع معها ، قضية موت أو حياة .

« ولكن ترى ما شكل هذا الصراع ؟

« إن انكلترا عاجزة عن سحقنا بعد ضربات قاضية وارغامنا على الاستسلام . ولعل من الأهمية بمكان عظيم بالنسبة الى انكلترا ، ان نحمل الحرب الى اقرب مكان من حوض الروهر . وبالطبع لن نوفر الدم الفرنسي .... ثم الجدار الغربي !! ان مدة وجودنا وصمودنا تتوقف على الاستيلاء على الروهر » .

وبعد أن قرر إتباع أخطاء القيصر في ناحية واحدة على الأقل وهي مهاجمة انكلترا وفرنسا في حالة وقوفها إلى جانب روسيا ، أعلن هتلر انه سيحذو حذو الامبراطور في موضوع آخر ثبت ان له نتائج مفجعة بالنسبة الى المانيا :

« من الواجب احتلال القواعد الجوية في هولندة وبلجيكا عسكرياً. وفي مكنتنا أن نتجاهل ما يصدر من بيانات عن الحياد فإذا ارادت انكلترا ان تتدخل في الحرب البولندية ، فعلينا ان نقوم بهجوم خاطف كالبرق على هولندة . وعلينا ان نعمل لاقامة خط دفاعي جديد على الارض الهولندية يمتد حتى خليج زويدرزي فالحرب مع انكلترا وفرنسا ، هي حرب حياة أو موت .

« والقول بأن في وسعنا أن نفوز بثمن بخس فكرة خطرة ، فليس هناك احتمال من هذا النوع . وعلينا في هذه الحالة ان نحرق مراكبنا إذ لم تعد القضية موضوع خطأ أو صواب ، بل موضوع

وجود أو لا وجود لنحو من ثمانين مليوناً من الناس » .

وعلى الرغم من انه اعلن قبل قليل بأن المانيا ستهاجم بولندة « في اول فرصة مواتية ممكنة وعلى الرغم من أن سامعيه كانوا يعرفون بأن القسم الاكبر من قوة المانيا العسكرية قد تركز على ذلك الهدف ، إلا أن هتلر وهو يرغي ويزبد ، كان عاجزاً عن ابعاد أفكاره عن بريطانيا العظمى .

وراح يقول مؤكداً : « ان انكلترا هي القوة المحركة ضد المانيا » . ثم أخذ يشرح ما فيها من مظاهر قوة وضعف فقال :

«والبريطاني إنسان متعجرف وشجاع، وصلب، وثابت على مواقفه، ومنظم من الطراز الاول . فهو يعرف خير معرفة كيفية استخدام كل تطور جديد . وهو مولع بالمغامرة ، كما يتميز ببسالة عنصر أهل الشمال . .

« وانكلترا دولة عالمية في حد ذاتها . لقد ظلت محافظة على مركزها ثلاثمائة عام، وهي تتقوى عن طريق الاحلاف التي تعقدها . وعلينا أن لا نعتبر هذه القوة مجرد شيء محدود بل علينا أن نعتبرها قوة بسيكولوجية تشمل العالم بأسره .

« وعلينا أن نضيف إلى ذلك ما تتميز به من ثراء لا حدود له، وما يصحب الثراء من تراخ وتكاسل .

« وعلينا أن نحسب ايضاً حساب ما يمكن لقوة بحرية عظمى وسلاح جوي باسل أن يضمناه من أمن سياسي جغرافي ، وحماية عسكرية » .

وراح هتلر يذكر سامعيه بأن لبريطانيا العظمى ايضاً ، مظاهر ضعفها ، ثم أخذ يعدد هذه المظاهر فقال :

« ولو كانت لدينا في الحرب الكونية بارجتان إضافيتان وطرادان آخران ، وبدأنا معركة جتلند في الصباح ، لكان في إمكاننا أن نهزم الاسطول البريطاني وأن نحمل انكلترا على الركوع

على ركبتيها ... [1] . فلقد كانت هذه المعركة تعني انتهاء الحرب الكونية ... وكان من الضروري في الماضي غزو انكلترا للتمكن من احتلالها . فلقد كان في وسعها أن تعتمد على نفسها في غذائها ، أما الآن فلم يعد هذا ممكناً » .

« ففي اللحظة التي تقع المؤن عنها الآن ، تغدو مرغمـــة على الاستسلام . وتعتمد مستوردات الوقود والمواد الغذائية فيها على الحماية البحرية اللازمة . « ولن يكون في مكنة غارات سلاحنا الجوي على انكلترا ، إرغامها على الاستسلام ، أمـــا إذا ازيل اسطولها البحري من الوجود، فإن استسلامها يصبح حتمياً. وليس ثمة من شك في أن هجوماً مفاجئاً قد يؤدي إلى قرار سريع ».

ولكن بماذا يكون الهجوم المفـــاجيء ؟ لا ريب ان الاميرال ريدر قد تصوّر وهو يستمع إلى هذا الحديث ، بأن هتلر قد جنّ . فطبقاً للخطة (ز) التي تم وضعها في نهاية عام ١٩٣٨ ، كان من المنتظر ان تبدأ القـــوة البحرية الألمانية في مضاهاة القوة البريطانية في عام ١٩٤٥ ، أما في تلك الآونة أي في ربيع عام ١٩٣٩ ، فلم تكن المانيا تملك السفن الحربية الثقيلة اللازمة لإغراق الاسطول البريطاني حتى في هجوم مباغت .

ولكن قد يكون في الامكان إرغام بريطانيا على الركوع بوسائل أُخرى. وهنا عاد هتلر إلى دنيا الواقع من جديد ، هابطاً من خيالاته ، وراح يخطط خطة سوقية (ستراتيجية) ، كان في إمكانها أن تقع بعد نحو من عام وان تؤدي إلى نجاح مدهش .. وراح يقول :

« علينا ان نستهدف توجيه ضربة قاصمة أو حاسمة نهائياً منذ البداية . وعلينا ان لا نأخذ في حساباتنـــا موضوع الشرعية أو اللا شرعية ولا موضوع المعاهدات والمواثيق. وسيكون هذا الوضع ممكناً عندما لا « تنزلق » إلى حرب مع انكلترا بسبب بولندة .

---

١ ـ لا شك في ان مفهوم هتلر عن معركة جتلند كان مفهوماً خاطئاً .

« ومن الواجب اتخاذ الأهبة لحرب طويلة ، ولهجوم مفاجىء ، كما يجب تحطيم أي تدخـل ممكن من جانب انـكلترا في القارة الأوروبية .

« وعلى الجيش أن يتولى احتلال المواقع المهمة لكل من الاسطول والسلاح الجوي . وإذا نجحنا في احتلال كل من هولندة وبلجيكا والاحتفاظ بهما وتمكنا من هزم فرنسا ، فإننا نكون قـــد خلقنا الاساس لحرب ناجحة ضد انكلترا .

« وفي وسع سلاحنـــا الجوي آنذاك ان يفرض حصاره على انكلترا من غرب فرنسا ، كما تقوم غواصاتنا بفرض حصار بحري اوسع شمولاً » .

هذه هي الخطوات التي قدر لها أن تتخذ بعد نحو اكثر من سنة واحدة . كما نفذت ايضاً خطة سوقية حاسمة تولى الفوهرر تأكيدها في الثالث والعشرين من ايار. فقد ذكر ان الجيش الالماني لو نفذ في مستهل الحرب الاخيرة حركة دولابية التفافية باتجاه موانىء القناة الانكليزية (المانش) بدلاً من الاتجاه نحو باريس ، لتغيرت النتيجة حتماً . وانا أقول أن مثل هذا الاحتمال كان ممكناً . لكنه على أي حال قرر أن يحاوله في عام ١٩٤٠ .

وانتهى هتلر قائلاً بعد أن نسي بولندة مؤقتاً على الاقـــل : « سيكون هدفنا دائماً ارغام انكلترة على الإذعان والركوع على ركبتيها » .

وكان هناك أمر اخير :

« فالسرية شرط اولي حاسم للنجاح . وعلينا أن نحتفظ بسرية اهدافنا حتى عن ايطاليا واليابان » .

وكان من المحتوم عدم الوثوق ثقة مطلقة حتى برئيس هيئة اركان حرب جيش هتلر وهو الفريق هولدر ، الذي كان يصغي إلى كل كلمة تقال ... وراح الفوهرر يقول : « علينا أن لا نترك أمر دراساتنا إلى هيئة اركان الحرب ، ففي مثل هذه الحالة لن يكون هناك تكتم او سرية » . وأصدر أمره بإنشاء هيئة

صغيرة من اركان الحرب في القيادة العامة للقوات المسلحة تتولى وضع الخطط العسكرية .

وهكذا احرق هتلر في الثالث والعشرين من ايار عام ١٩٣٩ مراكبه على حد تعبيره . فالحرب واقعة حتماً . والمانيا محتاجة إلى المجال الحيوي في الشرق . وللحصول على هذا المجال، يجب ان تهاجم بولندة في أقرب فرصة ممكنة. وليس لدانزيغ أية علاقة بالموضوع ، فليست إلا مجرد مبرر . وبريطانيا تقف في طريق المانيا ، وهي القوة المحركة في كل مناوأة لألمانيا . ومن الواجب احتلالها واحتلال فرنسا ايضاً ، فالصراع سيكون صراع حياة أو موت .

ويذكر القارىء ان المشير فون بلومبرغ والفريق فون فريتشه كانا قد أعلنا معارضتها عندما تحدث الفوهرر عن نواياه العدوانية إلى الرؤساء العسكريين في الخامس من تشرين الثاني عام ١٩٣٧ ، وكانت ذريعتها للاحتجاج على الأقل بأن المانيا اضعف من ان تستطيع خوض غمار حرب اوروبية ، وكان الفريق بيك قد استقال في الصيف التالي من وظيفته كرئيس لهيئة اركان الحرب لنفس السبب ايضاً . أما الآن وفي الثالث والعشرين من أيار عام ١٩٣٩ ، لم يرتفع صوت واحد لا من الفرقاء ولا من الاميرالات كما يظهر السجل ، معترضاً على حكمة الطريق الذي اختطه الفوهرر .

ولم تكن مهمتهم كما رأوا ، ان يناقشوا ، بل ان يطيعوا ، وان تكون طاعتهم عمياء. وكانوا قد شرعوا بالفعل في الافادة من مواهبهم الضخمة في اعداد الخطط للعدوان العسكري . وفي السابع من ايار، قدم العقيد غونتر بلومينتريت من هيئة اركان حرب الجيش الذي عمل بالتعاون مع الفريقين رونشتادت ومانشتاين ، تقديراً للموقف بالنسبة إلى « العملية البيضاء » وهي الخطة التي أعدت ، لاحتلال بولندة. وقد انطوت على الكثير من الخيال والجرأة والمغامرة ولم يدخل عليها فيما بعد إلا بعض التبدّلات الطفيفة [١] .

وجاء الاميرال ريدر بالخطط البحرية البيضاء في توجيه سري للغاية وقعه في

---

١ ــ محاكات كبار مجرمي الحرب . وثائق نورمبرغ ــ رقم ٢٥٨٤ .

السادس عشر من ايار [١]. ولما كانت بولندة لا تملك إلا بضعة أميال من الساحل على بحر البلطيق إلى الغرب من دانزيغ ، وليس في حوزتها إلا اسطول صغير ، فلم تكن الصعوبات المنتظرة ضخمة . وكانت فرنسا وبريطانيا هما أهم ما يقلق الاميرال . ولذا فقد قرر حماية مداخل البلطيق بالغواصات على ان تقوم بارجتا الجيب والبارجتان الأخريان باعداد العـــدة «للحرب في الاطلنطي ». وقضت تعاليم الفوهرر بأن يكون الاسطول على استعداد لتنفيذ الجزء المختص به من العملية البيضاء في الأول من ايلول ، ولكن ريدر حث قادتـه على الاسراع في الخطط ، إذ ان العمل العسكري قد يقع قبل هذا الموعد بسبب « التطورات السياسية الأخيرة » [٢] .

وعندما أقترب أيار عام ١٩٣٩ من نهايته ، كانت الخطط الألمانية للمضي إلى الحرب في نهاية الصيف تمضي على قدم وساق . وكانت عجلات مصانع التسلح تدور ، هادرة ومنتجة المدافع والدبابات والطائرات والسفن الحربية . ووصل اركان الحرب الاكفاء من رجال الجيش والبحرية والسلاح الجـــوي إلى المرحلة الاخيرة من التخطيط . وتضخمت القوات المسلحة بالرجال الجدد الذين استدعوا « للتدريبات الصيفية » . وطرب هتلر لما حققه من نجاح .

ولخص الفريق جورج توماس رئيس الدائرة الاقتصادية ودائرة التسلح في القيادة العامة للقوات المسلحة ما تم في اجتماع الثالث والعشرين من ايار ، بعـد يوم واحد من عقـده في محاضرة سرية ألقاها على موظفي وزارة الخارجية . وقال توماس ، انه بينما انقضى ستة عشر عاماً من ١٨٩٨ حتى ١٩١٤ ، حتى يرتفع عدد الجيش الالماني من ثلاث واربعين فرقة إلى الخمسين فرقة فإن جيش الرايخ الثالث قد قفز من سبع فرق إلى احـــدى وخمسين في اقل من اربع سنوات . واضاف ان هذه الفرق تضم خمساً مدرعة ثقيلة وأربعاً مدرعة خفيفة

---

١ – المؤامرة النازية والعدوان ( ) ص ٩٢٦ - ٩٢٧ .

٢ – محاكات كبار مجرمي الحرب.(٣٤)ص ٤٢٨ـ٤٤٢. المؤامرةالنازية والعدوان(٦) ص ٩٣٧ – ٩٣٨ .

وفرقة حديثة للفرسان لا مثيل لها عند أية دولة أُخرى. وتمكنت البحرية من أن تبني من العدم تقريباً اسطولاً يضم بارجتين حمولة الواحدة منهما (٢٦) الف طن[١]. وطرادين ثقيلين وسبع عشرة مدمرة وسبعاً واربعين غواصة. وكانت البحرية قد شرعت في بناء بارجتين حمولة الواحدة منهما خمسة وثلاثين الف طن وحاملة للطائرات واربعة طردات ثقيلة وخمس مدمرات وسبع غواصات ، وبدأت تعد لانزال سفن حربية أخرى . وتمكن السلاح الجوي الألماني من أن يخلق من العدم قوة تعد واحداً وعشرين سرباً قوامها (٢٦٠) الف رجل . واضاف الفريق توماس أن صناعة الاسلحة اخذت تنتج الآن ارقاماً تفوق ما وصلت اليه في ذروة الحرب الاخيرة . وأن هذا الانتاج يفوق في معظم الميادين انتـــاج اية بلاد اخرى . واعلن توماس ان مجموع انتاج التسلح الالماني فريد من نوعه في العالم .

وعلى ضوء هذه القوة العسكرية الضخمة التي توصلت اليها المانيا في مطلع صيف عام ١٩٣٩ ، اعتمد الفوز في الحرب التي كان هتلر يعد العدة لخوضها في مطلع الخريف على طراز هذه الحرب وشكلها . فلم تكن المانيا قد بلغت حداً من القوة يمكنها من ان تخوض الحرب مع فرنسا وبريطانيا وروسيا بالاضافة إلى بولندة وأن تنتصر عليها ، ولم يكن منتظراً قط ان تبلغها . وعندما بدأ الخريف القدري ، بات كل شيء معتمداً على قدرة الفوهرر على تحديد الحرب وحصرها ، وعلى إبعاد روسيا عن أي تحالف عسكري مع الغرب ، وهو التحالف الذي كان لتفينوف قد اقترحه قبيل سقوطه ، والذي كان تشمبرلين ، على الرغم من

---

٢ ـ كان الفريق توماس في هذه الأرقام التي سردها يخدع وزارة الخارجية نفسها . فهناك وثيقة بحرية المانية هامة يرجع تاريخها الى اكثر من عام أي الى الثامن عشر من شباط عام ١٩٣٨ (المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٨٢٧) تقول ان الالمان قدموا أرقامـــاً زائفة عن حمولة بوارجهم بموجب المعاهدة الانكليزية الالمانية الى الحكومة البريطانية . وتقول هذه المذكرة ان الحمولة الحقيقية لبارجة السته والعشرين الف طن هي ٣١،٣٠٠ وان حمولة بارجه الخمسة والثلاثين الف طن ، وهو اعلى رقم وصلت اليه الاساطيل البريطانية والامريكية ، هو ٤١،٧٠٠ . ولا شك في ان هذا المثل نموذجي على الخديعة النازية.

ظهوره بمظهر الرافض له في البداية ، قـــد بدأ في نهاية شهر أيار يمعن النظر في احتمالاته .

تدخل روسيا ــ ٢

اتخذ رئيس الوزراء البريطاني في مناقشة عامة اخرى جرت في مجلس العموم في التاسع عشر من ايار موقفاً فاتراً او منطوياً على الازدراء ، كما تصور تشرشل ، من الاقتراحات الروسية . وراح بشيء من السأم والضجر يوضح للمجلس ان « هناك نوعاً من القناع أو من الجدار يقوم بين الحكومتين بحيث يبدو ان اختراقهما اصعب للغاية » . وأخذ تشرشل يؤيده لويد جورج يقول من الناحية الأخرى أن موسكو قد تقدمت « بعرض عـــادل ، اكثر بساطة ، وصراحة وتأثيراً » من اقتراحات تشمبرلين نفسه ، ثم اخذ يرجو حكومة جلالته ، في أن تفتـــح « عقولها لتقبل بعض الحقائق القاسية . فبدون جبهة قوية في الشرق ، لن يكون هناك دفاع مرض في الغرب ، ولن تكون جبهة قوية في الشرق ، إذا لم تكن روسيا مشتركة فيها » .

واذعن تشمبرلين لعواصف النقد تهب عليه من جميع الجهات ، فراح يصدر تعليماته إلى السفير البريطاني في موسكو ليوافق على الشروع في محادثات لعقد ميثاق للمعونة المتبادلة ، وحلف عسكري ، واعلان ضمانات للدول التي يهددها هتلر [١] . وبعث السفير فون دير كسين من لندن إلى حكومته في برلين يقول أن الحكومة البريطانية قـــد اتخذت هذه الخطوة وهي في منتهى البرم والتذمر . يضاف إلى هذا ان دير كسين اعلن لحكومته ما بدا أنه السبب الأول والحقيقي في الخطوة التي خطاها تشمبرلين . وذكر أن وزارة الخارجية البريطانية احست

---

١ ـ قدم السفير البريطاني والقائم بالاعمال الفرنسي في موسكو الى مولوتوف في السابـــع والعشرين من ايار مسودة مشروع مشترك لعقد ميثاق من هذا النوع . وقد دهش المبعوثان الغربيان من ان مولوتوف استقبلها استقبالاً فاتراً (وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٥) رقم ٦٢٤) .

بما تقوم به المانيا من حركات في موسكو وباتت « تخشى من أن تتمكن المانيا من الابقاء على حياد روسيا السوفياتية أو من إقناعها باتخاذ موقف الحياد العطوف » . وكان مثل هذا النجاح كافياً ليعني انهيار خطط التطويق انهياراً تاماً [1] » .

والقى مولوتوف في اليوم الأخير من شهر ايار أول خطاب عام له كوزير للخارجية في اجتماع مجلس السوفيات الأعلى. وراح يؤنب الدولتين الديموقراطيتين الغربيتين على ترددهما ، واعلن ان الواجب يدعوهما ، إذا كانتا جادتين في الإنضمام إلى روسيا في محاولة وقف العدوان، إلى الشروع في تحقيق ذلك فوراً ، وان تصلا إلى اتفاق معها على ثلاث نقاط رئيسية :

« ١ – عقد ميثاق ثلاثي لعدم الاعتداء ذي طبيعة دفاعية مجردة .

« ٢ – تقديم ضمانات إلى دول اوروبا الوسطى الشرقية بما في ضمنها جميع الدول الاوروبية المحاذية للاتحاد السوفياتي .

« ٣ – التوصل إلى عقد اتفاق محدود عن شكل المساعدة الفورية والعملية التي يجب تقديمها الى الدول الصغيرة المهددة بالعدوان ومدى هذه المساعدات » .

واعلن مولوتوف ايضاً ان المحادثات مع الغرب لا تعني مطلقاً أن روسيا ستتخلى عن «علاقاتها التجارية على الاسس الواقعية» مع المانيا وايطاليا. واضاف أن «استئناف المفاوضات التجارية مع المانيا لم يعد أمراً مستبعداً» . وعندما أبرق السفير الالماني فون دير شولنبرغ الى برلين بالخطاب ، اشار إلى أن مولوتوف قد ألمح أن روسيا ما زالت على استعداد لعقد معاهدة مع بريطانيا وفرنسا « شريطة ان تُقبل جميع طلباتها» لكن من الواضح الآن من هذا الخطاب ، أن وقتاً طويلاً سينقضي قبل الوصول إلى اتفاق حقيقي . ومضى السفير يوضح أن مولوتوف « قد تجنَّب توجيه أي سباب إلى المانيا واظهر استعداده لمواصلة المحادثات التي

١ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ٦١٦ – ٦١٧ .

بدأت في برلين وموسكو [1] » .

وقد بات هتلر يشاركه الآن بصورة مفاجئة هذا الاستعداد .

* * *

وتحمس هتلر ومستشاروه في الايام العشرة الاخيرة من شهر ايار وهم يتناقشون في القضية الشائكة حول موضوع التقرب إلى موسكو لاحباط المفاوضات الانكليزية الروسية . وساد الاحساس برلين بأن مولوتوف إبان حديثه الأخير مع فون دير شولنبرغ في العشرين من ايار قد ابدى فتوراً ملحوظاً تجاه خطوات المانيا للتقرب من موسكو ، وراح وايزساكر في الواحد والعشرين من ايار يبرق إلى السفير انه بالنسبة إلى ما قاله الوزير السوفياتي فإن علينا ان « نجلس يقظين وان ننتظر ما إذا كان الروس سيقولون شيئاً آخر بصراحة اكثر » [2] .

ولكن هتلر الذي كان قد حدد الأول من ايلول موعداً لهجومه على بولندة لم يكن في وسعه أن ينتظر . ففي الخامس والعشرين من ايار استدعي كل من وايز ساكر وفريدريك غارس مدير الدائرة القضائية في وزارة الخارجية الألمانية إلى دارة ريبنتروب الريفيـة في سوننبرغ ، وقيل لهما طبقاً لما ذكره في شهادته المشفوعة باليمين أمام محكمة نورمبرغ [3] ، ان الفوهرر يريد « إقامـة علاقات اكثر تسامحاً بين المانيا والاتحاد السوفياتي » . وارسلت تعليمات خطية ، وضع ريبنتروب مسودتها إلى شولنبرغ ، توضح بتفصيل وافٍ المخطط الجديد الذي يتحتم عليه السير فيه مع مولوتوف الذي طلب اليه ان يجتمع بـــه « في أقرب وقت ممكن » . وما زالت هذه التعليمات بين وثائق وزارة الخارجية الألمانية ،

---

١ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ٦٢٤ — ٦٢٦ .

٢ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ٥٤٧ .

٣ - رفضت المحكمة اعتبار هذه الشهادة المشفوعة باليمين دليلا ، ولذا فهي ليست واردة في مجموعة وثائق « المؤامرة النازية والعدوان » او مجموعة « محاكمات كبار مجرمي الحرب » لكن هذا الرفض لا يقلل من قيمتها وصحتها . فلقد عولجت قضية التعاون النازي - السوفياتي في هذه الفترة معالجة تنطوي على الحذر والرفض في المحكمة بالنظر الى ان احد قضاتها الأربعة كان روسياً.

المصادرة [١] .

وتفيد أشارة مكتوبة على الوثيقة انها عرضت على هتلر في السادس والعشرين من ايار . وليس ثمة من شك في انها وثيقة تحسر النقاب عن الكثير . فهي توضح أن وزارة الخارجية الألمانية كانت مقتنعة في هـــذا التاريخ من ان المفاوضات الانكليزية – الروسية ستصل حتمـــاً إلى نجاح إذا لم تتدخل المانيا في الوقت المناسب تدخلاً حاسماً لوقفها . وقد اقترح ريبنتروب تبعاً لذلك ان يتولى شولنبرغ ابلاغ مولوتوف ما يلي :

« ليس ثمة من تعارض واقعي في المصالح في الشؤون الخارجية بين المانيا والاتحاد السوفياتي .... ولقـد حان الوقت للبحث في ايجاد حالة من التهادن ومن العودة إلى الوضع الطبيعي في العلاقات الخارجية بين البلدين... وليس الحلف الألماني – الايطالي موجهاً بحال من الاحوال ضد الاتحاد السوفياتي . انه موجه اولاً وآخراً ، ضد التواطؤ الانكليزي الفرنسي ..

« وإذا ما اضطررنا على الرغم منا إلى الاشتباك مع بولندة ، فنحن على ثقة مطلقة واقتناع ، من أن هذا الاشتباك يجب أن لا يتطلب بأي حال من الاحوال تصادماً بين مصالحنا ومصالح الاتحاد السوفياتي . وفي وسعنا أن نمضي إلى أبعد من ذلك وأن نقول أننا في حلنا للمشكلة الألمانية – البولندية ، مهما كان شكل هذا الحل ، فإننا سنأخذ المصالح الروسية بعين الاعتبار قدر طاقتنا ».

وأضافت التعليمات أن على السفير أن يوضح لروسيا خطر التحالف مع بريطانيا العظمى ...

« وليس في وسعنا أن نرى حقاً ما يدعو الاتحاد السوفياتي إلى أن يلعب دوراً عملياً في لعبة السياسة البريطانية الرامية إلى تطويق المانيا ... فهذا يعني أن تتحمل روسيا التزامات من جانب واحد

١– وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص٥٨٩ - ٥٩٣ .

دون ان تحصل من بريطانيا على أي شيء يقابل هذه الالتزامات ..
وليست بريطانيا بأي حال من الاحوال في وضع يمكنها من ان تقدم
إلى روسيا أي مقابل ثمين ، مهما كانت الصورة التي ستصاغ فيها هذه
المعاهدات ... فالجدار الغربي كاف لإحباط أية مساعدة من اوروبا
وجعلها مستحيلة ... ولذا فنحن واثقون من ان بريطانيا ستظل
مخلصة من جديد لسياستها التقليدية في ان تدفع بالدول الاخرى إلى
رفع حبات كستنائها من النار » .

وطلب إلى شولنبرغ ان يؤكد لمولوتوف بأن المانيا «لا تحمل اية نوايا عدوانية
ضد روسيا » . وصدرت اليه التعليمات اخيراً بأن يقول لمولوتوف ان المانيا على
استعداد للبحث مع الاتحاد السوفياتي لا في القضايا الاقتصادية فحسب بل وفي
عودة العلاقات السياسية إلى الوضع الطبيعي .

وخيل إلى هتلر ان مسوّدة التعليمات كانت مغرقة في التساهل فأمر بوقف
ارسالها . ويقول غاوس ان الفوهرر قد تأثر ببيان تشمبرلين المتفائل ، الذي
القاه قبل يومين اثنين ، أي في الرابع والعشرين من ايار ، عندما ابلغ رئيس
مجلس الوزراء مجلس العموم انه نتيجة الاقتراحات البريطانية الاخيرة فأنه يأمل
في إمكان الوصول الى اتفاق كامل مع روسيا « في موعد مبكر » . وكان كل
ما يخشاه هتلر هو صدمة الفشل . فهو لم يتخلّ عن فكرته في ايجاد تقارب مع
موسكو ولكنه قرر ان الوضع الراهن يقتضيه المزيد من الحذر في كل
خطوة جديدة .

وقد سجلت افكار الفوهرر وخواطره في الاسبوع الاخير من شهر ايار في
وثيقة عثر عليها في وثائق وزارة الخارجية الالمانية المصادرة . ففي الخامس
والعشرين من الشهر أو حواليه ، إذ أن التاريخ الصحيح غير معروف ، أخذ
هتلر يلحف بوجوب البدء بالمحادثات مع الاتحاد السوفياتي ، سعياً منه وراء
احباط المفاوضات الانكليزية - الروسية . وكان من المقرر أن يجتمع شولنبرغ
إلى مولوتوف فوراً لهذه الغاية . ولكن تعليمات ريبنتروب اليه ، وهي

التعليمات التي عرضت على هتلر في السادس والعشرين ، لم ترسل اليه قط . فلقد أمر الفوهرر بالغائها. وابرق وايز ساكر في تلك الليلة الى شولنبرغ ينصحه باتخاذ « موقف من التحفظ المطلق ، وان لا يتقدم بأية خطوة جديدة إلى ان يصله اشعار آخر »[1] .

وتوضح هذه البرقية ، والرسالة التي بعث بهـــا وزير الدولة إلى السفير في موسكو ، في السابع والعشرين من ايار ، والتي لم ترسل إلا في الثلاثين منه بعد ان اضيفت اليها فقرة هامة ، حقيقة الموقف المتردد الذي وقفته برلين[2] . فلقد ابلغ وايز ساكر الذي أرّخ رسالته في السابع والعشرين ، شولنبرغ بأن رأي برلين في أن « الحيلولة دون اتفاق انكليزي – روسي ليس بالأمر السهل » وان المانيا مترددة في التدخل تدخلاً حاسماً لمنع هذا الاتفاق ، مخافـــة ان تستثير قهقهة تتارية عالية ، في موسكو . وكشف وزير الدولة النقاب ايضاً عن ان ايطاليا واليابان تقفان موقفاً فاتراً من خطوة المانيا المقترحة في موسكو . وان هذا التحفظ من جانب الحليفتين قد حمل المانيـــا على ان تقف موقف التريث . وانتهى من رسالتـــه يقول : « وهكذا فنحن نريد ان ننتظر وأن نرى إلى أي مدى ستصل موسكو وباريس ولندن في ترابطها المشترك » .

ولا ندري السبب الذي حدا بوايز ساكر إلى التوقف عن ارسال هذه الرسالة فوراً ، ومن المحتمل ان يكون قد احس بأن هتلر لم يتخذ قراره الحاسم بعد . ولكنه عندما بعث بها في الثلاثين من ايار اضاف اليها بخطه العبارة التالية :

« ملاحظة ... أرى لزاماً علي ان اضيف الى سطوري السابقة اننا بموافقة الفوهرر سنجري اتصالاً على أي حال مع الروس، وان كان هذا الاتصال من النوع المتحفظ وعن طريق حديث سيجري اليوم بيني وبين القائم بالاعمال الروسي » .

وعلى الرغم من أن الحديث مـع جورجي استاخوف لم يمض بعيـداً إلا أنه

---

١ – وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ٥٩٣ .

٢ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ٥٩٧ ـ ٥٩٨ .

يمثّل بالنسبة إلى الالمان بداية جديدة . وكانت حجة وايز ساكر في استدعاء القائم بالاعمال الروسي بحث مستقبل الوفد التجاري السوفياتي في براغ ، الذي كان الروس توّاقين كل التوق الى استبقائه هناك . واصطرع الدبلوماسيان حول هذا الموضوع وكل منهما يحاول ان يصل إلى ما في فكر الآخر. وقال وايز ساكر انه يتفق مع مولوتوف في أن القضايا السياسية والاقتصادية متصلة كل الاتصال ولا يمكن الفصل بينها وأعرب عن اهتمامه في « عودة العلاقات بـــين روسيا السوفياتية والمانيا إلى وضع مألوف » . وأكـــد استاخوف ان مولوتوف « لا يعتزم أن يقفل الباب في وجه اية محادثات روسية ــ المانية مقبلة » .

وقد تشجع الالمان على الرغم من جو الحذر الذي ساد المحادثات بين الرجلين وبعث وايز ساكر في الساعة العاشرة والدقيقة الاربعين من مساء الثلاثين من ايار برقية «عاجلة للغاية » إلى شولنبرغ في موسكو [1] ... جاء فيها :

« خلافاً للخطة السابقة التي كنت قد بعثت بها اليك ، قررنا الآن على أي حال إجراء شكل من اشكال الاتصال مع الاتحاد السوفياتي [2] » .

ومن المحتمل ان تكون المذكرة السرية الطويلة التي بعث بها موسوليني إلى هتلر في الثلاثين من ايار ، هي التي شددت من تصميم الفوهرر على الاتجاه نحو الاتحاد السوفياتي مهما كانت درجة الحيطة والحذر في هذا الاتجاه . ومع بداية الصيف ، تزايدت شكوك الدوتشي في جدوى الصراع المبكر . فكتب الى

١ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ٦٠٨ ــ ٦٠٩ .

٢ ـ ورد نص البرقية في الترجمة الانكليزية التي نقلها كتاب « العلاقات النازية ـ السوفياتية » والذي اصدرته وزارة الخارجية الامريكية في عام ١٩٤٩ متضمناً وثائق وزارة الخارجية الالمانية عن ذلك الموضوع بشكل اقوى . ولقد وردت العبارة الاساسية في الترجمة على النحو التالي : « لقد قررنا الآن القيام بمفاوضات صريحة ومحدودة مع الاتحاد السوفياتي » ، وقد ادت هذه العبارة استنتاج الكثيرين من المؤرخين وبينهم تشرشل ان هذه البرقية ترمز الى نقطة التحول الحاسم في جهود هتلر لعقد صفقة مع موسكو ، ولكن نقطة التحول الفعلية جاءت بعد ذلك . فلقد اشار وايزساكر في الملحق الذي « اضافه في الثلاثين من ايار على رسالته الى شولنبرغ الى ان الخطوة الالمانية التي وافق عليها هتلر « يجب ان تكون معتدلة جداً » .

هتلر يقول بأنه مقتنع كل القناعة من « ان الحرب بين المحور وبين الدول المحافظة البلوتوقراطية المفرطة في الانانية شيء لا بد منه » . ولكن ايطاليا في حاجة إلى فترة من الاستعداد التي قد تمتد حتى نهاية عام ١٩٤٢ ... «وليس ثمة من أمل كبير في النجاح عن طريق الجهود الحربية إلا بعدعام ١٩٤٣» . وبعد ان عدد أسباباً عدة ، «لحاجة إلى فترة من السلام» انتهى الدوتشي إلى القول .. « ولهذه الاسباب كلها ، لا ترغب ايطاليا في استعجال الحرب الأوروبية على الرغم من اقتناعها من أن هذه الحرب أمر لا بد منه » [١] .

وقد رد هتلر الذي لم يكن قد اسرّ صديقه المخلص وحليفه بموعد الأول من ايلول ، الذي حدده كتاريخ لغزو بولندة بأنه قرأ المذكرة السرية ببالغ الاهتمام واقترح ان يجتمع الزعيمان في المستقبل القريب للتشاور . وقرر الفوهرر في غضون ذلك أن يرى إذا كان في إمكانه أن يحدث تصدعاً في اسوار الكرملين. ودارت طيلة شهر حزيران محادثات تمهيدية حول موضوع عقد اتفاق تجاري جديد بين السفارة الألمانية في موسكو وبين انستاس ميكويان ، وزير التجارة الخارجية الروسية .

وكانت الحكومة السوفياتية لا تزال تشك في برلين شكاً كبيراً . ولقد روى شولنبرغ في السابع والعشرين من حزيران ان الكرملين يعتقد ان الألمان في ضغطهم لعقد معاهدة تجارية يريدون ان ينسفوا المفاوضات الروسية مع بريطانيا وفرنسا. وراح يبرق إلى برلين قائلاً : « وهم يخشون من أننا إذا حققنا هذا الكسب فإننا سنترك المفاوضات تذوي وتنتهي إلى الفشل [٢].

وتحدث شولنبرغ في الثامن والعشرين من حزيران حديثاً طويلاً إلى مولوتوف دار بصورة ودية كما روى لبرلين في برقية « سرية وعاجلة » . ومع ذلك فعندما اشار السفير الالماني بلهجة مطمئنة إلى معاهدات عدم الاعتداء التي عقدتها المانيا

---

١ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) - ٦١٨ - ٦٢٠ .
٢ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ٧٩٠ - ٧٩١.

مؤخراً مع دول البلطيق[1] رد وزير الخارجية السوفياتية رداً ينطوي على المكر بقوله انه يشعر « بواجبه في الشك بمثل هذه المعاهدات بعد التجارب التي مرّت بها بولندة » . ولخص شولنبرغ الحديث قائلاً :

« إن الانطباع الذي تولد لدي هو أن الحكومة السوفياتية مهتمة اعظم الاهتمام بمعرفة آرائنا السياسية وفي استمرار الاتصال بنا . وعلى الرغم من استحالة خطأ المرء في نغمة الشك القوية الواضحة في كل ما قاله مولوتوف ، إلا انه على أي حال وصف عودة العلاقات الطبيعية مع المانيا كشيء ممكن ومرغوب فيه[2] »

وطلب السفير تعليمات برقية حول خطوته التالية . وكان شولنبرغ واحداً من الاحياء الباقين من مدرسة سيخت – مالتزان – بروكدورف – رانتراو ، التي اصرت على ايجاد تقارب بين المانيا وروسيا السوفياتية بعد عام ١٩١٩ ، والتي حققت هذا التقارب في رابالو . وتوضح البرقيات التي بعث بها في عام ١٩٣٩ ، انه جهد مخلصاً لاعادة العلاقات الوثيقة التي كانت قائمة في عهد جمهورية ويمار . ولكنه كالكثيرين غيره من الدبلوماتيين الالمان الآخرين ، الذين قضوا حياتهم في السلك الدبلوماتي ، والذين يسيرون على نظم المدرسة القديمة ، لم يكن يفهم هتلر تمام الفهم .

واصدر هتلر فجأة في التاسع والعشرين من حزيران ومن مقره الجبلي في برختسغادن أوامره بقطع المحادثات مع الروس .

برختسغادن ٢٩ حزيران ١٩٣٩

« .... قرر الفوهرر ما يلي :

---

١ ـ سارعت المانيا رغبة منها في احباط ضمانة انكليزية ـ فرنسية ـ روسية الى لاتفيا وليتوانيا اللتين تحاذيان الاتحاد السوفياتي إلى توقيع ميثاقي عدم اعتداء مع هاتين الدولتين البلطيقيتين في السابع من حزيران . وكانت المانيا قبل هذا التاريخ اي في الواحد والثلاثين من ايار قد عقدت ميثاقاً مماثلاً مع الدانمارك وهو ميثاق إذا اعتبرنا بالاحداث الاخيرة ، اتاح الدانمركيين احساساً مذهلاً من الأمن والطمأنينة .

٢ ـ وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٨) ص ٨٠٥ ـ ٨٠٢ .

« عليكم ان تبلغوا الروس بأننا نستنتج من موقفهم بأنهم يرون وجوب اعتماد استمرار المحادثات على قبول الاسس التي وضعوها في شهر كانون الثاني لمحادثاتنا الاقتصادية . ولما كانت هذه الأسس غير مقبولة لدينا ، فإننا والحالة هذه لن نهتم باستئناف المحادثات الاقتصادية مع روسيا في الوقت الحاضر .

«وقد وافق الفوهرر على تأجيل اعطاء هذا الرد بضعة أيام[1].

ونقل فحوى هذا الرد فعلاً عن طريق البرق إلى السفارة الألمانية في موسكو في اليوم التالي ... وهذا ما ابرق به وايزساكر :

« يرى وزير الخارجية اننا قلنا ما فيه الكفاية في المجال السياسي وان عليكم انتظار تعليمات جديدة ، وان لا تبدأوا بأية محادثات جديدة من جانبكم في الوقت الحاضر .

« أما بالنسبة إلى المفاوضات الاقتصادية مع الحكومة الروسية، فإن المشاورات ما زالت دائرة ولم تصل إلى نهاية . وعليكم في هذا المجال ايضاً ، أن لا تقوموا بأي عمل جديد في الوقت الحاضر ، وان تنتظروا تعليماتنا » [2] .

وليس ثمة من ايضاح في الوثائق الألمانية السرية لهذه الحالة العقلية المفاجئة التي تعرض لها هتلر . فلقد بدأ الروس يتساهلون في اقتراحاتهم التي قدموها في شهري كانون الثاني وشباط . وحذر شنوري في الخامس عشر من حزيران من ان انقطاع المفاوضات الاقتصادية من جديد سيكون بمثابة نكسة لألمانيا في الحقلين الاقتصادي والسياسي .

ولا يعتقد أن الطريق الوعرة التي سارت فيها المفاوضات الانكليزية — الفرنسية — الروسية ، قد ثبّطت من عزيمة هتلر إلى الحد الذي حمله على اتخاذ هذا القرار فلقد نمي إلى علمه من تقارير السفارة الألمانية في موسكو ان الأزمة

١ — وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ٨١٠

٢ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ٨١٣

نشأت بين الدولتين الغربيتين وبين روسيا بصدد الضمانات التي ستمنح إلى بولندة ورومانيا ودول البلطيق وان هذه الازمة أدّت إلى توقف المفاوضات . ولقد احست بولندة ورومانيا بالسعادة لنوال ضمانة من بريطانيا وفرنسا ، على الرغم من أن هذه الضمانة لن تفيدهما في حالة وقوع عدوان المـاني إلا عن طريق غير مباشر بإقامة جبهة غربية . ولكنهما ترفضان قبول أية ضمانة روسية أو حتى السماح للقوات السوفياتية بالمرور في أراضيهما لمواجهة الهجوم الألماني . ورفضت لاتفيا وايسونيا وفنلندة كذلك رفضاً قاطعاً قبول أية ضمانة روسيـــة ، وهو موقف شجعه الالمان كما ظهر فيما بعد في الوثائق الألمانية المصـــادرة عن طريق التهديد المفزع ، في حالة تخاذلها وترددها في تصميمها على الرفض .

واقترح مولوتوف في خضم هذه الأزمة المعقدة في مطلع شهر حزيران على بريطانيا ان توفد وزير خارجيتها إلى موسكو للاشتراك في المفاوضات . وترى روسيا أن مثل هذا العمل ، لا يساعد على تحطيم الجمود الذي يرافق المفاوضات فحسب بل سيظهر ايضاً أن بريطانيا جادة في الوصول إلى اتفاق مع روسيا . ولكن اللورد هاليفاكس امتنع عن الذهـــاب [1] . وعرض انتوني ايدن ، وهو وزير خارجية سابق على الاقل ، أن يذهب بدلاً منه ، ولكن تشمبرلين رفض عرضه هذا . وتقرر ايفاد وليام سترانغ بدلاً منه ، وهو موظف كفؤ دائم من موظفي وزارة الخارجية سبق له ان عمل في سفارة موسكو ويتقن الروسية ، ولكنه مجهول في بلاده وخارجها . وهكذا كان ايفاد هذا الموظف للروس ، ليقود مثـــل هذه البعثة المهمة وليتفاوض مباشرة مع مولوتوف وستالين ، دليـلاً عند الروس ، كما ذكروا فيما بعد ، على أن تشمبرلين ما زال ينظر إلى قضية إقامة حلف لوقف

---

١ - تروي وثائق وزارة الخارجية البريطانية ان هاليفاكس ابلغ مايسكي في الثامن من حزيران بأنه فكر بأن يقترح على رئيس الوزراء ، بأن يمضي الى موسكو : ولكنه ما لبث ان وجد ان من المستحيل عليه ان يمضي اليها وعاد مايسكي فاقترح في الثاني عشر من حزيران بعد ان كان سترانغ قد سافر فعلا الى موسكو ، ان من الخير أن يذهب وزير الخارجية اليها « بعد ان تكون الأمور قد هدأت نوعاً » « ولكن هاليفاكس عاد فأكد استحالة تغيبه عن لندن في الوقت الحاضر » . (وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٥) رقما ٥ و ٣٨) .

هتلر عن العدوان نظرة لا تنطوي على الاهتمام .

ووصل سترانغ إلى موسكو في الرابع عشر من حزيران ، وعلى الرغم من اشتراكه في احد عشر اجتماعاً انكليزياً - فرنسياً مشتركاً مع مولوتوف ، إلا أن مظهره لم يترك اثراً كبيراً على سير المفاوضات الانكليزية السوفياتية . وبعد نحو من اسبوعين أي في التاسع والعشرين من حزيران عرضت روسيا شكوكها وسخطها علناً في مقال نشرته البرافدا وكتبه اندريه جدانوف تحت عنوان « حكومتا بريطانيا وفرنسا لا ترغبان في معاهدة على اساس المساواة للاتحاد السوفياتي » . وعلى الرغم من تأكيده في مقدمة المقال انه «يكتب كفرد عادي، ولا يلزم الحكومة السوفياتية بما يكتبه » إلا أن جدانوف لم يكن مجرد عضو في المكتب السياسي للحزب الشيوعي ورئيس لجنة الشؤون الخارجية في البرلمان السوفياتي فحسب ، بل كان كما اكد شولنبرغ في تقريره إلى برلين عن الموضوع « أحد اعوان ستالين الخلّص الذي كتب مقاله ولا شك بأوامرٍ من عَلُ »، ولقد كتب جدانوف يقول :

« يبدو لي أن الحكومتين البريطانية والفرنسية ليستا جادتين في عقد اتفاق حقيقي يقبله الاتحاد السوفياتي ، وان كل ما تهدفان اليه إجراء محادثات حول عقد اتفاق ، لتعرضا على الرأي العام في بلديهما ، موقفاً مزعوماً من التعنت ينقضه الاتحاد السوفياتي ، فتسهلا بذلك الوصول إلى اتفاق مع المعتدين . وستظهر الأيام القليلة القادمة مدى ما في هذا الرأي من صحة [1] » .

وهكذا عرض ستالين شكوكه ، في بريطانيا وفرنسا ومخاوفه من أن الدولتين الحليفتين الغربيتين ، قد تصلان في النهاية إلى عقد صفقة مع هتلر ، تماماً كما فعلتا قبل نحو من عام في ميونيخ ، على العالم بأسره ، ليفكر العالم في هذه الشكوك والمخاوف . وقد فكر السفير فون دير شولنبرغ بها واقترح على برلين بأن من اهداف هذا المقال « إلقاء اللوم على بريطانيا وفرنسا في حالة

---

١ - البرافدا عدد ٢٩ حزيران ١٩٣٩ .

الانقطاع المحتمل للمفاوضات [1]» .

خطط الحرب الشاملة

ومع ذلك لم يقفز هتلر لالتقاط الطعم الروسي. ولعل تقاعسه عن ذلك يرجع إلى انشغاله طيلة شهر حزيران في برختسغادن في الاشراف على استكمال الخطط العسكرية لغزو بولندة في نهاية الصيف .

وتسلم في الخامس عشر من حزيران الخطة السرية كل السرية التي اعدها الفريق فون براوخيتش للعملية التي سيقوم بها الجيش ضد بولندة [2]. وراح القائد العام للجيش يردد «صوت سيده» فيقول ان « هدف العملية ، تحطيم القوات المسلحة البولندية . فالقيادة السياسية تطلب أن تبدأ الحرب بضربات مفاجئة قاصمة تؤدي إلى انتصارات سريعة » . واضاف « ان غاية القيادة العليا للجيش الحيلولة بين الجيش البولندي وبين القيام بتعبئة منظمة وتركيز صحيح عن طريق غزو مباغت للارض البولندية ، وتحطيم القسم الاكبر من الجيش البولندي الذي ينتظر ان يكون محتشداً إلى الغرب من خط الفستولا — نارو ، بضربة مركزة تتجه من سيليزيا من ناحية ومن بوميرانيا — بروسيا الشرقية من الناحية الاخرى » .

وقام براوخيتش لتنفيذ هذا المخطط بإقامة مجموعتين من الجيوش ، الاول مجموعة جيوش الجنوب وتتألف من الجيوش الثامن والعاشر والرابع عشر ، والثانية مجموعة جيوش الشمال وتتألف من الجيشين الثالث والرابع . وقرر أن تقوم مجموعة جيوش الجنوب التي يتولى قيادتها الفريق فون رونشتادت بالهجوم من ناحية سليزيا « باتجاه عام يستهدف وارشو ، لتمزيق القوات البولندية التي تواجهها ، واحتلال حوض الفستولا ، بأقوى قوات ممكنة على جانبي وارشو ،

---

١ — وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ٨٠٨ — ٨٠٩ .

٢ — « محاكمات كبار مجرمي الحرب (٣٤) ص ٤٩٣ - ٥٠٠ والمؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٩٥٦ .

بقصد تحطيم القوات البولندية التي تظل صامدة في غرب بولندة ، بالتعاون مع مجموعة جيوش الشمال » وكانت المهمة الاولى الملقاة على عاتق المجموعة الاخيرة « إقامة الاتصال بين الرايخ وبروسيا الشرقية» بالزحف عبر الرواق البولندي. وحددت للجيوش المختلفة الاهداف المفصلة ، كما حددت ايضاً اهداف السلاح الجوي والاسطول . وذكر براوخيتش ايضاً أن مدينة دانزيغ، ستعلن جزءاًمن الارض الالمانية منذ اليوم الاول من بدء العمليات العسكرية ويجري الدفاعءنها بواسطة قواتها المحلية العاملة تحت لواء القيادة الالمانية .

ويقول توجيه متمم صدر في نفس الوقت ان الأمر بنشر القوات استعداداً للعملية البيضاء سيصدر في العشرين من آب ويبدأ تنفيذه . واضاف التوجيه « ومن الواجب أن تكون جميع الاعدادات قد استكملت فيذلك التاريخ» [1].

وقدم الفريق كايتل بعد نحو من اسبوع أي في الثاني والعشرين من حزيران إلى هتلر ، « جدولاً مبدئياً لتوقيت العملية البيضاء [2] . وقد وافق الفوهرر على الجدول بعد دراسته بصورة مجملة » ولكنه أمر « خشية من بعث الفزع في نفوس الناس من جراء دعوة القوات الاحتياطية بمقياس أكثر من المألوف .... بأن يقال لكل من يستفهم عن هذه الاجراءات من المؤسسات المدنية،واصحاب الأعمال والافراد العاديين بأن افراد الأحتياطي إنما يدعون للاشتراك في مناورات الخريف » . واشترط هتلر كذلك « لأسباب تتعلق بالامن ، عدم إخلاء المستشفيات الواقعة على الحدود والتي اقترحت القيادة العليا للجيش ان يتم اخلاؤها اعتباراً من شهر تموز » .

فالحرب التي يخطط لها هتلر ، ستكون شاملة جماعية ، ومثل هذه الحرب لا تتطلب تعبئة عسكرية فحسب ، بل تعبئة جماعية لكل موارد البلاد . ودعي مجلس دفاع الرايخ إلى اجتماع عاجل في اليوم التالي أي في الثالث والعشرين من حزيران برئاسة غورنغ ليتولى تنسيق هذا المجهود الهائل . وحضر هذا الاجتماع

---

١ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ١٠٣٥ ـ ١٠٣٦

٢ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٩٣٤ .

نحو من خمسة وثلاثين رجلاً من كبار رجال الدولة بينهم كايتل وريدر وهولدر وتوماس وميلش بالنيابة عن القوات المسلحة ووزراء الداخلية والاقتصاد والمالية والمواصلات وهملر ايضاً. وكان هذا هو الاجتماع الثاني الذي عقده المجلس منذ إنشائه ولكن غورنغ أوضح للمجتمعين ان هذه الهيئة لاتجتمع إلا لاتخاذ اكثر القرارات اهمية ، ولم يترك شكاً في أذهان سامعيه ، كما تحسر الوقائع السرية المصـــادرة للاجتماع النقاب ، في أن الحرب قريبة وان امام المجلس الكثير من العمل لتأمين القوة العاملة في الصناعة والزراعة ، وإنجاز الكثير من القضايا المتعلقة بالتعبئـة الجماعية الشاملة [1] .

وابلغ غورنغ المجلس بأن هتلر قرر تعبئة سبعة ملايين رجـــل . وتحتم على الدكتور فونك ، وزير الاقتصاد رغبة منه في زيادة عدد العمال « ان يقرر نوع الاعمال التي يمكن ان يعـهد بهـــا إلى أسرى الحرب وإلى ســـكان السجون ومعسكرات الاعتقال » . وتدخل هملر قائلاً ان « من الممكن المزيد من الافادة من معسكرات الاعتقال في ايام الحرب » . واضاف غورنغ ان من الواجب « تشغيل المئات من الالوف من العمال من أهل المحمية التشيكية ، تحت اشراف المختصين من المانيا ، ولا سيما في اعمال الزراعة ، بعد إسكانهـم في اكواخ خـــاصة » . وهكذا اتضح ان البرنامج النازي لرفيق العمل قد بدأ يتخـذ شكله الحقيقي .

ووعد الدكتور فريك وزير الداخلية « بالاقتصاد في العمـل في الادارة العامة » ، وراح يعترف للحاضرين بأن عدد الموظفين البيروقراطيين قد ارتفع في العهد النازي « من عشرين إلى اربعين ضعفاً » وان هذا الوضع لا يطاق . وتقرر تأليف لجنة لمعالجة هذا الوضع المحزن .

وقدم العقيد رودلف غيركي رئيس قسم المواصلات في هيئة اركان حرب الجيش تقريراً آخر اكثر مدعاة الى التشاؤم فقد اعلن للمجتمعين بمنتهى الصراحة « ان المانيا غير متأهبة للحرب في ميدان النقل في الوقت الراهن » .

وتعتمد كفاية تسهيلات النقل الألماني لاداء المهمات المفروضة عليها ، على ما

---

١ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٧١٨ ـ ٧٣١ .

اذا كانت الحرب ستظل محصورة في بولندة . واعرب العقيد عن خشيته بأن نظام المواصلات لن يكون كافياً لمواجهة المسؤوليات في حالة نشوب الحرب في الغرب ضد فرنسا وبريطانيا العظمى . ودعي مجلس الدفاع الى اجتماعين طارئين في شهر تموز « لحل الجدار الغربي قبل الخامس والعشرين من آب على ابعد تقدير في اتم وضع ممكن من الاستعداد عن طريق المواد التي يمكن الحصول عليها في ذلك الوقت نتيجة مجهود هائل » . وتقرر ان يعهد إلى كبار الموظفين في مصانع كروب وفي احتكار صناعة الفولاذ بتأمين المعادن اللازمة لاستكمال تسليح التحصينات الغربية . ولقد عرف الألمان انه استناداً إلى مناعة هذه التحصينات يتوقف مدى ما ستحس به الجيوش الانكليزية –الفرنسية من ميل إلى القيام بهجوم جدي على المانيا الغربية ، في الوقت الذي يكون فيه الجيش الألماني « الفيرماخت » مشغولاً في بولندة .

***

وعلى الرغم من ان هتلر بما عرف عنه من صراحة طبيعية قد قال لقادته العسكريين في الثالث والعشرين من ايار ان دانزيغ لم تكن السبب في النزاع مع بولندة على الاطلاق ، إلا انه بدا لعدة اسابيع في منتصف الصيف ان المدينة الحرة قد تكون مستودع « البارود » ، الذي قد يؤدي إلى انفجار الحرب في أي يوم . وكان الالمان منذ مدة يهربون إلى دانزيغ الاسلحة وضباط الجيش النظامي لتدريب حرس الدفاع المحلي على استعمالها [1] وكانت هذه الاسلحة ،

١ - ابلغت القيادة العليا للجيش وزارة الخارجية الالمانية في التاسع عشر من حزيران ان ١٦٨ ضابطاً من ضباط الجيش الألماني قد منحوا « اذونات للسفر عبر دولة دانزيغ الحرة في الملابس المدنية للقيام برحلة لأغراض دراسية». وسأل الفريق كايتل في مطلع شهر تموز وزارة الخارجية عما إذا كان من المرغوب فيه سياسياً ان تعرض علناً المدافع الخفيفة الاثنا عشر والمدافع الثقيلة الاربعه الموجودة في دانزيغ وان يجري التدريب عليها علناً ، أو ان من الافضل اخفاء وجود هذه المدافع في المدينه الحرة»(وثائق وزاره الخارجيه الالمانية(٦) ص ٧٥٠ ، ٩٢٠ ، ٩٢١) ولا تكشف الوثائق الألمانية المصادرة كيف افلح الالمان في تهريب المدافع الثقيلة على مرأى من المفتشين البولنديين على الحدود .

وهؤلاء الضباط ، يتوافدون عبر الحدود من بروسيا الشرقية ، ولذا فقد فرض البولنديون رقابة شديدة عليها عن طريق زيادة موظفي جمـــاركهم وحرس حدودهم . وردت سلطات دانزيغ المحلية التي كانت تعمل الآن تبعـــاً لتعليمات برلين ، بمحاولة منع الموظفين البولنديين من تنفيذ واجباتهم .

وبلغت الأزمة ذروتها في الرابع من شهر آب عندما راح الممثل الدبلوماسي البولندي في دانزيغ يبلغ السلطات المحلية ان التعليمات قد صدرت إلى مفتشي الجمارك البولنديين بالقيام بمهامهم مستخدمين الاسلحة ، وأن أية محاولة يقوم بها أهل دانزيغ ، لعرقلة اعمالهم ، ستعتبر « عملاً عدوانياً» ضد الموظفين البولنديين وان الحكومة البولندية في مثل هذه الحالة « ستثأر دون إبطاء من المدينـــة الحرة » .

وكان هذا التهديد دليلاً جديداً لهتلر على أن البولنديين لن يذعنوا ،ولا يفلح الارهاب معهم ، وتعزز هذا الدليل بالبرقية التي بعثها السفير الألماني في وارشو الذي أبرق لحكومته في السادس من آب ، بأنه « لا يشك مطلقاً في أن بولندة ستحارب إذا وقع أي اعتداء على حقوقها في دانزيغ » . ونحن نعرف الآن من ملاحظة مدوّنة على هامش هذه البرقية بخط يد ريبنتروب انهـــا عرضت على الفوهرر [1] .

وثار هتلر . واستدعى في اليوم التـالي السابع من آب البرت فوستر الزعيم النازي في دانزايغ إلى برختسفادن وأبلغه انه وصل حدود صبره مع البولنديين. وتبودلت المذكرات الغاضبة بين برلين ووارشو ، وكانت عنيفة في لهجتهـا إلى الحد الذي لم يجرؤ أي من الفريقين على إعلانها . ووجهت حكومة الرايخ في التاسع من آب تحذيراً إلى بولندة ، بأن تكرار انذارها الى دانزيغ « سيؤدي إلى تحرّج العلاقات الألمانية البولندية ، بشكل لا تكون الحكومة الألمانية مسؤولة عنه » . وردت الحكومة البولندية في اليوم التالي رداً لاذعاً ... جاء فيه :

« انها ستواصل الرد كما في السابق على أية محاولة من جـــانب

---

١ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ٨٦٤ - ٨٦٥ .

سلطات المدينة الحرة للمساس بحقوق بولندة في دانزيغ ومصالحها فيها ، وانها ستفعل ذلك مستخدمة طرقاً ووسائل تجدها صالحة ، معتبرة أي تدخل من جانب حكومة الرايخ عملاً عدوانياً [١] .

ولم تكن أية دولة صغيرة ، وقفت في وجه هتلر من قبل ، قد جرؤت على استعمال هذه اللغة التي استعملتها بولندة اليوم . وعندما استقبل الفوهرر في اليوم التالي الحادي عشر من آب كارل بيركهاردت السويسري ومفوض عصبة الامم في دانزيغ والذي كان قد قطع نصف الطريق لقبول المطالب الألمانية ، كان هتلر في حالة عصبية شديدة ، وراح يقول لزائره انه « سيقوم بهجوم خاطف على بولندة في حالة قيامها بأية محاولة ، مستخدماً كل ما تحت تصرفه من اسلحة قوية لا يعرف البولنديون شيئاً عنها » .

ولقد روى بيركهاردت فيما بعد انه قال للفوهرر ان هذا سيؤدي إلى حرب عامة فرد الهر هتلر قائلاً بأنه إذا كانت الحرب محتومة ولا بد منها ، فإنه يؤثر ان يخوضها اليوم على ان يخوضها غداً ، وبأنه لن يسير فيها كما سار غليوم ، الذي كانت الشكوك تساوره دائماً بالنسبة إلى استعمال كل سلاح من الاسلحة استعمالاً كاملاً مما دفع به إلى التردد ، أما بالنسبة اليه ، أي إلى هتلر ، فإن الرحمة لن تصل إلى شغاف قلبه أبداً [٢] .

وهذه الرحمة التي لن يعرفها ... من المقصود بها يا ترى ؟ بولندة بالطبع . وقد تكون بريطانيا وفرنسا مقصودتين بها ايضاً إذا اقتضى الامر . وهل يجفو الرحمة مع روسيا ايضاً ؟ لا ... فلقد حزم هتلر امره اخيراً بالنسبة الى الاتحاد السوفياتي .

تدخل روسيا ايضاً — ٣

وجاءت البادرة الجديدة من جانب الروس ... ففي الثامن عشر من تموز ،

---

١ – وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٧) ص ٤ – ٥ و ٩ – ١٠ .

٢ – وثائق في المشاكل الدولية ١٩٣٩ – ١٩٤٦ (١) ص ٣٤٦ – ٣٤٧ .

قام المسيو بابارين الممثل التجاري السوفياتي في برلين ، يرافقه اثنان من مساعديه بزيارة جوليوس شنوري ، في دار وزارة الخارجية الالمانية وأبلغه ان روسيا راغبة في توسيع العلاقات الاقتصادية الالمانية - السوفياتية وتمديدها . وكان يحمل مذكرة مطولة لعقد اتفاقية تجارة تدعو إلى تبادل اكبر من السلع بين البلدين، واعلن انه في حالة التمكن من توضيح بعض الخلافات بين الجانبين وتذليلها فإنه مخوّل بتوقيع اتفاق تجاري مع المانيا في برلين . وقد سر الالمان لهذه الخطوة الروسية كما تشير إلى ذلك مذكرة المانيا السرية عن الاجتماع . وقال شنوري في مذكرته ان مثل هذه المعاهدة « لا بد وان تترك أثرها في بولندة ، وبريطانيا على الاقل [1] » . واعلنت الصحافة الروسية في موسكو بعد أربعة ايام أي في الثاني والعشرين من تموز أن المفاوضات التجارية بين الاتحاد السوفياتي والمانيا قد استؤنفت في برلين .

وابرق وايزساكر في نفس اليوم برقية مسهبة مطولة إلى السفير فون دير شولنبرغ في موسكو ، ضمنها تعليمات جديدة مهمة . فقد أشار أولاً الى المفاوضات التجارية وابلغ السفير « ان المانيا ستسلك في برلين سلوكاً صريحاً واضحاً لا سيما وان عقد مثل هذه المعاهدة في اسرع وقت ممكن شيء مرغوب فيه هنا لأسباب عامة » . وأضاف « انه بالنسبة الى الناحية السياسية المجردة من محادثاتنا مع الروس ، فإننا نعتبر ان فترة الانتظار التي اشترطناها عليك في برقيتنا المؤرخة في الثلاثين من حزيران قد انتهت ، وان في وسعك والحالة هذه ان تعود الى الامساك بالخيوط ، دون أن تبدي الحافاً في القضية [2] .

وبالفعل عادت المانيا الى الامساك بالخيوط بعد أربعة ايام أي في السادس والعشرين من تموز . فقد اصدر ريبنتروب تعليماته إلى الدكتور شنوري ، بأن يدعو استاخوف القائم بالاعمال السوفياتي وبابارين الممثل التجاري إلى العشاء في احد مطاعم برلين الانيقة لسبر غورهما . ولم يكن الروسيان في حاجة إلى من

---

١ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ٩٣٦ - ٩٣٨ .

٢ - وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٦) ص ٩٥٥ - ٩٥٦ .

بحثها . فلقد روى شنوري في مذكرته السرية عن الاجتماع يقول : « لقد مكث الروسيان معي حتى الساعة الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل ، وكانا يتحدثان باسلوب تملؤه الحيوية ويفعمه الاهتمام عن المشاكل السياسية والاقتصادية التي يهتم بها بلدانا » .

وقد اعلن استاخوف بتأييد حار من بابارين أن التقارب السياسي بين السوفيات والمانيا يتفق مع المصالح الحيوية للبلدين . وقال ان المسؤولين في موسكو لم يستطيعوا قط ان يفهموا لماذا تقف المانيا النازية هذا الموقف العدائي من الاتحاد السوفياتي . ورد الدبلوماتي الالماني « ان السياسة الالمانية في الشرق قد اتخذت الآن موقفاً مغايراً كل المغايرة لما كان عليه موقفها في السابق » ... ومضى يقول :

« ولن يكون هناك من ناحيتنا أي تهديد للاتحاد السوفياتي مطلقاً . فأهدافنا تتجه إلى ناحية مختلفة تمام الاختلاف ... ان السياسة الالمانية تستهدف بريطانيا .. وفي وسعي ان اتصور ترتيباً شاملاً للمصالح المتبادلة مع إحلال المشاكل الروسية محل الاعتبار المطلق .

«لكن هذا الاحتمال سيتوقف حتماً في اللحظة التي يتحالف فيها الاتحاد السوفياتي مع بريطانيا ضد المانيا . فالفرصة للتفاهم بين المانيا والاتحاد السوفياتي متاحة الآن ، ولكنها لن تكون متاحة بعد توقيع أي ميثاق مع لندن .

« وبعد ماذا تستطيع بريطانيا تقديمه للاتحاد السوفياتي ؟ ان غاية ما تستطيع تقديمه هو الاشتراك في حرب اوروبية واكتساب اعداء المانيا . ولكن ماذا بوسعنا أن نقدم نحن مقابل هذا ؟ الحياد والبقاء بعيداً عن الحرب في اوروبا ، وايجاد تفاهم الماني – روسي على اساس المصالح المشتركة ، إذا رغبت موسكو فيه يكون في مصلحة كل من البلدين ، كما كان الوضع فى الماضي ... وليست هناك

في رأيي أية مشاكل متعارضة بين المانيا وروسيا على طول الحدود من بحر البلطيق إلى البحر الاسود وإلى الشرق الاقصى. يضاف إلى هذا ان البلدين على الرغم من جميع الخلافات بين وجهات نظرهما في الحياة. يربطهما شيء مشترك في عقائديتهما ويشمل ايطاليا ايضاً، وهو معارضة الدول الديموقراطية الرأسمالية في الغرب [1]. »

وهكذا في الساعات المتأخرة من ليلة السادس والعشرين من تموز وفي مطعم صغير في برلين، وامام وجبة شهية من الشراب والغذاء، تناولها دبلوماتيون. من رجال الطبقة الثانية، قدمت المانيا اول عرض جدي لها في سبيل عقد صفقة مع روسيا السوفياتية. ولكن الخط الجديد الذي سار فيه شنوري، كان موحى به من ريبنتروب نفسه وطرب استاخوف لسماع العرض، ووعد شنوري بأن ينقله فوراً إلى موسكو.

وانتظرت وزارة الخارجية الألمانية بفروغ صبر رؤية رد الفعل في العاصمة السوفياتية. وبعد ثلاثة ايام، أي في التاسع والعشرين من تموز، بعث وايزساكر إلى السفير شولنبرغ في موسكو برسالة سرية يحملها رسول خاص ... وجاء في الرسالة:

« من المهم لنا كل الأهمية ان نعرف ما إذا كانت الملاحظات التي قيلت لاستاخوف وبابارين قد لاقت اية استجابة في موسكو. وإذا اتيحت فرصة أخرى لاجراء حديث مع مولوتوف، نرجو أن تجسّ نبضه على نفس الأسس. وإذا اسفرت هذه المقابلة، عن تخلي مولوتوف عن موقف التحفظ الذي لا يزال يتخذه. ففي وسعك أن تخطو خطوة أخرى .... وينطبق هذا بصورة خاصة على المشكلة البولندية. فنحن على استعداد مهما كان الشكل الذي ستتطور فيه القضية البولندية ... لحماية جميع المصالح السوفياتية ورعايتها والوصول إلى تفاهم مع حكومة موسكو. أما في موضوع

---

١ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ١١٠٦ — ١١٠٩.

دول البلطيق ، ففي وسعك أن تقدم إذا سارت المحادثات سيراً إيجابياً ، فكرة احتمال تكييف موقفنا من هذه الدول بشكل يضمن احترام المصالح السوفياتية الحيوية في المنطقة [1] » .

وبعث وزير الدولة بعد يومين أي في الواحد والثلاثين من تموز البرقية العاجلة والسرية التالية إلى شولنبرغ :

« اشارة إلى رسالتنا بتاريخ التاسع والعشرين من تموز التي حملها رسول خاص إلى موسكو فوصلها اليوم ...

« ارجو ان تبرق لنا بموعد مقابلتك المقبلة مع مولوتوف حال تحديده .

« اننا تواقون لاتمام المقابلة فوراً [2]

وهكذا اتصفت البرقيات المرسلة من برلين إلى موسكو لأول مرة بصفة الاستعجال .

وكانت هناك اسباب مهمة تدعو إلى استعجال برلين . ففي الثالث والعشرين من تموز وافقت بريطانيا وفرنسا اخيراً على اقتراح روسيا بإجراء محادثات عسكرية بين اركان الحرب فوراً ، لعقد ميثاق عسكري يحدد الخطط لمواجهة الدول الثلاث لجيوش هتلر . وعلى الرغم من ان تشمبرلين لم يعلن هذا الاتفاق إلا في الواحد والثلاثين من تموز عندما أذاعه في مجلس العموم، إلا أن الالمان عرفوا بوجوده قبل هذا التاريخ . فقد ابرق السفير الألماني فون ويلكزيك من باريس إلى برلين في الثامن والعشرين من تموز يقول انه علم من « مصدر عليم فوق العادة » ان بريطانيا وفرنسا قررتا ايفاد بعثتين عسكريتين إلى موسكو ، وأن الفريق دومينك (Doumenc) سيرئس البعثة الفرنسية ، وهو على حد تعبيره « ضابط قدير للغاية » وكان يشغل في الماضي منصب نائب رئيس هيئة

---

١ – وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ١٠١٥ – ١٠١٦ .

٢ – وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ١٠٢٢ – ١٠٢٣ .

اركان الحرب في ايام مكسيم ويغان [1] . وذكر السفير الألماني في برقية لاحقة بعد يومين ان الانطباع السائد لديه هو أن باريس ولندن قد وافقتا على إجراء المحادثات العسكرية بين اركان الحرب كآخر وسيلة للحيلولة دون تأجيل مفاوضات موسكو [2] .

ولا ريب في أن هذا الانطباع كان صحيحاً . فأوراق وزارة الخارجية البريطانية السرية توضح أن المحادثات السياسية في موسكو، كانت قد وصلت الى ازمة مستعصية في الاسبوع الاخير من تموز وذلك بالنظر إلى استحالة الوصول إلى تحديد « للعدوان غير المباشر وكان البريطانيون والفرنسيون يرون في التفسير الروسي لذلك الاصطلاح شمولاً واتساعاً ، بحيث يمكن استخدامه لتبرير التدخل السوفياتي في فنلندة ودول البلطيق حتى ولو لم يكن هناك أي تهديد نازي جدي ، مما تعارضه لندن معارضة تامة على الرغم من أن الفرنسيين بدوا اكثر رغبة في التساهل .

وأصرّ الروس أيضاً في الثاني من حزيران على وجوب اتفاق عسكري يحدد بالتفصيل الاساليب والشكل والمدى « للمساعدة العسكرية ، التي يجب أن تقدمها الدول المتعاقدة الثلاث إلى بعضها البعض على أن ينفذ هذا الاتفاق في نفس الوقت الذي ينفذ فيه ميثاق المساعدة المتبادلة . وحاولت الدولتان الغربيتان اللتان لم تكونا تحملان رأياً طيباً في قوة روسيا العسكرية [3] التسويف مع

---

١ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ١٠١٠ - ١٠١١ .

٢ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ١٠٢١ .

٣ - اساءت القيادة العليا البريطانية تماماً كالقيادة العليا الالمانية فيما بعد تقدير القوة المحتملة للجيش الاحمر . وقد يعزى السبب في هذا الخطأ الى حد كبير الى التقارير التي تلقتها من ملحقيها العسكريين في موسكو. فقد بعث العقيد فاير بريس الملحق العسكري مثلاً في السادس من آذار ، وقائد الجناح هولويل ،الملحق الجوي بتقريرين مطولين الى لندن يقولان فيهما انه على الرغم من ان طاقات الجيش الاحمر والسلاح الجوي السوفياتي ضخمة في مجالات الدفاع إلا انها عاجزة عن القيام باي عمل هجومي جدي . واضاف هولويل في تقريره ان السلاح الجوي الروسي« كالجيش يمكن تجميده عن طريق انهيار خدماته الاساسية تماماً كما يمكن تجميده بعمل عسكري معاد . ورأى فاير بريس ان عمليات التطهير التي تناولت كبار الضباط قد اضعفت الى حد كبير الجيش الاحمر.=

مولوتوف . واعلنتا انهما على استعداد فقط للبدء في محادثات الأركان بعد توقيع الاتفاق السياسي . ولكن روسيا تصلبت في موقفها . وعندما حاول البريطانيون عقد صفقة يعرضون فيها في السابع عشر من تموز البدء بمحادثات الاركان فوراً إذا كان الاتحاد السوفياتي على استعداد للتخلي عن اصراره على وجوب توقيع الاتفاقين العسكري والسياسي في وقت واحد ، وإذا كانوا يوافقون كدليل على حسن النيـــة على التفسير البريطاني للتعبير « العدوان اللامبـــاشر » ، رفض مولوتوف هذه المساومة البريطانية رفضاً باتاً .واضاف انه ما لم يوافق البريطانيون والفرنسيون على عقد اتفاقات سياسية وعسكرية في آن واحد ، فليس ثمة من فائدة في استمرار المفاوضات . وقد اثار هذا التهديد بوقف المحادثات شيئاً من التجهم والقلق في باريس ، التي كانت كما يبدو اكثر احساساً من لندن بما يدور من مغازلات بين النازيين والسوفيات ، وكان من نتـــائج الضغط الفرنسي أن رفضت الحكومة البريطانية في الثالث والعشرين من آب قبول الاقتراحـــات الروسية في موضوع « الاعتداءات اللامباشرة » ووافقت وهي برمة متذمرة على التفاوض لعقد ميثاق عسكري[١].

وكان تشمبرلين في منتهى الفتور في موضوع محادثات اركان الحرب[٢]. وفي

= ولكنه اشار الى لندن ايضاً بأن « الجيش الاحمر يعتبر ان الحرب واقعة لا بد منها، وانه يبذل كل ما لديه من جهود ، للاستعداد لها . » (وثائق وزارة الخارجية البريطانية ٤ - رقم ١٨٣).

١ - وثائق وزارة الخارجية البريطانية(٦) ارقام ٣٢٩ ، ٣٣٨ ، ٣٤٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨، ٣٧٦ ، ٣٩٩ .

٢ - كان سترانغ في مفاوضاته مع مولوتوف في موسكو اكثر برودة . ولقد بعث الى وزارة الخارجية البريطانية في العشرين من تموز يقول : « لا ريب في ان من المخالف للمألوف ان ينتظر الناس منا التفاوض في اسرار عسكرية مع الحكومة السوفياتية قبل ان نتأكد من انها ستكون حقاً حليفتنا » .

أما وجهة نظر السوفيات فكانت على النقيض من ذلك تماماً ، وقد عرضها مولوتوف عـــلى المفاوضين الانكليز والفرنسيين في السابع والعشرين من تموز . فقد قال لهم : « ان النقطة الهامة هي ان نرى كم عدد الفرق التي يستطيع كل فريق تقديمها الى القضية المشتركة واين ستتمركز هذه الفرق » (وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٦) رقم ٣٧٦ و ٤٧٣) . وقد اراد الروس قبل ان يلتزموا بأي شيء سياسي، التأكد من مدى المساعدات العسكرية التي في وسعهم انتظارها من الغرب.

الاول من آب ابلغ السفير الالماني في لندن فون ديركسين حكومته في برلين ان دوائر الحكومة البريطانية تنظر نظرة متشائمة وملأى بالشكوك إلى المفاوضات العسكرية مع الروس .. ثم قال :

« ويبدو هذا من الطريقة التي تألفت فيها البعثة العسكرية البريطانية [1] .

« ولقد كان الاميرال من الضباط المتقاعدين بالفعل ولم يكن في يوم ما على قائمة اركان حرب البحرية . أما الفريق فهو ضابط ميدان مجرد . واشتهر مشير الجو بأنه من خيرة الطيارين والمدربين ولكنه ليس من الخبراء في السوقية العسكرية . ويبدو ان هذه الحقائق تشير إلى ان مهمة البعثة العسكرية مجرد التأكد من القيمة القتالية للقوات السوفياتية لا عقد اتفاقات معها في موضوع العمليات .... ويتفق ملحقو الفيرماخت ، في الاقرار بوجود شك يبعث على الدهشة في الدوائر العسكرية البريطانية حول موضوع المحادثات المقبلة مع القوات السوفياتية المسلحة [2] » .

وبالفعل كانت الحكومة البريطانية كثيرة التشكك إلى الحد الذي حملها على الاهمال في اعطاء صلاحيات خطية إلى الاميرال دراكس للقيام بالمفاوضات، وهو اهمال دعا المشير فورشيلوف إلى التذمر في أول جلسة عقدها ضباط الاركان ولم تصل أوراق اعتماد الاميرال إلا في الواحد والعشرين من آب ، وبعد ان كانت قد فقدت كل ما لها من أهمية وفائدة .

ولكن إذا صح ان الاميرال دراكس لم يكن يحمل أوراق اعتماد رسمية ، فإنه على أي حال ، كان يحمل تعليمات سرية خطية عن السير الذي يجب أن ينتهجه في محادثات موسكو العسكرية . وقد كشفت وثائق وزارة الخارجية

---

١ — تألفت البعثة البريطانية من الاميرال السير ريجينالد بلانكيت دراكس، القائد العام السابق في بلايموث ١٩٣٥ - ١٩٣٨ ومشير الجو السير تشارلز بيرنيت واللواء هيورد .

٢ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ١٠٣٣ — ١٠٣٤ .

البريطانية في وقت لاحق النقاب عن ان الاميرال زود بتعليمات « للسير بمنتهى البطء في المحادثات العسكرية مراقباً بعين يقظة سير المفاوضات السياسية » إلى أن يتم الوصول إلى اتفاق سياسي.[1] ولقد اوضح المسؤولون له ان ليس في وسعه ان يفضي بأية معلومات عسكرية سرية إلى الروس قبل توقيع الميثاق السياسي.

ولكن لما كانت المحادثات السياسية قد توقفت في الثامن من آب، ولما كان مولوتوف قد اوضح بأنه لا يوافق على استئنافها الى أن تكون المحادثات العسكرية قد احرزت بعض التقدم، بات لزاماً علينا ان نستنتج بأن حكومة تشمبرلين كانت على استعداد كامل، للتطويل في تحديد الالتزامات العسكرية التي تترتب على كل بلاد تشترك في الميثاق المقترح للعون المتبادل.[2] ولا تترك وثائق وزارة الخارجية البريطانية السرية أي شك في أن تشمبرلين وهاليفاكس كانا في مطلع شهر آب، قد تخليا عن كل أمل في الوصول إلى اتفاق مع الاتحاد السوفياتي لوقف هتلر، ولكنهما فكرا في أن التسويف في مفاوضات اركان الحرب في موسكو قد يؤدي إلى منع الديكتاتور الألماني، من اتخاذ الخطوة القدرية باتجاه الحرب في غضون الاسابيع الاربعة التالية.[3]

---

١ – وثائق وزارة الخارجية البريطانية الملحق الخامس – ص ٧٦٣ .

٢ – توصل ارنولدتوينبي ومساعدوه الى هذا الاستنتاج في كتابهم «عشية الحرب عام ١٩٣٩». وقد استندوا فيه الى وثائق وزارة الخارجية البريطانية . انظر صفحة ٤٨٢ .

٣ – كتب مشير الجو السير تشارلز بورنيت في السادس عشر من آب من موسكو الى لندن يقول: « لقد علمت ان سياسة الحكومة ترمي الى تطويل المفاوضات ما امكن إذا لم نستطع حمل الروس على قبول المعاهدة ».وكان سيدس السفير البريطاني في موسكو قد ابرق الى لندن في الرابع والعشرين من تموز أي في اليوم الذي تلا موافقة حكومته على البدء بمحادثات اركان الحرب يقول: « لست متفائلا بامكان نجاح المفاوضات العسكرية ، كما لا اعتقد انها ستنتهي في وقت سريع على اي حال ، ولكن البدء فيها الآن سيؤدي الى ما يشبه الحفرة لدولتي المحور ، كما يشجع اصدقاءنا، في الوقت الذي سيؤدي تمديدها وقتاً الى التغلب على المخاطر التي تنطوي عليهــا الاشهر الخطرة التالية » (وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٧) الملحق الثاني ص ٦٠٠ ونفس المصدر رقم ٤١٦) وبالنظر الى ما عرفته المخابرات البريطانية الفرنسية عن الاجتماع التي عقدها مولوتوف مع السفير الالماني وعن الجهود الالمانية لحمل روسيا على الاهتمام بتقسيم جديد لبولندة، وهو ما بعث كولوندر=

وإذا ما قارنا البعثتين البريطانية والفرنسية بالبعثة الروسية ، تبين لنا أن الروس قد عهدوا بالمحادثات إلى اكبر الضباط في قواتهم المسلحة ، كالمشير فورشيلوف وزير الدفاع والفريق شابوشنيكوف رئيس هيئة أركان حرب الجيش الاحمر ، والقائدين العامين للاسطول والسلاح الجوي . ولم يفت الروس ملاحظة الحقيقة الواقعة وهي أن البريطانيين في الوقت الذي اوفدوا الفريق السير ادموند ايرونسايد، رئيس هيئة اركان حرب الامبراطورية إلى وارشو في شهر تموز لاجراء محادثات عسكرية مع القيادة العامة البولندية، فإنهم لم يروا ضرورة لإيفاد هذا الضابط الكبير إلى محادثات موسكو .

ولا يمكن ان يقال مطلقاً ان البعثتين العسكريتين الانكليزية والفرنسية قد ارسلتا على وجه العجلة إلى موسكو. فلقد كان في إمكان الطائرة أن تنقلها اليها في يوم واحد. ولكنها في الحقيقة، ارسلتا على سفينة بطيئة، هي باخرة تعمل للنقل والركاب ، وقد استغرقت في عملية نقلها إلى روسيا ما تستغرقه الباخرة « الملكة ماري » في نقلها إلى امريكا لو ارادتا الذهاب اليها . ولقد ابحرت هذه الباخرة إلى لينينغراد في الخامس من آب ولم تصل الى موسكو إلا في الحادي عشر منه .

وكان الوقت قد فات. فقد سبقهما هتلر. وبينما كان العسكريون البريطانيون والفرنسيون ينتظرون وصول باخرتهما البطيئة إلى لينينغراد ، كان الألمان يعملون بسرعة خارقة . ولقد كان الثالث من آب يوماً دقيقاً للغاية في كل من برلين وموسكو .

ففي الساعة الثانية عشرة والدقيقة الثامنة والخمسين من بعد ظهر ذلك اليوم راح فون ريبنتروب وزير الخارجية الذي كان قد ترك مهمة إرسال البرقيات إلى وايز ساكر وزير الدولة ، يبعث ببرقية منه وقد دوّن عليها عبارة «سرية .... ومستعجلة للغاية » ، إلى شولنبرغ في موسكو وهذا نصها :

– يحذر باريس منه في السابع من ايار ، وعن الحشود الالمانية على حدود بولندة ، وعن نوايا هتلر فإن هذه الثقة البريطانية في امكان احتجاز موسكو هذه المدة الطويلة ، تبعث على الدهشة حقاً .

« لقد جرى لي أمس حديث طويل مع استاخوف ، وسأرسل إليك بفحوى ما دار فيها في برقية لاحقة .

« وقد اعربت له عن رغبة المانيا في اعادة صياغة العلاقات الألمانية الروسية ، وقلت له أن ليست هناك مشكلة بين بحري البلطيق والاسود لا يمكن حلها بين البلدين في شكل مرض لهما معاً. ولقد اعلنت رداً على رغبة استاخوف في اجراء محادثات اكثر تحديداً حول مواضيع الساعة ، بأنني على استعداد لإجراء مثل هذه المحادثات إذا كانت الحكومة السوفياتية على استعداد لإبلاغي عن طريق استاخوف بأنها ترغب أيضاً في الوصول بالعلاقات الألمانية - الروسية إلى اساس جديد ومحدود».[1]

وعرف في وزارة الخارجية الألمانية أن شولنبرغ سيقابل مولوتوف في ساعة متأخرة من ذلك اليوم . وبعد ارسال برقية ريبنتروب بساعة واحدة ، بعث وايز ساكر ببرقية أُخرى وقد أشار عليها ايضاً « سرية ... وعاجلة للغاية » وقد جاء فيها :

« بالنظر إلى الموقف السياسي الراهن وحرصاً منا على السرعة ، فنحن تواقون دون أن يؤثر ذلك على محادثاتك اليوم مع مولوتوف للمضي في محادثات في برلين على أسس اكثر تحديداً لتنسيق العلاقات الألمانية السوفياتية وخلق الانسجام فيها . ولذا سيستقبل شنوري اليوم استاخوف ويبلغه رغبتنا في المضي في المحادثات على اسس اكثر تحديداً . »[2]

وعلى الرغم من ان رغبة ريبنتروب الفجائية في اجراء محادثات « محدودة » حول جميع القضايا المتعلقة بالمنطقة الممتدة بين بحري البلطيق والاسود لا بد وان تكون قد ادهشت السوفيات ، وعلى الرغم من انه قد ابلغ شولنبرغ في برقيته

١ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ١٠٤٧ .

٢ - وثائق وزارة الخارجة الألمانية (٦) ص ١٠٤٨ - ١٠٤٩ .

التالية التي بعث بها في الساعة الثالثة والدقيقة السابعة والاربعين مساء من انـه « قـد الح إلى استاخوف بامكان الوصول إلى تفاهم مع روسيا حـول مستقبل بولندة ، إلا انه أكد لسفيره في موسكو بأنه أبلغ القائم بالاعمال الروسي .... « اننا لسنا على عجلة من أمرنا . »[1]

ولكن هذا القول كان مجرد « بلفة » كاذبة ، وهذا ما فهمه القائم بالاعمال السوفياتي الذكي عندما اجتمع إلى شنوري في وزارة الخارجية في الساعة الثانية عشرة والدقيقة الخامسة والاربعين بعد الظهر . ولـقد ذكر المبعوث الروسي انه في الوقت الذي يبدو فيه شنوري على عجلة من أمره إلا أن وزير الخارجية الألمانية لم يظهر في مقابلته له بالأمس مثل هذه العجلة . واغتنم شنوري الفرصة كما تكشف المذكرة السرية عن الاجتماع :[2]

« قلت للمسيو استاخوف انه على الرغم من ان وزير الخارجية لم يبد في الليلة الفائتـــة أي استعجال للموضوع في البحث مـــع الحكومة السوفياتية ، إلا اننا نرى وجوب الافادة من الأيام القليلة القادمة في مواصلة المحادثات لنتمكن من إقامـة أساس في اسرع وقت ممكن . »

وهكذا باتت القضية بالنسبة إلى الألمان قضية بضعة أيام تالية . وابلـــغ استاخوف شنوري بأنه تلقى «رداً أولياً مؤقتاً » من مولوتوف على الاقتراحات الالمانية وكان هذا الرد سلبياً في مجمله . إذ على الرغم من ان موسكو ترغب ايضاً في تحسين العلاقات إلا ان مولوتوف قد أبلغه « بأن المانيـــا لم تبد حتى الآن شيئاً محدوداً عن موقفها . »

ونقل وزير الخارجية السوفياتية آراءه مباشرة إلى شولنبرغ في تلك الليلة . فقد بعث السفير في برقية مطولة ، ابرق بها بعيد منتصف الليل[3] ، يقول ان

---

١ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية «٦» ص ١٠٤٩ - ١٠٥٠
٢ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية «٦» ص ١٠٥١ - ١٠٥٢
٣ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية «٦» ص ١٠٥٩ - ١٠٦٢

مولوتوف تخلى في الحديث الذي دار بينهما في تلك الليلة والذي استغرق ساعة وربع الساعة « عن تحفظه المعهود وبدا صريحاً بصورة غير مألوفة » . وليس ثمة ما يدعو إلى الشك في هذه الحقيقة . إذ بعد ان كرر شولنبرغ وجهة نظر المانيا بعدم وجود أي خلاف بين الدولتين « من البلطيق حتى البحر الاسود » ، واكد رغبة المانيا في « الوصول إلى تفاهم » راح الوزير السوفياتي الصلب يعدد بعض الاعمال العدائية التي اقترفها الريخ ضد الاتحاد السوفياتي ، كميثاق مكافحة الشيوعية ، وتأييد اليابان ضد روسيا ، واستثناء السوفيات من مؤتمر ميونيخ .

وراح مولوتوف يتساءل... «ترى كيف يمكن لنا ان نوفق بين هذه البيانات الألمانية الجديدة وبين تلك النقاط الثلاث ؟ ان الأدلة على وجود تبدل في موقف الحكومة الالمانية ما زالت غير قائمة في الوقت الحاضر » .

ويبدو ان شولنبرغ قد ساوره شعور من تثبيط العزيمة عندما استمع إلى هذا القول إذ راح يبرق لبرلين :

« وكان الانطباع الذي تولّد لدي ، أن الحكومة السوفياتية مصممة في الوقت الحاضر على التوصل إلى اتفاق مع بريطانيا وفرنسا ، إذا نفذت لها هاتان الدولتان جميع رغباتها ... واعتقد ان بياناتي قد تركت انطباعاً على مولوتوف ، فهذه البيانات تتطلب جهوداً كبيرة من جانبنا لحمل الحكومة السوفياتية على تغيير موقفها وسلوكها ».

وعلى الرغم من معرفة الدبلوماتي الألماني المحنك بالشؤون السوفياتية ، إلا أنه كما يبدو ، بالغ في تقدير ما وقع من تقدم في موسكو بين المفاوضين البريطانيين والفرنسيين . ويبدو انه لم يدرك ايضاً المدى الذي كانت برلين على استعداد الآن للمضي فيه لبذل « الجهود الكبيرة التي رأى انها ضرورية لحمل الحكومة السوفياتية على تغيير إتجاهها الدبلوماتي » .

وازدادت الثقة في الويلهلمشتراسه بإمكان تحقيق هذا التحول . وفكرت المانيا في أن إبقاء روسيا على الحياد، سيحمل بريطانيا وفرنسا على عدم المجازفة

بخوض الحرب في سبيل بولندة . أو أنهما إذا حاربتا، فسيكون في مكنة المانيا الصمود امامهما في الحصون الدفاعية الغربية إلى أن تتم لها تصفية أمر بولنـــدة بسرعة وآنذاك يتحول الجيش الألماني بكامل قوته نحو الغرب .

ولاحظ جاك تاربيه دي سان هاردوان ، القائم بالاعمال الفرنسي الذكي في برلين هذا التبدل الطارىء في جو العاصمة الالمانية . وفي نفس اليوم الثالث من آب ، عندما كانت برلين وموسكو تعجان بالنشاط الدبلوماتي السوفيـــاتي — الالماني ، بعث إلى باريس يقول : « وقـع تبدل واضح جداً في الاسبوع الاخير في الجو السياسي في برلين ... فلقد انتهت فترة الحيرة والتردد والميل إلى التهدئة وحتى إلى الترضية عند القادة الالمان ليحل محلها مرحلة جديدة. »[١]

تردد حلفاء المانيا

واختلف موقف حليفتي المانيا ايطاليا والمجر ، عن هذا الموقف . فلقد أخذ الخوف يدب في حكومتي بودابست وروما مع تقدم اشهر الصيف ، بصورة متزايدة من أن بلديهما قد يجران إلى حرب هتلر إلى جانب المانيا .

وفي الرابع والعشرين من تموز وجـــه الكونت تيليكي رئيس وزراء المجر رسالتين متشابهتين إلى هتلر وموسوليني يبلغهما فيهما ان « المجر في حالة نشوب حرب عامة ستوجه سياستها بشكل ينسجم مع سياسة المحور ». وأحس انه قد أوغل كثيراً في التزاماته فراح يحاول الانسحاب ، فبعث في نفس اليوم رسالة ثانية إلى الديكتاتورين يقول فيها : « منعاً لأي التباس أو اساءة فهم لرسالتي بتاريخ الرابع والعشرين من تموز ، أود ان أكرر ان المجر لا تستطيع لأسباب اخلاقية ومعنوية ، ان تكون في موقف من يتخذ عملاً حربياً ضد بولندة. »[٢]

واثار الكتـــاب الثاني من بودابست هتلر فعرضه إلى نوبـــة جديدة من

١ - الكتاب الفرنسي الاصفر — الطبعة الفرنسية . ص ٢٥٠ - ٢٥١

٢ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ٩٧٣ - ٩٧٤

نوبات غضبه المألوفة . وعندما استقبل الكونت تزاكي ، وزير خارجية المجر في اوبرسالزبورغ في الثامن من شهر آب بحضور ريبنتروب ، استهل الحديث بقوله انه قد اصيب « بصدمة » من رسالة رئيس وزراء المجر . وراح يؤكد طبقاً للمذكرة السرية التي دونتها وزارة الخارجية الألمانية عن المقابلة ، انه لم يدر في خلده يوماً ما أن يطلب معونة من المجر أو من أية دولة أخرى « في حالة نشوب حرب بين المانيا وبولندة » . واضاف يقول : « ولكن رسالة الكونت تيليكي ، شيء لا يطاق . وراح يذكر ضيفه المجري ، بأن كرم المانيا هو الذي مكّن المجر من استعادة تلك الاراضي الواسعة على حساب تشيكوسلوفاكيا . ومضى يقول : « ولو قدر لألمانيا أن تهزم في الحرب ، فإن « المجر ستتعرض للتحطيم بصورة اوتوماتيكية ايضاً . »

وتحسر المذكرة الالمانية عن هذا الحديث ، وهي بين الوثائق المصادرة من وزارة الخارجية ، النقاب عن الحالة الفكرية التي كان هتلر يعيش فيها ، إبان انقضاء ايام شهر آب . فلقد ذكر لضيفه أن بولندة لا تؤلف في حد ذاتها أية مشكلة عسكرية بالنسبة إلى المانيا . وهو على أي حال ، قد اقام حساباته منذ البداية على خوض حرب في جبهتين . وراح يتبجح قائلاً : « وليس في استطاعة أية قوة في العالم أن تخترق حصون المانيا الغربية . ولم يتمكن انسان طيلة حياتي كلها من بعث الخوف في نفسي ، وينطبق هذا القول على بريطانيا ايضاً . كما لن استسلم لما يتكهنون به من إصابتي بانهيار عصبي » . اما عن روسيا ، فراح هتلر يقول :

« ان الحكومة السوفياتية لن تشترك في حرب ضدنا ... ولن يكرر السوفيات خطيئة القيصر ، ويسفكون دماءهم في سبيل بريطانيا . ولكنهم قد يحاولون على أي حال ، الافادة على حساب دول البلطيق او بولندة دون الاشتباك في عمل عسكري » .

ويبدو ان خطاب هتلر كان مؤثراً الى الحد الذي حمل الكونت تزاكي بعد محادثته الثانية معه في نفس اليوم على أن يطلب اليه « اعتبار الرسالتين اللتين

كتبهما الكونت تيليكي وكأنهما لم تكتبا قط » وأضاف أنه سيوجه عين الطلب ايضاً إلى موسوليني .

وكان الدوتشي منذ عدة اسابيع يعيش في قلق وخوف دائمين من خطر قيام الفوهرر بجر ايطاليا إلى الحرب . وكان سفيره في برلين ، اتوليكو ، يواصل ارسال التقارير المفزعة عن تصميم هتلر على مهاجمة بولندة.[1] وأخذ موسوليني منذ مطلع حزيران يلحف لعقد اجتماع آخر مع هتلر ، وقد تقرر في شهر تموز ان يعقد هذا الاجتماع في الرابع من شهر آب في ممر برينر . وقدم في الرابع والعشرين من تموز إلى هتلر عن طريق اتوليكو ، « بعض الأسس الجوهرية » للمحادثات التي ستجري بينهما . فإذا اعتبر الفوهرر ان الحرب « لا مناص منها» فإن ايطاليا ستقف إلى جانبه . ولكن الدوتشي ذكر هتلر ، بأن الحرب مع بولندة لا يمكن ان تحصر في نطاق محلي ، وسرعان ما ستنتشر لتغدو حرباً

---

١ — لعل خير نموذج على هذه التقارير ، ما بعث به اتوليكو في السادس من تموز عن اجتماع له مع ريبنتروب . فلقد ذكر السفير الايطالي في تقريره ان الوزير الالماني ابلغه ان المانيا ستسوي موضوع دانزيغ ، في وارشو نفسها ، في غضون ثمان واربعين ساعة ، اذا جرؤت بولندة على مهاجمة المدينة . واذا قررت فرنسا ان تتدخل ، في قضية دانزيغ ، مشعلة اوار حرب عالمية ، فلتفعل ما يحلو لها ، فليس احب الى المانيا من هذا التدخل . وسيقضى على فرنسا وتباد نهائياً . واذا قررت بريطانيا ان تتحرك ، فانها ستأتي عن طريق حركتها هذه بالدمار الى الامبراطورية البريطانية . اما روسيا ؟ فستعقد معاهدة المانية ـ روسية ، ولن تدخل روسيا الحرب ، اما امريكا ؟ فلقد تمكن الفوهرر من هزيمة روزفلت ، ولن يتحرك الامريكيون على اي حال ، اذ ان خوفهم من اليابان سيحملهم على الهدوء . ومضى اتوليكو يقول :

« وظللت استمع والدهشة تعقل لساني ، في الوقت الذي اخذ فيه ريبنتروب يرسم صورة الحرب مع المانيا طبقاً للشكل الذي شاءت مخيلته ان ترسمها لها وليس في وسعه ان يرى إلا هذه الصورة التي تبعث على الدهشة ، من الانتصار الالماني المضمون في كل ميدان وضد كل من يشاء دخولها . وألمحت للوزير في النهاية ، انني حسب ما اعرف ، هناك اتفاق كامل بين الدوتشي والفوهرر حول استعداد ايطاليا والمانيا لخوض حرب ليست فورية (الوثائق الدبلوماتية الايطالية ـ الحلقة السابعة (١٢) رقم ٥٠٣ وكتاب « عشية الحرب » لتوينبي .)

ولكن اتوليكو الداهية لم يكن يصدق ما قاله لريبنتروب فقد ظلت برقياته طيلة شهر تموز تحذر من عمل فوري الماني في بولندة .

أوروبية . وهو لا يعتقد ان الوقت قد حان بعد بالنسبة إلى المحور لإشعال مثل هذه الحرب . واقترح بدلاً منها « سياسة سلمية انشائية تستمر عدة سنوات » وتسوّي فيها المانيا مشاكلها مع بولندة ، وايطاليا مشاكلها مع فرنسا عن طريق المفاوضات الدبلوماتية . ومضى الى أبعد من ذلك فاقترح عقد مؤتمر دولي آخر تشترك فيه كافة الدول الكبرى.[١]

وكان رد فعل الفوهرر ، كما روى شيانو في يومياته بتاريخ السادس والعشرين من تموز ينطوي على السخط ، ولذا فقد قرر موسوليني انه قد قد يكون من الافضل تأجيل اجتماعه بهتلر . [٢] واقترح عوضاً عن ذلك في السابع من آب ان يجتمع وزيرا خارجية البلدين فوراً . وتوضح يوميات شيانو في هذه الفترة ما ساد رومة من موجات القلق المتزايدة. فقد دوّن في يومياته بتاريخ السادس من آب ما يلي :

« علينا ان نجد وسيلة للخلاص من هـذا المأزق . فمسيرنا في ركاب الألمان يطوح بنا إلى الحرب التي سنخوضها في اسوأ الاوضاع بالنسبة إلى المحور ولا سيما بالنسبة إلى ايطاليا . فلقد نضبت خزائننا من احتياطي الذهب عندنا ، كما نفد مخزوننا من المعادن ... علينا أن نتجنب الحرب وننأى عنها . وقد اقترحت على الدوتشي فكرة اجتماعي بريبنتروب ... وسأحاول في هذا الاجتماع مواصلة البحث في مشروع موسوليني لعقد مؤتمر عالمي ...

« ٩ آب – وافق ريبنتروب على فكرة اجتماعنا . قررت ان اسافر مساء غدٍ لاجتمع إليه في سالزبرغ . ويرغب الدوتشي رغبة اكيدة في أن اقيم الدليل للالمان بالبراهين الخطيــــة على أن نشوب الحرب في هذه الآونة حمق ما بعده حمق .

« ١٠ آب – ان الدوتشي اكثر اقتناعاً اليوم منه في أي وقت مضى بضرورة تأجيل الصراع . ولقد وضع بنفسه مخطط التقرير

---

١ ـ وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٦) ص ٩٧١ – ٩٧٢ .

٢ ـ يوميات شيانو ص ١١٣ – ١١٤

الذي سأقدمه عن اجتماع سالزبورغ ، وانتهى فيه إلى الاشارة إلى المفاوضات الدولية ، لتسوية المشاكل التي تهدد حياة اوروبا تهديداً خطيراً .

« وقبل ان يسمح لي بالسفر أوصاني بأن ابلغ الألمان بصراحة ان الواجب يقضي علينا بتجنب الحرب مع بولندة بالنظر إلى استحالة حصرها ، وإلى ان الحرب العامة ستأتي بالكوارث للجميع »[1]

وهكذا تسلح وزير الخارجية الفاشي الشاب بمثل هذه الآراء المعقولة ، وان بدت ساذجة بالنسبة إلى الاوضاع الراهنة ، وبما زوده به الدوتشي من توصيات فغادر بلاده إلى ايطاليا ، حيث تلقى من ريبنتروب ومن هتلر بوجه خاص في الايام الثلاثة التالية ، الحادي عشر من آب والثاني عشر منه والثالث عشر ، اعظم صدمة واجهها في حياته .

شيانو في سالزبورغ واوبر سالزبورغ

١١ ، ١٢ ، ١٣ آب

امتد الحديث عشر ساعات في الحادي عشر من شهر آب ، بين شيانو وريبنتروب ، في « الضيعة » التي يملكها الأخير في فوشل ، في ضواحي سالزبورغ والتي استولى عليها وزير الخارجية من أحد الملكيين النمسويين بعد ايداعه في احد معسكرات الاعتقال . ووجد وزير الخارجية الايطالي المعروف بحدة مزاجه ان جو المقابلة ينطوي على حد تعبيره هـو على الفتور والكآبة . وخيم الصمت على الوزيرين فلم يتبادلا كلمة واحدة طيلة العشاء الذي تناولاه في نزل « الحصان الابيض » في بلدة سان ولفغانغ ، إذ لم يجدا ضرورة للحديث . وكان ريبنتروب قد ابلغ زائره في ساعة مبكرة من النهار ان القرار بمهاجمة بولندة ثابت لا يتغير .

---

١ — يوميات شيانو ص ١١٦ – ١١٨

ويقول شيانو انه سأل محدثه ... « حسناً يا ريبنتروب؟ ماذا تريدون ؟ هل تريدون الرواق البولندي او تريدون دانزيغ ؟ »

فرد ريبنتروب وهو يتفرّس في وجهه بعينيه الجامدتين الباردتين ... « لم يعد هذا ما نريده ، اننا نريد الحرب .. »

ورفض الوزير الألماني رفضاً قاطعاً صريحاً قبول حجة شيانو من أن الحرب مع بولندة لا يمكن حصرهـــا في نطاق محلي ، وان الدولتين الديموقراطيتين الغربيتين ، ستسرعان الى الحرب في مهاجمة بولندة . وكان شيانو لا يزال يذكر هذا اليوم الشديد البرودة الذي قضاه في فوشل وسالزبرغ ، عندما اقتعد زنزانته رقم ٢٧ في سجن فيرونا بعد اربع سنوات في اليوم الذي سبق عيد ميلاد عام ١٩٤٣ تنفيذ حكم الاعدام فيه بتحريض من الالمان ، فقـد روى في اليوميّة الأخيرة التي دونها في حياته في الثالث والعشرين من كانون الأول عام ١٩٤٣ ، ان ريبنتروب قد راهنه « إبان وجبة من هذه الوجبات الكئيبة التي تناولاها معاً في اوستيرراخشيشر هوف في سالزبرغ » على ان فرنسا وبريطانيا ستظلان على الحياد . ولم يؤد ريبنتروب قط الرهان الذي خسره والذي تعهد فيه باعطاء مجموعة من الدروع الألمانيـــة القديمة لشيانو في حالة خسارته ، مقابل صورة ايطالية فنية جميلة .[١]

وانتقل شيانو الى اوبرسالزبورغ حيث عاد هتلر ، الذي قابله مرتين في اليومين التاليين ، الثاني عشر والثالث عشر من آب يؤكد فيه ان فرنسا وبريطانيـا لن تحاربا . وكان الفوهرر اكثر دماثة ولطفاً من وزير خارجيته ، ولكنه لم يكن اقل منه تصميماً وصلابة في عزمه على خوض الحرب . وقد اتضح هذا التصميم في يوميات شيانو وتقاريره ، وكذلك في الوقائع الالمانية السرية عن الاجتماع . وقد عثر عليها مع الوثائق الالمانية المصادرة[٢]. وقد رأى الوزير الايطالي هتلر

---

١ ـ يوميات شيانو ص ١١٨ ـ ١١٩ وص ٥٨٢ ـ ٥٨٣ واوراق شيانو الدبلوماتيـة ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨ وكذلك الوثائق الدبلوماتية الايطالية الحلقة الثامنة (٨) رقم (١)

٢ ـ المؤامرة النازية والعدوان(٨) ص٥١٦ ـ ٥٢٩. وثائق وزارة الخارجية الالمانية(٧)=

يقف امام منضدة ضخمة وقد تناثرت فوقها الخرائط العسكرية التي يستعملها رجال الاركان . وبدأ الفوهرر حديثه مزهواً بقوة جدار المانيا الغربي ، فوصفه بأنه لا يمكن اختراقه . واضاف ان بريطانيا لا تستطيع أن تقذف فرنسا بأكثر من ثلاث فرق . وفي وسع فرنسا بالطبع ان تزج في الميدان قوة اكبر بكثير ، ولما كانت بولندة ستهزم « في وقت قصير للغاية » فسيصبح في وسع المانيا أن تحشد مائة فرقة في الغرب « في معركة الحياة او الموت ، التي يمكن لها ان تبدأ آنذاك ».

ولكن هل ستبدأ المعركة ؟ لقد راح الفوهرر بعد لحظات قليلة ، وقد ازعجه رد شيانو الاول ، يناقض نفسه . فلقد جرؤ الوزير الايطالي ، كما قرر في قرارة نفسه ، على الحديث بصراحة إلى هتلر ، وقال ، نقلاً عن الوثائق الألمانية « ان ايطاليا مندهشة جداً من هذا التحرج غير المنتظر كلية في الوضع العام » . وراح يعلن برمه من أن المانيا قد أخفت نياتها عن حليفتها ثم قال : « بل ولعل ما هو ادهى وامر ، أن وزير خارجية الرايخ قد ذكر له في ميلان وبرلين في شهر ايار ، ما يناقض اقوال اليوم ، واكد له ان قضية دانزيغ ستسوّى في الوقت المناسب ، وعندما مضى شيانو ، يعلن رأيه بأن الحرب مع بولندة ستتوسع لتصبح حرباً اوروبية ، قاطعه مضيفه قائلاً انه يخالفه رأيه هذا .

ومضى هتلر يقول : « انني مقتنع شخصياً غاية القناعة من ان الدولتين الغربيتين ، ستتراجعان في النهاية عن إيقاد نيران حرب عامة » . ورد شيانو على ذلك قائلاً « انه مع أمله في ان يصح ما يقوله الفوهرر ، إلا أنه لا يستطيع أن يصدقه » . وراح وزير خارجية ايطاليا يشرح بعد ذلك بتفصيل واسهاب أوجه الضعف في ايطاليا ، ودوّن الالمان في تسجيلهم للاجتماع ان الفوهرر لا بد وأن يكون قد استنتج اخيراً من صورة الشقاء والتعاسة التي رسمها الوزير الايطالي لمضيفه ، بأنه لا يستطيع ان يعتمد على ايطاليا وأنها لن تكون

ـص ٣٩ - ٤٩ و ٥٣ - ٥٦ . اوراق شيانو الدبلوماتية - ٣٠٣ - ٣٠٤ ، الوثائق الدبلوماتية الايطالية - الحلقة الثالثة عشرة . رقما (٤) و (٢١) . يوميات شيانو ١١٩ - ١٢٠ و ٥٨٢ - ٥٨٣ .

ذات عون كبير له في حربه المقبلة[1] . وقـال شيانو ان من اهم الأسباب التي تدعو موسوليني إلى الرغبة في تأجيل الحرب ، « تعليقه اهمية كبرى على المعرض العالمي لعام ١٩٤٢ الذي قرر اقامته وفقاً للخطة المرسومة » . ولا ريب في ان هذه الملاحظة قـد اذهلت هتلر ، الذي كانت الخرائط والحسابات العسكرية تشغل عليه جماع تفكيره . ولا ريب ايضاً في ان ذهوله قد تزايد، عندما اخرج شيانو من جيبه بكل سذاجة وبساطة مسودة بلاغ رسمي طلب نشره واذاعته ، ينص على ان اجتماع وزيري خارجية دولتي المحور قـد « اكد النوايا السلمية لدولتيهما » وايمانهما بامكان الحفاظ على السلام عن « طريق المفاوضات الدبلوماتية العادية » . واوضح شيانو ان الدوتشي كان يفكر بعقـد مؤتمر سلمي للدول الأوروبية الكبرى ، ولكن بالنظر إلى « شكوك الفوهرر » ، فانـه يعدّل الاقتراح باستبدال فكرة المؤتمر ، بالمفاوضات الدبلوماتية العادية .

ولم يرفض هتلر في اليوم الأول رفضاً قاطعاً فكرة المؤتمر ، ولكنه ذكّر شيانو بأن «روسيا لا يمكن ان تستثنى في المستقبل من أي اجتماع للدول الكبيرة». وكان هـذا القول ، أول ذكر للاتحاد السوفياتي ، ولكنه لم يكن الاخير على أي حال .

وعندما حاول شيانو اخيراً ان يعرف من مضيفه موعد الهجوم على بولندة، رد هتلر ، ان اقتراب موسم الخريف بأمطاره الشديدة التي تحيل شوارع تلك البلاد الفقيرة وطرقها القليلة المعبدة إلى عائق يحول دون استخدام القوات الآلية والمدرعة على نطاق واسع ، يجعل من المحتوم « ايجاد التسوية مـع بولندة بأي شكل من الاشكال قبل نهاية شهر آب . »

وهكذا عرف شيانو اخيراً موعد الغزو أو الموعد الاخير المحدد له ، إذ لم تمض ثوان على هذا القول حتى راح الفوهرر ينفجر قائلاً بأنه مصمم في حالة قيام

١ - أحس ريبنتروب في لحظة من لحظات الاجتماع بالملل والضيق فراح يقول لشيانو ضجراً... « اننا لسنا في حاجة البكم». ورد عليه شيانو قائلا ... « سيكشف لنا الغد عن صحة قولك ». (من يوميات الفريق هولدر غير المطبوعة - يومية الرابع عشر مـن آب (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٥٥٦ . ويقول هولدر انه سمع هذا الكلام من وايز ساكر) .

أي استفزاز جديد من جانب البولنديين على « مهاجمة بولندة في غضون ثمان واربعين ساعة» . ومضى يقول... «ولذا فمن الواجب توقع مهاجمة بولندة في أية لحظة » . وقد انهت هذه الثورة العاصفة محادثات اليوم الأول ، بعد أن وعد هتلر على أي حال ، بالتفكير في الاقتراحات الايطالية .

وبعد تفكير دام اربعاً وعشرين ساعة ، قال الفوهرر لشيانو في اليوم التالي انه يرى من الأفضل عدم إذاعة أي بلاغ رسمي عن المحادثات[1]. وراح يضيف انه بالنسبة إلى رداءة الطقس في الخريف ..

« فإن من المهم كل الأهمية أولاً انتوضح بولندة نواياها في اقصر وقت ممكن ، وان لا تقوم ثانية بأي عمل من اعمال الاستفزاز ، لأن المانيا لن تتسامح به » .

وعندما استفهم شيانو عن المقصود « بأقصر وقت ممكن » رد هتلر قائلاً : « قبل نهاية آب على اكثر تقدير » . واوضح لسامعه ان هزم بولندة لن يستغرق اكثر من اسبوعين ، إلا أن « التصفية النهائية» قد تتطلب من اسبوعين إلى اربعة اسابيع أخرى . وهو تكهن رائع بالوقت الذي استغرقته العملية فعلاً .

---

١ ـ على الرغم من ان السجلات الألمانية توضح صراحة ان شيانو قد وافق هتلر « على عدم نشر أي بلاغ رسمي عندانتهاء المحادثات» إلا ان الالمان سرعان ما خدعوا حليفهم الايطالي،فقد اصدرت وكالة الانباء الالمانية الرسمية (د. ن. ب.) بلاغاً بعد ساعتين من سفر شيانو ، ودون مشاورة الايطاليين مطلقاً ، يقول بأن المحادثات قد تناولت جميع مواضيع الساعة ، مع العناية الخاصة بموضوع دانزيغ ، واسفرت عن اتفاق كامل « مائة في المائة ». واضاف البلاغ قائلا ان المحادثات لم تترك مشكلة واحدة معلقة ، ولذا فلا حاجة الى اية اجتماعات اخرى لعدم قيام ضرورة لها . وثار اتوليكو ، واحتج على الالمان متهماً اياهم بالخداع ، وراح يسر الى هندرسون سفير بريطانيا ، بأن الحرب باتت وشيكة الوقوع . ووصف في برقية غاضبة بعث بها الى رومة البلاغ الالماني « بالمكيافلية » ، وان اذاعته كانت متعمدة لربط ايطاليا الى عجلة المانيا بعدهجوم الاخيرة على بولندة ، ورجا في البرقية من موسوليني ان يكون صلباً مع هتلر في مطالبة المانيا بتحقيق شرط « التشاور » الذي تضمنه ميثاق الفولاذ المعقود بين البلدين وفي الاصرار على المانيا بموجب هذا الشرط ، بمنح بولندة مهلة شهر واحد لتسوية قضية دانزيغ بالطرق الدبلوماسية (الوثائق الدبلوماسية الايطالية ـ الحلقة السابعة (٨) رقم ٢٨ ووثائق وزارة الخارجيةالبريطانية (٦) رقم ٦٦٢).

وراح هتلر في نهـــاية الاجتماع يكرر الفاظ النفاق التي الف توجيهـــا إلى موسوليني على الرغم من أن شيانو لا بد وان يكون قـد أقنعه باستحالة الركون اليه . فقد قال ان من حسن حظه ، كما يشعر شخصياً « بأن يعيش في عصر يضم بالاضافة اليه سياسياً آخر، يستطيع أن يقف في التاريخ كشخصية عظيمة وفذة. وأن من مصادر سعادته البالغة ان يكون صديقاً لهذا الرجل . وعندما يحـــين الوقت للصراع المشترك ، فسيجد نفسه دائمـــاً إلى جانب الدوتشي مهما تكن النتيجة » .

ومهما يكن لهذه العبارات من تأثير على موسوليني المزهوّ بشخصه . إلا أنها لم تؤثر على صهره الشاب مطلقاً . فقد دوّن في يومياته بتاريخ الثالث عشر من آب وبعد اجتماعه الثاني بهتلر يقول : « إنني اعود لرومه وأنا اشعر بالتقزز المطلق من الألمان ومن زعيمهم ، ومن طريقتهم في العمل . فلقـــد خدعونا وضللونا ، وكذبوا علينا . وها هم الآن يجرّوننا إلى مغامرة لسنا راغبين فيها ، وقد تطوح بعهدنا بل وببلادنا إلى الهاوية . »

لكن ايطاليا كانت في تلك الآونة ابعد البلاد عن اهتمام هتلر . فقد تركزت جميع افكاره على روسيا. وتروي وقائع المحادثات مع شيانو كما دوّنها الألمان ان الفوهرر ، تلقى قبيل نهاية الاجتماع الأول في الثاني عشر من آب برقيـــة من موسكو . وقد توقف الحديث بضع دقائق بينما كان هتلر وريبنتروب يدرسانها ، ثم افضيا إلى شيانو بمحتوياتها .

وقال هتلر لشيانو : « لقد وافق الروس على ايفاد مفاوض سياسي ألمـــاني الى موسكو ».

١٥

الميثاق النازي - السوفياتي

يبدو ان « برقية موسكو » التي افضى هتلر بمحتوياتها الى شيانو في أوبر سالزبرغ بعد ظهر الثاني عشر من آب ، شأنها في ذلك شأن « برقيات » مماثلة سابقة تحدثنا عنها في هذا الكتاب ، مختلقة ولا وجود لها . فلم اعثر في وزارة الخارجية الالمانية على أية برقية من هذا النوع . وكل ما عثرت عليه ، برقية ، بعث بهـا شولنبرغ من موسكو الى برلين في نفس التاريخ تتحدث عن وصول البعثتين العسكريتين البريطانية والفرنسية الى العاصمة الروسية ، وعن الانخاب الودية التي تبادلها الروس مع ضيوفهم .

ولكن يبدو انهناك بعض الاساس لهذه «البرقية» التي حاول هتلر وريبنتروب التأثير بها على شيانو . فقد تلقت أوبر سالزبرغ رسالة على جهاز « التليبرينتر » من وزارة الخارجية في برلين تتحدث عن نتائج الزيارة التي قام بهـا القائم بالاعمال الروسي في ذلك اليوم لشنوري في برلين. ولقد ابلغ استاخوف الموظف الألماني بأن مولوتوف بات على استعداد للبحث في المواضيع التي اثارها الألمان بما فيها قضية بولندة وغيرها من المسائل السياسية . وتقترح الحكومة السوفياتية إجراء هذه المفاوضات في مدينة موسكو ، ولكن استاخوف أوضح بأن العجلة يجب ان لا ترافق هذه المفاوضات . وسجل شنوري في تقريره الذي ابرق بـه على صورة الاستعجال الى اوبر سالزبرغ بأن الديبلوماتي الروسي قد اكد له

بأن « تعليمات موسكو من مولوتوف تصر على التفاوض على مراحل .... وان المحادثات يجب انتدور علىدرجات »[1]

ولكن ادولف هتلر ، لا يستطيع انتظار مفاوضات « عـــلى مراحل او درجات » . فلقد رأينا كيف انه حسر النقاب لشيانو الذي اصابه الفزع بأنـه حدد الأول من ايلول آخر موعد للهجوم على بولندة ، ولم يبق على هذا الموعـد اكثر من اسبوعين. واذا كان ثمة من سبيل لتهديم المحادثات الانكليزية ـالفرنسية مع الروس ، وعقد صفقته مع ستالين ، فان هذا يجب أن يتم بسرعة ، وبقفزة واحدة ، لا على درجات أو مراحل .

وحل يوم الاثنين الرابع عشر من آب ، وكان من الايام العصيبة ايضاً .وبينما كان السفير فون دير شولنبرغ ، الذي لم يكن كما يبدو موثوقاً كل الثقة من هتلر وريبنتروب ، يبرق إلى وايز ساكر من موسكو،ذاكراً له بأن مولوتوف «رجل غريب وشخصية معقدة » وبأنه لا يزال « على رأيـــه في وجوب تجنب أية إجراءات مستعجلة في علاقاتنا مع الا تحاد السوفياتي » ، إذا به يتلقى من برلين برقية « عاجلة للغاية . »[2] وقد بعث ريبنتروب الذي كان لا يزال في « ضيعته » في فوشيل بهذه البرقية الى الوهلمشتراسة في برلين فأبرقت بها في الساعة العاشرة والدقيقة الثالثة والخمسين من بعدظهر الرابع عشرمن آب الى سفيرها في موسكو، طالبة اليه زيارة مولوتوف فوراً وتلاوة مذكرة طويلة على مسامعه « حرفياً » .

كانت هذه هي مقامرة هتلر العظيمة والاخيرة . ولقد ذكر ريبنتروب في برقيته ان العلاقات الالمانية الروسية قد « وصلت الى نقطة تحول تاريخية » ... وان ليس ثمة أي اختلاف في المصالح بين المانيا وروسيا ... ولقد كانت الامور تسير على احسن ما يرام بالنسبة الى البلدين عندما كانا من الأصدقـــاء ثم ساءت عندما باتا من الاعداء . « ومضى ريبنتروب يقول :

«وليس ثمةمن شكفي أن الازمة التي خلقتها السياسة البريطانية

---

١ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٥٨ ـ ٥٩ .

٢ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٦٧ ـ ٦٨ .

في العلاقات البولندية ـ الألمانية ، والمحاولات لعقد تحالف يترابط مع تلك السياسة ، تجعل من اللازم اللازب ، ايضاح العلاقات الألمانية الروسية ايضاحاً سريعاً. وإذا لم يتحقق هذا فإن الامور قد تتحول بشكل يحرم كلتا الحكومتين من إمكانية إعادة الصداقة الألمانية ـ الروسية ، ومن الايضاح المشترك للقضايا الأقليمية في اوروبا الشرقية بالنسبة الى البلدين . ومن واجب القيادة في كلا البلدين والحالة هذه ان لا تسمح للوضع بالتردي ، وعليهما ان تتخذ من الاجراءات في الوقت المناسب ما يضمن عدم حدوث ذلك . وقد يكون من المفجع أن يؤدي الجهل المتبادل للنوايا ووجهات النظر بالشعبين إلى التفرق عن بعضهما بصورة قاطعة ونهائية .

وهكذا بات وزير الخارجية الألماني على استعداد للعمل في الوقت المناسب « نيابة عن الفوهرر » ثم مضى يقول :

« ولقد قيل لنا ان الحكومة السوفياتية راغبة ايضاً في توضيح العلاقات الألمانية ـ الروسية ، ولما كانت التجارب السابقة توحي على أي حال بأن هذا الايضاح لا يمكن الوصول اليه إلا ببطء وبالطرق الدبلوماتية المألوفة ، فإنني على استعداد للقيام بزيارة الى موسكو ، لأشرح نيابة عن الفوهرر آراءه إلى المسيو ستالين مباشرة. وإني لأرى ان مثل هذا الحديث المباشر كفيل بأن يحدث تبدلاً في الموقف ، وآنذاك لا يغدو من المستحيل ، وضع القواعد لإيجاد تسوية نهائية للعلاقات الألمانية ـ الروسية . »

ويتبيَّن من هذا انه في الوقت الذي لم يكن فيه وزير الخارجية البريطانية راغباً بزيارة موسكو ، كان وزير الخارجية الألمانية راغباً كل الرغبة في القيام بمثل هذه الزيارة ، وهي مقارنة اعتقد النازيون ، وكانوا مصيبين في اعتقادهم ، بأنها لا بد وان تترك انطباعاً عميقاً في نفس ستالين الكثير الشكوك . ورأى الألمان أن من الأهمية بمكان عظيم ان ينفذوا برسالتهم رأساً إلى الطاغية الروسي

نفسه . ولهذا أضاف ريبنتروب ملحقاً إلى برقيته العاجلة الى شولنبرغ قال فيه :

« وانني اطلب اليك ان لا تقدم هذه التعليمات خطياً الى المسيو مولوتوف ، بل أن تحاول ايصالها مباشرة إلى المسيو ستالين في ادق صورة ممكنة ، واخولك ، إذا ما اتيحت لك الفرصة ان تطلب إلى المسيو مولوتوف نيابة عني ، ترتيب مقابلة لك مع المسيو ستالين تتمكن عن طريقها من نقل هذه الرسالة الهامة مباشرة اليه . وانني لاشترط للقيام بزيارتي ان تجري محادثة مسهبة مع ستالين بالاضافة إلى ما سيتم من حديث بينك وبين مولوتوف . » [١]

وقد انطوى اقتراح وزير الخارجية الألمانية على « طعم » يكاد يكون مكشوفاً وكان من حق الالمان ان يعتقدوا بأن روسيا ستسارع إلى التقاطه . وبالاضافة إلى تكرار التأكيد « بعدم وجود مشكلة بين بحري البلطيق والاسود لا يمكن حلها في مصاحة البلدين حلاً كاملاً » راح ريبنتروب يوضح تأكيده بذكر « دول البلطيق وبولندة وقضايا جنوب اوروبا الشرقي وما شابهها » . كما راح يتحدث عن ضرورة « ايضاح القضايا الاقليمية في شرق اوروبا ايضاحاً مشتركاً » .

وهكذا كانت المانيا على استعداد لاقتسام اوروبا الشرقية ، بما في ضمنها بولندة ، مع الاتحاد السوفياتي . وكان هذا العرض من النوع الذي لا تستطيع بريطانيا وفرنسا تقديمه إلى موسكو ، ولا ترغبان في عرضه حتى ولو استطاعت . وكان هتلر بعد تقديم هذا العرض واثقاً من أن موسكو لن ترفضه ، ولذا فقد استدعى في نفس اليوم الرابع عشر من آب القادة العامين لقواته المسلحة ليستمعوا الى محاضرته عن خطط الحرب واحتمالاتها .

المؤتمر العسكري في اوبر سالزبورغ [٢]

١٤ آب

قال هتلر لسامعيه من النخبة المختارة عندما اجتمعوا : « إن المسرحية

١ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٦٢ - ٦٤ .

٢ - كانت يوميات الفريق هولدر رئيس هيئة اركان حرب الجيش ، والتي لم تطبع ، هي =

الكبرى تقترب الآن من ذروتهـــا » . ومضى يقول انه على الرغم من أن الانتصارات السياسية والعسكرية لا يمكن أن تنال دون مجازفة . الا أنه واثق من أن بريطانيا وفرنسا لن تحاربا . فهناك سبب واحد على الأقل يحول دون ذلك ، وهو ان بريطانيا « تفتقر الى القادة من ذوي الوزن الحقيقي . فالرجال الذين تعرفت اليهم في ميونيخ ليسوا من الطراز الذي يقـــدم على اشعال حرب عالمية جديدة » . ولم يستطع الفوهرر ، كما في الاجتماعات السابقة مع القـــادة العسكريين ، أن ينأى بفكره لحظة واحـــدة عن انكلترا ، فراح يسهب في الحديث عن مصادر قوتها وضعفها ولا سيما عن النواحي الاخيرة . ودوّن هولدر في يومياته اقوال الفوهرر على النحو التالي :

« لن تسمح انكلترا اليوم ، خلافاً لما كان عليه الوضع في عام ١٩١٤ ، لنفسها بالانغماس في حرب تستغرق سنوات عـــدة ... وهذا مصير جميع البلاد الغنيّة ... ولا تملك انكلترا اليـــوم حتى المال الذي يمكنها من خوض حرب عالمية ، فلماذا تحارب انكلترا ؟ ليس هناك من هدف ، ولن تسمح لنفسها بأن تقتل دفاعاً عن حليف لها . »

وراح هتلر يتساءل بعد ذلك عن الاجـــراءات العسكرية التي تستطيع بريطانيا وفرنسا القيام بها فقال :

ـ المصدر الوحيد لما دار في هذا الاجتماع ، وقد ادرج وقائعه في يوميته بتاريخ الرابع عشر من آب عام ١٩٣٩ . وقد احتفظ هولدر بيومياته مكتوبة بطريقة الاختزال في غابلزغر ، وهي وثيقة لا تقدر بثمن إذ تسجل الاحداث العسكرية والسياسية السرية التي وقعت في المانية النازية بين الرابع عشر من آب عام ١٩٣٩ وبين الرابع والعشرين من ايلول عام ١٩٤٢ ، وهو تاريخ اقصائه من منصبه . وتألفت يوميته عن اجتماع اوبرسالزبرغ من ملاحظات دونها بالاختزال وسجل فيها ما قاله هتلر ، بالاضافة الى ملخص اورد في النهاية . ومن الغريب كل الغرابة عدم اقدام اي ناشر امريكي او بريطاني على نشر يوميات هولدر . وقد تمكن المؤلف من الوصول الى النسخة الالمانية لمفصلة لهذه اليوميات كما كتبها هولدر نفسه إبان وضع هذا الكتاب . ويؤيد التسجيل اليومي لاعمال هتلر ، تاريـــخ هذا الاجتماع ويضيف بأن الدكتور تورت المهندس الالمـــاني الذي بنى الجدار الغربي قد شهد هذا الاجتماع بالاضافة الى القادة العامين وهم براوختش وغورنغ وريدر .

« ليس من المعقول ان تهاجم الدولتان جدارنا الغربي . والقيام بحركة التفاف في الشمال عبر بلجيكا وهولندة لن يضمن لهما النصر العاجل . على أي حال ، ان أي اجراء من هذا النوع ، لن يكون ذا نفع للبولنديين .

« وتقف هذه العوامل حائلاً دون خوض الحرب من جانب انكلترا وفرنسا ... وليس ثمة ما يدعوهما الى خوضها ... وانا واثق من ان رجال ميونيخ لن يغامروا بها ... وينظر اركان الحرب في بريطانيا وفرنسا نظرة متشائمـــة الى احتمالات الصراع المسلح ، ولذا فهم ينصحون حتماً بعدم خوضه

« وتدعم جميع هذه الحجج اعتقادي بأنه على الرغم من تبجحات انكلترا وتهديداتها ، وعلى الرغم من انها قد تسحب سفيرها ، أو تفرض حصاراً كاملا على تجارتنا، إلا انها لن تلجأ حتماً إلى التدخل المسلح في الصراع . »

وراح هتلر يوضح بعد ذلك ان في الإمكان والحالة هذه الانتهاء من امـــر بولندة وهي وحيدة ، ولكن من الضروري هزمهـــا في غضون « اسبوع أو اسبوعين » ، بحيث يقتنع العالم بانتهائها فلا يحرك ساكناً لمحاولة انقاذها .

ولم يكن هتلر على استعداد في ذلك اليوم لابلاغ قادته العسكريين بالمدى الذي يريد ان يمضي فيه لعقد صفقة مع روسيا ، على الرغم من ان مثل هـــذه المعلومات كان لا بد وان ترضيهم ، لا سيما وانهم كانوا واثقين من شيء واحد وهو عجز المانيا عن خوض الحرب في جبهتين .ولكنه تحدث اليهم بما (حرك) شهيتهم طلباً للمزيد .

وراح يقول ... (ان روسيا ليست على استعداد مطلقاً . لرفع الكستناء من النار لمصلحة غيرها) . واوضح لسامعيه (الاتصالات المسترخية) مع موسكو ، والتي بدأت بالمفاوضات التجارية . واضاف انه يفكر الآن بارسال (مفاوض إلى موسكو ، ويتساءل عما إذا كان الوضع يتطلب ان يكون من

ذوي الشخصيات الكبيرة) . ولا يحس الاتحاد السوفياتي بأي التزام نحو الغرب وقد تفهم الروس وجوب تحطيم بولندة، وهم مهتمون (بتحديد مناطق المصالح) بين البلدين . وذكر الفوهرر انه (ميال لمقابلتهم في منتصف الطريق).

ولا تتضمن ملاحظات هولدر الوفيرة العدد والتي دوّنها بطريقة الاختزال عن هذا الاجتماع أي ذكر إلى أنه ، بوصفه رئيساً لهيئة اركان حرب الجيش ، أو ان الفريق فون براوختش القائد العام، أو غورنغ،قد ناقشوا الفوهرر في الطريق التي ينتوي سلوكها ، والتي ستؤدي بألمانيا إلى حرب اوروبية . إذ على الرغم من ثقة هتلر، لم يكن هناك ادنى دليل على ان فرنسا وبريطانيا لن تخوضا الحرب أو على ان روسيا ستظل بعيدة عنها وعلى النقيض من ذلك ، تلقى غورنغ قبل نحو من اسبوع انذاراً مباشراً بأن البريطانيين سيخوضون الحرب حتماً إذا قامت المانيا بمهاجمة بولندة .

فلقد حاول صديق سويدي له هو بيرغرد اهليروس في مطلع شهر تموز اقناعه بأن الرأي العام البريطاني لن يستطيع احتمال أي عدوان نازي جديد ، وعندما اعرب قائد السلاح الجوي الالماني عن شكوكه فيما قاله الصديق ، أعد له هـذا اجتماعاً خاصاً بجماعة مؤلفة من سبعة من كبار رجال الاعمال البريطان ، عقد في دار داهليروس المذكور في السابع من آب في شلزوج ـ هولشتاين على مقربة من الحدود الدانماركية . وحاول رجال الأعمال البريطانيون شفوياً عن طريق مذكرة مكتوبة اقناع غورنغ بأن بريطانيا العظمى ستحترم التزاماتها التعاهدية مع بولندة في حالة وقوع هجوم الماني عليها. ومن المشكوك فيه ان يكونوا قد افلحوا في اقناعه ، وان داهليروس وهو من رجال الأعمال ايضاً قد اعتقد بنجاحهم [1] . ويبدو ان هذا السويدي الغريب ، الذي قدر ان يلعب دوراً

---

١ ـ قال داهليروس في محكمة نورمبرغ في التاسع عشر من آذار عام ١٩٤٦ ، عند ظهوره امامها كشاهد دفاع عن غورنغ،ان المشير قد اكد له ولرجال الاعمال البريطانيين مقسماً بشرفه، انه سيعمل كل ما في وسعه لتجنب الحرب . ولكن حقيقة الحالة الفكرية التي كان غورنغ واقعاً تحت سيطرتها ظهرت بوضوح في بيان افضى به بعد يومين من مقابلته لزائريه البريطانيين ،إذ قال=

معيناً كرسول سلام بين المانيا وبريطانيا في الاسابيع القليلة المحمومة التالية ، كان على علاقات وثيقة مع كبار المسؤولين في برلين ولندن . فلقد كان في وسعه ان يدخل « داوننغ ستريت » حيث اجتمع في العشرين من تموز الى اللورد هاليفاكس ، وبحث معه موضوع الاجتماع المقبل لرجال الاعمال بغورنغ . وما عتم ان دعي لمقابلة كل من هتلر وتشمبرلين ايضاً . وعلى الرغم من نواياه الطيبة في سعيه لانقاذ السلام ، إلا انه كان ساذجاً وكان من الهواة تماماً في عمـــله الدبلوماتي. وقد تمكن السير ديفيد ماكسويل–فايف ، بعد سنوات طويلة وفي اثناء محاكمات نورمبرغ ، اثر مناقشة حادة محطمة ، من حمل المتطفل عـــلى الدبلوماتية ، على الاعتراف وهو مثقل بالهم والحزن ، بأنه كان ضحية خداع غورنغ وهتلر .[1]

ولماذا لم يجرؤ هولدر وهو الذي كان زعيم المؤامرة قبل احد عشر شهراً لإقصاء هتلر عن الحكم ، على الحديث في اجتماع الرابع عشر من آب ومعارضة الفوهرر في تصميمه على المضي في الحرب ؟ وحتى لو اعتقد بأن لا جدوى من هذه المعارضة ، ألم يكن في وسعه أن يستأنف خططه السابقة للخلاص من الطاغية لنفس الاسباب التي دفعته الى التآمر عليه قبل مؤتمر ميونيخ والتي كان أهمها أن الحرب ستكون كارثة بالنسبة الى المانيا ؟ وقد حاول هولدر بعد عهد

= متبجحاً بالقوة الدفاعية للسلاح الالماني الجوي ... « لن يتعرض الروهر لقنبلة واحدة . واذا تمكنت قاذفة معادية واحدة من الوصول الى الروهرفان يكون اسمي هيرمان غورنغ، بل في وسعكم ان تطلقوا علي اسم ماير » ... وقد قدر له ان يبتلع هذا التبجح بعد فترة قصيرة .

١ ــ عثر على مذكرة رجال الاعمال البريطان في ملف مكتب غورنغ ونشرت في « وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ١٠٨٨ - ١٠٩٣ » وتتضمن الوثيقة ملاحظات كتبها غورنغ بخط يده مبدياً دهشته من بعض البيانات التي يبدو انه لم يستطع تصديقها . وقد شرح داهليروس في كتابه « المحاولة الاخيرة » القصة الخيالية والسخيفة لجهوده السلمية التي دفعت به الى مقدمـــة مسرح الحوادث لمدة قصيرة في فترة من اخطر فترات التاريخ. وقد جاءت القصة ايضاً في شهادته في نورمبرغ (محاكمات كبار مجرمي الحرب ٩ - ص ٤٥٧ - ٤٩١) وفي كتاب « مقدمـــة دبلوماتية للسير لويس ناميير ص ٤١٧ - ٤٣٣ » . وعنوان الفصل « متطفل على الدبلوماتية » .

طويل وفي محاكمات نورمبرغ شرح تقاعسه هذا فقال انه حتى ذلك التاريخ أي اواسط آب عام ١٩٣٩ ، كان لا يزال يعتقد بأن هتلر لن يغامر في النهاية بإشعال الحرب ، مهما صدر عنه من تهديد ووعيد . [١] وتظهر اليومية التي كتبها هولدر في اليوم التالي ، أي في الخامس عشر من آب ، وبعد اجتماع اوبرسالزبرغ مع هتلر ، أن الفريق لم يكن يعتقد كذلك أن فرنسا وبريطانيا ستغامران بالحرب ايضاً .

أما بالنسبة إلى براوختش ، فلم يكن هذا القائد من طراز الرجال الذين يستطيعون مناقشة الفوهرر فيما اعتزم القيام به . اما هاسيل الذي عرف في الخامس عشر من آب من غيزيفيوس بالاجتماع العسكري الذي عقد في اوبرسالزبرغ ، فقد بعث برسالة شفوية إلى الجيش يعرب له فيها عن اقتناعه الاكيد من أن بريطانيا وفرنسا ستتدخلان في الحرب إذا هاجمت المانيا بولندة . ودوّن هاسيل في يومياته قائلاً : « لا يمكن عمل شيء معه ، فهو إما ان يكون جباناً أو انه لا يفهم ما يدور حوله ... وليس في وسعنا أن نأمل بشيء من القادة العسكريين ... فقليلون منهم يحملون افكاراً صافية من امثال هولدر وكاناريس وتوماس . » [٢]

وكان الفريق توماس ، الرئيس اللامع لفرع الاقتصاد والتسلح في القيادة العامة للقوات المسلحة هو الرجل الوحيد الذي جرؤ على تحدي الفوهرر علناً ، فبعد بضعة ايام من انعقاد المؤتمر العسكري في الرابع عشر من آب ، واثر محادثات مع المتآمرين الكسالى والخاملين من امثال غويديلروبيك وشاخت ، أعد الفريق توماس مذكرة قرأها بنفسه على الفريق كايتل رئيس القيادة العامة للقوات المسلحة . وقد ذكر ان التفكير بحرب سريعة وصلح سريع ، مجرد خيال ووهم فالهجوم على بولندة ، سيطلق الحرب العالمية من عقالها ، والمانيا تفتقر إلى المواد الأولية والغذائية التي تمكنها من خوضها . ولكن كايتل ، الذي كان يستمد آراءه من هتلر ، هزأ بفكرة الحرب الكبرى ، وقال ان بريطانيا اكثر ضعفاً ، وفرنسا

---

١ ـ المؤامرة النازية والعدوان ـ الملحق ب ـ ص ١٥٦٢

٢ ـ هاسيل ـ يوميات ص ٥٣ و ٦٣ ـ ٦٤

اكثر انحلالاً وتفسخاً ، وامريكا أقل اهتماماً ، من ان تخوض كلهـــا الحرب في سبيل بولندة . [1]

وهكذا عندما بدأ النصف الثاني من شهر آب ، اندفع القادة العسكريون الألمان الى الأمام ينفذون خططهم لإزالة بولندة من الوجود وحمـــاية الرايخ الالماني من الغرب في حالة تقرير الدولتين الديموقراطيتين خلافاً لكل ما هو متوقع ولكل دليل ، التدخل في الحرب ، وصدر في الخامس عشر من آب ، قرار سري بالغاء مهرجان الحزب النازي السنوي في نورمبرغ ، وهو المهرجان الذي كان هتلر قد اعلنه مهرجاناً للسلام ، وكان مقرراً عقده في الاسبوع الأول من شهر ايلول . واستدعي نحو من ربع مليون للانضام الى جيوش الغرب . وصدرت أوامر مسبقـــة بالتعبئة العامة الى محطـــات السكك الحديدية . واعدت الخطط لنقل قيادة الجيش العامة الى زوسين الواقعة الى الشرق من برلين . وابلغت قيادة البحرية العامة الفوهرر في الخامس عشر من آب ان بارجتي الجيب غراف شبي دويتشلاند، ومعها احدى وعشرون غواصة اصبحت مستعدة للإبحار الى مراكزها في الاطلسي .

وكتب هولدر في السابع عشر من ايلول يومية غريبة اذ قال فيها : « اتصل كاناريس بالشعبة الأولى (العمليات) للتأكد . هملر . هايدريش ، اوبرسالزبورغ : ١٥٠ بزة عسكرية بولندية مع ملحقاتها الى سيليزيا العليا » .

ترى ما معنى هذا الكلام ؟ لقد اتضح معناه بعد الحرب ، فهو متعلق بحادثة من اكثر الحوادث التي رتبها النازيون رخصاً وخداعاً . فكما سبق لنا ان رأينا، من تفكير هتلر وقادة جيشه في طبخ « حادث » كاغتيال الوزير الألماني المفوّض في براغ او فيينا لتبرير غزو تشيكوسلوفاكيا ، أو النمسا ، أخذ هتلر وقادته يدرسون الآن ، استباقاً للتطورات ، طبخ حادث مماثل يستطيعون استخدامه في نظرهم كمبرر أمام العالم لعدوانهم المبيّت على بولندة .

وكان الاسم الرمزي للخطة « عملية هملر » وكانت الفكرة بسيطة للغاية ،

---

١ - توماس ـ التفكير والتطورات في عدد كانون اول ١٩٤٥ من المجلة السويسرية الشهرية

وخالية من الاصطناع . اذ تقرر ترتيب هجوم زائف أعده الحرس النــازي والغستابو على محطة اذاعة المانية في غليويتز على مقربة من الحدود البولنديــة ، يقوم به بعض المعتقلين المحكوم عليهم بالاعدام ، بعد الباسهم الملابس العسكرية البولندية . ويقع اللوم نتيجة هذه الخطة على بولندة في مهاجمة المانيا . وصدرت الأوامر من هتلر في مستهل شهر آب الى الاميرال كاناريس رئيس دائرة المخابرات في القيادة العليا للقوات المسلحة ، طالبة اليه أن يسلم هملـر وهايدريش مائـة وخمسين بدلة عسكرية بولندية وبعض الاسلحة البولندية الصغيرة . وبدا هـذا الطلب غريباً لكاناريس وراح في السابع عشر من الشهر يسأل الفريق كايتل عن معناه . وعلى الرغم من أن الرئيس الضعيف للقيادة العليا للقوات المسلحة ، قد اعلن لسائله أنه لا ينظر الى « أعمال من هذا النوع » نظرة رضى ، الا انـه لا يستطيع أن يفعل شيئاً طالما أن الأمر صادر عن الفوهرر نفسه . [1] وعلى الرغم مما احسّ به كاناريس من تقزُّز الا أنه وجد نفسه مضطراً لإطاعـة الأوامر الصادرة اليه وسلم البدلات العسكرية الى هايدريش .

وقد اختار رئيس الحرس الخاص (S . D) شاباً من رجال الخدمة السرية يدعى الفريد هيلمون نوجوكس ، لتنفيذ هذه العملية .ولم تكن هـذه المهمة هي الاولى من نوعها التي يعهد بها الى هذا الرجل الغريب كما لم تكن الاخيرة . ففي مستهل آذار عام ١٩٣٩ ، أي قبيل احتلال الالمان لتشيكوسلوفاكيا ، انهمك نوجوكس بأمر من هايدريش في نقل المتفجرات الى سلوفاكيا حيث استخدمت كما قال هو في شهادته اللاحقة « لخلق الحوادث » .

وكان الفريد نوجوكس ثمرة نموذجية لمدرسة الغستابو والحرس النـــازي ، وطرازاً نابهاً من قاطع الطرق.فلقد درس الهندسة في جامعة كييل، حيث ذاق طعم المشاحنات مع خصوم النازيين، وجدع الشيوعيون له أنفه ذات يوم.وانضم في عام ١٦٣١ الى الحرس النازي ثم ألحق بالفرقة الخاصة عند انشائها في عام ١٩٣٤ . وانغمس كالكثيرين من الشبان الذين عمــلوا مع هايدريش في بعض

---

١ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٣) ص ٥٨٠

الدراسات الفكرية في الحرس النازي كالتاريخ والفلسفة ، بينما كان يتحول إلى شاب خشن قاس ، يمكن ان يوكل اليه تنفيذ المشاريع الأقـــل مذاقاً حسناً من التي يحلم بها هملر وهايدريش. [١] وفرّ في التاسع عشر من كانون الاول عام ١٩٤٤ إلى صفوف الامريكيين حيث ادى بعدنحو من سنة عدة شهادات مشفوعة باليمين في محاكمات نورمبرغ حفظت احداها للتاريخ السرد الحقيقي « للحادث » الذي استخدمه هتلر ليبرر به هجومه على بولندة ، قال الرجل :

« أمرني هايدريش رئيس الفرقة الخاصة في العاشر من آب أو حواليه شخصياً أن أرتب هجوماً على محطة الإذاعة القريبـــة من غليويتز والمجاورة للحدود البولندية وأن أُظهر هذا الهجوم بمظهر الصادر عن قوات بولندية. وقال هايدريش : « نطلب منك أدلة عملية على أن البولنديين هم الذين قاموا بالهجوم لتقديمها إلى الصحافة الاجنبية ولاستخدامها في الدعاية الألمانية المحلية. »

« وكانت الأوامر الصادرة إلي تقضي بأن أستولي على محطـــة الاذاعة. وأن احتفظ بها أمداً يسمح لألماني أن يتكلم بالبولندية ، ويوضح تحت تصرفي بإذاعة خطاب بالبولندية من الاذاعة. وأبلغني

---

١ ـ كان لنوجوكس ضلع في « حادث فينلو » ، الذي سنتحدث عنه فيما بعد. واشتغل في فترة الغزو في الغرب في ايار عام ١٩٤٠ في مشروع لاخفاء الجنود الألمان في بزات حرس الحدود من البلجيكيين والهولنديين. وكان في مطلع الحرب قائداً لجماعة من الفرق الخاصة (S . D) تتولى تزييف جوازات السفر. واقترح ابان ذلك « عملية بيرنهارد » وهي مشروع خيالي يقضي بالقاء اوراق نقد بريطانية زائفة على انكلترا. ومل منه هايدريش اخيراً فارغمه على الخدمة العملية في صفوف فوج من افواج الحرس النازي في روسيا حيث اصيب بجراح. ووصل في عام ١٩٤٤ الى بلجيكا كمدير اقتصادي، ولكن مهمته الرئيسية كانت في ان ينفذ في الدانمارك عملية قتل عدد من زعماء حركة المقاومة الدانماركية. ويبدو انه هرب الى القوات الامريكيـــة لينجو بجلده. ولقد عاش حياة خفية. فقد اعتقل كمجرم حرب ولكنه تمكن من الفرار فراراً مسرحياً من المعتقل الخاص الذي اعد في المانيا لمجرمي الحرب في عام ١٩٤٦ ونجا بذلك من المحاكمة. ولم يتمكن احد من العثور عليه حتى كتابة هذا المؤلف كا لم يسمع به انسان. وقد روى شومبرغ ليبه في كتابه « بين التاج والكنيسة » قصة هروبه من السجن.

هايدريش ان على الخطيب ان يقول ان الوقت قد حان للصراع بين الألمان والبولنديين ... وقال لي هايدريش ايضاً أنه يتوقع هجوماً تشنه المانيا على بولندة في غضون بضعة ايام .

« ومضيت إلى غليويتز وانتظرت فيها اربعة عشر يوماً .... وذهبت بين الخامس والعشرين والواحد والثلاثين من آب إلى بلدة أوبيلن القريبة لمقابلة هنريخ مويلر ، رئيس الغستابو ، الذي كان يقوم بزيارة البلدة آنذاك . وقد بحث مويلر في حضوري مع رجل آخر يدعى ميهلهورن [1] الخطط للقيام بحادث آخر على الحدود يبدو فيه الجنود البولنديون وكأنهم يهاجمون القوات الألمانية .... وقال مويلر أن لديه عدداً من المجرمين المحكوم عليهم بالاعدام ، يتراوحون بين الاثني عشر والثلاثة عشر شخصاً ، سيرتدون ألبسة عسكرية بولندية ثم تترك جثثهم على الأرض التي سيقع عليها الحادث لتظهر انهم قد قتلوا وهم يقومون بالهجوم . وتقرر أن يقوم طبيب انتدبه هايدريش بتطعيمهم بإبر قتالة لهذه الغاية . ثم تطلق عليهم عيارات نارية لتظهر آثار الجراح في ابدانهم . وسينقل رجال الصحافة وغيرهم من الناس بعد الحادث إلى مكان وقوعه ليروا بأعينهم ما وقع ...

« وقال لي مويلر أنه تلقى أمراً من هايدريش بأن يقدم أحد هؤلاء المجرمين ليتولى القيام بالعمل في غليويتز. وكان الاسم الرمزي الذي يشار به إلى هؤلاء المجرمين هو « سلع معلبة » [2] .

---

١ – الدكتور ميهلهورن من كبار قادة الحرس النازي وكان يتولى قيادة الفرقة الخاصة تحت اشراف هايدريش . ويقول شيلينبرغ في يومياته (الكهف ص ٤٨ – ٥٠) ان ميهلهورن ابلغه في السادس والعشرين من آب ، بأن هايدريش قد عهد اليه بتنفيذ الهجوم الزائف على غليويتز ولكن ميهلهورن تخلص من المهمة بادعاء المرض . وما عتمت جرأته ان ازدادت في السنوات الاخيرة ، فبات في الحرب احد المحرضين البارزين على ارهاب الغستابو في بولندة .

٢ – المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٣٩٠ – ٣٩٢.

وبينما كان هلر وهايدريش وموللر ، يرتبون موضوع استخـــدام « السلع المعلبة » بأمر من هتلر لايجاد مبرر مصطنع لعدوان المانيا على بولندة ، قـــام الفوهرر بأولى الخطوات الحاسمة لتوزيع قواته المسلحة استعداداً لحرب كبرى . وصدرت الأوامر في التاسع عشر من آب ، وهو من ايام القدر المميتة ايضاً ،إلى الاسطول الألماني بالابحار . واتجهت إحدى وعشرون غواصة إلى مواقعهـــا في شمال الجزر البريطانية وشمالها الغربي، بينما ابحرت بارجة الجيب غراف شبي الى المياه القريبة من الساحل البرازيلي،وابحرت اختها البارجة دويتشلند الى مركزها الذي تقرر ان يكون في الطرق البحرية البريطانية عبر شمال الاطلسي . [1]

وكان تاريخ صدور الأمر الى البوارج الحربية للابحار استعداداً لعمل محتمل ضد بريطانيا ، مهماً كل الأهمية ، اذ ردت الحكومة السوفياتية اخيراً في هـذا التاريخ وبعد اسبوع محموم من النداءات العاجلة من برلين، على هتلر مستجيبة الى ما طلبه منها .

المحادثات النازيـة ـــ السوفياتيـة

١٥ ـ آب عام ١٩٣٩

قابل السفير فون دير شولنبرغ مولوتوف في الساعة الثامنة من بعـــد ظهر الخامس عشر من آب ، وراح طبقاً للتعليمات التي تلقاهـــا ، يتلو على مسامعه البرقية العاجلة ،التي تلقاها من ريبنتروب والتي تقول ان وزيرخارجية المانيا على استعداد للمجيء الى موسكو لتسوية العلاقات السوفياتية ـ الألمانية . وتقول البرقية « العاجلة جداً والسرية » التي بعث بها السفير الى برلين في ساعة متأخرة من تلك الليلة،ان وزيرالخارجية السوفياتية تلقى هذه المعلومات « باهتمام عظـــيم للغاية » ورحب « ترحيباً حاراً بنوايا الالمان في تحسين علاقاتهم مع الاتحـــاد

---

١ ـــ ابحرت الغواصات بين التاسع عشر والثالث والعشرين من آب كما ابحرت غراف شبي في الواحد والعشرين ودويتشلاند في الرابع والعشرين .

السوفياتي » . ولكن مولوتوف وهو الخبير بلعبة « البوكر » الدبلوماتية ، لم يبد أية اشارة إلى انه في عجلة من امره . واعرب عن رأيه في ان مثل هذه الرحلة التي يعتزم ريبنتروب القيام بها « تتطلب اعداداً كافياً حتى يؤدي تبادل الآراء إلى نتائج طيبة » .

ولكن اية نتائج يا ترى ؟ لقد اطلق الروسي الداهية بعض التلميحات الماكرة . وراح يتساءل ، هل ترغب الحكومة الألمانية عقد ميثاق عدم اعتداء بين البلدين ؟ وهل هي على استعداد لاستخدام نفوذهـــا مع اليابان لتحسين العلاقات السوفياتية – اليابانية ووضع « نهاية لحوادث الحدود بين البلدين » مشيراً بذلك إلى حرب غير معلنة كانت مستعرة الاوار طيـــلة الصيف على الحدود المنشورية – المغولية . وتساءل مولوتوف اخيراً ، عن موقف المانيا من اصدار ضمان مشترك لدول البلطيق .

وانهى الوزير السوفياتي حديثه قائلاً : « ان من الواجب بحث جميع هذه القضايا في عبارات محددة واضحة بحيث إذا جاء الوزير الالماني إلى هنا ، لم تكن زيارته لمجرد تبادل في وجهات النظر بل لاتخاذ قرارات محددة واضحة » . وعاد يؤكد من جديد « ان الاعداد اللازم للمشاكل تهيئتها شيء لا بد منه . »

وهكذا كان الاقتراح الأول لعقد ميثاق عـــدم اعتداء بين المانيا وروسيا صادراً عن موسكو ، في نفس الوقت الذي كانت فيه الحكومـــة السوفياتية تتفاوض مع فرنسا وبريطانيـــا العظمى على خوض الحرب ، إذا اقتضى الامر لوقف أي عدوان الماني جديد [٢] . وكان هتلر اكثر من مجرد راغب في البحث

---

١ – وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٧) ص ٧٦ – ٧٧ ونفس المصدر ٨٧–٩٠ و ٩٩–١٠٠ .
٢ – سرعان ما علمت الحكومة البريطانية بهـذا الاقتراح . فقد نقل سمنرويلز وكيل وزارة الخارجية الامريكية في السابع عشر من آب الى السفير البريطاني في واشنطن الاقتراح الذي تقدم به مولوتوف الى شولنبرغ . وكان السفير الامريكي في موسكو قد ابرق قبل يوم واحد بما دار في المقابـــلة من حديث الى واشنطن وكان تقريره في منتهى الدقـــة . (وثائق وزارة الخارجية البريطانية – الحلقة الثالثـــة – ٧ – ص ٤١ – ٤٢ . ووثائق وزارة الخارجيه الالمانيـــة (٧) ص ٨٤ – ٨٥) وكان السفير الأمريكي ستاينهاردت قد قابل مولوتوف في السادس عشر من آب .

في مثل هذا الميثاق ضمن « شروط محدودة » ، طالما ان عقده سيبقي على روسيا خارج نطاق الحرب ويمكنه من غزو بولندة دون خوف من أي تدخل سوفياتي . وكان على ثقة من ان بقاء روسيا خارج هذا النطاق سيضعف من عزيمة بريطانيا وفرنسا على خوضها .

وكانت اقتراحات مولوتوف عين ما كان يرجوه ، فلقد كانت اكثر تحديداً ووضوحاً من أي شيء كان في وسعه اقتراحه . ولم تكن ثمة إلا صعوبة واحدة، فأيام آب تمضي متتالية سراعاً ، ولم يكن في وسعه ان ينتظر خطو السوفيات البطيء الذي ظهر جلياً من اصرار مولوتوف على « الاعداد اللازم » قبل زيارة وزير خارجيته لموسكو . ولقد نقلت وزارة الخارجية هاتفياً الى ريبنتروب في فوشيل التقرير الذي تلقته من شولنبرغ عن محادثاته مع مولوتوف ، وذلك في الساعة السادسة والدقيقة الاربعين من صباح السادس عشر من آب ، فراح هذا يقطع الجبال إلى اوبرسالزبرغ ناشداً تعليمات الفوهرر الجديدة . ولم تكد الظهيرة تحل ذلك اليوم ، حتى كان الرجلان يعدان رداً إلى مولوتوف وسرعان ما بعثا بهذا الرد عن طريق جهاز «التليبرينتر » الى وايز ساكر في برلين مع تعليماتهما اليه بابراق هذا الرد كشيء عاجل للغاية الى موسكو فوراً .[1]

وقد قبل الديكتاتور النازي الاقتراحات السوفياتية بلا قيد أو شرط ، وصدرت التعليمات إلى شولنبرغ لمقابلة مولوتوف ثانية وإبلاغه بأن :

« المانيا على استعداد لعقد ميثاق عدم اعتداء مع الاتحاد السوفياتي . وان يكون هذا الميثاق إذا رغبت الحكومة السوفياتية في ذلك ، غير قابل للابطال او الالغاء لمدة عشرين عاماً . والمانيا على استعداد ايضاً لضمان دول البلطيق ضمانة مشتركة مع الاتحاد السوفياتي . وأخيراً فإن المانيا على استعداد لبذل نفوذها لتحسين العلاقات الروسية ـ اليابانية وتأمين استقرارها » .

وهكذا بطلت جميع الادعاءات التي تتهم حكومة الرايخ بعدم الرغبة في

١ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٨٤ - ٨٥ .

عقد صفقة مع موسكو .... ومضت برقية ريبنتروب تقول :

« ويرى الفوهرر انه بالنظر إلى الوضع الراهن وإلى احتمال تكرر الحوادث الخطيرة في أي يوم (وارجو ان توضح في هذا الصدد للمسيو مولوتوف أن ألمانيا عازمة على عدم احتمال الاستفزاز البولندي إلى أجل غير محدود) فإن من الأفضل أن يجري ايضاح العلاقات الألمانية ـ الروسية وموقف كل من البلدين من المسائل الراهنة بسرعة وبطريقة اساسية » .

« ولهذه الاسباب كلها ، فإني على استعداد للمجيء بطريق الجو إلى موسكو في أي وقت بعد يوم الجمعة الثامن عشر من آب ، لأعالج، مزوداً بمطلق الصلاحيات من الفوهرر ،كافة ما في العلاقات الألمانية ـ الروسية من عقد ، وأن أوقع المعاهدات المطلوبة إذا اقتضى الأمر » .

وراح ريبنتروب يضيف من جديد ملحقاً لبرقيته هذه ضمنه تعليماته الشخصية إلى سفيره قال فيه :

«أطلب اليك ثانية أن تقرأ هذه التعليمات كلمة كلمة على مولوتوف وأن تطلب اليه الحصول على رأي الحكومة الروسية والمسيو ستالين فوراً . وأضيف الآن بصورة سرية لمعلوماتك الشخصية ، وكإرشاد لك ،أن من المهم لنا كل الأهمية أن تتم رحلتي الى موسكو في نهاية هذا الأسبوع أو بداية الأسبوع القادم » .

وظل هتلر وريبنتروب طيلة اليوم التالي وهما على قمة الجبل الذي يحل فيه الفوهرر ينتظران رد موسكو بفارغ الصبر . ولم تكن المواصلات البرقية بين برلين وموسكو من النوع السريع بأي حال من الأحوال . وهو وضع يبدو أنه لم يكن معروفاً في الجو المرهف لجبال الألب البافارية ، ولذا فقد قلق الرجلان من التأخر من وصول الرد . وراح ريبنتروب ظهر السابع عشر من آب يبعث ببرقية «عاجلة للغاية» الى شولنبرغ يطلب اليه أن يرسل «تقريراً برقياً عن الوقت

الذي تقدم فيه بطلبه الى مولوتوف لمقـــابلته وعن الموعد الذي حدد لاجراء المقابلة » [١] وبعث السفير ، المتضايق من هذا الالحاف، عند العشاء ببرقية «عاجلة للغاية » ايضاً إلى سفيره يقول فيها أنه تلقى برقية الوزير في الساعة الحادية عشرة من مساء الليلة الماضية ، وأن الوقت كان متأخراً للقيام بأي نشاط دبلوماتي ، وأن ما فعله في صباح اليوم السابع عشر من آب، هو طلب موعد لمقابلة مولوتوف التي حددت في الساعة الثامنة مساء .[٢]

وكانت المقابلة مخيبة لآمال القائدين النـــازيين المحمومين . فلقد ادرك وزير خارجية الروس تلهف هتلر ، وفهم الأسباب الداعية اليه ، فأراد أن يداعب الألمان ويعذّبهم . وبعد أن أصغى إلى شولنبرغ وهو يتلو على مسامعه برقيـــة ريبنتروب الجديدة ، وبعد أن دوّن بعض الملاحظات بصدد محتوياتهـا ، راح يطلع رد الحكومة السوفياتية الخطي على برقية وزير خارجيـة الرايخ الأولى المؤرخة في الخامس عشر من آب .

استهلت الحكومة السوفياتية ردها بتذكرة لاذعة لمواقف الحكومة النازية العدائية السالفة من روسيا السوفياتية ثم قالت « ان الحكومة السوفياتية كانت حتى عهد قريب جداً تقيم سياستها على أساس الافتراض بأن الحكومة الألمانية تبحث عن فرصة للتصادم مع الاتحاد السوفياتي ... تضاف إلى ذلك الحقيقـة الواقعة وهي أن الحكومة الألمانية عن طريق ما يسمّى بميثـــاق مكافحة الكومنترن ، كانت تحاول أن تخلق ، وخلقت بالفعل « جبهة متحدة تضم عدداً من الدول ، تقف مناوئة للاتحاد السوفياتي » . وكان هذا هو السبب الذي دفع روسيا إلى الاسهام في تنظيم جبهة دفاعية ضد العدوان الألماني». ومضت المذكرة تقول :

« ومع ذلك فإذا كانت الحكومة الألمانية قد تبنّت الآن إجراء تحول في سياستها القديمة هادفة إلى ايجاد تحسن جدي في علاقاتهـا

---

١ - وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٧) ص ١٠٠
٢ - وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٧) ص ١٠٢

السياسية مع الاتحاد السوفياتي » فإن الحكومة السوفياتية لا يسعها إلا أن ترحب بهذا التبدل . وهي بدورها على استعداد لاعادة النظر في سياستها على اساس ايجاد تحسن جدي فيها تجاه المانيا . »

ولكن المذكرة الروسية اصرت على أن يكون هذا التحول « في خطوات جدية وعملية » ، لا في شكل قفزة واحدة على النحو الذي يقترحه ريبنتروب .

وما هي هذه الخطوات يا ترى ؟

تكون الخطوة الاولى في التوصل إلى اتفاق تجاري وائتماني .

وتكون الخطوة الثانية « التي تقع بعد الاولى مباشرة» في توقيع ميثاق عدم اعتداء .

وطلب السوفيات أن يعقد في نفس الوقت الذي تتم فيه الخطوة الثانية « ملحق خاص يحدد مصالح الفريقين المتعاقدين في هذه الناحية او تلك من السياسة الخارجية » . وكان هذا القول، اكثر من مجرد تلميح إلى ان مولوتوف على استعداد لقبول وجهة النظر الألمانية في إمكان عقد صفقة بالنسبة إلى تقسيم اوروبا الشرقية .

أما بالنسبة الى زيارة ريبنتروب المقترحة لموسكو ، فقد أعلن مولوتوف أن الحكومة السوفياتية تشعر « بأكثر من الامتنان » بالنسبة الى هذه الفكرة ، « لا سيما وان ايفاد مثل هذا السياسي البارز ورجل الدولة الكبير ، يؤكد النظرة الجدية التي تصحب نوايا الحكومة الألمانية » . وأضاف مولوتوف قائلاً : « ولا ريب في أن هذا العرض مهم للغاية لا سيما اذا قورن بموقف انكلترا ، التي بعثت في شخص سترانغ ، موظفاً من الدرجة الثانية الى موسكو . لكن رحلة وزير خارجية المانيا ، تتطلب على أي حال استعداداً كاملاً . ولا ترغب الحكومة السوفياتية فيما قد تخلقه هذه الرحلة من دعاية واسعة ، اذ أنها تؤثر العمل الجدي غير المصحوب بالضجة والدعاية » [١]

---

١ - برقية شولنبرغ في الساعة ٥،٥٨ من صباح الثامن عشر من آب. وثائق وزارة الخارجية الالمانيه (٧) ١١٤ — ١١٦

ولم يشر مولوتوف الى اقتراح ريبنتروب العاجل والمحدود بـــأن يزور موسكو في عطلة نهاية الاسبوع ، ويبدو ان شولنبرغ قد فوجىء بالشكل الذي دارت فيه المقابلة ، فآثر أن لا يلحف بتكرار هذه النقطة .

ولكن ريبنتروب عاد يلحف عليها في اليوم التالي بعد أن تلقى تقرير سفيره. وكان من الواضح ان هتلر ، اخذ يحس باليـــأس . وصدرت عن مقر الفوهرر الصيفي عشية الثامن عشر من آب برقية عـــاجلة اخرى موجهة إلى شولنبرغ وموقعة من ريبنتروب . ووصلت البرقية دار السفارة الالمانيـة في موسكو في الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة والاربعين من صباح التاسع عشر ، وهي تأمر السفير بإعداد العدة لاجراء محادثة اخرى مع المسيد مولوتوف وأن يفعل كل ما في وسعه أن تتم هذه المقابلة فوراً ودون أي إبطاء . فلقد كان الوقت ثمينـــاً للألمان ، ولم يكن في وسعهم أن يضيعوه . وقال ريبنتروب لسفيره في برقيته : « اطلب اليك أن تبلغ المسيو مولوتوف ما يلي :

« في ودنا نحن ايضاً لو كانت الظروف عادية ، أن نتابع بصورة طبيعية المساعي لتنسيق العلاقات الألمانية – الروسية وتحسينهـــا بالطرق الدبلوماتية وأن نسير بها في الشكل المـألوف . ولكن الفوهرر يرى أنه بالنسبـة الى الوضع الشـاذ الراهن من الضروري استخدام وسائل مختلفة تؤدي إلى نتائج سريعة .

« فالعلاقات الألمانية – البولندية تزداد توتراً وحدة من يوم إلى آخر . وعلينا أن نضع في حسابنا أن الحوادث تقع في أي يوم وأنها قد تجعل نشوب الصراع المكشوف أمراً لا مناص منه ... ويعتبر الفوهرر أن من الضروري أن لا نفاجأ ببدء الصراع الألماني البولندي في الوقت الذي نحاول فيه توضيح العلاقات الألمـــانية الروسية . وهو لهذا يجد أن من الضروري توضيح هذه العلاقـات مسبقـاً ، لأسباب عدة لعل أقلها أهمية ، الأخذ بالمصالح الروسية بعـين الاعتبار ، في حالة نشوب الصراع ، وهو أمر قد يكون من الصعب

تحقيقه ، اذا لم يتم هذا التوضيح . »

وطلب الوزير من سفيره أن يبلغ مولوتوف أن « المرحلة الاولى » من المشاورات التي ذكرها ، وهي عقد الاتفاق التجاري ، قد تحققت وأن الاتفاق قد وقع في برلين في هذا اليوم (الثامن عشر من آب) ، وأن الوقت قدحان الآن لمعالجة « المرحله الثانية » . ويقترح وزير الخارجية الألماني لتحقيق ذلك « أن يسافر فوراً إلى موسكو » التي سيصلها « مزوداً بكامل الصلاحيات من الفوهرر الذي خولني تسوية كافة المشاكل المعقدة تسوية كاملة وشاملة » . وأضاف ريبنتروب انه سيكون في وسعه عندما يصل إلى موسكو « أن يولي رغبات روسيا كل اعتبار . »

ولكن ما هي هذه الرغبات ؟ لقد خرج الألمان من سياسة المداورة إلى سياسة الصراحة ... إذ مضى ريبنتروب يقول :

« وسيكون في وسعي توقيع ملحق خاص ، ينظم مصالح الفريقين المتعاقدين في قضايا السياسة الخارجية مهما كان نوعها ، كتسوية مناطق المصلحة والنفوذ في حوض البلطيق مثلاً . ولا يمكن لمثل هذه التسوية أن تتم على أي حال إلا في محادثات شفوية مباشرة . »

وعلى السفير في هذه المرة ان لا يسمع كلمة (لا) ، اذ انتهى ريبنتروب من برقيته قائلاً :

« أرجو ان تؤكد لهم ان سياسة المانية الخارجية قد وصلت اليوم الى نقطة تحول تاريخية ... وأرجو ان تلح على وجوب تحقيق سفرتي إلى موسكو في منتهى الاستعجال ، وان تعترض بكياسة على كل عقبة يضعها الروس من جديد . وعليك ان تذكر في هذا الصدد الحقيقة الحاسمة وهي ان الصراع المكشوف بين المانيا وبولندة قد يقع في أية لحظة ، واننا والحالة هذه ، مهتمون غاية

الاهتمام في اتمام زيارتي لموسكو فوراً وعلى التو . » [1]

وكان التاسع عشر من آب يوماً حاسماً . فلقد توقف الألمان عن اصـــدار أوامرهم إلى غواصاتهم وبوارجهم الحربية بالابحار إلى المياه البريطانية حتي يصل رد موسكو . وكان من الضروري ان تتحرك هذه القطع البحرية فوراً ، إذا كان المقصود ان تصل الى مراكزها المعينة قبل الموعد الذي حدده هتلر للبدء بالحرب وهو الأول من ايلول ، إذ لا تفصل هذا الموعد إلا ثلاثة عشر يوماً فقط . وكان من الضروري ان يجري نشر مجموعتي الجيوش اللتين تقرر ان يعهد اليهما بالهجوم على بولندة فوراً .

وبات التوتر في برلين ولا سيما في اوبرسالزبرغ ، حيث قبع هتلر ووزيره ريبنتروب في انتظار قرار موسكو ، من النوع الذي لا يطـاق . وحسرت برقيات وزارة الخارجية ومذكراتها في ذلك اليوم النقاب عن الحالة العصبية التي سيطرت على الويلهلمشتراسه . ونقل الدكتور شنوري إلى وزيره انالمحادثات مع الروس بصدد الاتفاق التجاري قد انتهت في الليلة الماضية الى (اتفاق كامل) ، ولكن المندوبين السوفيات ما فتئوا يماطلون في توقيعه . واضاف شنوري ، انه كان من المقرر ان يتم التوقيع ظهر اليوم التاسع عشر ولكن الروس هتفوا في اللحظة الاخيرة يقولون انهم مـا زالوا ينتظرون تعليمات موسكو . ومضى شنوري يقول : « ومن الواضح انهم تلقوا تعليمات من موسكو تقضي بتأجيـل التوقيع على الاتفاق لأسباب سياسية » . [2] وأبرق ريبنتروب من اوبرسالزبورغ إلى شولنبرغ برقية « عاجلة للغاية » ، يطلب فيها اليه أن يبرق فوراً بكل ما يقوله مولوتوف أو كل ما يشير إلى « نوايا الروس » ، ولكن كل ما تلقته برلين من السفير في ذلك اليوم مجرد برقية واحدة ، تتضمن نفياًصادراً عن وكالة«تاس» السوفياتية الرسمية من موسكو لما نشر من أن المفاوضات بين الوفود العسكرية الروسية والبريطانية ــ الفرنسية ، قد تعقـّدت بسبب الخلاف حول المواضيع

---

١ ـ وثائق وزارة الخارجيةالالمانية (٧) ص ١٢١ ـ ١٢٣.

٢ ـ مذكرة شنوري . ١٩ آب ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ١٣٢-١٣٣

المتعلقة بالشرق الأقصى . وأضاف تكذيب تاس أن هناك خلافات بين الوفود على أي حال حول قضايا « مختلفة كل الاختلاف » . وكان هذا البيان بمثـــابة اشارة إلى هتلر ، بأن المجال ما زال فسيحاً امامه . وأن في وسعه أن يأمل .

ووصلت أخيراً في الساعة السابعة والدقيقة العاشرة من مساء التاسع عشر من آب البرقية التي طال انتظارها :

سري

مستعجل للغاية

«توافق الحكومة السوفياتية على أن يقوم وزير خارجية الرايخ بزيارة موسكو بعد اسبوع واحد من إعلان التوقيع على الاتفـاق الاقتصادي . وقد بيّن مولوتوف أنه في حالة اعلان هذا التوقيع غداً ، فإن في وسع وزير الخارجية أن يصل موسكو في السادس والعشرين من آب أو في السابع والعشرين منه .

« وقد قدّم لي مولوتوف مسوّدة مشروع ميثاق لعدم الاعتداء

«وسأبرق لكم فوراً بوصف مسهب للمحادثتين اللتين اجريتها اليوم مع مولوتوف ، بالاضافة إلى نص المشروع السوفياتي .

شولنبرغ [١]

وذكر السفير في برقيته التالية أن الحديث الأول الذي بدأ في الكرملين في الساعة الثانية من بعد ظهر التاسع عشر والذي استغرق ساعـة كاملة « لم يسر سيراً مرضياً » ، وبدا للسفير ان ليس في الامكان حمل الروس على استقبال وزير خارجية هتلر ، فقد « اصر مولوتوف على رأيه في ان هذه الزيارة مستحيلة في الوقت الحاضر ، كما لا يمكن تحديد موعدها تقريباً لأنها في حاجة إلى اعدادات

١ ـ برقية شولنبرغ الساعة ٦،٢٢ من ١٩ آب، وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ١٣٤

كاملة مسبقة .... وكان مولوتوف يرد على الاسباب التي كررت تقديمها مؤكداً فيها على السرعة ، بأن التوقيع على الاتفاق الاقتصادي لم يتم بعــد . ولذا من الواجب توقيع هذا الاتفاق اولاً وإذاعته ، لكي يحقق تأثيره في الخـــارج ، وآنذاك يحل دور ميثاق عدم الاعتداء والملحق .

« وبدا لي ان مولوتوف ظل غير متأثر بما قدمته من حجج ، وهكذا انتهى الحديث الاول برد من مولوتوف بأنه افضى إلي بكل ما لديه من آراء الحكومة السوفياتية وانه لا يستطيع ان يضيف إليها شيئاً » .

ولكن سرعان ما كان لديه شيء جديد يضيفه ... فلقد ذكر شولنبرغ في تقريره « انــه لم يكد يمضي نصف ساعـة على انتهاء الحديث الأول ، حتى كان مولوتوف يبعث في طلبي لاقابله في الكرملين في الساعة الرابعة والنصف مساء . وعندما قابلته اعتذر لي على ما سببه لي من ازعاج ، وأوضح لي انه قدم تقريره إلى الحكومة السوفياتية » .

وهنا قدم وزير الخارجية إلى السفير الذي غمرته الدهشة الممتزجة بالسرور، مشروع ميثاق لعدم الاعتداء ، وابلغــه ان في وسع ريبنتروب ان يصل الى موسكو في السادس والعشرين أو السابع والعشرين من آب ، في حـالة توقيع الاتفاق التجاري واذاعته غداً .

وأضاف شولنبرغ في برقيته يقول : « ولم يبد مولوتوف أي سبب لهــذا التحول الفجائي في تفكيره ، ولكني افترض ان هـذا التحول نجم عن تدخل ستالين » [1] .

ولا ريب في ان افتراض السفير كان صحيحاً كل الصحة . فلقد روى تشرشل في مذكراته : ان ستالين أعلن عزم السوفيات على توقيع الميثـاق مع المانيا إلى المكتب السياسي للحزب عشية التاسع عشر من آب . [2] واتضح من برقية

---

١ ـ برقية شولنبرغ ، الساعة ١٢،٠٨ من صباح ٢٠ آب ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ١٤٩ ـ ١٥٠ .

٢ ـ تشرشل ـ مذكرات ـ ص٣٩٢ .لا يورد تشرشل مصدرا لروايته.

شولنبرغ ، انه في ساعة مبكرة من ذلك اليوم أي بين الثالثة والرابعة والنصف من بعد الظهر ، كان ستالين قد نقل الى مولوتوف قراره القدري الخطير .

وروى تشرشل فيما بعد ان الديكتاتور الروسي شرح له بعد نحو من ثلاث سنوات أي عند زيارته لموسكو في شهر آب عام ١٩٤٢ بعض الاسباب التي حملته على اتخاذ تلك الخطوة الجريئة المكشوفة فقال [١] :

« تولد لدينا الانطباع بأن الحكومتين البريطانية والفرنسية لم تكونا قد حزمتا أمرهما على المضي إلى الحرب في حالة مهاجمة بولندة ، وان كل ما تأملاته هو ان يؤدي وقوف بريطانيا وفرنسا وروسيا في صف واحد إلى وقف هتلر عن مهاجمتها. وكنا على ثقة من أن هتلر لن يتوقف . وراح ستالين يسأل المفاوضين الغربيين « كم عدد الفرق التي تستطيع فرنسا ان تزج بها في الحرب ضد المانيا بعد التعبئة العامة ؟ » وكان الرد « نحو من مائة فرقة » ثم راح يسأل ثانية « وكم عدد الفرق التي ستبعث بها انكلترا إلى الميدان ؟ » وكان الرد « فرقتان وأخريان بعد مدة ! » ... وقال ستالين ... « آه فرقتان وأخريان بعد مدة . هل تعرفون عدد الفرق التي يتحتم علينا الزج بها في الجبهة الروسية في حالة مضينا الى الحرب ضد المانيا ؟ » . وساد الصمت برهة ... ثم قال : « اكثر من ثلاثمائة فرقة . »

واضاف شولنبرغ في برقيته التي ضمنها نتيجة محادثتيه مع مولوتوف في التاسع عشر من آب ، ان جميع المحاولات التي بذلها لاقناع وزير الخارجية بقبول موعد مبكر لسفرة ريبنتروب إلى موسكو « قد منيت بالفشل لسوء الحظ . »

ولكن الألمان كانوا يريدون نجاحها . فجميع المخططات لتوقيت هجومهم على بولندة ، تعتمد على ذلك ، كما ان موضوع وقوع الهجوم في الفترة القصيرة قبل حلول الشتاء يعتمد على نجاح هذه المحاولة . فإذا لم يستقبل ريبنتروب في

١ ـ تشرشل ـ مذكرات. ص ٣٠١.

موسكو قبل السادس او السابع والعشرين ، واذا تباطأ الروس في محادثاتهم ، وهذا ما يخشاه الألمان : فلن يكون في إمكانهم المحافظة على موعد الاول من ايلول كتاريخ للهجوم على بولندة .

وقرر ادولف هتلر في هذه المرحلة الحرجة ان يتدخل شخصياً مع ستالين . وابتلع هتلر كبرياءه وراح يرجو شخصياً من الديكتاتور الروسي،الذي كثيراً ما شهر به وأساء إليه ، أن يستقبل وزير خارجيته فيموسكو فوراً. وبعث ببرقية عاجلة إلى موسكو في الساعة السادسة والدقيقة الخامسة والاربعين من مساء يوم الأحد العشرين من آب ، أي بعد إثنتي عشرة ساعة من تلقيه برقية شولنبرغ . وأمر الفوهرر سفيره بتسليم الرسالة إلى مولوتوف فوراً . وهذا نصها :

« المسيو ستالين موسكو

« يسرني ان أرحب ترحيباً حاراً بتوقيع الاتفاق التجاري الجديد بين روسيا والمانيا . كخطوة اولى في إعادة تنظيم العلاقات الألمانية السوفياتية . [1]

« ويعني توقيع ميثاق عدم إعتداء مع الاتحاد السوفياتي بالنسبة إليّ ، توطيد أسس السياسة الألمانية إلى وقت طويل قادم . وبهذا الميثاق تستأنف المانيا خطاً سياسياً كان نافعاً ومفيداً لكلتا الدولتين قروناً طويلة ...

« وإنني لأقبل بمشروع الميثاق الذي قدمه المسيو مولوتوف وزير خارجيتك الينا ، ولكنني اشعر في الوقت نفسه بضرورة ايضاح القضايا المتعلقة به في أسرع وقت ممكن .

« وفي الامكان ، كما اثق ، توضيح ما سيتضمنه الملحق الاضافي للميثاق الذي يرغب الاتحاد السوفياتي فيه ، في اقصر وقت ممكن، إذا كان في الامكان إيفاد سياسي الماني مسؤول ، إلى موسكو للتفاوض معكم . وما لم يقع هذا فإن حكومة الرايخ لا تستطيع أن

---

١ – وقع الاتفاق في برلين في الساعة الثانية من صباح الاحد في ٢٠ آب.

ترى كيف يمكن توضيح الملحق الاضافي وإقراره في وقت قصير .

« ولقد بلغ التوتر بين المانيا وبولندة حداً لا يطاق ... وقد تنشب الأزمة في أي يوم . والمانيا عازمة منذ اليوم ، على العناية بمصالح الرايخ بجميع الوسائل الموجودة تحت تصرفها .

« واني لأرى أن من الافضل بالنسبة إلى نوايا الدولتين ، أن لا نضيع أي وقت في الشروع بهذه العلاقة الجديدة بين بلدينا . ولهذا اعود فأقترح بأن تستقبلوا وزير خارجيتي يوم الثلاثاء في ٢٢ آب أو على اكثر تقدير يوم الاربعاء في الثالث والعشرين منه . ووزير خارجية الرايخ مزوّد بكافة الصلاحيات لاعداد ميثاق عدم الاعتداء، وملحقه الاضافي وتوقيعها . وبالنظر الى خطورة الوضع الدولي ، فإن بقاء وزير خارجيتنا في موسكو أكثر من يوم أو يومين أمر مستحيل . واكون سعيداً لو تلقيت ردك العاجل . »

ادولف هتلر [١]

وكان الفوهرر طيلة الاربع والعشرين ساعة التالية منذ مساء الأحد في العشرين من آب عندما ابرق بندائه إلى ستالين في موسكو ، حتى مساء اليوم التالي في حالة تقرب من الانهيار الكامل . فلقد هجر الكرى مقلتيه . وراح في منتصف الليل ، يهتف إلى غورنغ ، ليسري عن نفسه بعض الشيء بالإفضاء إلى مشيره بهمومه وقلقه من تأخر رد ستالين على رسالته ، وبالتنفيس عن سخطه على تسويف موسكو . وتلقت وزارة الخارجية الالمانية في الساعة الثالثة من صباح الواحد والعشرين برقية « عاجلة للغاية » من شولنبرغ تقول ان برقية هتلر التي كان وايزساكر قد ابلغه نبأ ارسالها لم تصل بعد اليه . وراح السفير يذكر وزارة الخارجية بأن « البرقيات الرسمية المرسلة من برلين إلى موسكو تصل بعد أربع ساعات او خمس ، بما في ضمنها ساعتان من الفرق الزمني بين ساعتي البلدين

١- برقية هتلر الى ستالين ٢٠ آب . وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ١٥٦-١٥٧.

وعلينا ان نضيف إلى هذه المدة الوقت الذي تستغرقه عملية حل رموز البرقية »[1]

وراح ريبنتروب الذي لا يقل قلقاً عن زعيمه يبرق في الساعة العاشرة والربع صباح الاثنين الواحد والعشرين من آب ، برقية عاجلة الى شولنبرغ يقول فيها : أرجو ان تبذل كل ما لديك للتأكد من تحقيق الزيارة حسب الموعد الوارد في البرقية » [2] وتلقت برلين بعيد الظهر برقية من السفير يقول فيها : « سأقابل مولوتوف في الساعة الثالثة من مساء اليوم » [3]

واخيراً وفي الساعة التاسعة والدقيقة الخامسة والثلاثين من مساء الواحد والعشرين من آب ، حملت اسلاك البرق إلى برلين رد ستالين الذي طال انتظاره، وهذا نصة :

« ادولف هتلر

« اشكرك على رسالتك . وكلي أمل في أن يؤدي ميثاق عدم الاعتداء بين المانيا والسوفيات إلى تحوّل مقرر نحو الافضل في العلاقات السياسية بين بلدينا

« ويحتاج شعبانا إلى قيام علاقات سلمية بينهما . وتؤمن موافقة الحكومة الألمانية على عقد ميثاق عدم اعتداء الأساس السليم لازالة التوتر السياسي ولاقامة السلام والتعاون بين بلادينا .

« وقد اوعزت الحكومة السوفياتية إلي بأن أُبلغك موافقتها على وصول الهر فون ريبنتروب إلى موسكو في الثالث والعشرين من آب .

ج . ستالين [4]

---

١ - برقية شولنبرغ الساعة ١،١٩ صباح ٢١ آب - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص١٦١ - ١٦٢ .

٢ - برقية ريبنتروب ٢١ آب - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ١٦٢ .

٣ - برقية شولنبرغ الساعة ١،٤٣ من بعد ظهر الواحد والعشرين من آب : وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ١٦٤ .

٤ - رسالة ستالين الى هتلر في ٢١ آب - وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٧) ص١٦٨ .

وتشاء سخرية الأقدار أن يلقى الديكتاتور النازي نداً له في الطاغية السوفياتي. وهكذا اصبح المجال فسيحاً امامهما للتفاهم والاتفاق على صفقة من اكثر الصفقات قذارة في هذه الفترة الشريرة من تاريخ العالم.

وقد نقل رد ستالين إلى الفوهرر في «عش النسر» في الساعة العاشرة والنصف مساء. ويذكر مؤلف هذا الكتاب انه بعد بضع دقائق أي بعدالساعة الحادية عشرة مساء، توقفت الاذاعة الألمانية عن بث حفلة موسيقية بصورة مفاجأة، لينطلق صوت يذيع ان «حكومتي الرايخ والاتحاد السوفياتي قد اتفقتا على عقد ميثاق عدم اعتداء بينهما. وأن وزير خارجية الرايخ سيصل إلى موسكو يوم الأربعاء في الثالث والعشرين من آب لإنهاء المفاوضات».

وبعد أن تأكد هتلر من ستالين بأن روسيا ستقف موقف الحياد الودي، راح في اليوم التالي الثاني والعشرين من آب يدعو كبار قادته العسكريين إلى اجتماع في اوبرسالزبورغ ليحاضرهم فيه عن عظمته وعن ضرورة قيامهم بشن الحرب بوحشية ودون رحمة او هوادة. وليبلغهم أنه قد يأمر بالبدءبالهجوم على بولندة قبل ستة ايام من موعده المحدد أي يوم السبت في السادس والعشرين من آب، فلقد مكّنه ستالين عدوه اللدود من أن يفعل ذلك.

المؤتمر العسكري

في ٢٢ آب ١٩٣٩

وجد القادة العسكريون هتلر في حالة مزاجية من اكثر حالاته استفزازاً وفظاظة [١] وبدأ الفوهرر حديثه اليهمقائلاً: «لقد دعوتكم الى الاجتماع لأقدماليكم

١ - لم نستطع العثور على أي سجل رسمي لخطاب هتلر في هذا الاجتماع، ولكن هناك تدوينات عدة، كتب اثنين منها ضابطان من ارفع الضباط رتبة، جمعاها من الملاحظات التي سجلاها ابان الاجتماع، وقد تعرضت للنور مؤخراً. وكان التدوين الأول بقلم الاميرال هيرمان بوهيم قائد اسطول البحار البعيدة وقد قدم الى محكمة نورمبرغ دفاعاً عن الاميرال ريدر كما نشر في «محاكمات كبارمجرمي الحرب (١٦) ص ١٦ - ٢٥». اما الثاني فمن وضع الفريق هولدر الذي سجل ملاحظات ضخمة=

صورة عن الوضع السياسي ، لتتمكنوا عن طريقها من تفهم العوامل الفردية التي استندت اليها في الوصول إلى قراري الذي لا يقبل النقض، ولكي اقوّي من ثقتكم واشدّد من عزيمتكم . وبعد الانتهاء من الصورة سنشرع في بحث التفصيلات العسكرية . » وأضاف ان هناك قبل كل شيء اعتبارين شخصيين ثم قال :

« انهما شخصيتي انا وشخصية موسوليني .

« فكل شيء يعتمد في الاساس علي وعلى وجودي ، وذلك نتيجة ما اتمتع به من مواهب سياسية . تضاف إلى هذا حقيقة أخرى وهي انه لن يتاح لأي رجل آخر في المستقبل ان يحظى بثقة الشعب الألماني قاطبة على النحو الذي اولانيها . ومن المحتمل ان لا يظهر قط في هذه البلاد ، رجل آخر ، يتمتع ما اتمتع به من سلطة . ولهذا فإن وجودي عامل له اهميته العظمى . ولكن قد ازول من الوجود في أية لحظة على يدي مجرم أو مجنون .

« اما العامل الشخصي الثاني فهو الدوتشي . ووجوده أمر

= بطريقة الاختزال التي اتقنها وقد نشرت في الترجمة الانكليزية ليومياته (يومية ٢٢ آب في وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٥٥٧ - ٥٥٩) . اما الوثيقة الاساسية عن الاجتماع والتي استخدمها الادعاء العام كدليل في محاكمات نورمبرغ فقد جاءت في مذكرة غير موقعة تقع في جزئين منقولة من ملفات القيادة العليا للقوات المسلحة التي استولت عليها القوات الامريكية في قرية سالفيلدين في التيرول النمسوي. وقد طبعت بالانكليزية في «المؤامرة النازية والعدوان ٣» ص ٥٨١ ٥٨٦ و ٦٦٥ - ٦٦٦ » وفي « وثائق وزارة الخارجية الالمانية «٧» ص ٢٠٠-٢٠٦.» اما النص الالماني للمذكرة ذات الشقين فيوجد بالطبع في « محاكمات كبار مجرمي الحرب . » وفي هذا النص تتميز لغة هتلر بحيوية اكثر من الصورة التي تنقلها فيها مذكرتا الاميرال بوهيم والفريق هولدر . لكن المصادر الثلاثة متشابهة في محتواها وليس ثمة من شك في صدقها ودقتها . والقيت بعض الشكوك في محاكمات نورمبرغ حول وثيقة رابعة عن خطاب هتلر « المؤامرة النازية والعدوان «٧» ص ٧٥٢ - ٧٥٤»، وعلى الرغم من الاشارة اليها في مرافعات النيابة العامة ، إلا انها لم تقدمها كدليل . وعلى الرغم من صحة ما فيها من محتويات ، الا أنها كما يبدو ، قد صاحبها بعض التزويق الذي ادخله عليها رجال لم يحضروا اجتماع «عش النسر» . وقد استندت في جمع خطاب هتلر وملاحظاته الى ما دونه عنه كل من بوهيم وهولدر والى المذكرة غير الموقعة التي قدمت الى نورمبرغ كدليل ومستند .

حاسم ايضاً . فلو حدث له عارض ، فإن ولاء ايطاليا لتحالفها معنا
لن يظل مضموناً . وليس ثمة من شك في معارضة البلاط الايطالي
للدوتشي . »

وقال هتلر : ان وجود فرانكو عامل مساعد ايضاً ، إذ انه سيضمن «حياد اسبانيا الخيّر » . وراح يؤكد لسامعيه ... « أما بالنسبة إلى الجانب الآخر ، فليس ثمة من شخصية ، بارزة في انكلترا وفرنسا » .

وظل الديكتاتور الذي اصابته جنّة يخطب سامعيه عدة ساعات لم تقطعها إلا فترة غداء متأخرة ، وهو يرعد ويزبد ، ولم يقم دليل من السجلات على ان قائداً واحداً ســـواء أكان فريقاً أو اميراً للبحر ، او قائداً للسلاح الجوي قد جرؤ على مقاطعته مناقشاً حكمه أو حتى متحدياً أكاذيبه . ولقد قال لهم انه اتخذ قراره في الربيع ، وان الحرب مع بولندة شيء لا بد منه ، ولكن خيّل اليه انعليه أولاً الاتجاه نحو الغرب . ولكن اتضح له في هذه الحالة ان بولندة ستهاجم المانيا في مؤخرتها ولذا فمن الضروري تصفيتهاقبل كل شيء وازالتها منعالمالوجود.

وقد حان الوقت لخوض الحرب على أي حال ... ثم مضى يقول :

« ومن السهل علينا أن نتخذ قرارنا . فليس ثمة ما نخشى عليه الضياع ، وليس ثمة من مجال إلا للكسب . وقد بات وضعنـــا الاقتصادي من الحراجة بحيث لم يعد في استطاعتنا ان نصمد اكثر من بضع سنوات . وفي وسع غورنغ ان يؤكد لكم قولي . وليس امامنا أي مجال للاختيار وعلينا ان نعمل . . .

« وبالاضافة إلى العامل الشخصي فإن الوضع السياسي مؤاتٍ لنا . فهناك في البحر الابيض المتوسط تنافس بين ايطاليا وفرنسا وانكلترا . وهناك في الشرق الكثير من التوتر . . .

« وبريطانيا في خطر عظيم . وقد ساء موقف فرنسا وتدهور ايضاً . فهناك هبوط في نسبة المواليد ... وتحمل يوغوسلافيـــا

جرثومة الانهيار في ذاتها ... أما رومانيا فهي اضعف اليوم منها في أي وقت مضى ... وتركيا ، يحكمها بعد وفـاة كال اتاتورك ، رجال صغار ضعفاء من ذوي العقول الواهنة غير المستقرة .

« ولن تتكرر هذه الظروف السعيدة في غضون عـــامين أو ثلاثة أعوام .

« ولا يعلم إلا الله ، كم يقدّر لي ان اعيش ، ولذا بات لزاماً علينا ان نخوض اليوم الصراع الذي لا يمكن تـأجيله اربع سنوات أو خمس ، فهذا أفضل وأجدى » .

هذا هو المنطق الحماسي الذي كان يسود تفكير الزعيم النازي . وهو يعتقد ان من « المحتمل جداً » أن لا يخوض الغرب الحرب ، ولكن المجازفة يجب ان تقع على أي حال . أو لم يجازف هو من قبل عند احتلال منطقة الراين وعندما أراد القادة العسكريون الانسحاب ؟ أو لم يغامر أيضاً في الاستيلاء على النمسا وبلاد السوديت وما تبقى من تشيكوسلوفاكيا؟ «وقد جازف كل من هانيبال في معركة كانيه وفردريك الاكبر في معركـة لوستين وهندنبورغ ولودندورف في معركة تاننبرغ . ولذا علينا نحن الآن ايضاً ان نغامر ، وان نعزز مغامرتنا هذه بتصميم فولاذي » . وعلينا ان لا نضعف أو تهون عزيمتنا .. ثم قال :

« ولقد لحقنا ضرر كبير مما افضى به بعض الالمـان الخائري العزيمة من ذوي الرتب العالية إلى بعض الانكليز خطياً أو شفاهاً ، بعد حل المشكلة التشيكية . فالفوهرر يظل رابط الجأش في الوقت الذي تفقدون فيه اعصابكم وتسارعون إلى الاستسلام . »

ولا ريب في أن هولدر وويتزليبين وتوماس وغيرهم من الفرقاء الذين اشتركوا في مؤامرة ميونيخ ، قد احسوا بالانقباض من هذا التلميح . وبدا لهم أن هتلر يعرف أكثر مما كانوا يظنون .

لكن الوقت قد حان الآن على كل حال لاظهار كفاياتهم الحربية . وراح هتلر يذكرهم بأنه خلق المانيا العظمى « بالبلف السياسي » . وقد بات لزاماً الآن ..

اختبار الجهاز العسكري . وعلى الجيش ان يجرّب القتال الفعلي قبل ان يخوض المعركة النهائية الكبرى في الغرب . ولا ريب في ان بولندا تؤمن الفرصة المؤاتية .

وعاد في حديثه الى انكلترا وفرنسا :

« هناك طاقتان يستطيع الغرب محاربتنا بهما :

« ١ – الحصار البحري : ولن يكون هذا الحصار فعّالاً بفضل اكتفائنا الذاتي وما نضمنه من موارد العون من الشرق .

« ٢ – الهجوم من الغرب عن طريق خط ماجينو ، وانا اعتبره مستحيلاً .

« وهناك احتمال ثالث وهو ان تخرق الدولتان الغربيتان حياد هولندة وبلجيكا ، وسويسرا . ولكن انكلترا وفرنسا لن تخرقا حياد هذه الدول . ولذا فلن يكون في وسعها مساعدة بولندة مساعدة فعلية . »

ولكن هل ستكون الحرب طويلة ؟ انه يرد على ذلك قائلاً :

« ليس ثمة من يقيم حساباته على حرب طويلة . ولو أبلغني الهر فون براوختش اننا نحتاج إلى أربع سنوات لاحتلال بولندة ، لأجبته بأننا لن نحارب . ومن السخف ان يقال بأن انكلترا تريدها حرباً طويلة .

وبعد ان انتهى من الحديث وهو راض على الأقل ، عن شرحه لمواقف بولندة وبريطانيا وفرنسا ، راح هتلر يسحب ورقته الرابحة من جيبه ، فالتفت إلى روسيا وقال :

« ويأمل العدو من شيء آخر ، وهو ان تصبح روسيا عدوة لنا بعد الانتها من أمر بولندة . ويبدو أن العدو لا يأخذ في حسابه ما اتمتع به من قوة تصميم هائلة . فأعداؤنا لا يعدون مجرد حشرات . ولقد رأيتهم في ميونيخ .

« وكنت على ثقة من ان ستالين لن يقبل قط بعرض بريطانيا .

ولم يكن في مكنة إلا كل انسان اعماه التفاؤل ان يصدق بأن ستالين سيكون من الحماقة الى الحد الذي لا يبصر فيه نوايا انكلترا ويدركها . وليست لروسيا مصلحة في الحفاظ على بولندة ....
وكانت إقالة لتفينوف خطوة حاسمة . وبدا لي هذا العمل وكأنه قذيفة مدفع مشيراً الى تبدل موقف موسكو من الدولتين الغربيتين.

« وشرعت في تبديل موقفنا من روسيا بصورة متدرجة . وساقتنا المعاهدة التجارية الى محادثات سياسية . وأخيراً وصلنا عرض من الروس بعقد معاهدة عدم اعتداء . وقمت قبل أربعة ايام بخطوه خاصة حملت الروس على ان يعلنوا بالأمس استعدادهم لتوقيع هذه المعاهدة . وأقمت بذلك اتصالاً شخصياً مع ستالين . وسيوقع ريبنتروب المعاهدة بعد غدٍ . وباتت بولندة الآن في الوضع الذي اردتها ان تكون فيه . وتمكنا من تحقيق بداية ناجحة لتحطيم محالفات انكلترا . أما وقد قمت بالخطوات التمهيدية السياسية ، فقد بات المجال فسيحاً امام العسكريين للعمل . »

وهكذا فإن المجال بات فسيحاً امام العسكريين إلا اذا اختار تشمبرلين ان يمد العدة لميونيخ جديدة وراح هتلر يقول لقواده : « وكل ما أخشاه، ان يتقدم كلب قذر ، باقتراح للتوسط . »

وانفض الاجتماع عند هذا الحد لتناول الغذاء ،ولكن بعد ان أعرب غورنغ للفوهرر عن شكر المستمعين لارشاداته وتوجيهاته ، مؤكداً له ان القوات المسلحة ستقوم بواجبها خير قيام . [١]

---

١ – تقول الوثيقةالتيقدمت الى محاكمات نورمبرغ ان غورنغ قفز عن المائدةوقدم«تشكراته المتعطشة للدماء مصحوبة بالوعود الدموية» ثم اخذ يرقص وكأنه متوحش مجنون.اما المتشككون القلائل من القادة فقد سادهم الوجوم والصمت . وقد أثار هذا الوصف الذي تضمنته الوثيقة ثائرة غورنغ إبان استجوابه في نورمبرغ في الثامن والعشرين والتاسع والعشرين من آب عام ١٩٤٥ . وراح يقول : « انني أنفي ما قيل من انني وثبت الى المنضدة ، واريد منكم ان تعرفوا ان هتلر ألقى خطابه في القاعةالكبرى في منزله الخاص.ولم يكن من شأني ولا مألوف في ان أقفز على الموائد=

وكرّس هتلر محاضراته بعد الغداء لبعث روح الزهو في قـــادته العسكريين ومحاولة تشديد عزائمهم للقيام بالمهمة الملقاة على عواتقهم . وتشير الوثائق الثلاث التي استندت اليها الى بيان هذه الطبيعة التي تميّز بها الخطاب . إذ قال :

«سنتميز من جانبنا بالتصميم الفولاذي . ولن نتخاذل او ننكمش امام أي شيء. وعلى كلٍ منا ان يحمل الرأي العام بأننا كنا عازمين على محاربة الدولتين الغربيتين منذ البداية . انهـــا حرب حياة او موت ... واستمرار السلام أمداً طويـــلاً لن يكون في مصلحتنا مطلقاً ... فعلينا ان نبدو رجالاً ... وجنودنا خير من جنودهم .. فهم اضعف منا بكثير ... وقد انهارت البلاد في عام ١٩١٨ لأن المتطلبات الروحية لم تكن كافية . وانتصر فريدريك الأكبر بسبب ما تميّز به من صبر وقوة احتمال .

« ويحتل تحطيم بولنـدة مكان الصدارة . وهدفنا إبادة القوات العاملة ، لا الوصول الى خط معين . وحتى لو نشبت الحـرب في الغرب فإن تحطيم بولندة سيظل هدفنا الأول . وعلينا ان نصل فيها الى قول فصل في اسرع وقت ممكن بسبب عوامل الطقس .

« وسأقدم سبباً دعائياً للشروع في الحرب ، ولا يهمني مطلقاً إن كان هذا السبب معقولاً او لم يكن . فالمنتصر لا يسأل في النهاية ان كان قد صدق او كذب . وفي شن الحروب وخوضها تكون الأهمية للنصر لا للحق .

« اغلقوا أفئدتكم عن الرحمة ! واعملوا بوحشية وصلابة ! فعلينا ان نضمن لثمانين مليوناً من الناس ، مـــا هو حق لهم . والقوي

– في المساكن الخاصة . فمثل هذا الوضع يتعارض تمام التعارض مع سلوك الضابط الالماني . »

وراح العقيد جون . اش . آمين ، المحقق الامريكي يسأله ... « ولكن الحقيقة قائمة وهي انك كنت زعيم المتافين بعد إلقاء الخطاب . أليس كذلك ؟

ورد غورنغ قائلاً : أجل ، ولكنني لم اقفز على المائدة ابداً .

(المؤامرة النازية والعدوان – الملحق ب . ص ١١٠٣ – ١١٠٥)

عادة هو صاحب الحق ... كونوا قساة لا يعذبكم ضمير ! وتدرعوا بدروع الفولاذ لتقيكم من عواطف الرحمة والاشفاق ... وكل من فكر في نسق هذا العالم يدرك ان معناه يقوم في نجاح الأفضل عن طريق القوة ... »

وبعد ان تدفق بهذه النصائح النيتشية (نسبة الى الفليسوف الالماني نيتشه المنادي بسياسة القوة) أخذ الفوهرر بعد ان وصل قمة الحماس التيوتوني يهدأ شيئاً فشيئاً ، وشرع يتلو توجيهاته بصدد الحملة المنتظرة . فأكد على أهمية السرعة . وأعرب عن « ايمانه الذي لا يتزعزع » بالجندي الألماني . واذا ما وقعت أي أزمة او ظهر أي موقف حرج فإن السبب في ذلك يرجع ولا شك الى ضعف اعصاب القادة . وسيكون الهدف الأول، فتح ثغرات من الجنوب الشرقي الى نهر الفيستولا ، ومن الشمال نحو نارو والفيستولا . واصرّ على ان العمليات الحربية يجب ان لا تتأثر مطلقاً بما قد يعتزم القيام به تجاه بولندة بعد هزيمتها . وهنا كان هتلر غامضاً كل الغموض فلقد بيّن لقادته ان حدود المانيا الجديدة ستقوم على « أسس سليمة » . وذكر بأنه قد يقيم دولة بولندية صغيرة لتكون عازلاً بين المانيا وروسيا .

وأنهى خطابه قائلاً ان الأمر ببدء العمليات الحربية سيصدر فيما بعد وربما صباح السبت في السادس والعشرين من آب .

وسجل الفريق هولدر في اليوم التالي اي الثالث والعشرين من آب بعد اجتماع عقده رؤساء الأقسام في القيادة العامة للقوات المسلحة ، في يوميّته : « ان موعد الهجوم قد حدد نهائياً في يوم السبت السادس والعشرين من آب . »

مأزق الحلفاء في موسكو

وكانت المحادثات العسكرية في موسكو بين الدولتين الديموقراطيتين والاتحاد السوفياتي ، قد وصلت في منتصف شهر آب الى ما يشبه التوقف . وذلك بسبب

حماقة البولنديين الى حد كبير . ويذكر القارىء ان البعثتين العسكريتين الانكليزية والفرنسية قد وصلتا الى لينينغراد في باخرة صغيرة بطيئة ثم انتقلتا الى موسكو التي وصلتاها في الحادي عشر من آب ، أي بعد اسبوع واحد من مغادرة المستر سترانغ الخائب الأمل للعاصمة الروسية . وكان هذا قد أحس بشيء من الراحة ولا شك اذ سلم الى العسكريين من فرقاء وأمراء بحر ، المهمة الشاقة والمتعبة في محاولة التفاوض مع الروس . [1]

وكان المقصود من المفاوضات الجديدة الوصول بسرعة الى ميثاق عسكري، يحدد بالتفصيل الطريقة التي يمكن بواسطتها مواجهة القوة النازية المسلحة، ومكان هذه المواجهة والقوى التي ستستخدم فيها . ولكن تظهر الوثائق البريطانية السرية عن وقائع المحادثات العسكرية يوماً بعد يوم والتقارير التي بعث بها المفاوضون البريطانيون [2] ان الفريقين العسكريين الانكليزي والفرنسي لم يرسلا الى

١ - اطلق سترانغ على هذه المفاوضات اسم « التجربة المذلة » في برقية بعث بها الى وزارة الخارجية البريطانية في العشرين من تموز (وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٦) رقم ٣٧٦) .

٢ - وثائق وزارة الخارجية البريطانية - الحلقة السابعة - الملحق الثاني . ص٥٥٨-٦١٤ ويتضمن هذا الملحق تسجيلاً يومياً لمحادثات موسكو العسكرية ويؤلف اكثر مصدر شمولاً لعرض الحلفاء للمحادثات . ويتضمن الملحق تقارير بعث بها الى لندن مشير الجو بيرنيت والفريق هيوود والتقرير النهائي للبعثة العسكرية البريطانية الذي قدمه الاميرال دراكس الى حكومة لندن. ويتضمن الملحق ايضاً ،صورة حرفية للاجتماع الدراماتيكي الذي عقده الفريق دومينك مع المشير فوروشيلوف عشية الثاني والعشرين من آب عندما قام رئيس البعثة الفرنسية بمحاولة يائسة لانقاذ الوضع على الرغم من البيان الرسمي الذي صدر عن توقع وصول ريبنتروب في اليوم التالي. وفي الملحق ايضاً تسجيل للاجتماع المؤلم الاخير الذي عقدته البعثتان العسكريتان الغربيتان مع فوروشيلوف في السادس والعشرين من آب . ويتضمن المجلد السابع ايضاً عدداً من البرقيات المتبادلة بين وزارة الخارجية البريطانية ، وبين سفارة موسكو ،وهي تلقي اضواء جديدة على هذه الحقبة . ويستند هذا الجزء من هذا الفصل على تلك الوثائق البريطانية السرية الى حد كبير . ومن سوء الحظ ، ان الروس ، على حد علمي ، لم ينشروا وثائقهم عن الاجتماعات على الرغم من ورود رواية روسية في كتاب نيكونوف « اصول الحرب الكونية الثانية» اعتمد المؤلف فيها كثيراً على وثائق وزارة الخارجية البريطانية . وقد ظهرت الرواية ايضاً في كتاب « تاريخ الدبلوماتية» الذي اعده ونقحه « في . بوتيمكين » .

موسكو للبحث في التفاصيل بل في « المبادىء العامة » . ولكن الروس أصروا على أي حال ، على الدخول فوراً في بحث الحقائق الثابتة والمحددة ، أو ما أسماها الحلفاء بالحقائق الغريبة . وكان رد فورو شيلوف على بيان المبادىء الذي القاه الفريق دومينك الفرنسي ، بأن هذه المبادىء « مغالية في اطلاقيتها وعدم واقعها ، ولا تلزم اي جانب بأي شيء » . ثم مضى يقول بهدوء وبرود « ونحن لم نجتمع هنا لإصدار البيانات المطلقة ، بل لإعداد ميثاق عسكري شامل . »

وراح المشير السوفياتي يوجه بعض الأسئلة المحدودة : فهل هناك أية معاهدة تحدد العمل الذي تقوم به بولندة ؟ وما عدد الفرق البريطانية التي ستعزز الجيش الفرنسي عند نشوب الحرب ؟ وما هو موقف بلجيكا؟ وكانت الردود التي تلقاها على اسئلته تبعث على الاطمئنان. فلقد رد دومينك بأنه لا يعرف شيئاً عن خطط البولنديين . ورد الفريق هيوود ان البريطانيين يتصورون « ايفاد دفعة أولى تضم ست عشرة فرقة للخدمة فوراً في المراحل الاولى من الحرب تعقبها دفعة ثانية تضم ست عشرة فرقة أخرى » . وعندما ألحّ عليه فورو شيلوف في الأسئلة ليكشف النقاب عن عدد القوات البريطانية المتأهبة للعمل فور نشوب الحرب ، رد هيوود قائلاً : « هناك الآن خمس فرق نظامية وفرقة آلية في انكلترا في الوقت الحاضر » . وجاءت هذه الأرقام التافهة مفاجأة لا تدعو الى الرضى بالنسبة الى الروس الذين كانوا على استعداد كما قالوا ، للزج بمائة وعشرين فرقة من فرق المشاة لمحاربة أي معتد في الغرب فور نشوب الحرب .

أما بالنسبة الى بلجيكا فقد رد الفريق دومينك ان (القوات الفرنسية لا تستطيع الدخول اليها ، إلا اذا طلبت بلجيكا منها ذلك . وان كانت فرنسا على استعداد للاستجابة الى اي نداء .)

وأدى هذا الرد الى ظهور مشكلة عويصة امام المفاوضين العسكريين في موسكو ، كان البريطانيون والفرنسيون توّاقين كل التوق لتجنبها ، فقد أصر فورو شيلوف في الجلسة الاولى ، وفي جلسة عصيبة اخرى عقدها المتفاوضون في الرابع عشر من آب على معرفة ما اذا كانت بولندة على استعداد للسماح للقوات

السوفياتية بدخول اراضيها ، لمقابلة الألمان وردهم . وأضاف فوروشيلوف يقول: « انه في حالة عدم وجود هذا الاستعداد ، فكيف يمكن للحلفاء ان يحولوا بين الجيش الالماني وبين اجتياح بولندة بصورة سريعة؟»وراح فوروشيلوف في جلسة الرابع عشر يوجه السؤال المحدّد التالي : « هل يعتقد اركان الحرب البريطانيون والفرنسيون ان في وسع الجيش الاحمر ان يزحف عبر بولندة ولا سيما عبر مضيق فيلنا وغاليسيا ليتمكن من الاتصال بالعدو ؟ »

هذا هو بيت القصيد في القضية . ولقد أبرق سيدس الى لندن يقول ان الروس قد اثاروا الآن :

« المشكلة الاساسية التي يتوقف عليها نجاح المحادثات العسكرية او فشلها والتي كانت والحق يقال الاساس في جميع متاعبنا منذ بدأت المحادثات السياسية ، وهي كيف يمكن الوصول الى أي اتفاق مجدٍ مع الاتحاد السوفياتي طالما ان جارات هذا البلد ، تحافظ على موقف مقاطعتها والذي لا يمكن تبدله ... الا بعد فوات الأوان . »

وكانت الحكومة البريطانية قداصدرت تعليماتها الى الأميرال دراكس محددة له طريقة التصرف في حالة اثارةهذا الموضوع الذي لم يكن ثمة مناص من إثارته. وعندما يقرأ المرء هذه التعليمات اليوم ، وهي التي حسرت عنها النقاب الوثائق البريطانية السرية ، يجد انها متناهية في السذاجة بشكل لا يكاد يصدق . فقد تضمنت تحديد (الخط) الذي يجب ان يسير فيه اثناء النقاش بالنسبة الى اصرار كل من بولندة ورومانيا « حتى على عدم التفكير في اية خطط لايجاد تعاون محتمل » فقالت :

«ان اي غزو بولندة ورومانيا لابد وان يبدل تبديلاً جوهرياً وجهة نظر هاتين الدولتين . يضاف الى هذا ان مما لا يتفق مع مصلحة روسيا ان تحتل المانيامراكز علىالحدود الروسية مباشرة... ولهذا فإن من مصلحة روسيا نفسها ان تضع الخطط اللازمةلمساعدة

كل من بولندة ورومانيا في حالة تعرضها للغزو .

« واذا اقترح الروس ان تقوم الحكومتان البريطانية والفرنسية بالاتصال ببولندة او رومانيا او دول البلطيق لتقديم مقترحات اليها تنطوي على التعاون مع الحكومة السوفياتية او مع هيئة أركان حربها ، فإن على الوفد البريطاني ان لا يلتزم بشيء . وان يعود في القضية الى لندن . »

وهذا ما وقع فعلاً . فلقد طلب فورو شيلوف في جلسة الرابع عشر من آب ردوداً صريحة على اسئلته . وأضاف انه بدون «مثل هذه الردود الدقيقة ، والواضحة فإن استمرار المحادثات العسكرية يغدو غير مجدٍ ولا نافع ... فليس في مكنة البعثة العسكرية السوفياتية ،ان توصي حكومتها بالاشتراك في مشروع مقضي عليه بالفشل الحتمي ، بصورة واضحة . »

وبعث الفريق غاملان من باريس يشير على الفريق دومينك بأن يحاول ابعاد الروس عن الموضوع . ولكن الروس ما كانوا ليقبلوا هذا الابعاد . [1]

وكانت جلسة الرابع عشر من آب كما وصفها الفريق دومينك فيما بعد جلسة مسرحية . ووجد الوفدان البريطاني والفرنسي نفسيهما في زاوية ضيقة ، وكانا يعرفان ذلك تمام المعرفة . وقد حاولا تجنّب الموضوع بقدر ما لديهما من طاقة . وراح دراكس ودومينك يؤكدان انهما على ثقة بأن البولنديين والرومانيين سيطلبون مساعدة الروس فور وقوع الهجوم عليهم . وأخذ دومينك يؤكد إيمانه « بأنهم سيبتهلون الى المشير لمساعدتهم . » وقال دراكس ان « ليس من المعقول مطلقاً ان لا ينشدوا العون السوفياتي » ، وأضاف قائلاً ، بكل ما في قوله من بعد عن الدبلوماتية ، « انه يبدو وكأنهم إذا لم يطلبوا المساعدة عند الحاجة اليها ، يريدون ان تجتاح بلادهم ، وانهم يتوقعون ان تغدو هذه البلاد امارات المانية . » وكان هذا آخر ما يريده الروس إذ انه يعني وجود الجيوش

---

١ - بول رينو - في حمأة المعركة ص ٢١٢ . و ص ٢١٠ - ٢٣٣ . بونيه - كتاب « نهاية اوروبا » .

الألمانية على الحدود السوفياتية، وقد دوّن فورو شيلوف ملاحظة الاميرال السيئة الحظ وجعل منها نقطة أساسية .

وأخيراً ، ادعى الممثلون الانكلو - فرنسيون المتضايقون بأن فورو شيلوف قد أثار مواضيع سياسية ، وان ليس من صلاحياتهم البحث فيها. واعلن دراكس انه لما كانت بولندة دولة ذات سيادة ، فإن على حكومتها اولاً ان توافق على دخول القوات الروسية وتبـــاركه . ولكن لما كانت هذه القضية من المسائل السياسية ، فمن حق الحكومات وحدها ان تقررها . واقترح ان توجه الحكومة السوفياتية سؤالها الى الحكومة البولندية . وأعلن الوفد الروسي ان القضيـــة سياسية حقاً، ولكنه يصر على ان تقوم الحكومتان البريطانية والفرنسية بتوجيه هذا السؤال الى البولنديين وان تضغطا عليهم ليكونوا عقلاء .

فهل كان الروس بالنظر الى ما كانوا يقومون به من اتصالات مع الالمان في هذه الآونة يفاوضون الغربيين بنية صادقة عن طريق ممثليهم العسكريين ؟ او هل كانوا كما ذكرت وزارتا خارجية بريطانية وفرنسا وكما قال الاميرال دراكس فيما بعد ، يصرون على حقهم في توزيع قواتهم ونشرها داخل بولندة ، لمجرد الرغبة في تجميد المحادثات والمماطلة فيها كسباً للوقت ليروا إذا كان بامكانهم ان يعقدوا صفقة مع هتلر ؟ (١)

وتكشف المصادر البريطانية والفرنسية السرية ان الحليفتين الغربيتين كانتا

- ١ كان عنصر التوقيت مهمـــاً للغاية . اذ لم يتلـــق مولوتوف الاقتراح النـــازي بزيارة ريبنتروب الى موسكو إلا في مساء الخامس عشر من آب . وعلى الرغم من انه لم يقبل به قبولاً واضحاً إلا انه أشار الى ان روسيا مهتمة بموضوع عقد ميثاق عدم اعتداء مع المانيا وهو الاهتمام الذي كان حرياً به ، ان يجعل من المفاوضات لعقد حلف عسكري مع فرنسا وبريطانيا أمراً لا اعي له. ولعل خير استنتاج يستطيع المؤلف الوصول اليه هو ان الروس في الرابع عشر مـــن دآب وعندما طلب فوروشيلوف «ردا جلياً» على السؤال المتعلق بالسماح للقوات السوفياتية بمواجهة الالمان في بولندة ، كانوا لا يزالون متحررين من أي التزام ، ولم يحزموا أمرهم على الانضـــمام الى أي جانب . ومن سوء الحظ ان الوثائق الروسية التي في وسعها وحدها ان توضح هذه القضية المعقدة لم تنشر بعد. ويبدو ان ستـــالين على أي حال، لم يكن قداتخذ قراره النهائي بعد حتى مساء التاسع عشر من آب .

تتصوران في البداية ان الوفد العسكري السوفياتي ، كان يفاوضهما بنية صادقة ، وانه ينظر الى مهمته في الحقيقة نظرة جدية للغاية ، وقد بعث السفير سيدس الى لندن في الثالث عشر من آب اي بعد يومين من بدء المحادثات العسكرية ، ان الوفد الروسي يبدو « مهتماً كل الاهتمام بالعمل الذي عهد به اليه . » وتبدّلت نتيجة لذلك تعليمات الاميرال دراكس « بأن يمضي ببطء للغاية في مفاوضاته » ، وصدرت اليه التعليمات في الخامس عشر من آب من الحكومة البريطانية بأن يعزز دومينك ويسنده في الوصول بالمفاوضات العسكرية الى نتيجة « بأسرع وقت ممكن » . ورفعت بصورة جزئية القيود المفروضة على عدم الافضاء بمعلومات عسكرية سرية الى الروس .

وكانت التعليمات التي أصدرها رئيس الوزارة الفرنسية ديلادييه شخصياً الى الفريق دومينك مخالفة تمام المخالفة لتعليمات الأميرال البريطاني الأصلية بالتسويف والمماطلة ، فقد أوعز اليه بأن يبذل كل ما في وسعه للوصول الى ميثاق عسكري مع روسيا في أسرع وقتٍ ممكن . وعلى الرغم من مخاوف البريطانيين من تسرب الاسرار الى الألمان فان الفريق دومينك أسرّ في اليوم الثاني من المفاوضات الى الروس «بأرقام متناهية في السرية » على حد تعبيره ، تتناول قوة الجيش الفرنسي مما دعا الأعضاء السوفيات الى الوعد بتناسيها او « نسيانها » فور انتهاء الاجتماع.

وأبرق الفريق دومينك في السابع عشر من آب . وبعد ان انتظر ورفيقه دراكس عبثاً ثلاثة ايام طويلة التعليمات من حكومتيهما بصدد الرد على القضية البولندية ، الى باريس يقول : « ان الاتحاد السوفياتي راغب في ميثاق عسكري . . . ولكنه لا يريد ان نقدم اليه مجرد قصاصة من الورق دون تعهُّدات لها قيمتها . ولقد أوضح المشير فوروشيلوف بأن جميع المشاكل يمكن لها ان تعالج وان تحل دون صعوبة حالما تتم تسوية ما دعاها بالقضية المعقدة » . وراح دومينك يحث باريس بقوة على ان تضغط على وارشو لقبول العون الروسي .

وكان الاعتقاد يسود لا موسكو وحدها في ذلك الوقت بل العواصم الغربية ايضاً ، بأن الحكومتين البريطانية والفرنسية لم تقوما بأي عمل لاقناع البولنديين

بالموافقة على السماح للقوات الروسية بمواجهة الألمان على الأرض البولندية . ولكن الى الحد الكافي في سبيل هـــذا الاقناع . ويتضح من هذه الوثائق نفسها ان البولنديين تصرفوا تصرفاً بليداً يفوق حدود التصور . [١]

وفي الثامن عشر من آب ، وبعد ان جرت المحاولة الانكلو ـ فرنسية الأولى من وارشو لتبصير البولنديين بعواقب عنادهم ، راح وزير الخارجية بيك يقول لليون نوبل ، سفير فرنسا في وارشو ان ليست « للروس أية قيمة عسكرية . » وأيده الفريق ستاشيويكز رئيس هيئة اركان الجيش البولندي في قوله هذا ، معلناً انه لا يرى « أي فائدة متوخاة من السماح لقوات الجيش الأحمر بالعمل في بولندة . »

وقابل سفير بريطانيا وفرنسا الوزير بيك مرة ثانية في اليوم التالي ، وأخذا يحثانه على قبول الاقتراح السوفياتي ، وحاول الوزير التسويف ولكنه وعدهما بأن يرد عليهما رداً رسمياً في اليوم التالي . وقد جاءت هذه الخطوة الانكليزية ـ الفرنسية المشتركة في وارشو نتيجة حديث دار صباح التاسع عشر في باريس بين بونيه وزير خارجية فرنسا وبين القائم بالأعمال البريطاني . ولعل ممـــا أدهش الدبلوماتي البريطاني ان هذا الداعية الكبير لترضية هتلر قد استفاق الآن من غفلته خشية من ضياع روسيا كحليفة للغرب بسبب عناد البولنديين . وراح يقول لزائره :

« سيكون من الكوارث ان تتحطم المفاوضـات مع الروس وتنهار نتيجة العناد البولندي ... ولا ريب في أن موقف البولنديين في رفض المعونة الفعـّالة والفورية الوحيدة التي بإمكانها ان تصل اليهم في حالة الهجوم الألماني ، شيء لا يصدق مطلقاً . ولا ريب في ان هذا الموقف ايضاً يضع الحكومتين البريطانية والفرنسية في وضع

---

١ وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٧) . ومن المهم ان يقال ان الكتـــاب البريطاني الازرق والكتاب الفرنسي الاصفر لم يتضمنا سطراً واحداً عن المحاولات الدبلوماتية التي جرت في وارشو لاقناع البولنديين بقبول المساعدة الروسية ولا عن سير الحادثات العسكرية في موسكو.

خرج للغاية ، اذا كنا سنطلب الى حكومتينا الحرب دفاعاً عن بولندة التي ترفض مثل هذا العون الروسي . ؟

واذا صح ما قاله الوزير ، وليس ثمة من داعٍ للشك في صحته ،فمن حقنا ان نتساءل ، لم تقاعست الحكومتان البريطانية والفرنسية في هذه اللحظة الحرجة عن فرض غاية الضغط على وارشو ، اذا كان في وسعهما ان تقولا لحكومتها انها ما لم تقبل العون الروسي فان بريطانيا وفرنسا لا تجدان فائدة في ان تمضيا هما الى الحرب لمساعدتها ؟ ولم تكن معاهدة الضمان المشترك بين بريطانيا وبولندة ، قد وقعت بصورة رسمية بعد . أو لم يكن في وسع بريطانيا ان تجعل توقيعها على هذا الميثاق مشروطاً بقبول وارشو للمساعدة العسكرية الروسية ؟ [1]

واقترح بونيه في حديثه مع القائم بالأعمال البريطاني في باريس في التاسع عشر من آب مثل هذا الموقف ، ولكن حكومة لندن قابلت مثل هذه « المناورة » على حد تعبير داونينغ ستريت بالتقطيب والعبوس . إذ لم يكن تشمبرلين وهاليفاكس على استعداد للمضي الى هذا الحد .

وأبلغ رئيس هيئة اركان حرب الجيش البولندي الملحق العسكري البريطاني في وارشو صبيحة العشرين من آب أن بولندة « لن توافق بأي حال من الاحوال على قبول دخول القوات السوفياتية الى بلادها . » . ورفض الوزير بيك في مساء اليوم نفسه الطلب الانكليزي ـ الفرنسي المشترك رفضاً رسمياً . وعاد هاليفاكس

---

١ ـ كان لويد جورج، في خطاب القاه في مجلس العموم في الثالث من نيسان ،اي بعد اربعة ايام من اعلان تشمبرلين الضمانة من جانب واحد لبولندة،قد اقترح على الحكومة البريطانية ان تطلب هذا الشرط من بولندة . فلقد قال : « واذا كنا سنخوض الحرب دون مساعدة روسيا ، فإننا نكون كمن يسير بنفسه الى شراك . ان روسيا هي البلاد الوحيدة التي تستطيع جيوشها ان تصل الى بولندة ... وليس في مكنتي ان افهم كيف اننا لم نضمن مسبقاً انضمام روسيا وتأييدها قبل ان نربط انفسنا بهذا الالتزام في مشروع هائل كهذا ... واذا لم تكن روسيا قد ادخلت في هذه القضية بدافع مشاعر معينة من ان البولنديون لا يريدون الروس في بلادهم ، فإن من حقنا ان نفرض الشروط ، وما لم يقبل البولنديون بهذا الشرط الوحيد الذي يمكننا من مساعدتهم بنجاح فإن المسؤولية تقع على عواتقهم وحدهم . »

في عين الليلة يحث عن طريق سفيره في وارشو ، وزير خـارجية بولندة ، على إعادة النظر في موقفه ، مؤكداً له بعبارات قوية ان الموقف البولندي « يحطم » المحادثات العسكرية في موسكو . ولكن بيك كان متصلباً كل التصلب في رأيه . وقال للسفير ... « لا يسعني الموافقة ابداً على قيام أي نوع من المحادثات حول استخدام القوات الاجنبية لأي جزء من بـلادنا . فليس بيننا وبين الاتحـــاد السوفياتي أي اتفاق عسكري ، ونحن لا نريد هذا الاتفاق ابداً . »

وأحس ديلادييه رئيس الوزارة الفرنسية باليـأس من هذا العرض الواضح للعناد الأعمى ، من جانب الحكومة البولندية ، فقرر ، طبقاً لبيان أدلى به في الجمعية التأسيسية الفرنسية في الثامن عشر من تموز عام ١٩٦٤ ، ان يتولى القضية بنفسه . وبعد ان ناشد البولنديين مرة اخرى ان يكونوا واقعيين ، أبرق الى الفريق دومينك صباح الواحد والعشرين من آب ، مخولاً اياه توقيع افضل مـا يمكنه الوصول اليه من مواثيق عسكرية مع روسيا ، مع النص في الميثاق على وجوب موافقة الحكومة الفرنسية عليه . وصدرت التعليمات في الوقت نفسه من بونيه وزير الخارجية الى سفيره في موسكو بول أميل ناجيار ، بأن يبلـــغ مولوتوف ، طبقاً لتصريح صدر عن السفير فيما بعد ، ان فرنسا توافق « من ناحية المبدأ » على عبور القوات السوفياتية أراضي بولندة في حالة وقوع هجوم الماني .

ولكن هذه الايماءة كانت باطلة لا قيمة لهـــا طالما ان البولنديين انفسهم لم يوافقوا على ذلك ، كما كانت ايماءة غير مجدية ، كما نعرف اليوم ، على ضوء مــــا وصلت اليه المساومات الروسية الالمانية . ولم يتلق دومينك برقية ديلادييه الا في ساعة متأخرة من مساء الواحد والعشرين من آب . وعندما عرضها على مسامع فوروشيلوف مساء اليوم التالي أي عشية سفر ريبنتروب الى موسكو ، كان المشير السوفياتي كثير الشكوك . فقد طلب من الفريق الفرنسي ان يطلعه على صورة التخويل الصادر اليه بأن يقول – كما قال فعلاً – بأن الحكومة الفرنسية خولته توقيع ميثاق عسكري يسمح بمرور القوات الروسية عـــبر بولندة . ولكن

دومينك رفض هذا الطلب كما يبدو ،واراد فوروشيلوف ان يعرف بعد ذلك رد بريطانيا وما إذا كانت بولندةقد وافقت على ذلك وكانت هذه الأسئلة بالطبع محرجة كل الاحراج،واكتفى الفريق الفرنسي بالرد بأنه لم يتلق أية معلومات عن ذلك.

وكانت الأسئلة والردود قد فقدت في هذه الآونة أهميتها وواقعها إذ جاءت متأخرة . وها هو ريبنتروب في طريقه الآن الى موسكو . وقد اعلن عن هذه الزيارة رسمياً في الليلة الفائتة ، كما اعلن عن الهدف منها ، وهو عقد ميثاق عدم اعتداء بين المانيا النازية والاتحاد السوفياتي .

وحاول فوروشيلوف الذي يبدو وكأنه قد احب القائد الفرنسي حباً اصيلاً، ان يفهمه بلطف وكياسة ان اتصالاتها قد اوشكت على نهايتها فقال له :

« وكل ما اخشاه شيء واحد . لقد سمح الجانبان الفرنسي والبريطاني للمحادثات السياسية والعسكرية بأن تمتد اكثر من اللزوم. ولهذا يجب ان نتوقع في هذا الوقت حدوث تطورات سياسية معينة . » [١]

١ - طلب فوروشيلوف في الجلسة التي عقدها المفاوضون العسكريون في صباح اليوم الفائت اي في الواحد والعشرين من آب تأجيل المحادثات الى اجل غير مسمى،بحجة اضطراره هو وزملاؤه الى التغيب للاشتراك في مناورات الخريف.وعندما احتج المفاوضون البريطانيون والفرنسيون على هذا التأجيل رد المشير الروسي قائلاً : « لقد كانت نوايا الوفد السوفياتي وما زالت ، تهدف الى الاتفاق على تنظيم التعاون العسكري بين القوات المسلحة للفرقاء الثلاثة ... ولما كان الاتحاد السوفياتي يفتقر الى الحدود المشتركة مع المانيا فإن السبيل الوحيد لتقديم العون الى فرنسا وبريطانيا وبولندة ورومانيا يكون عن طريق السماح لقواته بحق المرور عبر الاراضي البولندية والرومانية ... وليس في مكنة القوات السوفياتية التعاون مع قوات بريطانيا وفرنسا المسلحة الا اذا سمح لها بدخول الاراضي البولندية والرومانية ... ولا يستطيع الوفد العسكري السوفياتي ان يتصور كيف ان حكومتي بريطانيا وفرنسا وهيئتي اركان حربها في إرسالها للبعثتين العسكريتين الى الاتحاد السوفياتي ... قد اهملتا تزويد هاتين البعثتين بالتوجيهات اللازمة والمتعلقة بمثل هذه القضية البدهية ... وكل ما نستطيع استنتاجه من ذلك ان هناك اسباباً تدعونا الى الشك في رغبتها في الوصول الى تعاون جدي وفعال مع الاتحاد السوفياتي »

ولا ريب في ان منطق المشير السوفياتي في هذه الاقوال سليم كل السلامة ،ولا ريب في ان فشل الحكومة الفرنسية والحكومة البريطانية بصورة خاصة في الرد عليه،كان مفجعاً.ولكن تكرار=

ريبنتروب في موسكو

٢٣ آب ١٩٣٩

وبالفعل حدثت هذه « التطورات السياسية المعينة » الآن .

ففي الثاني والعشرين من آب استقل ريبنتروب الطائرة الى موسكو مزوداً من هتلر بالصلاحيات الخطية الكاملة لعقد معاهدة عدم اعتداء « وأية اتفاقات أخرى » مع الاتحاد السوفياتي على ان تصبح سارية المفعول فور توقيعها . وقضى الفريق الألماني الكبير العدد الليل في كونيغسبرغ في بروسيا الشرقية ، حيث عمل وزير الخارجية النازي ، كما ذكر الدكتور شميدت طيلة الليل في التحدث هاتفياً الى برلين وبرختسغادن وفي اعداد ما يحتاج اليه من ملاحظات وافرة تمهيداً لمحادثاته المقبلة مع ستالين ومولوتوف .

ووصلت طائرتا النقل الكبيرتان من طراز « كوندور » تحمل الوفد الالماني الى موسكو ظهر الثالث والعشرين من آب ، وبعد ان تناول ريبنتروب وجبة عاجلة في السفارة الالمانية سارع الى الكرملين لمقابلة الديكتاتور السوفياتي ووزير خارجيته . وقد استغرق الاجتماع الاول ثلاث ساعات ، وابرق ريبنتروب بعده برسالة « عاجلة للغاية » الى هتلر يبلغه فيها ان المحادثات سارت سيراً مرضياً للألمان . [١] واذا ما حكمنا على الأمور من البرقية التي بعث بها الوزير الالماني ، تبيَّن لنا انه لم تقم أية صعوبة في طريق الوصول الى اتفاق على شروط ميثاق عدم الاعتداء الذي يضمن بقاء الاتحاد السوفياتي بعيداً عن حرب هتلر . وكانت الصعوبة الوحيدة التي ذكرها في رسالته في الواقع ، تافهة للغاية وتتعلق باقتسام الغنائم . فلقد طالب الروس كما قال ، باعتراف المانيا بأن مينائي ليباو ووينداو

— هذه الاقوال كلها في مثل هذا التاريخ المتأخر اي في الواحدوالعشرين من آب، وبعد ان كان فوروشيلوف قد عرف حقاً بقرار ستالين في التاسع عشر من آب ، لا بد وان يكون منطوياً على الخداع .

١ - برقية ريبنتروبالساعة ٩,٠٠ مساء ٢٣ آب وثائق وزارةالخارجيةالالمانية(٧)ص٢٢٠

الصغيرين في لاتفيا يقعان في « منطقة مصالحة » . ولما كانت لاتفيا كلها ستضم الى منطقة مصالح الاتحاد السوفياتي على ضوء خط تقسيم المصالح بين الدولتين، فإن هذا الطلب لا يشكل أية عقبة ولذا فقد وافق عليه هتلر فوراً . وأبلـــغ ريبنتروب الفوهرر ايضاً بعد الاجتماع الاول « بأن من المحتمل التوقيـع على ملحق سري يحدد مناطق المصالح والنفوذ المشتركة في جميـع ارجاء اوروبا الشرقية . »

وانتهى العمل كله ، ووقعت معاهدة عـــدم الاعتداء والملحق السري في الاجتماع الثاني الذي عقد في الكرملين في ساعة متأخرة من تلك الليلة. وهكذا تم الوصول بسهولة الى اتفاق بين الألمان والروس . ولم تتسم هذه الجلسة المرحة التي استطالت حتى الساعات المبكرة من الصباح التـالي ، بطابـع المساومة القاسية بل بطابـع الاحاديث الودية والدافئة عن اوضـــاع العالم ، دولة بعد دولة ، ويتبادل الانخاب المألوفة والتي لا بد منها في أية حفلات مرحة في الكرملين . وقد سجلت مذكرة المانية سرية كتبها احد أعضاء الوفد الالماني الذي شهد الاجتماع ، المنظر الذي لا يكاد يصدق والذي بدا في هذا الاجتماع . [1]

فعندما تساءل ستالين عن مطامع شريكتي المانيا ، أي ايطاليا واليابان .رد ريبنتروب ردوداً مطمئنة هوائية . وسرعان ما وجد الديكتاتور السوفيـاتي ووزير الخارجية النـازي الذي كان في احسن اوضاعه ... ، نفسيهما على اتفاق تام في موضوع انكلترا . وأسر ستالين لضيف ... دة البريطانية الموجودة في موسكو « لم تبلغ الحكومة ... تطلبه » . ورد ريبنتروب مؤكداً ان بريطانيا ... المانيا والاتحاد السوفياتي . وراح يزهو بقوته ... وهي تريد من الآخرين ان يحاربوا دفاعاً ... العالم . »

وتقول المذكرة الالمانية ان ستالين

---

١ ـ المذكرة الالمانية السرية بتاريخ ...
٢٢٥ ـ ٢٢٩) .

ان « تمكن بريطانيا من تحقيق سيطرتها على العالم راجع الى بلادة الدول الأخرى التي سمحت لنفسها دائماً بأن تكون عرضة للبلف والخدع . »

وكان الحاكم السوفياتي ووزير خارجية هتلر قد وصلا الآن الى مرحلة من التفاهم الرائع، بحيث لم يعد لعبارة ميثاق مكافحة الشيوعية أي أثر في مضايقتهما. ولقد اوضح ريبنتروب ثانية ان الميثاق لم يكن موجهاً في الحقيقة ضد روسيا وانما ضد الدول الديموقراطية الغربية. وقاطعه ستالين ليقول «ان ميثاق مكافحة الشيوعية قد أثار الفزع اكثر ما يكون في مدينة لندن (اشارة الى رجال المال في حي السيتي) ، كما اخاف اصحاب الحوانيت الانكليز . »

وتكشف المذكرة الألمانية عن ان ريبنتروب أحس في هذه اللحظة بالكثير من المرح ، لدى استماعه الى اقوال ستالين المرضية وطريقته المرحة ، وأراد ان يحاول المزاح ، مخالفاً بذلك طبيعته الجدّية التي لا تعرف النكتة . ومضت المذكرة تقول :

« وقد رد وزير خارجية الرايخ مازحاً بأن ستالين كان في الحقيقة أقل فزعاً من ميثاق مكافحة الشيوعية من رجال المال في لندن واصحاب الحوانيت في انكلترا . ولا ريب في ان رأي الشعب الألماني في هذه القضية يتمثل في النكتة التي صدرت عن اهل برلين المعروفين بذكائهم ومرحهم وميلهم الى المزاح ، والتي تقول ان ستالين سينضم ايضاً الى ميثاق مكافحة الشيوعية . »

وراح الوزير النازي يؤكد في النهاية الحرارة التي استقبل بها الشعب الألماني التفاهم مع روسيا ، وتقول الوثيقة الألمانية ان المسيو ستالين رد قائلاً : « انه يصدق هذا القول تمام التصديق إذ ان الألمان يريدون السلام فعلاً . »

وتطورت هذه الصورة الحمقاء نحو الأسوأ مع اقتراب موعد تبادل الأنخاب.

«ورفع المسيو ستالين كأسه يشرب تلقائياً نخب الفوهرر وقال:

« انني أعرف الحب العظيم الذي يحمله الشعب الألماني لزعيمه الفوهرر : ولذا فانني أود ان اشرب نخب صحته . »

« وشرب المسيو مولوتوف نخب وزير خارجية الرايخ .... ثم شرب مولوتوف وستالين مرات عـــدة نخب ميثاق عدم الاعتداء والعهد الجديد في العلاقات الألمانية ـ الروسية ونخب الشعب الألماني « واقترح وزير خارجيه الرايخ أن يشرب الحاضرون بدورهم نخب المسيو ستالين ، ونخب الحكومة السوفياتية ، والتطور الرائع للعلاقات بين المانيا والاتحاد السوفياتي . »

ومع ذلك، وعلى الرغم من هذا التبادل الحار للانخاب بين هؤلاء الذين كانوا حتى عهد قريب من ألد الأعداء ، فإن ستالين بدا وكأنه لا يزال يحتفظ ببعض الشكوك العقلية بالنسبة إلى تمسك النازيين بالميثاق . فعندما اوشك ريبنتروب على مغادرة المكان، انتحى به ستالين جانباً وقال: «تنظر الحكومة السوفياتية إلى هذا الميثاق الجديد نظرة جديـة . وفي وسعي ان اضمن بشرفي ان الاتحـاد السوفياتي لن يخون شريكه فيه . »

ولكن ترى ما الذي وقعه الشريكان الجديدان ؟

لقد حملت المعاهدة العلنيةتعهداً بأن لا تقوم أي من الدولتين بمهاجمة الدولة الاخرى . ولو تعرضت إحداهما « إلى عمل حربي معاد » من دولة ثالثة فإن الفريق الثاني لا يقدم أي عون بأي شكل من الأشكال لهذه « الدولة الثالثة . » وتعهدت الدولتـــان بأن « لا تنضم أي منهما إلى أي تجمّع دولي مهما كان شكله يوجّه بصورة مباشرة أو لا مباشرة ضد الدولة الثانية . » [1]

١ - كانت عبارات المواد الاساسية في الميثاق مماثلة تمام المماثلة لمشروع الميثاق السوفياتي الذي قدمه مولوتوف الى شولنبرغ في التاسع عشر من آب ، والذي ذكر هتلر في برقيته لستالين قبوله به . وكان المشروع السوفياتي قد نص على ان معاهدة عدم الاعتداء تصبح سارية المفعول فقط في حالة التوقيع في نفس الوقت على « ملحق خاص » لا يتجزأ من الميثاق نفسه (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ١٥٠ — ١٥١) .

ويقول فريدريش غاوس الذي اشترك في جلسة المساء ، ان ستالين اصر على رفض المقدمـــة المنمقة التي اراد ريبنتروب ادخالها ليؤكد فيها قيام علاقات ودية بين المانيا والاتحاد السوفياتي ، واحتج الديكتاتور السوفياتي بأن ليس في وسع « الحكومة السوفياتية ان تقدم الى شعبها على هذا النحو المفاجيء مثل هذه التأكيدات عن الصداقة ، بعد ان كانت قد تعرضت لأكوام من =

وهكذا حصل هتلر على ما أراده، وهو موافقة الحكومة السوفياتية الفورية على عدم الاشتراك مع بريطانيا وفرنسا ، إذا شاءت هاتان الدولتان الوفاء بالتزاماتها والمسارعة إلى مساعدة بولندة في حالة تعرضها للهجوم [1] .

أما الثمن الذي دفعه ، فقد تحدد في «الملحق الاضافي السري» الذي اعتبر جزءاً من الميثاق وهذا نصه :

« بمناسبة توقيع معاهدة عدم الاعتداء بين المانيا والاتحاد السوفياتي بحث المفوّضون الموقعون على هذا الملحق ، في محادثات سرية مغلقة ، موضوع تخطيط الحدود لمناطق مصالحها في اوروبا الشرقية .

« ١ – في حالة وقوع تحوّل اقليمي وسياسي في المناطق التي تمت إلى دول البلطيق (فنلندة ، ايستونيا ، لاتفيا ، ليتوانيا) ، تمثل الحدود الشمالية لليتوانيا الخط الفاصل بين منطقتي المصالح لكل من المانيا والاتحاد السوفياتي .

« ٢ – في حالة وقوع تحول اقليمي وسياسي في الاراضي التي تمت إلى الدولة البولندية ، فإن خط الحدود الذي يفصل مناطق المصالح والنفوذ بين المانيا والاتحاد السوفياتي سيكون محاذياً على وجه التقريب الخط الذي تؤلفه انهار نارو والفستولا وسان .

« اما الموضوع المتعلق بما إذا كانت مصالح الفريقين المتعاقدين تجعل من المرغوب فيه الحفاظ على وجود دولة بولندية مستقلة ، وبحدود هذه الدولة ، فيمكن تقريره نهائياً في مجال التطورات

= القاذورات ظلت الحكومة النازية تصبها عليها اكثر من ست سنوات (شهادة غاوس المشفوعة باليمين في نورمبرغ – محاكمات كبار مجرمي الحرب (١٠) ص٣١٢).

١ ـ نصت المادة السابعة من المعاهدة على ان تصبح سارية المفعول فور توقيعها . اما الابرام الرسمي في مثل هاتين الدولتين الجماعيتين المتعاقدتين ، فلم يكن إلا مجرد شكليات ليس إلا وان كانت ستستغرق بضعة ايام على اي حال . وقد اصر هتلر على هذا النص ، رغبة منه في الاستعجال دون انتظار الابرام الرسمي .

السياسية المقبلة .

« على أي حال تقوم الحكومتان بتقرير هـذا الموضوع بواسطة تفاهم ودي متبادل . »

وهكذا اتفقت المانيا وروسيا مرة اخرى كما في ايام الملوك والأباطرة الروس على تقسيم بولندة . وهكذا سمح ايضاً لستالين بحرية التصرف في الجزء الشرقي من بحر البلطيق .

واكد الروس في النهاية ، وبالنسبة إلى جنوب اوروبا الشرقي وجود مصالح لهم في بسارابيا التي استولت عليها رومانيا في عام ١٩١٩ ، وأعلن الألمان أن لا مصالح لهم في هذه المنطقة ، وهو تساهل سرعان مـــا تحتم على ريبنتروب أن يندم عليه .

وانتهت الوثيقة إلى القول : « ويعامل الفريقان هذا الملحق كوثيقة سرية للغاية . »[١] .

وبالفعل لم تعرف محتويات هذا الملحق إلا بعـــد انتهاء الحرب وعن طريق الاستيلاء على الوثائق الألمانية السرية .

وطلبت البعثتان العسكريتـــان الحليفتان في اليوم التالي أي في الرابـــع والعشرين من آب ، وكان ريبنتروب المنتصر ، يقطع الفضاء عائـداً إلى برلين ، مقابلة فورشيلوف . وكان الاميرال دراكس قـد بعث بالفعل برسالة عاجلة إلى المشير يطلب اليه بيان وجهات نظره في موضوع استمرار المحادثات .

وسلّم فورشيلوف إلى الوفدين العسكريين البريطاني والفرنسي في الساعـة الواحدة بعد ظهر اليوم التالي ، الخامس والعشرين من آب الرسالة التاليـة : « بالنظر إلى الوضع السياسي المتبدّل . فلم يعد هناك مبرر مفيـــد لاستمرار المحادثات . »

وبعد عامين اثنين ، وكانت القوات الألمانية تتدفق زاحفـــة على روسيا ، مخترقة بذلك هذا الميثاق . وجد ستالين أن في مكنته ايضاً تبرير صفقته الكريهة

١ــ نص ميثاق عدم الاعتداء والملحق السري وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٧) ص ٢٤٥ – ٢٤٧

مع هتلر، وهي الصفقة التي عقدها وراء ظهور اعضاء الوفدين العسكريين البريطاني والفرنسي الذين أمّوا موسكو للتفاوض مع حكومتها وقال متبجحاً في اذاعة وجهها إلى الشعب الروسي في الثالث من تموز عام ١٩٤١... : « لقد ضمنا السلام لبلادنا بذلك الميثاق عاماً ونصف العام ، كما اتحنا لأنفسنا الفرصة لإعداد قواتنا للدفاع عن البلاد في حالة مجازفة المانيا الفاشية بمهاجمتها ، مناقضة بذلك الميثاق الذي عقدته معنا . ولا ريب أننا كسبنا بذلك كسباً واضحاً لبلادنا كما كان الميثاق خسارة لألمانيا الفاشية . »

ولكن هل صحيح ما قاله ستالين ؟ وهل كان الميثاق خسارة لألمانيا ؟ لقد نوقشت هذه النقطة عشرات المرات منذ ذلك التاريخ . أما ان هـــذه الصفقة السرية الغريبة قد اتاحت لستالين مجال التنفس والاستعداد الذي أتاحته معاهدة تلسيت في عام ١٨٠٧ للقيصر الاسكندر الأول من نابوليون أو ذاك الذي أتاحته معاهدة بريست ليتوفسك في ١٩١٧ للينين من الألمان ، فهذا واضح كل الوضوح. وقد اتاح للاتحاد السوفياتي كذلك وبعد فترة قصيرة تقديم خطوطه الدفاعيـة ضد المانيا إلى ما وراء حدود روسيا الحالية، شاملة ايضاً القواعد في دول البلطيق وفنلندة ، وذلك على حساب البولنديين واللاتفيين والايستونيين والفنلنديين . ولعل ما هو أهم من ذلك كله ، كما أكد الكتاب السوفياتي الرسمي « تاريـــخ الدبلوماتية » فيما بعد، هو أن هذا الميثاق قد ضمن للكرملين في حالة تعرض روسيا فيما بعد لهجوم المانيا ، وجود الدولتين الغربيتين في الحرب بصورة قاطعة ضـد الرايخ الثالث ، وبهذا لا يقف الاتحاد السوفياتي وحيـــداً ضد القوة الألمانية الطاغية ، وهو ما كان يخشاه ستالين كل الخشية طيلة صيف عام ١٩٣٩ .

وليس ثمة من شك في صحة جميع هـــذه الحجج . ولكن هناك جانباً آخر للقضية ، ففي الوقت الذي استدار فيـــه هتلر لمهاجمة روسيا ، كانت جيوش بولندة وفرنسا ، والحملة البريطانية في القارة قد تحطمت، وكانت المانيا قد غدت مسيطرة على جميع ما في اوروبا من موارد ، ولم تكن هناك جبهة غربيـــة تستطيع إرباكها وتقييد يديها . وقد تركزت شكاوى ستالين المرة طيلة اعوام

١٩٤١ و ١٩٤٢ و ١٩٤٣ من عدم وجود جبهة ثانية في اوروبا ضد المانيا ، وان روسيا تجد نفسها مضطرة لاحتمال اعباء الهجوم الذي يقوم به الجيش الالماني بمجموعه تقريباً . أما في عامي ١٩٣٩ و ١٩٤٠ ، فقد كانت هناك جبهة غربية تجتذب القوات الالمانية وتستأثر باهتمامها . وما كانت بولندة لتنهار وتجتاح في غضون اسبوعين لو ان الروس قد سندوها بدلاً من ان يطعنوها في ظهرها . يضاف إلى هذا ان الحرب كلها ما كانت لتنشب على الغالب لو ان هتلر قد عرف بأن عليه ان يواجه روسيا بالاضافة الى بولندة وانكلترا وفرنسا . وكان من المحتمل ايضاً ان يقوم الفرقاء (الجنرالات) الالمان الجبناء سياسياً، اذا حكم المرء على ضوء شهاداتهم اللاحقة في نورمبرغ ، باظهار معارضتهم الصلبة لشن حرب ضد مثل هذا التحالف القوي الضخم . ويروي السفير الفرنسي في برلين ان كلاً من كايتل وبراوختش قد حذرا هتلر في نهاية شهر ايار تقريباً من ان المانيا لا تستطيع ان تنتصر في حرب تشترك فيها روسيا إلى جانب العدو .

وليس في وسع أي من رجال الحكم والسياسة حتى ولو كانوا من الديكتاتورين ان يتكهنوا بسير الاحداث مدة طويلة من الزمن . ومن حق المرء ان يناقش ، كما ناقش تشرشل نفسه ، هذه الخطوة المدروسة المتعمدة التي خطاها ستالين عندما عقد صفقته مع هتلر ، فلقد كانت « في تلك اللحظة واقعية الى حدٍ كبير »[١] . إذ كان الهم الأول والأخير لستالين كما لغيره من رؤساء الحكومات ان يضمن سلامة بلاده . ولقد كان مقتنعاً في صيف عام ١٩٣٩ ، كما ذكر لتشرشل فيما بعد ، من ان هتلر حزم امره على خوض الحرب . وكان عازماً كل العزم على ان لا يسمح لروسيا بأن تذهب ضحية المناورات وأن توضع في موقف يحتم عليها ان تواجه الجيش الالماني وحدها . ولذا فقد رأى ستالين أنه إذا تعذر إقامة حلف متين مع الغرب ، فإن في وسعه ان يستدير نحو هتلر الذي اخذ يقرع بابه بصورة مفاجئة .

ولم تحل نهاية تموز عام ١٩٣٩ ، حتى كان ستالين قد اقتنع كما هو واضح ، لا

---

١ - تشرشل ـ مذكرات . ص ٣٩٤ .

من ان فرنسا وبريطانيا لا تريدان حلفاً ملزماً مع روسيا فحسب ، بل وبأن ما تسعى اليه حكومة تشمبرلين في بريطانيا ، هو اقناع هتلر بشن حروبه في شرق اوروبا . وكان يشك كل الشك في ان بريطانيا ستحترم ضمانتها لبولندة ، اكثر من احترام فرنسا لضمانتها السابقة لتشيكوسلوفاكيا . وادى كل مـــا وقع في الغرب في غضون السنتين الماضيتين إلى زيادة شكوكه ومخاوفه ، كرفض تشمبرلين للاقتراحات السوفياتية بعد ضم النمسا ، وبعد احتلال النازيين لتشيكوسلوفاكيا ورفضه ايضاً عقد مؤتمر يتولى وضع الخطط اللازمة لوقف أي عدوان نازي جديد ، وقيامه كذلك - أي تشمبرلين - بتلك العملية الغريبة من الترضية لهتلر في مؤتمر ميونيخ الذي حرمت روسيا من حضوره وعمليـات التسويف والتأجيل التي اتبعها في التفاوض على عقد حلف دفاعي ضد المانيا مع مرور ايام صيف عام ١٩٣٩ القدرية.

وكان هناك شيء واحد . بات مؤكداً لكل انسان باستثناء تشمبرلين ، هو افلاس الدبلوماتية الانكليزية - الفرنسية . فهذه الدبلوماتيـــة التي تذبذبت وترنحت كلما قام هتلر بحركة من حركاته قد افلست الآن كل الافلاس . [١] وقد تراجعت الدولتان الديموقراطيتان الغربيتان خطـــوة خطوة ، كلما قام هتلر بتحديها ، كإعلانه التجنيد العام الالزامي في عام ١٩٣٥ ، واحتلاله منطقة الراين في عام ١٩٣٦ ، ومطالبته بأراضي السوديت وحصوله عليها في نفس العام ، ووقوفهما موقف الضعيف الخائر الذي لا يستطيع عمل شيء عندما وضع يده على ما تبقى من تشيكوسلوفاكيا في آذار عام ١٩٣٩. ولو ظل الاتحاد السوفياتي إلى جانبهما لكان في إمكانهما إقناع الديكتاتور الألماني بعدم شن الحرب ، أما لو فشلتا في ذلك ، لكان في إمكانهما أن تهزماه في صراع مسلح وبسرعة نسبية معقولة . ولكنهما سمحتا بضياع هذه الفرصة الاخيرة من أيديهما . [٢] أمـــا الآن فقد باتتا

---

١ — وينطبق هذا القول على الدبلوماتية البولنديه ايضاً. فقد نقل السفير الفرنسي نوبل الى باريس رد فعل بيك وزير الخارجية البولندية على الميثـــاق النازي السوفياتي فقال : « لا يبدو على بيك اي اضطراب او قلق مطلقاً . وهو يعتقد بعدم وجود كبير تبدل في الجوهر . »

٢ - وقد وقع هذا على الرغم من التحذيرات الكثيرة التي تلقتها الدولتان الغربيتان كما رأينا من=

ملتزمتين في أسوأ الظروف والاحوال ، بالمسارعة إلى نجدة بولندة عند تعرضها للهجوم .

وارتفعت في كل من لندن وباريس حملات السباب والشتائم على الدور المخادع الذي لعبه ستالين ، وكانت مشفوعة بالمرارة والألم . وكان الطاغية السوفياتي قد حمل لواء الهجوم سنوات طويلة على «الوحوش الفاشيين» داعياً جميع الدول المحبة للسلام إلى التعاون معاً لوقف العدوان النازي . أما الآن فقد بات اداة لهتلر يستخدمها في اغراضه . وكان في وسع الاتحاد السوفياتي ان يرد على هذه

= قبل ،من ان هتلر يحاول التقرب من الكرملين. ففي الاول من حزيران ابلغ المسيو كولوندر سفير فرنسا في برلين وزير خارجيته بونيه بأن روسيا اخذت تحتل مكانة اكبر واكبر في تفكير هتلر. ومضى السفير يقول : «سيغامر هتلر بشن الحرب إذا تخلص من خطر محاربة روسيا. اما إذا تأكد من انها ستحاربه ايضاً ، فانه سيتراجع حتماً مخافة تعريض نفسه وبلاده وحزبه إلى الخراب والدمار . » وحث السفير على وجوب الوصول بالمفاوضات الانكليزية – الفرنسية في موسكو إلى نهاية ناجحة وسريعة ، واكد لحكومته ان السفير البريطاني في برلين قد رفع نداءاً مماثلا إلى حكومته في لندن (الكتاب الفرنسي الاصفر – الطبعة الفرنسية ص ١٨٠ – ١٨١).

وقابل كل من كولوندر وهندرسون في الخامس عشر من آب وايزساكر في وزارة الخارجية في برلين ، وابلغ السفير البريطاني حكومته في لندن ان وزير الدولة الالماني مقتنع بأن الاتحاد السوفياتي « سينضم اخيراً إلى المانيا في اقتسام الغنائم البولندية» (الكتاب البريطاني الازرق ص ٩١). وابرق كولوندر أيضاً إلى باريس بعد مقابلته لوايز ساكر يقول : « من الضروري جداً الوصول إلى حد ما للمحادثات مع روسيا في اسرع وقت ممكن » (الكتاب الفرنسي الازرق ص ٢٨٢).

وواصل لورنس ستاينهاردت السفير الأمريكي في موسكو طيلة شهري حزيران وتموز ، ارسال التحذيرات إلى واشنطن بتوقع عقد صفقة قريبة بين النازيين والسوفيات ، وتولى الرئيس روزفلت نقل هذه المعلومات إلى سفارات بريطانيا وفرنسا وبولندة في الولايات المتحدة . وعندما غادر السفير السوفياتي قسطنطين اومانسكي ، واشنطن إلى بلاده حمل معه رسالة من روزفلت إلى ستالين تحذره من الاتفاق مع هتلر مؤكداً « انه في مثل هذه الحالة ، فإنه على ثقة كثقته من حلول الليل بعد النهار من ان هتلر بعد ان ينتهي من احتلال فرنسا ، سيستدير نحو روسيا للسيطرة عليها» (جوزيف ديفيز بعثة إلى موسكو ص ٤٥٠ . وقد ارسل تحذير الرئيس بطريق البرق ايضاً الى ستاينهاردت في موسكو مع التعليمات اللازمة بتولي نقلها الى مولوتوف ، وهو ما نفذه السفير فعلاً في السادس عشر من آب . (اوراق الولايات المتحدة الدبلوماتية . ١٩٣٩ (١) ص ٢٩٦ – ٢٩٩) .

الاتهامات محتجاً بأنه لم يفعل اكثر مما فعلته بريطانيا وفرنسا في ميونيخ قبل نحو من عام ، وانه اشترى السلام وفسحة من الوقت ، ليسلح نفسه ضد المانيا على حساب دولة صغيرة . واذا كان تشمبرلين على حق ، وكان شريفاً في ترضية هتلر في ايلول عام ١٩٣٨ على حساب التضحية بتشيكوسلوفاكيا ، أمن المنطق ان يعتبر ستالين مخطئاً ، وغير شريف ، في ترضية الفوهرر بعد نحو من سنة على حساب بولندة ، التي احتقرت المساعدة السوفياتية ورفضتها على أي حال من الاحوال ؟ [١]

ولم تكن صفقة ستالين السرية والحقيرة مع هتلر على اقتسام بولندة ، والحصول على حرية العمل لابتلاع لاتفيا وايستونيا وفنلندة وبسارابيا، معروفة خارج برلين وموسكو . ولكن سرعان ما اتضحت هذه الصفقة من اعمال السوفيات انفسهم ، فأثارت الاشمئزاز في معظم انحاء العالم حتى في هذا الوقت المتأخر . وقد يكون في وسع الروس ان يقولوا كما قالوا بالفعل انهم كانوا يستعيدون مناطق انتزعت منهم في نهاية الحرب الكونية الأولى. ولكن شعوب هذه المناطق ليسوا من الروس، ولم يكونوا قد ابدوا أية رغبة في العودة إلى روسيا. وكان في وسع القوة وحدها ، التي تنكّب الروس سبيلها أيام لتفينوف الذهبية ، ان تستعيد هذه المناطق .

ولقد بنى الروس لأنفسهم منذ انضمامهم إلى عصبة الامم قوة معنوية معينة، وشيدوا سمعتهم على انهم حماة السلام والمدافعون عنه، والخصوم الاشداء للعدوان الفاشي . أما الآن فقد تمت تصفية هذا الرأسمال ، من القوة المعنوية .

يضاف إلى هذا ان ستالين بموافقته على الصفقة الزائفة التي عقدت مع المانيا

---

١ — يؤثر المؤلف هنا ان ينقل آراء الغرب والاتحاد السوفياتي وحدها دون ان يعلق عليها او يتخذ قراره فيها . وقد يكون من الموضوعية ان ينقل المؤلف الآراء المتضاربة ، ولكن اصدار حكمه الشخصي عليها، لا سيما في مثل هذه الناحية المهمة التي يعالجها، لا يخرج عن حدود الموضوعية ابداً ، — المعرب -

النازية ، قد اعطى اشارة الانطلاق للبدء في حرب كان من المؤكد تحولها الى صراع عالمي . وليس ثمـة من شك في ان هتلر كان يعرف هـذه الحقيقة . [1] ولقد اثبتت الأيام ان عمله هذا كان اكبر خطأ ارتكبه في حياته .

---

١ ـ كان هتلر قد تنبأ منذ سنوات طويلة في كتابه « كفاحي » بما يلي : « لا ريب في ان التوصل الى تحالف مع روسيا ينطوي على وضع خطة الحرب المقبلة . ولا ريب في ان نتيجة هذه الحرب ستؤدي الى نهاية المانيا » ص ٦٦٠ من طبعة هوتون ميفلين لعام ١٩٤٣ من الكتاب .

١٦

آخر أيام السلام

لم تقف الحكومة البريطانية مكتوفة الأيدي في انتظار التوقيع الرسمي على الميثاق النازي السوفياتي في موسكو . إذ ان البيـــان الرسمي الذي صدر عن برلين في ساعة متأخرة من مساء الواحد والعشرين من آب معلناً اعتزام ريبنتروب الطيران إلى موسكو لعقد اتفاق بين المانيا والاتحـــاد السوفياتي ، قد استفز الوزارة البريطانية إلى العمل . وعقد مجلس الوزراء في الساعة الثالثة بعد ظهر الثاني والعشرين من آب جلسة صدر على أثر انتهائها بلاغ رسمي يعلن بصورة جلية واضحة أن عقد ميثاق عدم اعتداء بين روسيا والمانيـــا « لن يؤثر بأي حال من الأحوال على التزامات بريطانيا تجـاه بولندا ، التي كثيراً ما اعلنت عنها ، والتي تعتزم تنفيذها بشكل قاطع . » ووجهت الوزارة في الوقت نفسه دعوة إلى البرلمان للاجتماع في الرابع والعشرين من الشهر لإقرار مشروع قانون صلاحيات الطوارى (قانون الدفاع) ، كما أقرت عـــدداً من اجراءات التعبئة العامة ، تحسباً لكل طارىء .

وعلى الرغم من وضوح العبارات التي استخدمت في هذا البلاغ الرسمي ، إلا أن تشمبرلين اراد أن لا يترك أي شك في نفس هتلر تجـاه موقف بريطانيا . وسرعان ما مضى بعد انتهاء الاجتماع الوزاري يسطر رسالة شخصيـة إلى الفوهرر ... قال الرئيس البريطاني في رسالته :

« ... يبدو لي أن بعض الدوائر في برلين تعتقد أن إعـلان الاتفاق الألماني ـ السوفياتي يجعل من تدخل بريطانيـــا العظمى دفاعاً عن بولندة ، احتمالاً زائلاً يجب أن لا يؤخذ بعين الاعتبار . ولكن هذا الاعتقاد، اكبر خطأ يمكن للإنسان أن يقع فيه . ومهما كانت طبيعة هـــذا الاتفاق الألماني ـ السوفياتي ، فلن يكون في وسعه أن يبدل قيد أُنملة من التزامات بريطانيا العظمى تجاه بولندة.

« وكثيراً ما زعم في الماضي، أن حكومة جلالته، لو اوضحت موقفها بصورة اكثر جلاء في عام ١٩١٤ ، لكان في الامكان تجنب الكارثة العظمى . وسواء أكان هذا الزعم صحيحاً او لم يكن فإن حكومة جلالته مصممة كل التصميم الآن ، على أن لا تترك مجالاً لمثل هذا الفهم السيىء المفجع ...

« فإذا ما تطلب الأمر، فإن حكومة جلالته مصممة ومستعدة لاستخدام كل ما تحت تصرفها من قوات ، ودون إبطـــاء . ومن المستحيل على المرء أن يتكهن بموعد انتهاء العمليات الحربية في حالة الشروع فيها ... [١] »

واضاف رئيس الوزراء ، انه إثر هذا الايضاح الكامل لموقف بلاده ، راح يناشد هتلر البحث عن حل سلمي لخلافاته مع بولندة . ويعرض عليه من جديد استعداد الحكومة البريطانية للتعاون في الوصول إلى هذا الحل .

أثارت هذه الرسالة التي حملها هندرسون طائراً بها من برلين إلى برختسغادن ليقدمها إلى هتلر بعيد الساعة الواحدة من بعد ظهر الثالث والعشرين من آب ، غضب الطاغية النازي وقذفت به في نوبـــة من نوبات حنقه المعهودة . وراح هندرسون يبرق إلى اللورد هاليفاكس قائلاً : « كان هتلر ثائراً . وغير مستعد للتفاهم . وكانت عباراته عنيفة ومغالية في الشدة بالنسبة إلى انكلترا وبولندة

١ ـ الكتاب البريطاني الازرق ٩٦ - ٩٨.

معاً . »[1] وتتفق رواية هندرسون عن الاجتماع ومذكرة وزارة الخارجية الألمانية بصدده، وهي المذكرة التي عثر عليها بين الوثائق الألمانية المصادرة ، في وصف طبيعة الخطاب المقذع الذي تدفق به هتلر . فقد انفجر قائلاً ، ان بريطانيا هي المسؤولة عن عنـــاد بولندة واصرارها على عدم التفاهم ، تماماً كما كانت المسؤولة قبل نحو عام عن موقف تشيكوسلوفاكيا المنافي للعقل والمنطق. فهناك عشرات الالوف من أبناء الشعب الألماني يتعرضون للاضطهاد في بولندة . وزعم أن هناك ست حوادث من اجتثاث معالم الرجولة من ستة من الألمان ، وهي حقيقة تتسلط ككابوس على اعصابه . وأضاف انه لم يعد في وسعه أن يحتمل اكثر مما احتمل.وأي عمل من اعمال الاضطهاد للألمانعلى أيديالبولنديين سيدفعه إلى العمل الفوري .

وابرق هندرسون إلى هاليفاكس يقول :

« وقد اعترضت على كل نقطة اثارها ونفيتها ، مواصلاً وصف اقواله بالافتقار إلى الدقة ، ولكن كل ما احدثه موقفي من تأثير ، هو أنه اندفع في سبابه من جديد . »

ووافق هتلر اخيراً على ان يسلم السفير رداً خطياً على رسالة رئيس الوزراء بعد ساعتين ، فانسحب هندرسون الىسالزبرغ لينال قسطـــاً من الراحة .[2] واستدعاه هتلر ، بعد الظهر ليسلمه رده . وابرق هندرسون الى لندن يقول أن الفوهرر كان في الاجتماع الثاني على النقيض من حالته في الاجتماع الاول ، إذ « اتسم بالهدوء الكامل . ولم يرفع صوته مطلقاً اثناء الحديث » ثم قال :

« وقال هتلر انه بلغ الخمسين من عمره ، وانه يؤثر الحرب الآن

---

١ ـ الكتاب البريطاني الازرق ص ٩٨ ـ ١٠٠ .» وثائق وزارة الخارجية الألمانية(٧)ص ٢١٠ ـ ٢١٥ . والكتابالبريطانيالازرق-تقريرهندرسونعن اجتماعهالثاني ص١٠٠ ـ١٠٢

٢ ـ دين وايز ساكر الذي شهد المقابلة فيما بعد « ان السفير ما كاد يغادر الغرفة مغلقاً الباب خلفه حتى راح هتلر يقرع بكفه على فخذه وهو يضحك مقهقهاً ثم قال : ان تشمبرلين لن يبقى في الحكم بعد هذا الحديث.فليس ثمةمن شك في انحكومته ستسقط هذا المساء» (مذكرات وايز ساكر ص ٢٠٣) .

على أن تنشب عندما يكون قد بلغ الخامسة والخمسين او الستين » .

وكان جنون العظمة عند الديكتاتور الألماني ، الذي يبدو أكثر مـا يبدو عندما يكون قابعاً في « عش النسر » فوق قمة الجبل الشاهق ، اشد ظهوراً في السجل الألماني عن الاجتماع منه في تصوير السفير البريطاني له . وبعد ان اقتبس هذا السجل قول الفوهرر بأنه يؤثر شن الحرب وهو في الخمسين من عمره على ان يشنها في وقت لاحق ... أضاف ما يلي :

« وقال هتلر ان من الخير لانكلترا ان تدرك بأنه كجندي خاض الحرب في الصفوف الأولى من الجبهة ، يعرف تمام المعرفة ما تعنيه الحرب ، وانه سيستخدم كل وسيلة متوافرة لديه . ولا ريب في ان من الواضح لكل انسان الآن ان المانيا ما كانت لتخسر الحرب الكونية الاولى (١٩١٤-١٩١٨) لو انه كان مستشاراً لها آنذاك »

وتضمن رد هتلر على رسالة تشمبرلين مزيجـاً من جميع الاقاصيص الآسنة العفنة والمبالغات التي كان ينبح بها باستمرار للأجانب وأمام شعبه منذ ان جرؤ البولنديون على الوقوف في وجهه. وقال هتلر في رسالته ان المانيا لا تريد الحرب مع بريطانيا العظمى. فلقد كانت دائماً على استعداد لبحث قضايا دانزيغ والرواق البولندي مع وارشو « على اساس اقتراح لا مثيل له في الشهامـة . » ولكن الضمانة غير المشروطة التي قدمتها بريطانيا لبولندة، قد شجعت البولنديين « على اطلاق حملة لا مثيل لها من الارهاب من عقالها على المليون ونصف المليون الماني من سكان بولندة . » ومضى يقول : « ومثل هذه الشدائد قـد تكون فظيعة بالنسبة إلى ضحاياها ، ولكنها شيء لا يطاق بالنسبة إلى دولة عظمى كالرايـخ الألماني . » واضاف ان المانيا لم يعد في وسعها ان تتسامح بمثل هذه الفظائع.

واشار اخيراً إلى تأكيد رئيس الوزراء بأن بريطانيا العظمى ستفي بالتزاماتها لبولندة وأكد له أن « هذا الموقف لا يؤثر مطلقاً على تصميم حكومة الرايخ على حماية مصالح المانيا ... وإذا مـا هوجم الرايخ من انكلترا ، فستجده على

استعداد ، وقوي التصميم على النضال »[1] .

ترى ما الذي حققه هذا التبادل في الرسائل ؟ لقد تلقى هتلر الآن تأكيداً حازماً من تشمبرلين بأن بريطانيا ستمضي إلى الحرب إذا قامت المانيا بمهاجمة بولندة . وتلقى رئيس الوزراء وعداً من الفوهرر بأن هذا التأكيد لا يبدل من الوضع شيئاً . ولكن احداث الايام الثمانية المحمومة التالية اظهرت تماماً أن أياً من الرجلين ما كان ليصدق في الثالث والعشرين من آب، ما سمعه من الرجل الآخر.

ويصدق هذا القول بصورة خاصة على هتلر ، فقد استخفه ما وصل اليه من انباء سعيدة من موسكو ، وآمن على الرغم من الرسالة التي تلقاها قبل قليل من تشمبرلين ، بأن بريطانيا وفي أعقابها فرنسا ستعيدان التفكير في موضوع الوفاء بالتزاماتها لبولندة بعد تخلي روسيا عنها ، فراح يحدد عشية الثالث والعشرين من آب، عندما كان هندرسون يستقل الطائرة عائداً إلى برلين موعد الهجوم النهائي على بولندة في الساعة الرابعة والنصف من صباح السبت السادس والعشرين من آب.

ودوّن الفريق هولدر في يومياته يقول : « لن يصدر بعد اليوم أي أمر جديد يتعلق بيوم الغزو وساعته، فسيسير كل شيء رتيباً وفق الخطة المرسومة».

ولكن رئيس اركان حرب الجيش الألماني كان مخطئاً في رأيه . فقد وقعت في الخامس والعشرين من آب حادثتان حملتا ادولف هتلر على التراجع قليلاً عن الهاوية الفاغرة فاها ، وذلك قبل اربع وعشرين ساعة من الموعد الذي حدده لاجتياز قواته الحدود البولندية . وكانت لندن مصدر الحادثة الاولى بينما كانت رومة مصدر الثانية .

ففي صباح الخامس والعشرين من آب ، وكان هتلر قد عاد في اليوم السابق إلى برلين ليستقبل ريبنتروب القادم من موسكو ويتلقى منه تقريراً شخصياً عن محادثاته مع الروس ، بعث الفوهرر برسالة إلى موسوليني ، ضمنها شرحاً متأخراً للاسباب التي حالت بينه وبين اطلاع شريكه في المحور على سير مفاوضاته مع

---

١ - رسالة هتلر إلى تشمبرلين في ٢٣ آب - الكتاب البريطاني الازرق ص ١٠٢ - ١٠٤ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٢١٦ - ٢١٩.

الاتحاد السوفياتي . وقال أنه لم يكن يظن ، ان هذه المفاوضات ستقطع مثل هذا الشوط البعيد بمثل هذه السرعة . واعلن عن وجوب اعتبـــار هذا الميثاق الروسي - الألماني « اعظم كسب ممكن للمحور . »

وكان القصد الحقيقي من الرسالة ، التي عثر على نصها بين الوثائق المصادرة التلميح للدوتشي بأن الهجوم الألماني على بولندة قد يقع في أية لحظة . وان كان هتلر قد امتنع في رسالته عن تحديد الموعد الذي قرره للهجوم لصديقه وحليفه . وراح يقول في رسالته : « فإذا وقعت احداث لا يمكن تحملهـــا في بولندة ، فسأقدم على العمل فوراً ... وفي مثل هذا الوضع لا يستطيع المرء أن يتكهن بما تخبئه الساعة القادمة في طياتها » . ولم يوضح هتلر انه في حاجة إلى معونة ايطاليا فهذه المعونة شيء مفترض بصورة بدهية بموجب نصوص الحلف الايطالي الالماني، واكتفى بالاعراب عن أمله في تفهم ايطاليا حقيقة الموقف.[1] لكنـــه على أي حال ينتظر رداً فورياً من الدوتشي . وقـــد قام ريبنتروب شخصياً بنقل الرسالة عن طريق الهاتف إلى سفيره في رومه فوصلت إلى الدوتشي في الساعة الثالثة والثلث بعد ظهر اليوم نفسه .

واستقبل الفوهرر في غضون ذلك أي في الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر السفير البريطاني هندرسون في دار المستشارية . وعلى الرغم من أن تصميمه على تحطيم بولندة لم يضعف قط إلا أنه كان اكثر تلهفاً اليوم منه قبل يومين عندما اجتمع إلى هندرسون في برختسغادن ، على القيام بآخر محاولة للابقـــاء على بريطانيا خارج الحرب .[2] ويقول السفير في تقريره إلى لندن ، أنه وجد الفوهرر « هادئاً كل الهدوء وفي حالة طبيعية ، ويتحدث بكل جد وبمنتهى

---

١ - نص رسالة هتلر الى الدوتشي - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص٢٨١ - ٢٨٣.

٢ - يقول اريك كوردت في الصفحة ١٩٢ من كتابه « اكاذيب وحقائـــق » ان هتلر كان متحمساً لما حققه من نجاح في موسكو ، وانه طلب في صباح الخامس والعشرين من آب من مكتبه الصحفي تزويده بأنباء الازمة الوزارية في باريس ولندن . وكان يعتقد ان الحكومتين ستسقطان في تلك الآونة . وما لبثت احلامه ان تهاوت عندما نقل اليه نص الخطابين الحازمين اللذين القاهما كل من تشمبرلين وهاليفاكس في البرلمان في اليوم السابق .

الصدق البيّن . » وهكذا لم يستطع هندرسون على الرغم من كل تجارب العام المنصرم ، وفي هذا الوقت المتأخر ، أن ينفذ ببصره عبر هذا « الاخلاص » من جانب الزعيم الالماني . فكل ما كان هتلر يود قوله مناقض للعقل تمام المناقضة . فهو « يقبل » ، بالامبراطورية البريطانيـة ، وهو يقول للسفير أنه على استعداد « للتعهد شخصياً باستمرار وجودها ، وأن يلتزم بمـا للرايخ الألماني من قوة للحفاظ عليها . » وراح هتلر يوضح قائلاً ... أنه يرغب :

« في القيام بخطوة نحو بريطانيا تكون مماثلة في حسمها للخطوة التي اتخذها تجاه روسيا ... وهو على استعداد لأن يعقد مع انكلترا اتفاقات لا تضمن وجود الامبراطورية البريطانية في جميع الظروف من ناحية المانيا فحسب بل وتؤكد لها أيضـاً إذا اقتضى الأمر مساعدة المانيا دون اكتراث بالناحية التي يتحتم تقديم المساعـدة ضدها . »

واضاف انه على استعداد ايضاً « لقبول تحديـد معقول للتسلح » واعتبار حدود الرايخ الغربية نهائية. ويقول هندرسون ان هتلر في لحظة من لحظات هذه المقابلة تردى في عرض نموذجي للتفاهات العاطفية ، وإن كان السفير لم يصف هذه الحالة على هـذا النحو عندما بعث برسالته إلى لندن . وقال الفوهرر انه بسليقته لا سياسي ، وأنه عندمـا ينتهي من تسوية المشكلة البولنـدية ، فسينهي حياته كفنان لا كداعية حرب .

ولكن الفوهرر أنهى حياتـه في شكل آخر . ومضت المذكرة التي اعدها الألمان لهندرسون عن نص ما دار في المقابلة تقول :

« واعاد الفوهرر على مسامع السفير ، انه رجل قرارات عظيمة ... وان هذا آخر ما يقدمه من عروض . فاذا رفضوا (البريطانيون) هذه الافكار ، فإن الحرب ناشبة حتماً .

وقال هتلر ضمن أحاديثه في هذه المقابلة ، ان «هذا العرض الضخم الشامل» لبريطانيا ، كما وصفة ، يخضع لشرط واحد ، وهو ان يصبح ساري المفعول «بعد

حل المشكلة الالمانية ـ البولندية » . وعندما واصـــل هندرسون الاصرار على القول ، بأن بريطانيا لا تستطيـع ان تدرس هذا العرض إلا إذا عنى في الوقت نفسه إيجاد تسوية سلمية مع بولندة ، رد هتلر قائلاً : « إذن فلا حـــاجة إلى الابراق بهذا العرض طالما انك تعتقد بعدم جدواه . »

ولكن ما كاد السفير يعود إلى سفارته التي تبعـــد بضع خطوات عن دار وزارة الخارجية الالمانية ، قادماً من دار المستشارية، حتى كان الدكتور شميدت يقرع عليه الباب حاملاًنسخة خطية من ملاحظات هتلر،وقد حذف منهاالكثير مصحوبة برسالة من الفوهرر يرجو فيها السفير ان يحث الحكومة البريطانية على « اخذ هذا العرض على محمل الجد » ويقترح عليه ان يحمله شخصياً إلىلندنمعرباً عن استعداده لوضع طائرة المانية خاصة تحت تصرفه لهذه الغاية . [1]

ولم يكن من السهل حقاً ، كما يتبيّن للقاريء الذي وصل إلى هذا الحد من الكتاب ، النفاذ حقاً إلى ما يقوم به عقل هتلر المحموم من اعمال غريبة وخيالية . ولم يكن « عرضه » المضحك في الخامس والعشرين من آب بضمان الامبراطورية البريطانية إلا وليد عاصفة فكرية عارضة كما يبدو ، إذ أنه لم يذكر شيئاً عنه قبل يومين عندما بحث مع هندرسون في موضوع رسالة تشمبرلين وأعـــد رده عليها . وحتى لو تسامحنا مع انحرافات الديكتاتور العقلية ، فمن الصعب علينا أن نصدق ، انه هو نفسه كان ينظر إلى عرضه هذا نظرة جدية على النحو الذي حاول تصويره فيه في حديثه إلى السفير البريطاني . يضاف إلى هـــذا ، كيف يمكن ان يطلب من الحكومة البريطانية ، كما طلب هو بالفعـــل ، أن تنظر إلى العرض « بمنتهى الجدية » في الوقت الذي لا يمكن لتشمبرلين أن يدرسه دراسة وافية أو يقوم بقراءته ، قبل أن تتدفق الجيوش النازية على بولندة في فجر اليوم

---

١ ـ نص بيانات هتلر الشفوية الى هندرسون في الخامس والعشرين من آب كماأعدهاريبنتروب والدكتور شميدت (وثائقوزارة الخارجية الألمانية (٧) ص٢٧٩ - ٢٨٤) وفي الكتاب البريطاني الازرق ص ١٢٠ - ١٢٢ . ونص برقية هندرسون عن المقابلة (الكتاب البريطاني الازرق ص ١٢٢ - ١٢٣ . وكتاب هندرسون ـ فشل بعثة ص ٢٧٠ .

التالي ، وهو اليوم المحدد للغزو ، والذي ما زال قائماً ؟

لكنني لا اشك في وجود هدف جدي وراء هذا « العرض » إذ يبدو أن هتلر اعتقد بأن تشمبرلين كستالين ، يريد منفذاً للخروج من هذه الورطة ، وإبقاء بلاده خارج الحرب . [1] وكان قد ابتاع حياد ستالين الودي قبل يومين، بمنح روسيا حرية العمل في اوروبا الشرقية « من البلطيق حتى البحر الاسود » . او ليس في وسعه ان يشتري عدم تدخل بريطانيا بالتأكيد لرئيس وزرائها بأن الرايخ الثالث لن يغدو كما غدت المانية الهوهنزولرن خطراً يهدد الأمبراطورية البريطانية ؟ ولكن الشيء الذي لم يدركه هتلر ، كما لم يدركه ستالين - وقد دفع الاخير ثمن خطئه غالياً - هو أن تشمبرلين ، وقد تفتحت عيناه اخيراً رأى في سيطرة المانيا على القارة الاوروبية الخطر الاكبر الذي يهدد الامبراطورية . كما يهدد ايضاً الامبراطورية الروسية السوفياتية . وكان هتلر قد دوّن في كتابه « كفاحي » أن المتطلب الأول للسياسة الخارجية البريطانية ظل قروناً طويلة الحيلولة دون سيطرة أي دولة على القارة الاوروبية .

واستقبل هتلر في الساعة الخامسة والنصف بعد ظهر اليوم نفسه السفير الفرنسي ، ولم يكن لديه ما يقوله له سوى تكرار الحديث عن « الاستفزازات البولندية للرايخ » التي لا يستطيع احتمالها ، والتأكيد بأنه لا ينوي الهجوم على فرنسا ، ولكن إذا اشتركت هذه في الصراع ، فإنه سيقاتلها حتى النهاية . وهنا شرع في محاولة صرف المبعوث الفرنسي من حضرته ، إذ نهض من مقعده، ولكن كان لدى كولوندر ما يود قوله لفوهرر الرايخ الثالث وقد اصر على قوله، فذكر له بعد ان اقسم بشرفه العسكري انه لا يشك مطلقاً في « ان بولندة إذا هوجمت فإن فرنسا ستقف إلى جانبها بكل ما لديها من قوات . »

---

١ - واذا لم يكن في الامكان ابقاؤها خارج الحرب، فخارج نطاق الاشتراك الجوي فيها على الاقل . ويكشف الفريق هولدر عن هذا الامل في تلخيصه «لسير الاحداث» في الخامس والعشرين من آب في اليومية التي دونها بعد ثلاثة ايام. وبعد ان روى هولدر كيف ان هتلر قد قابل هندرسون في الساعة الواحدة والنصف من بعد ظهر الخامس والعشرين من آب قال : « ان الفوهرر لن يهتم كثيراً ، اذا ما شنت انكلترا حرباً زائفة » .

ورد هتلر قائلاً : يؤلمني هذا ، ويؤلمني ان افكر باضطراري إلى محاربة بلادك . ولكن الأمر لا يتوقف علي . أرجو ان تنقل هذا إلى المسيو ديلاديه »[1]

وكانت الساعة قد بلغت الآن في برلين السادسة من مساء الخامس والعشرين من آب . وكان التوتر في العاصمة الألمانية يزداد ساعة إثر أُخرى طيلة النهار . وانقطعت منذ ظهر اليوم بأمر من الويلهلمشتراسه ، جميع طرق الاتصال الاذاعي والبرقي والهاتفي مع العالم الخارجي . وكان آخر بريطاني او فرنسي من رجال الصحافة أو المدنيين غير الرسميين قد غادر المانيا بسرعة منذ الليلة السابقة الى اقرب نقطة على الحدود . وعرف في الخامس والعشرين ، وكان يوم جمعة ، ان وزارة الخارجية الألمانية قد ابرقت إلى سفاراتها وقنصلياتها في بولندة وفرنسا وبريطانيا ، طالبة اليها تسفير جميع الرعايا الالمان بأقرب الطرق والوسائل . وتحدثني اليوميات التي دوّنتها عن الرابع والعشرين والخامس والعشرين من آب عن الجو المحموم الذي سيطر على برلين . وكان الطقس حاراً مشفوعاً بالرطوبة ، وبدا كل انسان في المدينة وقد وصل نهاية احتماله وصبره وسرعان ما اخذت مدافع مقاومة الطائرات ، تظهر هنا وهناك في العاصمة الكبيرة المنبطحة ، واخذت القاذفات تظهر في سمائها متجهة ناحية بولندة . ودوّنت في يومياتي مساء الرابع والعشرين ما نصه « يبدو ان الحرب قادمة » ، ورحت مساء اليوم التالي أكرر الكتابة « ان الحرب قريبة حتماً » ، واني لأذكر الآن انني سمعت الالمان الذين قابلتهم في الويلهلمشتراسه في تينك الليلتين يتهامسون قائلين ان هتلر قد اصدر أمره إلى الجنود بالزحف على بولندة عند الفجر .

ونحن نعرف الآن ان الأوامر كانت قد صدرت اليهم بالهجوم في السادس والعشرين عند الساعة الرابعة والنصف صباحاً .[2] ولم يكن قد حدث حتى

---

١ - رسالة كولوندر في ٢٥ آب - الكتاب الفرنسي الاصفر - الطبعة الفرنسية ص ٣١٢-٣١٤

٢ - على الرغم من ان اوامر هتلر القائمة والتي تتعرض للالغاء ، كانت تحدد موعد الهجوم باليوم والساعة وكان التنفيذ على حد تعبير هولدر «آليا رتيباً » إلا ان عدداً من الكتاب الالمان قد ذكروا بأن الفوهرر قد اصدر اوامر محددة بعد الساعة الثالثة من بعد ظهر الخامس والعشرين، بدقائق قليلة ، يوعز فيها بشن « هجوم الخريف» في الصباح التالي. (راجع مذكرات وايزساكر=

الساعة السادسة من مساء الخامس والعشرين، ما يحمل ادولف هتلر على النكوص عن تصميمه على المضي في عدوانه في الساعة المقررة،إذ لم يتأثر مطلقاًبالتأكيدات الشخصية التي تلقاها من السفيرين هندرسون وكولوندر بأن بريطانيا وفرنسا ستحترمان حتماً التزاماتها تجاه بولندة ، ولكن يبدو ان انباء قد وصلت من لندن وروما في الساعة السادسة او بعدها بقليل ، حملت هذا الرجل الذي لا تعرف ارادته التردد على التوقف قليلاً .

ولا يتضح من سجلات المانيا السرية ولا من الشهادات التي افضى بها بعد الحرب موظفو الويلهلمشتراسه ، الوقت الذي عرف فيه هتلر بالضبط بتوقيع المعاهدة الانكليزية ـ البولندية الرسمية في لندن ، وهي المعاهدة التي حولت الضمانة البريطانية من طرف واحد إلى بولندة، إلى ميثاق للمساعدة المتبادلة.[1] وهناك بعض الأدلة في يوميات هولدر وفي السجل البحري الألماني ، على أن وزارة الخارجية الألمانية تلقت اشعاراً ظهر الخامس والعشرين بأن الميثاق البريطاني ـ البولندي سيوقع في ذلك اليوم . ودوّن رئيس هيئة اركان الحرب في يومياته انه تلقى هاتفاً في الساعة الثانية عشرة ظهراً من القيادة العامة للقوات المسلحة ، تسأله فيه عن آخر موعد لاحتمال تأجيل القرار بالهجوم وانه رد قائلاً أن الثالثة بعد الظهر هو الموعد الأخير . ويذكر السجل البحري ايضاً ، أن أنباء توقيع الميثاق الانكليزي ـ البولندي ، والمعلومات الواردة

= وكتاب كوردت « اكاذيب وحقائق » وكتاب « حرب مقررة » لوولتر هوفر). ويقول الاخير ان الامر قد صدر في الساعة الثالثةوالدقيقة الثانية،مستنداً في ذلك الى رواية للفريقفون فورمان الذي كان في دار المستشارية عندما صدر الامر . ولم اعثر في الوثائق الالمانية الرسمية على أي سجل رسمي لهذا الامر.

١ ـ كان هناك ملحق سري لهذه المعاهدة نص على أن « الدولة الاوروبية » المعنية في المادة الاولى من المعاهدة ، هي المانيا، التي يتطلب عدوانها تنفيذ المساعدة العسكرية المتبادلة.وقد انقذ هذا الملحق الحكومة البريطانية من الخطوة المفجعة بالتزام اعلان الحرب على الاتحاد السوفياتي عندماغزا الجيش الاحمر بالتواطؤ مع الالمان بولندة الشرقية .

من الدوتشي » قد وصلت عند الظهر .[1] لكن هذا القول يبدو مستحيلاً . « فالمعلومات من الدوتشي » لم تصل كما هو واضح من إشارة تسجيل المانية على الوثيقة إلا « نحو الساعة السادسة مساء » . ولم يكن في وسع هتلر ان يعرف بتوقيع المعاهدة الانكليزية – البولندية في لندن ، إلا حوالي هذا الوقت ايضاً ، إذ أن التوقيع تم في الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة والثلاثين بعد الظهر ، وكان الكونت ادوارد رازينسكي سفير بولندة في العاصمة البريطانية قد تلقى قبل خمس عشرة دقيقة من هذا الموعد فقط ، الإذن من وزير خارجيته في وارشو عن طريق الهاتف بتوقيع الاتفاق .[2]

ومهما كان الوقت الذي تلقى فيه هتلر هذه الانباء ، وأعتقد ان الساعة السادسة مساء هو الموعد الصحيح ، فإنه تأثر بالانباء الواردة من لندن ، اذ رأى فيها على الغالب رد بريطانيا على « العرض » الذي قدمه اليها ، والذي لا شك في ان محتوياته قد وصلت اليه قبل هذه الساعة . وعنت له هذه الانباء انه فشل في محاولته رشوة بريطانيا بعد ان نجح في رشوة الروس . وتذكر الدكتور شميدت الذي كان حاضراً في مكتب هتلر عندما تلقى هذا التقرير ، ان الفوهرر راح بعد تلاوته له يغرق في تفكير عميق وقد جلس الى مكتبه .[3]

موسوليني يخاف

وسرعان ما قطعت عليه حبل تفكيره ، انباء سيئة اخرى وصلته من رومه . فلقد ظل الديكتاتور الألماني ينتظر طيلة بعد ظهر ذلك اليوم « بفروغ صبر لا يكاد يخفيه » على حد تعبير الدكتور شميدت ، رد الدوتشي على رسالته .

١ – المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٩٧٧ – ٩٩٨ . من ملف العلاقات الروسية – الالمانية عثر عليه بين ملفات القيادة البحرية العليا .

٢ لم تكن المانيا تعمل كبريطانيا بالتوقيت الصيفي . ولهذا فليس في هذه المواعيد وجود لفرق الساعة الواحدة بين برلين ولندن .

٣ – شميدت – ترجمان هتلر . ص ١٤٤

واستدعي السفير الايطالي اتوليكو إلى دار المستشارية في الساعة الثالثة ، وبعيد مغادرة هندرسون لها ، ولكن لم يكن في وسع السفير ان يبلغ الفوهرر أي شيء سوى انه ما زال ينتظر الرد . وكانت اعصاب هتلر قد بلغت في هذا الوقت أقصى حدود التوتر حتى انه طلب الى ريبنتروب ان يتصل هاتفياً بزميله شيانو في رومه ، ولكن وزير الخارجية لم يتمكن من تحقيق هذه الرغبة . ويروي شميدت ان هتلر قد صرف اتوليكو من حضرته « بشيء قليل من الكياسة »[1]

وكان هتلر يتلقى منذ أيام تحذيرات من رومة تقول ان شريكه في المحور قد ينقلب عليه في اللحظة الحرجة الاخيرة عندما يهاجم بولندة ، ولم تكن هذه المعلومات مفتقرة إلى الاساس الواقعي . إذ لم يكد شيانو يعود من اجتماعاته الفاشلة مع هتلر وريبنتروب بين الحادي عشر والثالث عشر من آب حتى شرع يعمل في تحويل موسوليني إلى الوقوف ضد الالمان، وهو عمل لم يفت عيون الرقباء الساهرين من رجال السفارة الالمانية في رومة . وتتابع يوميات وزير الخارجية الفاشي ، سعود المحاولات التي بذلها لفتح عيون الديكتاتور الايطالي على الحقيقة ونحوسها ، وللانفصال عن هتلر في الوقت المناسب تجنباً لخوض الحرب .[2] وقد قابل شيانو عشية اليوم الذي عاد فيه من برختسغادن في الثالث عشر من آب رئيسه الدوتشي ، وبعد أن شرح له ما أجراه من محادثات مع هتلر وريبنتروب ، حاول إقناعه بأن الألمان قد « خانوهم وكذبوا عليهم » وانهم « يجرونهم معهم جراً الى المغارة . » ودوّن شيانو في يومياته تلك الليلة يقول :

> « وكانت ردود فعل الدوتشي متباينة . فقد اتفق معي في الرأي في البداية ، ثم سرعان ما قال ان الشرف يحتم عليه السير جنباً الى جنب مع المانيا . وراح يقول اخيراً أنه يريد حصة من الغنيمة في كرواتيا ودالماتيا .

« ١٤ آب — وجدت موسوليني في منتهى القلق. وانا لا اتردد

---

١ — شميدت ـ ترجمان هتلر ص ١٤٣ ـ ١٤٤ .

٢ — يوميات شيانو . ص ١٢٠ — ١٢٩ .

في أن ابعث في نفسه كل احساس ممكن بالكره لألمانيا ، مستخدماً كل ما في مكنتي من وسائل . وقد تحدثت اليه عن سمعته المتقلّصة وعن تمثيله دوراً ثانوياً في المسرحية . وعرضت على انظاره اخيراً وثائق تقيم الدلائل ، على خداع الألمان له في القضية البولندية . ولقد اقيم الحلف على افتراضات ينكرها الألمان الآن . فهم خونة ، وعلينا ان لا نتردد مطلقاً في التخلي عنهم . ولكن ما زالت الهواجس تساور نفس موسوليني . »

وعاد شيانو في اليوم التالي يتحدث ست ساعات إلى موسوليني في الموضوع وراح يدوّن في يومياته :

« ١٥ آب - بات الدوتشي مقتنعاً من أن الواجب يقضي علينا بأن لا نسير على عميً مع الألمان... لكنه على أي حال يريد فسحة من الوقت ليتخذ اهبته للتخلي عنهم ... لقد تزايدت ثقته بأن الدولتين الديموقراطيتين ستخوضان الحرب ... في هذه المرة لا بد من الحرب ... وليس في استطاعتنا ان نخوضها لأن احوالنا لا تساعد على خوضها .

« ١٨ آب - جرى لي حديث مع الدوتشي في الصباح ... ما زالت عواطفه متقلبة . ما فتىء يظن ان الديموقراطيتين لن تحاربا وان المانيا قد تقوم بعمل ناجح لا يكلفها كثيراً ، وهو لا يريد ان يحرم من ثمرة هذا النجاح . وهو يخشى ايضاً غضب هتلر وثورته . فهو يعتقد ان التخلي عن الميثاق أو الغاءه قد يحمل هتلر على التخلي عن المشكلة البولندية رغبة منه في تصفية الحساب مع ايطاليا . وجميع هذه الافكار تثير عصبيته وتستفز قلقه .

« « ٢٠ آب - استدار الدوتشي دورة كاملة انه يريد ان يساعد المانيا بأي ثمن في الصراع الذي بات وشيك الوقوع .... عقدت اجتماعاً مع الدوتشي حضره اتوليكو ... لقد جاء السفير من برلين إلى رومة لاجراء مشاورات معه . كانت زبدة الحديث ان الوقت قد

فات للانقلاب على الالمان .... ستقول صحف العالم قاطبة أن ايطاليا دولة جبانة ... حاولت مناقشة القضية ولكن وجدت ان لا جدوى من النقاش .ان موسوليني عنيد في التمسك بآرائه ...

« ٢١ آب – تحدثت اليوم بوضوح وصراحة.... عندما دخلت الغرفة اكد موسوليني قراره بالسير مع الالمان ... قلت له « لا تستطيع ايها الدوتشي ان تفعل ذلك ويجب ان لا تفعله.. لقد مضيت إلى سالزبرغ لاصل إلى خط مشترك للعمل معهم ...ولكنني وجدت نفسي اواجه عملية إملاء كلها أوامر .... لقد خان الالمان لا نحن ، الحلف ... مزّق الميثاق ! واقذف به في وجه هتلر .. »

وتقرر في نتيجة هذا الاجتماع ان يعمل شيانو على الاجتماع بريبنتروب في اليوم التالي عند ممر برينر ، وان يبلغه ان ايطاليا لن تدخل الحرب التي يثيرها الالمان بهجومهم على بولندة . ولكن شيانو لم يستطع الاتصال هاتفياً به عدة ساعات ذلك النهار ، إلى ان جرى الاتصال في الساعة الخامسة والنصف.ورفض الوزير النازي ان يعطي زميله الفاشي رداً فورياً في اجتماع برينر في مثل هذا الوقت السريع ، إذ أنه « في انتظار رسالة هامة من موسكو » ، وابلغه انه سيتصل به ثانية . وفعلاً اتصل به في العاشرة والنصف مساء . ودوّن شيانو في يومياته يقول :

« ٢٢ آب - بدأ فصل جديد من المسرحية في الساعة العاشرة والنصف امس . هتف ريبنتروب ليقول أنه يؤثر الاجتماع بي في اينزبروك بدلاً من برينر على الحدود، إذ أنه يعتزم السفر بعد المقابلة إلى موسكو لتوقيع ميثاق سياسي مع الحكومة السوفياتية »

وكانت هذه اخبار جديدة من النوع الذي يبعث على الذهول بالنسبة إلى شيانو وموسوليني ، فقررا ان اجتماع وزيري الخارجية « لم يعد مناسباً . لقد اظهر حليفهما الألماني مرة ثانية احتقاره لايطاليا بتجاهله إبلاغها شيئاً عن الصفقة التي يعتزم عقدها مع موسكو» .

وباتت برلين تعرف تردد الدوتشي ومشاعر شيانو المعادية لألمانيا واحتمال انسحاب ايطاليا من التزاماتها بموجب المادة الثالثة من ميثاق الفولاذ التي تفرض الاشتراك الآلي الرتيب ، في الحرب على إحدى الدولتين المعاقدتين اذا « تورطت الاخرى في الحرب مع دولة ثالثة » ، وذلك قبل أن يبدأ ريبنتروب سفرته إلى موسكو في الثاني والعشرين من آب .

وقابل الكونت ماسيمو ماجيستراتي القائم بالأعمال الايطالي في برلين في العشرين من آب ، وايزساكر في وزارة الخارجية وكشف له على حد تعبير وزير الدولة في مذكرته السرية الى ريبنتروب [1] عن « حالة عقلية ايطالية على الرغم من أنها لا تدهشني إلا أنها تستحق النظر والدرس في رأيي . » فقد لفت ماجيستراتي نظر وزير الدولة الى « أن المانيا قد تجاهلت نصوص الحلف ، التي تدعو إلى التشاور والاتصال الوثيقين في القضايا الرئيسية » واعتبرت نزاعها مع بولندة وكأنه قضية خاصة بها ، « فتخلت بذلك عن حقها في المطالبة بمساعدة ايطاليا العسكرية . » وإذا تطور النزاع البولندي خلافاً لرأي المانيا الى حرب كبرى فإن ايطاليا لا تعتبر ان المقتضيات الرئيسية لتنفيذ الحلف قائمة . ويمكن القول باختصار ... ان ايطاليا كانت تبحث عن سبيل للخروج من الحلف .

وتلقت برلين بعد يومين أي في الثالث والعشرين من آب تحذيراً آخر من السفير هانز جورج فون ماكنزن في رومه . فقد كتب الى وايزساكر يطلعه على ما يدور « وراء الكواليس » . فراح هذا ، كما تشير ملاحظة دوّنها بخط يده على الوثيقة المصادرة « يقدمها إلى الفوهرر » وليس ثمة من شك في ان هذه الرسالة قد بصّرت هتلر بحقيقة الوضع . وقد تحدد موقف ايطاليا اثر سلسلة من الاجتماعات التي اشترك فيها موسوليني وشيانو واتوليكو ، على الشكل الذي ابرق به السفير الالماني ماكنزن ، وهو ان المانيا بغزوها بولندة تنقض ميثاق الفولاذ الذي يستند الى اتفاق بين الفريقين المتعاقدين على وجوب تجنب الحرب حتى عام ١٩٤٢ . يضاف إلى هذا ان موسوليني كان على خلاف في الرأي مع

---

١ - مذكرات وايزساكر - ٢٠ آب - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ١٦٠ .

المانيا من ناحية اشتراك الدولتين الديموقراطيتين في الحرب ، فهو واثق من انهما ستتدخلان إذا غزت المانيا بولندة ، وان الولايات المتحدة ستتدخل ايضاً بعد فترة عدة اشهر . وفي الوقت الذي ستحافظ فيه المانيا على موقفها الدفاعي في الغرب ، فإن الفرنسيين والبريطانيين ... في رأي الدوتشي :

« سينزلون الى ايطاليا ، بكل ما لديهم من قوات . ويتوجب على ايطاليا في مثل هذه الحالة ان تحتمل وطأة الحرب وثقلها لتمكن الرايخ من انتهاز الفرصة لتصفية الموضوع في الشرق » . [1]

وكان هتلر يحمل في فكره جميع هذه النذر ، عندما بعث برسالته الى موسوليني في صباح الخامس والعشرين من آب ، وظل ينتظر الرد عليها ، بفارغ الصبر طيلة النهار . وكان ريبنتروب بعيد منتصف الليلة السابقة ، وبعد ساعات طويلة سرد فيها على الفوهرر تفاصيل ما حققه من نصر في موسكو ، قد هتف الى شيانو لينذره « بتحريض من الفوهرر » ... بأن الوضع قد « بات خطراً للغاية من جرّاء التطورات التي خلقتها وما زالت تخلقها استفزازات بولندة » [2] وتقول مذكرة كتبها وايزساكر ان الغاية من هذه المكالمة الهاتفية « منع الايطاليين من التذرع بحجة وقوع تطورات لم يكونوا ينتظرونها » .

وكان السفير ماكنزن قد قدم الى موسوليني في غضون ذلك أي في الساعة الثالثة والدقيقة العشرين من بعد ظهر الخامس والعشرين من آب رسالة الفوهرر . وقد جرت المقابلة في قصر البندقية في رومة ، فأدرك الدوتشي آنذاك أن الهجوم الألماني على بولندة اصبح وشيك الوقوع . وكان على النقيض من هتلر

---

١ رسالة ماكنزن إلى وايزساكر في ٢٣ آب . وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٢٤٠ - ٢٤٣) .

٢ – علينا ان نذكر ان نغمة « الاستفزازات البولندية » التي كان هتلر وريبنتروب يعزفان باستمرار الحانها ، في اجتماعاتها واتصالاتها الدبلوماتية مع البريطانيين والفرنسيين والروس والايطاليين في هذه الايام ، والانباء التي تنشرها الصحف النازية تحت عناوين نارية ، كانت على الغالب من اختراع النازيين انفسهم . وكان الالمان بأوامر من برلين هم الذين يقومون بمعظم الحوادث الاستفزازية . والوثائق الالمانية المصادرة ملأى بالأدلة على هذه الحقيقة .

واثقاً كل الثقة من أن بريطانيا العظمى وفرنسا ستخوضان الحرب فوراً ، بما في ذلك من نتائج مفجعة على ايطاليا ، التي لم يكن اسطولها نداً لمقـابلة اسطول بريطانيا في البحر المتوسط ، ولا جيشها قادراً على مواجهة الجيش الفرنسي .[١]
وتقول برقية بعث بها السفير ماكنزن إلى برلين في الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة والعشرين من مساء اليوم نفسه ، يصف فيها المقابلة ، أن موسوليني بعد أن قرأ رسالة هتلر بعناية مرتين وبحضوره ، راح يؤكد « اتفاقه الكامل » مع الفوهرر في الميثاق النازي السوفياتي وانه يدرك ان « الصراع المسلح مع بولندة بات أمراً لا يمكن تجنبه . » واضاف ماكنزن في برقيته ان الدوتشي أكد اخيراً وبكل وضوح « انه يقف إلى جانبنا دون قيد أو شرط وبكل مـا لديه من موارد » [٢]

ولكن الرسالة التي بعث بها الدوتشي الى الفوهرر رداً على رسالته لم تكن على هذا النحو الذي ابرق به السفير . فقد هتف شيانو بها بصورة مستعجلة إلى سفيره اتوليكو ، الذي كان قد عاد إلى مقر عمله في برلين ، ووصـل السفير الايطالي حوالي الساعة السادسة مساء إلى دار المستشارية لينقل الرد شخصياً إلى ادولف هتلر . وكانت هذه الرسالة على حد تعبير شميدت بمثابة قنبلة اصـابت الفوهرر . فبعد ان اعرب موسوليني عن « موافقته التامة » على الميثاق النازي السوفياتي وبعد ان أكد تفهمه للموقف في بولندة، راح يصل الى النقطة الاساسية فقال :

---

١ ـ قام شيانو في اليوم السابق اي في الرابع والعشرين من آب بزيارة الملك في مقره الصيفي في بيدمونتي ، وراح الملك العجوز ، الذي ابعده موسوليني عن الاضواء، وجعله يعيش بعيداً عن مسرح الاحداث ، يتحدث باستخفاف عن قوات البلاد المسلحة. وروى شيانو عن الملك انه قال: « ان الجيش في وضع يدعو إلى الأسى والاشفاق . وحتى الوسائل الدفاعية في بلادنا عن الحدود ليست كافية . » ولقد قمت بالتفتيش اثنتين وثلاثين مرة على حصوننا الدفاعية وانا واثق من أن في وسع الفرنسيين ان يقتحموها بمنتهى السهولة . وضباط الجيش الايطالي ليسوا بأكفـاء لأداء المهمة ، كما ان معداتنا الحربية قديمة ولم تعد صالحة » (يوميات شيانو ص ١٢٧ .)

٢ ـ برقية ماكنزن في ٢٥ آب . وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٢٩١ ـ ٢٩٣).

« أما بالنسبة الى الموقف العملي الذي ستقفه ايطاليا في حـالة نشوب الحرب فان رأيي يتلخص فيما يلي :

« إذا كانت المانيا هي المهاجمة لبولندة ، وظلت الحرب محصورة ضمن هذا النطاق ، فإن ايطاليا ستقدم لألمانيا كل ما يطلب اليها من اشكال العون السياسي والاقتصادي .

« أما إذا هاجمت المانيا بولندة [1] . وشرع حلفـــاء الاخيرة في شن هجوم مضاد على المانيا فإني أود ابلاغك سلفاً ، بأنه سيكون من الافضل لي ان لا اتولى زمام المبادرة في العمليات الحربية بالنظر الى الوضع الراهن لاعدادات ايطاليا الحربية وهو ما سبق لنا ان تحدثنا عنه مراراً وتكراراً وفي الوقت المناسب اليك ايها الفوهرر والى الهر فون ريبنتروب .

« ويمكن لنا من الناحية الاخرى ان نتدخل فوراً ، اذا قدمت الينا المانيا على التو التموينات الحربية والمواد الاولية التي تمكننا من مقاومة الهجوم الذي سيشنه الانكليز والفرنسيون علينا بصورة مباشرة ورئيسية .

« وكنا نخطط في اجتماعاتنا السابقة لنشوب الحرب في عام ١٩٤٢ ولو تأخرت الحرب حتى ذلك التاريخ لكان في استطاعتي أن استكمل اعداداتي في البر والبحر والجو ، طبقاً للخطط التي تم وضعها .

« واني لأرى ايضاً أن التدابير العسكرية المجردة التي اتخذت حتى الآن والتدابير الاخرى التي ستتخذ فيما بعـــد ، ستؤدي الى

---

١ ـ حذفت كلمة « المانيا » هنا وطبع فوقها كلمة « بولندة » وذلك في الترجمة الالمانيـــة لرسالة موسوليني التي عثر عليها في وزارة الخارجية بعد الحرب ، والتي اعتمدت عليها هنـــا ، فاصبحت العبارة على هذا النحو « اما إذا هاجمت بولندة .... » . أما في الأصل الايطالي الذي نشرته الحكومة الايطالية بعد الحرب ، فقد وردت العبارة على النحو الظاهر اعلاه . ومن الغريب ان يقدم النازيون حتى على تزوير الوثائق السرية الموجودة في محفوظات حكومتهم الرسمية . (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٢٨٥) .

اشغال قوات بريطانية وفرنسية كبيرة في اوروبا وافريقيا .

« واني لاعتبر أن من واجبي المقدس كصديق مخلص ان اطلعك على الحقيقة كاملة ، وان ابصرك سلفاً بالوضع الحقيقي الراهن . ولو تقاعست عن ذلك ، لكان في تقاعسي ما يؤدي الى نتائج سيئة لنا جميعاً . هذا هو رأيي ، ولما كنت مضطراً الى استدعـــاء بعض الهيئات الحكومية العليا الى الاجتماع بعد وقت قصير فإني أرجو أن أعرف رأيك بسرعة » [١]

موسوليني [٢]

وهكذا في اليوم الذي وضع فيه هتلر روسيا في جيبه كمحايد ودود بدلاً من

---

١ – رســالة موسوليني الى هتلر في ٢٥ آب (وثائق وزارة الخــارجية الالمــانية (٧) ص ٢٨٥ – ٢٨٦ .

٢ – يبدو ان عدداً من الكتاب الالمان ومعظمهم من المراقبين ، لم يروا في رسالة موسوليني هذه ، دواء مراً كل المرارة تحتم على هتلر ابتلاعه ، فراحوا استناداً إلى معلوماتهم الاوليــة عن الاحداث المسرحية التي وقعت في الايام الاخيرة من عهد السلام ، ينشرون نصاً خيالياً مختلقاً عن هذه الرسالة التي بعث بها الدوتشي الى هتلر . وكان ايريخ كوردت ، وهو احد المتآمرين ضد النازية ورئيس قسم السكرتارية في وزارة الخارجية الالمانية اول الناس الذين اختلقوا هذا النص الزائف ، إذ نشره في كتابه « اكاذيب وحقائق » الذي اصدره في شتوتغارت عام ١٩٤٧.وقد اسقطه كوردت في الطبعة الثانيةمن كتابه، ولكن غيره من الكتاب واصلوا نقله منالطبعة الاولى وظهر هذا النص في كتاب بيتر كلايست « بين هتلر وستالين» الذي صدر في عام ١٩٥٠ وكذلك في الترجمة الانكليزية لمذكرات بول شميدت المنشورة في نيويورك ولندن في عام ١٩٥١ . لكن النص الصحيح صدر في ايطاليا في عام ١٩٤٦ ، وظهرت ترجمته الانكليزية في الكتاب الذي اصدرته وزارة الخارجية الامريكية في عام ١٩٤٨ بعنوان « العلاقات النازية – السوفياتية». ويقتبس الدكتور شميدت ، الذي كان مع هتلر عندما تلقى الرسالة من اتوليكو ، من الخطاب قوله « في هذه اللحظة التي اعتبرها من اكثر لحظات حياتي ألماً، اجد نفسيمضطراً إلىابلاغك عدم استعداد ايطاليا للحرب ، وطبقاً لما ابلغنيه الرؤساء المسؤولون للقوات المسلحة فإن احتياطي « الفازولين » اللازم للسلاح الجوي الايطالي عندنا ضئيل للغاية إلى الحــد الذي لا يوفر الوقود لطائراتنا لاكثر من ثلاثة اسابيع من القتال . وينطبق هذا الوضعايضاًبالنسبة إلى تموينات الجيش والى المواد الاولية عندنا ... ارجو ان تفهم وضعي تمام الفهم » – راجع كتــاب نامير « في العهد النازي » ص ٥ للاطلاع على هامش طريف حول تزييف هذه الرسالة .

عدو مقاتل ، خرجت حليفته ايطاليا من ميثاق الفولاذ من هذا الجيب ، وذلك في اليوم الذي بدت فيه بريطانيا وقد التزمت التزاماً لا مفر منه بتوقيعها ميثاق المساعدة المتبادلة مع بولندة ضد العدوان الألماني . وقرأ هتلر رسالة الدوتشي ، وقال لاتوليكو انه سيرد عليها فوراً . ثم صرف المبعوث الايطالي من حضرته بصورة تنطوي على البرود الكامل .

وسمع الدكتور شميدت هتلر يعلق بمرارة بعد مغادرة اتوليكو قائلاً :

« ان الايطاليين يسلكون الآن عين سلوكهم في عام ١٩١٤ . » وتجاوبت ارجاء المستشارية تلك الليلة بأصداء السباب التي انهالت على « الحليف الخائن في المحور » لكن العبارات لم تكن كافية . فلقد كان من المقرر ان يزحف الجيش الألماني على بولندة بعد تسع ساعة ، اذ كانت الساعة قد بلغت السادسة والنصف من مساء الخامس والعشرين من آب ، وكان من المقرر ان يبدأ الغزو في الرابعة والنصف من صباح السادس والعشرين . وتحتم على الديكتاتور النازي أن يقرر فوراً على ضوء الانباء التي تلقاها من لندن وروما ، هل يمضي قدماً في خطته أو يؤجلها أو يعدل عنها .

وعندما خرج شميدت يرافق اتوليكو في انصرافه من مكتب هتلر ، اصطدم بالفريق كايتل وهو يهرع ماضياً لمقابلة الفوهرر .. ولم تمض دقائق حتى كان الفريق يركض خارجاً وهو يهتف إلى مساعده بحماس ... « يجب تأجيل الأمر بالتقدم من جديد » .

وهكذا اتخذ هتلر قراره بسرعة بعد ان وجد نفسه محصوراً في الزاوية التي وضعه فيها كل من موسوليني وتشمبرلين . ودوّن هولدر في يومياته يقول : « ان الفوهرر يرتجف بشدة » .. ثم مضى يقول :

« الساعة ٧٫٣٠ – أبرمت المعاهدة بين بولندة وانكلترا . لن تبدأ العمليات الحربية . يجب وقف كافة الحركات العسكرية حتى ولو على مقربة من الحدود إذا استحال وقفها بعيداً عنها .

« ٨٫٣٥ أيد كايتل الامر . كناريس : أصدر الأمر هاتفياً

برفع الخطر عن انكلترا وفرنسا . تأكيد تطورات الاحداث » .

ويقدم السجل البحري الالماني صورة أكثر دقة عن عملية التأجيل مع الاسباب التي أدت اليها :

« ٢٥ آب يجب وقف العملية البيضاء التي شرع فعلاً في تنفيذها في الساعة ٢٠،٣٠ (٨،٣٠) ، بسبب تبدل الأوضاع السياسية . (ميثاق المساعدة المتبادلة بين انكلترا وبولندة الذي وقع ظهر ٢٥ آب ، والانباء الواردة من الدوتشي والتي تقول بأنه سيفي بالتزاماته ويحافظ على وعده ولكنه يطلب تموينات ضخمة من المواد الأولية . »[١]

وافضى ثلاثة من كبار المتهمين في محاكمات نورمبرغ عند استجوابهم ، بما يعرفونه عن تأجيل الهجوم .[٢] فلقد ادعى ريبنتروب انه عندما سمع بالميثاق الانكليزي - البولندي و « سمع » بأن هناك «خطوات عسكرية يجري اتخاذها ضد بولندة » - وكأنه لم يكن يعرف من قبل شيئاً عن الهجوم - ذهب «فوراً» إلى الفوهرر ، وحثه على إلغاء غزو بولندة « فاستجاب الفوهرر فوراً لطلبه . » وليس ثمة من شك في أن أقواله كلها خالية من الصحة .

ولكن يبدو أن شهادتي كايتل وغورنغ كانتا على الأقل اكثر صدقاً . فقد قال كايتل على منصة الشهادة في نورمبرغ : « استدعيت فجأة لمقابلة هتلر في دار المستشارية ، وعندما قابلته قال لي : « اوقف كل شيء فوراً . وابعث بطلب براوختش على التو . فأنا في حاجة إلى بعض الوقت للتفاوض . »

وأيد غورنغ في استجوابه قبيل المحاكمة في نورمبرغ الفكرة القائلة بأن هتلر كان لا يزال يعتقد حتى تلك الساعة المتأخرة بأن في وسعه ان يخلص من الورطة

١ - المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٩٧٧ - ٩٧٨) .

٢ - استجواب ريبنتروب في ٢٩ آب ١٩٤٥ (المؤامرة النازية والعدوان(٧) ص ٥٣٥ - ٥٣٦) واستجواب غورنغ في ٢٩ آب ١٩٤٥ (المؤامرة النازية والعدوان (٧) ص ٥٣٤ - ٥٣٥) وشهادة كايتل في نورمبرغ في ٤ نيسان ١٩٤٦ (محاكمات كبار مجرمي الحرب (١٠) ص ٥١٤ - ٥١٥) .

التي اوقع نفسه فيها عن طريق التفاوض . وقال المشير :

« في اليوم الذي قدمت فيه بريطانيا ضمانتها الرسمية إلى بولندة طلبني الفوهرر هاتفياً وابلغني انه اوقف الغزو المقرر لبولندة . وسألته اذا كان هذا الوقف مؤقتاً او دائماً فقال : « لا ، أود ان ارى ما إذا كان بإمكاننا ان نحول دون تدخل بريطانيا »

وعلى الرغم من أن مروق موسوليني في اللحظة الاخيرة على الحلف كان ضربة موجعة لهتلر ، إلا أن من الواضح في هذه الشهادة السابقة ان عمل بريطانيا في توقيع معاهدة العون المتبادل مع بولندة ، كان أقوى أثراً في إقناع الزعيم الألماني بتأجيل الهجوم . ومع ذلك ، فإن من الغريب أن يظل هتلر على اعتقاده بأن في وسعه ان « يحول دون تدخل بريطانيا » كما قال لغورنغ ، وذلك بعد ان استمع من السفير هندرسون في اليوم نفسه إلى التحذير بأن بريطانيا ستحارب إذا هوجمت بولندة ، وبعد ان عززت الحكومة البريطانية التزاماتها السابقة بمعاهدة رسمية . ومن المحتمل ان تكون تجربته مع تشمبرلين في ميونيخ قد حملته على الاعتقاد بأن رئيس الوزراء قد يستسلم مرّة ثانية إذا « طبخت » طريقة صالحة للخلاص من الورطة . ولكن من الغريب ايضاً ان يكون هذا الرجل الذي اظهر في السابق بعد نظر كبير في السياسات الخارجية لم يعرف حقيقة التبدل الذي طرأ على تشمبرلين وعلى موقف بريطانيا. فهتلر هو الذي استفز هذه التبدلات على أي حال .

وتطلب وقف الجيش الالماني عن الزحف عشية الخامس والعشرين من آب الكثير من الجهد ، إذ إن وحدات كثيرة كانت قد شرعت بالفعل في زحفها . ووصل الأمر بوقف الهجوم إلى مقر قيادة الفريق بيتزل في الفيلق الأول في بروسيا الشرقية في الساعة التاسعة والدقيقة السابعة والثلاثين مساء . ولم يكن بالامكان وقف القطعات الامامية عن اجتياز الحدود إلا بعد جهود هائلة بذلها نفر من الضباط الذين أوفدوا على جناح السرعة إلى الخطوط الأمامية . وكانت أرتال الفيلق المدرع الذي يقوده الفريق فون كلايست في الجنوب قد شرعت في

التحرك عند الغسق متجهة إلى الحدود البولندية . ولم يكن بالإمكان وقفها إلا عند الحدود تماماً بعد ان هبط ضابط من ضباط الأركان بطيارتـه الكشفية السريعة على الحدود ، ليأمرها بالتوقف . ولم تصل الاوامر إلى بعض القطاعات إلا بعد ان كان اطلاق النار قد بدأ فعلاً . ولكن لما كان الالمان قد ألفوا منذ أيام عدة استفزاز الحوادث على طول الحدود فإن هيئة أركان الحرب البولندية كما يبدو لم يساورها الشك في حقيقة ما وقع . وكان كل مـا اعلنته في السادس والعشرين . ان عدداً من « العصابات الالمانية » قد اجتاز الحدود وهاجم الحصون البولندية ومراكز الجمارك بنيران الاسلحة الرشاشة والقنابل اليدوية ، وان هذه العصابات كانت « في جهة واحدة على الاقل من فصائل الجيش الألماني » .

فرح « المتآمرين » وتبلبلهم

اثارت انباء مساء الخامس والعشرين من آب ، بوقف هتلر هجومه المقرر على بولندة ، موجة طاغية من الفرح عند الاعضاء المتآمرين من رجـــال المخابرات الالمانية . وسرعان ما نقل العقيد اوستر الانباء إلى شاخت وغيزيفيوس صارخاً : « لقد انتهى الفوهرر » ، وكان الاميرال كاناريس في صباح اليوم التالي اكثر تحليقاً في الخيالات والاوهام إذ قال : « لن يستطيـع هتلر البقاء بعد هـــذه الضربة . ولقد امكن الحفاظ عـــلى السلام للعشرين سنة القادمة » ، وخيّل للرجلين انه لم تعد ثمة حاجة لبذل أي جهد للاطاحة بالديكتاتور النـــازي إذ انه انتهى .

وكان المتآمرون أو الذين يطلقون على انفسهم هذا الاسم طيـــلة الاسابيع العديدة التي مضت قبل اقتراب ذلك الصيف القدري من نهايته ، قد عادوا إلى العمل ، على الرغم من صعوبة فهم ما كانوا يهدفون إليه حقاً . وكان غوير دلر وآدام فون تروت ، وهيلموث فون مولتكيه ، وفابيـــان فون شابريندورف ورودولف بيشيل قد حجوا إلى لندن ، وهناك ابلغوا تشرشل والقادة البريطانيين

الآخرين ، بالاضافة إلى تشمبرلين وهاليفاكس ، ان هتلر ، قد وضـــع خططه لمهاجمة بولندة في نهاية شهر آب . وقد رأى خصوم هتلر هؤلاء من الالمـــان بأنفسهم أن بريطانيا من اصغر رجل فيها إلى تشمبرلين، حامل المظلة،قد تبدّلت كل التبدل عن ايام ميونيخ. وأدرك هؤلاء أن الشرط الوحيد الذي وضعوه قبل نحو من عام ، لتنفيذ تصميمهم على الخلاص من هتلر ، وهو قيام بريطانيا وفرنسا بالاعلان عن عزمها على مقاومة أي عدوان نازي مقبل بالقوة المسلحة ، قد نفذ الآن . إذن ما الذي كانوا يبغونه الآن اكثر من هذا ؟ ليس هناك في الوثائق التي خلفوها ما يشير إلى مطلبهم ، ولا ريب في ان المرء ليقع تحت الانطباع بأنهم لم يكونوا هم انفسهم يعرفون ما يريدون . وعلى الرغم من حسن نواياهم التي لا شك فيها ، إلا انهم كانوا واقعين تحت سيطرة حالةمن الفوضى واحساس من اللاجدوية يشلهم عن العمل. فلقد كانت سيطرة هتلر على المانيا بجيشها وشرطتها وحكومتها وشعبها كاملة إلى الحد الذي لا يمكن اضعافها أو تحطيمها عن طريق أي عمل قد يفكرون به .

وقام هاسيل في الخامس عشر من آب ، بزيارة الدكتور شاخت في مسكنه الجديد في برلين الذي يعيش فيه حياة العزّاب . وكان وزير الاقتصاد المقال من منصبه قد عاد لتوه من رحلة إلى الهند وبورمـــا استغرقته ستة اشهر . ودوّن هاسيل في يومياته : « يرى شاخت ان ليس في وسعنا ان نفعل شيئاً سوى ان نفتح عيوننا وان ننتظر ، فالأمور ستسير في طريقها المحتوم » وتروي يوميات هاسيل ايضاً انه قال لغيزيفيوس في نفس اليوم انه « يؤيد ايضاً تأجيل أي عمل مباشر في الوقت الحاضر » .

ولكن ترى ما هو العمل المباشر الذي رأى تأجيله ؟ فالفريق هولدر ، وهو لا يقل تلهفاً عن هتلر على تحطيم بولندة، لم يكن ليهتم فيهذه الآونة بالخلاص من الديكتاتور . والفريق فون ويتزليبين الذي كان من المقرر أن يقود القوات التي ستطيح بالفوهرر قبل عام ، بات الانعلى رأس مجموعة من الجيوش في الغرب، ولذا لم يعد في وضـــع يمكنه من العمل في برلين حتى ولو أراد ذلك . ولكن

أكانت لديه هذه الرغبة ؟ لقد قام غيزيفيوس بزيارته في مقر قيادته ، ووجده مصغياً إلى نشرة الأخبار من الاذاعــة البريطانية ، فأدرك لتوه ، ان الفريق لا يهتم الآن إلا بمعرفة ما يحدث حوله .

أما بالنسبة إلى الفريق هولدر، فقد كان مشغولاً إلى قمةرأسه بإعداد الخطط الاخيرة لاكتساح بولندة ، إلى الحد الذي ابعد تفكيره عن أية مشاريـع خائنة للخلاص من الفوهرر . وعندما سئل بعـد الحرب في نورمبرغ ، أي في السادس والعشرين من شباط عام ١٩٤٦ ، عن الاسباب التي منعته هو واقرانه من اعداء العهد النازي المزعومين من عمل أي شيء في الايام الاخيرة من شهر آب للاطاحة بالفوهرر وانقاذ المانيا بذلك من التورط في الحرب ، تلعثم ولم يدر ما يقول ... واخيراً رد قائلاً : « لم يكن هذا ممكناً » ، وعندما سئل عن السبب قال لأن الفريق فون ويتزليبين كان قد نقل إلى الجبهة الغربية . ولم يكن في وسع الجيش ان يفعل شيئاً بدون هذا القائد .

ولكن ما موقف الشعب الألماني ؟ فعندما وجه النقيب سام هاريس ، المحقق الامريكي إلى هولدر هذا السؤال ، مذكراً إياه بما سبق له ان قاله من ان الشعب الالماني كان معارضاً للحرب .... ومضيفاً اليه السؤال التالي : « وإذا كان هتلر قد بات ملتزمـــاً بصورة لا تقبل النقض بشن الحرب ، فلماذا لم تستطع الاعتماد على تأييد الشعب الألماني قبل غزو بولندة؟ » ، رد هولدر قائلاً : « ارجو أن تغفر لي إذا ابتسمت ، فعندما أسمع عبارة « لا تقبل النقض » مقرونة بهتلر لا يسعني إلا ان ابتسم . إذ لم يكن لديه أي شيء لا يقبـــل النقض ». ومضى رئيس هيئة اركان الحرب يشرح ، كيف انه حتى الثاني والعشرين من آب وبعد ان حسر هتلر النقاب لقادتـــه العسكريين في اجتماع أوبرسالزبرغ عن قراره « الذي لا يقبل النقض » بمهاجمة بولندة ومحاربـــة الغرب إذا اقتضى الأمر ، لم يصدق ان الفوهرر صادق في عزمه على ان يفعل مـــا يريد فعله . [1] وإذا ما ألقينا نظرة على ما كتبه هولدر نفسه في يومياته عن هـــذه الفترة ، تبيـّن

---

١ ـ المؤامرة النازية والعدوان ـ الملحق . ب . ص ١٥٦١ ـــ ١٥٦٣ .

لنا أن هذا القول يستثير الدهشة . ولكن هذا التناقض لا ينطبق على هولدر وحده بل على كافة المتآمرين الآخرين ايضاً .

وابن كان الفريق بيك ، سلف هـولدر في رئاسة أركان حرب الجيش ، والزعيم المعترف به لجماعة المتآمرين ؟. يقول غيزيفيوس ان بيك وجّه رسالة إلى الفريق فون براوختش ، ولكن القائد العـــام للجيش لم يعترف حتى بتسلمها . ويقول غيزيفيوس ايضاً إن بيك تحدث طويلاً إلى هولدر الذي اتفق معه على ان الحرب الكبرى تعني دمار المانـــيا ، ولكنه يرى ان « هتلر لن يسمح بنشوب حرب عالمية » ، وانه تبعاً لذلك ، ليس ثمـة من حاجة في الوقت الحاضر لمحاولة الاطاحة به [1] .

وفي الرابع عشر من آب تناول هاسيل العشاء وحيـداً مع بيك وسجل في يومياته ما أحسّا به من شعور بخيبة الامل ... فقال :

« ليس ثمة من شك في ان بيك رجل مثقف وجذاب وذكي غاية الذكاء . ومن سوء الحظ انه يحمل رأياً سيئاً عن القادة البارزين في الجيش . ولهذا السبب لا يستطيع ان يرى مكاناً هناك يضع قدمه فيه . وهو واثق ثقة مطلقـة من الطبيعة الشريرة لسياسات الرايخ الثالث » [2] .

وليس ثمة منشك في ان معتقدات بيكومن حوله كانت سامية ونبيلة،ولكن عندما شرع ادولف هتلر يعد العدة للدفع بألمانيا الى الحرب ، لم يحاول أي من هؤلاء الألمان المحترمين وقفه عند حده . وكانت المهمة كما هو واضح شاقة في مثل هذه الساعة المتأخرة وصعبة على التحقيق ، وكان من الواضح ايضاً انهم لم يقوموا حتى بأية محاولة لتحقيقها .

ومن المحتمل ان يكون الفريق توماس قـد قام بمثل هذه المحاولة . فعلى اثر المذكرة التي كان قد قدمها الى كايتل في منتصف شهر آب والتي كان قد تلاهـــا

١ - غيزيفيوس - حتى النهاية المرة ص ٣٥٨ - ٣٥٩ .
٢ - هاسيل - يوميات - ٥٩ .

شخصياً على مسامعه ، عاد يزوره في مكتبه في القيادة العامة للقوات المسلحة يوم الاحد في السابع والعشرين من آب. وقد سلمه، على حد روايته ، « ادلة احصائية مشفوعة بالرسوم البيانية يظهر بوضوح التفوق الهائل الذي يملكه الحلفاء الغربيون في الاقتصاد الحربي ، والشدائد التي يتحتم علينا ان نواجهها » . وعرض كايتل بشجاعة لم يعهدها بنفسه ، هذه المواد على هتلر ، الذي اجابه بأنه لا يتفق مع الفريق توماس « في قلقه من خطر نشوب حرب عالمية ، لاسيما وقد تمكن الآن من كسب الاتحاد السوفياتي الى جانبه » [١]

وهكذا انتهت محاولات « المتآمرين » لمنع هتلر من شن الحرب العالمية الثانية. هذا اذا استثنينا الجهود الضعيفة التي بذلها الدكتور شاخت في اللحظة الاخيرة والتي حاول المالي الداهية ، المتاجرة بها كثيراً في الدفاع الذي تقدم به في محكمة نورمبرغ . فلقد بعث عند عودته من الهند في شهر آب برسائل الى هتلر وغورنغ وريبنتروب – ويبدو ان اياً من زعماء المعارضة لم يمض في تلك اللحظة القدرية الى ابعد من توجيه الرسائل والمذكرات – ولكنه لدهشته البالغة ، كما قال فيما بعد لم يتلق أي رد عليها . وقرر بعد ذلك ان يمضي الى زوسين التي تبعد بضعة اميال الى الجنوب الشرقي من برلين حيث اقامت القيادة العليا للجيش مقراً لها لتولي الاشراف على الحملة البولندية ليقابل شخصياً الفريق فون براوختش . ولكن لماذا يقابله ؟ لقد اوضح شاخت على منصة الشهادة في نورمبرغ انه اراد ان يقول لقائد الجيش بأن مضي المانيا إلى الحرب دون موافقة الرايشستاغ عمل يناقض الدستور ! ولذا فان من واجب القائد العام للجيش أن يحترم اليمين الذي اقسمه بالحفاظ على الدستور .

ومما يؤسف له ان الدكتور شاخت لم يستطع مقابلة براوختش . فقد حذره الاميرال كاناريس من انه اذا ذهب الى زوسين ، فقد يأمر القائد العام « باعتقالنا جميعاً وعلى الفور » ، وهو مصير لم يبد جذاباً لهذا النصير السابق لهتلر.[٢] لكن

---

١ – توماس – التفكير والتطورات .

٢ – شهادة الدكتور شاخت في ٢ ايار ١٩٤٦ (محاكمات كبار مجرمي الحرب (١٢) ص – ٥٤٥ ٥٤٦)

السبب الحقيقي لعدم ذهاب شاخت الى زوسين في مهمته المضحكة - اذ كان من لعب الاطفال بالنسبة الى هتلر ان يحصل على ختم الرايشستاغ تصديقاً لقراره في شن الحرب ، وهو لا يريد حتماً ازعاج نفسه بمثل هـذه الشكليات - ظهر في الشهادة التي قدمها غيزيفيوس في نورمبرغ دفاعاً عن شاخت . ويبدو ان شاخت قد حزم نفسه على الذهاب الى زوسين في الخامس والعشرين من آب ، ولكنه ما لبث ان عدل عن رحلته عندما امر هتلر في تلك الليلة بتأجيل الهجوم على بولندة الذي كان من المقرر اجراؤه في اليوم التالي . وروى غيزيفيوس في شهادته ان شاخت قرر ثانية وبعد ثلاثة ايام اداء رسالته في زوسين ولكن كاناريس ابلغه ان الوقت قد فات على هـذه المهمة .[1] ولم تكن القضية ان المتآمرين لم يلحقوا بالباص ، وانما كانت في انهم لم يصلوا قط الى محطة الباص ولم يحاولوا اللحاق به.

ولم يكن زعماء العالم الحيادي الكثر ، يبزّون تلك الزمرة من الالمان المناهضين للنازية في التأثير على هتلر ، لوقف يده عن الامتداد إلى جيرانه ، على الرغم من النداءات التي وجهوها اليه الآن لتجنب الحرب . وبعث الرئيس روزفلت في الرابع والعشرين من آب رسالتين عاجلتين الى هتلر وإلى رئيس جمهورية بولندة ، يلحف عليهما فيها ، بوجوب تسوية خلافاتهما دون اللجوء إلى السلاح. وقد رد الرئيس موزسيكي ، في برقية تنطوي على الانفة في اليوم التالي مذكراً روزفلت ان بولندة ليست الدوله «التي تضع الشروط وتطلب الامتيازات ومع ذلك فهي على اتم استعداد لتسوية خلافاتها مع المانيا عن طريق التفاوض المباشر او التوفيق على النحو الذي يقترحه الرئيس الامريكي .» ولم يرد هتلر على البرقية ، وكان روزفلت قد ذكره بأنه لم يتلق رداً حتى الآن على ندائه الذي وجهه اليه في نيسان الماضي ، وراح روزفلت يبعث في اليوم التالي ، أي الخامس والعشرين من آب ، رسالة ثانية يبلغ هتلر فيها رد موزسيكي الميال الى التفاهم ، ويرجوه ان « يوافق على اجراءات مهدئة للتسوية قبلت بها الحكومة البولندية . »

---

١ - شهادة غيزيفيوس في ٢٥ نيسان ١٩٤٦ (محـاكمات كبار مجرمي الحرب (١٢) ص ٢٢٤ - ٢٢٥)

ولم يرد هتلر على الرسالة الثانية أيضاً ، وان كان وايزساكر قد استدعى عشية السادس والعشرين من آب القائم بالاعمال الامريكي في برلين، اليكزاندر كيرك ؛ وطلب اليه ابلاغ الرئيس بأن الفوهرر قد تلقى البرقيتين وانه قد سلمهما « الى وزير الخارجية لتتولى الحكومة دراستهما . »

وارتفع صوت البابا يذيع من الفاتيكان في الرابع والعشرين من آب ،نداء للسلام يستحلف فيه « الاقوياء بدم السيد المسيح ، ان يستمعوا اليه ، حتى لا يتحولوا إلى أناس ضعفاء عن طريق الظلم .. هذا إذا رغبوا في ان لا تتحول قوتهم إلى دمار » . وبعث البابا بعد ظهر الواحد والثلاثين من آب مذكرات متشابهة إلى حكومات المانيا وبولندة وايطاليا والدولتين الغربيتين « مناشداً أياها بالله ان تعمل الحكومتان الألمانية والبولندية على تجنب أي حادث» وراجياً حكومات بريطانيا وفرنسا وايطاليا ان تدعم نداءه واضاف قائلاً :

« لا يود البابا أن يتخلى عن الأمل في ان المفاوضات المتوقعة قد تؤدي إلى حل سلمي عادل . »

ولم يدرك قداسته ، كما لم يدرك كل انسان في العالم ايضاً ان « المفاوضات المتوقعة » لم تكن الا حيلة دعائية لجأ اليها هتلر لتبرير عدوانه . وسيدرك القارىء بعد قليل ، انه لم تكن هناك في الواقع اية مفاوضات حسنة الطوية ، متوقعة او غير متوقعة ، بعد ظهر ذلك اليوم الاخير من ايام السلام .

وكان ملك البلجيك قبل بضعة ايام ، أي في الثالث والعشرين من آب ، قد اذاع باسم رؤساء دول ميثاق« اوسلو»وهي بلجيكا وهولندة واللوكسمبورغ وفنلندة والدول الاسكندينافية الثلاث ، نداء مؤثراً للسلام مناشداً « الرجال المسؤولين عن سير الاحداث ان يعرضوا خلافاتهم ومطالبهم على المفاوضات الصريحة » . وعرض ملك البلجيك وملكة هولندة في الثامن والعشرين من آب وساطتهما المشتركة « أملاً في تجنب الحرب » [1] .

وعلى الرغم مما في هذه النداءات المحايدة كلها من نبل في النية والشكل إلا

١ - نصوص جميع هذه النداءات في الكتاب البريطاني الازرق ص ١٢٢ - ١٤٢ .

انها تنطوي على شيء من اللاواقعية والعواطف عندما يعود المرء الى قراءتها اليوم فهي تبدو وكأن رئيس الولايات المتحدة والبابا وحكام الدول الديموقراطية الأوروبية الشمالية يعيشون على كوكب آخر غير الكوكب الذي يقوم الرايخ الثالث فيه ، ولا يفهمون عما يدرو في برلين اكثر من فهمهم عما يقع في المريخ . ولا ريب في ان هذا الجهل بعقل ادولف هتلر وطبيعته واهدافه بل وبعقول الالمان وطبيعتهم واهدافهم الذين ، باستثناء قلة قليلة منهم ، كانوا على استعداد للسير وراءه على عمى ، اينما اراد ، وكيفما شاء ، دون اكتراث بالاخلاق والشرائع والشرف والمفهوم المسيحي عن الانسانية ،قدر له ان يكلف الشعوب التي تولى روزفلت وملوك بلجيكا وهولندة واللوكسمبورغ والنروج والدانمارك قيادها ثمناً غالياً في الاشهر القادمة .

أما نحن الذين كنا نعيش في برلين في غضون تلك الايام العصيبة القليلة والاخيرة من ايام السلام ، والذين كنا نحاول ان ننقل إلى العالم ما يقع من حوادث ، فلم نكن ندري إلا القليل عما يقع في الويلهلمشتراسه مقر المستشارية ووزارة الخارجية او في البندلرشتراسه حيث يقبع العسكريون في مكاتبهم . وكنا نلاحق بكل ما لدينا من وسائل ذلك التيار الهائل من الشائعات والهمسات والاكاذيب المقصودة . وكنا نعرف امزجة الناس في الشوارع ، وامزجة موظفي الحكومة وزعماء الحزب والدبلوماتيين والعسكريين الذين تربطنا اليهم معرفة . لكننا كنا نجهل كل الجهل في ذلك الحين ، كما يجهل الناس جميعاً ، حقيقة ما يقال في المقابلات العديدة العاصفة بين هتلر وريبنتروب وهندرسون ، وما يدور من مراسلات بين هتلر وتشمبرلين وبينه وبين موسوليني أو ستالين ، وما تجري الاحاديث عنه بين ريبنتروب ومولوتوف أو بينه وبين شيانو . وما تضمه جميع هذه البرقيات الرمزية السرية التي تنقلها اسلاك البرق بين الدبلوماتيين الذين يكادون يسقطون اعياء وتعباً وبين وزارات خارجيتهم ، وما يعده القادة العسكريون من خطط وحركات .

ولكننا نعرف كما كان الجمهور يعرف ، بعض الأمور على الأقل . فلقد طبل

الالمان وزمروا للميثاق النازي – السوفياتي الى ان وصلت اصوات تطبيلهم إلى عنان السماء ، على الرغم من الحقيقة الواقعة وهي ان الملحق السري الذي يقضي بتقسيم بولندة وما تبقى من اوروبا الشرقية ، ظل سراً من الاسرار الى ان انتهت الحرب . وكنا نعرف ان هندرسون قد طار إلى برختسغادن حتى قبل توقيع هذا الميثاق ليؤكد لهتلر ان هذا الاتفاق لن يمنع بريطانيا من الوفاء بالتزاماتها لبولندة . وعندما استهل الاسبوع الاخير من شهر آب ، شعرنا في برلين أن الحرب واقعة لا مناص منها وانها ستقع في غضون بضعة ايام ، إلا إذا وقعت ميونيخ ثانية . ورحل عن المانيا في الخامس والعشرين من آب ، آخر فوج من المدنيين البريطانيين والفرنسيين ، واعلن في برلين في اليوم التالي الغاء المهرجان النازي الكبير في تاننبرغ الذي كان من المقرر عقده في السابع والعشرين من آب ليخطب فيه هتلر ، كما الغي المهرجان السنوي في نورمبرغ والذي اطلق عليه اسم مهرجان الحزب للسلام والذي كان من المقرر عقده في الاسبوع الاول من ايلول واعلنت الحكومة في السابع والعشرين من آب تقنين المواد الغذائية والصابون والاحذية والمنسوجات والفحم وتوزيعها بالحصص اعتباراً من اليوم التالي . واني لأذكر ان هذا الاعلان ، كان اكثر من أي إجراء آخر ، تأثيراً في تبصير الشعب الالماني باقتراب الحرب ، وبدأنا نسمع الناس يتأففون من هذا التطور . وشهد أهل برلين يوم الاثنين في الثامن والعشرين من آب الجنود وهم يجتازون شوارع المدينة متجهين الى الشرق ، وقد استقلوا عربات مكشوفة ، وشاحنات عادية ، وكل وسيلة من وسائل النقل التي تتيسر لهم .

ولا ريب في ان هذا المنظر قد فتح عيون الناس العاديين إلى حقيقة ما هو واقع . واني لأذكر الآن ان عطلة نهاية الاسبوع تلك تميزت بالحرارة الشديدة والرطوبة ، وراح معظم اهل برلين ، غير مكترثين بما قد يقع قريباً ، يحملون انفسهم إلى الغابات والبحيرات التي تحيط بالعاصمة . وعندما عادوا إلى المدينة مساء الاحد ، عرفوا من الاذاعة ، ان مجلس الرايشستاغ قد دعي إلى جلسة سرية وغير رسمية في دار المستشارية . واذاعت وكالة الانباء الالمانية الرسمية بلاغاً

رسمياً اعلنت فيه: « ان الفوهر اوضح لاعضاء المجلس خطورة الوضع ». وكانت هذه هي المرة الأولى، التي يعلن فيها هتلر لجماهير الالمان ان الساعة باتت عصيبة. ولم تذع أية تفاصيل عن الاجتماع، كما لم يدرِ أحد باستثناء أعضاء الرايشستاغ وافراد حاشية هتلر بالحالة النفسية التي كان الديكتاتور النازي فيها في ذلك اليوم. وقد أمنت لنا يومية هولدر بتاريخ الثامن والعشرين من آب صورة متأخرة زوّده بها العقيد اوستر من رجال المخابرات:

« عقد مؤتمر في دار المستشارية في الخامسة والنصف مساء. شهده اعضاء الرايشستاغ وعدد من كبار رجال الحزب ... الوضع خطير للغاية. الفوهرر مصمم على حل المسألة الشرقية بأية وسيلة من الوسائل. إن اقل ما يطلبه اعادة دانزيغ للرايخ وتسوية مشكلة الرواق. أما اكثر ما يطلبه، « فمتوقف على الوضع العسكري ». إذا لم يعط الفوهرر أقل ما يطلبه فالحرب واقعة حتماً. يا لها من وحشية! سيكون الفوهرر في الخط الاول. كان موقف الدوتشي في مصلحتنا.

« ستكون الحرب شاقة، وقد تكون يائسة. يقول هتلر: « لن يكون هناك حديث عن الاستسلام طالما انا على قيد الحياة » اساء الحزب فهم الميثاق السوفياتي. انه ميثاق مع ابليس لطرد الشيطان. لقيت تحذيرات الفوهرر، استحساناً ولكن الهتاف لم يكن مدوياً.

« انطباعي الشخصي عن الفوهرر انه منهك، شاحب الوجه صوته شديد الرجفة، غارق في العمل يحيط به دائماً مستشاروه من قادة الحرس النازي. »

وكان في وسع أي مراقب اجنبي في برلين ان يرقب الطريقة التي كانت تتبعها الصحف تحت اشراف غوبلز الخبير، لتضليل الشعب الالماني السليم الطوية. فمنذ ست سنوات، أي منذ « توحيد » الصحف الالمانية الذي عنى انتهاء حرية الصحافة، عزل المواطنون عن حقيقة ما يدور حولهم في العالم. وظلت الصحف

السويسرية الصادرة باللغة الالمانية في بال وزوريخ ، تبـــاع مدة من الزمن في « الاكشاك » الصحفية البارزة في المانيا وتقدم لقرائها انباء موضوعية ، ولكن منعت في السنوات الاخيرة من التوزيع في الرايخ ، أو حددت النسخ التي تباع فيها بعدد قليل للغاية . وكانت هناك نسخ معدودة من صحف لندن وباريس ومجلاتها للألمان الذين يقرأون الانكليزية والفرنسية ، ولكن عددها لم يكن كافياً ليصل إلى اكثر من حفنة من الناس .

ودوّنت في يومياتي في العاشر من آب عام ١٩٣٩ ... أقول : « يا له من عالم معزول كل العزل ، يعيش فيه الشعب الالماني . ولا ريب في ان مجرد التطلع إلى صحف الامس واليوم يذكرك بهذه الحقيقة » . وكنت قد عدت إلى المانيـا من إجازة قصيرة قضيتها في واشنطن ونيويورك وباريس ، وعندما كنت استقل القطار من سويسرا حيث اقيم إلى المانيا قبل يومين ابتعت مجموعـــة من صحف برلين ومدن الراين . وسرعان ما اعادتني هذا الصحف إلى عالم النازية المهووس الذي يختلف كل الاختلاف عن العالم الذي تركته قبل قليل ، وكأنه كوكب آخر . ورحت ادوّن في يومياتي بتاريخ العاشر من آب بعـــد ان وصلت إلى برلين :

« بينما يعتبر معظم الناس في مختلف انحاء العالم ان المانيا توشك ان تحطم السلام ، وان المانيا هي التي تهدد بغزو بولندة ، يرى الناس هنا في المانيا ، في هذا العالم الذي تخلقه الصحف النازية المحلية ، النقيض تماماً . فكل ما تعلنه الصحف الالمانية هو ان بولندة هي التي تهدد السلام الاوروبي وانها هي تهدد المانيا بالغزو المسلح ...

« وتحمل البرلينر زايتونغ العنوان الضخم التـــالي « اسمعي يا بولندة ... الرد على بولندة ، الدولة التي لا تعي والتي تهدد السلام والحق في اوروبا . »

« وتحمل صحيفة الفوهرر ، الصحيفة اليوميـــة التي تصدر في كارلسرو والتي ابتعتها في القطـار العنوان التـــالي « وارشو تهدد

دانزيغ بقصف المدافع. تحريض لا يصدق من المجانين البولنديين . »

« وقد تقول : لكن كثيرين من الألمان لا يصدقون هـــذه الاكاذيب . وتتحدث اليهم ، فترى ان الكثيرين منهم يصدقونها. »

وعندما حل السادس والعشرين من آب وهو اليوم الذي تقرر في البداية ان يكون موعد الهجوم على بولندة ، وصلت الحملة الصحفية التي يتولى غوبلزتوجيهها الذروة في العنف . ودوّنت في يومياتي العناوين التالية :

البرلينر زايتونغ : الفوضى الـكامـــلة تعم بولندة — الاسر الالمانية تهرب الجنود البولنديون يندفعون إلى حدود المانيـــا »

- وصحيفة الساعة الثانية عشرة ... « البولنديون يطلقون النار على طائراتنا — النار تشتعل في عدد من المزارع الألمانية في الرواق.»

وعندماكنت ماضياً في طريقي عند منتصف الليل إلى دار الاذاعة ، اشتريت عدد يوم الاحد (٢٧ آب) من الفولكشاير بيوباخـتر . وكانت تحمل في صدر صفحتها الأولى العناوين الضخمة التالية :

« حمّى الحرب تجتاح بولندة بأسرهـــا ! تعبئة مليون ونصف المليون من الرجال ! حركة مستمرة للجنود باتجـــاه الحدود — الفوضى في سيلزيا العليا ! »

وبالطبع لم يكن هناك أي ذكر في هذه الصحف للتعبئة الالمانية ، على الرغم من الحقيقة الواقعة التي رأيناها ، وهي ان المانيا اتمت تعبئة قواتها .

الايام الستة الاخيرة من السلام

ما كاد هتلر يستفيق من « الدرش » البارد الذي حملته له رسالة موسوليني في الساعات المبكرة من مساء الخامس والعشرين من آب ، وهي الرسالة التي اشتركت مع انباء توقيع الحلف الانكليزي - البولندي في حمل هتلر على تأجيل الهجوم

على بولندة ، بعد ان كان قد قرر موعده في اليوم التالي ، حتى راح يبعث بمذكرة قصيرة الى الدوتشي يسأله فيها عن « المعدات الحربيـــة والمواد الاولية التي يحتاجها ، والمدة التي يجب ان يتسلمها فيها » ، حتى تتمكن ايطاليا من « خوض حرب اوروبية كبرى » . وقد نقل ريبنتروب شخصياً هذه الرسالة عن طريق الهاتف الى السفير الالماني في رومه في الساعة السابعة والدقيقة الأربعين مساء وسلمت إلى الديكتاتور الإيطالي في الساعة التاسعة والنصف من نفس الليلة [١] .

وعقد موسوليني في الصباح التالي اجتماعاً في رومة شهده قـــادة القوات الايطالية المسلحة ، لإعداد قائمة بأقل متطلبات هـــذه القوات لحرب تستغرق اثني عشر شهراً . اما شيانو الذي ساعد العسكريين في اعداد هذه القائمة فقد وصف الارقام « بأنها كافية لقتل ثور اذا استطاع الثور قراءتها » [٢] فقد تضمنت سبعة ملايين طن من الزيت وستة ملايين طن من الفحم ومليوني طن من الفولاذ ومليون طن من الخشب ، وقائمة طويلة من الحاجات الاخرى التي تهبط الى ان تصل ستمائة طن من الموليبدينوم واربعمائـــة طن من التيتانيوم وعشرين طنـــاً من الزركونيوم . وطلب موسوليني بالاضافة الى ذلك كله مائة وخمسين بطارية من المدافع المضادة للطائرات لحماية المنطقة الصناعية في شمال ايطاليا والتي لم تكن تبعد اكثر من عشرين دقيقة طيران عن القواعد العسكرية الفرنسية ، وهي حقيقة لم يسعه الا تذكير هتلر بها في الرسالة التي كان بعدها ليبعث بها اليه . وقد نقل شيانو هذه الرسالة هاتفياً الى اتوليكو في برلين بعد ظهر السادس والعشرين من آب ، وقد نقلها هذا بدوره فوراً الى هتلر [٣] .

وتضمنت الرسالة اكثر من هذه القائمة المنتفخة من المواد اللازمة لايطاليا . وقد اتضح الآن ان الزعيم الفاشي الانهزامي كان قـــد حزم امره على الاحتيال

---

١ — رسالة هتلر الى موسوليني في ٢٥ آب الساعة ٧،٤٠ مساء (وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٩) ص ٢٨٩) .

٢ - يوميات شيانو ص ١٢٩ .

٣ - رسالة موسوليني الى هتلر الساعة ١٢،١٠ بعد الظهر ٢٦ آب (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٣٠٩ — ٣١٠ .

للتخلص من التزاماته الى الرايخ الثالث ، ولا ريب في ان الفوهرر بعد قراءته هذه الرسالة الثانية قد تثبت تمام التثبت من هذه الحقيقة . اذ كتب موسوليني إلى رفيقه :

« أيها الفوهرر :

« ما كنت لأبعث اليك بهذه القائمة ، ولو بعثتها فإنها ما كانت لتعدو عدداً صغيراً من المواد، وارقاماً ضئيلة ، ولو اتيح لي الوقت المتفق عليه سابقـــاً لتجميع ما احتاجه من مواد احتياطية ، وللاسراع في تحقيق الاكتفاء الذاتي .

« وارى من واجبي ان ابلغك بأنه ما لم اتلق هذه التموينات ، فإن التضحيات التي قد أطالب الشعب الايطالي بتقديمها ... تكون غير مجدية وقد تؤدي إلى الاضرار بقضيتك بالاضافة إلى قضيتي . »

وراح السفير اتوليكو الذي كان يعارض الحرب ، ويمانع في دخول ايطاليا إلى جانب المانيا لو نشبت ، يؤكد لهتلر من نفسه عند تقديمه الرسالة اليه ، أن من الواجب ان تصل جميع هذه المواد إلى ايطاليا « قبل البدء بالعمليات الحربية » وان هذا الطلب « حاسم » لا يقبل المساومة .[1]

وكان موسوليني لا يزال يأمل في وقوع ميونيخ ثانية . واضاف الى رسالته فقرة اعلن فيها استعداده الكامل لتقديم كل مـــا لديه من عون لزميله الالماني ، اذا كان الفوهرر يعتقد بوجـود « أي إمكان مهما كان نوعــــه للوصول الى حل في الميدان السياسي » وعلى الرغم من ميثـاق الفولاذ الذي يشدهما الى بعضهما ، ومن جميع مظاهر الضجيج عن تضامنهما في السنوات الماضية، فقد ظلت الحقيقة

---

١ – اثارت هذه الاقوال المزيد من الحنق في برلين كما اثارت بعض الاضطرابات في رومه، مما تحتم على شيانو تهدئته . وقال اتوليكو فيما بعد انه أصر متعمداً على التسليم الكامل لهذه المواد قبل البدء بالحركات الحربية « لاثبط من عزائم الالمان وامنعهم من الاستجابة لطلباتنا » . فلقد كان من المستحيل كل الاستحالة تسليم ثلاثة عشر مليون طن من المواد في غضون ايام قليلة ، واعتذر موسوليني الى السفير فون ماكنزن على ما وقـــع من سوء تفاهم مضيفاً « ان الله نفسه لا يستطيع ان ينقل هذه المواد الى هنا في غضون بضعة ايام » واضاف انه لم يخطر بباله قط ان يوجه مثل هذا الطلب الغريب (يوميات شيانو ص ١٢٩ ووثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧)ص٣٢٥)

المجردة واقعة وهي ان هتلر لم يسر إلى موسوليني بهدفـــه الحقيقي وهو تحطيم بولندة ، وان الشريك الايطالي ظل يجهل هذا الهدف . ولم تسد هـــذه الفجوة التي تفصلهما عن بعضهما نهائياً إلا في نهاية ذلـــك اليوم ، السادس والعشرين من آب .

ولم تمض ثلاث ساعات من ذلك اليوم نفسه حتى كان هتلر يرسل رداً طويلاً على رسالة الدوتشي . وقد قام ريبنتروب ايضاً بنقلها هاتفياً في الساعة الثالثة والدقيقة الثامنة الى سفيره فون ماكنزن في رومه، الذي تولى ايصالها بسرعة الى موسوليني بعد الساعة الخامسة مساء . وقال هتلر في رسالته انه على الرغم من ان بعض مطالب ايطاليا من الفحم والفولاذ يمكن اجابتها واعطائها الى ايطاليا كاملة ، الا ان بعض المطالب الاخرى لا يمكن تحقيقها ، على أي حال ، لا يمكن بأي شكل من الاشكال تنفيذ ما اصر عليه اتوليكو وهـــو تأمين هذه المواد وايصالها الى ايطاليا قبل بدء الحركات الحربية .

واخيراً ، راح هتلر يبوح إلى صديقه وحليفـــه بحقيقة نواياه واهدافه الفورية فقال :

« لما كانت فرنسا وبريطانيا عاجزتين عن تحقيق أية انتصارات حاسمة في الغرب وكنتيجة للاتفاق مع روسيا ، فإن المانيا تستطيع ان تحرر جميع قواتها في الشرق بعدهزيمة بولندة... ولهذا فإنني لن اتقاعس عن حل المشكلة في الشرق حتى ولو كانت هناك مغامرية بوجود تعقيدات في الغرب .

« وانني لأفهم موقفك يا دوتشي ، ولا اطلب اليك اكثر من تحقيق إشغال قوات انكليزية فرنسية كبـــيرة عن طريق الدعاة الناشطة والتظاهرات العسكرية المناسبة على النحو الذي اقترحته علي في رسالتك [1] .

وتعتبر هذه الرسالة اول دليل في الوثائق الالمانية على ان هتلر قد استعاد ثقته

---

١ - رسالة هتلر إلى موسوليني في ٢٦ آب الساعة ٣٠٠٨ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٣١٣ - ٣١٤ .

وقرر استئناف خططه بعد أقل من اربع وعشرين ساعة من الغائه الهجوم على بولندة ، حتى ولو غامر في ذلك بنشوب حرب في الجبهة الغربية .

وبذل موسوليني في نفس الليلة ، ليلة السادس والعشرين من آب ، نوعاً من المحاولة ، لاقناعه بالعدول عن مخططه ، فبعث برسالة ثانية إلى الفوهرر تولى شيانو نقلها هاتفياً إلى أتوليكو، ووصلت إلى دار مستشارية الرايخ قبيل السابعة مساء . وهذا نصها :

« اعتقد ان سوء التفاهم الذي وقع فيه اتوليكو ، دون سابق تصميم واصرار ، قد أوضح فوراً ... فكل ما طلبته منك ، باستثناء بطاريات المدافع المضادة للطائرات يمكن تقديمه في غضون اثني عشر شهراً . ولكن على الرغم من ان سوء التفاهم هذا قد ازيل إلا ان من الواضح استحالة قيامك بمساعدتي مادياً لسد ما أحدثته حربا الحبشة واسبانيا في التسلح الايطالي من فجوات .

« ولهذا فسأتخذ الموقف الذي نصحتني به ، في المرحلة الأولى من الصراع على الأقل، مشغلاً اكبر عدد من القوات الفرنسية والبريطانية على النحو الواقع الآن، بينما اكون مغذاً السير في استكمال استعداداتي العسكرية إلى أوسع مدى ممكن . »

ولكن الدوتشي الحزين على وقوفه هذا الموقف المؤسف في مثل هذه الساعة العصيبة ، كان لا يزال يفكر بإمكان قيام ميونيخ جديدة وبضرورة السعي إلى قيامها . . . فقال :

« واني لأجازف بالاصرار من جديد ، لا نتيجة اعتبارات تمتُ إلى الشخصية الانهزامية الغريبة عليّ ، والتي لا اعرفها ، بل نتيجة التفكير بمصالح شعبينا ونظامينا على خلق فرصة للوصول إلى حل سلمي ما زلت أراه ممكناً على ان يكون من النوع الذي يؤمن الترضية المعنوية والمادية الكاملة لألمانيا [١]» .

---

١ - رسالة موسوليني إلى هتلر الساعة ٦،٤٢ من ٢٦ آب. (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٣٢٣ .

وتوضح السجلات الآن ان الديكتاتور الايطـالي ، كان يحاول الوصول إلى السلام ، إذ أنه لم يكن على استعداد للحرب . ولكن الدور الذي قضي عليه ان يمثله ، أخذ يؤرق مضجعه . وراح يعلن في هـــذه الرسالة الاخيرة التي بعث بهـــا بتاريخ السادس والعشرين من آب قائـــلاً : « ان الحـالة العقلية التي اعيش فيهـــا تجدني مضطراً بواقع عوامل تفوق طاقتي إلى ان لا اقـدم اليك التضامن الفعلي في هذه اللحظة من العمل » وسجل شيانو في يومياته بعد هـــذا اليوم المكتظ بالعمل يقول : « لا ريب في ان الدوتشي قد فقد عقله . فغرائزه العسكرية ، وتمسكه بالشرف يقودانه إلى الحرب . ولكن العقـــل والمنطق يحولان دون ذلك . وهنا يحس بالألم ... وبات لزامـــاً عليه ان يواجه الحقيقة المرة . ولا ريب في ان هذه المواجهة ضربة قاسية . »

وهكذا ارتضى هتلر بعد هذه الرسائل العديدة المتبادلة تخلي موسوليني عنه وتركه وحيداً يواجه مأزقه . ولكنه راح في ساعة متأخرة من ليـــلة السادس والعشرين من آب يبعث بمذكرة اخرى إلى شريكه في المحور . وقـــد ارسلت بطريق البرق من برلين في الساعة الثانية عشرة والدقيقة العاشرة من صباح السابع والعشرين فوصلت إلى موسوليني في التاسعة صباحاً وهذا نصها :

« الدوتشي ...

« لقد تلقيت رسالتك التي شرحت موقفك الاخـــير ، واني لاحترم الأسباب والدوافع التي حملتك على اتخاذ هذا الموقف ، الذي قد يكون مفيداً على أي حال في بعض الظروف .

« واني لأرى ان هناك متطلباً أولياً لا بد منه ، وهو ان يظل العالم على الاقل حتى نشوب الحرب ، جاهلاً تمام الجهل بالموقف الذي تعتزم ايطاليا اتخاذه . ولهذا فإني اطلب اليك ودياً ان تؤيد الصراع الذي سأخوضه نفسياً بصحافتك وبغـــير ذلك من السبل . وأود ان اطلب اليك ايضاً ايها الدوتشي إذا كان ذلك ممكناً لك ، ان ترغم بريطانيا وفرنسا ، عن طريق التظاهر بالاجراءات العسكرية

على تجميد قسم من قواتها ، وان تتركهما تعيشان في جميع الاحوال في جو من الشكوك .

« ولكن الشيء المهم يا دوتشي ، هو ما سبق لي ان بينته لك ، وهو انه في حالة تحول الصراع إلى حرب كبرى ، فإن الموقف في الشرق سيقرر نهائياً قبل ان تتمكن الدولتان الغربيتان من تحقيق أي نجاح ... وهكذا ففي الشتاء ، أو عند حلول الربيع القادم على ابعد تقدير ، سأهاجم من الغرب بقوات تكون متعادلة على الاقل مع قوات فرنسا وبريطانيا ...

« وأود الآن ان اسألك منة عظيمة . ففي وسعك انت وشعبك في هذا الصراع الجبار ، ان تنصراني نصرة عظيمة بايفاد العمال الايطاليين للقيام بأعمال صناعية وزراعية ... وفي سؤالي هذه المنة منك ومن كرمك أود أن اشكرك على جميع الجهود التي بذلتها لقضيتنا المشتركة .

ادولف هتلر »[1]

ورد الدوتشي رداً لطيفاً في ساعة متأخرة من بعد ظهر ذلك اليوم مؤكداً فيه ان « العالم لن يعرف قبل بدء الحركات الحربية الموقف الذي ستقفه ايطاليا، إذ سيحفظه سراً مكتوماً عن الجميع . واضاف انه سيعمل على تجميد اقصى ما يستطيع من قوات بريطانيا وفرنسا الحربية والبحرية ، وسيرسل الى هتلر عدداً من العمال الايطاليين تلبية لطلبه ».[2] وكان قد اكد في ساعة مبكرة من النهار الى السفير فون ماكنزن « بعبارات جازمة » على حد تعبير السفير في برقيته إلى برلين « انه ما زال يأمل في امكان تحقيق اهدافنا كلها دون اللجوء الى الحرب ،

---

١ - رسالة هتلر الى موسوليني الساعة ١٢،١٠ صباح ٢٧ آب (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٣٤٦ .

٢ - رسالة موسوليني الى هتلر الساعة ٤،٣٠ بعد ظهر ٢٧ آب (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٣٥١ - ٣٥٣) .

واضاف انه سينقل هذا الرأي إلى الفوهرر في الرسالة التي سيبعث بها اليه » [1] ولكنه لم يفعل ذلك . ولقد بدا في تلك اللحظة أجبن من ان يشير الى تلك الفكرة مرة ثانية .

ولم يأبه هتلر – كما يظهر – بما ستفعله فرنسا على الرغم من الحقيقة الواقعة وهي ان فرنسا هي التي ستقدم جميع القوات العسكريـة على حدود المانيـا الغربية في حالة نشوب الحرب فجأة ، وعلى الرغم من ان هذه القوات ستفوق في الاسابيع الاولى القوات الألمانية في تلك الجبهة عدداً ، فقد راح رئيس الوزارة الفرنسية ديلاديه ، يبعث اليه في السادس والعشرين من آب رسالة بليغة ومؤثرة يذكره فيها بما ستفعله فرنسا ، وهو الوقوف الى جانب بولندة إذا هوجمت ... وقال :

« وليس في وسعك ان تشك في ان فرنسا ستفي بالتزاماتها المقدسة للدول الاخرى كبولنـدة مثلاً ، إلا إذ عزوت للشعب الفرنسي مفهوماً عن الشرف الوطني أقـل شأناً من المفهوم الذي اعزوه انا الى الشعب الالماني ... »

وبعد ان ناشد ديلاديه هتلر البحث عن حل سلمي لنزاعه مع بولندة اضاف قائلا :

« واذا قدر لدماء فرنسا والمانيا ان تسفك ثانية كما سفكت قبل خمس وعشرين سنة ، وذلك في حرب اطول واكثر اجراماً ، فإن كلاً من الشعبين سيقاتل واثقاً من النصر ، ولكن النصر الحقيقي فيها سيكون لقوات التدمير والوحشية » [2] .

وأضاف السفير كولوندر ، عندما قدم رسالة رئيس وزرائه إلى هتلر ، نداء عاطفياً شفوياً من جانبه مستحلفاً هتلر « باسم الانسانية ان يريح ضميره ، وان

---

١ – برقية ماكنزن ٢٧ آب . وثائق (وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٣٥١ – ٣٥٣) .

٢ – رسالة ديلاديه الى هتلر في ٢٦ (آب وثائق وزارة الخارجية (٧) ص ٣٣٠ – ٣٣١ والكتاب الفرنسي الاصفر الطبعة الفرنسية . ص ٣٢١ – ٣٢٢ .)

لا يضيع هذه الفرصة الأخيرة في الوصول إلى حل سلمي . ولكن السفير «صدم» من المقابلة وابرق إلى باريس يقول ان رسالة ديلادييه لم تؤثر على الفوهرر الذي ظل جامداً كالصخر .

ووضع هتلر رده على رسالة الرئيس الفرنسي التي بعث بها في اليوم التالي على اساس ماكر قصد منه العزف على برم الفرنسيين من «الموت في سبيل دانزيغ» ولكنه لم يذكر هذه العبارة بشكل صريح ، وانما ترك امر فهمها الى الفرنسيين المنادين بالمهادنة والترضية . واعلن هتلر في رسالته ان المانيا قـــد تخلت عن كل مطالب اقليمية لها من فرنسا ، بعد استعادة السار ، وانه لهـــذا ليس ثمة من مبرر يدعو البلدين إلى محاربة بعضهما . أما إذا وقعت الحرب ، فلن يكون هذا خطأ المانيا ، واكد انه سيتألم لمثل هذا التطور .

وكان هذا آخر ما وقع من اتصال دبلوماتي بين المانيا وفرنسا في الاسبوع الأخير من السلام . ولم يقابل كولوندر هتلر بعد اجتماعه به في السادس والعشرين من آب ، إلى ان انتهى كل شيء . وكانت بريطانيا العظمى هي البلاد التي تقلق المستشار الالماني اكثر من غيرها في هـــذه المرحلة . فلقد كان هتلر يود كما قال لغورنغ عشية الخامس والعشرين من آب عندما أجل الزحف على بولندة لو تمكن من الحيلولة دون تدخل بريطانيا .

ألمانيا وبريطانيا العظمى
في الساعة الحادية عشرة

دوّن الفريق هولدر في يومياته كما ذكرنا من قبل عشية الخامس والعشرين من آب وبعد ان تلقى هتلر الانباء من رومة ولندن التي اقنعته بالتراجع عن شفير الهاوية ، أن « الفوهرر اصيب بهزة عنيفة » . ولكن رئيس هيئة أركان الحرب ما عتم بعد ظهر اليوم التالي ان لاحظ تبدلاً مفاجئاً في الزعيم فدوّن في يومياته في الساعة الثالثة والدقيقة الثانيـة والعشرين ان « الفوهرر استعاد هدوءه وصفاء

ذهنه » . ولقد بين الفريق في يومياته السبب في هذا التحول ... إذ اصدر هتلر أمراً هاتفياً إلى القيادة العليا للجيش بأن تكمل استعداداتها في اليوم السابع من التعبئة ، ليبدأ الهجوم في الاول من ايلول .

وهكذا قرر هتلر محاربة بولندة . ولم يعد هناك تفكير في النكوص عن هذا القرار ، ولكنه سيبذل في غضون ذلك كل ما في وسعه لإبقاء بريطانيا خارج الحرب . وتشرح يوميات هولدر حالة الفوهرر الفكرية وحالة بطانته في يوم ٢٦ آب الحاسم .

« هناك شائعات تقول بأن بريطانيا ميالة إلى درس اقتراح شامل . [١] وستعرف التفاصيل عند عودة هندرسون . وهناك شائعة ثانية تقول ان انكلترا تؤكد بأنها هي التي يجب ان تقرر بأن مصالح بولندة الحيوية مهددة . وفي فرنسا تتلقى الحكومة في كل يوم المزيد من الاحتجاجات على الحرب .

« أما خطتنا ... فهي اننا نريد دانزيغ ، ونريد ممراً داخل الرواق البولندي ، ونريد استفتاء على نفس الأسس التي تم فيها استفتاء السار . ومن المحتمل ان تقبل انكلترا . أما بولندة فلن تقبل . علينا ان نستغل هذا لإيقاع الشقاق بينهما » [٢] .

وكان هولدر هو الذي اكد على موضوع « إيقاع الشقاق » ، وليس ثمة من شك في ان هذا التأكيد يعكس إلى حدٍ ما ، ما كان يدور في خلد هتلر . فهو يريد ان يخلق فجوة بين بولندة وبريطانيا ، وان يقدم لتشمبرلين ذريعة يستخدمها للتحلل من تعهده لوارشو . وبعد ان اصدر أمره إلى الجيش بالاستعداد للزحف على بولندة في الاول من ايلول ، راح يترقب من لندن ان يسمع شيئاً عن عرضه الفخم « بضمان » الامبراطورية البريطانية .

وكان قد اجرى حتى الآن اتصالين بالحكومة البريطانية خارج نطاق السفارة

---

١ - اشارة الى عرض هتلر في الخامس والعشرين من آب بضمان « الامبراطورية البريطانية ».
٢ - يوميات هولدر بتاريخ ٢٨ آب (محاكمات كبار مجرمي الحرب (٧)ص ٥٦٤ - ٥٦٦).

الألمانية في لندن التي كان سفيرها « ديركسين » غائباً في اجازة ، والتي لم تلعب دوراً في المفاوضات المحمومة التي دارت في الساعة الحادية عشرة أي في الساعة التي سبقت الاخيرة . وكان احـــد هذين الاتصالين رسمياً تم عن طريق السفير هندرسون الذي طار الى لندن في طائرة المانية خاصة صباح السبت في السادس والعشرين من آب حاملاً اقتراحات الفوهرر . اما الاتصال الثاني فلم يكن رسمياً وانما تم بصورة سرية . وتبين فيما بعد انه مجرد عمل من اعمال الهواة وذلك عن طريق صديق غورنغ السويدي ، بيرغر داهليروس المشّائي (نسبة إلى الفلسفة المشّائية الاغريقية) الذي طار من برلين إلى لندن في اليوم السابق حاملاً رسالة الى الحكومة البريطانية من رئيس السلاح الجوي الألماني المشير غورنغ .

ولقد روى غورنغ فيما بعـــد اثناء استجوابه في محاكمات نورمبرغ انـه كان في ذلك الحين على اتصال بهاليفاكس ، بواسطة رسول خـــاص ، خارج نطاق الطرق الدبلوماتية العادية .[1] واتجه الرسول السويدي إلى وزير الخارجية البريطانية في لندن ، في الساعة السادسة والنصف من بعد ظهر الخامس والعشرين من آب . وكان غورنغ قد استدعى داهليروس من استوكهولم إلى برلين في اليوم السابق ، الذي ابلغه ان المانيا تريد «التفاهم» مع بريطانيا العظمى على الرغم من الميثاق النازي – السوفياتي الذي وقع في الليلة الفائتة . وقـــد وضع احدى طائراته تحت تصرف الرجل السويدي ليسارع إلى لنـــدن وينقل إلى اللورد هاليفاكس هذه الحقيقة البارزة .

وشكر وزير الخارجية الذي كان قد وقع قبل ساعة ميثاق المساعدة المتبادلة مع بولندة لداهليروس جهوده وابلغه ان هندرسون قد تحدث قبل قليل الى هتلر في

---

١ ـ استجواب غورنغ في ٢٩ آب ١٩٤٥ في نورمبرغ (المؤامرة النازية والعدوان (٨) ص ٣٤ ،) . وقد اكد غورنغ في هذا الاستجواب ان ريبنتروب لم يكن يعرف شيئاً عن ايفاد داهليروس ومضى يقول : « انني لم ابحث قط مسألة داهليروس مع ريبنتروب . ولم يكن هذا يعرف شيئاً عن ذهاب داهليروس وايابه متنقلاً بيني وبين الحكومة البريطانية » (محاكمات كبار مجرمي الحرب (٩) ص ٤٩٨) ولكن غورنـــغ كان يطلع هتلر اولا بأول على كل ما دار .

برلين وانه سيطير إلى لندن حاملاً اقتراحات الفوهرر الاخيرة ، كما ذكر له انه بالنظر إلى عودة الاتصال الرسمي بين لندن وبرلين ، فإنه لا يرى حاجـــة بعد لخدمات الوسيط السويدي . ولكن ما لبثت الاحداث ان برهنت على وجود الحاجة إلى هذه الخدمات . فقد هتف الرجل إلى غورنغ في ساعة متأخرة من تلك الليلة ليبلغه بما دار في اجتماعه مع هاليفاكس فأخبره المشير ان الوضع قد تردى نتيجة توقيع المعاهدة الانكليزية البولنـــدية . وان عقد مؤتمر يضم ممثلين من بريطانيا والمانيا هو السبيل الوحيد لانقاذ السلام . ولقد شهد هـــذا الرجل اخيراً امام محكمة نورمبرغ فذكر ان غورنغ كان يفكر كموسوليني في إمكان عقد اجتماع آخر كاجتماع ميونيخ .

وراح السويدي الذي لا يكل ولا يملّ يبلغ وزارة الخارجية البريطانية في ساعة متأخرة من تلك الليلة ، بما دار من حديث بينه وبين غورنغ ، واستدعى في الصباح التالي لمقابلة هاليفاكس مرة ثانية . وقد تمكن في هذه المرة من اقناع هاليفاكس بأن يبعث برسالة إلى غورنغ الذي وصفه بأنه الالماني الوحيد الذي يستطيع ان يحول دون نشوب الحرب . وكانت عبارات الرسالة ذات طابع عام ، وجاءت مختصرة ولا التزام فيها . وكل ما انطوت عليه التأكيد على رغبة بريطانيا في الوصول إلى تسوية سلمية وعلى الحاجـــة إلى « فترة بضعة ايام » لتحقيق هذه التسوية [1] .

---

١ – نشر نص الرسالة في كتاب (« وثائق عن سياسة بريطانية الخارجية – الحلقة الثالثة – المجلد السابع. الصفحة ٢٨٣). وقد حذفت هذه الرسالة من جميـــع السجلات البريطانية المطبوعة الى ان صدر المجلد المذكور في ١٩٥٤ ، مما اثار تعليقات الكثيرين من المؤرخـــين البريطانيين . ولم يرد ذكر داهليروس في الكتاب البريطاني الازرق عن الوثائق المتعلقة بنشوب الحرب ولا في تقرير هندرسون الاخير ولا حتى في كتابه « فشل بعثة » على الرغم من الاشارة اليه في الكتاب الاخير كمصدر على الاتصال بغورنغ» . ولكن اتضح من البرقيات التي بعث بها هندرسون وغيره من رجال السفارة البريطانية في برلين والتي نشرت مؤخراً ان نشاط داهليروس يحتل مكانة بارزة في هذه البرقيات كما يحتل مثل هذه المكانة في المذكرات المختلفة لوزارة الخارجية البريطانية .

وقد حافظت الويلهلمشتراسه ودوانغستريت تمام المحافظة على سرية الدور الذي لعبه هذا التاجر=

ومع ذلك فقد اعتبر المشير هذه الرسالة « في منتهى الاهمية » . وقد سلمه داهليروس اياها في ذلك المساء السادس والعشرين من آب وهـــو يستقل قطاره الخاص إلى مقر قيادة سلاحه الجوي في اورانينبرغ خارج برلين . فأمر بوقف القطار في المحطة التاليـــة ، واستقل مع السويدي سيارة راحت تنهـــب بهما الارض بسرعة الريح قاصدة دار المستشارية التي وصلاها عند منتصف الليل ، فرأيا الظلام يخيم على جميع جنباتها ، إذ كان هتلر قد مضى إلى فراشه . واصر غورنغ على إيقاظه من نومه . وكان داهليروس لا يزال يعتقد كالكثيرين غيره ، بأن هتلر رجل عاقل وانه قد يقبل بتسوية سلمية كتلك التي تلقاها قبـل عام في ميونيخ . وقدر للسويدي ان يواجه الآن ولأول مرة خيالات هذا الديكتاتور المهووس العجيبة وحدة سورته الشديدة . [1] وكانت التجربة بالنسبة اليه عنيفة كل العنف .

ولم يكترث هتلر بالخطاب الذي حمله داهليروس من هاليفاكس والذي بدا للمشير هاماً إلى الحد الذي حمله على ايقاظ الفوهرر في منتصف الليل. وراح هتلر يحاضر السويدي مدة عشرين دقيقة عن نضاله السابق والمآثر العظيمة التي حققها والمحاولات التي بذلها للوصول إلى تفـاهم مع البريطانيين . وعندما صدرت عن داهليروس عبارة تشير إلى انه قد عاش في انكلترا كعامل فترة من الزمن ،

=السويدي الفرد ، واتخذتاجراءات مشددة لاخفاء تنقلاتهعن الصحفيين والدبلوماتيين المحايدين الذين لم يعرفوا - كمااعتقد - اي شيء عنهاإلى انشهد داهليروس في نورمبرغفي التاسععشرمن آذار عام ١٩٤٦ ، وقد نشر كتابه « المحاولة الاخيرة » باللغة السويدية في عام١٩٤٥ بعد انتهاء الحرب ، لكن الترجمة الانكليزية لم تصدر إلا في عام ١٩٤٨ ، ولم تتأيد روايتهرسمياً إلابعد انتهاء الحرب ، في وثائق وزارة الخارجية البريطانية ، ولا تذكر وثائق وزارة الخارجية الالمانية شيئاً عن الرجل ، إلا في مذكرة عادية تتحدثعنتسلم رسالة منشركةطيران « لوفتهانزا» تفيد بوصول « داهليروس الموظف في وزارة الخارجية» إلى برلين في ٢٦ آب على متن احدىطائراتها. لكن اسمه ورد على أي حال في بعض الاوراق المتأخرة .

١ - استقيت هذا الوصف عن اعمال داهليروس من كتابـه ومن شهادته في نورمبرغ ، التي بينت ما كان يحملهمن آراء ساذجة عن اصدقائه الالمان . وهناك الكثير حول موضوع داهليروس ايضاً في وثائق وزارة الخارجية البريطانية - الحلقة الثالثة - المجلد السابع .

أخذ المستشار يسأله عن تلك الجزيرة الغريبة واهلها العجيبين الذين حاول طويلاً ان يفهمهم ولكن دون جدوى . وانتقل بعد ذلك الى محاضرة طويلة وفنية إلى حدٍ ما عن قوة المانيا العسكرية . وهنا فهم داهليروس ، كما روى فيما بعـد ان زيارته « قد فشلت » . ومع ذلك فقد اغتنم السويدي فرصة في النهاية ليتحدث الى مضيفه عن البريطانيين على النحو الذي عرفهم فيه :

« وراح هتلر يستمع إلي دون أن يقاطعني ... وفجـأة رأيته ينهض من مقعده ، وقد اشتد به الحماس وسيطرت عليه العصبيـة واخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، وهو يقول ، كأنه يحدث نفسه ، بأن ألمانيا قوة لا تغلب ولا تقاوم ... وفجـــأة وقف في وسط الغرفة وجمد في مكانه وهو يحملق في الفضاء . وكان صوته قـد بح الآن وبدا بتصرفاتـــه انساناً شاذاً كل الشذوذ . وكان يتحدث في عبارات قصيرة غير مترابطة قائلا :

« إذا وقعت الحرب ، فسأقوم ببناء غواصات ، اجل غواصات . غواصات . غواصات » وشرع صوته يخفت شيئاً فشيئاً إلى الحـد الذي لم يعد يسمع . وفجأة استعاد سيطرته على نفسه ، ورفع صوته وكأنه يخطب في حشد ضخم من السامعين ، وزعق قائلا : « وسأبني طائرات ... أجل طائرات . طائرات . طائرات . وسأقضي على خصومي قضاء مبرماً » . وخيل إلي ان الرجل أقرب إلى الشبح في كتب الاساطير ، منه إلى الانسان الواقعي . ورحت اتفرس فيه دهشاً ، وتطلعت إلى غورنغ لأرى رد فعله على هذه الظاهرة الغريبة ولكنه لم ينبس ببنت شفة . »

وخطا المستشار المتحمس اخيراً نحو ضيفه وقال : « يا هـر داهليروس ، هل تستطيع وانت الرجل الذي يعرف بريطانيا خير معرفة ان تبين لي السبب في فشلي المستمر في الوصول إلى اتفـــاق معها ؟ » ويعترف داهليروس في انه « تردد في البدايـــة » في الرد

ولكنه اجاب اخيراً بأنه يرى شخصياً ، ان السبب في ذلك يعود إلى الافتقار إلى الثقة به وبحكومته . »

ويروي داهليروس ان هتلر صرخ قائلا ، وهو يمـد يده اليمنى بقوة إلى الأمام ، ويضرب صـدره بيسراه : « يا لهم من حمقى ! هل كذبت يومـاً في حياتي ؟ »

وسرعان ما هدأ الديكتاتور النازي ، ودار النقاش عن اقتراحات هتـلر التي حملها هندرسون ، وتقرر اخيراً ان يطير داهليروس عائداً إلى لنـدن ، وهو يحمل عرضاً جديداً إلى الحكومة البريطانية . واعترض غورنغ على تقديم هذا العرض خطياً ، وقيل للسويدي الذي يعمل للتوفيق ، بأن عليه ان يعتمد على ذاكرته في حفظ هذا العرض الذي تألف من ست نقاط :

١ – ترغب المانيا في عقد ميثاق أو حلف مع بريطانيا .

٢ – على بريطانيا ان تساعد المانيا في الحصول على دانزيـغ والرواق البولندي ، مع السماح لبولندة بميناء حر في دانزيغ والاحتفاظ بميناء غيدينيا على ممر البلطيق وبرواق اليها .

٣ – تضمن المانيا الحدود البولندية الجديدة .

٤ – تستعيد المانيا مستعمراتها القديمة أو يعطى لها ما يعادلها .

٥ – تقدم الضمانات الكافية إلى الاقلية الالمانية في بولندة .

٦ – تتعهد المانيا بالدفاع عن الامبراطورية البريطانية .

وطار داهليروس ، وقد نقش هذه الاقتراحات في ذاكرته إلى لندن صباح الاحد في السابع والعشرين من آب ، وفي الساعات المبكرة من بعـد الظهر ، ادخل من طريق ملتوية وخفية إلى حضرة تشمبرلين مخافـة اعين المراسلين الصحفيين المتلصصة ، وكان في رفقته اللورد هاليفاكس والسير هوراس ويلسون والسير اليكزاندر كادوغان . وكان من الواضح ان الحكومة البريطانية اخذت تحمل الآن الرسول السويدي على محمل الجد .

وحمل الرجل معه نقاطاً دوّنها بسرعة وهو في الطائرة يشرح فيها مقابلته

لهتلر ، وغورنغ في الليلة الفائتة . وقد اكد في هذه النقاط التي دونها الرجلين البارزين في الحكومة البريطانية اللذين اخــذا ينعمان النظر في مذكرته ، بأن هتلر كان طيلة المقابلة « هادئــاً وثبت الجنان » . وعلى الرغم من ان وثائق وزارة الخارجية البريطانية لا تضم أي تسجيل لهذا الاجتماع الطارىء في عطلة الاحد ، إلا ان وصفه قد أدرج في المجلد الذي اصدرته وزارة الخارجية (المجلد السابع—الحلقة الثالثة) استناداً إلى البيانات التي قدمها كل من اللورد هاليفاكس وكادوغان وإلى مذكرة الرسول نفسه . لكن الرواية البريطانيـــة تختلف على أي حال بعض الاختلاف عن رواية داهليروس في كتابه وفي شهادته في نورمبرغ، ولكن في وسعنا ان نقول ان القصة التي سأسردها الآن « دقيقـة إلى حد كبير على ضوء الروايات المتعددة التي توليت جمعها ومقارنتها وغربلتها ».

وادرج تشمبرلين وهاليفاكس على الفور انهما يواجهان مجموعتين مختلفتين من اقتراحات هتلر ، اولاهما تلك التي حملها هندرسون وثانيتهما هذه التي حملها داهليروس الآن ، وان هاتين المجموعتين مختلفتان كل الاختلاف . إذ بينما تقترح الأولى ان يضمن هتلر الامبراطورية البريطانية بعد تصفية الحساب مع بولندة ، تبدو الثانية وكأنها تعرب عن استعداد الفوهرر للتفاوض عن طريق بريطانيا لاستعادة دانزيغ والرواق ، وانه بعد ذلك « سيضمن » حدود بولندة الجديدة. وكان هذا القول بمثابة « لازمة » قديمة خبرها تشمبرلين بعد تجاربه المريرة مع هتلر في موضوع تشيكوسلوفاكيا ، ولذا فقـد ظل كثير الشكوك في عرض الفوهرر الذي حمله داهليروس . وراح يقول للسويدي « انه لا يرى امــلاً في الوصول إلى تسوية على أساس هذه الشروط ، وان البولنديين قد يسلمون بدانزيغ ولكنهم يؤثرون الحرب على التفريط بالرواق . »

واتفق اخيراً على أن يعود داهليروس فوراً إلى برلين حاملاً رداً اولياً وغير رسمي إلى هتلر ، وان يعود إلى لندن لينقل اليها رد فعل هتلر على هذا الجواب، قبل ان تبعث الحكومة البريطانية إلى برلين بردها الرسمي مع هندرسون في الليلة المقبلة. وتذكر الرواية البريطانية ان هاليفاكس قال : « ان القضايا قد تكون

مرتبكة بعض الارتباك ، وفيها بعض التشويش نتيجة هذه الاتصالات السرية واللارسمية عن طريق داهليروس . ولذا فقد كان من الافضل ، الايضاح بأن داهليروس لن يحمل عند عودته إلى برلين تلك الليلة رد حكومة جلالته ، وانما يمهد الطريق للاتصال الرسمي، الذي سيحمله هندرسون معه في اليوم التالي . [١]

وهكذا بات الرجـــل السويدي المغمور رغم بروزه كرجل اعمال ، ذا مكانة كوسيط في المفاوضات الدائرة بين حكومتي أقوى دولتين في أوروبا، إلى الحد الذي مكنه حسب روايته هو ، من ان يقترح على رئيس الوزراء ووزير الخارجية في هذه المرحلة العصيبة بأن « يستبقيا هندرسون في لندن حتى اليوم التالي – الاثنين – فيضمنا بذلك ان يكون ردهما ، على ضوء ما يحمله اليهما من معلومات عن موقف هتلر من وجهة النظر البريطانية » [٢] .

ولكن ما هي وجهة النظر البريطانية التي تقرر ان يعرضها داهليروس على هتلر ؟ هناك غموض حول هذا الموضوع نتج عن التناقض في الروايات . وكانت وجهة النظر البريطانية كما دونها هاليفاكس في مسودة ملاحظات عن التعليمات الشفوية التي اصدرها إلى داهليروس على النحو التالي :

« التأكيد تأكيداً قاطعاً بوجود رغبة في قيام تفاهم طيب بين المانيا وبريطانيا العظمى . وليس ثمة في الحكومـــة البريطانية من يرى عكس هذا الرأي ، ولكن بريطانيا عازمة عزماً قاطعاً على الوفاء بالتزاماتها لبولنـدة . ومن الواجب حل الخلافات القائمة بين المانيا وبولندة حلاً سلمياً » [٣] .

أما داهليروس فيقول ان الرد البريطاني اللارسمي الذي كلف بنقله إلى المانيا كان أوسع شمولاً :

« رفضت بريطانيا بالطبع النقطة السادسة من الاقتراحات التي

---

١ – وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٧) ٢٨٧ .

٢ ـ محاكمات كبار مجرمي الحرب ـ شهادة داهليروس ـ (٩) ص ٤٦٥ .

٣ ـ وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٧) ص ٣١٩ .

عرض فيها هتلر الدفـاع عن الامبراطورية البريطانية . ولم يكن المسؤولون البريطانيون على استعداد كذلـــك للبحث في موضوع المستعمرات طالما ان المانيا في حالة تعبئة عامة . أمـــا بالنسبة إلى الحدود البولندية فهم يريدون ان تتولى الدول الدول العظمى الخمس ضمانتها. واقترحوا بالنسبة إلى الرواق، إجراء مفاوضات فورية مع بولندة ، أما بالنسبة إلى النقطة الأولى ، فإن انكلترا زاغبة مبدئياً في الوصول إلى اتفاق مع المانيا »[1]

وطار داهليروس عائداً إلى برلين مساء يوم الاحد وقابل غورنغ قبيل منتصف الليل . ولم يعتبر المشير الرد البريطاني « مرضياً كل الرضى » ولكنه بعد ان قابل هتلر عند منتصف الليل ، عاد يهتف إلى داهليروس من فندقه في الساعة الواحدة صباحاً ليبلغه ان المستشار على استعداد «لقبول وجهة النظر البريطانية» شريطة ان يحملها هندرسون اليه مساء الاثنين بصورة رسمية .

وسرّ غورنغ لهذا التحول سروراً بالغاً، كما ارتاح اليه داهليروس أشد ارتياح وايقظ السويدي السير جورج اوغيلفي فوربس ، مستشار السفارة البريطانيـة في الثامنة صباحاً لينقل اليه الانباء السارة . ولم يكتف بذلك ، وانما رأى انه بات في مكانة رفيعة تمكنه من الاشارة على الحكومة البريطانية بما يجب عليها ان تقوله في ردها الرسمي. فقد اصر على ان تتضمن المذكرة التي سيحملها هندرسون في ساعة متأخرة من ذلـــك اليوم الاثنين في ٢٨ آب ، تعهداً من الحكومة البريطانية بالعمل على اقناع بولندة بالتفاوض مع المانيا مباشرة وفوراً .

وتقول البرقية التي بعث بها فوربس في الثامن والعشرين من آب إلى حكومته :

« هتف لي داهليروس قبل لحظات من مكتب غورنغ حاملاً إليّ الاقتراحات التالية التي يعتبرها متناهية في الاهمية :

« ١ - يجب أن لا يتضمن الرد البريطاني أية اشارة إلى مشروع

---

١ - محاكات كبار مجرمي الحرب (٩) ٤٦٦ .

روزفلت [1] .

« ٢- يخشى هتلر ان يحاول البولنديون تنكب سبيل المفاوضات ولذا يجب ان يتضمن الرد بيانـاً واضحاً بأن الحكومة البريطانية نصحت بولندة نصحاً حازمـاً بأن تقيم الاتصال الفوري مع المانيا وان تتفاوض معها » [2] .

ولم يكتف السويدي الذي بات الآن واثقاً من نجاح مهمته بكيل النصائح على فوربس الذي راح يبرق بها إداء لواجبه إلى لندن ، بل هتف شخصياً إلى وزارة الخارجية البريطانية ليبلغها رسالة منه إلى هاليفاكس تتضمن اقتراحات أُخرى.

وليس ثمة من شك في ان هذا الدبلوماتي السويدي الهاوي قـــد غدا في هذه اللحظة العصبية من تاريخ العـالم المحور الذي تدور حوله الاتصالات بين برلين ولندن ، وفي الساعة الثانيـــة من بعد ظهر الثامن والعشرين من آب ، ابرق هاليفاكس الذي كان قد تلقى آخر الانبـــاء من سفارته في برلين ومن هاتف داهليروس إلى وزارته في لندن ، إلى سفيره في وارشو السير هوارد كينارد يطلب اليه مقابلة وزير الخارجية بيك « فوراً » وان يحمله على تخويل الحكومة البريطانية الحق في ابلاغ هتلر « بأن بولندة على استعداد للدخول فـــوراً في مفاوضات مباشرة مع المانيا » . وهكذا كان وزير خارجية بريطانيا على عجلة من امره . فهو يريد ان يضمن هذه المعلومات في الرد الرسمي إلى هتلر ، الذي كان هندرسون ينتظر حمله عائـــداً الى برلين في ذلك اليوم نفسه . ونصح هاليفاكس سفيره في وارشو بأن ينقل رد بيك هاتفياً . وبالفعل خوّل بيك

---

١ - الاشارة هنـــا الى رسالتي الرئيس روزفلت الى هتلر في الرابع والعشرين والخامس والعشرين من آب اللتين تضمنتا حثه على التفاوض المباشر مع بولندة .

٢ - من الانصاف ان نشير هنا الى ان داهليروس لم يكن شديد الميل الى المانيا على النحو الذي تظهره فيه رسائله. فقد هتف عشية يوم الاثنين وبعد ساعتين من الحديث الى غورنغ من مقر قيادة السلاح الجوي في اورانينبرغ ، الى فوربس ليبلغه ان الجيش الالماني سيكون في وضـــع المتأهب نهائياً لغزو بولندة ليلة الاربعاء-الخميس في ٣٠ - ٣١ آب » . وقد ابرق فوربس بهذه المعلومات فوراً الى لندن . (وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٧) ص ٣٢١ - ٣٢٢) .

الحكومة البريطانية نقل هذا « الاستعداد »الى المانيا فأدرج التخويل في المذكرة البريطانية [1] .

ووصل هندرسون إلى برلين حاملاً الرد مساء الثامن والعشرين من آب ، وبعد ان استقبل أمام دار المستشارية استقبالاً رسمياً – اذ حافظت الحكومة الألمانية على الاعراف الدبلوماتية حتى النهاية – وادت له التحية ثلة من حرس الشرف النازي مصحوبة بعزف الموسيقى ، أدخل فوراً إلى مكتب هتلر ، ليسلمه الترجمة الالمانية للمذكرة ، وذلك في الساعة العاشرة والنصف مساء .

نقلت المذكرة اتفاق بريطانيا الكامل مع هتلر على وجوب البدء بالتسوية للخلافات القائمة بين المانيا وبولندة . لكن كل شيء يتوقف على طبيعة التسوية وعلى الطريقة التي ستتبع في الوصول اليها . وراحت المذكرة تقول ان المستشار لم يشر إلى هذه النقطة ابداً . ورفضت المذكرة رفضاً لطيفاً « الضمانة » التي قدمها هتلر للامبراطورية. واضافت ان الحكومة البريطانية « لا تستطيع في سبيل الحصول علي أي نفع ان تقبل بتسوية تعرض استقلال دولة تعهدت بضمانتها إلى الخطر » .

وستحترم بريطانيا تلك الضمانة ، ولكن « حفاظ » بريطانيا على التزاماتها لبولندة يجب ان لا يحمل المستشار على محمل العزوف عن الرغبة في الوصول إلى تسوية معقولة . ومضت المذكرة تقول :

« ومن هذا يتبين ان الخطوة التالية يجب ان تتمثل في البدء بمفاوضات مباشرة بين الحكومتين الألمانية والبولندية ، على اساس الحفاظ على مصالح بولندة الاساسية ، وتثبيت دعائم التسوية عن طريق ضمانة دولية .

« وقد تلقت الحكومة البريطانية تأكيداً حاسماً من الحكومة البولندية بأنها على استعداد كامل للشروع في مباحثات على هذا الاساس ، وتأمل حكومة جلالته في ان توافق الحكومة الالمانية

---

١ ـ الكتاب البريطاني الازرق ص ١٢٥.وثائق وزارة الخارجية البريطانية(٧) ص٣١٨.

على السير في هذا المخطط ...

« وقد تمهد التسوية العادلة بين المانيا وبولندة الطريق إلى تحقيق السلام العالمي . أما الفشل في الوصول اليها فيعرض الآمال القائمة في إيجادالتفاهم بين المانيا وبريطانيا العظمى إلى الانهيار، ويخلق النزاع بين البلدين وقد يقود العالم بأسره إلى هاوية الحرب . ولا ريب في ان مثل هذا التطور سيكون بمثابة كارثة لامثيل لها في التاريخ [1] »

وعندما فرغ هتلر من قراءة المذكرة ، أخذ هندرسون في تفصيـل نقاطها مستنداً على ملاحظات قـال انه دونها أثناء محادثاته مع تشمبرلين وهاليفاكس . وروى السفير فيما بعد، ان مقابلته هذه مع هتلر كانت الوحيدة التي تولى هو دفة الحديث طيلة وقتها . وكانت زبدة حديثه ان بريطانيا راغبة في صداقة المانيا وانها تريد السلام ، ولكنها ستحارب إذا هاجم هتلر بولندة . ولم يستطع الفوهرر المضي في صمته فرد مفيضـــاً في الحديث عن جرائم بولنـدة ، وعن العروض « السخية » التي قدمها لإجراء تسوية سلمية معها ، والتي لن يعود الى تكرارها . وهو لن يقبل اليوم في الحقيقة ، « بأقل من عودة دانزيغ والرواق البولندي بكامله ، وتصحيح الاوضاع » في سيليزيا التي «اقترع تسعون فيالمائة من اهلها الى جانب المانيا في الاستفتاء الذي جرى بعد الحرب » . لكن هذا القول كان يفتقر الى الصحة ،وكذلك ادعاء هتلر بعد لحظات بأن مليوناً من الالمان قد اخرجوا من الرواق بعد عام ١٩١٨ . فالاحصاءات الألمانية الرسمية في عـــام ١٩١٠ تشير الى وجود (٣٨٥) الفاً من الألمـــان هناك . ولكن الديكتاتور النازي كان ينتظر من الجميع تصديق أكاذيبه . وقـــد ابتلع السفير البريطاني الكثير من هذه الأكاذيب إبان المهمة الاخيرة التيقام بها في عهد « بعثته المحطمة» إذ أعلن في « تقريره الاخير » أن « الهر هتلر كان في هذه المقابلة ودوداً ثانية ومعقولاً ، وبدا وكأنه راض عن الرد الذي حملته اليه . »

---

١ ـ نص المذكرة البريطانية الى المانيـــا في ٢٨ آب ـ الكتاب البريطاني الازرق . ص ١٢٦ ـ ١٢٨ .

وابرق هندرسون في الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والثلاثين من صباح التاسع والعشرين من آب الى لندن برقية مطولة يصف فيها هذه المقابلة بقوله :[1]

« ووجهت اليه في النهاية سؤالين صريحين : هل هو على استعداد للتفاوض مباشرة مع البولنديين ، هل هو على استعداد للبحث في قضية تبادل السكان ؟ وقد رد بالايجاب على السؤال الثاني ، وان كنت لا اشك في انه كان يفكر في نفس الوقت في موضوع تعديل الحدود » .

أما بالنسبة إلى النقطة الاولى فهو يود ان يدرس المذكرة البريطانية اولاً « دراسة وافية » . وهنا التفت هتلر الى وزير خارجيته ريبنتروب – كما روى هندرسون – وقال له : « يجب ان نستدعي غورنغ لنبحث معه هذا الموضوع » ووعد هتلر بتقديم رد مكتوب إلى الحكومة البريطانية على مذكرتها في ٢٩ آب.

واكد هندرسون في برقيته إلى هاليفاكس ان « الحديث دار في جو ودي للغاية على الرغم من الصلابة المطلقة من الجانبين » ، ويبدو ان السفير على الرغم من تجاربه الشخصية الكثيرة مع مضيفه لم يفهم السبب الذي حمل هتلر على اضفاء هذا الجو من الود على المقابلة . فلقد كان لا يزال مصمماً على المضي الى الحرب في نهاية ذلك الاسبوع ضد بولندة ، وكان لا يزال يأمل رغم جميع تأكيدات هندرسون وحكومته ، في الابقاء على بريطانيا خارج نطاقها .

ويبدو ان هتلر وقد شجعه وزير خارجيته الخنوع والجاهل، لم يستطع ان يصدق ان بريطانيا تعني حقاً ما تقول ، وان كان يقول بأنه يصدق قولها .

واضاف هندرسون في اليوم التالي ملحقاً لبرقيته الطويلة جاء فيه :

« واصر هتلر على انه لا « يبلف » وان كل من يفكر بأن ما يقوله مجرد بلف يخطىء أكبر الخطأ . ورددت عليه بأننا نعرف هذه الحقيقة ، واننا لا نبلف بدورنا واقر هتلر بأنه يعرف هذا

---

١ – برقية هندرسون الى هاليفاكس في الساعة ٢٫٣٥ من صباح ٢٩ آب . وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٧) ص ١٢٨ - ١٣١.

تمام المعرفة » [1] .

لقد زعم انه يعرف هذه الحقيقة ولكن هل كان حقاً يعرفها ؟ ففي الرد الذي بعث به في التاسع والعشرين ، حاول عامداً متعمداً خداع الحكومة البريطانية بطريقة لا بد وان يكون قد فكر بها طويلاً ، وخيل اليه انها ستمكنه من الحصول على ما يريد .

وقد خلق الرد البريطاني والانطباع الاول الذي تركه عند هتلر موجة دافقة من التفاؤل في برلين ولا سيما في معسكر غورنغ حيث كان داهليروس ، الرجل الذي لا نظير له ، يقضي معظم اوقاته في هذه الفترة . وتلقى السويدي في الساعة الواحدة والنصف من صباح التاسع والعشرين من آب هاتفاً من دار المستشارية وكان المتكلم أحد مرافقي غورنغ الذي كان يشترك مع هتلر وريبنتروب آنذاك في بحث المذكرة البريطانية بعد ان غادر هندرسون دار المستشارية . وكان ما قاله هذا الصديق الالماني لداهليروس ، هو ان الرد البريطاني « مرض للغاية ، وان ثمة أملاً كبيراً في ان خطر الحرب قد زال . »

ونقل داهليروس الانباء السارة عن طريق الهاتف إلى وزارة الخارجية البريطانية في وقت لاحق من ذلك الصباح ، مبلغاً هاليفاكس ان « هتلر وغورنغ يعتبران ان ثمة احتمالاً في الوصول الى تسوية سلمية » . واجتمع داهليروس الى غورنغ في الساعة العاشرة والدقيقة الخمسين صباحاً ، وحيَّاه هذا تحية حارة ، شاداً على يده بقوة وهو يقول . « سيكون هناك سلام ! لقد اصبح السلام مضموناً ! » وتسلح الرسول السويدي بهذا التأكيد المفرح ، ومضى لتوه إلى السفارة البريطانية لينقل إلى هندرسون الذي لم يكن قد تعرف اليه بعد هذه «الانباء السارة » . وتقول برقية السفير التي وصف فيها هذه المقابلة ، ان داهليروس ابلغه بأن الالمان متفائلون كل التفاؤل ، وانهم «متفقون» مع «النقطة الرئيسية » في الرد البريطاني . وقال داهليروس ان هتلر يطلب الآن دانزيغ والرواق (فقط) واضاف ان هذا الرواق الذي يطالب به الألمان الآن قد تقلص

---

١ ـ رسالة هندرسون ٢٩ آب . وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٧) ص ١٣١ .

ليشمل ممراً صغيراً محاذياً طريق السكة الحديدية إلى دانزيغ ليس إلا . وذكر السويدي ان الفوهر في الحقيقة كان على استعداد لأن يغدو « معقولاً إلى حد كبير . وانه سيمضي بعيداً في الطريق لمقابلة البولنديين في منتصفها » [1]

لكن هندرسون ، الذي بدأت عيناه تنفتحان اخيراً ، لم يكن واثقاً كل الثقة من هذا التفاؤل ، فقال لزائره - كما روى هذا فيما بعد - انه لا يستطيع تصديق كلمة واحدة تصدر عن هتلر ، وان هذا الوضع ينطبق ايضاً على تصديقه هيرمان غورنغ الذي كذب على السفير « عشرات المرات » واضاف انه يرى ان هتلر يلعب الآن لعبة تفتقر إلى الصدق وتتسم بالقسوة .

ولم يكن من السهل على السويدي الذي بات الآن في خضم الاحداث ، ان يقتنع بما قـــاله السفير ، لاسيما وان يقظته تأخرت طويلاً عن يقظة هندرسون ووعيه للحقيقة . ولكي يضمن ان لا يؤدي تشاؤم السفير الذي لا يمكن وصفه إلى احباط محاولاته ، راح من جديد يهتف إلى وزارة الخارجية البريطانية في الساعة السابعة والدقيقة العاشرة من مساء اليوم ، ناقـــلاً رسالة إلى هاليفاكس تؤكد ان « الرد الالماني لن ينطوي على أيـــة متاعب » . واضاف انه ينصح الحكومة البريطانية بأن تحمل البولنديين على « ان يسلكوا سلوكاً طيباً » [2]

ووصل هندرسون في الساعة السابعة والدقيقة الخامسة عشرة - أي بعـــد خمس دقائق من رسالة السويدي الهاتفية - إلى دار المستشارية ليتسلم من الفوهرر رد المانيا الرسمي . وسرعان ما اتضح له ما في تفاؤل غورنغ وصديقه السويدي من خواء وسخف . فقد روى هندرسون لوزير خارجيته فوراً « ان المقابـــلة كانت عاصفة للغاية وان الهر هتلر كان بعيداً للغاية عن العقل والمنطق . »

ولقد عادت المذكرة الألمانية الخطية الرسمية إلى التأكيد من جديـد على رغبة الرايخ في صداقة بريطانيـــا العظمى ولكنها اضافت ان هذه الرغبة « لا يمكن تحقيقها على حساب التخلي عن مصالح المانيا الجوهرية » . وبعـــد سرد

---

١ — برقية هندرسون في ٢٩ آب - وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٧) ص ٣٦٠ .
٢ — وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٧) ص ٣٦١ .

مسهب ومألوف للمساوىء والاستفزازات و «الجرائم البربرية الصارخة إلى السماء » التي ارتكبها البولنديون ، عرضت المذكرة خطياً ولأول مرة بصورة رسمية مطالب هتلر التي تتلخص في عودة دانزيغ والرواق وحماية الالمان في بولندة. وراحت تضيف قائلة: «ولم يعد الأمد الذي يجب ان تصحح فيه الاوضاع الراهنة يقاس بالايام أو الاسابيع بل بالساعات ليس إلا . »

ومضت المذكرة تقول ان المانيا لا تستطيع ان تشترك مع بولندة في رأيها بإمكان الوصول إلى حل عن طريق المفاوضات المباشرة مع بولندة؛ ولكن رغبة منها « فقط » في ارضاء الحكومة البريطانية ، وحرصاً على خلق الصداقة بينها وبين انكلترة ، تريد « ان تقبل بالاقتراح البريطاني وان تدخل في مفاوضات مباشرة ، أما بالنسبة إلى أية تسويات إقليمية في بولندة فإن الحكومة الألمانية لا تستطيع تقديم أية ضمانات إلا بعد موافقة الاتحاد السوفياتي » . (ولم تكن الحكومة البريطانية بالطبع تعرف شيئاً عن الملحق السري للميثاق النازي – السوفياتي الذي قضى باقتسام بولندة) . واعلنت المذكرة قائلة : « اما بالنسبة إلى ما يتبقى ، فإن الحكومة الالمانية في تقديمها لاقتراحاتها ، لم تكن تفكر قط ، بالمساس بمصالح بولندة الحيوية أو بالتشكيك في وجود الدولة البولندية المستقلة . »

وأخيراً راحت المذكرة تنصب الشرك الذي اراده هتلر ، فقالت :

« وتوافق الحكومة الالمانية تبعاً لذلك على القبول بعرض الحكومة البريطانية لوساطتها في ان ترسل بولندة إلى برلين رسولاً تزوده بالصلاحيات الكاملة متوقعة وصول هذا المبعوث يوم الاربعاء في الثلاثين من آب عام ١٩٣٩ .

« وستقدم الحكومة الألمانية اليه فوراً اقتراحاتها لإيجاد حل مقبول ، وهي على أتم استعداد لوضع هذه الاقتراحات تحت تصرف الحكومة البريطانية قبل وصول المفاوض البولندي » [١]

– نص الرد الالماني في ٢٩ آب – الكتاب البريطاني الازرق . ص ١٣٥ – ١٣٧ .

وراح هندرسون يقرأ المذكرة ، بينما يرقبه هتلر وريبنتروب دون ان يقول شيئاً إلى ان وصل إلى الفقرة التي تقول بأن الالمـــان ينتظرون وصول المبعوث البولندي المزود بالصلاحيات الكاملة في اليوم التـــالي ، فقال معلقاً : « يبدو هذا التعبير على شكل إنذار نهـائي » ولكن هتلر وريبنتروب راحا ينفيان هذا التفسير ، وقالا انهما ارادا فقط التأكيد على « حراجة الوضع ، عندما يقف جيشان معبئان تعبئة كاملة أمام بعضهما وجهاً إلى وجه . »

وسأل السفير وهو يتذكر ولا شك الطريقة التي استعملت في استقبال كل من شوشنيغ وهاشا، عما إذا كان « المفوض » البولندي « سيستقبل استقبالاً حسناً » وعما اذا كانت المحادثات ستدور على قدم المساواة .

ورد هتلر قائلاً : « بالطبع هذا ما سيحدث . »

وتلت ذلك مناقشة حادة استفزتها ملاحظـــة « لامسوّغ لها » – على حد تعبير السفير – اوردها هتلر عندما قال ان السفير « لا يكترث قيد أنملة » بالعدد الوافر من الألمـــان الذين يذبحون في بولندة . وذكر السفير انـــه رد على هذه الملاحظة رداً حامياً وقاسياً [1] .

وكتب هندرسون في مذكراته فيما بعـد يقول : « وتركت دار المستشارية تلك الليلة وانا في غاية التشاؤم » . ولكنه لم يذكر شيئاً من هـــذا القبيل في البرقيات التي بعث بها تلك الليلة إلى لندن ، وكان هتلر قد قال له : « وجنودي يسألونني الآن : انحن في سبيل ذلك أم لا ؟ » . لقد اضاعوا اسبوعاً حتى الآن وليس في استطاعتهم إضاعة اسبوع آخر « مخافة ان يضاف الطقس الماطر في بولندة إلى قائمة اعدائهم . »

ولكن السفير كما يبدو من تقاريره الرسمية ومن كتابه ، لم يفهم طبيعة الشرك

---

١ – ابرق هندرسون الى هاليفاكس في اليوم التالي يقول : « وشرعت ارفع صوتي فوق هتلر ... واخذت ازعق بكل ما لدي من حول » (وثائق وزارة الخارجية البريطانية – الحلقة الثالثة (٧) ص ٣٩٣) . ولم يرد ذكر لهذا التنافس بين الامزجة الحادة في الوثائق البريطانية السابقة .

الذي نصبه هتلر ، حتى اليوم التالي ، عندمـــا نصب شركاً آخر ، واتضحت خدعة الفوهرر . ولا ريب في ان لعبـــة الديكتاتور تبدو واضحة من نص مذكرته الرسمية . فلقد طلب عشية التاسع والعشرين من آب وصول مبعوث بولندي يحمل الصلاحيات الكاملة للتفاوض إلى برلين في اليوم التالي . وليس ثمة من شك في انه كان يفكر بمعاملته على النحـــو الذي عامل به مستشار النمسا ورئيس تشيكوسلوفاكيا ، إذ انه رأى ان الظروف متماثلة في الحالات الثلاث . ولو رفض البولنديون ، وهو يتوقع هـذا الرفض ان يبعثوا بمندوبهم على جناح السرعة إلى برلين ، أو لو رفض هــــذا المفاوض قبول شروط هتلر ، فإن اللوم سيقع على عاتق بولندة في رفضها الوصول إلى « تسوية سلمية » ، وقد يكون في مكنته إقناع بريطانيا وفرنسا بعدم الإسراع الى مساعدتها عندما تهاجم . انه شرك ساذج ، ولكنه بسيط وواضح [1].

ولكن هندرسون لم يتميّز هذا الشرك بوضوح ليلة التاسع والعشرين من آب وكان وهو لا يزال يعد البرقيات التي سيبعث بها إلى لندن شارحاً مقابلته لهتلر ، قد دعا السفير البولندي إلى مقابلته في دار السفارة البريطانية . وراح يفضي اليه بمحتويات المذكرة الالمانية وبما دار بينه وبين هتلر من حديث ، مؤثراً عليه كما روى هو نفسه « ومقنعاً إياه بضرورة العمل فـوراً . وقد رجوته حرصاً على مصلحة بولندة نفسها ان يحث الحكومة البولندية ان تعيّن دون ابطـاء مبعوثاً يمثلها في المفاوضات المقترحة »[2] .

وكان التفكير في وزارة خارجية لندن اكثر صفاء . فقد بعثت الوزارة في الساعة الثانية من صباح الثلاثين من آب بعد دراسة الرد الالماني والتقرير الذي

---

١ – اجمل الفريق هولدر لعبة هتلر في يوميته التي كتبها في التاسع والعشرين من آب إذ قال : « يأمل الفوهرر في ان يدق اسفيناً بين البريطانيين والفرنسيين والبولنديين . وكانت خطته ان يثير ستاراً من الطلبات الاحصائية الديموغرافية والديموقراطية .... فقد يصل البولنديون الى برلين في الثلاثين من آب ، وتتحطم المفاوضات في الواحد والثلاثين ونبدأ في استخدام القوة في الاول من ايلول » .

٢ – هندرسون – فشل بعثة . ص ٢٨١

بعث به هندرسون عن مقابلته هتلر، برقية إلى سفيرها تقول فيها انها على الرغم من رغبتها في إيلاء المذكرة الألمانية كل عناية واهتمام، إلا انها « ترى مما يجفو المنطق ان ينتظر المرء منا إيفاد ممثل بولندي إلى برلين اليوم، ولذا فعلى الحكومة الألمانية ان لا تتوقع مثل هـــذا التطور » . [1] وكان الدبلوماتيون وموظفو وزارة الخارجية يواصلون العمل المحموم طيلة ساعات اليوم، وتولى هندرسون نقل الرسالة إلى الويلهمشتراسه في الساعة الرابعة والنصف صباحاً .

ونقل السفير أربـع رسائل أخرى وردته من لندن في ذلك اليوم الثلاثين من آب . وكانت الأولى منها رسالة شخصية من تشمبرلين إلى هتلر، يذكر له فيها ان الحكومة البريطانية تدرس الرد الألماني « بمنتهى السرعة » وانها سترد عليـه في ساعات بعد الظهر . وحث رئيس الوزراء الحكومة الألمانية في غضون ذلك كما حث الحكومة البولندية على تجنب حوادث الحدود . أما بقية الرسالة، فقـــد انطوت على الترحيب بالدلائل البادية « في الرسائل التي يجري تبادلها على وجود الرغبة في تفاهم انكليزي - الماني » . [2] وكانت الرسالة الثانية مماثلة للأولى ولكنها من هاليفاكس . وتحدثت الرسالة الثالثة وهي من هاليفاكس ايضاً عن التقارير التي وصلت لندن عن اعمال التخريب الألمانية في بولندة، وطلبت من الألمان الامتناع عن مثل هذه الاعمال . وعكست الرسالة الرابعة التي بعث بها هاليفاكس ايضاً في الساعة السادسة والدقيقة الخمسين من مساء اليوم نفسه تصلباً من جانب وزارة الخارجية والسفير البريطاني في برلين .

وكان هندرسون بعد طويل امعان في كل ما وقع، قـــد بعث إلى لندن في ساعة مبكرة من النهار بالبرقية التالية :

« في الوقت الذي ما زلت فيه أوصي الحكومة البولندية بهضم هذه المحاولة التي تجري في الساعة قبل الاخيرة، لإقامـــة اتصال

---

١ - الكتاب البريطاني الازرق ص ١٣٩

٢ - نص مذكرة تشمبرلين الى هتلر في ٣٠ آب (وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٧) ص ٤٤١) .

مباشر مع هتلر ، حتى ولو كان ذلك بقصد اقناع العـــالم بأنها على استعداد للقيام بتضحياتها المحفاظ على السلام ، يستطيع المرء ان يستخلص من الرد الالماني رغبة هتلر وتصميمه على تحقيق اهدافه بما يسميه الوسائل السلمية العادلة إن امكن أو بالقوة إذا عجز عن ذلك . » [١]

ولم يكن أحد ، حتى هندرسون نفسه ،يستطيع الآن ان يهضم «ميونيخاً» ثانية ، أما البولنديون فلم يكونوا قد فكروا حتى بمجرد تفكير بمثل ذلك، بالنسبة اليهم . وكان السفير البريطاني في وارشو قد أبرق في الساعة العاشرة من صباح الثلاثين من آب إلى هاليفاكس يبلغه « استحالة اقناع الحكومة البولندية بإرسال المسيو بيك أو أي مبعوث آخر إلى برلين فـــوراً للبحث في تسوية على الاسس التي اقترحها هتلر . فهم يؤثرون ان يقاتلوا وأن يفنوا عن بكرة ابيهـــم على الإذعان لمثل هذا الاذلال ولاسيا بعد ما وقـــع لتشيكوسلوفاكيا وليتوانيا والنمسا » . واضاف مقترحاً ان تجري المفاوضات في بلاد محايدة ، إذاقصد منها ان تكون « بين انداد » [٢]

وهكذا تعزز ميل هاليفاكس إلى التصلب بالبرقيات التي تلقاها من سفيريه في برلين ووارشو ، فراح يبرق الى هندرسون بأن الحكومة البريطانية لاتستطيع ان « تنصح »البولنديين بالإذعان لطلب هتلر في إيفاد مبعوث يحمل الصلاحيات المطلقة الى برلين . واضاف وزير الخارجيـــة ان مثل هذه النصيحة « غـــير معقولة » مطلقاً . . . ثم قال :

« فهل في مكنتك ان تقترح على الحكومة الألمانية اتباع الاجراء المألوف ، وهو ان تدعو السفير البولندي ، بعد استكمالها إعـداد اقتراحاتها ، لتسلمه إياها ، حيث يتولى نقلها إلى وارشو ، طالباً اليها

١ ـ الكتاب البريطاني الازرق ص ١٣٩ ـ ١٤٠
٢ ـ الكتاب البريطاني الازرق . ص ١٤٠

اقتراحاتها بصدد السير في المفاوضات » [1].

وسلم الرد البريطاني الموعـود على مذكرة هتلر الاخيرة الى ريبنتروب عن طريق هندرسون عند منتصف ليـلة ٣٠ - ٣١ آب . وعقب ذلك اجتماع دراماتيكي للغاية ، وصفه الدكتور شميدت ، الذي كان المراقب الوحيـد الذي شهده بأنه « اعنف مـا رآه من اجتماعات طيلة الثلاثة والعشرين عاماً التي عمل فيها كترجمان » [2] .

وابرق السفير الى هاليفاكس فور انتهاء الاجتماع يقـول : « اجد لزاماً عليّ ان ابلغك بأن سلوك ريبنتروب في هذه المقابلة المزعجة كان تقليداً لسلوك هتلر في أسوأ حالاته »· وروى هندرسون في تقريره الاخير الذي كتبه بعـد ثلاثة اسابيع ان وزير خارجية المانيا « أبدى عداء بالغاً أخذ يزداد عنفاً بعد كل جملة اقولها . وظل يقفز من مقعده في حالة من الحماس الشديد ، ويوجه إلي السؤال عما إذا كان لدي ما اقوله ايضاً . وكنت أرد عليه ، بأنه ما زال في جعبتي ما اريد قوله ». وذكر شميدت ان هندرسون قد قفز من مقعده ايضاً وان الرجلين وثبا من مقعديهما في احدى اللحظات واخذا يتطلعان إلى بعضهما بنظرة تنطوي على الغضب إلى الحد الذي دعـا المترجم الالماني إلى التصور بأنهما على وشك التضارب .

ولكن الاهمية التاريخية لا تبدو في التهريج الذي وقع في الاجتماع بين وزير خارجية الرايخ وسفير حكومة جلالته في برلين عند منتصف ليل ٣٠-٣١ آب وانما تظهر جلياً في تطور وقع إبان هذه المقابلة العاصفة ، اخرج إلى النور الفصل الاخير من مسرحية هتلر وخدعته ، واكمل تبصير هندرسون ، وان جـاء متأخراً ، بحقيقة الرايخ الثالث .

ويتمثل هذا التطور فيما وقع عندمـا اتمَ ريبنتروب قراءة الرد البريطاني

---

١ ــ الكتاب البريطاني الازرق ص ١٤٢ .

٢ ــ شميدت — ترجمان هتلر ص ١٥٠ - ١٥٥ . وشهادة شميدت في نورمبرغ (محاكمات كبار مجرمي الحرب (١٠) ص ١٩٦ - ٢٢٢) .

دون ان ينتظر من هندرسون استكمال مـــا لديه من شروح له.[1] فقد جازف هندرسون بسؤال الوزير عن الاقتراحات الألمانـــية للتسوية البولندية ، وهي الاقتراحات التي وعد هتلر بها بريطانيا في مذكرته الاخيرة . وإذا بريبنتروب يرد بلهجة تنطوي على الازدراء قائلاً : « ان الوقت قد فات على هذه الاقتراحات لأن المبعوث البولندي لم يصل إلى برلين قبل منتصف الليل » واضاف ان الالمان اعدوا بعض الاقتراحات على أي حال وشرع في تلاوتها على مسامع زائره .

وكان الوزير يقرأ على حد وصف هندرسون في تقاريره عن الاجـــتماع ، بالألمانية « وبسرعة هائلة ، تقرب من الهذر والتمتمة ، وقـــد اتخذ صوته نغمة الانزعاج المطلق » . ومضى التقرير يقول :

ولم استطع أن افهم من مجموع ست عشرة نقطة تلاهـــا على مسامعي اكثر من ست او سبع نقاط ، ولكن كان من المتعذر علي ان افهم محتويات هـذه النقاط التي وعيتها بالدقة المطلوبة إلا إذا درست النص الكامل دراسة صحيحـــة . وعندما انتهى من تلاوته . طلبت اليه ان يطلعني عليهـــا ، ولكن ريبنتروب رفض الاستجابة إلى طلبي رفضاً باتاً ، ثم ألقى بالوثيقة بحركة تنطوي على الازدراء على المنضدة ، وقـال انها باتت منسوخة باطلة ، طالما ان المبعوث البولندي لم يصل قبل منتصف الليل»[2] .

---

١ - كانت المذكرة البريطانية رغم صياغتها في عبارات ودية، حازمة كل الحزم . فقد ذكرت ان حكومة جلالته « تبادل المانيا رغبتها في تحسين العلاقات بين البلدين ولكنها لا تستطيع ان تضحي بمصالح الدول الصديقة الاخرى للوصول الى هذا التحسن » . ومضت المذكرة تقول: « ان الحكومة البريطانية تفهم فهماً كاملاً ان ليس في وسع الحكومة الالمانية التضحية بمصالح بلادها الحيوية ، ولكنها تفهم ايضاً ن هـــذا الموقف ينطبق على الحكومة البولندية كذلك». وتود الحكومة البريطانية الاعراب « عن تحفظ واضح » بالنسبة الى شروط هتلر . وهو انها على الرغم من حثها على المفاوضات المباشرة بين برلين ووارشو إلا انها ترى « ان من غير المعقول إقامة اتصال في مثل هذه السرعة بين البلدين » نص الكتاب البريطاني الازرق ص ١٤٢ - ١٤٣ .

٢ - ادعى ريبنتروب الذي يرى مؤلف هذا الكتاب ، انه كان اكثر المتهمـــين الالمان ضعفاً وحزناً في محاكمات نورمبرغ، إبان المحاكمة، ان هتلر الذي «أملى عليه شخصياً » النقاط الست=

وقد يصح ما قاله ريبنتروب من ان هذه « المقترحات » قد غدت منسوخة فات وقتها ، إذا شاء لها الألمان ان تكون كذلك ، ولكن الشيء الذي أود ان اؤكده ان المانيا لم تكن تعني قط ان تحمل هذه المقترحات على محمل الجد أو حتى غير الجد ايضاً . ولم تكن اكثر من مجرد اضحوكة ساخرة ، إنها خدعة أراد هتلر من ورائها تضليل الشعب الالماني ، والرأي العام العالمي ، ان امكنه ذلك ، وحملها على الاعتقاد بأن هتلر قد حاول حتى اللحظة الأخيرة الوصول إلى تسوية معقولة لمطالبه من بولندة . وقد اقر الفوهرر نفسه بهذه الحقيقة ، فقد استمع اليه الدكتور شميدت فيما بعد يقول : « كنت في حاجة الى مبرر ، ولا سيما تجاه الشعب الالماني لأثبت له انني بذلت كل ما لدي من حول للحفاظ على السلام . ولا ريب في ان هـذا يوضح العرض السخي الذي قدمته لتسوية قضيتي دانزيغ والرواق البولندي »[1].

= عشرة، قد «منعني بصراحة من ان اتخلى عن هذه الاقتراحات» ولم يشرح السبب في هذا المنع كما لم يحاول احد اثناء المناقشة سؤاله عن السبب . ومضى ريبنتروب يعترف قائـلاً : « وقد امرني هتلر بأن انقـل الى السفير البريطاني فحوى هذه الاقتراحات فقط إذا رأيت ان المصلحة تقضي بذلك . ولكنني فعلت اكثر مما امرت. فقد قرأت على مسامع السفير الاقتراحات كلها من اولها حتى نهايتها » (محاكمات كبار مجرمي الحرب (١٠)، ص ٢٧٥) .ونفى الدكتور شميدت ان يكون ريبنتروب قد تلا نص الاقتراحات بالألمانية بتلك السرعة، التي حالت دون تفهم هندرسون لها ، واكد ان وزير الخارجية لم يسرع في التلاوة «سرعة غير عادية » ويقول شميدت ايضاً ان هندرسون « لم يكن في الواقع متضلعاً باللغة الالمانية » ، وكان في وسعه ان يكون اكثر تأثيراً في تلك المحادثات العصيبة لو انه استخدم اللغة الانكليزية في حديثه ، اذ ان انكليزية ريبنتروب كانت ممتازة ولكنه كان يرفض التحدث بها في هذه المقابلات (شميدت – ترجمان هتلر ص ١٥٢)

١ – ابرقت وزارة الخارجية الالمانية نص هذه الاقتراحات الستة عشر الى القائم بالاعمال الالماني في لندن في الساعة التاسعة والربع مساء أي قبل اربع ساعات من تلاوة ريبنتروب لها بسرعة على مسامع هندرسون . ولكن التعليمات صدرت الى المبعوث الالماني « بالحفاظ على سريتها وعدم نقلها الى اي انسان حتى تصله تعليمات جديدة » (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٤٤٧ – ٤٥٠) وجدير بنا ان نذكر ان هتلر وعد في المذكرة التي بعث بها الى الحكومة البريطانية في اليوم السابق، بوضع المقترحات تحت تصرفها حتى قبل وصول المفاوض البولندي .

واذا ما قورن هذا العرض بالمطالب التي كانقد قدمها في الايام الاخيرة، تبين انه كان سخياً بالفعل الى الحد الذي يبعث على الدهشة ، لم يطلب هتلر في هذه المقترحات إلا استرجاع دانزيغ وحدهـا . واقترح ان يقرر مصير الرواق عن طريق استفتاء، يجري بعد اثني عشر شهراً، أي بعد ان تكون العواطفالملتهبة قد هدأت . وتضمنت الاقتراحات كذلك احتفاظ بولندة بميناء غيدينيا ، وان يقدم كل من يصبح الرواق من ممتلكاتـــه بموجب الاستفتاء ، للطرف الآخر ، طريقاً برياً وسكة حديدية تكونان تحت الاشراف الاقليمي الخارجي لهـــذا الطرف . ولا ريب في ان هذا الاقتراح كان « معاكساً » لعرض الربيع الماضي . وانتهت الاقتراحات الى القبول بمبدأ تبادل السكان ومنح الحقوق الرعوية الكاملة لمواطني كل من الدولتين المقيمين في الدولة الاخرى .

وفي وسع الانسان ان يتصور الآن ان هذه الاقتراحات لو قدمت بصورة جدية ، لأدت حتماً الى ايجاد أساس للتفاوض بين المانيا وبولندة ، ولوفرت على الاقل على العالم خوض الحرب الثانية مـــدة جيل على الاقل . وقد اذيعت على الشعب الألماني في الساعة التاسعة من مساء الواحد والثلاثين من آب ، أي بعـد ثماني ساعات ونصف الساعة من صدور امر هتلر النهـــائي بغزو بولندة . وفي وسعي ان اجزم ، على ضوء ما رأيته في برلين ، انها نجحت في تحقيق الهدف منها وهو تضليل الشعب الالماني . وقد خدع مؤلف هذا الكتاب نفسه بها ، إذ تأثر بما فيها من « تعقل » عندما استمع اليها وهي تذاع ، واعرب عن تأثره هذا في رسالته الاذاعية الى امريكا في تلك الليلة الاخيرة من ليالي السلام .

وعاد هندرسون الى دار سفارته في تلك الليلة ٣٠ - ٣١ آب ، وهو مقتنع كما ذكر فيما بعد « بأن الامل الاخير في عودة السلام قد اختفى نهائياً » . ولكنه اراد ان يواصل محاولاتـه ، فأيقظ السفير البولندي من نومـه في الساعة الثانية صباحاً ، واستدعاه على عجل إلى دار سفارته ، ليقدم اليه « وصفاً موضوعياً ومعتدلاً كل الاعتدال » عن المحادثات التي اجراها مع ريبنتروب « وذكر له ان النقطتين الرئيسيتين في الاقتراحات الالمانية تتلخصان في تسليم دانزيغ الىالمانيا

واجراء الاستفتاء في الرواق ، واضاف انه يرى على ضوء ما يستطيع ان يعيه من هذه المقترحات انها لم تكن خالية من التعقل والمنطق ، واقترح على ليبسكي ان يوصي حكومته فوراً ، بعرض عقد اجتماع عاجل بين المشير سميغلي ريدز والمشير غورنغ . وقال هندرسون « انه شعر بواجبه ، في ان يضيف بأنه لا يأمل بنجاح أية مفاوضات يقوم بها الهر فون ريبنتروب » [1]

* * *

ولم يقف داهليروس المناضل في غضون ذلك مكتوف اليدين . ففي الساعة العاشرة مساء التاسع والعشرين من آب ،استدعاه غورنغ إلى منزله وابلغه «بالسير غير المرضي » الذي سار فيه الاجتماع الذي انتهى قبل لحظات بين هتلر وريبنتروب وهندرسون . وكان المشير البدين في نوبة من نوباته الهستيرية ،وراح يوجه امامصديقه السويدي اعنف الحملات على بولندة وبريطانيا . ولكن سرعان ما هدأت ثائرته ، وراح يؤكد لزائره بأن الفوهرر شرع في اعداد « عرض سخي » على بولندة يكون فيه المطلب الرئيسي السريع اعادة دانزيغ ، تاركاً تقرير مصير الرواق إلى استفتاء يجري «تحت اشراف دولي ». وسأل داهليروس محدثه عن مساحة المنطقة التي يقترح إجراء الاستفتاء فيها ، فانتزع غورنغ صفحة من « اطلس » جغرافي قديم ، ورسم بقلم ملون الاجزاء « البولندية » و « الالمانية » ، ضاماً إلى الجزء الألماني لا مجرد بروسيا البولندية فحسب بل ومدينة لودز الصناعية ، التي تبعد ستين ميلاً إلى الشرق من حدود عام ١٩١٤.

---

١ - تقرير هندرسون الاخير رقم ٦١١ ص ١٧ وكتابه « فشل بعثة » ص ٢٨٧ .... نقل هندرسون في برقية بعث بها الى هاليفاكس في الساعة الخامسة والربع من صباح الواحد والثلاثين من آب انه اشار على ليبسكي « بعبارات قاطعة للغاية» ان « يهتف » الى ريبنتروب وان يطلب اليه تسليمه المقترحات الألمانية حتى ينقلها بدوره الى الحكومة البولندية . وقد رد ليبسكي بأنه سيتصل بوارشو اولا يسألها رأيها . واضاف هندرسون في برقيته ان السفير البولندي وعد بأن يهتف فوراً الى حكومته، ولكنني ارى انه عاجز امام تعليمات حكومته الى الحد الذي لا استطيع الوثوق فيه بظهور اية نتيجة فعالة لاي عمل يقوم به (وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٧) رقم ٥٧٥ ص٤٣٣) .

ولم يستطع المتطفل السويدي إلا ملاحظة (السرعة وعـــدم الاكتراث) اللذين يصاحبان اتخاذ القرارات المهمة في الرايخ الثالث . ولكنه وافق غورنغ على أي حال ، في ان يطير فوراً إلى لندن ، وان يؤكد للحكومة البريطانية ان هتلر ما زال راغباً في السلام ، وان يلمح اليها ، بأن الفوهرر كدليل على هذه الرغبـة شرع في اعداد عرض سخي للغاية ليقدمه الى بولندة .

وطار داهليروس الذي لا يعرف التعب الى لندن في الساعة الرابعة من صباح الثلاثين من اب ، وبدّل السيارة التي استقلها من مطار هوستون الى العاصمـــة البريطانية عدة مرات تضليلاً لرجال الصحافة الذين توهم انهم في اثره ، على الرغم من عدم احساسهم في الحقيقة بوجوده . ووصل الى داوننغ ستريت في الساعـة العاشرة والنصف صبـــاحاً ، حيث استقبله تشمبرلين فوراً بحضور هاليفاكس وويلسون وكادوغان .

ولم يعد المهندسون البريطانيون الثلاثة الذين بذرا صرح ميونيخ - إذ لم يكن كادوغان وهو الرجل الرابـــع الحاضر لمقابلة اليوم والموظف الدائم في وزارة الخارجية من المستجيبين للسحر النازي منذ البداية - يصدقون اقـــوال هتلر وغورنغ ، كما لم تؤثر عليهم جهود داهليروس تأثيراً كبيراً . ووجد السويدي الحسن النية البريطانيين الاربعة « كثيري الشك » بالزعيمين النازيين ، وميالين « الى الافتراض بعدم وجود ما يحول بين هتلر وبين اعلان الحرب على بولندة » واوضح البريطانيون للوسيط السويدي ايضاً ان حكومتهم لم تقع في الفخ الذي نصبه هتلر بطلبه ايفاد « مفوّض » بولندي الى برلين في غضون اربع وعشرين ساعة .

ولكن داهليروس ، شأنه في ذلك شأن هندرسون في برلين يريد ان يواصل محاولاته . فهتف الى غورنغ في برلين مقترحـــاً ان يجتمع المندوبون الالمـــان والبولنديون خارج المانيا ، فتلقى رداً مؤخراً بأن « هتلر موجود في برلين » وان الاجتماع يجب ان يتم فيها .

وهكذا لم يحقق الوسيط السويدي شيئاً من رحلته الجوية هذه ، فعـاد عند منتصف الليل الى برلين ، حيث اتيحت له فرصة اخرى ، على الاقل ، ليكون

نافعاً . وقد وصل الى مقر قيادة غورنغ في الساعة الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل ، ليجد قائد السلاح الجوي مرة ثانية في حالة عصبية عنيفة . وراح المشير يبلغه ان الفوهرر قد قدّم قبل لحظات الى هندرسون عن طريق ريبنتروب « عرضاً عملياًوعادلاً وديموقراطياً لينقلهالى بولندة . وراح داهليروس الذي انتقلت اليه عدوى « التعقّل » بعد اجتماعه في ذلك اليوم في لندن يهتف الى فوربس في السفارة الالمانية ليتأكد من صحة ما سمع ، فأجابه هذا بأن ريبنتروب قد « تمتم » بالشروطأمام هندرسون بسرعةهائلة لم تمكنه من استيعابها استيعاباً كاملاً ، وان الوزير الالماني قد رفض تسليمه صورة منها إبان المقابلة . ويقول داهليروس انه ذكر لغورنغ ان هذه الطريقة ليست صحيحة « في معاملة سفير دولة كالامبراطورية البريطانية » واقترح ان يسمح له المشير الذي كان يحمل صورة من الاقتراحات الستة عشر ، باملائها هاتفياً على السفارةالبريطانية . وقد قبل غورنغ بهذا الاقتراح بعد كبير تردد . [١]

وهكذا! علمت بريطانيا بالاقتراحات الالمانية الى بولندة بطريقة غريبة . فقد تمكن رجل اعمال سويدي مغمور يعمل متواطئاً مع قائد السلاح الجوي الألماني من المكر بهتلر وريبنتروب ، وابلاغ الحكومة البريطانية نص هذه المقترحات ولعل المشير الذي لم يكن في حال من الأحوال غبياً او مفتقراً الى الخبرة في معالجة الشؤون الخارجية ، قد ادرك بسرعة تفوق سرعة ادراك الفوهرر ووزير خارجيته المداجي ، بعض الفوائد التي يمكن لألمانيا ان تجنيها من اطلاع البريطانيين اخيراً على هذا السر .

واراد غورنغ ان يتأكد تمام التأكد،من ان هندرسونقد تلقىفعلاً وبصورة دقيقة هذه المقترحات ، فأوفد داهليروس في الساعة العاشرة من صباح الخميس

---

١ ـ ادعى غورنغ امام محكمة نورمبرغ ، انه بعمله هذا في تسليم نص« العرض »الذي اعده هتلر الى السفارة البريطانية كان يغامر مغامرة هائلة ، إذ ان الفوهرر كان قد منع بصورة قاطعة نشر هذه المعلومات او تسربها . واضاف غورنغ امام المحكمة قائلاً :« وكنت انا الشخص الوحيد الذي يستطيع القيام بهذه المغامرة » (محاكمات كبار مجرمي الحرب (٩) ص٤٩٣) .

الواحد والثلاثين من آب إلى دار السفارة البريطانية حاملاً نسخة مطبوعة من النقاط الست عشرة . وكان هندرسون لا يزال يواصل إقناع السفير البولندي بإقامة (الاتصال المرغوب) مع الالمان . وراح في الساعة الثامنة صباحاً يحث ليبسكي من جديد ، مستخدماً الهاتف هـذه المرة ، ومنذراً إياه بأن بولندة ان تأخرت عن العمل ، حتى الظهر ، فإن الحرب واقعة لا محالة . [١] ولم يكد داهليروس يصل الى السفارة البريطانية حاملاً نص المقترحات الألمانية حتى أوفده السفير هندرسون ومعه فوربس إلى السفارة البولندية . ولم يكن ليبسكي قد سمع من قبل بداهليروس، ولذا فقد اضطرب عندما اجتمع بالسويدي ، وسرعان ما ثارت اعصابه التي كانت قد بلغت اقصى حدود الاجهاد كأعصاب غيره من الدبلوماتيين في برلين في تلك الأيام ، وعندما شرع هـذا الرجل يحثه على المضي فوراً إلى غورنـغ ليعلن قبوله لعرض الفوهرر . وطلب الى السويدي ان يمضي الى الغرفة المجاورة ليملي على احدى السكرتيرات نص النقاط الست عشرة ، وعندما لبى هذا طلبه ، أعرب السفير عن تضايقه من فوربس لإتيانه بهذا « الغريب » في مثل هذا التاريخ المتأخر وتدخله في مثل هذه المهمة الخطيرة . وليس ثمة من شك في ان السفير البولندي المجهد كان قد أحس بالألم من هـذا الضغط الذي يواصل هندرسون تعريضه وتعريض حكومته له ، للتفاوض فوراً على أساس عرض تسلمه قبل لحظات بصورة لا رسمية وخفية ، وان كان المبعوث البريطاني قد أبلغه في الليلة الفائتة انه لا يرى فيه « بعداً كبيراً عن التعقل والمنطق » [٢] ولم يكن يعرف ان داوننغ ستريت لم يتبن وجهة نظر سفيره في

---

١ ـ ساعد السفير الفرنسي الاريب زميله البريطاني في هذه المحاولة . فقد هتف له هندرسون في الساعة التاسعة ليبلغه انه ما لم يوافق البولنديون قبل الظهر على ارسال مبعوث مفوض الى برلين فان الجيش الالماني سيشرع في هجومه . وتوجه كولوندر على الفور الى السفارة البولندية وحث ليبسكي ، على ان يهتف الى حكومته طالباً اليها تخويله بأن يجري اتصالاً فورياً مع الالمان بوصفه «مفوضاً» . (الكتاب الفرنسي الاصفر . الطبعة الفرنسية . ص ٣٦٦ ـ ٣٦٧ .)

٢ ـ اقنع هندرسون نفسه الآن أي قبيل ظهر الواحد والثلاثين من آب ، وهو يجاهد لاحلال السلام بأي ثمن ، ان الشروط الالمانية الاخيرة معقولة للغاية ومعتدلة ايضاً . وعلى الرغم من =

برلين . وكل ما يعرفه انـــه لا يعتزم العمل بنصيحة سويدي مجهول ، حتى ولو كان السفير البريطاني هو الذي اوفده اليه ، ولا يفكر بالذهاب إلى غورنـــغ ليعلن له قبوله « عرض » هتلر حتى ولو كانت لديه الصلاحيات للقيام بهذا العمل

= ان ريبنتروب قد ابلغه في منتصف الليلة السابقة ان الاقتراحات الالمانية اصبحت منسوخة فات وقتها لعدم وصول المبعوث البولندي في الوقت المحدد » ، وعلى الرغم من ان الحكومة البولندية لم تكن قد قرأت هذه الاقتراحات حتى تلك اللحظة ، وعلى الرغم من انها في مجملها مجرد ألعوبة سافرة ، فإن السفير واصل الالحاف طيلة اليوم على هاليفاكس للضغط على البولنديين لايفاد « مفوض » تلبية لطلب هتلر ، كما واصل الاصرار على سفيره على ان نقاط الفوهرر الست عشرة معقـــولة ومنطقية .

وابرق هندرسون الى هاليفاكس في الساعة الثانية عشرة والنصف ظهر الواحد والثلاثين من آب حاثاً «إياه» على « الاصرار » على بولندة بأن يطلب ليبسكي من الحكومة الالمانية تزويده بنص المقترحات ليبرق بها فوراً الى حكومته « هادفاً الى ايفاد مفوض الى برلين». ومضى السفير يقول : « وتبدو لي الشروط معتدلة ، فالموقف الآن يختلف عن الوضع ايام ميونيخ .... ولن يكون في وسع بولندة الحصول على مثل هذه الشروط الطيبة ثانية ... »

وبعث هندرسون في نفس الوقت برسالة مطولـــة الى هاليفاكس قـــال فيها : « لا تعرض الاقتراحات الالمانية استقلال بولندة للخطر ... وقد لا يتاح لها الحصول على صفقة طيبة كهذه فيما بعد ... »

وواصل هندرسون إلحافه فأبرق هاليفاكس في الساعة الثانية عشرة والنصف من بعد منتصف ليل الاول من ايلول ، اي قبل اربـع ساعات من الموعد المقرر للبدء بالهجوم – وان لم يكن يعرف ذلك بالطبـع ، يقول ان « الاقتراحات الالمانية ... لا تعتبر غـــير معقوله ... وانني لاقول ، إن الحرب قد لا تعتبر عادلة على اساس مثل هذا العرض » . حث وزيره على ان تقوم الحكومة البريطانية بالضغط على البولنديين « بلغة لا تقبل الشك » لاعلان « عزمهم على ايفاد مفوض الى برلين .»

واتخذ السفير البريطاني في وارشو موقفاً مغايراً ، فقد ابرق هاليفاكس في الواحد والثلاثين من آب يقول : يبدو ان سفير جلالته في برلين يعتبر الشروط الالمانية معقولـــة ، واني لأخشى انني لا استطيع الاتفاق معه من وجهة نظر وارشو» (برقيه هندرسون– وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٧) ص ٤٤٠ . رسالة الى هاليفاكس – وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٧).ص ٤٦٥–٤٦٧ – البرقية ص ٤٦٨ – ٤٦٩ ، برقية كينارد – ٦١٨) .

وان كان في الحقيقة والواقع لا يملكها مطلقاً »[1].

اخر يوم من ايام السلام

خيل للحكومتين البريطانية والفرنسية انهما افلحتا اخيراً في حمـــل الألمان والبولنديين على قبول مبدأ التفاوض المباشر ، فأخذتا على الرغم من شكوكهما الضخمة بهتلر ، تركزان جهودهما على محاولة تحقيق هذه المفاوضات فعلاً. وقد تولت بريطانيا الدور القيادي في هذا المجال ، تؤيدها فرنسا دبلوماتياً في برلين ولا سيما في وارشو . وعلى الرغم من ان البريطانيين لم ينصحوا البولنديين بقبول إنذار هتلر ، وإرسال مبعوثهم المزود بالصلاحيات الكافية إلى برلين في الثلاثين من آب معتبرين ان مثل هذا الطلب ، على حد تعبير هندرسون في برقيتـه إلى

---

١ ـ وقعت هناك قصة دبلوماتية غريبة اخرى في آخر يوم من ايام السلام تستحق الشرح في الهوامش . فقد عاد داهليروس من زيارته للسفير البولندي ليبسكي الى السفارة البريطانية حيث سجل من مكتب السفير نفسه عند الظهر طلباً لمكالمة هاتفية مع السير هوراس ويلسون في وزارة الخارجية البريطانية . وقد ابلغ ويلسون ان الاقتراحات الالمانية « سخية ومعتدلة تماماً » ولكن السفير البولندي قد رفضها . ومضى يقول : « ويتضح من هذا ان البولنديين يضعون العراقيل في طريق الوصول الى احتمالات التفاوض . »

وسمع ويلسون في هذه اللحظة بعض الاصوات على الخط الهاتفي فتبين له ان الالمان يصغون الى المكالمة الهاتفية . وحاول انهاء الحادثة ، ولكن داهليروس واصل الثرثرة عن بعد البولنديين عن العقل والمنطق ، ودون السير هوراس في مذكرة لوزارة الخارجية البريطانية ما يلي : « وعدت اطلب الى داهليروس اغلاق فمه ، ولكنه اصر على الكلام ومضى في هذره ، اضطررت الى قطع المكالمة ووضع السماعة في مكانها » .

ونقل ويلسون انباء هذه الرعونة التي ارتكبت في مكتب سفير جلالته في برلين الى رؤسائه في الحكومة البريطانية. وفي اقل من ساعة، اي في الواحدة بعد ظهر اليوم نفسه أبرق هاليفاكس الى هندرسون بالرموز يقول : « عليك ان تكون حريصاً عند استعمالك الهاتف . لقـــد كانت مكالمة « د » الهاتفية ظهر اليوم من السفارة في منتهى الطيش والرعونة ولا ريب في ان الالمان قد استمعوا اليها . » – كانت وزارة الخارجية تشير الى داهليروس في جميـــع مخابراتها مـــع سفارة برلين بحرف « د » –. (وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٧) ص ٤٤١ – ٤٤٣ .)

هاليفاكس ، أمراً غير معقول ، إلا انهم حثوا الوزير بيك على الإعـلان عن استعداده للتفاوض مع برلين « دون إبطاء ». وكان هـذا الحث موضوع رسالة بعث بها هاليفاكس إلى سفيره في وارشو في ساعة متأخرة من ليل الثلاثين من آب ، يطلب فيها اليه ان يبلغ بيك بمحتويات المذكرة البريطانية إلى المانيـا ، وهي المذكرة التي كان هندرسون على وشك تبليغها إلى ريبنتروب ، وان يؤكد له - أي لبيك - ان بريطانيا ستفي بالتزاماتها إلى بولندة وان كانت تود ان تؤكد لها ما تعلقه من اهمية على قبولهـا - أي بولندة - بمبدأ التفاوض المباشر والفوري مع المانيا .... ومضى هاليفاكس يقول في برقيته :

« ونحن نعتبر ان من الاهمية بمكان عظيم بالنسبة إلى الوضـع الداخلي في المانيا وإلى الرأي العام في العالم ، ان لا نترك للحكومة الألمانية التي تدعي استعدادها للتفاوض ، الفرصة التي تمكنهـا من إيقاع اللوم في الحرب على بولندة .»[1]

وراح كينارد يقابل بيك عند الظهيرة ، ووعد وزير الخارجية البولندية ، باستشارة حكومته ، وبأن يعطيه « جواباً مدروساً » قبـل ظهر الواحد والثلاثين من آب . ووصلت برقية كينارد التي تشرح هـذه المقابلة إلى وزارة الخارجية البريطانية في الساعة الثامنة صباحاً ، ولم يكن هاليفاكس راضيـاً عنها . وبعث عند الظهر ، وكان هذا آخر يوم من ايام آب ، ببرقية إلى كينارد يوعز له فيها بالتشاور مع زميله الفرنسي في وارشو (ليون نويل السفير الفرنسي) وان يقترحا معاً على الحكومة البولندية :

« ان تعلم الحكومة الألمانية الآن ، ويفضل ان يكون ذلـك بطريق مباشر ، او عن طريقنا إذا استحال ذلك ، بأنها اطلعت على ردنا الاخير على الحكومة الالمانية ، وانها تؤكد قبولها لمبـدأ المفاوضات المباشرة .

---

١ - الكتاب البريطاني الازرق . ص ١٤٤ .

« وتخشى الحكومة البريطانية ان تستغل الحكومة الألمانية سكوت الحكومة البولندية لصالحها. »[1]

وقلق اللورد هاليفاكس من موقف خلفائه البولنديين ، وراح يبرق بعد أقل من ساعتين أي في الواحدة والدقيقة الخامسة والاربعين من جديد إلى كينارد قائلاً :

« أرجو ان تبلغ الحكومة البولندية فوراً ، وان تنصحها انه بالنظر الى الحقيقة الواقعة وهي انها قبلت بمبدأ المفاوضات المباشرة فإن عليها ان توعز إلى سفيرها في برلين بإبلاغ الحكومة الألمانية بأنه على استعدادلنقل أية اقتراحات المانية إذا كان لهذه الاقتراحات من وجود ، إلى حكومته لتتولى درسها فوراً وتقترح البدء في محادثات مبكرة »[2]

وتلقت الحكومة البريطانية قبيل ارسال هذه البرقية ، مذكرة خطية من بيك ، رداً على اتصال منتصف الليل الدبلوماتي ، يبلغها فيها ان الحكومة البولندية « تؤكد استعدادها لإجراء تبادل مباشر لوجهات النظر مع الحكومة الألمانية » ، وانها اكدت للسفير البريطاني في وارشو بأنها اوعزت إلى ليبسكي ليطلب مقابلة ريبنتروب وليبلغه « ان بولندة قد قبلت الاقتراحات البريطانية » وعندما سأل كينارد وزير الخارجية بيك عما سيفعله ليبسكي إذا قام ريبنتروب بتسليمه المقترحات الألمانية ، رد الوزير بأن سفيره في برلين لن يكون مخولاً بقبولها، إذ « انها بالنسبة إلى التجارب السابقة ، قد تكون مصحوبة بشكل من اشكال التهديد . » واضاف بيك ان الأمر المهم هو إعادة الاتصال « وآنذاك يمكن للتفاصيل المتعلقة بمكان المفاوضات وشخصيات القائمين بها واسسها وموعد بدئها ان تبحث » . وكانت هذه النظرية التي اوردها الوزير الذي عرف في

١ - الكتاب البريطاني الازرق ص ٧ : ١ .

٢ - الكتاب البريطاني الازرق. ص ١٤٧ .

الماضي بتشيعه للنازيين معقولة بالنسبة الى التجارب السابقـة . واضاف كينارد في برقيته الى لندن ، ان بيك قال بأنـه لن يذهب الى برلين بالطبـع إذا دعي اليها ، اذ انه لا يود ان يعامل كما عومل الرئيس هاشا.[1]

ولكن بيك لم يرسل هذه التعليمات الى ليبسكي حقـاً ، وبدلاً من ان يقول السفير للالمان ان بولندة « تقبل » الاقتراحات البريطانية ، صدرت التعليمات اليه لإبلاغ الالمان بأن بولندة « تدرس » الاقتراحات البريطانية بشيء من الارتياح وستوجه ردها الرسمي « في غضون الساعات القليلة القادمة على اكثر تقدير » .

وكانت هناك تعليمات أُخرى من بيك الى ليبسكي ، ولما كان الألمان قـد تمكنوا من حل « الشيفرة » البولندية فقد عرفوا بهذه التعليمات .

وكان هناك سبب بسيط ومعقول وسرعان ما قدر له ان يتضح ، يدعـو الألمان الى عدم التلهف على استقبال السفير البولندي في برلين . ويتلخص هـذا السبب في ان الوقت قد فات . ففي الساعة الواحدة بعد الظهر ، أي بعد بضع دقائق من تسلمه تعليماته البرقية من وارشو ، طلب ليبسكي مقابلة ريبنتروب بقصد تسليمه رسالة تلقاها من حكومته . وبعد انتظار طال اكثر من ساعتين ، تلقى رداً هاتفياً من وايز ساكر ، يسأله إذا كان في طلبه مقابلة وزير الخارجية الألمانية يمارس وضع « مبعوث » يحمل مطلق الصلاحيات او « مجرد سفير عادي » .

ويقول ليبسكي في تقريره الاخير[2] انه رد بأنه يطلب المقابلة كسفير يود ان يقدم إلى وزير الخارجية بياناً من حكومته .

ومرت فترة انتظار أُخرى . وقام اتوليكو في الساعة الخامسة مساء بزيارة ريبنتروب ناقلاً اليه « رغبة الدوتشي العاجلة » في ان يستقبل الفوهرر ليبسكي « ليقيم بهذه الطريقة على الاقل ، الحـد الادنى من الاتصال اللازم لتجنُّب الانقطاع النهائي » . ووعـد وزير الخارجيـة الالماني بنقل رغبة الدوتشي إلى

---

١ - نص المذكرة البولندية الخطية . الكتاب البريطاني الازرق ص ١٤٨ . وصلت برقية كينارد في الساعة السابعة والدقيقة الخامسة عشرة من مساء ٣١ آب .

٢ - الكتاب البولندي الابيض (المؤامرة النازية والعدوان (٧) ص ٤٩٩ - ٥١٢ .

الفوهرر .[١]

ولم تكن هذه المقابلة هي الوحيدة التي أجراها السفير الايطالي مع المسؤولين في الويلهلمشتراسه في ذلك اليوم الاخير من آب ، في محاولاته لانقاذ السلام وكان اتوليكو قد ابلغ رومه في الساعة التاسعة صباحاً بأن الوضع بات « يائساً » وانه « ما لم يحدث طارىء جديد فإن الحرب ستنشب في غضون ساعات » وراح الدوتشي ووزير خارجيته شيانو « يحكان رأسيهما في رومه بحثاً عن شيء طارىء جديد. وكانت الثمرة الأولى لهذا التشاور ان هتف شيانو إلى هاليفاكس قائلا له ان موسوليني لا يستطيع التدخل ، إلا إذا تمكن من تقديم « جائزة دسمة هي دانزيغ » إلى الفوهرر . ولكن وزير خارجية بريطانيا لم يغره الطعم الذي وضعه شيانو في سنارته ، ورد بأن أول ما يجب عمله هو إقامة اتصال مباشر بين الألمان والبولنديين عن طريق ليبسكي .

وراح اتوليكو يقابل وايز ساكر في الساعة الحادية عشرة والنصف صباحاً في دار وزارة الخارجية الألمانية ليبلغه ان موسوليني على اتصال بلندن وانه اقترح إعادة دانزيغ إلى الرايخ كخطوة أُولى للتسوية بين المانيا وبولندة وانه يحتاج « فسحة من الوقت » لاستكمال مشروعه لاحلال السلام ، وتساءل ما إذا لم يكن في وسع الحكومة الألمانية استقبال ليبسكي في غضون ذلك ؟

واستقبل ريبنتروب ليبسكي في الساعة السادسة والربع مساء ، أي بعد اكثر من خمس ساعات من طلبه المقابلة . ولم يدم الاجتماع طويلا. وسلك السفير على الرغم من اجهاده ومن اعصابه المنهوكة ، سلوكاً كريماً طيباً . وتلا على مسامع الوزير النازي مذكرة خطية :

« تلقت الحكومة البولندية ليلة أمس إشعاراً من الحكومة البريطانية عن وجود تبادل في الآراء مع حكومة الرايخ حول امكان التفاوض المباشر بين الحكومتين البولندية والألمانية .

« وتدرس الحكومة البولندية بشيء من الارتياح اقتراحات

---

١ ـ وثائق وزارة الخارجة الألمانية (٧) ص — ٤٦٢ .

الحكومة البريطانية ، وستقدم اليها رداً رسمياً حول الموضوع في غضون الساعات القليلة القادمة . »

وروى ليبسكي فيما بعد قائلا : « وأضفت انني كنت أحاول تقديم هـذا البيان منذ الساعة الواحدة بعد الظهر » . وعندما سأله ريبنتروب ان كان قـد جاء كمبعوث مخوّل بالصلاحيات اللازمة للتفاوض ، رد السفير قائلاً بأن تعليماته تقتصر في الوقت الحاضر على تسليم هذا البيان الذي تلاه على مسامع الوزير ، والذي يسره ان يقدمه اليه . وقال ريبنتروب انه كان ينتظر من السفير ان يأتي « كمبعوث كامل الصلاحيات » ، فلما رد هذا بأنه لا يملك ان يمثل هذا الدور ، صرفه الوزير من حضرته ، واعداً إياه ان يبلغ الفوهرر محتويات البيان .[1]

وقال ليبسكي فيما بعد : « وعندما عدت إلى السفارة وجدت نفسي عاجزاً عن الاتصال بوارشو إذ كان الألمان قد قطعوا خط الهاتف عن السفارة . »

ولم تكن اسئلة وايز ساكر وريبنتروب عن صلاحيـــات السفير ومركزه كمفاوض إلا مجرد شكليات ليس إلا ، تستهدف التسجيل التاريخي ، وذلك ، لأن الالمان قد عرفوا منذ الظهيرة ، أي منذ وصول برقية وارشو التي تحمـــل البيان ، انه لا يطلب المقابلة كمفوض رسمي على النحو الذي طلبوه . فلقد حلوا رموز البرقية فوراً . ونقلت صورة من البرقية على الفور إلى غورنغ الذي عرضها على داهليروس طالباً اليه ان يحملهـــا على جناح السرعة إلى هندرسون ، وذلك لكي تعلم الحكومة البريطانية – كما اوضح المشير فيما بعد في نورمبرغ – بالسرعة الممكنة ، بما عليه موقف البولنديين من حماقة وعناد . وقرأ غورنغ إلى المحكمة التعليمات السرية المرسلة إلى ليبسكي والتي تأمره بالامتناع عن اجراء أية مفاوضات رسمية « بأي حال من الاحوال » وان يصر على انه لا يحمل اية « صلاحيات للتفاوض » ، وان كل ما لديه من صلاحية هو تسليم بيان حكومته الرسمي . وقد استغل المشير في إفادته أمـــام المحكمة ، هذه التعليمات استغلالاً

١ – توجد الآن رواية ليبسكي في تقريره الاخير ، اما رواية الدكتور شميدت الالمـــاني فتوجد في وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٤٦٣ .

كلياً ، محاولاً اقناع القضاة بأن بولندة هي التي (خرّبت) محاولة هتلر الأخيرة للحفاظ على السلام ، وانه اي غورنغ ، قد بذل على حد تعبيره كل ما لديه من جهد للحيلولة دون وقوع الحرب التي لم يكن يريدها . ولكن رواية غورنغ الصادقة لم تكن إلا ظلاً يحاول إلقاءه على رواية ريبنتروب ، ولعل خير دليل على ذلك هو تأكيده للمحكمة ايضاً ، بأن هتلر لم يقرر « وقوع الغزو في اليوم التالي » إلا بعد زيارة ليبسكي للويلهمشتراسه في الساعة السادسة والربع من بعد ظهر الواحد والثلاثين من آب .

أما الحقيقة فكانت خلافاً لكل ما قاله المشير . فالواقع هو ان جميع هذه الحركات غير المنتظمة ، التي بذلها الدبلوماتيون المجهدون والمنهكون في الساعة الحادية عشرة (أي في الساعة التي سبقت الاخيرة) ، والتي قام بها الرجال الذين يوجهونهم ، بعد ظهر اليوم الأخير من شهر آب عام ١٩٣٩ ومسائه ، إلا كذري الحبوب في الرياح ، لا جدوى منها ولا فائدة . إلا بالنسبة إلى الألمان الذين استخدموها للتضليل والخداع .

فهناك الدليل الواضح على قولي هذا إذ في الساعة الثانية عشرة والنصف من ظهر الواحد والثلاثين من اب، وقبل ان يقوم اللورد هاليفاكس بحثّ البولنديين على أن يكونوا اكثر تسامحاً، وقبل ان يقوم ليبسكي بزيارة ريبنتروب ، وقبل ان يعلن الألمان اقتراحاتهم « السخيّة » إلى بولندة ، وقبل ان يحاول موسوليني التدخل ، كان ادولف هتلر قد اتخذ قراره النهائي ، واصدر الأمر الحاسم الذي قدر له ان يقذف بالكرة الارضية كلها ، في اتون افظع حرب دموية عرفها التاريخ ... وهذا نصه :

من القائد الاعلى للقوات المسلحة

سري للغاية

برلين ٣١ آب ١٩٣٩

التوجيه رقم ١ عن إدارة دفة الحرب :

« ١ – الآن وبعد ان منيت بالفشل جميع الاحتمالات السياسية للتخلص بالوسائل السلمية من وضع لا تستطيع المانيا ان تطيقه في الجبهة الشرقية . قررت حل هذا الوضع عن طريق القوة .

« ٢ – ينفذ الهجوم على بولندة طبقاً للإعدادات المتخذة للعملية البيضاء ، مع التعديلات الناتجة بالنسبة إلى الجيش ، من الحقيقة الواقعة ، وهي استكماله في غضون ذلك لجميع الاعدادات اللازمة لتوزيعه .

« يظل توزيع الفروض والاهداف العملية الحربية على حاله دون تبدل .

« تاريخ الهجوم : الأول من ايلول عام ١٩٣٩ .

« ساعة الهجوم : الرابعة والدقيقة الخامسة والاربعون صباحاً (بالقلم الاحمر) .

« ينطبق هذا التوقيت ايضاً على عملية غيدينيا وخليج دانزيغ وجسر دير شاو .

« ٣ – من المهم ان تقع مسؤولية بدء الحركات الحربية في الغرب بصراحة ووضوح على عاتق انكلترا وفرنسا . ومن الواجب مقابلة الاختراقات غير المهمة للحدود في الوقت الحاضر بعمل محلي مجرد .

« ومن الواجب الحفاظ بصورة دقيقة على حياد هولندة وبلجيكا واللوكسمبورغ وسويسرا التي تعهدنا بصيانة حيادها

« ويجب ان لا تجتاز اية وحدة عسكرية حدود المانيا الغربية براً بدون إذن واضح مني .

« ينطبق هذا القول بحراً على جميع العمليات الحربية او

العمليات التي يمكن ان تعتبر حربية ايضاً.[1]

« ٤ ـ إذا بدأت بريطانيا وفرنسا الحرب ضد المانيا ، فإن على تشكيلات القوات الألمانيـــة المسلحة العاملة في الغرب ، ان تحافظ على نفسها قدر الطاقة ، وتحتفظ بالاوضاع التي تسهل النهاية الظافرة للعمليات ضد بولندة . ومن الواجب تدمير قوات العـدو وموارده الاقتصادية - الحربية ضمن هذه الحدود على أوسع نطاق ممكن . واني لاحتفظ لنفسي على أي حال بالحق في اصدار الأوامر للتحول إلى الهجوم .

« وعلى الجيش ان يحافظ على الجـــدار الغربي وان يتخـــذ استعداداته للحيلولة دون قيام العدو بحركة التفاف جناحيـه في الشمال ، عن طريق خرق الدولتين الغربيتين لاراضي بلجيـــكا وهولندة .

« وسيشن الاسطول الحرب البحرية على السفن التجارية المتجهة إلى انكلترا .... أما واجب السلاح الجوي ، فيكون في الدرجة الأولى في الحيلولة دون قوات فرنسا وبريطانيـــا الجوية ومهاجمة الجيش الألماني ، والمجال الحيوي الألماني .

« ومن الواجب اتخاذ الاعدادات في تسيير دفـــة الحرب ضد انكلترا ، لاستخدام سلاحنا الجوي (اللوفتواف) ، في قطـــع طرق التموين البريطانية البحرية وشل صناعة التسلـح ، والحيلولة دون نقل القوات إلى فرنسا . ومن الواجب اهتبال الفرص المواتية للقيام بهجمات فعـَّالة على احتشادات الوحدات البحرية البريطانية ولا سيما من البوارج وحاملات الطائرات . أما الهجمات على مدينة لندن فتظل خاضعة لقراري .

---

١ - لايضاح النقطة الغامضة ورد هامش في الامر العسكري يدعو الى بقاء قوات الاطلنطي في الوقت الحاضر في مركز الترقب .

« ويجب التأهب للقيام بهجمات على البر البريطاني واضعين نصب أعيننا ان الانتصارات الجزئية بقوة غير كافية يجب تجنبهـــا في جميع الحالات .

ادولف هتلر »[1]

وهكذا فإن هتلر أمر بصورة رسمية وخطية بعد ظهر الواحد والثلاثين من آب ببدء الهجوم على بولندة عند فجر اليوم التالي . ولا ريب في ان هذا التوجيه الاول ، يوضح ان هتلر لم يكن متأكداً مما ستفعله بريطانيا وفرنسا . ولكنـه قرر الامتناع عن البدء بمهاجمتها . أما إذا تولتا هما الهجوم ، فهو على استعداد لمواجهتها . ومن المحتمل ان يقوم البريطانيون ، كما أوضـح هولدر في يوميتـه بتاريخ الثامن والعشرين من آب ، بالوفاء بالتزاماتهم لبولندة ، عن « طريق شن حرب صورية » ، وإذا وقع هذا فإن الفوهرر لن « يستاء أو يتمعض ».

ومن المحتمل ان يكون الديكتاتور النازي قد اتخذ قراره القدري قبـــل الساعة الثانية عشرة والنصف ظهراً من ذلك اليوم الأخير من شهر آب . ففي الساعة السادسة والدقيقة الاربعين من مساء اليوم السابق دوّن هولدر في يومياته رسالة تلقاها من المقدم كورت سيويرت مرافق الفريق فون براوختش هـــذا نصها : « اكمل الاستعدادات ليبدأ الهجوم في الساعة الرابعة والنصف من صباح الأول من ايلول . إذا تطلبت المفاوضات مع لندن التأجيل فسيبدأ الهجوم في الثاني منه . وسنبلغ بذلك ، قبل الساعة الثالثة من بعد ظهر الغد ... يقـــول الفوهرر ان الهجوم يجب ان يقع إما في الأول أو الثاني من ايلول. أما إذا تأجل عن ذلك ، فسيؤجل الهجوم إلى أمد طويل » . وكان من المحتوم ان يبـــدأ الهجوم فوراً أو يؤجل إلى أمد غير محدود وذلك بسبب امطار الخريف .

وفي الساعات المبكرة من صباح الواحد والثلاثين من آب ، وبينما كان هتلر لا يزال يزعم انتظار وصول الرسول البولندي . تلقى الجيش الألماني اوامره .

---

١ – محاكمات كبار مجرمي الحرب (٣٤) ص ٤٥٦ - ٥٩ ؛ والمؤامرة النازية والعدوان(٦) ص ٩٣٥ – ٩٤٩ ووثائق وزارة الخارجية الألمانية (٧) ص ٤٧٧ — ٤٧٩ .

فقد دوّن هولدر في يومياته في الساعة السادسة والنصف صباحاً ما يلي: « تلقيت إشعاراً من مستشارية الرايخ يقول ان الامر بالوثوب قد صدر محـــدداً التاريخ بالاول من ايلول » . ودوّن في الساعة الحادية عشرة والنصف ما يلي : « ذكر الفريق ستوبلميناغيل ان وقت الهجوم قد حدد بالرابعة والدقيقـــة الخامسة والاربعين صباحاً . يقال ان لا مناص من تدخل الغرب، ومع ذلك فإن الفوهرر مصمم على الهجوم » . وبعد نحو من ساعة صدر التوجيه الرسمي الأول .

واني لأذكر جو الفزع الذي سيطر على برلين في ذلك اليوم ، فقد بدا كل انسان وكأنه في حالة ذهول . وهتف وايزساكر في الساعـــة السابعة والدقيقة الخامسة والعشرين صباحاً إلى اولريخ فون هاسيل وهو « احد المتآمرين » طالباً اليه ان يسرع إلى مقابلته . فلقد رأى وزير الدولة أملاً واحـــداً في النجاة من الحرب وهو ان يقنع هندرسون ليبسكي وحكومته بإيفاد مفوض بولندي على الفور أو بإعلان عزمه على إيفاد مثل هذا المفوض على الاقل ، وراح وايزساكر يسأل هاسيل الذي لا عمل له ، ما إذا كان بإمكانه ان يقابـل هندرسون فوراً ، وغورنغ كذلك لتحقيق هذه الغاية ؟ وبذل هاسيل جهده ، فقابل هندرسون مرتين وغورنغ مرة واحدة . ولكن على الرغم من خبرته الدبلوماتية الطويلة ، ومن موقفه المناوىء للنازية ، بدا وكأنه لا يدرك ان الاحداث قـــد سبقت مثل هذه المحاولات التافهة . ويبدو انه لم يفهم ايضاً مدى ما في اضطرابـــه واضطراب وايزساكر وغيره من الألمان « الطيبين » الذين ارادوا السلام بالطبع ولكن على أساس الشروط الألمانية من خطأ . فلا بد وان يكونوا جميعاً قـــد عرفوا في الواحد والثلاثين من آب ، ان الحرب واقعة حتماً إلا إذا تراجع احد الفريقين، إما هتلر او البولنديون، ولم يكن هناك أمل في تراجع ايهما على أي حال من الأحوال . ومع ذلك فقد كان ينتظر كما تشير يومية هتلر لهذا اليوم ، ان يتراجع البولنديون وان يسيروا في نفس الطريقة المفجعة التي سار عليها النمسويون والتشيكيون من قبل .

وعندما حاول هندرسون ان يبيّن لهاسيل ان « الصعوبة الكبرى » تقوم في

الاساليب الالمانية أو في الطريقة التي كانوا يحاولون إصدار الأوامر بهـــا إلى البولنديين وكأنهم من «صغار الأطفال البلداء» راح هاسّيل يرد قائلاً بأن اصرار البولنديين على الصمت ايضاً شيء لا يمكن قبوله . واضاف ان كل شيء يعتمـد الآن على ظهور ليبسكي في وزارة الخارجية الألمانية لا لتوجيه الأسئلة بـــل لإعلان استعداده للتفـاوض . وكان هاسّـيل نفسه ، يرى ان ليس من حـــق البولنديين المهددين بالهجوم المرتقب في كل لحظة استناداً إلى الاتهامات التي كثر التطبيل لها والتزمير ، ان يوجهوا أية اسئلة . وعندما لخص السفير الألماني السابق « استنتاجاته النهائية » التي توصل اليهـــا في موضوع نشوب الحرب ، راح على الرغم من إيقاعه اللوم على هتلر وريبنتروب « لمجازفتهما بالحرب مـــع الدولتين الغربيتين عن عمد واصرار » ، يصب الكثير من المسؤولية على البولنديين وحتى على البريطانيين والفرنسيين . وكتب هذا الرجل يقول : « لقد اضاع البولنديون من ناحيتهم مدفوعين بما عرف عنهم من غرور ، وبما يتميزون به من خواء سلافي ، وبثقتهم من عون بريطانيا وفرنسا ، الفرصة الوحيدة التي بقيت لتجنب الحرب » . ولكن في وسع المرء ان يتساءل عن هذه الفرصة التي اضاعوها إذا لم تكن التسليم لهتلر بجميع مطالبه . واضاف هاسّـيل يقول : « أما حكومة لندن فقد تخلت عن السباق في الايام الاخيرة واتخذت موقف الاهمال المطلـــق . ومرت فرنسا بعين هذه المراحل ، مع تميزها بالمزيد من التردد . وبذل موسوليني كل مـــا في وسعه لتجنب الحرب » .[1] وإذا قـــدر لرجل مثل هاسّـيل من الدبلوماتيين المجربين والمثقفين والمهذبين ، ان يكون عـلى هذا النحو من التفكير المتذبذب المفتقر إلى الثبات ، فليس من الغريب والحالة هـذه ان يكون من السهل على هتلر ان يأسر ألباب جماهير الشعب الألماني .

ووقع في عصر ذلك اليوم الآفـل والاخير من أيام السلام ، فصل اضافي للمسرحية كان غريباً إلى حد كبير في شكله وموضوعه . وعلى ضوء ما نعرفه الآن عن القرارات الهامـة التي اتخذت في ذلـك اليوم ، كان في وسع المرء ان

١ — هاسيل - يوميات . ص ٦٨ — ٧٣ .

يتوقع من القائد العام للسلاح الجوي غورنغ ، وهو الرجل الذي كان من واجبه القيام بعمليات جوية واسعة النطاق ضد بولندة في اليوم التالي ، ان يكون منهمكاً في العمل في ذلك اليوم الاخير من أيام السلام . لكن ما وقع في ذلك اليوم كان على النقيض من هذا تماماً . فقد دعاه داهليروس إلى تناول الغداء في فندق اسبلانادا حيث اتخمه بخير الطعام واجود الشراب . وكان « الكونياك » من اجود الانواع إلى الحد الذي دفع غورنغ إلى الاصرار على ان يأخذ زجاجتين منه وهو يغادر الفندق . وبعد تمكن داهليروس من خلق هذا المزاج المرح عند المشير ، راح يقترح عليه دعوة هندرسون للتحدث اليه . وبالفعل دعا غورنغ السفير البريطاني بعد ان استأذن هتلر ، ومعه فوربس ليتناولا معه الشاي في منزله في الخامسة مساء . ويقول داهليروس ، الذي لم يذكر هندرسون شيئاً عن وجوده في الاجتماع لا في تقريره الاخير ولا في كتابه – اقترح على غورنغ ان يقابل بالنيابة عن المانيا رسولاً بولندياً في هولندة، وان هندرسون وعد بنقل هذا الاقتراح إلى لندن . وتقول رواية السفير البريطاني عن هذا الحديث الذي دار حول مائدة الشاي في تقريرة الاخير ان غورنغ « تحدث اكثر من ساعتين عن مظالم البولنديين وعن رغبة الهر هتلر ورغبته هو في صداقة انكلترا . وكان الحديث من النوع الذي لا يؤدي إلى أية نتيجة ... وكان الانطباع العام عندي ، ان هذا الحديث عنى محاولة أخيرة وفردية من جانبه لإبعاد بريطانيا عن البولنديين .... وقد توقعت الكثير من الشر ، من الحقيقة الواقعة ، وهي انه تمكن في مثل هذا الوقت العصيب من ان يوفر لي هذا الوقت الطويل ... إذ لم يكن باستطاعته في مثل الوقت ان يوفر لحظة واحدة للحديث ، لو لم يكن كل شيء ، معداً للعمل حتى في أدق تفاصيله واصغرها شأناً ».

وصدر اكثر وصف لذعاً وسخرية لهذا الاجتماع على أقداح الشاي من فوربس رداً على سؤال وجهه اليه محامي الدفاع عن غورنغ في نورمبرغ إذ قال :
« كان الجو سلبياً ويبعث على القنوط ، وان اتصف بالود ....

وكان مما قاله غورنغ للسفير البريطاني ، ان المانيا ستحطم البولنديين كالقمل إذا لم يسلموا ، وانه إذا قررت بريطانيا ان تعلن الحرب، فإن هذا القرار يسوؤه إلى حدٍ كبير، ولكنه يود ان يقول ان مثل هذا القرار حماقة كبرى.»[١]

ويقول هندرسون انه أعد في ساعة متأخرة من تلك الليلة مسودة برقية إلى لندن قال فيها انه يرى « ان من غير المجدي ان يحاول التقدم باقتراحات جديدة سرعان ما تسبقها الاحداث وتبطلها ، وان السبيل الوحيد الباقي أمامنا هو ان نظهر تصميمنا الذي لا يلين على مقاومة القوة بالقوة»[٢]

وبدا ان خيبة أمل السفير نيفيل هندرسون باتت كاملة . إذ على الرغم من الجهود الهائلة التي بذلها طيلة السنوات العديدة لإرضاء شهية الديكتاتور النازي التي لا تشبع ، فإن بعثته إلى المانيا قد فشلت على حد تعبيره . وقد حاول هذا الانكليزي المرح والضحل ، الذي اتسمت دبلوماتيته الشخصية في برلين بالعمل المفجع في الساعات الافلة من آخر أيام آب ، ان يواجه هـذا الانهيار الكامل لآماله العابثة وخططه الفاشلة . وعلى الرغم من ان القدر شاء له ان يعاني زلة

---

١ – شهادة داهليروس في نورمبرغ (محاكمات كبار مجرمي الحرب (٩) ص ٤٧٠ - ٤٧١، رد فوربس في كتاب ناميير « مقدمة دبلوماتية » ص ٣٧٦ – ٣٧٧ ، ووصف هندرسون في تقريره الاخير ص ١٩ .

٢ – من المحتمل ان يكون السفير قد اعد تلك البرقية في ذلك المساء ، ولكنه لم يبعثها في الواقع الى لندن الا في الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة والاربعين من بعد ظهر اليوم التالي، اي بعد اثنتي عشرة ساعة تقريباً من بدء الهجوم على بولندة . وقد جاءت بعد سلسلة من البرقيات التي بعث بها والتي نقلت بالهاتف ايضاً الى لندن حتى يكون الارسال في وقت واحد ، راوياً فيها بـدء العمليات الحربية . وهذا نص البرقية : « ان الافتقار المتبادل الى الثقة بين الألمان والبولنديين قد بلغ حدود الكمال الى درجة بت اشعر فيها ان ليس في وسعي التقدم من هنا بأية اقتراحات مجدية لأن الاحداث تسبق هذه الاقتراحات او لأن الفشل يرافقها ثمرة الاساليب المتبعة او اعتبارات الشرف والكرامة . ويقوم الأمل الاخير في التصميم الذي لا يلين من جانبنا على مقاومـة القوة بالقوة» (وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٧) ص ٤٨٣ . وفي تقرير هندرسون الاخير ص. ٢ وفي كتابه « فشل بعثة » ص ٢٩١)

أُخرى نموذجية يصعب تصديقها في اليوم التالي ، أي عند استهلال الحرب ، إلا ان حقيقة أزلية أخذت تنبلج أمام عينيه وهي ان ثمة ظروفاً – كما قال أخيراً – تتطلب من المرء ان يواجه القوة بالقوة.[1]

وعندما هبط الليل على اوروبا عشية الواحد والثلاثين من آب عام ١٩٣٩ ، وبدأ نحو من مليون ونصف المليون من الجنود الالمان يزحفون إلى الأمام باتجاه مواقعهم الاخيرة على الحدود البولندية ، استعداداً للقفز عند الفجر ، كان كل ما بقي على هتلر ان يفعله هو خلق بعض الحيل الدعائية ، لإعداد الألمان لتقبل هزة الحرب العدوانية .

وكان الشعب في حاجة إلى العلاج الذي بات هتلر بمعونة غوبلز وهملر خبيراً كل الخبرة في تطبيقه . واقد كنت في شوارع برلين اتحدث الى الناس العاديين ، ودوّنت في يومياتي في ذلك الصباح ما يلي : « ان الناس جميعاً ضد الحرب . ويتحدث الناس علناً وبصراحة . فكيف يمكن لبلاد ان تمضي إلى حرب رئيسية ضخمة ، وأهلها يعارضون في هذه الحرب معارضة شديدة ؟ » لقد وجهت إلى نفسي هذا السؤال الساذج على الرغم من جميع ما مررت به من اختبارات في الرايخ الثالث . وكان هتلر يعرف الرد على هذا السؤال خير معرفـــة . إذ ألم يعد القادة العسكريين في الاسبوع الماضي اثناء اجتماعه اليهم في « عش النسر » في قمة جبال بافاريا بأن « يخلق سبباً دعائياً لشن الحرب » ونصحهم بأن لا يطيلوا التفكير في مدى ما في هذا السبب من منطق أو لامنطق !؟ اجل لقد قال لهم :

---

١ – لما كان بعض الاصدقاء الذين قرأوا هذا الجزء قد اعربوا للمؤلف عن شكوكهم في موضوعيته بالنسبة الى هندرسون،ارى من الافضل ان اقدم وجهةنظر اخرى عن السفيرالبريطاني في برلين . فلقد لخص السير ل. ب. ناميير ، المؤرخ البريطاني رأيه في هندرسون بقوله : « انه رجل مغرور ، ضحل التفكير ، لا يرى إلا نفسه ، ويتمسك تمسكاً اعمى بأفكاره التي سبق له تكوينها ، يوالي ارسال البرقيات والرسائل والخطابات بأعداد لا تصدق ، وباسهاب لا يمكن تصوره ، مكرراً مئات المرات نفس الآراء والافكار الخاطئة . وهو مفتقر الى المضاء بحيث لا يكون خطراً ، وبليداً الى الحد الذي يجعله غير مؤذ . وقد برهن على انه رجل شؤم.»(ناميير – في العهد النازي ص ١٦٢)

« ان المنتصر لن يسأل في النهاية ما إذا كان قد فاه بالحقيقة أو لم يفه بهـا ، ففي شن الحروب وخوضها ليس الحق هو المهم بل النصر . »

وفي الساعة التاسعة مساء ، راحت جميع محطات الاذاعة الالمانية ، كما سبق لي ان اسلفت تذيع اقتراحات الفرهرر لاحلال السلام مـــع بولندة ، وهي الاقتراحات التي بدت معقولة عند تلاوتها إلى الحد الذي حمل هذا « المراســـل الصحفي » (يقصد المؤلف نفسه) على الوقوع فريسة تضليلها . لكن الناس لم يعرفوا آنذاك الحقيقة ، وهي ان هتلر لم يقدم قط هذه الاقتراحات الى البولنديين وانه لم يسلمها حتى إلى البريطانيين إلا في صورة غامضة ولا رسمية ، وانه طواها وعدل عنها قبل ان تنقضي اربع وعشرون ساعة على صدورها . واثبت الفوهرر في البيان الطويل الذي شرح فيه للشعب الألماني كيف ان حكومته قد استنزفت كل جهد ولجأت إلى كل وسيلة دبلوماتية للحفاظ على السلام ، والذي ساعده غوبلز حتماً في اعداده ، انه مازال بارعاً كل البراعة في الخداع والتضليل. وذكر البيان انه بعد ان عرضت الحكومة البريطانية في الثـــامن والعشرين من آب وساطتها بين المانيا وبولندة ، ردت الحكومة الالمانية في اليوم التالي ، بأنها:

« على الرغم من شكوكها في وجود أية رغبة لدى الحكومـة البولندية للوصول إلى تفاهم ، اعلنت استعدادها حرصـاً منها على السلام ، لتقبل الوساطة البريطانية واقتراحاتها.. ورأت حكومتنا ضرورة المبادرة الى العمل فوراً ودون إبطاء ، رغبة منها في تجنب خطر الكارثة . واعلنت استعدادها لاستقبال اية شخصية تنتدبها الحكومة البولندية حتى مساء الثلاثين من آب شريطة ان تكون هذه الشخصية مخولة لا بالبحث في أمر المفاوضات فحسب بل بالسير فيها ايضاً والوصول بها الى نهاية .

« وبدلاً من ان تتلقى حكومة الرايخ بيانـــاً من الحكومة البولندية عن موعد وصول مبعوثها المخول باجراء المفاوضات ، كان الرد الأول الذي تلقته على استعدادها للتفاهم ، نبأ إعلان التعبئـــة

العامة في بولندة .

« وكانت حكومة الرايخ تعلن دائماً وباستمرار عن استعدادها للشروع في المفاوضات وكانت تؤكد كذلك رغبتها فيها ، بينما كان الجانب البولندي يؤجل هذه المفاوضات منتحلاً الاعذار ومصدراً البيانات السخيفة التي لا معنى لها .

« واتضح لنا مرة ثانية نتيجة خطوة دبلوماتية قام بها السفير البولندي ، ان هذا السفير لم يكن مخولاً حتى ولا بسلطات أولية مبدئية للدخول في محادثات معنا ولا للتفاوض ايضاً .

« وهكذا انتظر الفوهرر كما انتظرت حكومة الرايخ يومين كاملين ودون جدوى وصول المفاوض البولندي .

« ولا تستطيع الحكومة الألمانية في مثل هذه الظروف إلا أن تعتبر ان اقتراحاتها قد رفضت هذه المرة ايضاً ... على الرغم من الحقيقة الواقعة وهي انها تعتبر هذه الاقتراحــات في الشكل الذي أوصلتها فيه إلى علم الحكومة البريطانية ، كانت اكثر من مجرد عادلة وعملية وصادقة . »

ولكن الدعاية الناجحة ، تحتاج كما تعلم هتلر وغوبلز من تجاربهما إلى اكثر من الكلمات المجردة لتكون فعالة ومؤثرة . انها بحاجة إلى الافعال ، مهما كانت الطريقة التي تبتكر فيها و « تفبرك » . وهكذا بعدان تمكنا من إقناع الشعب الالماني بأن البولنديين قد رفضوا عرض الفوهرر السخي لتوطيد دعائم السلام – ويستطيع مؤلف هذا الكتاب ان يشهد استناداً ملاحظـــاته الشخصية على نجاحهما – لم يبق امامهما الآن إلا « طبخ » عمل يقيم الدليل على ان بولنـدة لا المانيا هي التي بدأت بالهجوم .

ويذكر القارىء ان الالمان تحقيقاً لهذا العمل « الزائف » قد اتخذوا بتوجيه من الفوهرر : اعدادات مدروسة ومتقنة . فلقد ظل الفريد نوجوكس ، الوغد المثقف من رجال الحرس النازي ، ينتظر ستة أيام طويلة في غليويتز على الحدود

البولندية ، تنفيذ هجوم بولندي « زائف » على محطة للاذاعة الألمانية في المدينة وقد اعيد النظر في الخطة وجرى تعديلها . وتقرر ان يقوم عدد من رجال الحرس النازي يرتدون الملابس العسكرية البولندية ، بإطلاق النار ، وان يترك عدد من نزلاء معسكرات الاعتقال الالمان بعد تخديرهم ، قتلى في ارض المكان كضحايا ، واطلق على الجزء الاخير « الشهي !! » من العملية كما رأينا الاسم الرمزي « السلع المعلبة ». وكان من المقرر اجراء عدد من هذه « الهجمات البولندية » الزائفة ، لكن الهجمة الرئيسية هي التي ستقع على محطة الاذاعة في غليويتز . وقد روى نوجوكس في شهادته المشفوعة باليمين أمام محكمة نورمبرغ ، القصة على النحو التالي :

« تلقيت ظهر الواحد والثلاثين من آب من هايدريش كلمة السر للهجوم الذي تقرر تنفيذه في الساعة الثامنة من ذلك المساء . وقال لي هايدريش : « عليك لتنفيذ الهجوم ان تقابل مويلر للحصول على السلع المعلبة » . وقد نفذت هذا الأمر ، وأوعزت إلى مويلر بأن يسلمني الرجل على مقربة من محطة الإذاعة . وبالفعل تسلمت الرجل وأمرت بطرحه ارضاً على مدخل المحطة . كان الرجل حياً ، لكنه كان فاقد الوعي تماماً . وحاولت ان افتح عينيه . ولم استطع عن طريق عينيه تبين ما إذا كان حياً ، ولكن تنفسه هو الذي اثبت لي هذه الحقيقة . ولم أر الجراح التي اصيب بها من اطلاق النيران ولكنني رأيت دماء كثيرة يتلطخ بها وجهه . لقد كان في ملابس مدنية .

« وتسلمنا محطة الاذاعة طبقاً للأمر ، واذعنا كلمة استغرقت ثلاث دقائق او اربعاً ، على جهاز ارسال للطوارىء [1] ثم اطلقنا

---

١ - كان هايدريش هو الذي اعد هذا الخطاب الذي اذيع بالبولندية وسلمه الى نوجوكس. وقد تضمن الخطاب بعض العبارات النارية ضد المانيا واعلن ان البولنديين يقومون بالهجوم .

بعض العبارات النارية وغادرنا المكان » . [١]

وكانت برلين قد عزلت تلك الليلة عزلاً كاملاً عن العالم الخارجي باستثناء بعض البرقيات الصحفية والرسائل الاذاعية التي سمح لها بالخروج لتروي «عرض» الفوهرر ومزاعم الالمان عن « الهجمات » البولندية على الأرض الألمانية . وقد حاولت الاتصال هاتفياً تلك الليلة بكل من وارشو ولندن وباريس ، فقيل لي ان المواصلات مع هذه العواصم الثلاث قد قطعت . وبدت برلين عادية للغاية ، في مظهرها . ولم يكن هناك أي إجلاء للنساء والاطفال عنها على النحو الذي وقع في العواصم الاخرى ، وعندما انتهيت حوالي الساعه الرابعة من صبـــاح الاول من ايلول من اذاعتي الاخيرة إلى امريكا ، رحت اقطع بسيارتي الشوارع من دار الاذاعة إلى فندق « ادلون » . كانت الشوارع خالية حتى من السيارات العابرة . وكان الظلام يخيم على المنازل جميعها . وكان الناس نياماً ، وقد مضوا إلى فراشهم كما اعرف ، يأملون في غد أفضل وفي سلام مستقر .

وكان هتلر في « أروع حالاته » في ذلك اليوم . فقد دوّن الفريق هولدر في يومياته في الساعة السادسة من مساء الواحد والثلاثين من آب مـــا يلي : « كان الفوهرر هادئاً .. وقد نام طويلاً ... يوحي قراره بعدم اخلاء مدن الغرب من النساء والاطفال انه لا يتوقع من فرنسا وبريطانيا القيام بأي عمل حربي » [٢]

١ ـ (شهادة نوجوكس في نورمبرغ ـ محاكمات كبار مجرمي الحرب الألمان (٢) ص ٤٥١) استخدم هتلر «الهجوم البولندي» على غليويتز في الخطاب الذي القاه في الرايشستاغ في اليوم التالي كما استخدمه ريبنتروب وڤايز ساكر وغيرهما من رجال وزارة الخارجية في الدعاية على اعتباره مبرراً للعدوان النازي ، وقد نقلت « النيويورك تايمس » وغيرها من الصحف نبأ هذا الهجوم كما نقلت انباء عن حوادث مماثلة في اعداد ها الصادرة في الاول من ايلول عام ١٩٣٩ . واود ان اشير هنا ايضاً الى شهادة الفريق لاهوزين من رجال المخا برات الالمانية امام محكمة نورمبرغ ، إذ قال ان جميع رجال الحرس النازي الذين ألبسوا الملابس العسكرية البولندية واستخدموا في الهجمات الزائفة تلك الليلة قد «ازيحوا من الطريق فيما بعد» (محاكمات كبار مجرمي الحرب (٢) ص ٤٥١)

٢ ـ وجد هتلر في ذلك اليوم الوقت الكافي ليرسل البرقية التالية الى الدوق وندسور في مدينة انتيب في فرنسا :

برلين في ٣١ آب ١٩٣٩

« اشكرك على برقيتك بتاريخ السابع والعشرين من آب. وفي وسعك ان تتأكد=

أما الاميرال كاناريس ، رئيس المخابرات الالمانية في القيادة العـامة للقوات المسلحة وأحد كبار الشخصيات المتآمرة البارزة على العهد النـازي ، فكان في حالة نفسية مغايرة تماماً ، وعلى الرغم من ان هتلر كان يدفع الآن بألمانيـــا الى الحرب ، وهو العمل الذي يفترض ان رجال حلقة كاناريس من « المتآمرين » قد اقسموا على الحيلولة دونه بالخلاص من الديكتاتور ، إلا انه لم تكن هنـــاك أية مؤامرة في الوقت الذي حقق فيه هتلر عمله هذا .

واستدعى العقيد اوستر في ســـاعة متـــأخرة من بعد ظهر ذلك اليوم ، غيزيفيوس إلى مقر القيادة العامة المسلحة وكـــان هذا المركز الرئيسي للقوة العسكرية الألمانية يعج بالنشاط . وانتحى كـــاناريس بغيزيغيوس في زاوية من رواق مظلم ، وقال له في صوت يخنقه التأثر :

« انها نهاية المانيا » [1]

= من ان موقفي من بريطانيا ورغبتي في تجنب حرب بين شعبينا لم يتبدلا . لكن كل شيء يتوقف على بريطانيا فيما إذا كانت رغبتي في التطور المقبل للعلاقات الالمـــانية — البريطانية ، ستحقق او لا .

ادولف هتلر (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٤٧٢)

وكانت هذه هي المرة الاولى وان لم تكن الاخيرة التي يذكر فيها ملك انكلترا الســـابق في الوثائق الالمانية المصادرة . وسنرى فيما بعد ، كيف ان الدوق وندسور ، احتل مكانة بارزة من مخططات هتلر وريبنتروب التالية .

١ — غيزيفيوس ـــ حتى النهاية المرة — ص ٣٧٤ — ٣٧٥ .

١٧

نشوب الحرب العالمية الثانية

انطلقت الجيوش الألمانية عند فجر الأول من ايلول عـــام ١٩٣٩ ، وهو عين التاريخ الذي حدده هتلر في توجيهه الأول عن « العملية البيضاء » في الثالث من نيسان ، عبر الحدود البولندية ، مطبقة عـلى وارشو من الشمال والجنوب والغرب .

ودوّت السماء بأزيز الطائرات الألمانية وهي متجهة إلى اهدافها لقصف ارتال القوات البولندية وتجمعاتها ومستودعات الذخيرة والجسور والسكك الحديدية والمدن المكشوفة . ولم تمض بضع دقائق ، حتى كانت هذه الطـائرات تذيق البولنديين مـــن عسكريين ومدنيين على حد سواء ،أول طعم للموت الفجائي وللخرائب ، يهبطان من السماء ، وكانت هذه التجربة التي تقع لأول مرة عـلى الكرة الارضية على نطاق واسع للغاية ، فاتحه رعب سرعان ما ألفه مئـات الملايين من الرجال والنساء والاطفال في اوروبا وآسيا في غضون السنوات الست القادمة . وظل شبحه بعد تجربة القنابل النووية ، يسيطر كالكابوس على الجنس البشري قاطبة مهدداً إياه بالابادة الشاملة .

وكان النهار اغبر في برلين في ذلك الصباح ، تفعمه الرطوبة ، فقد انتشرت السحب المنخفضة في سماء المدينة ، وكأنها تضفي عليها شيئاً من الحماية من القاذفات المعادية التي خشيها الناس ولكنهم لم يروها .

وكان الناس في الشوارع متبلدين جامدين على الرغم من الانباء الضخمة التي نقلتها اليهم اجهزة الاذاعة ، وملاحق الصحف الصباحية ، اتحييهم بها تحية الصباح .[1] ورأيت جماعات من العمال ، عبر الشوارع من فندق « ادلون » الذي احل فيه يمضون إلى عملهم في البناء الذي تشيده مؤسسة (فاربين) وكأن شيئاً لم يحدث ، وعندما انطلق الصبية من باعة الصحف يركضون هاتفين بالانباء الضخمة ، لم يعرهم أحد من العمال التفاتاً ، ولم يتخل احدهم عن ادوات عمله ، ليبتاع احدى هذه الصحف . وخيّل إليّ ان الشعب الألماني اصيب بشيء من الذهول عندما افاق في ذلك الصباح الأول من ايلول ليجد نفسه في خضم حرب ، كان على ثقة من ان الفوهرر سيتمكن بطريقة ما من تجنبها . ولم يكن في وسعه ان يصدق نفسه ، أو يصدق ان الحرب قد وقعت فعلاً .

يا لها من مفارقة عجيبة . لم يكن في وسع المرء الا ان يقارن بين هذه الحالة من التبلد الشاحب الذي يسود العاصمة الألمانية اليوم وبين الحالة التي كانت فيها عندما انطلقت إلى الحرب في عام ١٩١٤ ، إذ كان الحماس العنيف يسيطر عليها، فقد مشت الجماهير في الشوارع آنذاك في مظاهرات محمومة تنثر الازاهير على الجنود المستعرضين في الشوارع ، وتهتف بجنون للقيصر ، غليوم الثاني ، القائد الأعلى للقوات المسلحة .

ولم تشهد برلين في هذا اليوم ، مثل تلك المظاهرات ولا ذلك الحماس للجنود أو للقائد الأعلى النازي ، الذي راح ينتقل بسيارته في الساعة العاشرة صباحاً من دار المستشارية إلى مجلس الرايشستاغ ، عبر شوارع خالية من الناس ، ليخطب الشعب عن الاحداث الضخمة التي اثارها هو عامداً متعمداً. وحتى اولئك الدمى من اعضاء مجلس الرايشستاغ ، الذين اختارهم هتلر على الغالب من مأجوري الحزب ؛ قد فشلوا في الاستجابة إلى الديكتاتور بالحماس الذي توقعه ، وهو

---

١ — اذيع بيان هتلر الى الجيش الذي اعلن فيه بدء العمليات الحربية في الساعة الخامسة والدقيقة الاربعين من صباح الاول من ايلول . ولم تمض بضع دقائق ، حتى كانت ملاحق الصحف في الشوارع تنقل الانباء الضخمة .

يوضح لهم الاسباب التي دفعت بألمانيا في ذلك الصباح إلى الاشتباك في الحرب . وكان الهتاف اليوم ، أقل مما ألفته تلك القاعة المزدانـــة في دار اوبرا كرول ، حتى في مناسبات سابقة أقل شأناً ، عندما كان الزعيم يخطب الاعضاء مـــن منصتها .

وعلى الرغم من بعض الانطلاقات الشرسة في خطابه اليوم ، فقـــد ظهر في موقف الدفاع على الغالب إلى حد أثار الدهشة . وخيل إلي وانا استمع إلى هذا الخطاب ، انني أكاد ألمس شيئاً غريباً فيه ، وهو ان هتلر نفسه ، قد ذهل من هذه الورطة التي وجد نفسه فيها ، وانه يحس بشيء من القنوط واليأس . وبدا وكأن هذه الفئة من المستمعين الذين انتقاهم بنفسه ، لم تستسغ الايضـــاح الذي قدمه عن تقاعس حليفه الايطالي عن الوفاء آلياً بالتزاماته في الاسراع إلى مساعدته ومضى يقول :

« وأود هنا وقبل كل شيء ان اشكر ايطاليا ، التي وقفت منا موقف التأييد طيلة الوقت ، ولكنكم تفهمون بالطبع ، أننـــا في كفاحنا هذا ، لا نعتزم ان نطلب مساعدة من الخارج. فسنحمل نحن وحدنا العبء كاملاً . »

ولما كان هتلر قد ألف الكذب إلى حد كبير في طريق وصوله إلى السلطان وفي فترة تثبيت دعائم هذا السلطان ، فإنه لم يستطع ان يمتنع في هذه الآونـة الخطيرة من التاريخ ، عن التدفق بمجموعة جديدة من الاكاذيب التي تنطلي على الشعب الالماني السريع التصديق، ليبرر هذا العمل المتهور الذي قام به... إذ قال:

« ولا ريب في انكم تعرفون المحاولات العديدة التي قمت بهـــا للوصول إلى إيضاح سلمي وتفاهم حول مشكلة النمسا ، وكذلك حول مشاكل السوديت وبوهيميا ومورافيا ... ولكن محاولاتي كلها ذهبت سدى ...

« وصفت أخيراً في محادثاتي مع الساسة البولنديين الاقتراحات الالمانية التي ليس ثمة ما يفوقها في الاعتدال والصدق . وأود الآن

ان أقول للعالم بأسره ، انني الرجل الوحيد الذي كان في وسعه ان يقدم مثل هذه الاقتراحات ، إذ انني أعرف خير معرفة ، انني بعملي هذ عرّضت نفسي للخلاف مع ملايين الألمان الذين ما كانوا ليرضوا باعتدالها ... ومع ذلك فقد رفضت هذه المقترحات .

« وظللت مع حكومتي يومين كاملين نترقب ما إذا كانت الحكومة البولندية تجد ان مما يناسبها ان توفد إلينا رسولاً مفوضاً أولا .. ولكن الناس يخطئون في الحكم علي ، إذا اعتبروا حبي للسلام وطول صبري ، ضعفاً أو جبناً .... ولم يكن في استطاعتي ان اجد عند الحكومة البولنديه أي استعداد للسير بمفاوضات جدية معنا ... ولهذا فقد عزمت على ان اتحدث لبولندة بنفس اللغة التي ظلت هي اشهراً طويلة تحدثنا بها ...

« ولقد اطلق جنود بولندة النظاميون في هذه الليلة النار لأول مرة على بلادنا ... وقد شرعنا منذ الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة والاربعين من هذا الصباح نرد النار بمثلها ، وسترد القنابل منذ هذه اللحظة على القنابل . »

وهكذا استعمل مستشار المانيا ، الهجوم الالماني الزائف على محطة إذاعة غليويتز الألمانية ، والذي نفذه رجال الحرس النازي تحت امرة نوجوكس وهم في ملابس عسكرية بولندية ، مبرراً لعدوانه المتعمد على بولندة . وقد اشارت القيادة العليا الألمانية في أول بلاغ رسمي إلى عملياتها العسكرية فوصفتها بأنها « هجمة مضادة» . وبذل وايزساكر نفسه كل جهد للترويج لهذا التزوير الفاضح ، إذ وجه في ذلك اليوم برقية دورية من وزارة الخارجية الالمانية إلى جميع بعثاتها الدبلوماتية في الخارج يشير عليها بالنهج الذي يجب ان تسلكه فيها :

« تحركت القوات الألمانية إلى العمل ضد بولندة فجر اليوم كرد دفاعي على الهجمات البولندية . ومن الواجب عدم اطلاق صفة الحرب على هذا العمل في الوقت الحاضر ، والاكتفاء بتسميته

« اشتباكات » ادت اليها الهجمات البولندية »[1]

وتعرض الجنود الألمان انفسهم الذين كان في وسعهم ان يعرفوا حقاً من البادىء بالهجوم على الحدود البولندية ، إلى قصف هائل من أكاذيب هتلر . فقد وجه الفوهرر في اليوم الأول من ايلول بياناً مشحوناً بالزهو والخيلاء الى الجيش الألماني قال فيه :

« لقد رفضت الدولة البولندية التسوية السلمية التي رغبتُ فيها للعلاقات بيننا ولجأت إلى السلاح ... وتقيم سلسلة الاعتداءات على الحدود التي لا تستطيع دولة عظيمة احتمالها ، الدليل على ان بولندة لم تعد راغبة في احترام حدود الرايخ .

« ورغبة مني في وضع حدٍ لهذا الجنون المطبق ، لم أجد مناصاً من مقابلة القوة بالقوة منذ هذة اللحظة . »

ولم يصدق هتلر في ذلك اليوم إلا مرة واحدة عندما قال في بيانه إلى الرايشستاغ:

« وانا لا اطلب من أي ألماني اكثر مما كنت انا على استعداد للقيام به طيلة سنوات اربع ... ولقد بت منذ هذه اللحظة اول جندي في الرايخ الألماني وها انا ارتدي من جديد ذلك الرداء، الذي كان دائماً مقدساً بالنسبة الي ، وعزيزاً علـي . ولن اخلعه حتى يتحقق النصر ، أو اموت قبل النهاية » .

وقد ثبت للمرة الوحيدة ، انه كان صادقاً في قوله هذا . ولكن اياً من الألمان الذين قابلتهم في برلين في ذلك اليوم ، لم يفهم ان ما عناه الفوهرر بقوله هذا ، هو انه لا يستطيع احتمال الهزيمة او مواجهتها ان وقعت .

ورشح هتلر في خطابه غورنغ لخلافته في حالة حدوث شيء له ، واضاف ان هس يأتي في الترشيح بعد غورنغ . ثم قال : « أما إذا حدث شيء لهس ايضاً فإن القانون ينص على اجتماع مجلس الشيوخ لاختيار اكثر اعضائه جدارة بالمنصب أي اكثرهم شجاعة » . ولكن ترى ما هو القانون الذي اشار اليه ؟ وأي مجلس

---

١ - وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٧) ص ٤٩١.

شيوخ عناه ؟ فالكل يعرف انه لم يكن هناك لا قانون ولا مجلس شيوخ .

ولكن هذا المزاج الهادىء والمستكين نسبياً الذي ظهر فيه هتلر في مجلس الرايشستاغ ، سرعان ما اختفى عند عودته الى دار المستشارية ليحل محله مزاج آخر من اشد الامزجة بشاعة وعنفاً . فقد وجده داهليروس « الموجود دائماً في كل مـكان » والذي يسير كذيل لغورنغ ، في دار المستشارية في حالة عصبية فائقة ، وكثيرة الاضطراب . وقد ادلى الوسيط السويدي فيما بعد بشهادته في نورمبرغ قائلاً :

« لقد قال لي انه كان يشك دائماً في ان انكلترا تريد الحرب . وقال لي ايضاً انه سيسحق بولندة ، ويضم البلاد كلها اليه ....

« واخذ يزداد هياجاً وحماساً شيئاً فشيئاً ثم شرع يلوح بيديه وهو يصرخ في وجهي : « إذا كانت بريطانيا تريد ان تحارب سنة واحدة ، فسأحارب سنة واحدة، اما اذا كانت تريد الحرب سنتين فسأحاربها سنتين ايضاً ... وتوقف قليلاً ثم عاد يصرخ وقد تحول صوته الى زعيق حاد ، بينما تدور ذراعاه في الهـــواء ... « واذا أرادت بريطانيا ان تحارب ثلاث سنوات ، فسأحاربهـــا ثلاث سنوات ... »

« وبدأت حركات جسده تسير في اهتزازات متوازنة مـــع ذراعيه ... وعندمـــا راح يصرخ أخيراً ... وسأحارب عشر سنوات إذا اقتضى الامر ، اخذ يلوّح بقبضة يده وينحني حتى ليكاد يلامس الأرض »[١].

ومع ذلك ، وعلى الرغم من كل ما عرف عنه من جنون وهوس ، فـإنه لم يكن مقتنعاً ابداً بأن بريطانيا العظمى ستحاربه . وكانت الساعة الان قـــد تجاوزت الظهيرة ، واصبحت الارتال الالمانية المدرعة على بعد عـدة اميال من

---

١ – من كتاب داهليروس – المحاولة الاخيرة – ص ١١٩ – ١٢٠ ومن شهادتـــه في نورمبرغ (محاكمات كبار مجرمي الحرب (٩) ص ٤٧١) .

الحدود داخل بولندة ، وهي ماضية في طريقها بسرعة بينما كانت القـــاذفات الالمانية قد قصفت مدن بولندة ، المهمة وبضمنها وارشو محدثة فهـــا خسائر فادحة بين اهلها المدنيين ، ومع ذلك لم تصل كلمة من لندن وباريس تشير إلى ان بريطانيا وفرنسا كانتا على عجل من امرهما في موضوع الوفـــاء بالتزاماتهما لبولندة .

وكان السبيل واضحاً أمامهما ، ومع ذلك فقد بدا داهليروس وهندرسون وكأنهما يحاولان بذل كل جهد لخلق الاضطراب في هذا السبيل .

وراح السفير البريطاني يهتف في الساعة العاشرة والنصف صباحـــاً بالرسالة التالية إلى هاليفاكس :

« علمت ان البولنديين قـــد نسفوا جسر ديرشاو في غضون الليل ،[1] وان القتال قد دار مع أهل دانزيغ . وعندمـــا وصلت الانباء الى هتلر ، اصدر امره بطرد البولنديين عن خط الحدود ، كما اوعز إلىغورنغ بتدميرالسلاحالجوي البولندي على طولالحدود . »

ولكنه ما لبث ان اضاف في نهاية برقيته العبارة التالية :

« وقد تلقيت هذه المعلومات من غورنغ نفسه ... وقد يطلب هتلر مقابلتي بعد اجتماع الرايشستاغ كآخر محاولة لانقاذ السلام »[2]

ولكن أي سلام ؟ السلام لبريطانيا ؟ فقد انقضت ست ساعات والمانيا تشن الحرب بكل ما لديها من قوات عسكرية على حليفة بريطانيا .

ولم يبعث هتلر في طلب هندرسون ، بعد اجتماع الرايشستاغ ، أما السفير

---

١ — كان الألمان قد وضعوا منذ مطلع الصيف خطتهم للاستيلاء على جسر ديرشاو على نهـــر الفستولا قبل ان يتمكن البولنديون من نسفه ، وتظهر الخطة في الاوراق الخاصة «بالعملية البيضاء» وقد امر هتلر بصورة خاصة في توجيهه اليومي رقم (١) في (٣١) آب بالقيام بهذا العمل. وقد فشلت العملية فعلا ، وذلك لان الضباب الذي ينتشر عادة في ساعات الصباح الباكر ، قد عرقل نزول المظليين الذين كان من واجبهم ان يستولوا على الجسر . ونجح البولنديون في نسف الجسر في الوقت المناسب .

٢ – وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٧) ص ٤٦٦ - ٤٦٧ .

الذي تطوع بنقل أكاذيب غورنغ إلى لندن ، من ان البولنديين هم الذين شرعوا في الهجوم ، فقد خاب امله ، ولكن ليس إلى الحد النهائي ، فقد ابرق في الساعة العاشرة والدقيقة الخمسين صباحاً من جديد إلى هاليفاكس ينقل اليـه فكرة قفزت إلى عقله الخصيب والمشوش ... فقال :

« أرى لزاماً علي ، الاعراب عن الاعتقاد ، على الرغم مـن ضآلة الامل في النجاح ، بأن الرجاء الوحيد الباقي للحفاظ عـلى السلام ، هو ان يعلن المشير سميغلي – ريدز استعداده للمجيء فوراً إلى المانيا للبحث كجندي وكمفوض في القضية كلها مع المشير غورنغ »[1]

ويبدو انه لم يخطر ببال هـذا السفير البريطاني الفريد من نوعه ان المشير سميغلي – ريدز ، منهمك الآن في محاولة دفع الهجوم الالماني الضخم وغير المستفز ، وانه حتى لو استطاع الخلاص من مسؤولياته الضخمة والمجيء الى برلين «كمفوض» فإن مجيئه هذا يكون في مثل هذه الظروف بمثابة استسلام لألمانيا . وقد يُهزم البولنديون بسرعة ولكنهم لن يستسلموا .

وكان داهليروس اكثر نشاطاً من هندرسون في غضون هذا اليوم الأول من أيام الهجوم الألماني على بولندة . وكان قد مضى في الساعة الثامنة صباحاً لمقابـلة غورنغ الذي ابلغه بأن « الحرب قد نشبت لأن البولنديين قـد هاجموا محطة الاذاعة في غليويتز ونسفوا جسراً على مقربة من دير شاو » . وراح السويدي يهتف فوراً إلى وزارة الخارجية في لندن بالانباء .

وشهد فيما بعد في نورمبرغ بقوله : «لقد ابلغت أحدهم هناك بأنه طبقاً للانباء التي وصلتني فإن البولنديين هم الذين بدأوا بالهجوم . وبالطبع استغرب القوم في لندن ، وتساءلوا هل اصابني خبال عندما نقلت اليهم هـذه المعلومات ».[2] ولكن ما نقله هذا الرجل كان نفس ما هتف به سفير جلالته في برلين بعد نحو

١ ـ وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٧) ص ٤٦٦ ـ ٤٦٧ .

٢ ـ محاكات كبار مجرمي الحرب (٩) ص ٤٣٦ .

من ساعتين .

وسجلت مذكرة سرية في وزارة الخارجية البريطانية محادثة السويدي على انها وقعت في الساعة التاسعة والدقيقة الخامسة صباحاً. وقد اصر داهليروس فيها وهو يردد ما قاله غورنغ كالببغاء ان البولنديين يخربون كل شيء ، وان لديه أدلة تثبت انهم لم يقصدوا قط القيام بأية محاولة للتفاوض »[1]

وفي الساعة الثانية عشرة والنصف ظهراً ، كان السويدي يتحدث على الهاتف من جديد إلى وزارة الخارجية البريطانية ، وكان محدثه في هذه المرة كادوغان . وراح يوجه اللوم ثانية إلى البولنديين على تحطيم السلام بنسفهم جسر ديرشاو ويقترح ان يطير من جديد بصحبة فوربس إلى لندن . ولكن كادوغان الصارم والبعيد عن الترضية ، كان قد شبع الآن من داهليروس ومحاولاته ، لا سيما وان الحرب التي حاول منعها قد وقعت فعلاً ، وراح يخبر السويدي بأنه « لم يعد في الامكان عمل شيء » .

ولكن كادوغان لم يكن اكثر من مجرد وكيل دائم لوزارة الخارجية ، وهو لا يحتل أي منصب وزاري. ولذا فقد اصر داهليروس على نقل طلبه الى الوزارة قائلاً لكادوغان بشيء من التعالي ، انه سيعود إلى الاتصال به بعد ساعة . وقد عاد فعلا إلى الاتصال ، وتلقى الرد الذي يستحقه من كادوغان الذي قال :

« لا يمكن قبول أية فكرة للتوسط في الوقت الذي تغزو فيه القوات الألمانية بولندة . والسبيل الوحيد لمنع نشوب الحرب العالمية هو وقف العمليات الحربية اولاً وانسحاب القوات الألمانية من الاراضي البولندية ثانياً .»[2]

وقابل الكونت رازينسكي السفير البولندي في لندن اللورد هاليفاكس في الساعة العاشرة صباحاً ونقل اليه رسمياً انباء العدوان الألماني مضيفاً إلى ذلك ان هذا العدوان « حالة واضحة صريحة من الحالات التي تنص عليها المعاهدة » .

---

١ - وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٧) ص ٤٧٤ - ٤٧٥ .

٢ - وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٧) ص ٦٥١ - ٦٥٢ وص ٤٧٩ - ٤٨٠ .

ورد وزير الخارجية بأنه لا يشك مطلقاً في هذه الحقيقة . واستدعى اللورد في الساعة العاشرة والدقيقة الخمسين القائم بالاعمال الألماني تيودور كوردت ، إلى وزارة الخارجية ، وسأله عما إذا كانت لديه معلومات ينقلها اليه . ورد كوردت بأنه لم يتلق أية معلومات عن وقوع هجوم الماني على بولندة ، أو أية تعليمات . واعلن هاليفاكس بعد ذلك ان التقارير التي تلقاها « تخلق وضعاً خطيراً للغاية » ولكنه لم يمض إلى ابعد من ذلك . ونقل كوردت هذه الانباء إلى برلين هاتفياً في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والاربعين صباحاً .

وكان من حق هتلر والحالة هذه ، عندما حل الظهر ، ان يأمل في ان بريطانيا على الرغم من اعتبارها الوضع حرجاً ، قد لا تدخل الحرب . ولكن سرعان ما انهار هذا الأمل .

وفي الساعة السابعة والربع من مساء اليوم نفسه اتصل موظف في السفارة البريطانية في برلين بوزارة الخارجية الألمانية طالباً من ريبنتروب تحديد موعد لهندرسون وكولوندر للبحث في « قضية في منتهى الخطورة » على ان يكون الموعد « في اسرع وقت ممكن » ووجهت السفارة الفرنسية بعد دقائق قليلة طلباً مماثلاً إلى وزارة الخارجية . ولكن ريبنتروب رفض استقبال السفيرين معاً وحدد لهندرسون موعداً لمقابلته في التاسعة مساء ولزميله الفرنسي كولوندر ، في العاشرة . وتسلم من السفير البريطاني مذكرة رسمية من الحكومة البريطانية جاء فيها :

> « .... إذا لم تكن الحكومة الألمانية على استعداد لتقديم تأكيدات مرضية الى حكومة جلالته بأنها قد اوقفت كل عمل عدواني ضد بولندة ، وما لم تكن على استعداد فوري لسحب قواتها من الاراضي البولندية ، فإن حكومة جلالته ستنفذ دون تردد التزاماتها تجاه بولندة »[1]

---

١ - وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٧) ص ٤٩٢ والكتاب البريطاني الازرق ص ١٦٨ وملاحظات شميدت في نفس الوثائق ص ٤٩٣ وص ٤٩٥ .

وصيغت المذكرة الفرنسية ايضاً في عبارات مماثلة .

ورد ريبنتروب على كل من السفيرين بأنـــه سينقل مذكرته الى هتلر ، ثم راح يفيض في حديث طويل مسهب معلناً ان ليس ثمة أي عدوان من جانب المانيا وانما هناك عدوان بولندي ، مكرراً الاكذوبة التي « أسنت » والتي تقول ان قوات بولندية نظامية هاجمت الارض الألمانية في اليوم السابق . واحتفظ الوزير الألماني بجميع « اللطائف » الدبلوماتية . ولم يتأخر السير نيفيل هندرسون عن التأكيد في برقيته التي بعث بها في تلك الليلة الى لندن واصفاً فيها مقابلته مـــع ريبنتروب ، بأن الوزير الالماني كان « مهذباً ولطيفاً » . وعندما تأهب السفير للذهاب ، ثارت مناقشة عمـــا إذا كان الوزير الألماني قد « تمتم » مسرعاً في تلاوة الاقتراحات الالمانية إلى بولندة في اجتماعهما العاصف قبل ليلتين . وقـد اكد هندرسون ان « التمتمة قد وقعت بينما اكد ريبنتروب انه قرأ الاقتراحات « ببطء ووضوح » وانه قدم ايضاحات شفوية للنقاط الرئيسية ليضمن تفهـــم السفير لكل نقطة منها . ولم يكن في الامكان الوصول إلى نتيجة بصدد هـذا الحوار ، لكنه على أي حال لم يعد مهماً الآن.[١]

وايقن هتلر ليلة الاولى من ايلول ، بينما كانت جيوشه تواصل توغلها في بولندة ، وطائراته تزيد في قصفهـــا ، وذلك بعد تلاوة المذكرتين الانكليزية والفرنسية ، انه ما لم تتوقف جيوشه عن الغزو وتنسحب مسرعة من الاراضي البولندية - وهذا أمر مستحيل – فإن الحرب العالمية واقعة لا محالة . ترى هل كان لا يزال يأمل تلك الليلة في ان حظه الذي خدمه في ميونيخ سيخدمه هذه المرة ايضاً ؟ لا ريب في ان هذا الامل قد عاد إلى الانتعاش عندما رأى صديقه موسوليني ، وقد افزعه نشوب الحرب ، وارتعد من تصور القوات الانكليزية – الفرنسية المتفوقة بحراً وبراً وجواً ، توجه ضرباتها إلى ايطاليا ، يبذل جهوداً يائسة لعقد ميونيخ ثانية .

---

١ – وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧)ص ٤٩٣ ـ الكتاب البريطاني الازرق ص ١٦٩ .

موسوليني يتدخل في اللحظة الاخيرة

يذكر القارىء ان الدوتشي ظل حتى السادس والعشرين من آب ، يحـــاول التملص من التزامات ايطاليا بموجب الميثاق الفولاذي ، ويصر على الفوهرر بأنه ما زال ثمة احتمال للوصول إلى حل سلمي ، يضمن لالمانيا « ارضاء ماديا ومعنويا كاملا » . ولم يكترث هتلر حتى بمناقشة الموضوع مع صديقه وحليفه ، مما اثار شيئاً من خيبة الأمل عند الشريك الصغير في المحور ، ومع ذلك ، فقد رأيناه في الواحد والثلاثين من آب يتشاور مع شيانو على أثر نصيحة تلقياها من سفيرهما في برلين يتحدث فيها عن حراجة الوضع الذي بات يائساً ، ويقرران حث هتلر على مقابلة السفير البولندي ، ليبسكي ، على الأقل ، ويبلغانه انهما يبذلان الجهــد لحمل الحكومة البريطانية على الموافقة على إعادة دانزيغ « كخطوة اولى » في مفاوضات السلام .

ولكن الوقت كان قد فات على اغراء هتلر بمثل هذا الطعم الصغير . وكان الفوهرر قد ابلغ قادته العسكريين ان دانزيغ لم تكن إلا مجرد ذريعة لتحقيق ما يريده وهو تدمير بولندة . ولم يكن الدوتشي يعرف هذه الحقائق . ووجد نفسه في صباح الأول من ايلول يواجه ضرورة الخيار بين اعلان حياد ايطاليـا الفوري وبين المجازفة بالتعرض إلى الهجوم من جانب بريطانيا وفرنسا . وتوضح يوميات شيانو ايضاحاً كافياً ، الكابوس الذي عاشه حموه القميء من جراء هذه الفكرة المسيطرة عليه [1]

---

١ ـ نقل قرار موسوليني بصورة فعلية إلى بريطانيا في الليلة الفائتة . فقــد تلقت وزارة الخارجية البريطانية في الساعة الحادية عشرة والربع مــن بعد ظهر الوحد والثلاثين مــن آب رسالة من السير بيرسي لورين في رومة تقول : « لقد اتخذت الحكومة الايطالية قرارها ، وحزمت امرها على ان لا تخوض الحرب ضد انكلترا وفرنسا ... وقد ابلغني شيانو هذا القرار في الساعة التاسعة والربع مساء في رسالة سرية (وثائق وزارة الخارجية البريطانيــة (٧) رقم ٦٢١ = ص ٩ ٥ ٤) .

وهتف الديكتاتور الايطالي الحزين في الساعات المبكرة من صباح الأول من ايلول إلى برلين وتحدث شخصياً إلى سفيره اوليكو ، وحثه على حــد تعبير شيانو « على ان يتوسل إلى هتلر ليبعث اليه ببرقية تحرره من التزاماتـه بموجب المعاهدة . [١] ولم يتوان الفوهرر عن تلبية هذا الطلب عن طيبة خاطر » وراح يبعث عن طريق الهاتف في الساعة التاسعة والاربعين صباحاً ببرقية إلى السفارة الألمانية في رومه لإيصالها إلى صديقه كسباً للوقت وهذا نصها :

« الدوتشي :

« اشكرك جزيل الشكر على ما قدمته من عون دبلومــاتي وسياسي الى المانيا وقضيتها العادلة مؤخراً . واني لواثق من ان في وسعنا إداء المهمة التي فرضت علينا بقوات المانيــا العسكرية وحدها . ولهذا فأنا لا انشد معونة عسكرية من ايطاليا في مثــل هذه الأوضاع . واني لاشكرك ايضاً ايها الدوتشي على كل ما قـد تقوم به في المستقبل دعماً للقضية المشتركة بين الفاشية والاشتراكية الوطنية .

ادولف هتلر [٢]

وشعر هتلر في الساعة الثانية عشرة والدقيقة الخامسة والاربعين من ظهـــر اليوم ، وبعد ان انتهى من خطابه في الرايشستاغ ، واستعاد وعيـه من سورة غضبه التي انتابته امام داهليروس ، بالرغبـــة في ان يبعث برسالة اخرى إلى موسوليني . وراح هتلر يعلن في رسالتـه انه كان على استعداد لحـــل المشكلة البولندية عن « طريق التفاوض » وانه ظل « اكثر من يومين كاملين ينتظر عبثاً

= وقد فزع الايطاليون فزعاً شديداً ، من قيام البريطانيين بقطع كافة اتصالاتهم الهاتفية مع رومة بعد الساعة الثامنة مساء وخشي شيانو ان يكون هذا مقدمة لهجوم انكليزي - فرنسي على ايطاليا .

١ - يوميات شيانو ص ١٣٥

٢ - وثائق وزارة الخارجية المانية (٧) ص ٤٨٣ . اعلنت اذاعة رومه في الساعة الرابعة =

وصول مفاوض بولندي » ، واضاف انه « في الليلة الماضية وحدها وقعت اربع عشرة حادثة فقط من حوادث خرق الحدود » وانه نتيجة لذلك قرر « الآن ان يرد على القوة بالقوة » . ثم انتقل إلى التعبير من جديد عن اعترافه بجميل شريكه المتملص من التزاماته وقال :

« اشكرك يا دوتشي على جميع جهودك واني لاشكرك بوجه خاص على ما عرضته من وساطة . ولكنني كنت منذ البداية كثير الشكوك في نجاح هذه المحاولات وذلك لانها لو كانت تنوي حقاً حلّ هذه القضية بصورة ودية لفعلت ذلك منذ عهد بعيد ولكنها كانت ترفض دائماً كل حل .

« ولهذا السبب يا دوتشي ، لم تكن لدي رغبة في ان اعرضك لخطر اتخاذ دور الوسيط ، وهو دور كان لا بد له ان يفشل بسبب موقف الحكومة البولندية العنيد كل العناد ...

ادولف هتلر [1]

ولكن موسوليني لم يستمع الى هذه النصيحة ، فراح مدعوماً من شيانو يقوم بآخر محاولة يائسة لتعريض نفسه لخطر اتخاذ دور الوسيط . وكان شيانو في اليوم السابق ، وبعيد الظهر ، قد اقترح على سفيري بريطانيا وفرنسا في رومه ، ان يقوم موسوليني ، اذا وافقت حكومتاهما ، بدعوة المانيا الى مؤتمر يعقد في الخامس من ايلول ، « لدراسة بنود معاهدة فرساي التي تعتبر السبب في المتاعب الحالية » .

ومن المحتمل ان يكون الظن قد ساد على اثر الانباء عن غزو الألمان بولندة في الصباح التالي ، بأن اقتراح موسوليني قد بات فكرة لا خير يرجى منها .

= النصف مساء وبعد اجتماع عقده مجلس الوزراء الى الشعب الايطالي ان ايطاليا ان تقوم باية مبادرة في العمليات العسكرية . وقد اذيع بعد هذا البيان نص رسالة هتلر الى موسوليني التي حرر فيها ايطاليا من التزاماتها العسكرية.

١ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٤٨٥ ـ ٤٨٦ .

ولكن الايطاليين ما لبثوا ان دهشوا عندما هتف جورج بونيه وزير خارجية فرنسا والداعية الاكبر لسياسة الترضية إلى فرانسوا – بونيه الذي كان في هذه الآونة سفيراً لفرنسا في رومه، وذلك في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والاربعين قبل ظهر الأول من ايلول ، طالباً اليه أن ينقل إلى شيانو ، ترحيب الحكومة الفرنسية بمثل هذا المؤتمر شريطة أن لا يحاول معالجة مشاكل البلاد غير الممثلة فيه . واشترطت فرنسا أيضاً ان لا يحصر المؤتمر نفسه في البحث عن « الحلول الجزئية والمؤقتة للمشاكل المحدودة والفورية » . ولم يذكر بونيه شيئاً عن موضوع انسحاب القوات الألمانية أو حتى توقف زحفها ، كشرط لعقد مثل هذا المؤتمر » [1]

ولكن بريطانيا كانت مصرّة على هذا الشرط ، وقد أفلحت اخيراً في حمل الوزارة الفرنسية المجزأة ، معها في إصرارها هذا ، مما أدى إلى التمكن من تقديم مذكرتي انذار متشابهتين الى برلين ليلة الأول من ايلول . ولما كان نص هاتين المذكرتين اللتين تعلنان ان بريطانيا وفرنسا ستمضيان الى الحرب إذا لم تسحب القوات الألمانية من بولندة ، قد أذيع على العالم في نفس الليلة ، فإن من الطريف ان نلاحظ ، ان موسوليني الذي يحاول الآن التمسك بأية قشة موجودة أو غير موجودة ، مضى في الصباح التالي يوجه نداء آخر الى هتلر ،

---

١ ـ اصدر بونيه تعليماته الى سفيره في وارشو ، نوبل ، مرتين بعد ظهر الاول من ايلول ، ليسأل بيك اذا كانت بولندة تقبل بالاقتراح الايطالي لعقد المؤتمر . وتلقى في ساعة متأخرة من المساء رد الوزير البولندي الذي قال : « اننا نخوض الان حرباً أثارها عدوان لم يستفز . ولم تعد القضية موضوع مؤتمرات تعقد ، بل باتت عملاً مشتركاً يجب على الحلفاء ان يقوموا به معاً للمقاومة » .وقد وردت رسائل بونيه ورد بيك في الكتاب الفرنسي الاصفر.

ولم تشترك الحكومة البريطانية نفسها في محاولات بونيه . وتقول مذكرة لوزارة الخارجية البريطانية وقعها ر . م . ، ماكينز ، ان الحكومة البريطانية « لم تستشر ولم تبلغ ايضاً بهذه الخطوة الدبلوماتية(رسالةبونيه كا إلى بونسيه ـ الكتاب الفرنسي الاصفر الطبعة الفرنسية ص٣٧٧ ـ ٣٧٨ . واقتراح موسوليني في نفس المصدر ص ٣٦٠ ـ ٣٦١ . أما مذكرة ماكينز فقد وردت في وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٦) ص ٥٣٠ ـ ٥٣١) .

وكأنه أي الدوتشي لم يصدق ما جاء في نص الانذارين الانكليزي والفرنسي .

وكان الثاني من ايلول ، على حد تعبير هندرسون في تقريره الاخير يوم شك وترقب . [1] وظل السفير البريطاني وزميله الفرنسي ، ينتظران بقلق رد هتلر على مذكرتيهما دون جدوى ، ووصل اتوليكو بعيد الظهر بقليل وهو يلهث راكضاً إلى دار السفارة البريطانية ليسأل هندرسون شيئاً واحداً يريد الرد عليه بسرعة ، وهو هل كانت المذكرة البريطانية المقدمة في الليلة الماضية إنذاراً نهائياً او لا ؟

وكتب هندرسون فيما بعد يقول : « وابلغت السفير الايطالي بأنني كنت مخولاً لأن أقول لوزير خارجية ألمانيا لو سألني هذا السؤال ، ولكنه لم يسأله ، بأن المذكرة مجرد إنذار لا إنذار نهائي » [2]

وراح السفير الايطالي بعد ان تلقى الرد يقطع الويلهلمشتراسه قاصداً وزارة الخارجية الألمانية . وكان اتوليكو قد وصل إلى الوزارة قبل ذلك الساعة العاشرة صباحاً يحمل رسالة من موسوليني ، فلما قيل له ان ريبنتروب متغيّب لمرضه ، سلمها إلى وايزساكر وهذا ما جاء فيها :

« ترغب ايطاليا ، بقصد الإعلام ان تبلغ الحكومة الألمانية تاركة بالطبع أمر القرار النهائي للفوهرر، انها ما زالت ترى احتمالاً في حمل فرنسا وبريطانيا وبولندة على الموافقة على عقد مؤتمر على اساس القواعد التالية :

« ١ عقد هدنة فورية مع بقاء الجيوش في الاماكن التي وصلتها عند عقدها .

---

١ ـ قام هندرسون بعدظهر اليوم السابق بناء على تعليمات تلقاها من هاليفاكس باحراق مفاتيح الرموز في سفارته وغير ذلك من الوثائق السرية ، وطلب رسمياً الى القائم بأعمال السفارة الامريكية « ان يتكرم برعاية المصالح البريطانية في حالة نشوب الحرب » (الكتاب البريطاني الازرق ص ٢١).

٢ ـ تقرير هندرسون الاخير ـ ص ٢٢ .

« ٢ — عقد المؤتمر في غضون يومين أو ثلاثة .

« ٣ — حل مشكلة النزاع بين بولندة والمانيا ، على نحو يكون مرضياً لالمانيا بالنسبة إلى الأوضاع الراهنة .

« وتلقى الفكرة التي نبتت في البداية عن الدوتشي ، تأييداً خاصاً في هذه اللحظة من جانب فرنسا .[١]

« وقد غدت دانزيغ الآن المانية ، وحصلت المانيا الآن على ضمانات تحقق لها القسم الاكبر من مطالبها . يضاف إلى هذا ان المانيا قد حققت حتى الآن الترضية المعنوية . وإذا ما قبلت باقتراح عقد المؤتمر فإنها ستحقق جميع أهدافها ، وتتمكن من تجنب الحرب ، التي شرعت منذ الان تتخذ طابعاً عاماً ، وتبدو وكأنها ستستمر أمداً طويلاً .

« ولا يريد الدوتشي ان يلحف ولكنه يرى من الخطوره بمكان كبير ، ان تعرض جميع هذه الأفكار فوراً على الهر فون ريبنتروب وعلى الفوهرر »[٢]

وليس من المستغرب والحالة هذه ان يكون ريبنتروب الذي شفي من مرضه بسرعة ، قد أكد لاتوليكو عندما استقبله في الساعة الثانية عشرة والنصف ، انه لا يمكن التوفيق بين اقتراح الدوتشي وبين المذكرتين الانكليزية والفرنسية اللتين قدمتا في الليلة الفائتة واللتين تحملان « طابع الانذار النهائي »

وقاطع السفير الايطالي الذي لم يكن يقل عن رئيسه اهتماماً في تجنب الحرب العالمية وان كان يفوقه اخلاصاً ، الوزير الالماني ليقول ان « رسالة الدوتشي الاخيرة قد نسخت البيانين البريطاني والفرنسي . وبالطبع لم يكن من حق

---

١ — يزعم شيانو ان المذكرة قد ارسلت تلبية لضغط فرنسا (يوميات شيانو ص ١٣٦) . ولكن هذا القول تضليل ولا ريب . إذ على الرغم من ان بونيه قد بذل كل ما لديه من جهد لعقد مؤتمر ، كان موسوليني اكثر منه إلحافاً في تنفيذاقتراحه .

١ — وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٥٠٩ — ٥١٠ .

اتوليكو الادلاء بمثل هذا البيان بأي حال من الأحوال ، لا سيما وانه كان يفتقر إلى الصحة ، ولكن يبدو ان السفير قد تصور انه في مثل هذه المرحلة المتأخرة ، قد لا يخسر شيئاً من جراء إلقاء الكلام على عواهنه . وعندما أعرب وزير خارجية المانيا عن شكوكه في صحة ما يقول السفير تمسك هذا برأيه وقال:

« لم يعد البيانان البريطاني والفرنسي موضع اعتبار . فلقد هتف الكونت شيانو في الساعة الثامنة والنصف من هذا الصباح ، أي بعد إذاعة البيانين حتماً من محطة إذاعة رومه وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار البيانين منسوخين . وذكر الكونت شيانو ايضاً ان فرنسا تؤيد اقتراح الدوتشي بصورة خاصة . ويقع الضغط في الآونة الراهنة من جانب فرنسا ولكن انكلترا ستحذو حذوها . » [١]

واحتفظ ريبنتروب بتشككه . فلقد بحث اقتراح موسوليني الاخير مع هتلر وكان كل ما يريد الفوهرر ان يعرفه هو هل تعني المذكرتان البريطانية والفرنسية الانذار النهائي ؟ ووافق وزير الخارجية أخيراً على اقتراح اتوليكو بأن يمضي فوراً لاستشارة هندرسون وكولوندر ليعثر لديهما على الرد الذي ينشده لهذا السؤال .

وكان هذا التطور هو السبب الذي حمل اتوليكو على زيارة السفارة البريطانية وكتب شميدت الذي تولى الترجمة بين ريبنتروب واتوليكو فيما بعد يقول : ما زلت اتصور اتوليكو الذي تجاوز شرخ الشباب ، وهو يركض عائداً من مكتب ريبنتروب هابطاً الدرج بسرعة فائقة ليتحدث الى هندرسون وكولوندر . ولم تمض نصف ساعة حتى كان يركض عائداً وهو يلهث متقطع الانفاس على النحو الذي تركنا فيه . » [٢]

وبعد ان استعاد نفسه ، قال السفير الايطالي ان هندرسون قد ابلغه قبل

---

١ - شميدت - ترجمان هتلر ص ٥١٢ - ٥١٣ .

٢ - شميدت - ترجمان هتلر ص ١٥٦ .

لحظات بأن المذكرة البريطانية لم تكن انذاراً . ورد عليه ريبنتروب قائــلا : « لما كانت الضرورة تحتم ان يكون الرد الألماني على البيان الانكليزي والفرنسي سلبياً ، فإن الفوهرر يقوم الآن بدرس اقتراحات الدوتشي ، وإذا كانت رومه تؤكد عدم وجود طابع الانذار في البيانين ، فان الحكومة الالمانية ستعد الرد في يوم أو يومين على الاقتراحات » . وعندما ألحّ اتوليكو في المطالبــة برد مبكر ، وافق ريبنتروب اخيراً على ان يقدم اليه الرد ظهر اليوم التالي الأحد في الثالث من ايلول .

وتحطمت احلام موسوليني في رومه في غضون ذلك . فقد استقبل شيانو في الساعة الثانية بعد الظهر سفيري بريطانيا وفرنسا وراح يهتف بحضورهما إلى هاليفاكس وبونيه ليبلغهما بما جرى من حديث بين سفيره اتوليكو وبين وزير خارجية المانيا . وكان بونيه متلهفاً كعادته ، وشكر كما روى هو نفسـه في الكتاب الفرنسي الاصفــر لشيانو جهوده الهادفـــة إلى احــلال السلام ، شكراً حاراً . أما هاليفاكس فكان أكثر خشونة وصرامة . وقد أيد القول بأن المذكرة البريطانية لم تكن إنذاراً نهائياً مما يشــير دهشة المرء من هــذا التضارب الدقيق في المعاني بين الساسة لكلمة واحدة ، إذ ان البيانين كانا يتحدثان عن حقيقتهما حديثاً ذاتياً - واضاف انه يرى أن الحكومة البريطانية لا تستطيع قبول اقتراح موسوليني بعقد المؤتمر إلا إذا انسحبت الجيوش الألمانية من بولندة . وهو موضوع ظل بونيه ساكتاً عنه. ووعد هاليفاكس بأن ينقل إلى شيانو هاتفياً قرار الحكومة البريطانية في الموضوع .

وصدر القرار بعيد الساعة السابعة مساء . ونص على ان بريطانيا تقبــل بعرض الدوتشي شريطة ان يسحب هتلر جيوشه إلى الحدود الألمانيــة وادرك وزير الخارجية الايطالي ان هتلر لن يقبل مطلقاً بهذا الشرط . ودب اليأس إلى فؤاده من تحقيق أية نتيجة ، وراح يروي في يومياته ..

« ليس من شأني ان انصح هتلر نصيحة انا واثق من رفضه لها رفضاً قاطعاً قد ينطوي أيضاً على الازدراء. واعربت عن رأيي هذا

لكل من هاليفاكس والسفيرين والدوتشي ، وقررت اخيراً ان أهتف لبرلين اقول ... انه ما لم يصلنا ما يناقض ذلك ، فإننا سنعتبر ان المحادثات قد انتهت إلى الفشل . وهكذا اختفت آخر نغمة من نغمات الأمل بالسلام » [1]

وهكذا راح اتوليكو الذي انهكته جهود الأيام الاخيرة وسحقته سحقاً ، يشق طريقه مرة ثانية في الساعة الثامنة والدقيقة الخمسين من مساء الثاني من ايلول إلى دار وزارة الخارجية الألمانية ، ولكن ريبنتروب استقبله هذه المرة في دار المستشارية إذ كان فيها يحضر اجتماعاً لهتلر . وسجلت وثيقة المانية مصادرة المنظر على النحو التالي :

« حمل السفير الايطالي إلى وزير الخارجية المعلومات التي تفيد بأن بريطانيا ليست على استعداد للدخول في مفاوضات على اساس الاقتراح الايطالي بالتوسط . واضاف ان بريطانيا تشترط قبل الشروع في المفاوضات انسحاب جميع القوات الالمانية فوراً من دانزيغ ومن المناطق البولندية المحتلة .

« وختم السفير الايطالي حديثه قائلاً ان الدوتشي يعتبر أن وساطته لم تعد قائمة . وتسلم وزير الخارجية هذا البلاغ من السفير الايطالي دون أي تعليق [2]

حتى ولو كلمة شكر لاتوليكو الذي لا يكل ولا يمل ! ان هذا الصمت ينطوي على شيء من الاحتقار للحليف الذي يحاول ان يحرم المانيا الآن من اسلابها في بولندة .

وهكذا اختفى الآن ذلك الأمل الاخير والضئيل في تجنب الحرب العالمية الثانية . ويبدو ان هذه الحقيقة كانت واضحة للجميع باستثناء ممثل واحد في تلك المسرحية . ففي الساعة التاسعة مساء هتف بونيه الخائر العزيمة إلى

---

١ - يوميات شيانو ص ١٣٦ - ١٣٧ .

٢ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٥٢٤ - ٥٢٥ .

إلى شيانو مؤكداً مرة ثانية ان المذكرة الفرنسية إلى المانيا لا تحمل طابع الانذار النهائي « وكرر من جديد استعداد الحكومة الفرنسية للانتظار حتى ظهر الثالث من ايلول - أي اليوم التالي - ترقباً للرد الالماني . وأضاف : « ان نجاح المؤتمر في تحقيق نتائج طيبة » يحتم على فرنسا ان تتفق مع بريطانيا في وجوب جلاء القوات الألمانية عن بولندة . وكانت هذه هي المرة الأولى التي يذكر بونيه فيها موضوع الجلاء ، ولم تكن اشارته اليه إلا ناجمة عن اصرار البريطانيين اصراراً جازماً على اشتراطه . ورد شيانو بأنه لا يعتقد بأن حكومة الرايخ ستقبل هذا الشرط . ولكن بونيه لا يستسلم ، وراح يبحث طيلة الليل عن مخرج نهائي يمكن فرنسا من التحلل من التزاماتها تجاه بولندة التي تتعرض الآن للدمار والحصار . ويروي شيانو قصة هذه الحركة المتقلبة الغريبة في الفقرة الأولى من يوميته التي دونها بتاريخ الثالث من ايلول إذ قال :

« أيقظتني الوزارة من نومي تلك الليلة ، لأن بونيه قد طلب من غواريغليا (السفير الايطالي في باريس) ، اعلامه ما إذا كان باستطاعتنا ان نحمل المانيا على سحب قواتها سحباً رمزياً من بولندة ... وقد ألقيت بالاقتراح في سلة المهملات دون ان انقله إلى الدوتشي . ولكن هذه الخطوة تظهر ان فرنسا تسير نحو المحنة الكبرى دون حماس وأسيرة للشكوك . » [1]

الحرب البولندية تتحول الى الحرب الكونية الثانية

كان يوم الاحد الثالث من ايلول عام ١٩٣٩ من ايام نهاية الصيف الجميلة في

---

١ - يوميات شيانو ص ١٣٧ . اكد دي مونزي العضو الانهزامي في مجلس الشيوخ الفرنسي هذه الرواية في الصفحتين ١٤٦ و ١٤٧ من كتابه « حدث ذات يوم » .

برلين . وكانت الشمس مشرقة ، والهواء عطراً منعشاً ، فالنهار في تلك الايام الحلوة التي يود البرليني ـ كما دونت في يومياتي ـ لو قضاها « في الغابات أو على ضفاف البحيرات القريبة » .

وعندما بزغ فجر ذلك النهار ، وصلت برقية إلى السفارة البريطانية في برلين ، موجهة من اللورد هاليفاكس إلى السير نيفيل هندرسون يأمره فيها بأن يسعى لمقابلة وزير الخارجية الألمانية في الساعة التاسعة صباحاً وان ينقل اليه البلاغ الذي اوردت البرقية نصه .

أجل لقد وصلت حكومة تشمبرلين إلى نهاية الطريق . وكانت قد ابلغت هتلر قبل اثنتين وثلاثين ساعة ، انه ما لم تسحب المانيا قواتها من بولندة فإن بريطانيا ستمضي إلى حربها . ولم تتلق الحكومة البريطانية رداً ، فحزمت امرها الآن على الوفاء بتعهدها ، وكانت الخشية سيطرت عليها في اليوم السابق ـ كما روى شارل كوربان السفير الفرنسي في لندن لوزيره المتردد بونيه في الساعه الثانية والنصف مساء ـ من ان يكون هتلر يتعمد التأجيل رغبة منه في اقتناص اكثر ما يمكنه من الاراضي البولندية ، حتى إذا ما ضمن لنفسه دانزيغ والرواق وبعض المناطق الاخرى ، تقدم بعرض « فخم » للسلام يستند الى النقاط الست عشرة التي اوردها في الواحد والثلاثين من آب . [١]

وكان هاليفاكس رغبة منه في اجتناب هذا الشرك قد اقترح على فرنسا ان تعلن الدولتان الغربيتان حالة الحرب على المانيا إذا لم يتلقيا في غضون بضع ساعات رداً مرضياً من الحكومة الألمانية على مذكرتيهما المؤرختين في الاول من ايلول . وعلى أثر القرار الحازم الذي اتخذته الوزارة البريطانية في الجلسة التي عقدتها بعد ظهر الثاني من ايلول ، اقترح هاليفاكس بصورة مجددة ، ان توجه الدولتان الحليفتان عند منتصف الليل انذاراً نهائياً إلى برلين ، يحدد المهلة للاستجابة إلى طلبهما في الساعة السادسة من صباح الثالث من ايلول . [٢] ولكن

---

١ — برقية كوربان ـ الكتاب الفرنسي الاصفر ـ الطبعة الفرنسية ـ ص ٣٩٥ .

٢ ـ يستندهذا الجزء الى وثائقوزارة الخارجية البريطانية (٧) . وهناك تلخيص رائع يستند ـ

بونيه لم يكن على استعداد للاستماع إلى عمل عجول متهور من هذا النوع .

وكانت الوزارة الفرنسية المنقسمة على نفسها انقساماً سيئاً ، قد مرت بفترة عصيبة في الاسبوع الماضي في سبيل الوصول إلى قرار يتعلق بالوفاء لالتزامات فرنسا إلى بولندة وإلى حليفتها بريطانيا على وجه خاص . وكان بونيه في ذلك اليوم الاسود ، الثالث والعشرين من آب ، وقد هالته الانباء الواردة من موسكو عن وصول ريبنتروب اليها بقصد التوقيع على ميثاق عدم الاعتداء النـــازي – السوفياتي ، قد افلح في اقناع ديلادييه باستدعـــاء مجلس الدفاع الوطني الى اجتماع للبحث فيما يتوجب على فرنسا عمله .[1] وقد حضر هذا الاجتماع بالاضافة إلى الرئيس ديلادييه وبونيه ،كل من وزراء القوات المسلحة الثلاث الفريق غاملان وقائدا الطيران والاسطول واربعة آخرين من الفرقاء العسكريـــين الاضافيين فبلغ مجموعهم اثني عشر شخصاً .

وتروي وقائع هذا الاجتماع ان ديلادييه وجه ثلاثة اسئلة :

« ١ – هل تستطيع فرنسا ان تظل مكتوفة اليدين وهي ترى ان بولندة ورومانيا أو واحدة منهما ، تزال من خارطة أوروبا ؟

« ٢ – ما هي السبل التي تملكها لمقاومة هذا الاحتمال ؟

« ٣ – ما هي الاجراءات التي يجب اتخاذها الان ؟

وبعد ان أوضح بونيه التطور الخطير في الاحداث وجه سؤالاً قدر له أن يحتل مكانة بارزة في تفكيره حتى النهاية :

= الى الاوراق السرية لوزارة الخارجية البريطانية والى بعض المصادر الفرنســـية المتوافرة ، في كتاب « عشية الحرب » من اعداد ارنولد وفيرونيكا توينبي . ويعتبر كتاب نامير « مقدمـــة دبلوماتية » من الكتب النافعة ايضاً .

١ – اعد الفريق ديكامب ، رئيس الغرفة العسكرية لرئيس الوزراء وقائع هذا الاجتماع التي عرضت في محاكمات ريوم . ولم تعرض الوثيقة التي تضم هذه الوقائع على الاعضاء الاخرين الذين اشتركوا في الاجتماع لتصحيحها ، ويدعي الفريق غاملان في كتابه «الانصاف» ان هذه الوقائع قد اختصرت الى الحد الذي اكسبها صفة التضليل . ومع ذلك فقد ايد « الجنراليسمو » الضعيف خطوطها الرئيسية

« على ضوء دراستنا للوضع ، أمن الافضل ان نظل أوفيـــاء لالتزاماتنا ، وان نخوض الحرب تبعاً لذلك ، أو ان نعيد النظر في موقفنا وان نفيد من المهلة التي نكسبها عن هذا السبيل ؟.... ان الرد على هـذا السؤال ذو طابع عسكري بصورة رئيسية ...

وهكذا عندما احيل الموضوع إلى العسكريين رد غاملان والاميرال دارلان على النحو التالي :

« ان الجيش والاسطول على استعداد. وقد لا يكون في وسعهما أن يفعلا الكثير ضد المانيا في المراحل الأولى من الصراع. لكن مجرد التعبئة الفرنسية العسكرية نفسها تمنح البولنديين بعض المساعدة إذ ترغم المانيا على تجميد وحدات قوية من جيشها عند حدودنا .

« ... وعندما سئل الفريق غاملان عن المدة التي يعتقد أن بولندة ورومانيا تستطيعان الصمود فيها، قال انه يعتقد بأن بولندة ستقاوم مقاومة شريفة ، مما يمنع القسم الاكبر من القوات الألمانية من التحول ناحية فرنسا قبل حلول الربيع ، وآنذاك تكون قوات بريطانيا قد اصبحت الى جانبنا » .[1]

---

١ – يعترف غاملان في كتابه « الانصاف » ، بأنه تردد في لفت انظار المجتمعين الى بعض نواحي الضعف العسكرية في الجيش الفرنسي، لانه لم يكن يثق ببونيه .وهو يروي عن ديلادييه انه قال فيها بعد : « لقد احسنت صنعاً . لو انك كشفت عن هذه النواحي ، لعرف الالمان بهـا في اليوم التالي » .

وزعم غاملان في كتابه أيضاً، أنه أشار في هذا المؤتمر الى الضعف في مركز فرنسا العسكري. ويقول انه اوضح للمجتمعين ان المانيا « اذا تمكنت من القضاء على بولنـدة » ثم قذفت بعد ذلك بجماع قوتها ضد فرنسا ، فإن هذه ستغدو في وضع « صعب ». وقال : « وفي مثل هذه الحالة لن يكون في وسع فرنسا ان تخوض الصراع ... واني لآمل في الربيع وبمساعدة القوات البريطانية والمعدات الاميركية ، في ان نصبح في وضع يمكننا من خوض معركة دفاعية (اذا تحتم علينـا خوضها) . واضفت ان ليس في وسعنا ان نأمل بالنصر الا في حرب طويلة . ولقد كان من رأيي دائماً، ان ليس في مكنتنا ابداً اتخاذ موقف الهجوم قبل عامين على الاقل أي في عام ١٩٤١ – ١٩٤٢ ».

وتوصل الفرنسيون بعد نقاش طويل الى قرار دونته وقائع الاجتماع تدويناً دقيقاً وهذا نصه :

«تبيّن نتيجة للنقاش اننا إذا غدونا بعد بضعة شهور أقوى مما نحن الآن ، فإن المانيا ستكون كذلك اقوى بكثير من وضعها الراهن ، إذ ان موارد بولندة ورومانيا كلها ستصبح تحت تصرفها.

« ولهذا فليس أمام فرنسا مجال للاختيار .

« ان الحل الوحيد هو التمسك بالتزاماتنا لبولندة التي ارتبطنا بها قبل الشروع في المفاوضات مع الاتحاد السوفياتي . »

وسرعان ما شرعت الحكومة الفرنسية في العمل بعد ان حزمت أمرها . واستنفر الجيش الفرنسي في الثالث والعشرين من آب ، أي بعد الاجتماع .وطلب إلى جميع قوات الحدود ان تكون في مواقعها الحربية، واستدعت الحكومة إلى الخدمة في اليوم التالي ثلاثمائة وستين الفاً من افرادالاحتياطي .ونشرت الحكومة في الواحد والثلاثين من آب بلاغاً رسمياً يقول ان فرنسا ستفي بالتزاماتها بعزم وتصميم . وتمكن هاليفاكس في اليوم التالي أي اليوم الأول من الهجوم الالماني على بولندة ، من اقناع بونيه بأن تشترك فرنسا مع بريطانيا في توجيه الإنذار إلى برلين بأن الدولتين ستفيان بتعهداتها لحليفتهما .

ولكن الفريق غاملان واعضاء هيئة أركان الحرب الفرنسية جبنوا في اليوم الثاني من ايلول ، عندما ألحت بريطانيا على وجوب توجيه إنذار نهائي إلى هتلر عند منتصف الليل . فالفرنسيون وحدهم ، على أي حال ، هم الذين سيخوضون المعركة ، إذا ما راح الألمان يهجمون في الغرب فوراً . ولن يكون عندهم جندي بريطاني واحد ، يقدم لهم العون . وأصرت هيئة أركان الحرب على التأجيل ثماني واربعين ساعة ، لتواصل تعبئة قواتها العامة دون تدخل من العدو .

= ولا ريب في ان هذه الآراء الحائرة الصادرة عن الجنرال الاكبر توضح الكثير من احداث التاريخ اللاحقة .

وهتف هاليفاكس في الساعة السادسة مساء الى السير اريك فيبس سفير بريطانيا في باريس يقول : « لا تستطيع الحكومة البريطانية الانتظار ثماني واربعين ساعة . ان حكومة جلالته لا تستطيع ان تفهم الموقف الفرنسي الذي يخلق لها المتاعب . »

وبالفعل بات وضع الحكومة البريطانية خطيراً بعد ساعتين ، عندما نهض تشمبرلين ليلقي خطابه في مجلس العموم الذي كانت غالبية اعضائه ، من مختلف الاحزاب ، قد نفد صبرها من تباطؤ الحكومة البريطانية في الوفاء لالتزاماتها . وبالفعل لم يعد هناك مجال للصبر بعد ان ألقى رئيس الوزراء خطابه . فقد ذكر للمجلس ان حكومته لم تتلق بعد رداً من برلين . وما لم يصل هذا الرد ، وما لم ينطو على تأكيد المانيا سحب قواتها من بولندة ، فإن الحكومة تجد نفسها « ملزمة بالشروع في العمل الحربي » . أما إذا وافق الالمان على الانسحاب فستكون الحكومة البريطانية «على استعداد لاعتبار الوضع على النحو الذي كان عليه قبل ان تعبر القوات الألمانية حدود بولندة . » واضاف ان الحكومة على اتصال مستمر في غضون ذلك بفرنسا لتحديد موعد نهائي للانذار الموجه الى المانيا .

وهكذا لم يكن مجلس العموم بعد انقضاء تسع وثلاثين ساعة من الحرب في بولندة ، في وضع من يرضى بمثل هذه الاجراءات الطويلة . وبدا ان رائحة ميونيخ عادت تنتشر من مقاعد الحكومة . وانطلق صوت ليوبولد ايمري ، من مقاعد المحافظين ، يصرخ هاتفاً : « دافع عن انكلترا » مخاطباً ارثر غرينوود نائب زعيم المعارضة العمالية ، عندما شرع يخطب في المجلس قائلا : « لا أدري حتام سنظل على هذا الموقف من التذبذب في الوقت الذي تتعرض فيه بريطانيا وكل ما تمثله ، بل الحضارة الانسانية جمعاء للخطر ... ان الواجب يحتم علينا ان نمضي قدماً مع فرنسا إلى الامام .. »

ولكن هنا تقوم المشكلة . بل هنا بيت القصيد . فلقد بدا ان من الصعب في هذه اللحظة ، حمل فرنسا على المضي قدماً إلى الامام . لكن تشمبرلين كان

قد بلغ به التأثر من موجة الغضب المسيطرة على المجلس حداً عرضه للاضطراب فراح يتدخل في المناقشة الحادة ، مدعياً ان التنسيق في «الافكار والاعمال» عن طريق الهاتف مع باريس يتطلب وقتاً طويلاً . واضاف قائلاً : « ولا ريب في انني سأرتعد فزعاً إذا طاب للمجلس ان يتصور لحظة واحدة ، ان الخطاب الذي ألقيته قبل قليل، يوحي بوجود أي ضعف مهما قل من ناحية حكومتنا أو الحكومة الفرنسية » . وقال انه فهم ان الحكومة الفرنسية «تعقد اجتماعاً في هذه اللحظة » واننا سنستلم منها رسالة « في غضون الساعات القليلة القادمة » . وقد حاول على أي حال ان يؤكد للنواب الثائرين انه لا يتوقع « الا رداً واحداً ، استطيع ان انقله الى المجلس غداً .... واني لواثق من ان المجلس سيصدق انني اتحدث اليه بمنتهى الصدق وحسن النية .... »
وكتب نامير فيما بعد يقول : ان الاعلان عن اكثر القرارات صلابة في مواجهة اعظم ما تعرضت له بريطانيا في تاريخها من محنة قد تم « بطريقة عرجاء فذّة » .

وتظهر الأوراق السرية البريطانية ان تشمبرلين ادرك تمام الادراك عظم المتاعب التي تلفه مع شعبه ، وان حكومته تواجه خطر السقوط في هذه الفترة العصيبة من تاريخ البلاد.
وسارع الى الاتصال هاتفياً بديلاديه فور مغادرته قاعة المجلس . وتسجّل الوثائق ان هذا الاتصال تم في الساعة التاسعة والدقيقة الخمسين مساء . وقد دوّن كادوغان الذي كان يستمع الى المحادثة كلما دار المحفظ في السجلات الرسمية :
تشمبرلين ـ ان الوضع في غاية الخطورة هنـا .... ولقد شهد المجلس اليوم منظراً ساحقاً .... واذا كانت فرنسا تصر على مهلة ثمان واربعين ساعة تبدأ عند ظهر الغد ، فإني ارى استحالة تمكن الحكومة من السيطرة على الوضع هنا .
وقال رئيس الوزراء انه يدرك تمام الادراك ان فرنسا هي التي يتوجب عليها ان تحتمل اعباء الهجوم الالماني ولكنه مقتنع من وجوب اتخاذ

خطوة مهما كانت في هذا المساء .

واقترح حلاً وسطاً ... وهـو تقديم الانذار النهائي في الساعة الثامنة من صباح الغد ، على ان تنتهي مدته عند الظهر ..

« ورد ديلادييه بأنه ما لم تكن القاذفات البريطانية على استعداد للعمل فوراً فإن الافضل لفرنسا ان تؤجل إذا امكن الهجوم على الجيوش الألمانية بضع ساعات . »

ولم تكد تمضي ساعة واحدة على هذه المحادثة ، حتى كان هاليفاكس يتحدث هاتفياً الى بونيه في العاشرة والنصف . وقـــد حث الفرنسيين على تقبل الحل البريطاني الوسط ، وهو ان يوجه الانذار النهائي الى برلين في الساعة الثامنة من صباح الثالث من ايلول، وان تنتهي مدته عند الظهر. ولم يكتف وزير خارجية فرنسا باظهار عدم موافقته على ذلـك بل راح يحتج إلى هاليفاكس بأن اصرار بريطانيا على استعجال الامور يخلـق « انطباعات غير مستحبة » . وطلب ان تنتظر لندن حتى ظهر غدٍ على الاقل ، قبل ان تقدم انذارها إلى هتلر .

ورد هاليفاكس قائلاً : يستحيل على حكومـة جلالته ان تنتظر حتى تلك الساعة ... واني لأشك في ان الحكومة البريطانية تستطيع السيطرة على الموقف هنا .

وكان من المقرر ان يجتمع مجلس العموم البريطاني يوم الاحد في الثالث من ايلول ، وكان من الواضح لتشمبرلين وهاليفاكس من الحالة التي سادت المجلس عشية يوم السبت ، ان بقاء الحكومـة متوقف على تمكنها من ان تقدم للبرلمان الرد الذي يطلبه في ذلك الموعد . وبعث السفير الفرنسي في لندن ، المسيو كوربان ، إلى رئيسه بونيه في الساعة الثانية صباحاً يقول ان حكومة تشمبرلين مهددة بالسقوط إذا لم تتمكن من تقديم ردٍ محدودإلى البرلمان . وابلغ هاليفاكس في نهاية محادثاته مع بونيه ، زميله الفرنسي بأن بريطانيا قد تجد نفسها « مضطرة إلى العمل بمفردها . »

ووصلت برقية هاليفاكس إلى هندرسون في برلين في الساعة الرابعة صباحاً.[1] وكان عليه ان يسلم التبليغ إلى الحكومة الألمانية في التاسعة من صباح الاحد في الثالث من ايلول الذي يذكر الحكومة الألمانية بمذكرة الأول من ايلول البريطانية . وهي التي اعلنت عزم الحكومة البريطانية على الوفاء بالتزاماتها إلى بولندة إذا لم تنسحب القوات الألمانية فوراً . ومضى التبليغ بعد ذلك يقول :

« وعلى الرغم من ان هذا التبليغ قد سلم إلى الحكومة الالمانية قبل اكثر من اربع وعشرين ساعة إلا ان الحكومة البريطانية لم تتلق رداً عليه حتى الآن ، بينما يواصل الألمان هجومهم على بولندة ويوسّعونه . ولهذا فلي الشرف ان ابلغكم انه ما لم تقدم الحكومة الألمانية قبل الساعة الحادية عشرة من وقت لندن الصيفي ، من صباح اليوم الثالث من ايلول تأكيدات مقنعة بهذا الصدد ، وما لم تتسلم حكومة جلالته في لندن هذه التأكيدات في الموعد المعين ، فإنها ستعتبر ان حالة حرب قد قامت بين البلدين اعتباراً من تلك الساعة »[2]

---

١ - كان وزير الخارجية قد بعث الى هندرسون برقيتي تحذير في الليل . اما الاولى وقد ابرقت في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخمسين قبل منتصف الليل ، فقد نصت على ما يلي :

« قد اجد نفسي مضطراً الى ان ابعث اليك الليلة بتعليمات لنقل تبليغ فوري إلى الحكومة الألمانية . ارجو ان تكون متأهباً للعمل . ارى من الافضل لو نبهت وزير الخارجية إلى انك قد تطلب مقابلته في اية لحظة . »

وقد يبدو من هذه البرقية انالحكومة البريطانية لم تكن قد حزمت امرها بعد على المضي في خطتها رغماً عن فرنسا ، ولكن لم تمض خمس وثلاثون دقيقة اي في الثانية عشرة والدقيقة الخامسة والعشرين بعد منتصف الليل ، حتى كان هاليفاكس يبرق الى هندرسون قائلاً :

« عليك ان تطلب مقابلة وزير خارجية المانيا في الساعة التاسعة من صباح الاحد . التعليمات لاحقة » (وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٧) ارقام ٧٤٦و٥٢٨و٥٣٣)

وقد بعث هاليفاكس ببرقيته النهائية الحاسمة في الساعة الخامسة صباحاً . اما هندرسون فيقول في تقريره الاخير انه تسلمها في الرابعة صباحاً .

٢ - بعث هاليفاكس ببرقية اضافية في الساعة الخامسة صباحاً ايضاً ، ابلغ سفيره فيها ان=

ووجد هندرسون في تلك الساعة المبكرة التي سبقت فجر يوم الاحد ، ان من الصعب عليه ان يتصل بالويلهلمشتراسه . وقيل له ان ريبنتروب لن يكون « موجوداً » في الساعة التاسعة من صباح الاحد ، ولكن في وسعه إذا اراد ، ان يترك تبليغه مع الدكتور شميدت المترجم الرسمي .

وغرق الدكتور شميدت في سباته في هذا اليوم التاريخي، ولذا فقد هرع في سيارة اجرة الى وزارة الخارجية ، وعندما وصلها ، رأى السفير البريطاني يصعد قبله الدرج إلى الوزارة ، وتمكن الدكتور شميدت من التسلل عبر باب جانبي إلى مكتب ريبنتروب فدخله عندما كانت الساعة تقرع التاسعة تماماً ، أي في الموعد المعين لاستقبال السفير البريطاني. ودوّن شميدت فيما بعد يصف المقابلة : « دخل السفير وقد بدت عليه علائم الجد ، فصافحته ، ولكنه رفض دعوتي إياه للجلوس ، وظل واقفاً بشكل صارم في وسط الغرفة » . [1] ثم قرأ الانذار البريطاني وسلم إلى شميدت نسخته ، وودعه خارجاً من الغرفة .

وهرع الترجمان الرسمي يحمل الوثيقة إلى دار المستشارية . ووجد خارج مكتب الفوهرر معظم اعضاء الوزارة ولفيفاً من كبار رجال الحزب وقد اجتمعوا ينتظرون « بفارغ الصبر » ما يحمله من انباء . وكتب شميدت فيما بعد متذكراً ما وقع :

« وعندما دخلت إلى الغرفة المجاورة ، كان هتلر يجلس إلى مكتبه وقد وقف ريبنتروب على مقربة من النافذة . وكانت علائم اللهفة بادية في عيني الرجلين عندما دخلت . ووقفت على بعد

= كولوندر « لن يقدم تبليغاً مماثلا الى الحكومة الالمانية إلا عند ظهر الاحد » واضاف انه لا يعرف موعد انتهاء الانذار الفرنسي ، وان كان يظن على الغالب بأنه سيكون بين الساعة السادسة والتاسعة مساء ، (نص التبليغ في الكتاب البريطاني الازرق ص ١٧٥ وفي وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٥٢٩ . ونص البرقية الاضافية في وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٧) رقم ٧٥٨ ص ٥٣٥ .

١ - شميدت - ترجمان هتلر ص ١٥٧ . وشهادته في نورمبرغ (محاكمات كبار مجرمي الحرب (١٠) ص ٢٠٠ .

خطوات من مكتب هتلر وشرعت اترجم ببطء نص الانذار البريطاني . وعندما انتهيت من تلاوة الترجمة خيم على الغرفة صمت مطبق .

« وجلس هتلر ساكناً وهو يحملق في الفضاء وامامه ... وبعد فترة خلتها قرناً ، التفت إلى ريبنتروب ، الذي ظل واقفاً إلى جوار النافذة ، وقال هتلر وفي عينيه نظرة متوحشة ، قد يفهم المرء منها ان وزير خارجيته قد ضلله بصدد رد فعل انكلترا المحتمل : « والآن ... ماذا سيحدث ؟ »

« فرد ريبنتروب بهدوء : « اعتقد ان الفرنسيين سيقدمون انذاراً مماثلاً في غضون ساعة . » [1] .

وانسحب شميدت بعد ان ادي واجبه ، متوقفاً في الغرفة الخارجية ليطلع الآخرين على ما وقع . وخيّم عليهم الصمت ايضاً فجأة :

« التفت اليّ غورنغ وقال : « اذا خسرنا هذه الحرب ، فليرحمنا الله » .

ووقف غوبلز في زاوية من الغرفة وحيداً وقد اطرق برأسه ، وغاص في افكاره . « وحيثما تطلعت في الغرفة رأيت نظرات تنطوي على القلق العميق [2] . »

* * *

وكان داهليروس الفريد من نوعه ، يقوم في غضون ذلك بآخر محاولاته الهاوية لتجنب القدر المحتوم . وقد ابلغه فوربس في الساعة الثامنة صباحاً بالانذار البريطاني الذي سيجري تسليمه بعد ساعة واحدة . فهرع الى مقر قيادة السلاح الجوي الألماني لمقابلة غورنغ ، وراح يناشده ، كما روى فيما بعد في شهادته في نورمبرغ ، بأن يكون الرد الألماني على الانذار « معقولاً » . واقترح ايضاً

---

١ - شميدت - ترجمان هتلر ص ١٥٧ - ١٥٨ . محاكمات كبار مجرمي الحرب (١٠) ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

٢ - شميدت - ترجمان هتلر ص ١٥٨ .

ان يعلن المشير نفسه قبل الساعة الحادية عشرة استعداده للطيران الى لندن « للتفاوض » . ويزعم رجل الأعمال السويدي في كتابه ان غورنغ قبل الاقتراح وهتف الى هتلر فوافق هذا ايضاً عليه . ولكن لم يرد أي ذكر لهذا الادعاء في الوثائق الألمانية ، كما ان الدكتور شميدت قد اوضح بأن غورنغ لم يكن بعد التاسعة بدقائق في مقر قيادته وانما في دار المستشارية وفي الغرفة الخارجية لمكتب الفوهرر .

ولكن ليس ثمة من شك في ان الوسيط السويدي قد هتف مرتين الى وزارة الخارجية البريطانية . فقد اخذ الرجل على عاتقه في حديثه الهاتفي الأول الذي جرى في الساعة العاشرة والربع صباحاً ، ابلاغ الحكومة البريطانية بأن الرد الألماني على انذارها « في الطريق » الآن ، وان الألمان ما فتئوا « راغبين اشد الرغبة في ارضاء الحكومة البريطانية وتقديم تأكيدات مقنعة بأنهم لن يعتدوا على استقلال بولندة ». واعرب عن امله في ان تنظر لندن الى رد هتلر نظرة ودية وان تدرسه على هذا الصعيد [1].

وبعد نصف ساعة ، أي في العاشرة والدقيقة الخمسين ، ولم تزل هناك عشر دقائق على انقضاء المهلة التي ضربها الانذار ، كان داهليروس يتحدث مرة ثانية إلى وزارة الخارجية في لندن لينقل اليها اقتراحه بأن يطير غورنغ بموافقة هتلر فوراً إلى العاصمة البريطانية . ويبدو انه لم يكن يدرك ان الوقت قد فات على هذه الاساليب الدبلوماتية البالية ، ولكن سرعان ما تباج له هذا الادراك ، فقد تلقى رداً حازماً من هاليفاكس يعتذر فيـــه عن قبول اقتراحه واضاف الوزير ان الحكومة البريطانية وجهت سؤالاً محدوداً إلى الحكومة الألمانية وانه يفترض في الاخيرة ان تبعث برد محدود ايضاً . وقال ان حكومة جلالته لا تستطيع الانتظار لإجراء محادثات جديدة مع غورنغ [1] .

وهنا توقف داهليروس عن محاولاته واختفى منسياً في زوايا التاريخ إلى ان

---

١ – وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٧) رقم ٧٦٢ ص٥٣٧ .

٢ ـ وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٧) رقم ٧٦٢ ص٥٣٧ .

عاد للظهور ولفترة قصيرة في نورمبرغ بعد انتهاء الحرب وفي كتابه ليروي قصة محاولاته الخيالية الغريبة لانقاذ السلام العالمي . [1] ولا ريب في انه كان حسن النوايا ، وانه قد جاهد كثيراً من اجل السلام . وقد وجد نفسه لفترة قصيرة في وسط المسرح الباهر للانظار ، حيث تمثل مسرحية التاريخ العالمي . ولكن كما حدث للكثيرين غيره ، كان اضطراب الاحداث كبيراً إلى الحد الذي لم يتمكن فيه من الرؤية بوضوح ، يضاف إلى هذا انه - على حد اعترافه في نورمبرغ فيما بعد - لم يدرك قط من قبل ، المدى الذي تمكن فيه الالمان من تضليله .

وراح ريبنتروب الذي رفض ان يستقبل السفير البريطاني قبل ساعتين ، يستدعيه بعد الساعة الحادية عشرة ، وهي نهاية الأمد المضروب للإنذارالبريطاني ليسلمه رد المانيا . وقالت الحكومة الألمانيةفي ردها ، انها ترفض « ان تتسلم أو تقبل بله ان تنفذ » الانذار البريطاني . وتبع ذلك بيان دعائي طويل ومهلهل ، كان واضحاً انه قد اعد بصورة عاجلة بالتعاون بين هتلر وريبنتروب في غضون الساعتين الماضيتين . وقد هدف هذا البيان إلى تضليل الشعب الالماني الساذج ، ولذا عاد يؤكد جميع الاكاذيب التي بتنا نعرفها ، ومن بينها اكذوبة الهجوم البولندي على الاراضي الالمانية ، وايقاع اللوم على بريطانيا بالنسبة الى كل ماحدث ورفض البيان المحاولات « لارغام المانيا على استدعاء قواتها التي تتخذ مراكزها الآن دفاعاً عن الرايخ » . واعلن كاذباً ان المانيا قبلت اقتراحات موسوليني السلمية التي سبقت الحرب ، وان بريطانيا هي التي رفضتها . وانكر اخيراً جميع محاولات الترضية التي قام بها تشمبرلين في الماضي نحو هتلر ، متهماً الحكومة البريطانية « بالدعوة الى تدمير الشعب الألماني وابادته » [2] .

---

١ - عاد إلى الظهور في الرابع والعشرين من ايلول، عندما اجتمع إلى فوربس في اوسلو، ليتأكد ، كما قال لمحكمة نورمبرغ فيما بعد، قبل أن يعتزل ، «ما إذا لم يكن هناك اي احتمال في تجنب الحرب العالمية » (محاكمات كبار مجرمي الحرب (٩) ص ٤٧٣) .

٢ - كانت هذه المذكرة التي اعدت على عجل من النوع الزائف إلى الحد الذي انتهت فيه =

وقرأ هندرسون الوثيقة التي وصفها فيما بعد « بالتشويه الكاذب للاحداث » وقال معلقـــاً : « لنترك الى التاريخ الحـكم على من تقع عليه المسؤولية الحقة » ورد ريبنتروب على الفور ، بأن « التاريـخ قد اصدر حكمه سلفاً » .

* * *

وكنت اقف في شارع الويلهلمشتراسه ، أمام دار المستشارية وقت الظهيرة ، عندما انطلقت مكبرات الصوت فجأة تعلن أن بريطانيا العظمى قد أعلنت الحرب على المانيا.[1] وكان هناك نحو من مائتين وخمسين شخصاً يقفون متعرضين لأشعة الشمس ، وقد اصغوا بجميع حواسهم الى الاعلان المذكور. وعندما انتهى المذيع من تلاوته لم تكن تسمع نأمة أو مجرد كلمة واحدة ، فقد وقف الجميـع صامتين جامدين . وكان من الصعب عليهم ان يفهموا ان هتلر قـــد ساقهم الى حرب عالمية .

ولكن لم يمض إلا وقت قصير ، وعلى الرغم من عطلة الأحد، حتى كان الصبية من باعة الصحف ينادون على ملاحقها الاضافية . ولاحظت انهم يوزعونها توزيعاً دون ان يتقاضوا الثمن . وتناولت واحدة، وكانت « الدويتشه الغماينة زايتونغ » وكانت عناوينها الضخمة تحتل صدر صفحتها الأولى على النحو التالي :

رفض الانذار البريطاني

= بالعبارة التالية: «لقد اخذنا بعين الاعتبار عزم الحكومة البريطانية الذي نقله الينا المستر كينغ هول بأمر منها، على تدمير الشعب الألماني بصورة تفوق ما تعرض له من دمار في معاهدة فرساي. ولهذا فقد قررنا ان نرد على كل عمل عدائي تقوم به ضدنا بنفس الاسلحة وعـــين الصورة ». وبالطبـع لم تكن الحكومة البريطانية قد نقلت الى المانيا اية نوايا عن طريق ستيفين كينغ هول، الضابط البحري المتقاعد ، الذي كانت رسائله الاعلاميـــة مجرد عمل شخصي بحت. وكان هندرسون قد احتج فعلاً لدى وزارة الخارجية على توزيـع مطبوعات كينـــغ ـ هول في المانيا فطلبت الحكومة البريطانية الى المذكور ان يمتنع عن هذا التوزيـع .

١ — سلم هاليفاكس القائم بالاعمال الالماني في الساعة الحادية عشرة والربـع صباحاً مذكرة رسمية تقول انه لما كانت الحكومة البريطانية لم تتلق التأكيدات الإلمانيه قبيل الحادية عشرة « فإن لي الشرف ان ابلغك بأن حالة حرب تقوم بين البلادين اعتباراً من الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم الثالث من ايلول » .

انكلترا تعلن حالة الحرب على المانيا
المذكرة البريطانية تطلب انسحاب قواتنا في الشرق
الفوهرر يغادر العاصمة اليوم الى الجبهة

وكان العنوان الذي يتصدّر الوصف الرسمي من النوع الذي يبدو وكأن ريبنتروب قد املاه ...

المذكرة الألمانية تقيم الدليل على جريمة انكلترا

لكن اقامة الدليل هذه لم تكن واضحة الا لشعب يسهل خداعه كالشعب الألماني . ومع ذلك لم تستثر هـــذه الاقوال اية مشاعر سيئة نحو البريطانيين طيلة اليوم. وعندما مررت بدار السفارة البريطانية التي كان هندرسون وموظفوه قد انتقلوا منها إلى فندق « ادلون » عند الزاوية كان هناك جندي وحيد يذرع الرصيف جيئة وذهاباً امامها ، وليس له من عمل الا السير على هذا النحو .

* * *

وصبر الفرنسيون مدة اطول . وظل بونيه يحـــاول التسويف حتى اللحظة الاخيرة ، متمسكاً بالامل في ان يتمكن موسوليني من عقد صفقة مع هتلر تمكن فرنسا من الخلاص من الورطة . وراح يرجو السفير البلجيكي أن يحمل الملك ليوبولد على استعمال نفوذه مع موسوليني للتأثير على هتلر . وظل طيـــلة يوم السبت الثاني من ايلول في جدال مع اعضاء وزارته ، عـــلى النحو الذي كان يحاور فيه البريطانيين ، مدعياً بأنه قد وعد شيانو بالانتظار حتى ظهر الثالث من ايلول ، ترقباً لوصول الرد الألماني على المذكرتين البريطانية والفرنسية بتاريخ الأول من ايلول ، وانه لا يستطيـع والحالة هذه ان ينكث بوعـــده . وبالفعل كان بونيه قد اعطى هذا التأكيد لشيانو هاتفياً ، ولكنه لم يعطه إلا في الساعة التاسعة من مساء الثاني من ايلول. ولكن اقتراح موسوليني كان في هذه اللحظة قد مات وانتهى ، وهو مـــا حاول شيانو ان يفهمه اياه . وكان البريطانيون في ذلك الوقت يلحفون عليه بتقديم انذار مشترك إلى برلين عند منتصف الليل .

وتوصلت الحكومة الفرنسية اخيراً إلى قرار قبل منتصف ليـــلة الثاني من ايلول . وابرق بونيه إلى كولوندر عند منتصف الليل تقريباً يبلغه فيه انه سينقل

اليه في الصباح نص « مذكرة جديدة » يتحتم عليه تقديمهـا عند الظهيرة الى الويلهلمشتراسه.[1]

واتصل به فعلاً في الساعة العاشرة والدقيقة العشرين من صباح الثالث من ايلول . أي قبل أربعين دقيقة من انتهـاء المهلة التي ضربها الانذار البريطاني ، وكان نص الانذار الفرنسي مماثلاً لانذار بريطانيا باستثناء مـا اعلنته فرنسا من انها ستعمد حالة تسلمها رداً سلبياً ، إلى الوفـاء بالتزاماتها إلى بولندة « وهي الالتزامات التي تعرفها الحكومة الألمانية» . وهكذا ظل بونيه حتى هذه اللحظة النهائية ممتنعاً عن اصدار اعلان رسمي بالحرب .

ويحدد النص الذي نشره الكتاب الفرنسي الاصفر للانذار الذي ارسل الى كولوندر مدة انتهاء الانذار في الساعـة الخامسة مساء . لكن هذه الساعة لم تكن الموعد الذي ضربته البرقية الاصلية . فقد ابلغ السفير البريطاني في باريس فيبس – هاليفاكس في الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والاربعين من الصباح ، يقول : « ابلغني بونيه ان الموعد الذي ضربه الانذار الفرنسي ينتهي في الساعة الخامسة من صباح الاثنين الرابع من ايلول » وكان هذا هو الموعد الذي حددته برقية بونيه فعلاً .

وعلى الرغم من ان هذا الاجراء مثّل تساهلاً حصل عليه دیلادییه صباح الاحد من هيئة اركان الحرب الفرنسية التي كانت تصر على مهلة ثمان واربعين ساعة بعد تسليم الانذار الى برلين عند الظهر ، إلا ان الموقـف الفرنسي اثار سخط الحكومة البريطانية الذي اعربت عنـه في رسالة بعثت بها الى باريس بعبارات واضحة كل الوضوح بعد ظهر ذلك اليوم . ووجه الرئيس دیلادییه نداء اخيراً الى العسكريين ، فاستدعى الفريق كولستون من هيئة اركان الحرب في الساعة الحادية عشرة والنصف صباحاً وحثّه على تقصير المهلة . ووافق الفريق برماً على

---

٢ – جدير بالقارىء ان يذكر ما قلناه قبل قليل من ان بونيه حتى بعد هذا الاجراء، قام ببذل محاولة في اللحظة الاخيرة لإبقاء فرنسا خارج الحرب باقتراحه الذي قدمه الى الايطاليين في الليل بأن يحملوا هتلر على القيام بانسحاب « رمزي » من بولندة .

تقديم موعده اثنتي عشرة ساعة ليصبح الموعد المضروب الخامسة مساء .

وهكذا بينما كان كولوندر على وشك مغادرة دار السفارة الفرنسية في برلين متجهاً الى الويلهلمشتراسه ، اتصل به بونيه هاتفياً ، واصـــدر اليه أمره بتعديل موعد ساعة الصفر . (١)

ولم يكن ريبنتروب حاضراً لمقابلة السفير الفرنسي عند الظهيرة . فلقد كان يشترك في حفلة صغـــيره في دار المستشارية ، اذ قدم اليكزاندر شكفارزيف السفير السوفياتي الجديد اوراق اعتماده الى الفوهرر الذي استقبله استقبالاً حاراً. ولا ريب في ان هذه المناسبة اضفت طابعاً غريباً على تلك الاحداث التاريخية التي جرت في عطلة الاسبوع في برلين . ولما كان كولوندر قد اصرّ على تنفيـــذ تعليماته بدقة ، وهي تقضي بزيارة الويلهلمشتراسه ظهراً ، فقد تولى وايز ساكر استقباله . وعندما استعلم السفيرمن وزير الدولة عما اذا كان مخولاً في ان يقدم الى الفرنسيين رداً « مرضياً » ، اجاب وايز ساكر بأنه ليس في وضع يمكنه من ان يقدم اليه « أي رد » .

وحدثت في هذه اللحظة المهيبة مهزلة دبلوماتية صغيرة . فعندما حـــاول كولوندر ان يعتبر رد وايز ساكر ، الجواب السلبي الألماني الذي كان يتوقعـــه تمام التوقع ، وان يسلم تبعاً لذلك انذار فرنسا الرسمي إلى وزير الدولة ، رفض هذا قبوله . واقترح ان يكون السفير « طيباً إلى الحـد الذي يحمله على التمهل بعض الوقت ليجتمع إلى وزير الخارجية شخصياً » . وتحمـــل كولوندر هذه الصدمة ، ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يصدم فيها ، فانتظر نحـــواً من نصف ساعة . وفي الساعة الثانية عشرة والنصف بعد الظهر طلب اليهالتوجه إلى دار المستشارية لمقابلة ريبنتروب فيها (٢) .

وعلى الرغم من ان وزير الخارجية النازي كان يعرف مـــا يحمله السفير في رسالته ، إلا انه لم يستطيع ترك الفرصة التي اتيحت له حتى ولو في هذه اللحظة

---

١ - يروي بونيه نفسه هذه القصة في الكتاب الفرنسي الاصفر ص ٣٦٥ .

٢ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٥٣٢ .

الاخيرة لمعاملة المبعوث الفرنسي معاملة تنطوي على الخديعة ، منسجماً مع ما ألفه من خداع ذوّنه التاريخ . فبعد ان ألمح إلى ان موسوليني في تقديمه اقتراحه السلمي في اللحظة الاخيرة ، قد اكد موافقة فرنسا على هـذا الاقتراح ، اعلن ريبنتروب ان « المانيا ابلغت الدوتشي يوم امس استعدادها لقبول اقتراحه ايضاً » . واضاف الوزير الألماني « ولكن الدوتشي عاد يخبرنا في ساعة متأخرة من النهار ان عناد بريطانيا كان السبب في انهيار اقتراحه . »

ولكن كولوندر كان قد استمع في الاشهر الاخيرة إلى الكثير من أكاذيب ريبنتروب ، وبعد ان ظل يصغي بعض الوقت إلى وزير خارجية النازي الذي راح يقول انه سيأسف أشد الأسف إذا حذت فرنسا حذو بريطانيا العظمى ، وان المانيا لا تفكر مطلقاً بالهجوم على فرنسا ، وجه السفير السؤال الذي جاء خصيصاً يطلب الرد عليه ، وهو هل تعني ملاحظات السفير ان رد الحكومة الألمانية على المذكرة الفرنسية بتاريخ الأول من ايلول هو رد سلبي ؟

وأجاب ريبنتروب قائلا : نعم .

وهنا سلم السفير إلى الوزير إنذار فرنسا مستهلاً إياه بملاحظة قال فيها « انه يود ان يؤكد للمرة الاخيرة مسؤولية حكومة الرايخ في الهجوم على بولندة دون اعـلان للحرب » ، وكذلك في رفض الطلب الانكليزي – الفرنسي بسحب القوات الالمانية .

وقال ريبنتروب : إذن ستكون فرنسا هي المعتدية .

فرد كولوندر : سيقرر التاريـخ من هو المعتدي .

ويبدو ان جميع المشتركين في ذلك الفصل الاخـير من المسرحية في يوم الاحد ذاك في برلين كانوا مصممين على الاستشهاد بحكم التاريخ .

وعلى الرغم من ان فرنسا كانت تعبىء في ذلك الحين جيشاً يتفوق تفوقـاً هائلا في الوقت الحاضر على ما تستطيع المانيا دفعه من قوات إلى الجبهة الغربية ، إلا ان بريطانيا العظمى التي كان جيشها لا يـكاد يذكر في ذلك الحين ، ظلت تحتل المـكانة الأولى كالعدو الرئيسي في عقل هتلر المحموم ، وكالخصم الذي يعتبره

مسؤولاً كل المسؤولية عن الورطة التي وجد نفسه فيها في الثالث من ايلوم عام ١٩٣٩ ، عندما بدأ هذا النهار يذوي ماضياً إلى ضباب التاريخ . وقد تمثل هذا الوضع في البيانين الضخمين اللذين وجهها بعد ظهر ذلك اليوم إلى الشعب الألماني وإلى الجيش في الغرب . وسرعان مـــا تفجر حقده وغضبه الهستيري عـــلى البريطانيين فقال في النداء الذي وجهه إلى الشعب الألماني :

« واصلت بريطانيا عدة قرون متابعة هدفها في الابقاء عـــلى شعوب اوروبا عاجزة امام السياسة البريطانية في التوسع العالمي... كما واصلت ادعـــاء الحق في الهجوم لاسباب اوهن من خيوط العنكبوت لتحطيم اية دولة اوروبية تبدو كمصدر خطر عليها في أية آونة ...

« ولقد كنا نشهد سياسة التطويق التي اتبعتها بريطانيا العظمى ضد المانيا منذ الايام التي سبقت الحرب ... وظل دعـــاة الحرب البريطانيون يضطهدون الشعب الألماني في ظل املاءات معاهدة فرساي ...

وقال في ندائه الى الجنود الالمان في الجبهة الغربية الذين كانوا يواجهون الجيش الفرنسي منذ عدة اسابيع :

« يا جنود الجيش الغربي ... لقـد واصلت بريطانيـا العظمى سياسة تطويق المانيا ... ولقد صممت الحكومـة البريطانيـة التي يوجهها دعاة الحرب الذين خبرناهم منذ الحرب الماضية ، على اسقاط القناع عن وجههـــا واعلان الحرب علينا بسبب اوهى من خيط العنكبوت ... »

وهكذا لم يتضمن النداءان أية اشارة إلى فرنسا .

* * *

وألقى تشمبرلين في الساعة الثانية عشرة والدقيقة السادسة ظهراً ، خطاباً في مجلس العموم ، أبلغه فيه ان بريطانيا باتت في حالة حرب مع المانيا . وعلى

الرغم من ان هتلر كان قد حظر منذ اليوم الأول من ايلول الاستماع إلى الاذاعات الاجنبية فارضاً عقوبة الموت على المخالفين ، إلا اننا تمكنا في برلين من التقاط الكلمات التي قالها رئيس الوزراء على النحو الذي أوردته دار الاذاعة البريطانية وبدت لنا ، نحن الذين شهدنا هذا الرجل يقامر في كل من غودسبرغ وميونيـــخ بحياته السياسية ليرضي هتلر ، بدت كلماته مرة وحادة كل الحدة إذ قال :

« انه ليوم مؤلم لنا جميعاً ، ولا ريب في انه اكثر مدعاة لألمي انا بصورة شخصية . فقد انهار كل ما عملت له ، بل كل ما آمنت به في حياتي العامة متحولاً الى حطـــام . ولم يبق أمامي إلا شيء واحد اعمله ، وهو ان اكرس كل ما لدي من قـــوة وعزيمة ، لتحقيق النصر للقضية التي يتحتم علينا ان نضحي الكثير من اجلها . .

واني لواثق من انني سأعيش حتى أرى ذلك اليوم الذي تتحطم فيه الهتلرية ، وتشاد فيه من جديد أوروبا المتحررة » .

ولكن قدر لتشمبرلين ان لا يعيش حتى ذلك اليوم . فقد مات رجلا محطماً وان ظل عضواً في الوزارة في التاسع من تشرين الثاني عام ١٩٤٠ . وبالنظر إلى كل ما اوردته عنه في هذه الصفحات أرى ان من المناسب كذلك ان انقل ما قاله عنه تشرشل ، الذي كان هو قد حرمه من العمـــل في الشؤون المتعلقة ببلاده امداً طويلا ، والذي خلفـه في رئاسة الوزارة في العاشر من ايار عام ١٩٤٠ . ففي الكلمة التأبينية التي ألقاها تشرشل في مجلس العموم في الثاني عشر من تشرين الثاني عام ١٩٤٠ قال :

« قدر لنيفيل تشمبرلين ان تناقضه الاحداث في ازمة من اشد الازمات التي مرّ بها العالم حراجة ، وان تنهار آماله ، وان يتولى رجل شرير خداعه وتضليله . ولكن ترى ما هي تلك الآمال التي انهارت؟ وما هي تلك الرغبات التي منيت بالفشل ؟ وما هو الايمان الذي تعرض للاساءة ؟ لقد كانت جميعهـــا من انبل الغرائز التي يستوعبها القلب البشري واكرمهـا . انها حب السلام ، والكدح

للسلام ، والنضال للسلام، والعمل الدائب للسلام ، حتى ولو تعرض حاملها لأعظم المخاطر ، مستهيناً كل الاستهانة ، بالشعبية الرخيصة والهتاف الجماهيري » .

ولما أدرك هتلر ان دبلوماتيته قد فشلت في الابقـــاء على بريطانيا وفرنسا خارج نطاق الحرب ، راح يلتفت بعد ظهر ذلك اليوم الثالث من ايلول للشؤون العسكرية . واصدر توجيهه الثاني السري للغاية، لإدارة دفة الحرب وتسييرها، وعلى الرغم من اعلان بريطانيا وفرنسا الحرب فقد قال : « يظل هدف المانيـا الحربي في الوقت الحاضر الوصول بالعمليات العسكرية ضد بولندة إلى نهاية سريعة وظافرة... وسنترك للعدو زمام المبادرة في شن العمليات العسكرية في الغرب... ولكننا سنسمح بالعمليات البحرية الهجومية ضد المانيا » . وعلى السلاح الجوي الألماني ان لا يهاجم حتى القوات البحرية البريطانيـــة إلا إذا شن البريطانيون هجمات مماثلة على الاهداف الألمانية، وفي تلك الحالة لا نقوم بأي هجوم « إلا إذا كانت احتمالات النجاح مضمونة بشكل واضح » وأمر هتلر بتحويل صناعـــة المانيا كلها إلى عمليات « الاقتصاد الحربي » [١] .

وغادر هتلر وريبنتروب ،كل منهما في قطار خاص ، برلين في الساعة التاسعة مساء متجهين إلى القيادة العامة في الشرق . ولكنهما قاما قبل سفرهما بحركتين دبلوماتيتين اخريين . فلقد غدت بريطانيا وفرنسا الآن في حالة حرب مع المانيا . ولكن ظلت هناك دولتان اوروبيتان كبيرتان كان تأييدهما لهتلر ، هو السبب في تمكينه من القيام بمغامرته ، وهما ايطاليا الحليفة التي تنكرت له في اللحظة الاخيرة ، وروسيا السوفياتية ، التي شعر بفضلهـــا رغم تشككه فيها ، لأنها جعلت مقامرته أمراً يستحق المجازفة .

وبعث هتلر قبل مغادرته العاصمة برسالة اخرى إلى موسوليني . وقد طيرها برقياً في الساعة الثامنة والدقيقة الخمسين مساء ، أي قبل تسع دقائق من تحرك قطار الفوهرر الخاص من المحطة . وعلى الرغم من ان هذه الرسالة لا تخلو كلية

---

١ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٥٤٨ - ٥٤٩ .

من الخديعة ولا تتسم بالصراحة المطلقة إلا انها تقدم لنا الصورة المثلى التي نستطيع الوصول اليها عن عقل ادولف هتلر ، وهو يغـــادر للمرة الأولى عاصمة الرايخ الثالث التي اخذت بنظام « التعتيم »، ليمثل دوره كالسيد الاعلى للحرب الالمانية. وقد عثر على صورة هذه الرسالة في الوثائق الالمانية المصادرة... قال هتلر :

« الدوتشي :

« أود ان اشكرك أولاً على المحاولة الاخيرة التي قمت بهـــا للتوسط . وكان في ودي ان اقبل باقتراحك غير مشترط إلا شرطاً واحداً ، وهو العثور عـلى سبيل يتيح لي الحصول على الضمانات الكافية بأن المؤتمر سيكون ناجحاً . فقد كانت القوات الألمانيـة تشترك منذ يومين في زحف سريع عبر بولـدة . وكان من المتعذر عليّ ان اسمح للدم الذي سفك هنـاك بأن تضيعـه الدسائس الدبلوماتية .

« ومع ذلك ، فأنا اعتقد انه كان في الامكان العثور على هذا السبيل ، لو أن انكلترا لم تكن مصممة منذ البداية على خوض الحرب في أية حالة من الاحوال . ولم ارضخ لتهديدات انكلترا لأني لا اعتقد يا دوتشي ان السلام كان سيستقر لـمدة تطول عن الستة اشهر أو السنة على اكثر تقدير . ورأيت في مثل هذه الظروف ان اللحظة الراهنة ، كانت على الرغم من أي شيء ، اكثر صلاحـاً للصمود من أي وقت آخر .

« وسينهار الجيش البولندي في وقت قريب جداً . واني لأشك كل الشك في انه كان بالامكان تحقيق مثل هذا النجاح السريع بعد عام أو عامين . فمن المؤكد ان انكلترا وفرنسا كانتـا ستمضيان حتماً في تسليح حلفائهما ، إلى الحد الذي لا يبيت فيه تفوق الجيش الألماني الحاسم تفوقاً تقنياً ،واضحا على النحو الذي يظهر فيه الآن. واني لأعرف يا دوتشي ان الصراع الذي أشتبك فيه الآن هو صراع

حياة أو موت ... ولكنني اعرف ايضاً بأن ليس في الامكان تجنب هذا الصراع في النهاية ، وانه كان لا بد من اختيار لحظة المقاومة بعد دراسة كاملة ، ليتحقق ضمان النجاح ، واني يا دوتشي لواثق من هذا النجاح بإيمان اقوى من الصخر » .

وراح بعد ذلك يتلو بعض عبارات الإنذار لموسوليني :

« لقد تفضلت فأكدت لي مؤخراً إيمانك بقدرتك على مساعدتي في بعض الميادين . واني لاشكرك مقدماً شكراً خالصاً على هـذا العرض الذي اقبله . ولكنني واثق ايضاً ، من اننـا حتى ولو سار كل منا في طريق منفصل ، فإن المصير سيربطنا إلى بعضنا البعض . إذ لو تمكنت الديموقراطيات الغربية من تحطيم الاشتراكية الوطنية فإن ايطاليا الفاشية ايضاً ستواجه مستقبلا قاسيا . ولقـــد كنت أعرف شخصياً منذ أمد بعيد ان مستقبل نظامينا مترابط ، وليس لديّ من شك يا دوتشي في انك تشاطرني هذا الرأي .

وبعد ان سرد على مسامع صديقه الانتصارات الأولية التي حققتها المانيا في بولندة انتهى من رسالته قائلاً :

« سأظل في موقف الدفاع في الجبهة الغربية . وفي وسع فرنسا ان تسفك دماء ابنائها هناك اولاً . ولكن اللحظة ستحين عندمـا نستطيع ان نثيرها حرباً ضروساً هناك بكل ما في بلادنا من قوة .

« أرجو ان تقبل مرة أخرى شكري الصميم ، يا دوتشي ، لكل ما قدمته إلي في الماضي من عون ، راجياً ان لا تضن به علي ايضاً في المستقبل » .

« ادولف هتلر » [1]

وظل هتلر على أي حال مسيطراً كل السيطرة على مشاعره وعلى ما أحس به من خيبة أمل لأن ايطاليا لم تف بالتزاماتها حتى بعد ان وفت بريطانيا وفرنسا

١ ـــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ٥٣٨ ـ ٥٣٩ .

بالتزاماتها بإعلان الحرب في هذا اليوم ، فبقـــاء ايطاليا صديقة له حتى ولو لم تشترك في الحرب قد يكون ذا نفع كبير له .

ولكن في وسع روسيا ان تقدم اكبر عونٍ له .

فمنذ اليوم الأول من بدء الهجوم الألماني على بولندة ، قدمت الحكومية السوفياتية ، كما ثبتت الأوراق السرية النازية فيما بعد ، خدمات « اشارة » للسلاح الجوي الالماني . وكان الفريق هانز جيشونيك رئيس هيئة اركان حرب الطيران الألماني قد اتصل منذ ساعات الصباح الباكر بسفارة المانيا في موسكو قائلاً لها انه يود لو ان محطة « الاذاعة » الروسية في منسك تواصل اعطاء الاشارات عن نفسها ليتمكن طياروه من الافادة من هذه المساعدة الملاحية في قصف بولندة أو في إجراء « التجارب الملاحية العاجلة » . وتمكن السفير فون دير شولنبرغ بعد ظهر اليوم نفسه من ابلاغ برلين بأن الحكومة السوفياتيـــة «على استعداد لتنفيذ هذه الرغبة » فقد وافق الروس على ادخال عنصر «التعريف بالمحطة » ضمن البرامج على اجهزة ارسالها وان تمتد فترة الارسال من محطة منسك ساعتين لتضمن بذلك مساعدة الطيارين الألمان في غاراتهم الليلية [1] .

ولكن هتلر وريبنتروب عند مغادرتهما برلين في ساعة متأخرة من بعد ظهر الثالث من ايلول ، كانا يفكران بمساعدة روسية عسكرية اكثر اهميـة لتحقيق خطتهما في احتلال بولندة . وبعث ريبنتروب في الساعة السادسة والدقيقة الخمسين مساء برسالة « عاجلة جداً » إلى سفارته في موسكو . وقد حملت الرسالة عبارة «سري للغاية» ووجهت إلى السفير وحده ، بوصفه رئيس البعثة او من يمثله شخصياً ، ثم ذكرت في استهلالها « يجب اتخاذ الاجراءات الكافية للحفاظ على سرية الرسالة . على السفير وحده ان يحل رموزها. سرية للغاية » .

وهكذا دعا الألمان في منتهى السرية الاتحاد السوفياتي إلى الاشتراك في الهجوم على بولندة ... وقد جاء في الرسالة :

« إننا نتوقع بكل تأكيد الانتصار على الجيش البولندي نصراً

---

١ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٤٨٠ .

حاسماً في غضون بضعة اسابيع . وفي مثل هذه الحالة سنحتفظ بالمنطقة المحددة في اجتماع موسكو كمنطقة نفوذ المانية خاضعة للاحتلال العسكري. ولكننا سنضطر بالطبع ، لاسباب عسكرية إلى مواصلة العمل العسكري ضد القوات البولندية الحربية الموجودة حالياً في الاراضي البولندية المخصصة كمناطق نفوذ لروسيا .

« أرجو ان تبحث في هذا الموضوع فوراً مع مولوتوف وان تتأكد ما إذا كان الاتحاد السوفياتي يرى من المرغوب فيه بالنسبة إلى القوات السوفياتية ان تتقدم في الوقت المناسب ضد القوات البولندية في منطقة النفوذ الروسية ، وان تتولى هي احتلال المنطقة ونحن نرى في هذه الخطوة لا مجرد عون لنا ، بل وتمشياً مع روح اتفاق موسكو ومع مصلحة السوفيات ايضاً » [1] .

أما ان يكون هذا العمل الذي ينطوي على الشر من جانب الاتحاد «السوفياتي» عوناً لهتلر وريبنتروب ، فهذا امر واضح لا يحتاج إلى دليل . ولن يقتصر أثر هذا العمل على تجنب سوء التفاهم والاحتكاك بين الألمان والروس في اقتسام الغنائم فحسب وانما يرفع شيئاً من عبء العدوان النازي وجريرته عن المانيا ليلقي به على اكتاف الاتحاد السوفياتي ، وإذا كان لا بد وان تقتسم الدولتان الغنم ، فليس ثمة ما يحول دون اقتسامهما الغرم واللوم ايضاً .

وكان الاميرال اريك ريدر القائد العام للاسطول الألماني هو اكثر الماني ، ذي مكانة ، تجهماً في برلين في ذلك اليوم الاحد ، عندما اتضح ساعة الظهيرة ان بريطانيا غدت في حالة حرب مع المانيا . فقد داهمته الحرب قبل الموعد المقرر لها بأربع سنوات أو خمس ، وكان يتوقع إكمال خطة (Z) لبناء الاسطول الألماني الجديد في عام ١٩٤٤ - ١٩٤٥ ، حين يصبح لألمانيا اسطول ضخم تستطيع ان تواجه به الاسطول البريطاني ولكن ألمانيا أصبحت في حالة حرب مع بريطانيا في الثالث من أيلول عام ١٩٣٩ ، وكان ريدر يعرف حتى ولو لم

---

١ - نص البرقية - وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٧) ص ٥٤٠ - ٥٤١ .

يستمع اليه هتلر ، انه لا يملك البوارج ولا حتى الغواصات التي تمكنه من شن حرب فعالة على بريطانيا العظمى .

وراح الاميرال يسر بهمومه إلى يومياته فكتب يقول :

« لقد نشبت الحرب اليوم مع فرنسا وانكلترا ، على الرغم من وعود الفوهرر السابقة لنا ، بأن لا نتوقع نشوبها قبل عام ١٩٤٤ ، وقد اعتقد الفوهرر حتى اللحظة الاخيرة ان بأمكانه تجنبها ، حتى ولو عنى ذلك تأجيل التسوية النهائية للمشكلة البولندية ...

« ومن الواضح بالنسبة إلى الاسطول، انه غير مجهز تجهيزاً كافياً لخوض الصراع الكبير مع بريطانيا العظمى ... ومـــا زال سلاح الغواصات اضعف بكثير من ان يكون له أي تأثـــير حاسم على الحرب. أما البوارج الحربية فهي اقل شأناً في عددها وفي قوتها من بوارج الاسطول البريطاني ، ولن يكون في وسعهـا ، حتى ولو اظهرت كل ما لديها من قوة ، ان تصمد لوحدات الاسطول البريطاني إلا إذا ارادت ان تقيم الدليل عـلى انها تحسن صناعـة الموت والاستشهاد . »

ومع ذلك فقد وجه الاسطول الألماني ضربته الأولى في الساعة التاسعة من مساء الثالث من ايلول عام ١٩٣٩ عندما كان هتلر يغادر محطة برلين . فلقـد قامت الغواصة الألمانية (يو — ٣٠) بنسف الباخرة البريطانية اثينيا دون إنذار على بعد مائتي ميل إلى الغرب من جزر الهيبريديز ، وهي في طريقها من ليفربول إلى مونتريال حاملة ١٤٠٠ راكب فقد منهم (١١٢) ارواحهم وبينهم ثمانيـة وعشرون امريكياً .

وهكذا بدأت الحرب العالمية الثانية

فهرست القسم الثاني

